تمهيد



رسائل انثروبولوجية

الذين يتابعون عن كثب حركة الثقافة والنشر في الخارج لابد أن يكونوا قد لاحظوا مدى الاهتمام في السنوات الأخيرة بنشر الرسائل الخاصة بعدد من كبار رجال الفكر والادب والسياسة والفن والحرب في القرنين الماضيين ، مع اعطاء مزيد من العناية بنشر رسائل الكتاب الذين توفوا حديثا من أمثال فورستر E.M.Forester وإيفلين و Evelyn Waugh في بريطانيا وسارتر Jean — Paul Sartre في فرنسا . وهكذا يجد القراء الذين يحفلون بهذا النوع من الكتابة ـ وهم كثيرون جدا في الخارج ـ أنفسهم أمام ذخيرة هائلة ومتنوعة من الرسائل التي تتباين في أهميتها وقيمتها الادبية والفكرية والفنية كما تتفاوت في مدى عمقها ودلالتها تفاوتا كبيرا يعكس في الاغلب اختلاف المكانة التي كان يحتلها أصحابها في المجتمع والدور الذي لعبه كل منهم في الحياة الثقافية مع استثناءات قليلة . فبعض هذه « الكتب » يضم رسائل كتبها أناس لم يشغلوا مكانة ثقافية ملحوظة ، ولم يحظوا بكثير من الشهرة أثناء حياتهم ، ثم كشفت رسائلهم بعد نشرها عن ملكات إبداعية هائلة أو عن قدرات ضخمة على ملاحظة ما يدور حولهم من أحداث ، وتحليل هذه الأحداث والكتابة عنها لأقاربهم وأصدقائهم في أسلوب يجمع بين السهولة واليسر و (التلقائية) والدقة والعمق ، مما ساعد على أن تحتل هذه (الرسائل) مكانة مرموقة بين الكتب الخاصة بأدب المراسلات ، وأن يُعتبر أصحابها بالتالي من الكتّاب ذوي الشأن الذين يمثلون علامات واضحة وبارزة في الحياة الثقافية بوجه عام .

ولقد كانت كتابة الرسائل تؤلف دائما جزءا هاما في آداب الشعوب المختلفة مع بعض الفوارق في مدى العناية والاهتمام بنشرها وإتاحتها للقراء والدارسين والباحثين . وإذا كان الناس في الغرب يهتمون بنشر تلك الرسائل الخاصةويعتبرونها ضمن الأعمال الأدبية

والفكرية الخليقة بالعناية والدراسة ، فالظاهر أن هناك كثيرا من المحاذير والاعتبارات التي تمنع من نشر هذه الرسائل الخاصة في العالم العربي ، أو على الأقل تخضع عملية النشر لكثير من القيود بحيث يصبح من الصعب اعتبار المراسلات جزءا أساسيا في الأدب العربي الحديث . ومع ذلك فقد كانت الرسائل تؤلف جانبا هاما من الأدب العربي في عصور سابقة . ويكفي أن نقرأ ما جاء عن أدب المراسلات في أحد الكتب المدرسية التي كانت تدرّس في المدارس الثانوية في مصر في الأربعينيات لندرك المكانة التي كانت تحتلها المراسلات في حياة الفكر والثقافة في تلك العصور السابقة . وأنا أعني بذلك كتاب (التوجيه الأدبي) الذي اشترك في تأليفه لتلاميذ المدارس ـ وليس للقارىء المثقف العام ، وهذه مسألة لها دلالتها العميقة فيما يتعلق بنوع الكتب التي كان يدرسها الطلاب في ذلك الحين ـ عدد من كبار الأدباء والمفكرين في مصر هم طه حسين وأحمد أمين وعبدالوهاب عزام ومحمد عوض محمد . يقول الكتاب :

« الرسائل قسمان : الرسائل العامة أو الرسائل الرسمية ، والرسائل الخاصة أو الاخوانيات .

أ ـ فأما الرسائل العامة فقد عرفت منذ العهد النبوي . كتب الرسول صلوات الله وسلامه عليه الى الملوك والأمراء يدعوهم الى الاسلام ، وكتب الخلفاء من بعده إلى عمالهم وقوادهم وصارت منذ العصر الأموي فنّا اختص به جماعة فرغوا له . ثم توالى الكتاب على مر الزمان وصارت الرسائل لسان الدولة في جلائل الأمور ، بها تكتب عهود الخلفاء وأولياء العهد ، وبها يخاطب الجمهور في الدعوة الى الطاعة والتحذير من المخالفة ، وبها تسجل مآثر الملوك من فتح وتعمير وغيرهما . وقد وضعت لها قوانين تبين طرائق الخطاب فيها وتحدد فواتحها وخواتمها . وبين أيدينا اليوم كتب تبين قوانين الرسائل وما بلغت من الاحكام والاسهاب والتحديد ، وتتضمن نماذج منها في كل العصور الاسلامية . وحسبنا أن نذكر منها صبح الأعشى :

وهذه الرسائل صورة لأحوال الدول المختلفة ولا سيما أحوالها السياسية

قال ابن الأثير وهو من كبار كتاب الدولة في كلام له عن المقامات والرسائل :

« وأما المكاتبات فانها بحر لا ساحل له ، لأن المعاني تتجدد فيها بتجدد حوادث الايام ، وهي متجددة على عدد الانفاس . ألا ترى أنه اذا كتب الكاتب المفلق عن دولة من الدول الواسعة التي يكون لسلطانها سيف مشهور وسعي مذكور ومكث على ذلك برهة يسيرة لا تبلغ عشر سنين فانه يدوّن عنه من المكاتبات ما يزيد على عشرة أجزاء ، كل جزء منها أكبر من مقامات الحريري حجما ، لأنه اذا كتب في كل يوم كتابا واحدا اجتمع من كتبه أكثر من هذه العدة المشار اليها ، واذا نخلت وغربلت واختير الأجود منها ـ اذ تكون كلها جيدة ـ فيخلص منها النصف ، وهو خمسة أجزاء . والله يعلم ما اشتملت عليه من الغرائب والعجائب وما حصل في ضمنها من المعاني المبتدعة » .

« وقد اشتهر من كتاب الدواوين أو كتاب الدولة جماعة من أئمة الكتّاب ، كان لهم في اللغة والادب فضل ظاهر ، منهم عبدالحميد الكاتب والحسن بن سهل وأبو اسحق الصابي وابن العميد والصاحب بن عباد والقاضي الفاضل والعماد الاصفهاني وضياء الدين بن الاثير .

ب ـ وأما الاخوانيات أو الرسائل غير الرسمية التي يكتبها الكاتب الى صديق أو نحوه ، فهي أوسع مجالا وأعظم قدرا وأقرب الى الابانة عن فكرة الكاتب وعاطفته . وهي تصور كثيرا من آراء الناس ومنازعهم وعاداتهم وأخلاقهم

وأحوال الأمة التي يعيشون فيها . ومن هذه الضرب رسائل الجاحظ والخوارزمي وبديع الزمان وقابوس بن وشمكير والمعري وابن زيدون وغيرهم الى العصر الحديث »[1].

واذا كانت هذه الرسائل التي يزخر بها الادب العربي في عصوره السابقة متاحة للقراء والباحثين فان هذا لا يصدق ـ على الأقل بنفس الدرجة ـ على رسائل ومراسلات الكتاب والمفكرين المحدثين مما يجعل من الصعب على الباحث تتبع هذه الرسائل أو تقدير مكانة المراسلات في الأدب العربي الحديث بوجه عام . واذا كانت هناك رسائل متبادلة بين هؤلاء الكتاب والادباء والفنانين والمفكرين المعاصرين وأصدقائهم وأحبائهم فانها في الأغلب لا تتضمن كثيرا من خفايا الحياة الشخصية لكاتبيها أو دقائق وتفاصيل العلاقات الحميمة التي تربط بين هؤلاء الكتاب والأشخاص اللذين يرتبطون بهم واللذين أرسلت اليهم هذه الرسائل ، وبخاصة اذا كانت هذه العلاقات الحميمة مع أشخاص من الجنس الآخر وذات طابع عاطفي خاص . فمثل هذه الرسائل ، إذا وجدت ، فإنها تعتبر سرا من الأسرار الخاصة التي لا يتاح للآخرين الاطلاع عليها والتي تقف كل الحوائل والعقبات والاعتبارات دون نشرها . ولا يقتصر مثل هذا الحظر على المراسلات العاطفية الخاصة بل إنه يمتد الى الرسائل التي قد تضم بعض الأسرار السياسية والتي قد تلقي كثيرا من الأضواء على بعض الأوضاع والأحداث التي يصعب فهمها بغير الاطلاع على ما قد تحتويه تلك الرسائل . وهذه كلها أمور لا تكاد تجد لها مثيلا في الآداب الغربية حيث تنشر الرسائل في الأغلب برمتها وبكل ما فيها من أسرار دون حذف أو تغيير ودون أية محاولة لطمس الحقائق ، حتى وإن كانت هذه الحقائق تتعلق بالحياة الشخصية الخاصة جدا بما في ذلك العلاقات العاطفية والجنسية . وهذه أمور تكشف عن درجة عالية من الجرأة أو الشجاعة العقلية من ناحية كما تكشف عن مدى الاحترام والتقدير اللذين ينظر الناس بهما الى تلك الأعمال واعتبارها جزءا من التراث الثقافي والفكري الذي يجب أن يعامل معاملة الوثائق وأن ينظر اليه نظرة موضوعية لا تهتم كثيرا بالتصرفات الشخصية أو الحياة الخاصة لاصحاب هذه الرسائل . وقد يكون في هذا كله ما يتعارض مع القيم ومبادىء الأخلاق التي تسود في مجتمعاتنا والتي تفرض القيود على نشر مثل هذه الكتابات .

ويكفي أن نشير هنا الى بعض هذه الرسائل التي نشرت في الشهور الأخيرة في الخارج لندرك نظرة الناس الى مثل هذه الأعمال وعدم تحرجهم من نشر المكاتبات التي تضم أدق الأسرار وأكثرها خصوصية . والمثال الأول هو الرسائل التي أرسلها الكاتب الروائي الانجليزي فورستر من مصر الى بعض أهله وأصدقائه وبالذات الى إحدى صديقاته عن حياته في مصر اثناء الحرب العالمية الأولى وعلاقاته مع بعض الاشخاص ، والأزمات النفسية التي كان يمر بها اثناء تلك الفترة ، وبالذات العلاقة الجنسية الشاذة التي ارتبط بها مع « سائق ترام » مصري وتقويمه لهذه العلاقة . وقد ساعدت هذه الرسائل على الوصول الى فهم أعمق لأدب فورستر وكتاباته والدوافع التي تكمن وراء هذه الأعمال الادبية الرائعة التي تركها لنا[2]. والمثال الثاني ولعله أكثر دلالة وأهمية من رسائل فورستر هو مجموعة الرسائل التي أرسلها الكاتب الفيلسوف الفرنسي جان بول سارتر في الفترة من ١٩٤٠ الى ١٩٦٣ الى صديقة عمره سيمون دوبوفوار مع بعض رسائل أخرى قليلة الى أناس آخرين والتي أشرفت الكاتبة الفرنسية بنفسها على نشرها اخيرا تحت عنوان « رسائل الى كاستور Lettres au Castor »[3]. وكاستور أو القُندس هو الاسم الذي أشتهرت به سيمون دو بوفوار بين أصدقائها

---

(١) طه حسين ، احمد امين ، عبدالوهاب عزام ، محمد عوض محمد : « التوجيه الأدبي » القاهرة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٠ ، صفحات ٢١ ـ ٢٣ .

(٢) **Selected Letters of E.M Forster**: vol. I, 1879 — 1920, Edited by Mary Lago and P.N.Furbank, Collins London 1983

(٣) **Jean — Paul Sartre, Lettres au Castor et a quelques autres,** edition etablie, presente et annotee par Simone de Beauvior, N.R.F., Gallimard Paris 1983

ومعارفها . وتؤكد دو بوفوار أن سارتر هو الذي كان قد أشار عليها بان تنشر بعد وفاته هذه الرسائل حتى تكون شاهدا وسجلا عن حياته ، كما تذكر أنها من باب احترام الأحياء من الاشخاص الذين وردت أسماؤهم في تلك الرسائل والمحافظة عليهم فانها اكتفت بتغيير (ألقابهم) فحسب ، وتؤكد أنها فيما عدا ذلك لم تغير حرفا واحدا فيما يتعلق بعلاقتها بسارتر ، وأن الرسائل بأكملها سوف تهدي للمكتبة الوطنية Bibliothèque nationale في باريس حتى تكون في متناول القراء والباحثين والدارسين . والطريف أن القارىء لهذه الرسائل لن يلبث أن يتشكك ويتساءل عن نوع العلاقة التي كانت تربط سارتر بسيمون دوبوفوار واذا ماكان حب الكاتب الفيلسوف لها هو الحب العاطفي العادي المألوف الذي يمكن أن يقوم بين الرجل والمرأة ، أو أنه نوع الحب الذي يربط الرجل بامرأة تكون صورة للأم وبديلا لها . بل إن كثيرا من القصص والحكايات التي يسردها في رسائله لها عن علاقاته مع نساء أخريات غيرها قد تثير التساؤل حول مدى صدق هذا الحب والى أي حد كان سارتر أمينا معها ومع نفسه وصادقا في تلك القصص والحكايات . وقد نشرت دوبوفوار تلك الرسائل بغير تعليق منها ، كما أنها لم تنشر رسائلها هي اليه حتى يمكن في ضوئها الوصول الى تقويم أدق لتلك العلاقة . ولكن الواضح أنه في كثير من تلك الرسائل يخاطبها بأسلوب ينم عن مشاعر الاحساس بالبنوة ، اذ يصورها على أنها ملاكه الحارس الذي يشرف على كثير من شئونه بل ويتصرف فيها بحيث يبدو هو عاجزا في كثير من الأحيان عن مباشرة أموره وهو بعيد عنها . وهذه كلها مسائل يصعب ادراكها بغير قراءة هذه الرسائل . وهذا هو الذي يدفعنا الى القول أن رسائل الكتاب والمفكرين والفنانين والمبدعين ورجال السياسة والحرب ومن اليهم تساعد على الوصول الى فهم أعمق لبعض الجوانب الخفية والمستترة من حياة أصحابها كما تعتبر شاهدا ودليلا على العصر الذي عاشوا فيه والظروف التي أحاطت بهم وأسهمت في تشكيل حياتهم وأفكارهم وأفعالهم وأنجازاتهم . وكثير من جوانب حياة كارل ماركس مثلا ، بل وأفكاره ، يصعب فهمها بغير الرجوع الى الرسائل المتبادلة بين بناته الثلاث والتي نشرت منذ عهد قريب ، وهي رسائل تكشف عن بعض جوانب الضعف الانساني وعن نوع المآسي التي كانت تحيط بحياة بناته مع أزواجهن وعن المعاناة التي كان هو نفسه يعانيها من الفقر والمرض ، وهي كلها أمور لعبت دورا هاما في تشكيل حياة ذلك المارد الذي فرض نفسه وفلسفته على الفكر الانساني اعتبارا من النصف الثاني من القرن الماضي .

والمهم من هذا كله هو ان « أدب المراسلات » يعتبر شكلا من أهم أشكال الأدب في كل العصور ومختلف الثقافات عامة وأنه يتميز عن بقية أشكال وصور « الأدب المنثور » بالصدق في التعبير عن العاطفة والأمانة في إبداء الرأي والاخلاص في الكشف عن خبايا النفس التي قد لا تظهر بنفس الدرجة من الصدق والعمق في الأعمال التي تكتب للنشر .

فالرسالة الشخصية أو الخاصة تخاطب الشخص الذي ترسل اليه في صراحة واخلاص وصدق وتفترض فيه أنه محل للثقة وأنه مؤتمن على أسرار صاحبها وخلجات نفسه ، كما تتوقع منه حسن الفهم والتعاطف ، ومن هنا فانها تكشف في الأغلب عن أمور وجوانب وخفايا لا نجدها في الكتاب أو المقال الذي يكتب أصلا بقصد النشر . وفي هذا بالذات تتركز أهمية « أدب المراسلات » وقيمته وفائدته في دراسة حياة أصحابها وفكرهم وموقفهم من الحياة .

●●●

ولكن ما لهذا النوع من الرسائل قصدت . . وإنما الذي أقصده وأهتم به في المحل الأول هنا هو ذلك النوع من الرسائل الذي يصدر عن أشخاص يمتهنون في حياتهم العادية اعمالا أخرى غير حرفة الأدب والكتابة ، أو على الأقل لم تكن الكتابة هي مهنتهم الأساسية ، ولم يحققوا في مجالات الأدب والفكر والابداع شهرة واسعة عريضة قبل أن تُعرف

رسائلهم وتُنشر وتذاع بين الناس . بل أنني أقصد بالذات من بين هؤلاء تلك الفئة من الناس الذين بلغوا بغير شك درجة معينة من الثقافة ثم حملتهم ظروف حياتهم الى أوطان أخرى غير وطنهم الأصلي فعرفوا مجتمعات وثقافات غير تلك التي ألفوها ، وأتيح لهم العيش في شعوب غريبة عنهم فاختلطوا بالناس وأفلحوا في توثيق علاقاتهم بهم وفي التغلغل الى أعماق ثقافاتهم وفهم عاداتهم وتقاليدهم وقيمهم ، ونشأت بينهم جميعا تلك العلاقة القوية الحميمة التي يطلق عليها علماء الانثربولوجيا كلمة Rapport والتي يعتبرونها مبدأ أساسيا من مبادىء البحث الميداني الذي يقومون به في المجتمعات والثقافات الغريبة ، وشرطا هاما من شروط الدراسة الحقلية الناجحة . لأن مثل هذه العلاقة الحميمة القائمة على الثقة المتبادلة هي التي تساعد على الفهم العميق الصادق لثقافات هذه الشعوب ونظمهم الاجتماعية وأنماط سلوكهم والقيم التي تحكم هذا السلوك . وكثير من أصحاب هذه الرسائل التي كانوا يرسلونها من تلك المجتمعات الغريبة كانوا يحرصون على الكتابة بكثرة وباستمرار ، وعلى أن يضمنوا رسائلهم معلومات دقيقة وتفصيلية عن حياة تلك الشعوب بحيث تبدو رسائلهم الآن أقرب شيء الى « اليوميات » أو المذكرات اليومية ، وبالتالي يمكن اعتبارها سجلا حافلا بالمعلومات عن هذه الشعوب . وتتميز بعض هذه الرسائل بالنظرة الموضوعية الى الأشياء والأحداث وبالصدق في الحكم والتنزه عن الهوى الى حد كبير ، فضلا عن دقة الملاحظة والوصف والانصاف في عقد المقارنات بين هذه الثقافة الغريبة وثقافتهم الأصلية التي ينتمون اليها بحكم المولد والنشأة ، ولم تصدر أحكامهم عن أية أفكار مسبقة على ما كان يفعل كثير من الرحالة والمبشرين في القرن الماضي الذين كانوا يقيسون سلوك الناس من زاوية الحضارة الأوربية وبالاشارة الى معاييرها الخاصة ، أو ما كان يفعله رجال الحكم الاستعماري في أوائل هذا القرن حين كانوا يترفعون عن الاختلاط بالأهالي في المستعمرات والمجتمعات الخاضعة للحكم الأجنبي ويعاملونهم كما لو كانوا يحتلون مكانة أدنى بكثير من المرتبة الآدمية . والواقع أن بعض هذه الرسائل تشبه في مجموعها (السجل الاثنوجرافي) أو المذكرات اليومية التي يسجلها الباحثون الأنثربولوجيون يوما بيوم أثناء دراساتهم الحقلية ، وبذلك يمكن اخضاعها للتحليل الأنثربولوجي للخروج منها بدراسة تحليلية على درجة كبيرة من الدقة والتفصيل ووفرة المعلومات والعمق . ويزيد من أهمية بعض هذه الرسائل أنها تسجل حقائق عن فترات تاريخية سابقة في حياة بعض الشعوب والمجتمعات ، وتزودنا بمعلومات فريدة لا نكاد نجد لها مثيلا فيما بين أيدينا من كتابات (علمية) .

ويهمني هنا بالذات أن أشير الى مجموعتين من الرسائل تسجلان كثيرا من وقائع الحياة في مجتمع واحد هو المجتمع المصري ، ولكنهما ترجعان إلى فترتين تاريخيتين مختلفتين ومتباعدتين ، كما أنهما صدرتا عن شخصيتين مختلفتين إحداهما عن الأخرى في كل شيء ، ولكنهما مع ذلك تتفقان معا في غزارة المعلومات والدقة في ملاحظة الحقائق ورصدها والصدق والأمانة في الوصف والتحليل فضلا عن الحرارة في التعبير ، مما ينم عن مدى التعمق في فهم الثقافة التي تدور حولها هذه الرسائل وقوة العلاقة الحميمة التي ربطت بين صاحبيها و « الاهالي » .

(١)

الكتاب الأول أو المجموعة الأولى من الرسائل تعرف باسم « رسائل من مصر Letters from Egypt »[١]، وترجع الى الفترة ما بين ١١ نوفمبر ١٨٦٢ و ٩ يوليو ١٨٦٩ ، أي أنها تغطي فترة سبع سنوات تقريبا في أوائل النصف

---

(١) **Lucie Duff Gordon, Letters From Egypt,** (First edition 1865, Centenary edition 1969, with a Memoir by her daughter Janet Ross and a New Introduction, by Sarah Saright Virago, London 1983.
وقد نشرت الرسائل كاملة وفي صورتها الحالية للمرة الأولى عام ١٩٠٢ من دار النشر R. Brimley Johnson وواضح أن مجموعة أولى من هذه الرسائل كانت قد نشرت اثناء حياتها عام ١٨٦٥ وأعيد طبعها عام ١٨٧٥ اما طبعة عام ١٩٦٩ فقد ظهرت بمناسبة مرور مائة عام على وفاتها وفيها نشرت الرسائل كاملة .

الثاني من القرن الماضي . وصاحبة الرسائل سيدة بريطانية تنتمي لعائلة أرستقراطية جمعت بين عراقة الأصل وعراقة الثقافة ، وقد عرفت باسمها بعد الزواج وهو الليدي لوسي دف جوردون Lady Lucie Duff Gordon ، وقد ولدت لوسي عام ١٨٢١ ، وكانت الابنة الوحيدة لأستاذ من أشهر أساتذة القانون في بريطانيا في القرن الماضي وهو جون اوستن John Austin أستاذ القانون المدني بجامعة لندن ، بينما كانت أمها سارة أوستن Sarah Austin من المتخصصات في الدراسات الكلاسيكية . وعاشت لوسي معظم حياتها القصيرة (توفيت عام ١٨٦٩ وهي في السابعة والأربعين) في جو الارستقراطية البريطانية الراقي ، وإن كانت امتيازات تلك الطبقة قد بدأت تتهاوى وتنهار وتتداعى نتيجة للتغيرات الايديولوجية التي بدأت تجد طريقها بين الفئات المثقفة . وشاهدت لوسي تلك التغيرات وعايشتها ، خاصة وأن والديها كانا يحيطان نفسيهما بعدد من كبار مفكري ذلك العصر من ذوي الميول الراديكالية من أمثال جيرمي بنتام Jeremy Bentham وسيدني سميث Sydney Smith ، وبذلك نشأت في وسط ثقافي متميز يتشكك في كل شيء ويناقش كل شيء ، مما ساعد على تنمية مواهبها وقدراتها منذ سن مبكرة . وتزوجت لوسي أوستن وهي في الثامنة عشرة من عمرها من أحد الارستقراطيين الفقراء وهو سير الكزاندر دف جوردون Sir Alexander Duff Gordon الذي كان يعمل حينذاك في وزارة الخزانة . ولم يلبث سير الكزاندر وليدي دف جوردون أن أحاطا هما أيضا نفسيهما بمجموعة أخرى من مشاهير الكتاب والمفكرين بحيث شملت دائرة أصدقائهما كتابا وشعراء وأدباء من أمثال ثاكراي Thackeray وديكنز والشاعر تينسون Tennyson والروائي جورج مرديث John Meredith الذي كتب مقدمة لمجموعتها الأولى من الرسائل ، وكذلك كنجليك Kinglake وماكولي Macaulay . وقد استطاعت لوسي دف جوردون أن تفرض نفسها على هذا الوسط الثقافي الراقي بقدراتها الفكرية وذكائها وسرعة بديهتها وجمالها وقوة شخصيتها وآرائها الجريئة المتحررة . كما بدأ اسمها يظهر في نطاق محدود بين أوساط المثقفين كثقافة رفيعة حين نقلت الى الألمانية - لأول مرة في بعض الحالات - بعض أعمال رانكه Ranke ومولتكه Molteke وفيويرباخ Feuerbach ونيبوهر Niebuhr وغيرهم .

في أوائل الخمسينات وقعت لوسي دف جوردون فريسة لمرض السل الذي أخذ يفتك بصدرها في غير رحمة ، وكان لابد لها من أن تترك بريطانيا وأجواءها الرطبة الباردة الى مناطق أكثر حرارة وأقل رطوبة ، فسافرت وحدها الى جنوب افريقيا حيث كتبت مجموعة ضخمة من الرسائل الى أفراد عائلتها . وقد نشرت هذه الرسائل بعد ذلك بسنوات طويلة (عام ١٨٦٤) بعنوان Letters from the Cape . ولم تفدها هذه الرحلة كثيرا في استرداد صحتها فعادت الى بريطانيا . وحين اشتدت بها العلة مرة أخرى رحلت من جديد عام ١٨٦٢ الى مصر ، وهناك عاشت سبع سنوات أمضت معظمها في الأقصر مع زيارات قصيرة الى القاهرة والاسكندرية ، بينما لم تزر بريطانيا ذاتها خلال كل هذه الفترة الطويلة سوى مرة واحدة عام ١٨٦٣ . وتعتبر الفترة التي أمضتها لوسي دف جوردون في مصر من أطول الفترات التي أمضاها أي أوربي أو اجنبي عاش في الصعيد . وقد اختلطت أثناء هذه الاقامة الطويلة بالطبقات الفقيرة من الشعب وخبرت حياتهم وأخلاقهم وعاداتهم وقيمهم عن قرب ، وعرفت الثقافة المصرية الشعبية من داخل ، وعقدت صداقات قوية مع عدد كبير من المصريين المسلمين الذي تشير اليهم في رسائلها في معظم الأحيان باسم (العرب) تمييزا لهم عن (الأقباط) وعن (البدو) . ولم تكن تخفي إعجابها بشمائل وتصرفات هؤلاء المصريين المسلمين وتفضيلها لهم على الأقباط ، وذلك بعكس ما كان يفعل معظم الأجانب الذين كانوا يزورون مصر أو يقيمون فيها والذين تربطهم بأقباط مصر رابطة الدين . فهي تكتب مثلا الى أمها يوم ٢١ ديسمبر ١٨٦٣ من فوق احدى البواخر النيلية بالقرب من أسيوط تقول :

« إن هناك عددا كبيرا من الأقباط فوق سطح الباخرة ، وهم من الطبقة الدنيا ، كما أن صحبتهم لا تدعو إلى الارتياح . إن السادة المسيحيين يتمتعون بدرجة عالية جدا من الرقة والدماثة ، أما الطبقات الدنيا فهي دنيا بكل معاني الكلمة اذا هم قورنوا بالمسلمين . والشعور الذي يخرج به المرء عنهم هو الاحساس بالقذارة حين يراهم وهم يتناولون طعامهم بين أكوام الفحم ثم يجلسون القرفصاء بعد ذلك ويخرجون مسابحهم للتسبيح والصلاة دون أن يهتموا بغسل أيديهم . إنهم يبدون على درجة عالية من القذارة بالنسبة للمسلمين الذين لا يخرجون الا بعد أن يغتسلوا وينظفوا أجسامهم ثم يقفوا وقفة منتصبة فيها رجولة لكي يؤدوا صلواتهم . والأكثر من ذلك أن سلوكهم وتصرفاتهم وطريقة كلامهم لا تخلو من النطاطة ، كما أنهم لا يحملون للمرأة نفس الاحترام الذي يبديه العربي نحوها . . . انني أتكلم هنا بطبيعة الحال عن الأشخاص العاديين وليس عن الأقباط المتعلمين . . . »

وهذه العبارات تكشف لنا عن مدى تجردها عن العوامل العاطفية التي كانت خليقة بأن تجعلها تتخذ مواقف مغايرة وتصدر أحكاما مختلفة . بل إن تعاطفها مع المصريين عموما يفتح عينيها على كثير من مساوىء الحكم في ذلك العصر . فلم تبهرها الأعمال والانجازات المادية التي حققها الخديو اسماعيل (المعظم) والتي كانت أوربا كلها تعجب بها (على الأقل في أول الأمر) وتعتبرها مقياسا تحكم به على صلاحية حكمه وعلى أفكاره التقدمية . وانما كانت هي على العكس من ذلك تماما تنعي عليه سياسته الخاطئة التي سوف تجلب على مصر وشعبها الطيب كثيرا من المصائب التي تحققت بالفعل فيما بعد . وحين زار سلطان تركيا مصر كتبت عدة رسائل الى زوجها ولأمها تأخذ فيها على السلطان التركي ترفعه على الشعب المصري وتكشف عن كثير من مظاهر التفرقة بين الأتراك والمصريين لدرجة أن « السلطان وكل أفراد حاشيته لم يأكلوا الخبز من هنا أبدا ، وإنما كان طعامهم يأتي خصيصا لهم من القسطنطينية» (من رسالة لأمها من القاهرة بتاريخ ١٩ أبريل ١٨٦٣) . ولقد عبرت عن حيرتها في فهم معنى تلك الزيارة التي قام بها السلطان لمصر فكتبت لزوجها في ١٣ أبريل ١٨٦٣ تقول صراحة :

« إن مجيء السلطان الى القاهرة هو نوع من اللغز ، فلا أحد يعرف ما يريد . ولقد أمر الباشا بأن تحتجب كل نساء الطبقات الدنيا في بيوتهن أثناء وجود السلطان لأن النساء العربيات صريحات وربما يرفعن أصواتهن بالشكوى في وجهه . . وسوف يرحل السلطان اليوم . . . حتى الماء الذي يشربونه كان يأتي من القسطنطينية كما أخبرني هكيكيان بك . . واذا كان هناك من يحاول أن يقنعك بأن كل حديث عن الحضارة في مصر هو مجرد لغو وهراء فأرجو ألا تسمع اليه وأن تهزأ منه . فالحياة الحقيقية والناس الحقيقيون لا يزالون يشبهون الى حد كبير ما تجده في أكثر الكتب صدقا وأمانة وهو كتاب ألف ليلة وليلة . فلا يزال الطغيان كما كان دائما ، ولا يزال الناس على ما كانوا عليه يتمتعون بجاذبية فائقة الى أبعد الحدود . ولو كان في استطاعتي فقط أن أتكلم لغتهم لأمكنني التغلغل الى أعماق المجتمع العربي هنا بمعاونة بعض الاشخاص حتى أرى أكثر مما رأى الاوربيون الذين عاشوا هنا كل حياتهم . فالمصريون المسلمون (العرب) يدركون تماما مدى التحيز القائم ضدهم ، ولكن حين يشعرون بالأمن والاطمئنان من هذه الناحية فإنهم يقبلون بكل قلوبهم على الأغراب . . . »

ولقد ماتت لوسي دف جوردون في القاهرة يوم ١٤ يوليو ١٨٦٩ ودفنت فيها . وكانت أمنيتها في أول الأمر أن تموت في الأقصر أو (طيبة) كما كانت تدعوها في رسائلها وأن تدفن هناك بين (أهلها) كما كانت تسميهم . وقد كتبت

لزوجها في ذلك تقول « لو أنني عشت حتى سبتمبر فسوف أسافر الى اسنا حيث الهواء أكثر لطفا وحيث يخف سعالي الى حد كبير . انني أفضل ان أموت بين (أهلي) في الصعيد على أن أموت هنا . (أي في القاهرة) . وحين أحست باقتراب أجلها كتبت اليه تقول ، كما لو كانت تزف اليه مقدما خبر موتها :

« لا تفكر في الحضور الى مصر . فالجو هنا لا يناسبك على الاطلاق ، كما أنه سيكون من أشد الأمور ايلاما لنفسي أن أفترق عنك مرة أخرى ، بينما يمكنني هنا أن أنتظر بكل الصبر مجيء النهاية بين قوم بلغت بهم الرقة والمحبة درجة تجعلهم يكتمون عني الكثير من مشاعر الألم بالنسبة للفراق . لقد كانت مغادرتي للأقصر مشهدا يبعث على الأسى ، اذ كان الناس يظنون انهم لن يروني مرة اخرى . إن رقة الناس جميعا كانت تصل حقا الى أعمق أعماق القلب ابتداء من القاضي الذي بنى لي بالفعل قبرا في مقبرة عائلته ، حتى أشد الفلاحين فقرا . . . »

وعلى أية حال ، فحين أدركت لوسي دف جوردون أنها لن ترى بالفعل (طيبة) مرة أخرى غيرت رأيها وطلبت أن تدفن في القاهرة في هدوء . . وكان لها ما أرادت .

●●●

ولم تكن لوسي دف جوردون في هذا كله مجرد سائحة أو رحالة عادية بقدر ماكانت (مقيمة) في مصر . ولن تهمنا هنا المعلومات والملاحظات التي تمتلىء بها رسائلها حول مشاهداتها في الآثار المصرية القديمة أو المساجد الاسلامية ، رغم دقة هذه الملاحظات وطرافة بعض التعليقات . وإنما الذي يهمنا هو ما تكشف عنه هذه الرسائل عن طبيعة علاقاتها هي بالناس ورأيها في نظمهم الاجتماعية وفي عاداتهم وتقاليدهم وانماط سلوكهم ، وقدرتها ليس فقط على الوصف بل وأيضا إدراك وفهم العلاقة بين أجزاء الثقافة المصرية بعضها ببعض والعلاقة بين التنوع الثقافي الراهن والأصول التاريخية لهذه الثقافة ، ثم إبرازها لبعض أوجه الشبه بين الحياة المصرية في ذلك الحين والحياة في عدد من المجتمعات (التقليدية) الأخرى التي أتيح لها القراءة عنها . . . كانت تنظر الى الثقافة المصرية كوحدة متكاملة ومتصلة عبر التاريخ ، أي أنها كانت تهتم بما يطلق عليه الانثربولوجيون المحدثون اسم (المتصل الثقافي) . وقد ساعدها على ذلك معرفتها الواسعة بالكلاسيكيات وتاريخ الأديان .

وربما كان أول ما يلفت النظر في هذا كله ـ وهو ماساعدها بغير شك على التغلغل في أعماق الثقافة المصرية ـ هو عزوفها عن الأجانب وابتعادها المتعمد المقصود عن « المجتمع » البريطاني والأجنبي القائم حينذاك فوق أرض مصر ، والذي كان يترفع عن الاختلاط أو حتى الاتصال إلا في أضيق الحدود بالأوساط المصرية الصميمة وآثر أن يعزل نفسه عن تيار الحياة والثقافة التقليديتين . وكثير من رسائلها يأخذ على الاوربيين بعامة ، والانجليز بخاصة ، هذا الموقف المتعالي وينعته بالغباء لأنه ـ على أقل تقدير ـ لن يساعد الأجانب على فهم ذلك الشعب الذي قدر لهم أن يحيوا معه على أرض واحدة . ومن هنا أخذت هي على عاتقها منذ البداية أن تدخل الى ذلك المجتمع والى الثقافة الوطنية وأن تعيش عيشة الأهالي أنفسهم ، فاتخذت لها مسكنا بينهم سواء في القاهرة أو في (طيبه) حتى يمكنها أن تخالط الناس العاديين في حرية وسهولة ويسر وفي كل وقت ، دون أن يقوم بينها وبينهم أي حاجز مفتعل ، وأن تتخذ لنفسها خادما من الأهالي اسمه (عمر) يساعدها ليس فقط في قضاء حوائجها ولكن أيضا في شرح وتفسير ما يغمض عليها من أسرار الحياة المصرية الأصيلة . ونشأ بينها بذلك نوع من التفاهم العميق والعلاقة القوية التي هي أقرب ما تكون الى العلاقة بين الباحث الأنثربولوجي والاخباري **informant** الرئيسي الذي يرتبط به ارتباطا وثيقا خلال فترة إقامته في المجتمع الذي

يدرسه ، والتي قد تطول الى أبعد من هذه الفترة . بل إنها كانت تحرص منذ البداية أيضا على أن تتعلم اللغة العربية فضلا عن اللهجة المصرية حتى يمكنها أن تدخل في حديث مباشر مع الأهالي دون حاجة الى وسيط ، وكانت تعتقد أن هذا كفيل بأن يجعلها تصل في فهم روح الشعب وثقافته إلى مالم يصل إليه غيرها من الأجانب العاديين ، أو حتى الأجانب الدارسين ، بما في ذلك أدوارد وبليام لين Edward William Lane نفسه . والذي يقرأ رسائلها الأولى حيث تشكو من عجزها عن الاتصال المباشر مع الاهالي عن طريق استخدام اللغة الوطنية ، ثم يقرأ بعد ذلك عن الجهود الجبارة التي كانت تبذلها وهي تحاول أن تتعلم اللغة العربية ، والمعاناة الشديدة التي كانت تمر بها وهي تتلقى دروسها على أيدي الشيخ يوسف في الاقصر ، والفرح الشديد الذي كان يتملكها حين تحرز أي تقدم في دروسها ، وحرصها الشديد على استخدام الكلمة التي تتعلمها في رسائلها ، سوف يدرك مدى اخلاصها وصدق رغبتها في فهم المجتمع الذي جاءت لكي تعيش فيه ولو الى حين . ولقد توّجت هذا كله حين كانت تكشف عن فقرها رغم انتمائها الى الارستقراطية البريطانية ، وكان ذلك أحد المفاتيح الهامة التي فتحت أمامها مغاليق القلوب ؛ وقامت بذلك علاقة قوية بين الفقير والفقير ، وارتبطت بالاهالي العاديين وبخاصة في الصعيد برابطة « الأخوة في الفقر » رغم كل الفوارق الاجتماعية والعرقية والدينية والثقافية . ثم كان هناك الى جانب هذا كله استعدادها لأن تتعلم والى أن تغير نظرتها الى الامور ، والى تبديل رأيها كلما تعمقت في الدراسة والفهم . فمصر التي تبدو في أولى رسائلها الى أمها (يوم الثلاثاء ١١ نوفمبر ١٨٦٢) صورة أخرى من مجتمع ألف ليلة وليلة لا تلبث أن تكشف لها عن بعض المآسي ، ولا يلبث واقعها المرير أن يصدمها ويوقظها من خيالها . قالت لأمها :

« انني أكتب اليك من مجتمع ألف ليلة وليلة الحقيقي . . . انه عالم ذهبي تغمره أشعة الشمس ويسيطر عليه جو الشعر ، ولابد من أن أضيف انه مليء بالرقة والدماثة » .

ولكن هذا كله لم يفلح في أن يخفي عنها بؤس الشعب وفقر الناس وتسلط الحكام غير المصريين . ومع ذلك فإنها لم تغير أبدا رأيها في الناس ولم تنزع عنهم أبدا الصفة الأساسية التي تميزهم ، وهي الحنو والرقة والدماثة .

بل الأكثر من ذلك أنها كانت على استعداد دائما لأن تصحح النظرة الخاطئة التي كان يحملها كثير من الاوربيين الى مصر وبخاصة فيما يتصل بالعلاقات بين المصريين المسلمين والأقباط . وجانب كبير من رسائلها ينفي الفكرة الشائعة عن تعصب المسلمين . ففي رسالة من مدينة الفشن مثلا الى أمها (من فوق ظهر الباخرة النيلية يوم الاثنين ٣٠ نوفمبر ١٨٦٢) تقول :

« لقد تمتعت خلال الأيام العشرة الماضية بهذا الأسلوب الرائع جدا من الحياة . ولقد تحسنت صحتي بغير شك الى حد كبير ، كما بدأت أقبل على طعامي وأستغرق في نومي مرة أخرى ويبدأ السعال يخف كثيرا . ولقد توقفت الباخرة يوم الأحد أمام قرية بيا ، وهناك وقع بصري على كنيسة قبطية ، وانطلقت نحوها لأرى إذا ما كانوا سيسمحون لي بالدخول . وكانت الطريق تمر ببيت عمدة القرية ، وهناك كان يجلس القسيس كما كان يحيط به خدمه وماشيته . وقد نقشت على أبواب الكنيسة صلبان وأشكال هندسية على شكل مجموعات من النجوم وظهرت بها فتحات هي أقرب إلى الرموز الخاصة بعبادة الالهة مبشرا منها إلى أي شيء مسيحي . ولكن جرجس كان قبطيا وقد انتخب عمدة لقرية مسلمة . . وكان منزله نوعا فريدا من منازل الأثرياء . ولن أستطيع أن أصفه لك مهما حاولت ولكنني شعرت أنه بمثابة (فقرة) في (العهد القديم) . . وفي الكنيسة ذاتها . . كان يوجد قبر أحد الاولياء المسلمين تحت قبة مجاورة للمذبح ، وقد

دخلت هناك . وانحنى جرجس لتقبيل القبر من جانب بينما اكتفى عمر بإلقاء التحية والسلام على صاحب القبر من الجانب الآخر . وكان ذلك منظرا يبعث على السرور » .

والطريف في الأمر أن الكنيسة كانت تجري فيها بعض الاصلاحات والترميمات وكان يتولى هذه العملية تطوعا وبدون مقابل عامل بناء مسلم قدم خصيصا ومن تلقاء نفسه لهذا الغرض من القاهرة ، بعد أن رأى الشيخ أو الولي ثلاث مرات في منامه يأمره بأن يترك عمله بالقاهرة ويتوجه الى بيا لترميم (كنيسته) . وقد تولى الأقباط توفير مواد البناء اللازمة لهذا العمل .

« وبينما كنا نجلس نستمع إلى كل هذه العجائب والطرائف ، كانت الأغنام والماشية تدخل بين صفوفنا عائدة الى البيت قبيل الغروب . وكان القسيس الشيخ الوقور يبدو أقرب الى أبينا ابراهيم ، كما كان المنظر كله يخيم عليه روح دينية أصيلة لدرجة أنني كنت أشعر كما لو كانت رغبتي تحققت في أن أعيش في الماضي السحيق الذي يرجع لبضعة آلاف من السنين » .

وفي رسالة لأمها أيضا من جبل الشيخ مبارك (أو الشيخ إمبارك كما تكتبها مثلما ينطقها الأهالي) يوم الخميس ٣ ديسمبر ١٨٦٢ كتبت تقول :

« ان الشيء الذي يسترعي الانتباه أكثر من غيره هنا هو روح التسامح التي ألمسها في كل مكان . فالناس هنا يكتفون بأن يقولوا لي : آه هذه إذن هي عوائدكم . ثم لا يعطون الأمر بعد ذلك أية أهمية . كما أن المسلمين والمسيحيين يرتبطون حقا بروابط الصداقة . لازلت أنتظر أن أرى ذلك التعصب الذي يتكلم (الأجانب) عنه كثيرا ، ولكنني لم أر حتى الآن أي علامة من علاماته . لقد كان هناك ثلاث عشرة عائلة قبطية في بيا بينما كانت أغلبية السكان من المسلمين ، ومع ذلك فقد انتخبوا جرجس عمدة للقرية ، كما أنهم ينحنون لتقبيل يده بصدق وإخلاص حين يمر بهم في شوارع القرية » .

ولكنها لم تنس مع ذلك أن الأقباط هم الذرية الحقيقية الخالصة نسبيا على الأقل ، للمصريين القدماء ، وتبدي رأيها في هذه المسألة في رسالة إلى زوجها أرسلتها من أسيوط في العاشر من مارس ١٨٦٣ :

« من الواضح أن الأقباط هم المصريون القدماء . فالأنف المعقوف قليلا والعيون المسحوبة هي نفس ماتراه في رسوم القبور والمعابد ، كما أنها قريبة الشبه جدا بأقدم الصور البيزنطية . وفيما عدا ذلك فإن الوجه يتمتع بدرجة من الوسامة وإن كان لونه شاحبا بوجه عام ويميل شيئا ما الى الانتفاخ . . كما يميل إبهام القدم الى الاستطالة بينما القدم ذاتها تبدو مفلطحة كما هو الشأن في التماثيل المصرية » .

وكما هو الحال بالنسبة للكثيرين من الرحالة الذين رأوا مصر أو الكتّاب الذين أقاموا فيها بعض الوقت وأتيحت لهم الفرصة للدراسة والبحث كان الدين موضوعا من أهم الموضوعات التي استرعت انتباهها واهتمت بالبحث فيها وحاولت الوصول إلى فهم العلاقة بين الاسلام والمسيحية كما تتمثل في سلوك الناس وتصرفاتهم ازاء بعضهم بعضا ، مثلما حاولت التعرف على الملامح والعناصر والرواسب الدينية التي وجدت طريقها من أديان مصر القديمة الى الطقوس والشعائر التي يمارسها المصريون في القرن التاسع عشر ، دون أن ينتبهوا للتناقض القائم بين تلك الأديان القديمة وأديانهم السماوية . وقد عرضت لهذه المسألة في عدد من الرسائل التي أرسلتها الى أمها وزوجها وبعض أصدقائها .

ويكفي أن نستشهد هنا بعدد قليل من هذه الرسائل لنتبين طريقة تفكيرها ونظرتها الى الامور . ففي رسالة الى صديق لها هو توم تيلور Tom Taylor يوم ١٨ ابريل ١٨٦٣ كتبت تقول :

« . . ان آليك (زوجها) على حق فيما يقوله عن حبي لأسلوب حياة العرب (المصريين المسلمين) . ولقد بذلت الكثير لكي أرى وأعرف عن حياة العائلة المصرية أكثر مما يعرفه الكثيرون من الاوروبيين الذين عاشوا هنا سنوات طويلة . . .

وحين يحس العرب أن شخصا ما يهتم بهم بالفعل فإنهم يردون ذلك من كل قلوبهم . ولو كان في استطاعتي أن أتكلم لغتهم إذن لأمكن لي أن أرى كل شيء . إن القاهرة هي ألف ليلة وليلة . وقد يكون هناك مسحة من البريق (الافرنجي) هنا وهناك . ولكن الحكومة والأهالي جميعا لم يتغيروا منذ أن كُتب ذلك الكتاب الصادق . لن يستطيع أي قدر من الكلمات أن تصف سفر المحمل المقدس والحجاج الى مكه . لقد أمضيت نصف يوم وأنا أتجول وأتسكع بين خيام البدو وأمتع ناظري بمرأى هؤلاء الناس الأحرار ذوي الطلعة المهيبة . وإنه لمنظر رائع أن ترى الرجل البدوي وزوجته البدوية وهما يسيران في شوارع القاهرة ، وقد وضعت يدها على كتفه دون أن تهتم بتغطية وجهها المتكبر ، وهي تنظر بترفع وكبرياء الى المرأة المصرية المحجبة التي تنوء بالأحمال الثقيلة التي تحملها وتسير خلف سيدها ومولاها . . .

. . . ليس ثمة ما يثير الانتباه أكثر من الأمور التي تدفع الانسان الى أن يتذكر هيرودوت بشكل دائم وباستمرار . فالمسيحية والاسلام في هذا البلد يحملان كثيرا من مظاهر العبادة القديمة ، بل إن الحيوانات المقدسة أصبحت الآن في خدمة الأولياء المسلمين . ففي النيل يسخّر الناس التماسيح لأغراضهم . وقد رأيت جُحْر أفعى أسكولوبيوس في جبل الشيخ هريدي . ولقد قدمت بنفسي الطعام للطيور مثلما فعل هيردوت ، وكانت الطيور تنقض على حبال المراكب التي تمنع عنها الطعام فتقطعها . وقد امكن للشيخ نوح ان يسخر الطيور لخدمته كما انها لا تزال تتوافد وتحط بكثرة على باخرتنا طلبا للخبز دون ان يجرؤ (الريّس) على ان يمنعه عنها . ولا تزال قطط بوبسطس تجد طعامها في بلاط القاضي وعلى نفقة المال العام في القاهرة ، وتتصرف القطط بلباقة فريدة حين يقدم لها (خادم القطط) عشاءها . ومن بين كل الآلهة فان آمون رع ، اله الشمس وقاتل التنين يسمي نفسه الآن مار جرجس (وهو نفسه سان جورج) الذي يقدسه المسيحيون والمسلمون على السواء وفي نفس الكنائس . كما ان اوزيريس لا يزال تقام اعياده واحتفالاته بنفس الصخب والضجيج في طنطا في الدلتا تحت اسم السيد البدوي . ولا تزال النساء الفلاحات يقدمن للنيل الاضحيات والقرابين ويطفن حول التماثيل القديمة من اجل الانجاب ، كما ان شعائر الولادة والموت ليست اسلامية وانما هي مصرية قديمة . .

وأقباط مصر اكثر عزلة وتحفظا واشد تخلفا من المصريين المسلمين كما انهم متوفون من الاوربيين ولذا كانوا اكثر ابتعادا عنا . ويرفض الاوربيون هنا ان يوصفوا بأنهم (نصارى) بنفس الطريقة التي يرفض بها العبراني الارستقراطي اسم (يهودي) . اما انا فانني اقول عن نفسي صراحة وبكل شجاعة (انني نصرانية والحمدلله) ، ويتقبل المسلمون والاقباط ذلك بكل الرضا والاستحسان . وثمة امور كثيرة غريبة يصادفها المرء في الدين هنا . فقد يصلي المسلمون في قبر مار جرجس (سان جورج) وفي مزار ستّنا مريم وسيدنا عيسى . . . »

ولا تلبث ان تعود الى هذا الموضوع ذاته في رسالة طويلة ارسلتها الى امها يوم ٢١ مايو ١٨٦٣ من (مصر القاهرة) حيث تقول : -

« لقد ذهب عمر وحسن في الخامسة صباحا الى قبر ستنا زينب ، وهي احدى بنات النبي ، لزيارتها وقراءة الفاتحة على قبرها ، لأن يوم الاحد هو يوم الزيارة . وسوف يبدأ العيد الكبير يوم الجمعة القادم وفيه يتناول كل مسلم فقير بعض اللحم في دار جاره الأكثر غنى . انه يوم طلوع الحجاج الى الجبل المقدس قرب مكة لسماع الخطبة التي تنهي الحج . . . بالامس زرت السيدة ويلكنسون وهي ارمنية تتبع الكنيسة اليونانية ، وقد ذهبت للصلاة في كنيسة مارجرجس (سان جورج) للتخفيف عن آلام الحمى الروماتيزمية التي تعاني منها في يدها . وواضح ان مارجرجس هو بكل بساطة آمون رع اله الشمس وقاتل التنين ولا يزال يُقدَّس في مصر من كل الفرق ، كما ان السيد البدوي هو بكل تأكيد احد صور اوزيريس ، وتقام احتفالاته مرتين في السنة في طنطا ، ولا تزال هذه الاحتفالات تعكس رمز خالق كل شيء . . . هنا يمكن ان تتوقع اي شيء . . . النساء يندبن موتاهن مثلما كان يحدث على المذابح القديمة ، وكل الطقوس والشعائر لها طابع وثني واضح . . ان مصر هي « اللوح الممسوح » الذي سُطِّر عليه الكتاب المقدس فوق هيرودوت ثم جاء القرآن فوق هذا كله . . ففي المدن يسود القرآن بينما يسود هيرودوت في الريف . . والآن بعد ان انتهيت من كتابة كل هذه الرسالة الطويلة فانني لا اكاد اعرف ان كانت تستحق ان ارسلها لك او اذا كانت ملاحظاتي العابرة البسيطة عن الحياة الشرقية سوف تدخل السرور على قلبك . . سوف اذبح يوم الجمعة المقبل خروفا ويقوم عمر باعداد طبق ضخم للفلاحين الفقراء الذين يرقدون بجوار محطة السكة الحديدية في انتظار ترحيلهم للعمل في مكان ما . وسوف يكون هذا هو عيدي الكبير . وعمر يأمل ان يعود ذلك عليّ بالخير الجزيل » .

ثم تعود مرة اخرى الى الموضوع ذاته في رسالة ارسلتها الى زوجها من جرجا يوم ٩ يناير ١٨٦٤ فتقول : -

« هذه اضافة الى الفولكلور اعتقد انها جديدة حتى بالنسبة الى لين Lane نفسه . . . حين يشعل بائع القهوة موقده في الصباح يبدأ بأن يصنع قدحين من اجود اصناف البن ويضيف اليهما القدر المناسب من السكر ثم يسكبهما على كل اجزاء الموقد وهو يردد : (اللهم بارك على الشيخ الشاذلي وعلى ذريته) . وهذا الدعاء للولي الذي (اخترع) القهوة مسألة كنت اعرفها بالطبع من قبل ، وكثيرا ما كنت ارددها انا نفسي . اما مسألة سكب القهوة تقربا للولي فانها جديدة بالنسبة لي . فأنت ترى اذن ان الدين القديم يطل برأسه بشكل غير متوقع حتى من خلال الايمان القويم بالاسلام . ولو كان باستطاعتي ان اصف بالتفصيل حفل زواج مصري ، وعلى الاخص حفل زواج قبطي . فسوف تظن انني اسرد عليك بعض الطقوس الخاصة بايزيس . لقد شاهدت في احد المنازل والد العروس وقد امتقع وجهه واستبد به القلق ، وقال لي عمر : « اظن انه (ماسك بطنه بيده) حتى تخبره النساء ان ابنته قد بيضت وجهه » وهذا تعبير رائع لوصف حالة اضطراب القلب من القلق . وانه لأمر معقول بدون شك ان يؤدي سلوك المرأة المشين الى اسوداد وجه الأب اكثر من وجه الزوج . وهناك امور اخرى كثيرة طيبة يمكن ان تقال عن الحريم هنا . . » .

ولم تقتصر اهتمامات لوسي دف جوردون على ملاحظة الشعائر والطقوس والممارسات الدينية والسحرية الشعبية

في مصر وانما امتدت الى مجالات اخرى كثيرة متنوعة من الحياة الاجتماعية حاولت ان تحللها وان تتعمق في فهمها ولم تكتف بوصفها وصفا سريعا ساذجا على ما يفعل الكثيرون من الرحالة . ولقد كان من الطبيعي ان يجذب اهتمامها علاقة الرجل بالمرأة واسلوب التعامل القائم بينهما وان تقارن مكانة المرأة في المجتمع المصري بمكانتها في المجتمع الاوروبي وبخاصة ازاء ما كان يقال عن عبودية المرأة وخضوعها المطلق لسلطان الرجل . ومع انها لاحظت وسجلت في رسائلها الكثير من مظاهر السلوك التي تؤخذ في العادة على انها مؤشر على المكانة الدنيا التي تحتلها المرأة في المجتمع ، فالطريف في الأمر انها نظرت الى ذلك نظرة لا تخلو من رومانسية وكانت تعتبر امتداد سلطان الرجل وفرض حمايته على المرأة هو احد بقايا نظام فروسية القرون الوسطى الذى انقرض من اوروبا . وفي رسالة الى امها ارسلتها من الاسكندرية في الثاني عشر من مايو ١٨٦٣ تقول :ـ

« يجب ان يأتي المرء الى الشرق لكي يفهم معنى المساواة المطلقة (بين عامة الناس) . . . فالمسلمون يعتبرون انفسهم متساوين تماما بحكم الواقع ولذا فانهم ينظرون الى المال والى المنزلة الاجتماعية على انها امور عارضة ومن هنا لقيت طريقة سلوكي كثيرا من الاستحسان ، فقد كنت اجلس مع الفلاحين واعامل الجميع بنفس الطريقة التي يعاملون بها بعضهم بعضا . ولكن هذا كله يتخذ شكلا آخر مغايراً في الاسكندرية ، اذ ان الافكار والعادات الاوروبية افلحت في ان تقتل الافكار والعادات العربية وتزيلها تماما . وتلك التي نجحت في الصمود والبقاء لم يطرأ عليها اي تحسين عن طريق الاتصال . .

. . . لقد بدأت افهم كل شيء عن مكانة المرأة ومنزلتها . فهناك قدر من الفروسية من بعض الوجوه ، والنتيجة ليست سيئة على اي حال في الاوساط والطبقات الدنيا والوسطى المحترمة . اما في الطبقات الغنية فاني اشك ان الكثيرات من النساء يشعرن بالسعادة ، وان كنت لا اعرف عن ذلك كثيرا ، كما انني لا اعرف شيئا على الاطلاق عن اساليب الاتراك » (في معاملة النساء) .

ثم انها تعود الى هذا الموضوع نفسه مرة اخرى في رسالة ارسلتها الى زوجها بمناسبة الكريسماس لعام ١٨٦٣ فتحاول ان تصحح بعض الاخطاء السائدة في الغرب عن نظام تعدد الزوجات :ـ

« . . . لقد سمعت اليوم مثالا غريبا عن العادات العربية . فلقد قابلت حسن ، وهو احد حراس القنصلية الامريكية ، وهو رجل طيب ومحترم للغاية . وقد ذكر لي انه اتخذ زوجة ثانية له منذ العام الماضي . وسألته عن السبب فقال انها ارملة اخيه الذي كان يعيش معه دائما في نفس البيت وانه قد ترك وراءه طفلين ، وان تلك الارملة ليست صغيرة السن ولا هي جميلة ، ولكن حسن كان يعتبر ان من واجبه ان يعولها هي وطفليها والا يدعها تتزوج من شخص غريب فانت ترى اذن ان تعدد الزوجات ليس دائما مسألة انغماس في الجنس ، وان تضحية الرجل في هذا العمل كثيرا ما تكون هائلة فهو لا يقنع بمجرد ابداء المشاعر والعواطف الطيبة نحو زوجة اخيه المتوفي . . . » .

●●●

وتكفي هذه الامثلة لكي نتبين منها الى اي حد اهتمت لوسي دف جوردون بمعالم الثقافة والحياة في المجتمع المصري في الستينات من القرن الماضي واسلوب ملاحظتها للاحداث وتسجيل الوقائع التي تراها

بل والتي قد تشارك هي نفسها في صنعها . فلم تكن مجرد سائحة تقف من الاحداث موقفا سلبيا يقتنع بالمشاهدة والتسجيل ، وانما كانت تعيش بين الناس وتختلط بهم وتشترك في حياتهم اليومية وفي احتفالاتهم وكثير من مناشطهم . لقد كانت تمارس ما يطلق عليه الانثربولوجيون اسم « الملاحظة بالمشاركة » دون ان تدري ، وقبل ان يطلق علماء الانثربولوجيا على هذا الاسلوب اسما او مصطلحا علميا بوقت طويل . وليست مجموعة رسائلها او على الاصح كتاب « رسائل من مصر » عملا انثربولوجيا بالمعنى الدقيق للكلمة ولا يمكن ان نطبق عليه المحكات التي نطبقها على البحوث الانثربولوجية الميدانية . ولكنه يظل بعد هذا كله مثالا طيبا لنوع من ادب المراسلات الذي يرتفع بنفسه عن ان يكون مجرد سرد وتسجيل للأمور الشخصية والعائلية البحتة ، والذي ينبع في الأصل عن النظرة الواسعة المتفتحة ، واحترام الثقافات الاخرى ومحاولة فهمها كخطوة هامة لفهم الانسانية ككل .

(٢)

وقد تفتقر المجموعة الثانية من الرسائل التي نعرض لها هنا الى الروعة والاثارة وبراعة الاسلوب وحسن العرض التي تتمتع بها رسائل لوسي دف جوردون ، وقد ينقصها القدرة على التحليل والتفسير ورد عناصر الثقافة الراهنة الى اصولها التاريخية ومحاولة الكشف عن اوجه الشبه او الاختلاف مع بعض الانماط الثقافية والاجتماعية السائدة في المجتمعات الاخرى وقد لا تكشف لنا عن نفس الدرجة من الثقافة العالية الرفيعة المتنوعة التي تتمتع بها الليدي دف جوردون ، ومع ذلك فان هذه المجموعة الثانية من الرسائل لا تقل عن « رسائل من مصر » في الصدق ودقة الملاحظة وكثرة المعلومات وتنوعها حتى وان كانت طريقة عرض هذه المعلومات تخلو من العمق وتميل الى البساطة التي تصل احيانا الى حد السطحية . واذا كانت لوسي دوف جوردون عاشت في مصر وفي الصعيد بالذات سبع سنوات بين عامي ١٨٦٢ و١٨٦٩ وهي مدة طويلة اتاحت لها الفرصة للتعمق في فهم الحياة الاجتماعية في بعض انحاء المجتمع المصري ، فان صاحب هذه المجموعة الثانية من الرسائل عاش في مصر ، وبخاصة في القاهرة خمسة واربعين عاما من عام ١٩٠١ حتى عام ١٩٤٦ ، لم يكتف خلالها بغير شك بملاحظة الاحداث والوقائع والظواهر الاجتماعية او يقنع برصدها ، وانما شارك في صنع كثير من هذه الاحداث مشاركة فعلية وذلك بحكم الظروف والاوضاع التي احاطت به وباقامته في مصر . فاذا كانت الليدي دف جوردون النبيلة الارستقراطية البريطانية قد جاءت الى مصر بقصد الاستشفاء والعلاج من المرض الطويل المميت واستطاعت ان تقصر حياتها ونشاطها على توثيق علاقاتها بقطاع معين بالذات من افراد المجتمع المصري وتكرس وقتها كله للملاحظة والتفكير والتأمل والكتابة الى اهلها حول ما تراه ، فان صاحب هذه المجموعة الثانية من الرسائل جاء الى مصر للعمل وكسب العيش في فترة كانت مصر خاضعة للنفوذ البريطاني في شتى صوره وكان كثير من الانجليز يفدون عليها لتولي بعض المناصب في كثير من المصالح . وقد اتاحت له الوظائف والاعمال التي تولاها في مصر وبالذات في القاهرة الاتصال بفئات مختلفة من الشعب المصري والتعرف على كثير من جوانب الحياة في القاهرة الى جانب الاتصال بالمجتمع البريطاني او « الجالية » البريطانية وبعض الجاليات الاجنبية الاخرى داخل المجتمع المصري ومعرفة العلاقات التي تربط هذه الجاليات بعضها ببعض من ناحية وبالمجتمع المصري من الناحية الاخرى . الا انه كان مع هذا كله يبدو راغبا عن الاندماج في ذلك الوسط الاجنبي الدخيل شأنه في ذلك شأن لوسي دف جوردون . وقد ساعده ذلك الى حد ما على الاقل ، على التغلغل في المجتمع المصري وفهم اعماقه واغواره . .

صاحب هذه المجموعة من الرسائل هو جوزيف ويليام ماكفرسون Joseph William McPherson اسكتلندي

يهتم بالدراسات الكلاسيكية واللغويات ومتخصص في العلوم الطبيعية ، ولكنه لم يكن عالما او باحثا بالمعنى الاكاديمي الدقيق للكلمة ، بل ربما كان على العكس من ذلك تماما . ولد في سمرست Somerset عام ١٨٦٦ في عائلة كبيرة العدد ومتماسكة كما هو شأن العائلات الاسكتلندية ، ولذا فانه يشير الى عائلته في كثير من الاحيان باسم (قبيلة ماكفرسون) حسب المألوف في اسكتلندة . وقد ارتبط جوزيف ماكفرسون منذ صغره بأمه ارتباطا وثيقا (وكان اصغر ستة اخوه) ، وسيطرت هذه العلاقة على كل حياته ، ولم تفلح ـ حسب ما يقول احد ابناء عمومته ـ اية امرأة اخرى في ان تحل محل الام وبذلك ظل طيلة حياته بغير زواج . اما ابوه فقد كان مديرا لأملاك دوق جوردون Duke of Gordon وعدد آخر من كبار ملاك الاراضي في اسكتلندة . ولما نزحت العائلة نحو الجنوب التحق ماكفرسون الصغير بمدرسة كليفتون (او كلية كليفتون كما تدعي) في بريستول حيث اهتم بدراسة اللغة اليونانية واللغة اللاتينية الى جانب بعض اللغات الحديثة ، اذ كانت لديه ملكة طبيعية لتعلم اللغات بسهولة وسرعة ، ثم التحق بالكلية العلمية الملكية في دبلن بايرلندة ، وبعد اربع سنوات التحق بجامعة اكسفورد حيث حصل على درجته الجامعية في العلوم الطبيعية . فكأنه يجمع اذن بين الدراسات الكلاسيكية والتخصص في الفيزياء والرياضيات . وحين تخرج من الجامعة اشتغل بتدريس العلوم الطبيعية في بعض المدارس الى ان ماتت امه فأحس بالضياع والفراغ . وكان ذلك من اهم الدوافع التي دفعته الى البحث عن عمل بعيدا عن بريطانيا ، وبالتالي الى الالتحاق بوزارة المعارف العمومية (كما كانت تسمى حينذاك) في مصر . وجاء الى مصر في اكتوبر عام ١٩٠١ ، وارتبطت حياته ارتباطا كاملا وتاما ووثيقا بمصر والمجتمع المصري والشعب المصري الى ان مات في مصر عام ١٩٤٦ وهو في الحادية والثمانين .

في الفترة من عام ١٩٠١ الى عام ١٩١٤ عمل ماكفرسون مدرسا بالقاهرة وبخاصة بالمدرسة الخديوية الثانوية التي يشبهها بمدرسة ايتون الشهيرة في انجلترا ، باعتبارها المدرسة التي تضم ابناء الطبقة الموسرة في مصر ، كما عمل في الوقت ذاته كموظف اداري ومحاضر في وزارة المعارف العمومية ، وهو نفسه يقول عن ذلك ان طبيعة هذا العمل لم تكن واضحة كل الوضوح . وحين قامت الحرب العالمية الأولى التحق بالصليب الاحمر في جاليبولي ثم بسلاح الهجانة في حملة سينا ، ولكنه لم يلبث ان غير مجرى حياته تغييرا تاما عام ١٩١٨ حين شغل وظيفة (مأمور ضبط) وهي ما يعادل منصب رئيس البوليس السري بالقاهرة . وحين تقاعد في آخر الامر من ذلك العمل عام ١٩٢٤ وهو في الثامنة والخمسين من عمره انصرف الى دراسة الدين الاسلامي واهتم اهتماما خاصا بما يسميه الانثربولوجيون بالديانة الشعبية التي تتمثل في الاعياد والاحتفالات ذات الطابع الديني والتي لا تخلو من بعض الممارسات السحرية ، كما اهتم بدراسة التصوف والفرق الصوفية في مصر . ولقد كانت الفترة الطويلة التي عاشها ماكفرسون في مصر فترة مليئة بالاحداث والوقائع والتغيرات والتحولات في مختلف الميادين . فقد مرت مصر اثناء ذلك بحربين عالميتين وشهدت احدى الثورات الوطنية الهامة التي كان لها اثرها البالغ في حياتها وتاريخها وهي ثورة ١٩١٩ وشهدت كثيرا من التغيرات الجذرية في الحياة السياسية . واتاح له ذلك كله ان يشاهد كفاح الشعب المصري ضد الاستعمار وان يرى ثورات الشعب وبخاصة ثورات ـ الطلاب سواء عام ١٩١٩ او في الثلاثينيات ، أي أنه لاحظ وشهد ولمس عن قرب المجتمع المصري وهو في حالة الغليان الثوري ، مثلما رأى عن قرب ايضا حياة الفلاح المصري الوادعة الهادئة البائسة الفقيرة وتسلط الطبقات الغنية الموسرة من ملاك الاراضي والاقطاعيين ، وعاين الفرق الشاسع في مستويات المعيشة ، وشاهد تضخم القاهرة وازدحامها التدريجي بالسكان ، فقد كان تعدادها حين وصل اليها عام ١٩٠١ لا يزيد على اربعمائة ألف نسمة بينما كان تعدادها حين مات عام ١٩٤٦ قد تعدى المليونين ، واحس بكل ما تحمله هذه الزيادة المطردة من آثار وخيمة وتعقيدات في الحياة اليومية والاجتماعية . وقد اتاح له عمله في التدريس في اول حياته العاملة بمصر ان يتعرف على عدد من تلاميذه بالمدرسة الخديوية كان منهم ابن الزعيم المصري احمد عرابي ، ولكنه ارتبط ارتباطا وثيقا بوجه خاص ببعض التلاميذ

الذين شغلوا فيما بعد مكانة مرموقة في الحياة الاجتماعية والسياسية . وترددت في رسائله اسماء معينة مثل ابراهيم زكي الذي اصبح طبيبا مشهورا ، وحامد محمود الذي اصبح فيما بعد وزيرا للصحة . وعن طريق هؤلاء التلاميذ عرف هو طريقه الى البيت المصري والعائلة المصرية سواء في القاهرة او الريف وعرف كثيرا من انماط العلاقات الاجتماعية في مختلف مستويات المجتمع المصري .

وقد اتاح له عمله في سلك البوليس السري ان يتصل اتصالا وثيقا باجواء الجريمة واوساط المجرمين وان يعرف كثيرا عن خباياهم واماكن مزاولتهم لانشطتهم المختلفة والقواعد و(الاخلاقيات) التي تحكم سلوكهم بعضهم ازاء بعض كما اتاح الفرصة من الناحية الاخرى الى ان يعرف - الشيء الكثير عن خفايا النشاط السياسي والوطني في مصر ، اذ كان بحكم وظيفته الرسمية وبحكم انتمائه الى الدولة الاستعمارية ذات النفوذ في مصر يقف موقف المعارضة والمعاداة - للمطالب والامال والتطلعات المصرية نحو الاستقلال ، وكان يتصدى للمظاهرات ويعمل على تفريقها بالعنف اذا لزم الامر وهذا الجانب من نشاطه وعمله في مصر يكشف لنا بوضوح عن وجه البريطاني الاستعماري الضيق الافق المحدودة النظرة . والغريب ان عمله في سلك البوليس السري هو الذي ارتبط اسمه به اكثر من عمله في سلك التدريس او حتى انشغاله فيما بعد بالدراسات الدينية والاسلامية ، على الرغم من أن هذا الاهتمام بالدين نجم عنه في آخر الامر تأليف كتاب طريف عن « الموالد في مصر » . فلقد عرف جوزيف ماكفرسون باسم « اليمباشي ماكفرسون » وحين نشرت رسائله من مصر ، او بعضها على الاصح ، ظهرت تحت عنوان « اليمباشي ماكفرسون : حياة في مصر Bimbash: McPherson: A Life in Egypt »[٥] . بل ان الاذاعة البريطانية خصصت في العام الماضي (١٩٨٣) برنامجا خاصا من عدد من الحلقات تدور حول هذه الرسائل وكان عنوانها كلها هو « اليمباشي ماكفرسون » . وهذا معناه ان فترة عمله في البوليس السري طغت الى حد كبير في اخفاء نشاطه في مجال التدريس ، بل انها القت ظلالا قاتمة كثيفة على جهوده العلمية او شبه العلمية التي بدأت بعد تقاعده وانصرافه لمتابعة النشاط الديني في مصر .

وباستثناء مجموعة الرسائل التي نتحدث عنها هنا فان كتاب « الموالد في مصر Moulids of Egypt »[٦] الذي نشره ماكفرسون عام ١٩٤١ واعتمد فيه على المعلومات (الاثنوجرافية) التي جمعها خلال فترة عمله واقامته الطويلة في مصر يمثل اسهاما طيبا لا يمكن انكاره فيما يتعلق بمحاولته فهم الحياة المصرية (الشعبية) والقاء بعض الاضواء عليها . ولقد كتب مقدمة هذا الكتاب احد كبار علماء الانثربولوجيا البريطانيين وهو المرحوم الاستاذ ايفانز بريتشارد الذي عمل لبعض الوقت استاذا بالجامعة المصرية القديمة ، وهي مقدمة تكشف عن قدرة (الاستاذ) على التحليل والتفسير وتختلف في ذلك اختلافا كليا عن اسلوب ماكفرسون في الوصف والسرد والذي يفتقر الى التعمق . وكثير من رسائل ماكفرسون تشير الى ايفانز بريتشارد ، كما ان الروائي البريطاني الشهير لورانس داريل Lawrence Durrell صاحب الرباعية السكندرية Alexandria Quartet الشهيرة ، والذي كتب مقدمة كتاب « اليمباشي ماكفرسون : حياة في مصر » وهو الكتاب الذي يضم مجموعة الرسائل التي نحن بصددها يشير الى كتاب « الموالد في مصر » اشارات تدل على تقديره له واعجابه به . ويذكر لنا داريل في هذه المقدمة ان ماكفرسون كان قد اهداه كتاب (الموالد) حين التقيا في القاهرة لأول مرة في الاربعينات ، وانه اعتمد عليه اعتمادا كبيرا في التعرف على بعض مظاهر الحياة المصرية وذلك اثناء انشغاله هو بكتابة (الرباعية السكندرية) ، وان النسخة التي اهداها ماكفرسون اليه ، والتي اهداها هو بدوره فيما بعد الى مكتبة

---

(٥) **Bimbashi Mc Pherson, A Life in Egypt,** edited by Barry Carman and John McPherson, Preface by Lawrence Durrell, B.B.BC Publications London 1983.

(٦) J.W. McPherson, **The Moulids of Egypt,** with an Introduction by E.E. Evans — Pritchard, Cairo 1941.

جامعة الينوي بأمريكا ، شاهد على مدى اعتماده عليها ، فهي مليئة بالملاحظات والتعليقات التي كتبها داريل بالقلم الرصاص على معظم صفحات الكتاب . وعلى اية حال فان كتاب (الموالد في مصر) هو دليل واضح على مدى تغلغل ماكفرسون في البيئة المصرية الشعبية واهتمامه بالممارسات الشعبية في مجال هام من مجالات الحياة . ولكن الملاحظ بوجه عام ان ماكفرسون ، رغم كل ما فعله ورغم حياته الطويلة في مصر لم يحتل مكانة بارزة او يكتسب شهرة فائقة في المجتمع المصري ، ولم يفلح في ان يفرض نفسه على هذا المجتمع ، بل انه لم يفلح في ان يحقق نجاحا باهرا يجذب اليه الانظار في اي عمل تولاه ، ولم تكد اوساط المثقفين تشعر بوجوده . ولولا كتابه عن (الموالد) لكان قد مر في تاريخ مصر الثقافي مثلما مر العشرات بل والمئات من الموظفين الاداريين والمدرسين الاجانب الذين عملوا في مصر ولم يتركوا اثرا بارزا واضحا . والغريب ان كتاب (الموالد) نفسه كتاب يكاد يكون غير معروف في مصر نفسها ، ولو ان احد تلاميذي القدامى رجع اليه في اعداد رسالته للدكتوراه من جامعة الاسكندرية حول الموضوع نفسه . وربما لا يوجد الآن سوى عدد قليل جدا من نسخ هذا الكتاب في مصر على الرغم من ان الكتاب يضم ثروة هائلة من المعلومات والحقائق التي تحتاج الى مزيد من التحليل .

ولقد اهتم ماكفرسون اثناء اقامته الطويلة جدا في مصر بالكتابة الى جميع افراد (قبيلة ماكفرسون) بغير استثناء وبصرف النظر عن اختلافات السن . وقد اهتم اعضاء (القبيلة) بدورهم بالاحتفاظ بتلك الرسائل كلها ، بل الاكثر من ذلك ان احد افراد القبيلة عني بكتابة الرسائل ـ او جزء كبير منها على الاقل ـ بالآلة الكاتبة واحتفظ بها في مجلدات بلغ عددها خمسة وعشرين مجلدا تضم اكثر من ثلاثة الاف صفحة كبيرة الى ان كشف احد ابناء اخوته عنها في العام الماضي وقام باختيار بعضها لتقديمه في الاذاعة البريطانية كما ذكرنا ، ثم لكي تنشر بعد ذلك في كتاب كأحد منشورات الاذاعة البريطانية ايضا . ويذكر لورانس داريل في مقدمته للكتاب ان هذه الرسائل عمل كلاسيكي لا يقل روعة او اهمية عن كتاب ادوارد ويليام لين (المصريون المحدثون) ، وانه يملأ الفراغ او الفجوة التي تفصل بين عمل لين والعصر الحديث . وايا ما يكون في كلام داريل من مبالغة ناجمة عن جهله بما كتب ونشر عن المجتمع المصري خلال هذه السنين وبخاصة في مجالات الكتابة الانثربولوجية والسوسيولوجية ، فان كلامه يدل على اهمية الكتاب وقدرة صاحبه على جمع المعلومات وتسجيلها في شكل رسائل ، وهو امر لا يمكن التهوين من شأنه .

●●●

حين وصلت الباخرة (الكونجو Le Congo) الى الاسكندرية يوم اول اكتوبر عام ١٩٠١ قادمة من مرسيليا وعلى ظهرها جوزيف ويليام ماكفرسون ، كان الانطباع الاول الذي خرج به والذي سجله في رسالته الأولى في نفس اليوم الى اخيه جا Ja هو :

« أظن انني سوف احب المصريين . انهم شعب رقيق حلو الطباع ، ومظهرهم يدل على النبل ، ويبدو انهم ينتمون الى نموذج من البشرية افضل بكثير من نموذج الفرنسيين مثلا » .

ثم لا يلبث ان يردف ذلك برسالة الى اخيه دنكان Duncan يبعثها اليه من القاهرة يوم ٩ اكتوبر بعد ان تسلم عمله في المدرسة الخديوية الثانوية ، وفيها يصف عمله وتلاميذه وزملاءه :

« ان الاولاد (والرجال) يسيرون نحو اماكنهم في خطوة عسكرية منتظمة وتحت اشراف ضباط المدرسة ، كما ان الاساتذة (كما يدعوننا) لا يكشفون عن نفس الدرجة من الارتباك التي نجدها في

المدارس الانجليزية . وهناك عدد كبير من الخدم ومن الضباط الذين يباشرون كل شيء باستثناء القاء الدروس . وانا مضطر لارتداء الطربوش ، شأني في ذلك شأن كل الأساتذة والتلاميذ، وذلك بامر مولانا السلطان . وحين يدخل الاستاذ الى الفصل او يخرج منه يقف التلاميذ ، ويرفعون ايديهم الى جباهم بالتحية على الطريقة العسكرية . وليس لديّ حتى الآن ما اشكو منه من سلوك التلاميذ والعقوبة التي تفرض على التلميذ حين نشكوه لأول مرة الى الناظر هي اداء بعض التدريبات والتمرينات الرياضية الطويلة ، بينما تكون عقوبة الشكوى منه للمرة الثانية هي الحبس مع حرمانه من الطعام في الاغلب فيما عدا الخبز والماء . وعلى العموم فان التلاميذ هنا اكثر اهتماما بدروسهم واشد اقبالا على الاستذكار من التلاميذ في انجلترا ، ولذا فانهم اقل منهم اثارة للشغب والمتاعب . . . وتقدم القهوة للاساتذة مجانا في منتصف الفترة الصباحية وكذلك في فترة ما بعد الظهر ، كما ان وجبة الغداء تقدم لهم في منتصف النهار نظير مبلغ رمزي . . ويعرف التلاميذ هنا بعض الفرنسية والانجليزية بالاضافة الى اللغة العربية . . ومعظم التلاميذ شباب في غاية اللطف (ولا يكادون يختلفون في شيء عن زملائهم الانجليز) .»

ويبدو ان ماكفرسون ظل محتفظا بهذه الفكرة عن التلاميذ المصريين لفترة طويلة من الزمن وكان يحب ان يعود للموضوع من حين لآخر ويقارن بين سلوك التلميذ المصري وسلوك التلميذ الانجليزي سواء في الفصل او اثناء اللعب او اثناء تأديته للامتحانات . والمعلومات التي يذكرها في رسائله حول هذه المسألة خليقة بأن تثير الانتباه وتدعو الى المقارنة مع واقع الحال الآن في المدارس المصرية ، واكاد اقول في المدارس العربية بوجه عام . ففي رسالة بتاريخ ٣٠ يونيو ١٩٠٣ مثلا يكتب اثناء المراقبة في احدى لجان الامتحان للشهادة الابتدائية يقول :ـ

« بالاضافة الى كل ذلك العدد الهائل من المدارس الوطنية أو الكتاتيب حيث لا يكاد يدرس شيء سوى القرآن ، وفيما عدا الجامعة الاسلامية (الأزهر) الذي يدرس فيه خمسة عشر ألف طالب أو أكثر ، فإن هناك عددا من المدارس التي تتبع الجزويت وغيرهم من الارساليات الكاثوليكية والارسالية الأمريكية ، كما أن هناك مدارس ألمانية ويونانية وفرنسية (وإن كان من الغريب أنه لا توجد مدرسة واحدة بروتستانتية أو انجليزية في مصر) وذلك بالاضافة الى نظام التعليم العادي في المدارس الحكومية التي تعتبر المدرسة الخديوية أفضلها وأكثرها امتيازا . . . ان امتحان الشهادة الابتدائية يعقد اليوم . والواقع أنه لمشهد رائع في لجنة المدرسة الخديوية حيث يجلس ثلاثة آلاف تلميذ يرتدون الطرابيش الحمراء ويشغلون ثلاثة ملاعب لكرة القدم ويجلسون في خيام ذات ألوان زاهية ، كما أن النظام والترتيبات الأخرى على درجة عالية من الكمال ، بحيث إنه من بين الثلاثة آلاف طالب الحريصين أشد الحرص على أداء امتحاناتهم لا تكاد تجد واحدا على مائة من حالات الغش والفوضى التي تصاحب امتحان مائتي تلميذ في مدرسة ويكفيلد مثلا أو أي مدرسة انجليزية أخرى من المدارس التي أعرفها . فالسكون والنظام التام يسودان من البداية حتى النهاية » .

وقد عكف ماكفرسون منذ البداية على تعلم اللغة العربية باعتبار أن ذلك هو أفضل وسيلة ليس فقط لمعرفة تلاميذه وفهمهم والاتصال بهم ، بل وأيضا لفهم المجتمع الذي يعيش فيه ويتعامل معه ككل . وقد ساعده على إجادة اللغة العربية قدراته الطبيعية على تعلم اللغات ، وبذلك لم تمر سوى سنوات قليلة حتى أتقنها وأصبح يتحدث بها في سهولة ويسر وطلاقة . وقد أعانه ذلك على الاختلاط بمختلف فئات المجتمع المصري ، وكانت وسيلته في بداية الأمر

على الأقل بعض تلاميذه كما ذكرنا من قبل . والخطاب الذي أرسله الى « دنكان والعائلة » من القاهرة يوم ٢٣ نوفمبر ١٩٠١ ، أي قبل أن يمر شهران على وصوله الى الاسكندرية ، دليل على مدى نجاحه في اقامة علاقات قوية مع بعض هؤلاء التلاميذ وعائلاتهم ، ويعطينا من ناحية صورة واضحة عن أسلوب حياة بعض الطبقات الموسرة في مصر في ذلك الحين ، كما يعطينا من الناحية الأخرى صورة واضحة أيضا عن (أسلوبه) هو في الكتابة وطريقته القصصية البسيطة في الوصف والسرد وعرض الأحداث .

« لقد عدت توا من اجازة قصيرة تعتبر من أمتع الاجازات والعطلات في حياتي وأكثرها أصالة . لقد جاءني في البيت صباح يوم الخميس أحد تلاميذي ، وهو محمود صدقي محمود ومعه شقيقه حامد محمود وابن عمه ابراهيم زكي ومعهم (عربية) حملتنا الى محطة السكة الحديدية ، ومنها أخذنا القطار الى طوخ التي تبعد بحوالي أربعين ميلا عن القاهرة في اتجاه دمياط تقريبا . وفي طوخ كان في انتظارنا عربة (دوكار) يجرها جواد عربي رشيق . وقد سلموني أنا العنان حيث انطلقنا في رحلة مثيرة نحو البيت على بعد خمسة أميال تقريبا ، وهناك استقبلنا الأب محمد أفندي محمود بكثير من الود والترحاب . . ولقد شاركت محمود صدقي وحامد محمود في غرفة فسيحة بها سرير ضخم ومزودةمثل بقية البيت بقضبان ومزاليج حديدية كما هو شأن قلاع وحصون القرون الوسطى ، كما كانت توجد السدسات الى جوار كل سرير ، فالمنطقة لا تخضع تماما لحكم القانون (وأغلب الظن أن أقرب أوربي في المنطقة يعيش على بعد عشرين الى ثلاثين ميلا من هنا) ، كما أنه لا توجد أية بيوت أخرى سوى الأكواخ الطينية التي يسكنها الفلاحون والتي تبعد عن البيت بعدة أميال . ومع أن رئيس احدى العصابات المشهورة التي تتألف من ستين لصا والذي يثير الرعب في المنطقة كلها (أكل عيش وملح) معنا جميعا في حديقة محمد محمود هذا المساء وبذلك كانوا يعتبرونه حاميا وحارسا لنا ، فإن هناك عصابات أخرى قد تكون أقل شأنا ولكن لها شهرة في ارتكاب حوادث القتل والسرقة بقصد التسلية . وكان يحوم حول المكان عدد كبير من كلاب الحراسة التي تشبه الذئاب في مظهرها .

كان الغداء (في اليوم التالي) يتألف من الشوربة وبعض الدواجن وطائر السمان بصلصة الكاري ثم السمك المحشو بلحم (الكابوريا) ثم لحم الضأن مع السلاطة ثم لحم البقر المطهو مع الباذنجان والاسباراجوس وغيرها ثم المكرونة ، وبعد ذلك التين والكمثرى والعنب ، ثم جبن الكاممبير ومع هذا كله النبيذ والكونياك وغير ذلك كثير . وما كدنا ننتهي من تناول القهوة والكونياك حتى جاء أحد موظفي دائرة الخديو الذي يملك عزبة من أربعة آلاف فدان بجوار عزبة محمد محمود ، وكان ينزل ضيفا على شخص يدعى حسن بك طنية (؟) . وكان ابنه أحمد عزيز حسن طنية قد شاركنا العشاء في الليلة السابقة . وطلب منا أن نزور حسن بك . وكان قد جاء « بفرس عربي أصيل من خيول الخديو لكي أركبه ، بينما امتطى الآخرون الخيول أو الحمير . وانطلقنا بين الحقول الى عزبة حسن بك على بعد ثمانية أميال تقريبا . . . وكان طنية قد أعد استقبالا مهيبا ، وفيه قدموني لكل شيوخ المنطقة . وقام (السفرجية) بتقديم القهوة والشربات ثم مدت بعدها مأدبة ضخمة من الفواكه . ولست أدري كيف أمكننا أن نأكل هذا القدر الهائل من الفواكه بعد وجبة الغداء الضخمة . . وسكب الخدم بعد ذلك الماء والعطور على أيدينا وقاموا بتجفيفها بعناية . . وقد عدت على ظهر الفرس نفسه . . وقد قدموا لنا الشاي عند غروب الشمس وكان حفل شاي ممتازا حضره عدد من الضيوف كان بينهم علي أفندي بابا ، كما

أسميه حسب اسم زعيم عصابة اللصوص الشهير .. ولقد اضطررنا الى أن نختصر أمسية رائعة حتى نستطيع اللحاق بآخر قطار . . . »

وكما هو المتوقع ، وكما كان الشأن بالنسبة لليدي دف جوردون والكثيرين من الأجانب الذين يزورون مصر ويعيشون فيها ، فإن الحياة الدينية والطقوس والشعائر والاحتفالات الشعبية حظيت بقدر كبير من اهتمام ماكفرسون الذي أتيحت له فرصة حضور عدد كبير من حفلات الزواج عند الطوائف المختلفة التي كانت تعيش في مصر في ذلك الحين بما في ذلك أقباط مصر والأرمن واليونانيين . وقد ذكر بسرور وفخر في احدى رسائله أنه كان الأجنبي الوحيد في حفل زواج حضره حوالي خمسمائة مدعو . بل ان أصدقاءه المصريين كثيرا ما كانوا يصطحبونه معهم الى احتفالات ومناسبات دينية لم يكن من المفروض أن يحضرها غير المسلمين . وبذلك استطاع أن يحضر بعض حفلات الذكر ، وأهم من ذلك حفلات الزار التي لا يحضرها سوى النساء وأن يلاحظ عن قرب ما يحدث فيها ويصف مشاهداته بكثير من التفاصيل والدقة . ويكفي أن نستشهد هنا بما ذكره عن احدى حفلات الذكر التي حضرها في بولاق وذلك في رسالة له بتاريخ ١٩ أكتوبر ١٩٠٢ وإن كان يطلق كلمة « الذكر » فيها على المشتركين في احياء الحفل :

« الذكر هو لفيف من المسلمين الشديدي التدين الذين يستمدون ذلك الاسم من تكرار وذكر اسم « الله » . ويقنع الذكر في كثير من الأحيان بالجلوس على الأرض حول « فانوس) وهم يرددون اسم الله بغير توقف ، ويتمايلون برؤوسهم وأجسامهم بما يتفق وترديد الكلمة . والمفروض أن الحكم البريطاني قضى على حالات المبالغة والمغالاة التي كانوا يذهبون اليها في بعض الأحيان .

وحين وصلنا الى المنطقة المتمولة في بولاق حيث يقام الذكر ألفينا أنفسنا في بقعة من الأرض تقرب مساحتها من مساحة ملعب التنس بين بيوت الأهالي ، وقد زينت بالأعلام واصطفت المقاعد المستطيلة في جانب منها وفرشت بالسجاد . وكان (الذكر يجلسون على الأرض في شكل حلقة وهم ينشدون ويرددون (لا اله الا الله) بينما كان يجلس عدد كبير من المشايخ والناس العاديين أو يقفون حول (الذكر) ولم يكن بينهم أي أوربي آخر .

وقد دعاني أحد المشايخ ـ وهو رجل متقدم في السن ولطيف ـ للجلوس في موضع ممتاز كما وضعت لنا الوسائد لكي نتكىء عليها وقدمت لنا القهوة . وفجأة وثب رجل من بين (الذكر) وسط الحلقة وأخذ يصدر أصواتا عالية تتجاوب في تناغم مع الكلمات التي يرددها الآخرون ، وشيئا فشيئا انضم اليه أشخاص آخرون وأخذ الجميع يصدرون أصواتا عميقة كالفحيح من صدورهم . ثم جاءوا ببعض الآلات الموسيقية الوطنية (معظمها طبول ومزامير ودفوف) وأخذ وقع الأنغام يزداد في السرعة الى أن أصبح كل أفراد المجموعة يصدرون ذلك الصوت من صدورهم في شدة وعنف ، وكان معظمهم يتمايلون بأجسامهم بينما أخذ البعض يدورون بسرعة حول أنفسهم مثل المغازل ، وأخذ فريق ثالث يتلوون حول أنفسهم بشكل مثير ، ثم بدأ عدد كبير من الحاضرين في الانشاد بأصوات عالية والباقون يتبعونهم حتى أصبحت الضجة تصم الآذان .. »

ويتابع ماكفرسون بكثير من الدقة البالغة وصف تفاصيل ما يحدث فيتكلم عن الأشخاص الذين يطعنون أجسامهم بالمدى والسكاكين والسيوف المعقوفة ، أو الذين يأكلون الزجاج والنار والعقارب ، والذين يمارسون بعض

الاجراءات والعمليات التي تكفل لصاحبها الوقاية من السموم ومن أذى الحشرات والحيوانات القاتلة بينما الجميع يرددون طيلة الوقت اسم الجلالة إلى أن يقول :

« وبعد منتصف الليل بقليل جاء الطعام والشراب من البيوت المجاورة وبكميات هائلة ، ودعونا للعشاء مع الذكر ، ثم تناولنا القهوة وبعض العنب وانصرفنا ، وحين وصلت الى البيت كانت الساعة قد بلغت الواحدة والنصف صباحا ولكنهم كانوا قد بدأوا يعودون مرة ثانية لاستئناف الذكر . وتوجهت الى سريري للنوم ولا تزال (لا اله الا الله) تتردد في أذني » .

وربما كان أحد أهم الاحتفالات الدينية التي تعرض لها بالوصف في رسائله والتي اختفت ولم تعد تمارس في مصر هو الاحتفال بذكرى مقتل الحسين . وقد كتب عنه بالتفصيل في رسالة مطولة الى أخيه دوجال Dougal بتاريخ ٢٣ مايو ١٩٠٢ . وكما هي عادته اكتفى بالوصف والسرد البسيط للأحداث التي مرت أمام عينيه دون أن يحاول التعمق في فهم تلك المشاهد ، ولو كانت لوسي دف جوردون هي التي عرضت لهذا الاحتفال لكان لكتابتها شأن آخر . أما هو فيكتفي بالقول :

« لقد شاهدت منذ بضعة أسابيع احتفالا غريبا للغاية أقامه بعض الايرانيين من أتباع الحسين حفيد الرسول (فيما أعتقد) ، والذين يعتبرون في نظر بقية المسلمين من غلاة الطائفيين ولا يكادون يعترفون بهم ، لأن مقتل الحسين وأخيه كان بداية لتحول الخلافة . ومع ذلك فان المسلمين يسمحون بهذا الاحتفال وباستخدام مسجد الحسين لممارسة الجزء الأول منه . ويبكي الايرانيون ويندبون استشهاد الحسين ثم يسيرون في موكب وسط الشوارع تحت وهج المشاعل وهم نصف عرايا في بعض الأحيان ويطعنون صدورهم بسيوف حادة معقوفة . وحين مر الموكب بنا لاحظت كيف كانت رؤوسهم تنزف بشدة من كل جانب وقد غطت الدماء أعينهم وأجسامهم بينما كانت ملابسهم يقطر منها الدم حتى أصبحت الشوارع لزجة من الدماء . وكان رجال الشرطة تحت قيادة بريطانية برأسها ماسفيلد بك يحرسون الموكب ويصدون عنهم الجماهير الملحة ويدفعونها بالسياط أو يطون سيوفهم . . . »

ولقد زالت هذه الاحتفالات وغيرها واختفت تماما من المجتمع المصري بعد أن كانت تؤلف جزءا هاما من الثقافة الشعبية في مصر . وليس لدينا معلومات وفيرة عن كثير من هذه الشعائر والطقوس والممارسات ومن هنا فان ما سجله ماكفرسون عنها في رسائله يسد بغير شك فجوة واسعة في معلوماتنا في هذا المجال ، وهو ما يعطي تلك الرسائل قيمة علمية عالية رغم كل ما يقال عن عجز ماكفرسون وقصوره وعدم قدرته على تحليل هذه (الظواهر) الثقافية .

●●●

وتغطي رسائل ماكفرسون فترة هامة من تاريخ مصر كانت مليئة بالأحداث الهامة التي غيرت من مجرى تاريخها السياسي ، وهي الفترة التي تلت الحرب العالمية الأولى وشهدت اندلاع ثورة ١٩١٩ وخروج الشعب المصري يندد بالاستعمار البريطاني وتعرض السلطة البريطانية لتلك المظاهرات . . وكما سبق أن ذكرنا فان الدور الذي قام به ماكفرسون خلال تلك الفترة التي تمتد بالنسبة اليه حتى عام ١٩٢٤ كان مخالفا تماما للدور الذي لعبه قبل هذه الفترة وبعدها حتى وفاته . وقد كشف موقفه من مصر ومن شعب مصر ومن المجتمع المصري خلال هذه الفترة العصيبة عن وجه المستعمر البريطاني الذي يمجد سياسة لورد كرومر المتعجرف والذي ينعي على المصريين عدم تقديرهم للدور

الحضاري الذي كانت تقوم به بريطانيا في مصر ، وتسجل رسائله كثيرا من تفاصيل هذه الأحداث السياسية حتى قبل الحرب العالمية مثل حادث دنشواي ومقتل بطرس غالي . وكثير من هذه التفاصيل من شاهد عيان قد تفيد المؤرخين فضلا عن السوسيولوجيين والانثربولوجيين ، كما أنها تزود القارىء بكثير من المعلومات عن الأساليب التي كان الانجليز يتبعونها في مقاومة ثورة الشعب المصري عام ١٩١٩ ، فكثيرا ما كان ماكفرسون نفسه يقف على رأس القوات التي تتصدى للمظاهرات ويقاومها بالعنف والقسوة ، كما تعرَّض للمقاومة السرية والجمعيات التي كانت تنبع في كثير من الأحيان من الأزهر وتقوم بجمع الأموال والتبرعات التي كان يسميها في رسائله (الأتاوات التي تفرض عن طريق التهديد والابتزاز) مثل جمعية « اليد السوداء » و « العين الحمراء » ، حتى يمكن الانفاق منها على النشاط الثوري . وقد حاول في رسائله أن يلصق بهذه الجمعيات التي يقول أنها بدأت في الأزهر كل أنواع الجرائم والموبقات ، وكان يرى في إضراب الموظفين واعتصامهم تجاوبا مع الرأي العام الذي التف حول سعد زغلول نوعا من المهانة والاذلال لبريطانيا . والتفاصيل كثيرة جدا ، والرسائل طويلة جدا أيضا وكلها تعبر عن مرارة الفشل ، ولكنها خليقة بالقراءة والاهتمام ، خاصة وأنها تصدر عن رجل شارك بمعنى ما في تلك الأحداث ، ويعتبر بذلك شاهدا على العصر ، كما تعتبر كتاباته شهادات حية ، بصرف النظر عن الزاوية التي رأى منها تلك الأحداث .

ولكنه قبل أن يتقاعد عام ١٩٢٤ من عمله أو وظيفته « كمأمور ضبط » اشترك في الحملات التي كان ينظمها (قومندان البوليس) رسل باشا ضد مهربي المخدرات . ويعترف في رسائله بأن المسألة لم تكن سهلة أو هينة ، ليس فقط بسبب تحايل تجار ومهربي المخدرات وقدراتهم الفائقة على خداع (البوليس) ولكن أيضا لأن معظم المهربين كانوا من الأجانب الذين يتمتعون بالامتيازات الأجنبية ويحظون بنوع فريد من الحماية بحيث لم يكن من الميسور القبض عليهم الا بواسطة شرطة القنصليات التي يتبعونها . ويحكي في رسائله عن بعض مغامراته وعن الهجمات التي شنها على أوكار المدمنين ، ولكنه ظل حتى النهاية يؤازر سياسة الامبراطورية البريطانية المتشددة في مصر ، وكان آخرها الاجراءات التي اتخذت بعد مقتل السردار وذلك قبل أن يتقاعد بوقت قصير .

ولكن حتى بعد أن تقاعد ظل يعيش في مصر ، وبدأ يعاوده حنينه الى الحياة المصرية الوادعة البعيدة عن مشاكل السياسة ، وظل يراسل أفراد عائلته حول كل ما يشاهده أو يطرأ على ذهنه من أفكار . وأعطى معظم اهتمامه ووقته لدراسة التصورات الشعبية للدين في مصر ، وازداد اتصاله برجال الدين ورجال الطرق الصوفية وأصدر كتابه عن (الموالد في مصر) الذي سبقت الاشارة اليه . وفي الثامن عشر من يناير عام ١٩٤٦ أحس برعشة من البرد فاعتكف في البيت لمدة أربعة أيام وطلب في اليوم الرابع من خادمه (السيد) أن يقدم له شرابا ساخنا ، ولكنه استلقى فجأة على ظهره وقد فاضت روحه . ودفن جوزيف ويليام ماكفرسون في القاهرة وقد نقش على قبره كلمة واحدة فقط « وداعا » .

●●●

في مقدمته لكتاب (رسائل ايفلين وو) يقول مارك آموري Mark Amory (٧) إن فن كتابة الرسائل يحتضر نتيجة لظهور أساليب ووسائل جديدة للاتصال بين الناس ، وأن أكبر أعداء فن كتابة الرسائل أو أدب المراسلات هو التليفون وأننا قد نشهد قريبا تسجيلات كاملة للمكالمات التلفونية التي تتم بين الشخصيات المشهورة البارزة تحل محل أدب

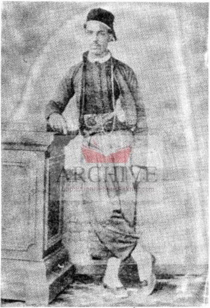
(٧) **The Letters of Evelyn Waugh**, "preface" by Mark Amory, (editor), Weiden feld and Nicolson, London 1981.

المراسلات . وقد يكون في هذه النظرة غير قليل من التشاؤم . فمهما يطرأ من تطورات على أساليب الاتصال أو (التواصل) فان الكتابة سوف تظل في الأغلب أداة فعالة في تسجيل الخواطر والأفكار والملاحظات والتعبير عنها بدرجة عالية من الوضوح والتحليل العميق . ويصدق هذا بوجه خاص على الملاحظات والأفكار التي يسجلها أصحابها عن المجتمعات والثقافات الغريبة التي يتاح لهم الاقامة فيها أو الاحتكاك بها ودراستها عن قرب ، وتحليل عناصرها ومكوناتها كما هو الحال في رسائل لوسي دف جوردون وجوزيف ماكفرسون وغيرهما . فمثل هذه الرسائل لا تعبر فقط عن خواطر شخصية عابرة يمكن نقلها أو (توصيلها) عبر التليفون أو أي وسيلة أخرى من وسائل الاتصال الحديثة المعروفة ، وانما هي نظرات عميقة متأنية في الحياة والمجتمع وان اختلف حظ أصحابها من القدرة على الملاحظة والوصف والتحليل والفهم . ومن هنا كانت نظرتنا الى هاتين المجموعتين من الرسائل اللتين ظهرتا في كتاب (رسائل من مصر) وكتاب (البمباشي ماكفرسون) على أنها سجل التوجرافي للمجتمع المصري ، أو بعض قطاعاته ، في فترتين مختلفتين من تاريخه . ففي الوقت الذي ودعت فيه لوسي دف جوردون الحياة (عام ١٨٦٩) كان جوزيف ماكفرسون يستقبل الحياة (ولد عام ١٨٦٦) . والفترة التي تفصل بين هاتين المجموعتين من الرسائل تقرب من نصف قرن ، كما أن رسائل ماكفرسون نفسه تغطي فترة تقرب من نصف قرن آخر ، وخلال كل هذه السنوات الطويلة (من عام ١٨٦٢ حين بدأت الليدي دف جوردون تكتب رسائلها حتى عام ١٩٤٦ حين توفي ماكفرسون) مر المجتمع المصري بكثير جدا من التغيرات الجذرية العميقة في بنائه ونظمه الاجتماعية وثقافته الشعبية ، بل أن كثيرا من مظاهر الحياة التقليدية قد اندثر ولا نكاد نجد شيئا عن تفاصيلها الا في الرسائل والمذكرات الخاصة . ومن هنا كان اعتقادنا بضرورة أن يعطي علماء الانثربولوجيا بالذات لهذه الرسائل شيئا من الاهتمام والعناية . فمعظم الباحثين الانثربولوجيين في الوقت الحالي لا يزالون أسرى الموضوعات التقليدية التي بدأ بها الأساتذة الرواد ، ولم يحاولوا في الأغلب ارتياد مناطق ومجالات جديدة في البحث . وهذا لا يعني أبدا التهوين من شأن تلك الموضوعات التقليدية ، فهي رغم كل شيء هي الأساس القوي المتين للبحث الانثربولوجي الأكاديمي ، كما أنه لا يعني أبدا إنكار الجهود التي يقوم بها بعض الباحثين الشبان لتجديد دماء الانثربولوجيا ببحوث جديدة مبتكرة في مجالات لم تطرق من قبل . وكل ما أعنيه هو أن الرسائل والمذكرات الشخصية التي تسجل كثيرا من مظاهر الحياة في مراحل سابقة من تاريخ المجتمع تؤلف مجالا من أخصب المجالات التي يمكن للباحث الجاد أن يطرقها في بحوثه لكي يلقي بعض الأضواء على تلك المراحل ، مستعينا في ذلك بأسلوب ومناهج البحث الحديثة مما يؤدي الى اثراء الدراسات السوسيولوجية والانثربولوجية المعاصرة .

د . أحمد أبو زيد



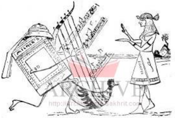
الليدي لوسى دف جوردون
(حين كانت في السابعة والعشرين من عمرها) عام ١٨٤٨
(من كتاب : رسائل من مصر)



عمر
خادم لوسى دف جوردون وصديقها
(من كتاب : رسائل من مصر)



احدى رسائل جمع الأموال التي كانت
ترسلها جماعة العين الحمراء أثناء ثورة ١٩
(من كتاب اليمباشي ماكفرسون)



رسم كاريكاتيرى يبين لورد ملنر يحاول التودد إلى مصر لكى تقبل

(تقرير ملنر) الشهير

(من كتاب البمباشى ماكفرسون)



علامة أحد أصناف المخدرات
(الحشيش)
(من كتاب اليمباشى ماكفرسون)

أدب المراسلات في العصر الأموي

حسين نصار
كلية الآداب بجامعة القاهرة

التراسل أمر بعيد موغل في القدم ، رافق - في ظني - نشأة الجماعة البشرية ، وظهور الحاجة الى التفاهم عن بعد . غير أن هذا التفاهم كان في نشأته الأولى شفاهيا ، ينقله وسيط من المحتاج الى المحتاج اليه ، لأن الانسان لم يكن قد عرف التدوين . وعند ما عرفه واستخدمه في أغراضه ، كان من المواطن التي استخدمه فيها التراسل .

ومن أقدم ما أذكره تلك الرسالة التي يذكر التاريخ أن ملك الهكسوس في مصر أرسلها الى حاكم طيبة في الصعيد يتحرش به ، ويدعي أن نقيق الضفادع عنده يؤرقه .

واذا تركنا التاريخ البعيد الى جاهلية العرب القريبة من الاسلام وجدنا كثيرا من الرسائل تروي الأخبار أن أصحابها كتبوها ، وارسلوها الى من أرادوا . وأمثل لها بالرسالتين اللتين يقال أن عمرو بن هند كتبهما الى عامله على البحرين ، وأرسلهما مع المتلمس وطرفة بن العبد ، يأمره فيهما بقتلهما ، وبالرسائل التي أرسلها لقيط بن يعمر الايادي وعبدالعزي بن امرىء القيس الى قومهما لتحذيرهم ، ثم بالرسائل المتبادلة بين كعب بن زهير بن أبي سلمى وأخيه أبجر بعد إسلام الثاني .

ولا يحتاج إلى تدليل أن نذكر أن التراسل انتظم واتسع نطاقه بقيام الدولة الاسلامية وامتداد رقعتها شرقا وغربا ، كما هو معروف ، ولكن الأمر الذي يحتاج الى ذكر وتأكيد العمل الذي قام به عمر بن الخطاب . فقد أنشأ نظاما ثابتا لنقل الرسائل سمي بالبريد ، ولم يقصره على البريد الرسمي ، بل أباحه لأفراد الشعب[1] . ولا شك أن هذا العمل يسّر الاتصال ، ودفع الناس الى كتابة الرسائل وتبادلها ، فازداد عددها ، واتسع مجالها .

(١) جمهرة رسائل العرب ١ : ٩٥١ .

ولكن هل كانت هذه الرسائل أعمالا فنية يمكن أن نضعها تحت عنوان الأدب . ذلك ما لا أقوله ، وأنفيه دون تردد . فالرسائل الأدبية ـ في رأيي ـ لا تسعى نحو التفاهم وحده ، ولا تصدر عفوية حاملة لغة الحديث اليومي مهما بلغت من الفصاحة . وانما أرى أن الرسالة الأدبية يجب أن ترمي الى امتاع المرسلة اليه ، ومن يطالعها بعده ، وأن تحتوي على فيض قلّ أو كثر من مشاعر كاتبها ، وأن تقصد الى تفجير طاقات اللغة التي تكتب بها ، وفقا لوعي الكاتب بهذه الطاقات ، وقدرته على تفجيرها .

ولم يقع شيء من ذلك في الرسائل الجاهلية ولا الاسلامية الأولى ، وان كشفت الرسائل الاسلامية المتأخرة عن بوادر بوعي فني .

قد يعترض معترض ـ عن حق ـ فيذكرني بأن كثيرا من الرسائل الجاهلية لم تشتمل الا على قصائد من الشعر الجيد ، الذي لا يستطيع أن يماري أحد في فنيه . فاتفق معه ، وأعلن : حقا أذكر ، وحقا هي فنية ، غير أنها من فن آخر غير الذي أعنيه ، أريد أنها من فن الشعر ، وليست من فن المراسلات ، الذي ينتمي الى النثر . وقد فعل القدماء من الأدباء فعلي ، فوضعوا رسائل النابغة الذبياني في الاعتذار الى النعمان ، ورسالة سلامة بن جندل الى صعصعة بن محمود بن عمرو التي مدحه فيها لاطلاقه سراح أخيه أحد ، وضعوها في ديوانيهما . بل عدوا رسائل النابغة أحسن شعره . وكذا فعلوا مع غيرها .

•••

ازدهرت حركة التراسل في العصر الأموي ازدهارا رائعا . فقد توطدت سلطة الدولة ، وأمن الناس ، وبرزت طموحاتهم ، وتعددت حاجاتهم ، في عهود كثير من الخلفاء ، وخاصة معاوية وعبدالملك وابنيه الوليد وهشاما .

فتنوعت الرسائل التي تبادلوها تنوعا كبيرا يفوت الحصر ، لأن كثيرا منها تبادله الاصدقاء في شئون شخصية أو سقط من التاريخ . وعلى الرغم من ذلك فيما بقي ما يقنع ويرضي .

أود أن أبدأ بالرسائل التي أبعدها عن الفن لنحدد المجال أمامنا فندق الدراسة . فأبدأ بالرسائل التي تبادلوها يطلبون فيها أمورا من العلم . فقد دون عبدالله بن عباس صحفا في الحديث والتفسير اشتهرت بين الناس ودأبوا على الرجوع اليها . قال موسى بن عقبة[٢]: وضع عندنا كريب حمل بعير من كتب ابن عباس ، فكان علي بن عبدالله بن عباس اذا أراد الكتاب كتب اليه : ابعث اليّ بصحيفة كذا وكذا . فينسخها ويبعث بها . وكتب عبدالعزيز بن مروان الى كثير بن مرة الحضرمي ـ الذي أدرك سبعين ممن اشتركوا في غزوة بدر من الصحابة ـ أن يكتب اليه بما سمع من الصحابة غير أبي هريرة فان أحاديثه عنده[٣]. وكتب عبدالملك بن مروان الى سعيد بن جبير يطلب إليه أن يكتب له تفسير القرآن ، ففعل واحتفظ عبدالملك بهذا التفسير الذي اطلع عليه عطاء بن دينار ورواه[٤].

---

(٢) طبقات ابن سعد : ٢١٦ .

(٣) الطبقات ٧ / ٢ : ١٥٧ .

(٤) الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٣/١ : ٣٣٢

وتبادل عبدالملك وعروة بن الزبير رسائل عدة خاصة بمسائل من التاريخ ، مثل هجرة الحبشة ، وغزوة بدر ، وفتح مكة . ومن حسن الحظ أن محمد بن اسحاق والواقدي والطبري احتفظوا ببعض الرسائل التي لبى فيها عروة طلبات عبدالملك . وتمثل تلك الرسائل أقدم نصوص النثر التاريخي العربي المدون . جاء في تاريخ الطبري[٥]: « ثنا هشام بن عروة عن عروة أنه كتب الى عبدالملك بن مروان :

أما بعد

فانك كتبت اليّ في أبي سفيان ومخرجه ، تسألني : كيف كان شأنه ؟

كان من شأنه أن أبا سفيان بن حرب أقبل من الشام في قريب من سبعين راكبا ، من قبائل قريش كلها ، كانوا تجارا بالشام . فأقبلوا جميعا معهم أموالهم وتجارتهم فذُكروا لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وقد كانت الحرب بينهم قبل ذلك . فقُتلت قتلى ، وقتل ابن الحضرمي في ناس « بنخلة » . وأُسرت أسارى من قريش ، فيهم بعض بني المغيرة ، وفيهم ابن كيسان مولاهم . أصابهم عبدالله بن جحش وواقد حليف بني عدي بن كعب ، في ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثهم مع عبدالله بن جحش . وكانت تلك الوقعة هاجت الحرب بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين قريش . . . »

ولعل الأهم هنا المقال ما تبادلوه من رسائل خاصة بشئون الأدب ، وإن لم تكن الرسائل نفسها فنية . وأول هذه الشئون تعليم الشعر . قيل : إن زياد بن أبيه أرسل ابنه عبيد الله الى معاوية بن أبي سفيان فسأله عن أشياء من العلم فوجده عارفا بكل ما سأله عنه . فاستنشده شعرا ، فقال : لم أرومنه شيئا . فكتب معاوية الى زياد : ما منعك أن ترويه الشعر ؟ فوالله ان كان العاق ليرويه فيبر ، وان كان البخيل ليرويه فيسخو ، وان كان الجبان ليرويه فيقاتل[٦] .

وهذه الرسالة تأكيد للنصائح التي وجهها كثير من رجالات العرب توصي بالعناية بالشعر ، مثل عبدالله بن عباس ، وعبدالملك بن مروان الذي قال لمؤدب ولده : روّهم الشعر يمجُدوا وينجدوا[٧] .

ومن هذه الشئون استدعاء رواة الشعر والعارفين به . قال ياقوت في معجم الأدباء[٨]: كتب عبدالملك بن مروان الى الحجاج :

« انظر لي رجلا عالما بالحلال والحرام ، عارفا بأشعار العرب وأخبارها ، أستأنس به ، وأصيب عنده معرفة ، فوجّهه اليّ من قبلك » .

---

(٥) ١ : ١٢٨٤ .
(٦) العقد الفريد ٦ : ١٢٥ .
(٧) العقد ٦ : ١٢٥ .
(٨) ١ : ٩٦ .

فوجه اليه الشعبي ، وكان أجمع أهل زمانه . وعلى الرغم من ذلك قال الشعبي بعد أن التقى به : فلم آتِ واليا ولا سوقة ، الا وهو يحتاج اليّ ولا أحتاج اليه ، ما خلا عبدالملك ، ما أنشدته شعرا ، ولا حدثته حديثا ، إلا وهو يزيدني فيه . وكنت ربما حدثته - وفي يده اللقمة - فأمسكها . فأقول : يا أمير المؤمنين : أسِغْ طعامك ، فان الحديث من ورائه . فيقول : ما تحدثني به أوقع بقلبي من كل لذة ، وأحلى من كل فائدة .

وقال حماد الراوية[٩] : أرسل الوليد بن يزيد اليّ مائتي دينار ، وأمر يوسف بن عمر بحملي اليه على البريد ، فقلت لا يسألني الا عن طرفيه : قريش وثقيف . فنظرت في كتابيهما .

ومن هذه الشئون السؤال عما يلتبس من المعاني أو يشعر السائل بالحاجة الى معرفته . قالوا : ان أبا عمرو بن العلاء - العالم الكبير - كان يرسل أخاه معاذا الى الحارث بن خالد بن العاص ، الشاعر الغزل الذي تولى مكة ، ومعه رسائل فيها مسائل يسأله عنها[١٠] .

وذكر الأصمعي[١١] الامويين وشغفهم بمعرفة الشعر فقال : كانوا ربما اختلفوا - وهم بالشام - في بيت من الشعر أو خبر أو يوم من أيام العرب ، فيُبردون فيه بريدا الى العراق . وقال غيره : كنا نرى في كل يوم راكبا من ناحية بني أمية ينيخ على باب قتادة بن دعامة السدوسي ، يسأله عن خبر أو نسب أو شعر ، وكان قتادة أجمع الناس .

وكتب عبدالملك بن مروان[١٢] الى الحجاج يوما : أنت عندي كسالم . فلم يدر ماذا يريد . فكتب الى قتيبة بن مسلم ، وكان راوية للشعر . فكتب اليه : ان الشاعر يقول :

يديرونني عن سالم وأديرهم وجلدة بين الأنف والعين سالم

ومهما يكن من أمر ، فإن هذه الرسائل وثيقة الصلة بالأدب ، ولكنها ليست من الفن في شيء ، ولذلك لا يأبه بها هذا المقال ، وكان على أن أبدأ بإبعادها ، وإبانة أسباب ذلك الابعاد .

●●●

وننتقل الى الرسائل التي يهمنا أمرها . ونستهل الحديث عنها بالتقسيم الذي اعتاد الأدباء العرب أن يقسموا الرسائل الأدبية اليه . فهي عندهم صنفان : رسائل إخوانية ، وأخرى ديوانية . أما الاخوانية فالرسائل التي يتبادلها الأصدقاء والأقارب وأفراد الناس في شئونهم الخاصة . وأما الديوانية فالرسائل التي تتناول الشئون الحكومية ، وتصدر عن الهيئة التي تكل إليها السلطة صياغة ما تريد كتابته ، وسميت أحيانا ديوان الرسائل ، وأحيانا ديوان الانشاء .

---

(٩) الأغاني ٦ : ٩٤ .

(١٠) الأغاني ٣ : ٣١٢ .

(١١) الأغاني ٣ : ١٢٣ .

(١٢) أمالي القالي ١ : ١٥ . وانظر معجم الأدباء لياقوت ١ : ٩٧ .

فاذا ماقنعنا بهذا التقسيم وشرعنا في تطبيقه على العصر الأموي ، تم الأمر في سهولة في مجال الرسائل الاخوانية . أما الصنف الآخر فلا يتصاع لنا في مثل هذه السهولة . حقا نجد بين أيدينا عددا وافرا من الرسائل التي تتناول شئون الدولة ، غير أننا لا نجد الديوان الذي أصدرها أو يتوه منا في الظلام فنجد حرجا شديدا في نسبة الرسائل إليه ، وتسميتها بالديوانية . ولو كان الأمر مجرد تسمية لهان بعض الشيء . ولكن التسمية تعني وجود الديوان ، وهو ديوان غاية في الأهمية ، لأنه ضم الكتاب الذين احترفوا مهنة الكتابة ، بل ضم كبارهم ومشهوريهم ، فاجتمعوا معا ، في عمل واحد ، تحت بصر السلطة ، التي فتحت أمامهم أبواب الترقي إلى أعلى المناصب . فتباروا وبذلوا الجهود في حيازة رضاها . فنقبوا عن طاقات اللغة العربية التي كتبوا بها ، واستفرغوا الوسع في صقل مواهبهم وقدراتهم واستثمارها . فبلغوا الغاية التي سعوا إليها : فنا رائعا خالدا ، باهت العربية به وبأصحابه ومازالت تباهي .

فمتى أنشأت الدولة هذا الديوان ؟

انفرد القلقشندي بإرجاع هذه النشأة إلى العصر النبوي ، قال[١٣]: اعلم أن هذا الديوان أول ديوان وضع في الاسلام ، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يكاتب أمراءه وأصحاب سراياه من الصحابة . . ويكاتبونه ، وكتب الى من قرب من ملوك الأرض يدعوهم الى الاسلام ، ويبعث إليهم رسله بكتبه . . وهذه المكتوبات كلها متعلقها ديوان الانشاء ، بخلاف ديوان الجيش فإن أول من وضعه ورتبه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه في خلافته .

ولكن هذا القول غير صحيح . فلا تلازم بين ديوان الانشاء وهذه الكتابات ، فقد توجد هي ، ولا يوجد هو . كما أننا لم نسمع عن كتّاب احترفوا الكتابة ، وإنما كان الرسول صلى الله عليه وسلم يملي على من يجده أمامه ممن يحسن الكتابة ، فيكتب كما يملي عليه . وقد بالغ القلقشندي في هذا الادعاء مبالغته في ادعائه أن ديوان الجيش والدواوين الأخرى أسست في عهد الرسول أيضا ، غير أنها لم تلق مثل شهرة ديوان الانشاء[١٤].

وأقدم ذكر للديوان جاء به الجهشياري[١٥] في كتابه الوزراء والكتاب حين قال : وكان يكتب لعبدالملك على ديوان الرسائل أبو الزعيزعة مولاه . وأكد هذا القول حين ذكر سليمان بن سعد الخشني ، وأعلن أنه تقلد ديوان الرسائل لعبدالملك أيضا[١٦]. فدلنا هذان القولان على أن الديوان كان قائما في دمشق في عهد عبدالملك بن مروان .

ولكن الأمر لا يقف عند هذا بل يتعداه إلى التصريح بوجود دواوين للرسائل عند الحجاج بن يوسف الثقفي في العراق ، ويزيد بن المهلب في خراسان ، في خلافة عبدالملك نفسه[١٧]. واذن فلم يشهد عبدالملك ديوانا واحدا ، بل عدة دواوين ، أحدها في العاصمة ، وبقيتها في الأقاليم .

---

(١٣) صبح الأعشى ١ : ٩١ .
(١٤) نفس الموضع .
(١٥) ٣٥ .
(١٦) ٤٠ .
(١٧) ٤١ ، ٤٢ ، ٩٣ .

فهل أنشئت كل هذه الدواوين في خلافة عبدالملك بن مروان .

أما أنا فقد قلت : لا . واستطعت بتحليل الأوصاف التي أطلقها الجهشياري على بعض الكتاب أن أستنتج أن معاوية بن أبي سفيان هو الذي أسس الديوان فيما أنشأه من دواوين إبان خلافته في دمشق . ثم احتذته بقية الأقاليم في أزمنة مختلفة .

فقد وجدت الجهشياري يصف عبدالله بن أوس بأنه « كان يكتب لمعاوية على الرسائل »[١٨]، ويقول عن زياد بن أبيه[١٩]. « ويكتب له على الرسائل عبدالله بن أبي بكرة وجبير بن حية » . وقد استمر الجهشياري في استعمال هذا الوصف بعد انشاء ديوان الرسائل يقينا ، وأطلقها على من عرفوا بالتحاقهم به من أمثال عبدالله بن أبي فروة كاتب مصعب بن الزبير ، ويحيى بن يعمر كاتب يزيد بن المهلب ، بل على رشدين كاتب يوسف بن عمر والي العراق في عهد هشام بن عبدالملك . ومما يدعم هذا الاستنتاج أن نرى الجهشياري قبل ذلك التاريخ يقول : وكتب لفلان فلان ، وبقي يستخدم هذا القول بعد انشاء الديوان أيضا .

وعلى الرغم من ذلك ، أوثر أن أعدل عن وصف رسائل هذا القسم بالديوانية ، وأن أصفها بالرسمية ، قطعا لكل خلاف . كذلك لا أقنع بالتقسيم الثنائي للرسائل ، وأوثر تقسيما ثلاثيا ، يجعلها أخوانية ورسمية ودينية . قد يقال إن الرسائل الدينية يمكن وضعها في القسمين الأخيرين . فأقول : حقا يمكن ذلك في كثير منها ، ولكن بعضها يستعصى على هذا الوضع لسمات وأوضاع خاصة به .

●●●

ويلفت النظر ـ قبل التعرض للرسائل ـ لأمور يحسن الحديث عنها لأثرها الواضح في الترسل والرسائل . وأول الأمور العناية الشديدة التي أولاها الخليفة معاوية بن أبي سفيان للبريد ، حتى ظن بعض المؤرخين خطأ أنه منشئه[٢٠].

الأمر الثاني تحرر الكتاب من نظام الاملاء . فقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدون بعده يملون على كتابهم ما يريدون تدوينه ولا يعطونهم حرية صياغته كما يهوون ، ولذلك جاءت رسائل كل منهم نمطا واحدا على اختلاف كاتبيها . ولم يصرح المؤرخون بانفراد أحد بما كتب في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم الا عبدالله بن الأرقم ، الذي استقل أحيانا بما كتب ، وأجاز الرسول كتابته[٢١]. ولكن بعض الكتاب المتميزين ـ فيما يبدو ـ أخذوا يستقلون عن الاملاء في عهد الراشدين . فإذا جاء العصر الأموي تتابعت الدلائل على استقلال الكتاب برسائلهم ،

---

(١٨) ٢٤ .

(١٩) ٢٦ .

(٢٠) التراتيب الادارية ١ : ١٩٢ .

(٢١) التراتيب ١ : ١٢٠ .

ومنذ عهد مبكر . وهذا الاستقلال هام لأنه يتيح للكاتب أن يتأنى ويدير النظر في إثراء الأفكار وتعميقها وتجويد العبارة وتحسينها .

الأمر الثالث احتراف الكتابة . فقد شرع الحكام منذ عهد عمر بن الخطاب يتخذون الكتاب الخاصين ، الذين يشتغلون بالكتابة ، وعرفنا أسماء بعضهم مثل زياد بن أبيه كاتب ولاة العراق ، وعبدالرحمن بن أبزي كاتب نافع بن الحارث والي مكة[٢٢]. وطبيعي أن الظاهرة استمرت في الاتساع ، وتكمن أهمية الاحتراف في كونه داعية التجويد والتنافس .

الأمر الأخير الشك . فقد أدت الفتنة العثمانية إلى فرقة المسلمين ، وبدء المذاهب السياسية والدينية كالأمويين والعلويين والخوارج . والأمر الذي يؤسف له أن بعض رجال هذه المذاهب لجئوا إلى الكذب على رؤسائهم ورؤساء خصومهم ، من أجل الدعوة لآرائهم وتفنيد آراء مخالفيهم . وانتشر هذا الفعل اللئيم حتى شمل كل فنون القول عند المسلمين بل العرب قبل الاسلام أيضا . فصرنا نجد الرسالة التي لا نشك أنها واحدة ، ترد في مصدرين مختلفين ، متغايرة تغايرا كبيرا[٢٣] . بل وضعت رسائل في عصور متأخرة ونسبت إلى رجال من العصر الذي الحدث عنه زورا .

●●●

فاذا بدأنا بالرسائل الأخوانية وجدناها تشتمل على عدة موضوعات ، هي النصح والعتاب والاعتذار والتعزية والشفاعة والرجاء والتوصية والطلب . ووجدناها في مطلع العهد الأموي بسيطة لا ترمي إلا إلى الافهام دون شيء آخر ، فلا نعدها من الفن في شيء . وأعتقد أن التاريخ لم يحتفظ بما احتفظ به منها إلا لأنها صادرة عن الناس لهم شأنهم ، وأن أمثالها من الرسائل صدرت في زمنها وبعده ـ بل في العصور العباسية وما بعدها ـ غير أنها لم تحتو على ما يلفت أنظار المؤرخين فيدفعهم إلى تسجيلها وحمايتها .

ومنذ أواسط العصر الأموي يتجلى أن عددا من هذه الرسائل لم تقنع بما كانت عليه ، وأن كاتبيها سعوا إلى شيء آخر وراء الافهام ، سعوا إلى استثمار طاقاتهم اللغوية وإمتاع القارئين . وفرقت هذه الغاية بين الساعين إليها فريقين . أما الفريق الأول في الوجود فأدى به الثأني الذي اعتمد عليه ، وإطالة التفكير فيا يكتب ، الى الايجاز القائم على الاحكام في التعبير .

يتضح ذلك في الرسالة التي اعتذر فيها بشر بن مروان لأخيه عبدالعزيز فقال[٢٤]:

---

(٢٢) العقد الفريد ٣ : ٩ .
(٢٣) تاريخ الطبري ١ : ٣١٤ ، نهج البلاغة ٣ : ٢
(٢٤) الجمهرة ٢ : ٢٣١

بسم الله الرحمن الرحيم

لولا الهفوة لم أحتج إلى العذر ، ولم يكن لك في قبوله مني الفضل . ولو احتمل الكتاب أكثر مما ضمنته لزدت فيه . وبقية الأكابر على الأصاغر من شيم الأكارم . ولقد أحسن مسكين الدارمي حيث يقول :

أخاك ، أخاك ، إن من لا أخا له	كساع إلى الهيجا بغير سلاح
وان ابن عم المرء ـ فاعلم ـ جناحه	وهل ينهض البازي بغير جناح »

فكل واحدة من جمله وراءها تفكير طويل ، وتعطي معنى جديدا ، مع شعور قوي بوجوب البعد عن الاطالة .

فإذا سرنا مع الزمن قليلا دون أن نفارق الرفاق الذين آثرنا البدء بهم ، وجدناهم يلتزمون ما التزموه من إيجاز وإحكام وإعمال فكر ، كما نرى في رسالة سالم بن عبدالله ـ أستاذ عبدالحميد الكاتب ـ إلى أحد اخوانه ، التي قال فيها[٣٥] : « أما بعد ، فقد أصبحت عظيم الشكر لما سلف اليَّ منك ، جسيم الرجاء فيما بقي لي عندك ، قد جعل الله مستقبل رجائي منك عونا على شكرك ، وجعل ما سلف إليَّ منك عونا على مؤتنف الرجاء فيك » .

وإن أبحث لنفسي الموازنة بين الرسالتين ، وجدنا ـ إضافة الى الايجاز والاحكام ـ الرسالة الأولى شاكلت بين ثلاثة ألفاظ ، فجاءت بها من صيغة واحدة هي أفاعل ، واعتمدت على بيت من الشعر نسبتها إلى قائلها ، ووجدنا الرسالة الثانية اعتمدت على المشاكلة أيضا ، ولكنها لم تشاكل بين ألفاظ بل بين جمل ، فجعلت الجملتين المتعاقبتين مبنيتين بناء واحدا . ففي الجملتين الأوليين تقابل جسيم عظيم ، والرجاء الشكر ، وفيما لما ، وبقي سلف ، ولي اليَّ ، وعندك منك . فاستطاع أن يأتي بجسيم وعظيم ، من وزن واحد هو فعيل ، واعراب واحد هو النصب على المفعولية ، وموضع واحد من الجملة . ووفق في الرجاء والشكر في توحيد الاعراب والموضع وأفلت منه الوزن . وتمكن في بقية الكلمات من الموضع وعجز عن الاعراب والوزن ، وإن لم يبعد عن الأخير كثيرا . وتمكن من قدر من المشاكلة في الجملتين التاليتين غير أنه لم يبلغ فيهما المبلغ الذي وصل إليه في الاوليين .

وأما الفريق الثاني فتأخر في الوجود قليلا ، واتخذ من الاطالة مذهبا له ، ويتمثل واضحا في عقال بن شبة وعبدالحميد الكاتب . كتب الاول إلى خالد بن عبدالله القسري في شفاعة فقال[٣٦] : « إن الله انتجبك من جوهر كرم ، ومنبت شرف . وقسم لك خطرا شَهَرته العرب ، وتحدثت به الحاضرة والبادية . وأعان خطرك بقدرة مبسوطة ، ومنزلة ملحوظة . فجميع أكفائك من جماهير العرب يعرف فضلك ، ويسره ما خار الله لك . وليس كلهم أداله الزمان ، ولا ساعده الحظ . وأحق من تعطَّف على أهل البيوتات ، وعادهم بما يبقى له ذكره ، ويحسن به نشره : مثلك .

---

(٣٥) الجمهرة ٢ : ٣٦٩.

(٣٦) الجمهرة ٢ : ٣٥٧.

وقد وجهت اليك فلانا ، وهو من دِنْيَة قرابتي ، وذوي الهيئة من أسرتي ، وعَرْف معروفك ، وأحببت أن تُلبسه نعمتك ، وتصرفه إليّ وقد أودعتني وإياه ما تجده باقيا على النشر ، جميلا في الغيب » .

لم يعط كاتب هذه الرسالة كل فكرة جملة واحدة بل تترادف الجمل المتعاقبة أو تتقارب حتى تكاد تترادف . ثم أعقب كثيرا من جمله بما يرادف الجزء الأخير منها ولم يكتف بالمرادفة وحدها أحيانا فشاكل بينهما أيضا ، كما في جوهر كرم ومنبت شرف ، وفي قدرة مبسوطة ومنزلة محفوظة . وقد وفر هذا العمل للرسالة قدرا ملحوظا من التنغيم .

ووصل تيار الاطناب في الرسائل الاخوانية إلى قمته الأولى في رسالة عبدالحميد بن يحيى الكاتب في وصف الاخاء التي استهلها بقوله (٢٧) : « فان أولى ما اعتزم عليه ذوو الاخاء ، وتواصل عليه أهل المودات ، ما دعا أسبابه صدق التقوى ، وبنيت دعائمه على أساس البر ، ثم أُبهد البناء حَريز التواصل ، وشيده مستعذب العشرة فأدْعم قويا ، وصفا مونقا ، وأعلمته الثقة منعطفة ، وسكنت به القلوب آنسة ، وسُمت من مواصلته الهمم مستعلية ، عن كل زائغ معتاق ، وعوف عارض » .

وعندما ننظر في هذه الرسالة نجد المشاكلة تصل إلى ذروتها الأموية ، فالجمل المتعاقبة تبني ـ ما أمكن ـ بناء واحدا ، تقابل كل كلمة في الجملة الأولى أختا لها في الجملة الثانية ، تناظرها في الموقع ، وفي الموقع الاعرابي كثيرا ، وفي الوزن أحيانا ، يقول : « كان سرورهم باعتلائه وابتهاجهم بوجدانه ، والتزامهم صلته ، وبذلهم رعايته ، وحياطتهم محموده . . لا يدخل مستحقها سآمةُ ملال ، ولا كهامة مهنة ، ولا تثبيط ونية ، ولا ضعف خور ، لنزول بائقة ، أو طروق طارقة ، من عوارض الأقدار ، وحوادث الزمان . . . فتلك ما وصفت لك بقلب : فهم عقول ذي ميزة يقظان ، وذهن جامع ذي ثقافة راع ، أحضرك الله عصمة التوفيق ، وسددك (الله) لاصابة الرشد ، ومكن لك صدق العزيمة » . فانظر كيف وصف كلا من القلب والذهن بأربع صفات ، وكيف جعل ثلاثا منها مفردة ، وواحدة ـ هي الثالثة في كل موقع ـ مؤلفة من مضاف (ذي) ومضاف اليه . ولا تبدو المشاكلة فيما جئت به من أمثلة بل في الرسالة كلها ، كما نستطيع أن نلمح في الأمثلة القادمة .

وأكثر الكاتب من الألفاظ التي تقع موقعا نحويا معينا ، أو تُتّخذ من بناء صرفي واحد . وأكثر الألفاظ التي تنتمي إلى الفئة النحوية ورودا هي الأحوال . يبدو مثال ذلك في شاهدي الأول بدءا من (ادعم قويا) إلى (مستعلية) ، وفي قوله أيضا : « كشف لهم عن نفسه مظهرا أعلامه ، مبديا دفينته ، طارحا قناع سره ، معلنا مكنون ضميره . . . مواسيا في إزمها ، متورطا غمرات قُحمها ، متدرعا هائل بوائقها ، مستلحما تواظر مقاطعها » .

وأكثر أيضا من المفعول لأجله ، كما يتجلى في قوله : « يحتز مربوب الثقة : ضنا بما استعذبوا من محمود وثائقه ، وازديادا فيما تمطقوا به من حلاوة جناه . . . وبث في الحقب من المكارم : قياما لهم بالنصرة ، وحياطا للمودة ، وترغيبا في العشرة » .

---

(٢٧) الجمهرة ٢ : ٣٧٦

ويلتقي الانتباه النحوي والصرفي في صيغ التفضيل التي أكثر منها متلوة بالمضاف إليه ، مثل قوله : « فكان أكهف لجأ ، وأحرزَ حصن ، وأحصف جُنة ، وأبقى ذخيرة ، وأعظم فائدة ، وأشرف كنز ، وأفخر صنيعة ، وأنق منظر ، وأبنع زهرة » .

فإن ملّ الكاتب هذا التعبير عدل عنه إلى التفضيل متلوا بالتمييز أو المفعول المطلق ، كما خرج من النص السابق إلى قوله : « أكثر الأشياء ريعا ، وأنماها وصلا ، وأمدها سببا ، وأقواها أيدا ، وأحلاها ذوقا ، وأدعمها ثباتا ، وأرساها ركنا » . فجاء بها في هذا السياق مجتمعين ، وفرق بينها في سياقات أخرى ، فأتى بالتعبير الأول وحده أو الثاني وحده .

وينتمي إلى الفئة الصرفية أسماء الفاعلين والمفعولين التي تكثر عنده فتجذب الأنظار كما يبين في النصوص التي أوردتها .

وجاءت في الرسالة مقابلة خفيفة في قوله : « فأنا مصيخ السمع للفظه ، غفل العقل عن سوى أمره ، محتضر الذهن في تدبيرهم ، ذهل القلب عن تفنين القول . . . » .

وقد منحت هذه الأمور التي راعاها عبدالحميد في بناء عبارته كتابته تنغيما وافرا ، يجتذب الأسماع ، ويغزو القلوب ، ويشيع المتعة ، كما أبرزها قادرة على التأني والغوص وراء المعاني ، قادرة على التروي والبحث عن الطاقات الذاتية للغة ، قادرة على التعبير التصويري للأفكار أحيانا قدرتها على التعبير المباشر .

واقسم الرسائل الدينية قسمين متمايزين : أسمي أولهما الرسائل الوعظية ، والثاني الرسائل الجدلية . وأريد بالقسم الأول ما أرسله رجال الدين والوعاظ والزهاد الى الخلفاء والأمراء ـ والأصدقاء أحيانا ـ لوعظهم .

وتختلف الرسائل الوعظية عن بقية الرسائل اختلافا مبدئيا . فهي تصدر عن عاطفة دينية لا تريد الافهام أو الاخبار فحسب ، وإنما تريد أن تدفع المرسل إليه إلى العمل بما فيها من مواعظ . ولذلك يطلب منها أن تؤثر في قارئها ، وتغريه أو تدفعه إلى تغيير وجهة نظره في الحياة ، والقيام بأعمال لم يعتد أن يقوم بها من قبل . ومن هنا يبحث عن تحميل ألفاظه شحنا من عاطفته الدينية الجياشة ، لتثير شعور القراء . وما تستطيع الألفاظ جميعا أن تحمل هذه العواطف ، وتؤديها الأداء الجميل . ولذلك يضطر الكاتب إلى اختيار ألفاظه وجمله وتعبيره كله . وليس ذلك الا الفن على تفاوت درجاته . ومن ثم يمكن القول بأن الرسائل الوعظية كانت منذ نشأتها أقرب من غيرها الى النمط الفني ، ثم كانت أسرع الأنواع ولوجا الى مملكة الفن .

وقد وصل الينا من هذه الرسائل في عصرنا أكثر مما وصل من الرسائل الأخوانية ، على حين لا تجلب الرسائل الاخوانية ـ حين تجذب ـ غير أنظار الأدباء والمؤرخين . والكثرة الغامرة من الرسائل التي وصلت إلينا أنتجها عهد عمر بن عبدالعزيز الذي لم يزد على السنتين ونصف السنة ، وكتب الحسن البصري ـ تلك الشخصية الدينية الرائعة ، التي كانت وما زالت مثالا للورع وحرية الرأي ـ الكثير منها .

وإذا أمعنا النظر في هذه الرسائل الوعظية وجدناها تتحلى بما يأتي من سمات :

لعل أهم سمة تشيع فيها تتغلب عليها توازن الجمل ، أعني بذلك أن يسوي الكاتب بين أطوال جمله أو يقارب ، فيصنعها ذات أوزان متقاربة ، مما يجعلها تصدر تنغيما ملحوظا . أمثل لذلك بقول عمر بن عبدالعزيز في رسالة إلى أحد أصدقائه [٢٨] : « يا أخي : إنك قد قطعت عُظْم السفر ، وبقي أقله . . . وإياك أن تغرك الدنيا ، فإن الدنيا دار من لا دار له ، ومال من لا مال له ـ يا أخي : إن أجلك قد دنا ، فكن وصي نفسك ، ولا تجعل الرجال أوصياءك » .

كذلك يشيع فيها الازدواج الآتي من توازن الجمل وإنهائها بكلمات من وزن واحد أو متقارب . فإن ترك الكاتب الازدواج فإنما يتركه إلى السجع في كثير من الأحيان ، مثل قول عمر بن عبدالعزيز في رسالته إلى أبي بكر بن حزم والي المدينة [٢٩] : « ان الطالبين الذين أنجحوا ، والتجار الذين ربحوا ، هم الذين اشتروا الباقي الذي يدوم بالفاني المذموم ، فاغتبطوا ببيعهم ، واحمدوا عاقبة أمرهم . فالله الله وبدنك صحيح ، وقلبك مريح ، قبل أن تنقضي أيامك ، وينزل بك حمامك ، فان العيش الذي أنت فيه يتقلص ظله ، ويفارقه أهله . فالسعيد الموفق من أكل في عاجله قصدا ، وقدم ليوم فقره ذخرا ، وخرج من الدنيا محمودا ، قد انقطع عنه علاج أمورها، وصار الى الجنة وسرورها » .

ويشيع فيها الاقتباس الصريح من القرآن ، كما ترى في رسالة غيلان بن مسلم الدمشقي لعمر بن عبدالعزيز [٣٠] : « وربما نجت الأمة بالامام ، وربما هلكت بالامام ، فانظر أي الامامين أنت . فإنه تعالى يقول : (وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا) فهذا إمام هدى ، ومن اتبعه شريكان . وأما الآخر ، فقد قال تعالى : (وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ، ويوم القيامة لا ينصرون) ولن تجد داعيا يقول : تعالوا الى النار . إذن لا يتبعه أحد . لكن الدعاة الى النار هم الدعاة إلى معاصي الله » .

فان لم يبدُ الاقتباس الصريح بدا التضمين اللطيف مثل قول الحسن البصري في رسالته لعمر بن عبدالعزيز [٣١] : « واعلم ـ يا أمير المؤمنين ـ أن لك منزلا غير منزلك الذي أنت فيه ، يطول فيه ثواؤك ، ويفارقك أحباؤك ، ويسلمونك في قعره فريدا وحيدا . فتزود له ما يصحبك (يوم يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه) . واذكر ـ يا أمير المؤمنين ـ (إذا بعثر ما في القبور ، وحصل ما في الصدور) . فالأسرار ظاهرة ، والكتاب (لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها) » .

ويشيع فيها تكرار ألفاظ معينة ، يحملها الكاتب دفقات شعورية جياشة ، تستثير مشاعر القراء ، وتهيج خواطرهم ، وتجعلهم قريبين من قبول ما تأمر به الرسالة وتنفيذه ، كما ترى في الرسالة التي أرسلها الحسن البصري الى عمر بن عبدالعزيز يصف فيها الامام العادل [٣٢] : « والامام العدل ـ يا أمير المؤمنين ـ كالراعي الشفيق على إبله ،

---

(٢٨) الجمهرة ٢ : ٣٠٥
(٢٩) الجمهرة ٢ : ٢٩٥
(٣٠) الجمهرة ٢ : ٣٣٦
(٣١) الجمهرة ٢ : ٣٢٥
(٣٢) الجمهرة ٢ : ٣٢٤

الرفيق الذي يرتاد لها أطيب المرعى ، ويذودها عن مراتع الهلكة . . . والامام العدل ـ يا أمير المؤمنين ـ كالأب الحاني على ولده ، يسعى لهم صغارا ، ويعلمهم كبارا . . . والامام العدل ـ يا أمير المؤمنين ـ كالأم الشفيقة البرة الرفيقة بولدها ، حملته كرْها ، ووضعته كرها ، وربته طفلا . . . والامام العدل ـ يا أمير المؤمنين ـ وصي اليتامى ، وخازن المساكين . . . وهذا التكرار لازمة من لوازم الوعظ . ولذلك لا نراه في الرسائل وحدها بل نراه في الأحاديث الشفاهية مثل قول الحسن البصري لعمر بن هبيرة والي العراق عندما سأله : أيطيع أوامر الخليفة ويعصي الله (٣٣) ؟ : « يا عمر بن هبيرة : يوشك أن ينزل بك ملك من ملائكة الله تعالى ، فظ ، غليظ ، لا يعصي الله ما أمره ، فيخرجك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك . يا عمر بن هبيرة : إن تتق الله يعصمك من يزيد بن عبدالملك (الخليفة) ولا يعصمك يزيد بن عبدالملك من الله عز وجل . يا عمر بن هبيرة : لا تأمن أن ينظر الله إليك على أقبح ما تعمل في طاعة يزيد بن عبدالملك . . . يا عمر بن هبيرة . . . » .

وأدلُّ من هذا سورة لقمان من القرآن الكريم ، فقد تكررت فيها عبارة (يا بني) في مقام النصح والارشاد تكررا له دلالته التي لا تخفى .

ونجد في الرسائل الطويلة خاصة القصص الوعظية التي يبتكرها خيال الوعاظ فيصورون ما يريدون التعبير عنه من أفكار في شكل قصص واقعية ليكسبوا المستمعين ، كما نرى في رسالة سالم بن عبدالله بن عمر بن الخطاب الى عمر بن عبدالعزيز (٣٤) : « إن استطعت ألا تُخسر نفسك وأهلك يوم القيامة فافعل . فإنه قد كان قبلك رجال عملوا ما عملوا ، وأحيوا ما أحيوا من الباطل ، وأماتوا ما أماتوا من الحق ، حتى وُلد في ذلك رجال ونشئوا فيه ، وظنوا أنها السنة ، فسدوا على الناس أبواب الرخاء . فلم يسدوا منها بابا إلا فتح الله عليهم باب بلاء . . . فإنهم قد عاينوا هول المطلع ، وعالجوا نزع الموت الذي كانوا منه يفرون ، فانشقت بطونهم التي كانوا لا يشبعون بها ، وانفقأت أعينهم التي كانت لا تنقطع لذاتها ، واندقت رقابهم في التراب غير موسدين ، بعد ما تعلم من تظاهر الفرش والمرافق والسرر والخدم . فصاروا جيفا في بطون الأراضي تحت مهادها . والله ، لو كانوا إلى جانب مسكين لتأذى بريحهم ، بعد إنفاق مالا يحصى عليهم وعلى خواصهم من الطيب » .

ويشيع في الرسائل الوعظية الطباق والمقابلة ، يقول الحسن البصري في رسالة له إلى عمر بن عبدالعزيز (٣٥) : « واعلم ـ يا أمير المؤمنين ـ أن الصبر ـ وإن أذاقك تعجيل مرارته ـ فلنِعْم ما أعقبك من طيب حلاوته ، وحسن عاقبته ، وأن الهوى ـ وإن أذاقك طعم حلاوته ـ فبئس ما أعقبك من مرارته وسوء عاقبته » .

●●●

وقد عثرت على أربع رسائل فقط من النوع الثاني الذي سميته الرسائل الجدلية ، وكلها تتناول مشكلة ارادة البشرية أو ما عرف في علم الكلام باسم القدر . وتدافع ثلاث منها عن حرية ارادة الانسان ، وتقيد الرابعة من هذه الحرية بعض التقييد .

---

(٣٣) حلية الأولياء لأبي نعيم ٢ : ١٤٩
(٣٤) الجمهرة ٢ : ٣٢٢
(٣٥) الجمهرة ٢ : ٣٣١

وأقدم هذه الرسائل تنسب الى الحسن بن علي بن أبي طالب ، ويقال إنه أرسلها الى أهل البصرة ، وقال فيها [٣٦] : « من لم يؤمن بالله وقضائه وقدره فقد كفر ، ومن حمل ذنبه على ربه فقد فجر . إن الله لا يطاع استكراها ، ولا يعصى لغلبة ، لأنه المليك لما ملّكهم والقادر على ما أقدرهم عليه . فإن عملوا بالطاعة لم يحل بينهم وبين ما فعلوا . وإن عملوا بالمعصية فلو شاء حال بينهم وبين ما فعلوا . فإذا لم يفعلوا فليس هو الذي اجبرهم على ذلك . فلو أجبر الله الخلق على الطاعة لأسقط عنهم الثواب . ولو أجبرهم على المعاصي لأسقط عنهم العقاب . ولو أهملهم لكان عجزا في القدرة . ولكن له فيهم المشيئة التي غيبها عنهم . فإن عملوا بالطاعات كانت له المنة عليهم ، وإن عملوا بالمعصية كانت له الحجة عليهم » .

ويرى الناظر في هذه الرسالة أنها توجه همها الأكبر إلى إقامة الدليل العقلي على حرية الارادة البشرية مع الايمان بقضاء الله وقدره ، دون كبير التفات إلى الرأي المخالف ، ومحاولة تفنيده . ولذلك تختفي فيها السمات الجدلية بعض الاختفاء وتظهر بعض السمات الوعظية شيئا من الظهور . فنجد في عبارتها إحكاما ، وفي ألفاظها انتقاء ، وفي أسلوبها سعيا وراء التجويد يصل إلى قليل من السجع الخفيف .

وأما الرسالة الثانية فتنسب إلى عبدالله بن عباس ، ويقال إنه أرسلها إلى من يقولون بأن الانسان مجبر من أهل الشام ، وقال فيها [٣٧] : « أتأمرون الناس بالتقوى وبكم ضل المتقون ؟ ، وتنهون الناس عن المعاصي وبكم ظهر العاصون ، يا أبناء سلف المقاتلين ، وأعوان الظالمين ، وخزان مساجد الفاسقين ، وعمار سلف الشياطين ، هل منكم إلا مفتر على الله يحمل اجرامه عليه ، وينسبها علانية إليه ؟ » .

ويرى قارىء هذه الرسالة ـ منذ النظرة الأولى ـ ذلك السجع الغالب عليها ، الذي قد يخلي مكانه للازدواج . ويرى فيها الجمل متوازنة توازنا موسيقيا سهله الترادف الذي اعتمدت عليه . ويرى الرسالة خالية من الجدل بالرأي ، وإنما هي سب وتقبيح لأعمالهم دون محاولة لاقناعهم ببطلانها .

وأما الرسالة الثالثة فمنسوبة إلى الحسن البصري ـ أستاذ واصل بن عطاء رأس المعتزلة القائلين بحرية الارادة ـ ويدافع فيها عن هذه الحرية . وقد استهل الحسن رسالته بإبانة موقف الصحابة من المشكلة ، وامتناعهم عن الخوض فيها ، واضطراره هو إلى ذلك الحديث بسبب خوض الناس وإنكارهم القدر ، قال [٣٨] : « وقد أدركنا السلف الذين قاموا لأمر الله ، واستنوا بسنة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلم يبطلوا حقا ، ولا ألحقوا بالرب تعالى إلا ما ألحق بنفسه . . . ولم يكن أحد في السلف يذكر ذلك ولا يجادل فيه ، لأنهم كانوا على أمر واحد . وإنما أحدثنا الكلام فيه لما أحدث الناس النكرة له . . » .

ثم أخذ الحسن يفند أقوال المجبرة بالآيات القرآنية فقال : « فافهم ـ أيها الأمير ـ ما أقوله ، فإن ما نهى الله عنه

(٣٦) الجمهرة ٢ : ٢٧
(٣٧) الجمهرة ٢ : ٢٨
(٣٨) الجمهرة ٣ : ٣٢٢

فليس منه ، لأنه لا يرضى ما يسخطه من العباد ، لأنه تعالى يقول : (ولا يرضى لعباده الكفر) فلو كان الكفر من قضائه وقدره لرضي عمن عمله . . .

ولو كان الأمر كما قال المخطئون لما كان لمتقدم حمد لما عمل ، ولا على متأخر لوم ، ولقال تعالى : (جزاء بما عملت أيديهم) ولم يقل (جزاء بما كانوا يعملون) . .

إن أهل الجهل قالوا : إن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء . ولو نظروا إلى ما قبل الآية وما بعدها ، لتبين لهم أن الله تعالى لا يضل إلا بتقدم الفسق والكفر لقوله تعالى : (ويضل الله الظالمين) أي يحكم بضلالهم ، وقال : (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم) ، (وما يضل به إلا الفاسقين) . . . »

فلا سب ولا شتم في الرسالة غير تسميته للمخالفين بأهل الجهل والمخطئين والمخالفين لكتاب الله ، ولكن هذا كله لا يعادل ما جاء في رسالة ابن عباس . وإنما نجد فيها أسلوبا جدليا بسيطا ، يعتمد على البراهين المأخوذة من الآيات القرآنية .

وأما الرسالة الرابعة فتنسب إلى عمر بن عبدالعزيز وتبتعد بعض الابتعاد عن الرسائل السابقة في تحقيقها القول بحرية الارادة . وقد أرسلها إلى جماعة كذبوا بالقدر فقال لهم (٣٩) : « فإنكم كتبتم إليّ بما كنتم تستترون منه قبل اليوم ، في رد علم الله والخروج منه إلى ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخوف على أمته من التكذيب بالقدر . . . »

ثم يأخذ في مناقشتهم مبتعدا عن الشتم ومستعينا بالأدلة القرآنية فيقول : « وإنكم ذكرتم أنه بلغكم أني أقول : (إن الله قد علم ما العباد عاملون ، وإلام هم صائرون) فأنكرتم ذلك عليّ ، وقلتم : (إنه ليس يكون ذلك من الله في علم ، حتى يكون ذاك من الخلق) . فكيف ذلك كما قلتم ، والله تعالى يقول : (انا كاشفوا العذاب قليلا انكم عائدون) يعني عائدين في الكفر . وقال تعالى : (ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه ، وانهم لكاذبون) .

ويناقشهم بالأدلة العقلية في قوله : « وزعمتم بجهلكم أن علم الله تعالى ليس بالذي يضطر العباد الى ما عملوا من معصيته ، ولا بالذي صدهم عما تركوه من طاعته ، ولكن بزعمكم (كما علم الله أنهم سيعملون بمعصيته ، كذلك علم أنهم سيستطيعون تركها) ، فجعلتم علم الله لغوا ، تقولون : ولو شاء العبد لعمل بطاعة الله ، ان كان في علم الله أنه غير عامل بها . ولو شاء ترك معصيته ، وان كان في علم الله أنه غير تارك لها ، فأنتم اذا شئتم أصبتموه ، وكان علما . واذا شئتم رددتموه ، وكان جهلا . وان شئتم أحدثتم من أنفسكم علما ليس في علم الله ، وقطعتم به علم الله » .

ويستنبط الأدلة من الأخبار والآثار فيقول : « ان الله لم يجعل فضله ورحمته هملا بغير قسم منه ولا اختيار ، ولم يبعث رسله بإبطال ما كان في سابق علمه . . . فسميتم نفاذ علم الله في الخلق حيفا ، وقد جاء الخبر (ان الله خلق آدم ، فنثر ذريته في يده ، فكتب أهل الجنة وما هم عاملون ، وكتب أهل النار وما هم عاملون » .

(٣٩) الجمهرة ٢ : ٣١٩ حلية الأولياء ٥ : ٣٤٦

ويتبين لنا من هذا أن رسالة ابن عباس انفردت بالاعتماد على الشتم ، ولجأت بقية الرسائل إلى الجدل . فاعتمدت رسالة الحسن بن علي الأدلة العقلية ، ورسالة الحسن البصرى على الأدلة القرآنية . أما رسالة عمر بن عبد العزيز فتمثل قمة الجدل في العصر الأموى ، إذ توسع رقعة الأدلة فمن قرآنية إلى عقلية إلى أخبارية . ويبدو جهد التأنى والتحبير في رسالتي الحسنين أكثر مما يبدو في رسالة عمر . وتتفرد رسالة ابن عباس بالصنعة . لذلك كله فانني أميل إلى الشك في الرسالة الأخيرة ، وأشم منها رائحة سياسية مذهبية ، تناصر الشيعة ، وتهاجم الأمويين .

●●●

وقد منحنا العصر الأموى كثيرا من الرسائل الرسمية ، التي تتناول كل شئون الدولة في السلم والحرب ، وعند استتباب الأمن وانتشار القلاقل .

وإذا أمكن لنا أن ندعي أن رسائل العصور السابقة كانت بعيدة كل البعد عن الفن ، فاننا لا نستطيع أن نزعم ذلك عن رسائل هذا العصر ، لأنها تلقفت ما حدث في أواخر عصر الراشدين من تطور ، وصقلته ونمته ، فكانت منذ مطلع العصر في طريقها إلى الفن فالذروة الفنية الأولى في آخر العصر ، غير أنها لم تسلك جميعها دربا واحدا ، بل تشعبت بها المسالك الفرعية نحو الغاية الفنية ، وارتاد بعضها أكثر من مسلك .

وأود أن أبدأ بالمسلك الذى أخذت رسائل عصر الراشدين تسير فيه من قبل ، أعنى به الأسلوب التصويرى ، المعتمد على التجسيد والتشخيص والرمز : فإنه يتجلى منذ عهد مبكر . قال يزيد بن معاوية في رسالته إلى أهل المدينة يتوعدهم :[٤٠] « وإني ـ والله ـ قد لبستكم فأخلقتكم ، ورفعتكم على رأسي ، ثم على عيني ، ثم على فمي ، ثم على بطني ، وأيم الله ، لئن وضعتكم تحت قدمي لأطأنكم وطأة أقل بها عددكم ، وأترككم بها أحاديث ، تنسخ أخباركم مع أخبار عاد وثمود » . فقد صور فيها إكرامه لهم ، وسعيهم فيما يحط من قدرهم عنده الى ان يلغوا أدنى درجة ، ولم يبق إلا أن يسحقهم سحقا فلا يبقى منهم باقية .

ولم تسر رسالة يزيد وحدها في هذا المسلك بل تابعها فيه عدد من الرسائل مثل رسالة الحجاج والى العراق قبيل وفاته إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك التى قال فيها :[٤١] « فقد كنت أرعى غنمك ، أحوطها حياطة الناصح الشفيق برعية مولاه . فجاء الأسد فبطش بالراعي ومزق المرعى كل ممزق » .

ولكن المسلك الجديد حقا في هذا العصر ، والذى سارت فيه أعداد تفوق غيرها من الرسائل هو الاطالة . فالعربي في عصوره الأولى كان شغوفا بالايجاز ، غير أنه في أواخر عصر الراشدين أطال رسائله التى ناقشت فيها الفرق بعضها بعضا . وعلى الرغم من ذلك لم يظهر الاطناب الحق إلا في عصر الأمويين ، حتى صرح الطبرى[٤٢] بأن عمرو بن نافع ـ كاتب عبيد الله بن زياد ـ أول من أطال الكتب . ولم تقف هذه الظاهرة عند حد بل أخذت في النمو حتى بلغت مبلغا بعيدا في أواخر العصر الأموى . فقيل إن عبد الحميد الكاتب كتب رسالة استوعبت مجاميع ضخمة من

---

(٤٠) الجمهرة ٢ : ٨٦
(٤١) الجمهرة ٢ : ٢٩٢
(٤٢) التاريخ ٢ : ٢٧٠

الصحف . (٤٣) فاذا شككنا في هذا القول فلدينا رسالة عبد الحميد إلى ولي عهد مروان بن محمد ، (٤٤) التي يعلمه فيها نظم الحكم ، وتشغل خمسين صفحة من كتاب جمهرة رسائل العرب ، وذلك دليل كاف على الاطالة .

وقد فتحت لهم الاطالة الباب للعناية بصدور الرسائل ، وخاصة التحميدات . فقد اعتاد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يبدأ رسائله بتحميد قصير بسيط مثل قوله في رسالته الى أهل هجر (٤٥) : « بسم الله الرحمن الرحيم ـ من محمد النبي الى أهل هجر ، سِلْم أنتم ، فاني أحمد اليكم الله الذي لا اله الا هو . أما بعد ، فاني أوصيكم . . . » . والتزمت الرسائل بعده هذا التحميد ، غير أنه بقي على بساطته هذه بل عبارته نفسها طيلة عصر الخلفاء الراشدين وسنين من العصر الأموي ، ثم شرع في التغير . فطال شيئا عند كاتب المهلب الذي قال : (٤٦) الحمد لله الكافي بالاسلام فقد ما سواه ، المعجل النقمة لمن بغاه ، الذي حكم بأن لا ينقطع المزيد منه ، حتى ينقطع الشكر من عباده . أما بعد . . » وازداد طولا واعتناء عند غيره من الكتاب .

ثم جاء عبد الحميد فجعله موضع عنايته الخاصة ، ووفر له كل القيم الفنية التي عرفتها كتابته ، فوصل به الى صورته التي عرفت عنه ، وخاصة تحميدات الفتوح ، حتى ظن بعض المؤرخين (٤٧) خطأ أنه أول من استعمله . قال عبد الحميد في أحد تحميداته : « الحمد لله العلي مكانه ، المنير برهانه ، العزيز سلطانه ، الثابتة كلماته ، الشافية آياته ، النافذ قضاؤه ، الصادق وعده ، الذي قدر على خلقه بملكه ، وعز في سماواته بعظمته ، ودبر الأمور بعلمه ، وقدرها بحكمه ، على ما يشاء من عزمه ، مبتدعا لها بانشائه اياها ، وقدرته عليها ، واستصغار عظيمها ، نافذا ارادته فيها ، لا تجري الا على تقديره ، ولا تنتهي الا الى تأجيله ، ولا تقع الا على سبق من حتمه . كل ذلك بلطفه وقدرته وتصريف وحيه ، لا معدل لها عنه ولا سبيل لها غيره ، ولا يعلم أحد بخفاياها ومعادها الا هو ، فانه يقول في كتابه الصادق (وعنده مفتاح الغيب لا يعلمها الا هو ، ويعلم ما في البر والبحر ، وما تسقط من ورقة الا يعلمها ، ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس الا في كتاب مبين) »

وتستبين في هذا التحميد خصائص اسلوب عبد الحميد من موازنة بين الجمل ، وازدواج ، وسجع ، ومشاكلة ، مما وفر له تنغيما لا تخطئه اذن ، اضافة الى الطول الواضح .

ويبرز السجع فيتضح في بعض الرسائل ويختفي من بعضها ، كما تؤكد لنا الأمثلة السابقة ولكن يجدر بنا الوقوف الخاص في موطنين . الموطن الأول عند رسائل المختار بن أبي عبيد الثقفي ، التي غالت في السجع ، وسمت وراءه

---

(٤٣) سرح العيون لابن نباتة ١٢٨
(٤٤) الجمهرة ٢ : ٤٠٦
(٤٥) الجمهرة ١ : ٥٠
(٤٦) الجمهرة ٢ : ١٦٤
(٤٧) مروج الذهب للمسعودي ٣ : ١٧٨
(٤٨) الجمهرة ٢ : ٤٧٠

سعيا حثيثا ، حتى التزمته ، كما نرى في رسالته الى سليمان بن صرد بعد محاربته عبيد الله بن زياد ، قال : (٤٩) « فان الله أعظم لكم الأجر ، وحط عنكم الوزر ، بمفارقة القاسطين ، وجهاد المحلين . انكم لم تنفقوا نفقة ، ولم تقطعوا عقبة ، ولم تخطوا خطوة الا رفع الله لكم درجة ، وكتب لكم بها حسنة . . . »

وعلة هذا الالتزام نجدها عند المؤرخين الذين رووا أن المختار أراد أن يحيط نفسه بجو ديني خاص ، دفعه الى أن يحاكي الاسلوب القرآني حينا ، وأسلوب كهان الجاهلية حينا آخر .

والموطن الثاني الذي فشا فيه السجع عند عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث . روى الدينوري (٥٠) أنه خرج على الحجاج ثم أمر كاتبه ابن القرية أن يكتب رسالة مسجعة يعرفه فيها سوء فعاله ، ويخلع فيها طاعته . فافتتح رسالته بقوله : « سلام على أهل طاعة الله وأوليائه ، الذين يحكمون بعدله ، ويوفون بعهده ، ويجاهدون في سبيله ، ويتورعون لذكره ، ولا يسفكون دما حراما ، ولا يعطلون للرب أحكاما ، ولا يدرسون له أعلاما ، ولا ينتكبون النهج ، ولا يبرمون السى ، ولا يسارعون في الغي ، ولا يدللون الفجرة ، ولا يتراضون الجورة ، بل يتمكنون عند الاشتباه ، ويتراجعون عند الاساءة . أما بعد . . . » فرد عليه الحجاج ردا مسجوعا .

فاذا صحت هاتان الرسالتان - اللتان أشك فيهما شكا قويا - قلنا ان السجع وجد المناخ المناسب له كل المناسبة في الاوساط الدينية خاصة عند الشيعة ، والأوساط الحربية وقت الانتصارات خاصة . فغلب على رسائلهم غلبة جلية ، ولم يفسح موضعه الا للازدواج .

وأخيرا انفرد يحيى بن يعمر العدواني - كاتب يزيد بن المهلب - بمسلك خاص لم يشاركه فيه غيره . فقد يمم نحو الاغراب ، فاعترف من الالفاظ النادرة التي لا تغرب علينا وحدنا بل غربت على معاصريه من الفصحاء . قيل انه كتب الى الحجاج ينبئه بأحد الفتوح التي حازها يزيد فقال (٥١) « انا لقينا العدو ، فقتلنا طائفة ، ولحقت طائفة بعرائر الأودية ، واهضام الغيطان . وبتنا بعرعرة الجبل ، وبات العدو بحضيضه » . فلما أتت الرسالة الى الحجاج أعجب بها ، وسأل عن كاتبها ثم استدعاه لمذاكرته .

●●●

وقد أثمر أدب المراسلات ، وخاصة المراسلات الرسمية ، أول مدرسة فنية في النثر العربي ، هي مدرسة سالم مولى هشام ، التى نعرف من تلاميذها ابنه وختنه عبد الحميد بن يحيى . وقد تفوق عبد الحميد على أستاذه ، واستطاع أن ينتج أدبا فنيا رائعا ، حمل الخصائص الفكرية واللغوية التي بينتها ، وصبغته بالتنسيق المنطقي والتنغيم الموسيقى ، وتقدمت به الى غاية لم يبلغها نثر عربي قبله مما جعل الأدباء يقولون : « بدئت الكتابة بعبد الحميد . . . » . وهو قول لا

---

(٤٩) الجمهرة ٢ : ١٣٢
(٥٠) الأخبار الطوال ٣٢٣
(٥١) الجمهرة ٢ : ٢٠٣

يصح الا إذا فهمنا منه أن عبد الحميد استطاع أن يتمثل السمات الفنية التي تمت في الكتابة قبله ، وكانت نتيجة تطور طويل ، ثم يحسن إبرازها في أدبه ، إلى جانب ما جاء به من ابتكاره من سمات .

●●●

وتبقى نظرة لا بد أن تلقى على فن أدبي خاص ، غير أنه من ثمار فن المراسلات ، أعني فن التوقيعات فقد ألف الخلفاء والولاة أو كتابهم أن يردوا على بعض الرسائل التي تصل إليهم في جمل حاسمة ، امتازت بالايجاز الشديد ونالت إعجابا متزايدا على مر الزمن . وحملت الاسم الذى ذكرته ، يكتبونها على الرسائل نفسها .

وأقصر ما وجدت من التوقيعات التي عثرت عليها في العصر الأموى ذلك التوقيع الذى كتبه زياد بن أبيه إلى من تظلم إليه واقتنع بحقه ، وألقه من فعل وضميره إذ قال : (٥٢) « كُفيت » . والحق أن توقيعاته بلغت الغاية في القصر ، (٥٣) مثل توقيعه في رسالة متظلم آخر : « أنا معك » ، وفي رسالة سارق : « القطع جزاؤك » .

وطال كثير من التوقيعات فتألف من جملتين ، مثل توقيع عبد الملك في رسالة الحجاج التي شكا فيها أهل العراق ، قال : (٥٤) « أبق لهم لحوما ، يعقدوا بها شحوما » ، وطال بعضها إلى ثلاث جمل ، مثل توقيع مروان بن محمد إلى ابن هبيرة : (٥٥) « الأمر مضطرب ، وأنت نائم ، وأنا ساهر » .

واستقى كاتبو التوقيعات عددا كبيرا منها من القرآن الكريم . كتب زياد بن أبيه الى سعيد بن العاص يخطب إحدى بناته ، فوقع على رسالته : (٥٦) « كلا إن الانسان ليطغي ، أن رآه استغنى » .

واستقوا عددا منها من الشعر . وقع عبد الملك بن مروان في رسالة من ابن الأشعث فقال : (٥٧)
« فما بال من أسعى لأجبر عظمه حفاظا ، وينوى من سفاهته كسرى »

وأخذوا بعضها من الأمثال . وقع معاوية بن أبي سفيان في رسالة من عبد الله بن عامر يسأله أن يهبه مالا بالطائف (٥٨) : « عش رجبا ترى عجبا »

---

(٥٢) الجمهرة ٢ : ٥٠١

(٥٣) الجمهرة ٢ : ٥٠٠، ٥٠١

(٥٤) الجمهرة ٢ : ٤٩٣

(٥٥) الجمهرة ٢ : ٤٩٨

(٥٦) الجمهرة ٢ : ٤٩٩

(٥٧) الجمهرة ٢ : ٤٩٤

(٥٨) الجمهرة ٢ : ٤٩١

واعتمدوا في بعضها على التاريخ . وقع معاوية في رسالة ارسلها اليه عبد الله بن عامر - من بني حبيب بن عبد شمس - يعاتبه فيها [٥٩] : « بيت أمية في الجاهلية أشرف من بيت حبيب في الاسلام ، فأنت تراه » .

ووجدت توقيعا مأخوذا من الحديث الشريف . وقع زياد ابن أبيه في رسالة محبوس [٦٠] « التائب من الذنب كمن لا ذنب له » .

وأهم خاصة في التوقيعات القصر والايجاز كما رأينا . وعندما نتأمل فيما وصل الينا من توقيعات أموية نجد السمة التالية السجع ، مثل توقيع عبد الملك في رسالة من تظاهر له بالنصيحة :[٦١] : « ان كنت صادقا أثبناك ، وان كنت كاذبا عاقبناك ، وان شئت أقلناك » .

ويتجلى فيها توازن الجمل وتشاكلها ، مثل توقيع يزيد بن معاوية في رسالة مسلم بن زياد والي خراسان [٦٢] : « قليل العتاب يحكم مرائر الاسباب ، وكثيره يقطع أواخي الانتساب » .

كما يتجلى فيها الطباق والمقابلة أحيانا ، كما ترى في التوقيع السابق ، وفي توقيع هشام بن عبد الملك في رسالة أحد المتظلمين : [٦٣] « أتاك الغوث ان كنت صادقا ، وحل بك النكال ان كنت كاذبا ، فتقدم أو تأخر » .

(٥٩) الجمهرة ٢ : ٤٩١
(٦٠) الجمهرة ٢ : ٥٠٢
(٦١) الجمهرة ٢ : ٤٩٣
(٦٢) الجمهرة ٢ : ٤٥٢
(٦٣) الجمهرة ٢ : ١٩٧-

(المراجع)

أحمد زكي صفوت : جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة ـ مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ١٩٧١ .

الجهشياري : الوزراء والكتاب ـ تحقيق الاستاذ مصطفى السقا بالاشتراك

الحسن البصري : رسالة القدر ـ مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ٥٢٢١ أدب .

د . حسين نصار : نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي ـ مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٦ .

الدينوري : الأخبار الطوال ـ ليدن .

ابن سعد : الطبقات الكبرى ـ طبع اوربا .

السيد عبدالحي بن عبدالكبير الحسني الكتاني : التراتيب الادارية والعمالات والصناعات والمتاجر والحالة العلمية التي كانت على عهد تأسيس المدينة الاسلامية في المدينة المنورة ـ طبع الرباط .

الطبري : تاريخه ـ طبع اوربا .

ابن عبدربه : العقد الفريد ـ طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر .

ابو الفرج : الأغاني ـ طبع دار الكتب المصرية .

القالي : الأمالي ـ طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر .

القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الانشا ـ طبع دار الكتب المصرية .

أبو نعيم الأصبهاني : حلية الأولياء ـ طبع الخانجي .

***

أدب المراسلات في فرنسا في القرنين السابع عشر والثامن عشر

ضحى محمد شيحه
أستاذ الأدب الفرنسي المساعد بكلية الآداب جامعة الاسكندرية

نستطيع أن نقول في مستهل كلامنا ودون أن يجانبنا الصواب إن من تربع على عرش أدب المراسلات في الفترات التي ازدهر فيها خلال كل مراحل التاريخ ثلاثة أسماء عظيمة هي السياسي والخطيب الروماني « شيشرون » ، والأديبة الفرنسية « مدام دوسيفينيه » ، والفيلسوف الفرنسي « فولتير » ولم يمر هذا النوع من الكتابات الأدبية رواجاً وازدهاراً أكثر مما رآه في القرن السابع عشر فقد أحس الأدباء بميل القراء والجمهور لهذا الأسلوب الأدبي فاستغلوه وتبنوه واتبعوه في اعمالهم لأنه كان يتميز بتمكين الكاتب من التطرق الى كافة الموضوعات التي يريدها وذلك بحرية تامة ، كما لاقى هذا الأسلوب رواجاً كبيراً أيضاً خلال القرن الثامن عشر .

وقبل أن نبدأ في دراسة أدب المراسلات في القرنين السابع عشر والثامن عشر وهو موضوع بحثنا نجد أن من الواجب علينا أن نميز بين نوعين من المراسلات : النوع الأول وهو المراسلات الشخصية التي تتمثل في الرسائل والخطابات التي بعث بها كاتب شهير الى أصدقائه ومعارفه وأحبائه وتناول فيها بقلمه كافة الموضوعات ، أما النوع الثاني من المراسلات فهو الأعمال الأدبية التي كتبت على صورة خطابات واصطلح على تسميتها الرسائل الروائية ، أو الرواية في صورة رسائل ، وهي عبارة عن خطابات متبادلة بين شخصيات الرواية وكل شخصية لها أسلوبها المميز الذي أراده لها الكاتب ويتابع القارىء مسار أحداث الرواية من خلال هذه الخطابات .

ولقد كان الأدب الفرنسي في القرنين السابع عشر والثامن عشر زاخراً بالأمثلة التي يمكن تصنيفها تحت أحد هذين النوعين . ولكن القرن السابع عشر يتميز بشيوع ووفرة النوع الأول أي المراسلات الشخصية فنجد أن

معظم الكتاب الكبار في هذا القرن قد تركوا وخلفوا للتراث الأدبي رسائل ترجع قيمتها الأدبية الى أننا نجد فيها الكاتب في صورة انسان بما يعتريه من مشاعر وأحاسيس وليس باعتباره كاتباً ومؤلفاً للقراء ، ونسوق على سبيل المثال رسائل الشاعر المسرحي « راسين » ، والشاعر الناقد « بوالو » ، والمؤرخ والمفكر « بوسويه » . الا أننا نجد أن الغالبية العظمى من كتاب هذا النوع من الرسائل المتميزين بأسلوبهم كانوا من المنتمين الى طبقة المجتمع الراقي ولم يكونوا من المنتمين الى فئة الكتاب أو الأدباء بمعنى الكلمة بالاضافة الى أن معظمهم كانوا من النساء : مثل مدام « دي مونتوسيه » ابنة المركيزه « دي رومبوييه » صاحبة الصالون الأدبي الشهير ، ومدام « دي سابليه » ، ومدام « دي سكوديري » ، ومدام « دي لافايت » .

وترجع أهمية هذه المراسلات الشخصية الى ما فيها من رقة ومشاعر جميلة وذكاء بالاضافة الى الكثير من المعلومات الثمينة التي تحتويها عن بعض المواقف والأحداث والشخصيات والتي لا يمكن أن نجدها في أي موضوع آخر غيرها مما يجعلها بحق أداة مكملة لما ورد في كتب التاريخ والحضارة الانسانية .

بالطبع لن يسمح لنا حجم هذا المقال أن نتناول بالحديث المسهب كل كتاب الرسائل الشخصية ولكن دون أن نسبب احباطا للقارىء ويدون أن نبخس الموضوع حقه سنكتفي بالمعالجة المستفيضة لأعمال ثلاثة منهم اعتبرهم التاريخ الأدبي أمثلة يحتذى بها وهم :

« جيزدي بلزاك » ، و « فواتور » ، ومدام « دي سيفينييه » .

يعتبر « جيزدي بلزاك » أكبر مؤسس لفن النثر في القرن السابع عشر ، وتتميز فترة شبابه بالقيام بالعديد من الأسفار التي عاد منها ليعيش في شبه عزلة على أرضه المسماة باسم عائلة بلزاك والتي تقع على مسافة قريبة من مدينة انجوليم ، وهناك كرس كل وقته للمراسلات وعمل بجد ونشاط بالغ مما أهله للحصول على لقب كاتب مراسلات فرنسا الأكبر ، وهو اللقب الذي أطلقه عليه النقاد فيما بعد ويعود الفضل الى هذه الرسائل في تربع بلزاك على عرش الأدب خلال معظم القرن السابع عشر .

توالت اعتباراً من عام ١٦٢٤ طبعات رسائل بلزاك وقد تضمنت موضوعات متنوعة مثل السياسة والأدب وعلم الأخلاق ولقد قال عنها الناقد الفرنسي الشهير « لانسون » انها « خاوية لأنها تتكون في أغلب الأحوال من أفكار معروفة أخذها بلزاك من أعمال القدماء أو أعمال آباء الكنيسة » [١] كما اعتبرها المعاصرون منذ ظهورها « بياناً بالنزعات العصرية » [٢] ويرجع السبب في ذلك الى أن هذه الرسائل كانت تعبر عن عدم الاكتراث بالقدماء فاستغل اعداء بلزاك هذه النقطة للومه على ثورته ضدهم .

(١) Gustave LANSON, Histoire de la Litteratur (+) Francaise, Paris, Hachette, 1953, p. 167.

(٢) Autoine ADAM, I age classique, t 1, (1624-1660), paris, Arthaud 1968, 367 p. 100.

ومن الواضح فعلاً أن بلزاك كان يمتدح « راكان » RACAN لانه استطاع أن يبرهن « أن اللغتين اللاتينية واليونانية أصبحتا بغير فائدة في فرنسا » ، كما أنه ليس مضطراً لأن يتبع قوانينهم وأمثلتهم ، وكانت أفكار بلزاك الأساسية متفقة تماماً مع أفكار حزب العصريين . ومثلما فعل سانت أمان SAINT-AMANT (٣) و جودو GODEAU (٤) و أوجيه OGIER (٥) كان بلزاك يدافع أيضاً عن الفكرة القائلة بأن هدف العمل الفني هو المتعة ، ورفض أيضاً مثلهم فكرة التقليد وكذلك كان يلجأ الى العقل مثلهم ، العقل والتفكير وهو شيء واحد عند جميع الشعوب ، وهو الذي ينير بنفس النور العقول الكبيرة عندما يطلب منها أن تتكلم عن نفس الموضوعات (٦) .

أرسل بلزاك خطاباته الى كل كبار الشخصيات في عصره ولكن معظمها كانت مرسلة الى شابلان وكونراد اللذين كان باستطاعتهما أن يتذوقا وأن يساعدا الناس على تذوق أسلوبه . وقد أوجز المعاصرون وصف أسلوب بلزاك في كلمة واحدة هي اللياقة أي فن الحديث . وفي الواقع لم تكن رسائل بلزاك رسائل تلقائية أو مكتوبة على عجل ، بل كانت رسائل مدروسة بعناية وكل كلمة وردت بها ثم انتقاؤها بعد جهد وتفكير عميق .

ويمكننا أن نقول ببساطة ان القيمة الحقيقية لرسائل بلزاك ترجع أساساً الى اسلوبه القوي والمؤثر الذي حاز اعجاب جيل الشباب في عصره واستحق نقد مؤيدي إحياء الآداب الكلاسيكية وغيرهم ممن وصفهم بالمتحذلقين ويذهب بعض مؤيدي بلزاك الى حد القول بأن فرنسا قد وضعت أسس علم البيان والبلاغة في عصره .

يعتبر فواتور VOITURE أستاذاً هو الآخر لفن المراسلات في القرن السابع عشر . وقد اكتسب شهرة أولاً لكونه استاذاً للشعر الرقيق الذي ساد فرنسا اعتباراً من عام ١٦٤٠ .

تعرف فواتور على المركيزه دورامبوييه في عام ١٦٢٥ ومنذ ذلك الوقت أقام في بيت المركيزة الشهيرة وأصبح شغله الشاغل هو تسلية المركيزه والترفيه عنها وعن أصدقائها الكثيرين الذين كانوا يجتمعون عندها في صالونها الأدبي . وفي الواقع ان فواتور كانت لديه مواهب أخرى كثيرة تؤهله لأن يلعب دوراً أرفع من دور الأنيس المتواضع ، فقد كانت لديه معلومات كثيرة عن الأدب القديم والأدب الإيطالي والأدب الاسباني كما كانت لديه أيضاً فكرة كبيرة واضحة عن الروايات والأعمال الأدبية القديمة ولكنه على الرغم من ذلك كرس كل وقته وجهده للقيام بدور أنيس المركيزة واصدقائها وأبدع تماماً في القيام بهذا الدور .

كان فواتور موهوباً حقاً فقد كان شاعراً رقيقاً للغاية والأكثر من ذلك كاتباً عظيماً للمراسلات ولقد اختلف

---

(٣) سانت أمان شاعر فرنسي ولد في مدينة روان عام ١٥٩٤ وتوفي عام ١٦٦١ .

(٤) جودو كان اسقف مدينة جراس وشاعر فرنسي من رواد صالون مدام (دي رامبوييه) .

(٥) أوجيه شاعر من رواد صالون مدام دي رامبوييه .

(٦) A. ADAM, op. cit. p. 101.

اسلوبه في كتابة الخطابات عن أسلوب بلزاك ولكنه اشترك معه في كتابتها لكي تقرأ على الملأ في المجتمعات الراقية والصالونات الأدبية وكان يرسل خطاباته الى شخصيات توليه برعايتها أو يرسلها الى أصدقاء له التقى بهم في بيت المركيزه دي رامبوييه ويقدر عدد هذه الرسائل بما يقرب المائتين ، وقد تم جمعها بعد وفاته بفضل ابن اخته بنشان .

ان رسائل فواتور تعيد الى الذاكرة نوع الرسائل المسمى برسائل الحياة الخاصة فهو في رسائله لا يأبه برأي الأجيال القادمة من بعده ، والأكثر من ذلك إنه لم يكن ينتظر من الرسائل أو من أسلوب المراسلات بصفة عامة تحقيق أي نجاح اجتماعي معين فقد حقق ذلك بالفعل بفضل موهبته وبراعته في القيام بدور الأنيس في بيت المركيزه ، ومن ناحية أخرى لم تكن له تطلعات أدبية وهذا ما يبدو غريباً بالنسبة لرجل عادي لا ينحدر من أصل نبيل .

لقد لاحظت الباحثة ميشيلين كوينان في مقالها المنشور في مجلة تاريخ الأدب الفرنسي تحت عنوان « الرسالة المربية لرقة الشعور : مثال فواتور » :

« اذا بحثنا في مجموعة مراسلاته عن أي تلميح عن الحياة الأدبية المعاصرة فلن نجد شيئا » (٧) .

لكن يجدر بنا قبل كل شيء أن نذكر أن فواتور كان يمقت الرسائل المعدة بعناية ودراسة والتي يبذل كاتبها فيها جهداً عظيماً في محاولة منه لاتقان اسلوبها . فنجده يكتب الى الكونت دافو معبراً عن رأيه عن هذا الموضوع بوضوح :

« باسم الرب ، أكتب الي » بدون اتقان ، لكي تكتب لي بسعادة ، وكلمني في رسائلك بنفس البساطة مثلما تفعل عندما تكلمني وأنت في حجرتك (. . . . .) » (٨) .

لقد كان فواتور يكتب رسائله وفقاً للأحداث التي مرت به وشغلت فكره وملأت حياته الخاصة ووجدانه وحياة عائلته بالتبني في منزل المركيزه دورامبوييه وهي باختصار الفراق ، والأحزان ، والأفراح المشتركة والتهاني أو المواساة التي كانت تفرضها عليه صداقاته العديدة . كما تمتاز أيضاً مجموعة رسائل فواتور بأن كاتبها كان دائماً يتخيل شخصية من يكتب اليه رسائله ، كما أنه نجح في جعل هذه الشخصية الفريدة بالنسبة له شخصية حية ماثلة دائماً بالنسبة لنا ويمكن أن نحس بها من خلال كتاباته . ومن بين الشخصيات التي أرسل اليها رسائله العديد من النساء ذوات المكانة المرموقة في المجتمع نذكر منهن على سبيل المثال أخته مدام دي كمبانيول التي كان دائماً يحدثها عن تربية ابنتها ، وكذلك مدام دي لوح التي كان يغدق عليها المديح والثناء والاطراء المبالغ فيه . كما كان فواتور على اتصال مستمر صيفاً وشتاءً بمجموعة من النساء المرموقات التي كن يمثلن أكثر نساء فرنسا جمالاً وذكاءً وحسباً ونسباً وشرفاً .

---

(٧) Micheline CUENIN, "La Lettre educatrice de la Sensibilite : Lexemple de Voiture" in Revue d Histoire littere de la france, nov. dec 1978, p. 922 a 933, p. 325,

(٨) Voiture, Lettres Editions originales 1650 p. 514.

وتعتبر مراسلات فواتور كما لاحظت الباحثة ميشلين كوينان « المجال المفضل للصداقة »[٩] وكان يبدو جلياً من مراسلاته أنه يعرف جيداً شخصية وطباع من يرسل اليه وهذا ما جعل منه استاذاً في المواساة والمديح على السواء ، ومن ثم نراه يخاطب كل شخص بالأسلوب الذي يعلم أنه يتفق مع طباعه . فعلى سبيل المثال كان فواتور مغرماً بسيدة تدعى جولي دينجان ولكنه كان يعلم أنه سوف يخدش حياءها اذا اعترف لها بحبه صراحة ولهذا كان يلجأ الى اتباع أساليب أخرى للخروج من حالة التمزق التي ألمت به فقد كان من ناحية يشعر بالتعاسة والوحدة وهو بعيد عنها ومن ناحية أخرى كان يعلم أن من المحال أن يعترف لها بسبب تعاسته بصراحة لأن السيدة التي كان يراسلها لا تريد أن يصارحها بمشاعره وبما يجيش في صدره ويخفق له قلبه فماذا يفعل للخروج من هذه الورطة ؟ . . . كان يكبت عواطفه ويلجأ الى التهكم والمزاح .

وتقول ميشلين كوينان في ذلك : « كان لزاماً عليه أحياناً عندما كان محرماً عليه أن يعبر عن مشاعره التي تفيض بالحب ان يلجأ الى أسلوب المزاح وأن يتهكم على نفسه . ولهذا كان تهكم فواتور تهكماً غير قاس لأنه كان موجهاً الى نفسه أولاً »[١٠] .

ومهما يكن من شيء فان مراسلات فواتور الشخصية لم تخرج كل عن أن تكون مجرد مراسلات رجل مفعم بالحيوية بدرجة كبيرة ومتمكن للغاية من لغته ولديه قدرات هائلة على التفكير وابداع الاسلوب .

أما الاسم الثالث الذي لمع وجذب الأضواء في عالم أدب المراسلات في القرن السابع عشر فهو اسم مدام دي سيفينيه Madame de SEUIGNE فقد حظيت رسائلها بشهرة كبيرة وأصبحت منذ البداية مثلا يحتذى به وقدوة يقتدى بها .

لكن دعنا أولا نسأل من هي مدام دي سيفينيه وما هي الاحداث التي مرت بها وأدت الى أن تصبح واحدة من أعظم نساء عصرها شهرة في عالم الادب ؟

للاجابة على هذا السؤال نقول إنها ماري دو رابوتان شنتال التي أصبحت بعد زواجها المركيزه دو سيفينيه ، وكانت تنتمي من جهة أبيها الى أكبر وأعرق العائلات في مقاطعة بورجوني . ولدت ماري دو رابوتان في باريس يوم ٥ فبراير ١٦٢٦ في القصر الذي كانت تقطنه عائلة كولونج ، وهي عائلة أمها وبه قضت كل سنوات طفولتها وعندما بلغ عمرها ثمانية عشر شهرا مات أبوها ثم ماتت أمها وهي في السابعة من عمرها فكفلها جدها حتى بلغت العاشرة ولما وافته المنية تولى تربيتها خالها فيليب دو كولونج فعاشت الفتاة في جو مليء بالحياة والمرح معه وذاقت كل أنواع التدليل والسعادة .

---

(٩) M. CUENIN, p p cit, p. 326.

(١٠) Ibid. p. 931.

تربت ماري تربية دينية في طفولتها واهتم أهلها اهتماما خاصا بتعليمها أصول المعيشة في المجتمع الراقي مع عدم اهمال الناحية الفكرية في نفس الوقت وكان ذلك على أيدي استاذين مشهورين ، فقد كان شابلان ثم مناج استاذيها المفضلين ، وقد أكسبها الاول حب الشعر والادب وتذوقهما وعلمها الثاني اللغة الايطالية واللاتينية وقليلا من الاسبانية .

عندما بلغت ماري الثامنة عشرة من عمرها تم زواجها من المركيز هنري دو سيفينيه الذي كان يعرف بطبعه الهوائي المتقلب ، ولم تستطع زوجته الشابة على الرغم من محاسنها المتعددة أن تحتفظ به بجانبها . وبعد سنتين من الزواج أنجبت مدام دو سيفينيه ابنة اسمتها فرانسواز ـ مارجريت التي أصبحت منذ اليوم الاول لولادتها معبودة والدتها وفي نفس الوقت سبب قلقها وتعاستها . ثم رزقت مدام دو سيفينيه بعد ذلك بمولود اسمته شارل ، وفي عام ١٦٥١ قتل زوجها في مبارزة مع أحد النبلاء وقد تألمت زوجته كثيرا لوفاته على الرغم من الحياة المضطربة وغير المستقرة التي كانت تحياها معه .

بعد هذا الحادث بدأت المركيزة الارملة في توزيع وقتها بين الاقامة في باريس حيث كان صالونها يحظى بشهرة كبيرة ويؤمه كثير من الشخصيات العظيمة ، وبين قصرها المسمى « لي روشيه » أي الصخور حيث كانت تعيش حياة رغدة ولكن قليلة التكاليف .

وعندما كبرت ابنتها تم تقديمها الى البلاط الملكي وكانت تتمتع بنفس صفات أمها من الحسن والذكاء ، ورغم ذلك تأخرت في زواجها حتى عام ١٦٦٩ عندما بلغ عمرها الثالث والعشرين عاما وكان زوجها هو الكونت دي جرينيان الذي كان قد تجاوز الاربعين من عمره وتوفيت زوجته الاولى تاركة له ابنتين كبيرتين . لم يكن الكونت هو الزوج المثالي للابنة التعسة فقد كان ايضا قبيح الشكل ومثقلا بالديون ، ومما زاد في تعاسة الام انها كانت تتمنى أن يحصل زوج ابنتها على وظيفة في البلاط الملكي حتى تتمكن من ابقاء ابنتها بجوارها ولكن لسوء الحظ عين الكونت دي جرينيان بعد شهر من الزواج في وظيفة بمقاطعة البروفانس . فتحايلت مدام دو سيفينيه بشتى الوسائل على ابقاء ابنتها بجوارها والعمل على تأخير سفرها لكي تلحق بزوجها ، فتحججت تارة بمرض ابنتها وتحججت تارة أخرى بحملها وخوفها على جنينها . ولم تسافر مدام دو جرينيان لتلحق بزوجها الا في شهر فبراير من عام ١٦٧١ . وكان لهذا الحدث الفضل في خلق احدى روائع الادب الفرنسي ليس في القرن السابع عشر فحسب ولكن على مر العصور ! ونعني بذلك رسائل مدام دو سيفينيه الى ابنتها ، اذ لم تكد الابنة تفارق أمها حتى بدأت الاخيرة تعاني من الوحدة وتقاسي من آلام الفراق فبدأت في الكتابة الى ابنتها وقلمها كيدها تبثها الشوق والحنين « كلها بحث عن ابنتي لا أجدها ، وكل خطوة تخطوها تبعدها عني » . . .
وهكذا تتضح لنا من أولى رسائلها الفكرة الاساسية التي سوف تسود كل مراسلاتها وسوف تشغل بالها قرابة ربع قرن الا وهي فكرة الشوق والحنين للابنة العزيزة الغائبة . ولكي تتغلب الام على شعور الملل والحزن الناتج عن الفراق ، ولكي تبقى قريبة من ابنتها رغم المسافة التي تفصل بينهما ولكي ترفه عنها أيضا في غربتها بدأت مدام دو سيفينيه في ارسال الخطابات اليومية التي تتضمن اخبار البلاط الملكي وأنباء المدينة وكل ذلك مصحوب بتعليقاتها الطريفة وآرائها المتنوعة .

واذا القينا نظرة شاملة على مجموعة رسائل مدام دو سيفينيه الشهيرة يمكننا أن نقول انها أولا وقبل كل شيء عبارة عن قصة حياة انسان ، ففيها تتجسد أمامنا مدام دو سيفينيه ذاتها بصفاتها الشخصية الفريدة ذات الحساسية والذكاء والميل الى تذوق كل مباهج الحياة . لقد كانت تشعر نحو ابنتها بنوع من الحب الجارف الذي يغمر كيانها لدرجة أنها كانت تشعر أحيانا وهي السيدة التي تربت تربية دينية قوية انها تعطي لابنتها مكانة في قلبها اكبر مما تعطي لله خالقها فصارحت بعض القساوسة بهذا الشعور فلاموها على ذلك فالحب كله لله وحده .

واذا اعتبرنا هذه الرسائل مجرد وسيلة تقوم بتعريف شخصية الكاتبة أو أنها ترسم لنا صورة لمشاعرها وأحاسيسها نكون قد ارتكبنا خطأ جسيما وبخسناها حقها بدرجة كبيرة .

فقد كانت لهذه الرسائل قيمة أكبر من ذلك وأخلد وهي القيمة التاريخية فقد كانت تمثل قصة مجتمع بأسره إذ أن هذه الخطابات لعبت في الفترة من عام ١٦٥٥ وحتى عام ١٦٩٦ دور الجريدة التي تحكي وتنشر كل حادثة صغيرة وكبيرة عاشتها العاصمة باريس ويزيد من أهمية هذه الجريدة أن محررها ليس مجرد كاتب بسيط يسجل ما يصل اليه من أخبار أو قصص لم يعشها في الواقع بل ان كاتبها سيدة تنتمي الى البلاط الملكي حيث تولد الاخبار . فكلما عادت من قصر اللوفر أو قصر فرساي أو سان مير حيث كانت تخالط أفراد الاسرة المالكة وأحيانا تتحدث مع الملك نفسه ، وكلما عادت من احدى سهراتها في أكبر صالونات العاصمة حيث تقابل أشهر نساء عصرها ، كانت مدام دو سيفينيه تكتب لابنتها وتقص عليها ما رأت وسمعت ولا يمكننا أن ندعي بأنها كانت تشرح أسباب الحروب وتكشف الأسرار السياسية ولكننا نقول ان كل التفاصيل التي وردت في رسائلها عن محاكمة فوكيه أو عن مشروع زواج أخت الملك لويس الرابع عشر التي كانت تعرف باسم الآنسة الكبيرة وعن موت توران TURENNE وكونديه CONDEولوفواه LOUVOIS تعتبر مكملة لما جاء في كتب التاريخ ولما ورد ايضا في مذكرات سان سيمون فهي تقص كل شيء بأسلوب يفيض بالحيوية .

كما نجد أيضا في رسائل مدام دو سيفينيه نشرة اخبارية لما كان يجري في المجتمع . فعل مر الايام وبقراءة رسائلها عدة مرات نستطيع أن نتصور كيف كان الناس يعيشون في العاصمة باريس وفي الريف وما هي الموضوعات التي كانت تشغل بال الناس ويتبادلون الحديث عنها ، كما نجد فيها ايضا تعليقات وآراء لكثير من الناس ونقدهم ايضا للكتب والاعمال الادبية الجديدة ، وما كان يجري في المسارح وكيف كان الناس يسافرون من مكان لآخر ، وكيف كانت تتم مراسيم الزواج ، وكيف تنجح في كسب قضية ما أو تنجح في عقد صفقة تجارية . ومما يعطي لهذه الرسائل قيمة كبيرة ايضا أنها كانت صادرة من سيدة تكتب خواطرها حسبما تتوارد الى ذهنها دون التقيد بالتفكير في رأي الاجيال اللاحقة وحكمهم على الكاتبة ، وكما هو الحال في معظم مراسلات القرن السابع عشر ، نجد في رسائل مدام دو سيفينيه الكثير من الآراء والتعليقات التي تخص الادباء والاعمال الادبية وهذه الآراء والتعليقات لها أهمية كبرى لانها تعطينا فكرة عن التذوق الفني والادبي لدى سيدة متعلمة ذكية من سيدات القرن السابع عشر وانطباعاتها عند قراءة أي عمل أدبي دون الاستناد الى معايير وقوانين معينة مثلما يفعل النقاد الرسميون .

ومن الطريف أن نذكر أن مدام دو سيفينيه تحمست بشدة لبعض الكتاب والاعمال التي لم يكتب لها الدوام فيما بعد مثل روايات مدموازيل دي سكوديري ، ولاكلبروناد LACALPRENEDE كما نلاحظ شغفها بأعمال فواتور ونيقول وحبها العظيم لكورنيي CORNEILLE والكاتب والفيلسوف الشهير باسكال والاسقف والمؤرخ بوسويه والكاتب لافونتين وقد عبرت عن حبها لهم واعجابها بهم وتذوقها لاعمالهم بعبارات واضحة تدل على الفهم الدقيق والاحساس الفني السليم .

لقد كانت مدام دو سيفينيه تقضي جزءا كبيرا من وقتها في بيتها (لي روشيه) في مقاطعة بريتاني فقد كانت تحب هذه المنطقة للغاية وتشارك أهلها أفراحهم وأحزانهم وكانت تشعر بقسوة الحياة التي يحياها فقراء هذه المنطقة الذين كانوا يئنون من وطأة الضرائب التي فرضها عليهم الملك والتي تتزايد كل عام وفي عام ١٦٧٥ اندلعت الثورة في مدينة ران ووصلت حتى ابواب لي روشيه ولقد واجهت الدولة هذه الثورة باجراءات ردع عنيفة للغاية . واذا قرأنا رسائل مدام دو سيفينيه نجد صدى لهذه الاحداث الاليمة التي عاصرتها . . ولاول وهلة قد يشعر القارىء بشيء من الحرج ويشعر بأن مدام دو سيفينيه كانت تستخف بهذه الاحداث ونجدها تتكلم بعدم اكتراث عما اسمته « اعمال الشنق » ولكن القراءة المتعمقة توضح لنا وجود كلمات تعبر عن شعورها الحقيقي ومشاركتها احزان السكان الفقراء فمثلا نجدها تكتب قائلة :

« إني أشارك المنطقة كلها حزنها وتعاستها » وفي رسالة أخرى تؤكد انتماءها لبلدتها قائلة : « هاأنذا أجد نفسي انتمي فعلا لمقاطعة بريتاني » .

يبدو عدد كبير من رسائل مدام دو سيفينيه وكأنه اجابات متتالية على أسئلة وموضوعات كان قد استفسر عنها مراسلوها وفي مقدمتهم ابنتها مدام دي جرينيان ، كما أن الكثير منها أيضا لا يمكن أن يعتبر اجابة أو ردا على سؤال بل كان نوعا من الحوار يدور بين الكاتبة وبين نفسها أو تفكيرا عميقا في موضوع يشغل بالها فدونته وأرسلته الى أحد مراسليها .

في يوم من ايام شهر ابريل من عام ١٦٩٦ أصيبت مدام دو سيفينيه أثناء اقامتها عند ابنتها بمرض الجدري وماتت في يوم ١٧ ابريل . وقد ابدت عند احساسها بدنو نهايتها شجاعة وتقبلا لقضاء الله وقدره بصورة لم تكن منتظرة من هذه السيدة التي تخاف كثيرا وتفكر كثيرا في يوم الحساب ، فعندما كانت في الخامسة والأربعين من عمرها كتبت في احدى رسائلها قائلة : « ماذا سوف يكون موقفي مع الله ؟ ماذا سوف أقدم له ؟ هل سوف يساورني احساس آخر غير الخوف ؟ هل انا جديرة بالجنة ؟ يا لها من احتمالات محيرة ! » [١١]

---

(١١) Cite par pierre CLARAC, Lage classique, tow 11 (1660-1680) pavis Arthaud, 1969, 324 p. p. 166.

لقد لاقت رسائل مدام دو سيفينيه رواجا كبيرا ونالت اعجاب الناس جميعا . . . وأثناء حياتها كانت هذه الخطابات تتداول بين معارفها واصدقائها وكانوا يطلقون على كل خطاب منها اسما خاصا ، ففي أحد الايام بعثت احدى سيدات المجتمع وهي مدام دي تيانج خادمها ليحضر لها من سيدة أخرى نسخة من رسالة « الجواد » ونسخة من رسالة « المرعى » .

بعد وفاة مدام دو سيفينيه بعام واحد بدأ قريب لها يدعى بوسي BUSSY في نشر حوالي مائة رسالة تلقاها منها بصفته قريبا لها . والسؤال الهام هنا هل كانت هذه الرسائل هي الرسائل الاصلية أم كانت موضع تحوير وتعديل ؟ للاجابة على هذا السؤال نقول إنه لا يمكن اعطاء اجابة محددة في هذا الشأن فالنسخة الاصلية قام بوسي بإعدامها في أغلب الظن لأن أحدا لم يعثر عليها .

وخلال عامي ١٧٢٥ ، ١٧٢٦ ظهرت في الاسواق ثلاث مجموعات من الرسائل كانت موجهة الى مدام دي جرينيان وكانت هذه المجموعات غير كاملة ولكنها أمينة فيما يتعلق بالنص والمضمون وهذه الامانة كانت السبب في اثارة جزع حفيدتها مدام دي سميان ودفعتها الى محاولة تعديل بعض ما جاء في هذه الرسائل التي نشرت ولقد حرصت الحفيدة على تخفيف حدة بعض الآراء وعلى استبدال بعض الاسماء بالاحرف الاولى حتى لا يهتدي أحد الى اصحابها الحقيقيين ، وأعطت هذه النسخ المحرفة الى قريب لها وطلبت منه أن ينشرها .

ولم تكتف حفيدتها بذلك ولم تتوقف تصرفاتها عند حد فقد كانت تخشى أن تقع الرسائل الاصلية في يد الناس فيكتشف الناس أن جدتها لم تكن على الدوام مثلا يحتذى به في الرزانة والاتزان والاخلاق ولهذا قررت أن تمزقها . ولكن يبدو أنها أحست في اللحظة الاخيرة بوخز الضمير فتوقفت عن تمزيقها وقامت بالمحافظة عليها ثم سلمتها في عام ١٧٣٧ وهي على فراش الموت لاحد ازواج بناتها وأخذت عليه العهد بألا يموت قبل أن يقوم بحرقها ، وعاش هذا الرجل فعلا قرابة نصف قرن بعد وفاة حماته وظلت الرسائل الموجودة لديه بحالة سليمة طوال هذه الفترة ، ولكن عندما أحس بقرب نهايته أمر باحراقها . . . اما الرسائل القليلة الموجودة لدينا الآن والموجهة من مدام دو سيفينيه الى ابنتها فما هي الا بعض من الرسائل التي ربما نجت بمحض الصدفة من محاولات الاحراق خلال القرن الثامن عشر .

نجد من الواجب علينا في ختام كلامنا عن اسلوب مدام دوسيفينيه في كتابة هذه الرسائل ان نقول ليس لدينا أي دليل على أنها كانت تخالط رواد الصالون الادبي الخاص بمدام دو رومبوييه او انها كانت تحاكي اسلوبهم في الكتابة وللحق انها كانت احيانا تتبع اسلوبا متحذلقا ولكن هذا حدث في احوال نادرة تماما فقد كان اسلوبها شيقا أنيقا وكانت لغتها نقية تمتلىء بالكلمات والتعبيرات الشيقة التي تبدع في الوصف وتثير الخيال في نفس الوقت . ولقد كانت الماركيزة دو سيفينيه حريصة كل الحرص على ان تؤكد ان مجموعة رسائلها ليس عملا ادبيا مدروسا . وكانت تقول انها تترك لقلمها العنان ليدون كل ما يجول بخاطرها من أفكار وأحاسيس تلهم وتثير اعجاب افراد عشيرتها والطبقة التي تنتمي اليها وانها تقدم لهم مرآة تعطيهم صورة أمينة لحياتهم .

من بين الاعمال الروائية التي ظهرت خلال الفترة ما بين عام ١٦٦٠ وعام ١٦٨٠ عمل يستحق أن يمنح مكانة خاصة وهو العمل الذي عرف باسم « الرسائل البرتغالية » فهو عمل لا يشبه أي عمل روائي آخر ، وقد حازت هذه الرسائل اعجابا كبيرا منذ نشرها وأثارت مشاعر مليئة بالحزن والتأثر . ومما أدى الى زيادة الاهتمام بها الغموض الذي صاحب ظروف كتابتها ونشرها ، والى يومنا هذا تثير هذه الظروف وهذا الغموض العديد من التساؤلات وتدعو الى القيام بالابحاث في محاولة للوصول الى الحقيقة .

وفي مستهل عام ١٦٦٩ أصدرت دار النشر « بربان » كتيبا من حوالي مائتي صفحة تحت عنوان يجذب الانتباه وهو « رسائل برتغالية مترجمة للغة الفرنسية » وقد قدم الناشر هذا الكتيب الى القراء مدعيا أن الرسائل الخمسة التي تكون في مجموعها هذا الكتيب ان هي في الواقع الا مجموعة رسائل حقيقية ارسلتها راهبة برتغالية الى رجل من نبلاء فرنسا وقال أيضا « انني لا أعرف اسم الشخص الذي ارسلت اليه ولا اسم الشخص الذي قام بترجمتها » وردا على هذين التساؤلين ظهرت طبعة أخرى في مدينة كولون بعد فترة وجيزة من ظهور طبعة بربان تقدم بعض التوضيحات مؤداها أن الشخص الذي ارسلت اليه هذه الرسائل هو فارس يدعى شامبي CHAMILLY والمترجم هو كوييراك CUILLER-AQUES وكان شامبي هذا فارسا معروفا وقد مات في عام ١٧١٥ بعد أن وصل الى منصب مارشال فرنسي ، أما المترجم فقد أخطأ الناس في كتابة اسمه لأن اسمه الحقيقي هو : جويراك Guillr RA Gues وليس كوييراك .

وفي بداية القرن التاسع عشر عثر الباحثون على ورقة تلقي بعض الضوء على اسم الراهبة وهو ماريانا الكوفورادو وانها كانت تنتمي الى دير يقع في مدينة بيجا ، وعلى الرغم من هذا ترددت شائعات اعتبارا من عام ١٦٦٩ مؤداها أن الناشر كان يكذب ويخدع القراء وان هذه الرسائل في واقع الامر من نسج خيال كاتب فرنسي ، وقد قام هذا الادعاء بناء على عدم توافق وانسجام ما جاء في هذه الرسائل وما عرف أيضا عن الراهبة المذكورة .

اذا قرأنا هذه الرسائل المسماه بالرسائل البرتغالية لوجدنا أنها كلها تدور حول بعض الموضوعات المألوفة والشائعة مع اجراء بعض التعديلات عليها في التعبير مما جعلها تكتسب بعض السمات الموسيقية .

كانت هذه الموضوعات تدور حول الافراح والاحزان التي تصاحب الحب ، وقسوة ورقة الذكريات ، والثورة على الحياة ثم الاستسلام لما جاء به القدر ، والتعاطف والتعالي في الحب الى آخر هذه الموضوعات والافكار المألوفة في أي قصة حب . واذا حاولنا أن نعثر فيها عن أي تفاصيل تدلنا على أنها قصة حقيقية أو أي اشارة الى ظروف خاصة لصاحبة القصة فاننا لا نجد شيئا .

والاكثر من ذلك أنها تدفع القاريء الى أن يتساءل في عجب كيف استطاع هؤلاء الاحبة أن يتغلبوا على المصاعب والعقبات التي لابد أن تكون قد اعترضت طريق حبهم وما هي الاساليب التي اتبعوها للتحايل على مشقة الحياة في الدير ؟ .

ان قراءة الرسائل لا تجعلنا نعثر على أي اشارة تساعدنا على الاجابة على هذه الاسئلة بل على العكس من ذلك فهي تظهر لنا وكأن غرامهم كان مستقيما هادئا يسير بلا عقبات أو عوائق . وكل ما يمكننا الجزم به في الواقع هو احتمال حدوث قصة حب بين ضابط فرنسي وراهبه برتغالية . . . وربما كان هذا الضابط هو شامي نفسه الذي خدم في البرتغال في الفترة ما بين عام ١٦٦١ وعام ١٦٦٨ وبين الراهبة البرتغالية التي كان سنها يتراوح في ذلك الوقت بين واحد وعشرين وثمانية وعشرين عاما أو ربما سمع جوييراك عن هذه القصة واستوحى فكرتها ليكتب هذه الرسائل الخيالية التي لاقت رواجا عظيما وشغلت الاذهان فترة طويلة وما زالت الى يومنا هذا .

اذا نظرنا الى أدب المراسلات في القرن الثامن عشر نجد أنه قد ازداد رواجا بالمقارنة بأدب المراسلات في القرن السابع عشر ، وقد استخدم الكثير من الكتاب هذا الاسلوب في صياغة اعمالهم الادبية فمثلا من بين أعمال فولتير التي لاقت نجاحا ساحقا العمل المسمى « **الرسائل الانجليزية** » أو « **الرسائل الفلسفية** » الذي ظهر في عام ١٧٣٤ . ثم تفنن الكتاب وتباروا فيما بينهم في صياغة الروايات ذات العقد المحبوكة والمعدة في صورة مراسلات ، فظهر العديد من الاعمال التي اتخذت هذا الاسلوب سبيلا لها في محاكاة من كاتبيها للكاتب الفرنسي الشهير مونتسكيو في عمله الشهير المسمى «**الرسائل الفارسية** » الذي يعد بحق من أهم الاعمال الادبية التي ظهرت في القرن الثامن عشر من أدب المراسلات الى جانب أعظم روايتين وهما « **العلاقات الخطيرة** » و « **هيلويز** الجديدة » وكلتاهما تمت صياغتها في صورة رسائل أدبية .

مما سبق يمكننا أن نستنتج أن هذا النوع من الاعمال الادبية لم يكن جديدا أو مستحدثا في هذا القرن ولكن أخلاق هذا العصر والحياة التي كانت سائدة في مجتمعه كانت من أهم أسباب رواجه ولذلك عندما فكر مونتسكيو في كتابة عمله المسمى « **الرسائل الفارسية** » اتخذ هذا الاسلوب ويبدو هذا الامر طبيعيا لأن بعض شخصيات روايته أقاموا في باريس والبعض الآخر كان يتنقل بين فينيسيا وباريس ، وكما يقول اتيمبل : **ETIEMBLE**

« **يبدو أن الرسالة هي الحل الامثل ان لم يكن الحل الوحيد وكذلك يبدو أنها الوسيلة الاكثر فاعلية لاعادة تكوين وحدة المكان التي يمزقها السفر والتنقل** »[١٢]

من أهم مميزات هذا الاسلوب أنه يوفر للكاتب قدرا أكبر من الحرية في الانتقال من موضوع الى موضوع دون التقيد بأي قيد وذلك في محاولة منه لتوصيل أفكاره وانطباعاته للقاريء على مر الايام وفقا للاحداث التي تأتي بها الظروف أو حوادث الصدفة وحدها .

وتدور فكرة « الرسائل الفارسية » حول اثنين من اهل فارس هما ريكا واسبك حضرا الى باريس ليقضيا فيها بعض الوقت لدراسة عادات وتقاليد اهل هذا البلد ومن باريس اخذا يبعثان الى ذويهم واصدقائهم في فارس انطباعاتهما ومشاهدتهما .

(١٢) ETIEMBLE, Encyclopedie de la pleiode, Histoire des litteratures, 111 p. 701.

وقد حرص مونتسكيو في مقدمة الكتاب على أن يؤكد صحة روايته وصدقها وحقيقة وجود هذين الشخصين في الحياة الواقعية ومقابلته لهما فقال :

« ان هذين الرجلين الفارسيين اللذين يكتبان هنا كانا يسكنان معي ، وكنا نقضي حياتنا سويا وبما انهما كانا يعتبراني شخصا ينتمي الى عالم آخر فقد كانا لا يخفيان عني شيئا وكانا يعطيانني معظم رسائلهما لكي اقرأها وكنت انقلها .

« لقد استطعت ان اختلس بعض الرسائل التي كانا يريدان إخفاءها عني ، لانها كانت تسيء لكرامة وغيرة اهل فارس فمهمتي اذن تقتصر على قيامي بدور المترجم »(١٣)

ان أول سؤال يخطر ببالنا هو من اين اتى الكاتب بفكرة الرسائل الفارسية ؟ فنجد ان الرد قد ورد في اول رسالة حيث كتب اسبك قائلا : « ربما كنت انا وريكا أول أناس من أهل فارس يتركون بلادهم بحثا عن المعرفة ويستغنون عن حلاوة الحياة الهادئة للسفر بحثا عن الحكمة »(١٤)

ربما كانا فعلا اول من سافر من اهل فارس ولكنهما بالقطع لم يكونا أول من سافر وتجول بحثا عن المعرفة لاننا نجد اناسا سبقوهما في هذا المضمار فمثلا في كتاب « المشاهد » لمؤلفه ابسوبرا وكتاب « الجاسوس » لمارانا ، نجد اشخاصا تركوا بلادهم وقاموا بالاسفار لمثل هذا الغرض وأعطوا هم أيضا وصفا دقيقا لعادات أهل البلاد التي قاموا بزيارتها .

نستطيع أن نؤكد من جانبنا أن مونتسكيو كان قد قرأ اعمال من سبقوه ووجد فيها فكرة المقارنة بين العادات الفرنسية وعادات وتقاليد بلاد اخرى ويعد هذا الاسلوب اسلوبا سهلا ولكنه اسلوب ذكي للنقد ومعارضة كل الامور التي لا يرضى عنها الكاتب في بلاده ولا يستطيع ان يجاهر فيها برأيه ويعلنه على الملأ فيلجأ إلى الحيلة ويجعل نقده يأتي على لسان الغرباء الذين يدهشون لما يرون من صور الفساد المتفشي في البلاد الغربية . وهكذا صب مونتسكيو جام نقده اللاذع على عادات واساليب المعيشة السائدة في فرنسا كما هاجم بشدة النظام السياسي والاقتصادي والاجتماعي في رسائله الفارسية .

لكن ماذا كان رأي مونتسكيو في معاصريه من بني وطنه ؟ للاجابة على هذا السؤال نقول انه كان يرى ان فترة الوصاية تعد فترة اضطراب وانعدام توازن رهيب في حياة الامة بالنسبة للناحية الاخلاقية وقد تبنى وجهة النظر القائلة بأن المواطن الفرنسي العادي الذي كان يعيش في عام ١٧٢١ كان كل همه وشغله الشاغل الهدم والتخريب بدلا من البناء

---

(١٣) MONTESQUIEU, les lettres Persanes, preface.

(١٤) MONTESQUIEU, les lettres persanes, lettre 1.

والتشييد . وترجع المسئولية في وجود هذا الخطأ الجسيم الى رجال السياسة الذين تخلوا عن اتباع الاساليب السياسية الامينة التي أوصاهم بها فنلون FENELON واتبعو بدلا منها اساليب ميكافيلية دنيئة . وفي هذا العالم اللاخلاقي المملوء بالفساد اعتبرت النساء أسوأ ما فيه لأنهن كن يتدخلن في سياسة البلاد ويقمن بحماية ومساندة الرجال الذين يقومون بلعب دور الدون جوان وليس الرجال الذين تتوفر فيهم المؤهلات والكفاءة والصفات الحميدة وهذا ما يكتبه اسبك في الرسالة رقم (٤٩) .

« ما رأيك في بلد مثل هذا البلد ، الذي توصل فيه الخيانة وعدم الأمانة والسرقة والمكر والظلم الى أعلى المراكز ؟ »(١٥) .

ان هذا الشعب المشغول بلهوه والمنغمس في ملذاته الى أقصى الحدود ليس لديه أي وعي سياسي ، وهو بوضعه هذا يمهد الطريق للنظام الاستبدادي المطلق .

وجاء نقد مونتسكيو للنظام السياسي في فرنسا على صورة لاذعة قاسية فيقول اسبك أو مونتسكيو ان نظام الملكية ليس الاّ نظام القوة المتضاربة . ويبقى الملك في الحكم لأنه يستغل سلطته المطلقة وأي محاولة للثورة عليه محكوم عليها بالفشل .

وضرب مونتسكيو مثلاً للحرية السياسية بالحرية السياسية السائدة في النظام الانجليزي حيث يربط العرفان بالجميل الشعب بالملك واذا كف الملك عن القيام بدور المصلح بالنسبة للأمور التي تخص شعبه انقطعت الصلة بينهما ويحصل الشعب على حريته الطبيعية .

كما انتقد مونتسكيو باشل النظم الدينية التي كانت سائدة في عصره ، فهاجم البابا ووصفه « بالساحر » وتهكم على بعض رجال الدين الذين دفعوا الناس بسبب تصرفاتهم السيئة الى تفسير مبادىء الدين تفسيراً خاطئاً .

وصب مونتسكيو جام غضبه على العلاقات الفاسدة التي تربط بين أعضاء الأسرة الواحدة وفي رأيه أن الفساد المتفشي في المجتمع اثر تأثيراً ضاراً بروابط الأسرة التي أصبحت متفككة للغاية . ويمكننا أن نقدر اهمية هذه الرسائل وخطورتها في ذلك العصر ، اذا تصورنا أنه من خلف قناع الشخصيات الأجنبية أصبح بمقدور مونتسكيو أن يعبر عن أخطر العقائد السياسية والاقتصادية وبناء على ذلك يمكننا أن نقول بدون أي مبالغة ان « الرسائل الفارسية » لم تكن الاّ المقدمة الحقيقية لمؤلفه الكبير : « روح القوانين » L'Esprit deslois.

●●●

(١٥) MONTESOUIEU, les lettres persanes, lettre 45.

كان فولتير كاتباً آخر من أشهر كتاب القرن الثامن عشر وقد خلف لنا أعمالاً يمكن ادراجها ضمن أدب المراسلات ، فهو من ناحية ترك لنا مايربو على عشرة آلاف رسالة شخصية ومن ناحية أخرى كتب الرسائل الانجليزية التي تعتبر من أشهر الأعمال الأدبية التي تمت صياغتها في صورة خطابات .

اذا كان فولتير قد كتب ما يزيد عن عشرة آلاف رسالة فان الرسائل التي لم تنشر له بعد تفوق هذا العدد ـ وما يدعو الى الدهشة ان هذا العدد الضخم من الرسائل كان موجهاً الى ما يزيد على سبعمائة مراسل ويرجع تاريخ أول رسالة بعث بها فولتير الى عام ١٧١٣ وكان وقتئذ قد بلغ من العمر تسعة عشر ربيعاً . . أما آخر رسالة بعث بها فكانت بتاريخ ٢٦ مايو من عام ١٧٧٨ أي قبل وفاته بأربعة أيام فقط ، أي أنه استمر في ارسال الخطابات على مدى خمسة وستين عاماً ولم يمر يوم تقريباً دون أن يرسل فيه فولتير خطاباً أو أكثر .

أما بالنسبة لقائمة الأشخاص الذين كان يراسلهم فولتير فهي قائمة طويلة ومتنوعة ، فنجد فيها أشخاصاً من جميع الجنسيات ينتمون الى جميع الطبقات والمستويات فمنهم الملوك والعلماء والفنانون . البعض منهم لم يرسل له فولتير الا خطاباً قصيراً ـ أما البعض الآخر فكان بينه وبينهم مراسلات كثيرة ومتعددة ، ومن بين هؤلاء الأصدقاء الذين كان يكتب اليهم عن الموضوعات الأدبية الكتاب الناشئون أو المعجبون الذين كانوا يراسلونه فيبعث اليهم بآرائه ونصائحه ومن بين هؤلاء هلفتيوس ، و فوفنارج ، ولاهارب ، وسان لمبار ، وكندورسيه .

ان أهم الرسائل التي بعث بها فولتير هي تلك الرسائل التي كان يكتب فيها مدافعاً عن فكرة أو قضية ما ، أو تلك الرسائل التي يبعث فيها بأوامر أو تعليمات محددة والتي يمكن أن نطلق عليها اسم رسائل الكفاح . هذا بالاضافة الى رسائل أخرى كانت تحمل الى صاحبها نقداً لاذعاً أو رداً صريحاً بلا مجاملة مثل الرسائل التي بعث بها فولتير الى روسو أو باليسو وعلى الرغم من تعدد الشخصيات التي كان فولتير يراسلها فقد كان حريصاً على أن يخاطب كل واحد منهم وفقاً لدرجة ثقافته ومكانته الاجتماعية ومهنته ، وبناء على هذا يمكننا أن نصف مراسلات فولتير بأنها كانت أكبر موسوعة لأفكار العصر . لقد كان أدب المراسلات يشكل بالنسبة لفولتير الأسلوب الأمثل الذي يتفق مع فكره وعقله وموهبته التي تألقت وبرزت في هذا النوع من الكتابات القصيرة أكثر مما تألقت في الأعمال الأدبية الطويلة وتعد مجموعة رسائله بحق من أكبر روائعه . والقارىء الذي يرغب في معرفة فولتير على سجيته وطبيعته وفي أنقى صورة يجب عليه أن يبحث عن بغيته في هذه المراسلات .

كتب فولتير أيضاً نوعاً آخر من المراسلات هي ذلك العمل المعروف باسم « الرسائل الانجليزية » أو التي تعرف أحياناً باسم « الرسائل الفلسفية » والسؤال الآن هو متى وكيف فكر فولتير في كتابة هذه الرسائل ؟ ولماذا سميت بالرسائل الانجليزية بالذات ؟ هذا ما سوف نقوم بالاجابة عليه في الصفحات التالية باذن الله .

في عام ١٧٢٦ كان فولتير قد اكتسب شهرة واسعة وحقق لنفسه مكانة أدبية كبيرة بعد أن نشر قصيدته الملحمية

المعروفة باسم « الهنرياد » La Henriade عندما وقعت حادثة كان لها أكبر الأثر في تغيير مجرى حياته بصفة عامة وكانت السبب في إقدامه على كتابة « الرسائل الفلسفية » . تتلخص هذه الحادثة في أنه أجاب في يوم من الأيام إجابة تتسم بشيء من العجرفة على سؤال لأحد النبلاء هو الفارس دوروهان فجعلته يصمم على الانتقام منه ، وفعلاً تربص له رجاله وفي ليلة مظلمة انقض رجاله على فولتير وأوسعوه ضرباً بالعصي ولكي تمنع السلطات الحاكمة فولتير من محاولة الانتقام لنفسه من روهان سجنته في سجن الباستيل أولاً ثم استجابةً لطلب قدمه نفته الى انجلترا وكان ذلك في شهر مايو ١٧٢٦ .

وأثناء إقامته في انجلترا كتب فولتير هذه الرسائل التي تعتبر أول قنبلة موجهة ضد النظام الحاكم ، وهكذا بدلاً من أن يكون المنفى تأديباً وتهذيباً وعقاباً لفولتير تحول في الواقع الى فرصة اتاحت له العثور على اسلحة جديدة يحارب بها معركته الأدبية والفلسفية فقد اتاحت له الإقامة في انجلترا حرية التفكير في العديد من المسائل السياسية والفلسفية التي تتعلق بالنظام الحاكم والأفكار السائدة في فرنسا . فلأول مرة في حياته ذاق طعم الحرية السياسية والدينية وعرف أهميتها وقيمتها للانسان الذي يجب أن يعبر عن رأيه .

وعندما عاد فولتير الى فرنسا مرة أخرى بعد أن قضى في المنفى عامين ونصف عام ادعى أنه انتهى من كتابة رسائله هناك ولكي يؤكد هذا الادعاء جعل رسائله مؤرخة بتواريخ واقعة بين عامي ١٧٢٧ ـ ١٧٢٨ في محاولة منه لتفادي أي عقاب تنزله به السلطات الحاكمة .

ويرى النقاد أن فولتير انتهى من كتابة هذه الرسائل بعد عودته من انجلترا ، ومما يجدر ذكره أن هذه الرسائل كانت اشتهرت حتى قبل نشرها ، وكان فولتير يشعر بقلق بالغ من الفضيحة التي سيحدثها نشرها ولهذا تردد كثيراً قبل أن يصدر أمره بنشرها ، وتعتبر الظروف التي أحاطت بالنشر غريبة وطريفة في نفس الوقت وتدل على مكر ودهاء الكاتب وقد تم النشر فعلاً في عام ١٧٣٤ ، ولكن سرعان ما صدر حكم من المحكمة يأمر بأن يمزق الكتاب ويحرق بيد الجلاد لأنه على حد قول المحكمة « فاضح ومخالف لتعاليم الدين والأخلاق الحميدة ومناف للاحترام الواجب تجاه السلطات »[١٦] .

زاد هذا الحكم من شهرة ورواج الكتاب ونلاحظ أنه على الرغم من جدية الموضوعات التي كان يدور حولها الكتاب وصعوبة الأفكار التي يناقشها فقد أعطاها الكاتب صبغة طريفة ، وتدور هذه الرسائل الانجليزية حول موضوعات مختلفة متنوعة مثل المذاهب الدينية المتعددة ، والاقتصاد ، والطب ، والعلوم الرياضية البحتة ، والأدب والشعر والأدباء قبل شكسبير وسويفت ، وبسكال .

---

(١٦) Emile HENRIOT, Courrier Litteraire, 18 eme siecle, Voltaire et les lettres philosophique, paris Albin Michel, 1961 p. 159.

ويتكلم فولتير في الرسائل الأولى عن أحد رجال الدين الانجليز من الكويكرز ويكتب على لسانه بعض التعليقات المنافية أحياناً لقواعد الأدب ولكنها لا تخلو من الطرافة ، فهي تتراوح بين التكلم بتوسع واسهاب في موضوع معين بغرض التعليم وبين الحكايات الطريفة والتعليقات اللاذعة وكل ذلك في أسلوب سريع لا يعطي للقاريء فرصة لكي يلتقط أنفاسه .

يقول الناقد أميل هنريو عن هذه الرسائل : « ان كل ما كتبه فولتير بأسلوب مرح في هذه الرسائل كان حكيماً للغاية ، ولهذا نحن ندهش من عنف المقاومة وشدة الأحقاد التي قوبل بها ، ويرجع السبب في الغالب الى أن حراس التقاليد الرسمية انزعجوا عندما رأوا هذا الشاب الوقح يستخدم بحرية حقه في التفكير بصوت عال ومجاهراً بكل الأشياء التي كانت محجوبة عن النقاش العلني »[١٧] .

كانت هذه الرسائل موجهة في الواقع ضد نظرية القدر وقد اضطر الكاتب على مضض ان يكبح جماحه ويخفف من وطأة هجومه لكي تصل رسائله الى القراء . فمثلاً نجد انه اضطر لاعادة صياغة رسالته التي تدور حول الفيلسوف لوك « لأني أريد في النهاية أن أعيش في فرنسا ، وليس مسموحاً لي أن أكون فيلسوفاً مثل الكاتب الانجليزي ، فيجب أن أخفي وأنا في باريس ما يمكنني ان اجهر به بصوت مرتفع وأنا في لندن »[١٨] .

ان من الجدير ان نتساءل عن قيمة وأهمية انجلترا في كل هذا ؟ نجيب على هذا التساؤل بأنه يبدو أن انجلترا لم تكن إلا حجة استغلها الكاتب لكتابة رسائله ، واعتبرها فرصة سانحة لتلقين فرنسا درساً قاسياً عن أفضل النظم الحكومية ، وعن الحرية ، وعن التسامح الديني ، وعن أولوية العقل . ولم يكن فولتير يتحمس ويبدي إعجابه الشديد الا بما يجده عند الانجليز ويصلح لأن يكون سلاحاً يستخدمه لهدم الأفكار والمعتقدات الفرنسية القديمة التي عفّى عليها الزمن . أما عن موضوع التعصب الديني الذي كان سائداً في فرنسا في ذلك الوقت ، فقد كتب ممتدحاً التسامح الديني السائد في انجلترا قائلاً :

« ان كان في انجلترا دين واحد لخشينا ان تتجه نحو الاستبداد وان تواجد بها اثنان ساد القتال بينهما ، ولكن يوجد في انجلترا ثلاثون ديناً وكلهم يعيشون في سلام ومحبة » وفي النهاية يمكننا أن نقول ان الرسائل الانجليزية تعد أول أعمال فولتير الفلسفية وانها كانت تحتوي على كل الأفكار التي طورها فيما بعد ، كما نجد فيها الأسلوب التهكمي والدعابة المرحة والنقد اللاذع الذي سوف تتميز به كل أعماله اللاحقة .

●●●

(١٧) E. Henriot, op. cit. p. 153.

(١٨) Ibid. p. 155.

يعتبر ديدرو DIDEROT من أهم وأعظم كتاب فرنسا في القرن الثامن عشر ويقترن اسمه دائماً بدائرة المعارف L'Encyclopédie التي تعد من أعظم ما أنجز في ذلك القرن . ولكي نحاول أن نتصور مقدار ما تكبده من عناء لإتمام هذا العمل الضخم لا يسعنا إلا أن نرجع الى مجموعة رسائله المعروفة باسم « رسائل الى صوفي فولان » وتعد هذه المجموعة من الخطابات من روائع ديدرو لأنه يلعب فيها الدور الأول ويظهر فيها على حقيقته دون أي تكلف فهي حقاً بمثابة مذكرات هذا الكاتب الفذ .

لكن من هي صوفي فولان Sophie Volland وما الذي يربطها بديدرو ؟ انها امرأة عرفها الكاتب في عام ١٧٥٦ عند اختها مدام دي بلي وكان هو في الثانية والأربعين من عمره ولم تكن هي أيضاً في ريعان الشباب فقد كانت قد تجاوزت الأربعين من عمرها ولا نعلم عنها الكثير لنقدمه للقاريء، بل كل ما لدينا من معلومات هو ما نجده في رسائله عندمايكلمهاعن نفسها وأغلب الظن أنها لم تكن جميلة ، فقد كانت ترتدي النظارات الطبية وصحتها ضعيفة كذلك ، كما يبدو انها كانت امرأة غيورة ، ونظراً لأن المائة والأربع والثلاثين رسالة الأولى اختفت غالباً بفعل صوفي نفسها التي ربما وجدتها فاضحة بالنسبة لها لأن اسلوب الكاتب كان صريحاً فيها فليس لدينا اذن أي معلومات تروي بداية حبهما ولكن يبدو أنه كان حباً جارفاً . والجدير بالذكر ان هذين العاشقين الواهين قضيا نصف حياتهما بعيداً عن بعضهما فقد كان ديدرو كثير التنقل والاقامة عند أصدقائه والمعجبين بفنه ، أما صوفي فقد كانت في أغلب الأحيان بصحبة والدتها التي كانت تمقت الكاتب وتبذل كل ما في وسعها لإبعاده عن ابنتها . ولكي يتغلب ديدرو على ألم الفراق والمعاناة كان يكتب الى حبيبته يومياً ويتشكك البعض كما يقول الناقد أميل هنريو « أنه بالرغم من حرارة التعبير عن الحب فقد كان في الغالب حباً بالمراسلة »[١٩] وقد كان هذا الحب خليطاً من العشق والصداقة والاهتمام الفكري والعقل فقد كانت طباع مدموازيل فولان تتفق وهذا النوع من العلاقات كما يبدو من الخطابات .

كانت صوفي تحب الفلسفة والدراسة ويكتب ديدرو الى صديقه جريم GRIMM عن حبيبته قائلاً :

« آه يا جريم ، يا لها من امرأة ، انها رقيقة وحنونة ومهذبة وذكية ، والمشكلة هي انني لا أدري متى سنكون سعداء ، فهي تفكر وتحب التفكير بدرجة كبيرة »[٢٠] .

وحيث أن مجريات الأمور لم تكن دائماً في صالح أو طوع ارادته فكان يلجأ الى الخيال ويحلم بقصر وهمي لا وجود له يستطيع أن يقيم فيه وينعم بالعيش مع معشوقته . والشيء الذي يثير دهشتنا أن رسائله كانت مليئة بالأحلام والخيال البعيد كل البعد عن الواقع رغم ان ديدرو كان بصفة عامة رجلاً يتسم بالواقعية ولكن الصراع الذي كان يعاني منه هو الذي دفعه الى ذلك فهو يريد ان يعيش وهو بعيد عنها وكأنها موجودة بجواره وهذا ما يبدو لنا من واقع ما كتبه لها : « الى

(١٩) E. HENRIOT, op. cit, p. 335 (Diderot et les lettres a Sophie Vollaud).

(٢٠) Ibid, p. 336.

اتكلم وأنا أكتب اليك كأني بجوارك وذراعي يحيط بظهر مقعدك وكأني أتحدث اليك . اني أحب أن أعيش تحت نظرك . . . . » ونجده لا يخفي عنها شيئاً مهما كان فهو دائماً يحدثها بصراحة تامة عن ميوله وهويه وأحلامه بل حتى انه كان يحدثها عن مشاكله . وهكذا يمكننا ان نتبع خطواته يوماً بعد يوم في كفاحه المرير المتواصل الى ان تمكن من نشر الموسوعة .

ان قدرتنا على تتبع خطوات الكاتب وملاحظة تصرفاته هو ما يعطي هذه الرسائل أهمية فائقة فكما يقول الناقد الفرنسي هنريو : « لقد كسبنا من هذه الرسائل شيئاً أكثر قيمة من أي خطابات عادية ، وأكثر قيمة من أي مذكرات فقد كسبنا أفضل ما يمكن أن يتركه لنا رجل يفيض حيوية مثله ألا وهي مذكراته اليومية ، لأنها مذكرات يومية بدون أي رباط يربطها ، وبدون جدول محدد ، وهي مليئة بالمشاكل التي تخلقها الحوادث اليومية سعيدة أم حزينة حسبما تقتضي الظروف والأحوال وهي مليئة بالأفكار وبحرارة المشروعات المتعددة ، ومليئة بالأحلام والنظريات ، مليئة بالغضب والحلم ، بالأفكار المجنونة والحماس »[٢١] .

وهكذا من خلال المجلدات الثلاثة التي تكون مجموعة رسائل ديدرو لصوفي فولان تكتمل أمامنا صورة الكاتب في جميع الأحوال والمواقف التي مرت به ، فتارة نراه سعيداً وتارة أخرى يائساً، ونجده يوماً حانقاً ويوماً آخر راضياً ، فمثلاً نراه يوماً في مدينة لونجر بعد موت أبيه وهو يحاول ان يصلح بين أخيه وأخته ، ويوماً آخر نراه في بيته بجوار زوجته ذات الطباع الحادة وهي تحاول ان توقع بينه وبين ابنتها التي يحبها كثيراً الى درجة الجنون فنراه يوماً يقرأ أو يحلم ، يتنزه أو يتحدث في الصالونات الراقية في باريس . وبالإضافة إلى ما سبق نرى صورة واقعية للمجتمع الفرنسي على مدى ستة عشر عاماً من عام ١٧٦٩ الى عام ١٧٧٥ ظل يراسل فيها محبوبته صوفي فولان ، وهي في الواقع صورة صادقة لا تقل قيمة وواقعية عن تلك الصورة التي جاءت بها كتب التاريخ التي تصور لنا الحياة في ذلك العصر .

●●●

أما الكاتب الأخير من كتاب القرن الثامن عشر الذي نود أن نتكلم عنه في مقالنا هذا فهو الكاتب الشهير وفيلسوف الثورة الفرنسية جان جاك روسو ، وفيما يخص موضوعنا وهو أدب المراسلات فلن نتكلم عن رسائل روسو الشخصية أو عن الخطابات التي بعث بها الى اصدقائه ومعارفه بل سوف نتكلم فقط عن عمل واحد من أهم أعماله الأدبية هو العمل المسمى هيلويز الجديدة (La Nouvelle Heloise) وهي عبارة عن رواية مكونة من مجموعة من الرسائل المتبادلة بين أبطال الرواية .

ويجدر بنا أولاً وقبل أن نتعرض لأي جانب من جوانب الرواية أن نوضح عنوانها والسبب الذي دعا مؤلفها

---

(٢١) E. HENRIOT, op. cit., p. 336.

لتسميتها باسم « هيلويز الجديد » ؟ لقد اختار روسو هذا الاسم لروايته إشارة الى هليويز التي كانت قد أحبت معلمها الفيلسوف ابيلار فاتخذها عشيقة له ثم تزوجها في العصور الوسطى .

ففي رواية روسو نجد بالمثل ان بطلة الرواية التي تدعى جولي ديتانج تحب هي الأخرى معلمها الشاب الفقير المدعو سان برو ، ولكن الظروف الاجتماعية تحول دون زواجهما فتتزوج من رجل آخر هو البارون دو فولمار الذي كان في سن والدها ولكنه واسع الثراء ، فابتعد عنها سان برو بعد زواجها وهو ناقم على القدر وعلى المجتمع وظل مسافراً لعدة سنوات حتى هدأت ثورته ، وبعد عودته أقام مع الزوجين فولمار في ضيعتهما وعمل مربياً لأولاد جولي ، ونستشف من الرسائل أن الحب القديم لم يمت ولم تنطفىء جذوته تماما ـ ولكن جولي تنجح جيداً في إخفاء ما تشعر به نحو حبيبها القديم ، وفي النهاية تموت جولي ويعيش باقي شخصيات الرواية على ذكراها . لم يسرد روسو أحداث الرواية بالطريقة التقليدية أي أن يتكلم هو شخصياً أو بأن يعطى الكلمة لأحد الأبطال ليقوم برواية قصة جولي وسان برو ولكنه فضل أن تكون جميع أحداث القصة مرتبطة فيما بينها عن طريق الخطابات التي يتراسلها الأبطال والتي يروون فيها الأحداث التي يتعرضون لها . والسؤال الهام الآن هو لماذا اختار روسو اسلوب المراسلات بالذات لكتابة روايته ؟ للاجابة على هذا السؤال نقول باختصار إن هناك عدة أسباب لذلك ، السبب الأول ان ابيلار وهيلويز كانا قد تبادلا الرسائل في الماضي ، والسبب الثاني ان هذا الأسلوب الأدبي في الكتابة كان يلقى رواجاً كبيراً في ذلك الوقت ، اما السبب الثالث والذي قد يكون أكثر الأسباب صواباً فهو ان هذا الأسلوب كان الأسلوب الأمثل في نظر الكاتب بالنسبة للموضوع الذي يعالجه ، فالرسائل المتبادلة بين العديد من الشخصيات تتيح للكاتب الفرصة المناسبة لتقديم عدة تعليلات لموقف معين بالذات ، يقلم الذين عاصروا هذا الموقف أو الذين سمعوا عنه أو كانوا مشاهدين له . وقد ساعد هذا الأسلوب روسو على التعبير عن رأيه في أي موضوع معين مثل موضوع التقوى مثلاً بطريقة تختلف عن طريقة شرح النظريات فقد عبر عن أفكاره باعطاء كل شخصية من الشخصيات الفرصة لإبداء رأيه فيها ، ولقد كان من دواعي سرور الكاتب أن أتاح له هذا الأسلوب ان يتقمص شخصية كل بطل من ابطاله وأن يوفر لكل بطل منهم الأسلوب الذي يلائمه ، ونظراً لأن أسلوب المراسلات كان يسمح لروسو بلعب كل الأدوار فقد كان يعفي الشخصيات من التدخل في الأحداث فهذا الأسلوب هو في حقيقة الأمر عبارة عن أسلوب سرد يستبعد أي حوار بين الأبطال ويهمل زمن كل عمل يقوم به أحد ابطال الرواية هو الزمن الماضي أو المستقبل . وربما يفسر لنا هذا النوع من السرد وجود مكانة خاصة للذاكرة والخيال في سيكولوجية روسو ويقدم لنا سبباً رابعاً لاختياره هذا الاسلوب الأدبي لكتابة روايته .

أما بالنسبة للقارىء العادي في يومنا هذا فإننا نرى أن أهمية هذا الكتاب لا تكمن في الموضوع نفسه لأن مثل هذا الموضوع لا يثير اهتمام القارىء الحديث بل يجلب له الملل لما فيه من إطالة رومانتيكية ، وإنما تكمن أهمية الكتاب فيما يحتويه من وصف للمجتمع وخاصة مجتمع مدينة باريس ، وفي بعض الأفكار الفلسفية التي تناولها مثل فكرة الانتحار التي كانت تمثل موضوعاً حساساً للغاية في ذلك الوقت كثر الكلام فيه والكتابة عنه .

●●●

بعد ان انتهينا من استعراض ودراسة أهم الكتاب الذين اشتهروا بتفوقهم وتميزهم في مجال أدب المراسلات في القرنين السابع والثامن عشر نرى أن من الواجب لاستيفاء هذا الموضوع واستكماله ان نقوم بالتعرض لبعض المسائل والمصاعب المرتبطة بأدب المراسلات بوجه عام .

تتمثل أول هذه المصاعب في المشقة المتعلقة بنشر مجلدات الرسائل ، فالناشر الذي يتولى نشر رسائل شخص ما أو اديب مشهور ، يبدأ أول ما يبدأ باستلام النسخة الأصلية التي كتبها الكاتب بخط يده ، فيجد أن هذه النسخة الأصلية تكون لسوء الحظ صعبة القراءة اما بسبب رداءة خط الكاتب أو بسبب سوء الحالة الحقة وصولها اليه لأسباب عديدة منها ما قد يكون بحسن النية ومنها ما قد يكون لغير ذلك ، فيخطيء الناشر في قراءتها وينشر بذلك رسائل محرفة مثلما حدث مع ناشر رسائل ديدرو لمدموازيل فولان .

أما المسألة التي ترتبط بأدب المراسلات فتتمثل خطورتها في الاضافات المتعددة المتعمدة التي قد يضيفها الناشر الى الرسائل الأصلية وأحياناً تكون هذه الاضافات قد تمت من جانب الشخص الذي وصلته الرسالة او من جانب عائلة الراسل نفسه ، وهذا ما حدث فعلاً كما ذكرنا بالنسبة لرسائل مدام دوسيفيه .

إن ما ذكرناه آنفاً يتعلق بالمشاكل التي تواجه عملية نشر المراسلات ، وبالاضافة الى ذلك نذكر ان فن المراسلات قد خضع أيضاً لعدة قواعد نحاول أن نستعرض أهمها باختصار شديد .

أولى هذه القواعد هي وجوب اختيار الموضوع الذي يوافق ويلائم ويتمشى مع شخصية المرسل اليه وكذلك وبنفس الدرجة من الأهمية وجوب اختيار الأسلوب الذي يوافقه مع مراعاة الظروف والملابسات التي تكتب فيها المراسلة .

وثانية هذه القواعد ان الرسالة هي الأسلوب الأمثل للتعبير عن الأمل والشكوى والأسف ولوعة الفراق والغيرة وعدم التفاهم الى آخر هذه الموضوعات العاطفية التي يصعب التعبير عنها في وجود الشخص الآخر الموجهة إليه المراسلة ، وهكذا تصبح رسالة الغرام أصعب أنواع الرسائل وأجملها وأندرها في نفس الوقت لأن من العسير العثور عليها لأنها تكون دائماً هدفاً للإخفاء بمعرفة شخص ما .

ورسالة الغرام تتميز دون غيرها من الرسائل بتوافر الوحدة والانسجام وذلك لأنها تكون موضوعاً واحداً ، وعلى الرغم من ذلك يجب أن يكون اسلوب رسالة الغرام غير منتظم حتى يعبر تعبيراً صادقاً عن مشاعر وعواطف الراسل المحب الولهان واضطرابه الشديد عادة عند كتابة الرسالة ، فالاضطراب في الأسلوب يعد دليلاً قوياً على صدق المشاعر وقوة العواطف .

وثالثة هذه القواعد أن على راسل الخطابات الذي يكتب إلى اشخاص يريد أن يبهرهم أو يثير إعجابهم أن يكون

متمكناً من فن التلميح الذي يستلزم بدوره تمتع الكاتب بذاكرة قوية وبمعرفة تامة بالأعمال الأدبية ، فأحياناً اثناء كلام الكاتب في موضوع معين نجده يشير الى ما يتعلق بهذا الموضوع ويتصل به ويكون قد قرأه في إحدى الروايات أو المسرحيات أو القصائد الشعرية المشهورة لغيره من الكتاب ، وحول هذا الموضوع تقول مدام دو سيفينيه « ان من مصلحة هؤلاء الذين أخاطبهم أو أكتب اليهم ان اقرأ كتباً جيدة »(٢٢) .

ان النقطة الأخيرة التي نحب أن نتطرق اليها تخص قارىء الرسالة نفسه ، وهي أن التطور في قراءة الرسالة من نهاية القرن السادس عشر حتى بداية القرن السابع عشر كان يتركز على العلاقة بين القارىء والنص وما طرأ عليها من تحول ، فبعد ان كانت الرسالة في نظر القارىء عبارة عن نص أدبي يثير إعجابه ومثل يحتذى به ، أصبحت وسيلة وأداة توصله الى تجارب الكاتب الشخصية وتسمح له بالغوص الى أعماقه وتحليل شخصيته ، فاهتمام القارىء أصبح لا ينصب على أسلوب الكاتب ولا حتى على الموضوع فحسب وانما أصبح منصباً على الرسالة باعتبارها تعبيراً عن ذات الكاتب أي ان القارىء أصبح يتناسى النص ويعتبره مرحلة شفافة لا سبيل الى الاستغناء عنها لكي ينصت الى الكاتب وهو يخاطبه . . . وبعد موت الكاتب وانتهاء حياته وانقطاع الصلة بينه وبين عالم الأحياء تستمر رسائله في الشهادة عليه وعلى تفوقه وعظمته ولكن أحياناً يتكشف فيها للقارىء أمور كان يفضل أن يجهلها عن الكاتب الذي يحبه لأنها تمس الصورة الخيالية التي رسمها له القارىء في ذهنه .

وبعد ، فمن هذا العرض الوجيز يمكننا أن نقول إن أدب المراسلات يحتل مكانة مرموقة في تاريخ الأدب الفرنسي خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر ، فبفضل مجموعات الرسائل التي لعبت الصدفة دوراً كبيراً في الحفاظ عليها وبفضل مقدرة الناشرين على التغلب على الصعاب التي واجهتهم أثناء محاولتهم نشرها استطعنا نحن أن نعرف الكثير من أفكار وآراء ومواقف بعض الكتاب والتي لولاها لما توصلنا لمعرفتها ابداً ، كما ان هذه الرسائل تعتبر بمثابة مذكرات يومية وتعتبر أيضاً في كثير من الأحوال وثائق مكملة لما جاءت به كتب التاريخ .

---

(٢٢) Cite Pat Mirelle Gerard, art epistolaire et art de la conversation, in Revue d Histoire Litteraire de la france, Nov-dec 1978 p. 958 a 974, p. 971.

BIBLIOGRAPHIE

I. Oeuvres des auteurs traites.

1. MONTESQIEU, **Les Lettres Persanes**, Paris, Garnier-Flammarion, 1956.
2. ROUSSEAU, Jean-Jacques, **La Nouvelle Heloise.**, Paris, Garnier-Flammarion, 1953.
3. SEVIGNE (mede), **Lettres Choisies.**, Paris, Larousse, 1946.
4. Voltaire, **Lettres Philosophiques**, Chronologie et Preface par Rene Pomeau, Paris, Garnier-Flammarion, 1964, 188 p.

II. Ouvrages Generaux.

1. ADAM Antoine, **L'Age Classique**, t. 1 (1624-1660), Arthaud, 1968.
2. CLARAC Pierre, **LAge Classique**, t. 11 (1660-1680), Paris, Arthaud, 1969.
3. HENRIOT Emile, **Courrier Litteraire, XVIII e siecle**, Paris, Albin Michel, 1961.
4. LANSON Gustave, **Histoire de la litterature francaise**, Paris, Hachette, 1953.

III. Ouvrages de critique sur les auteurs traites.

1. BAILLY August, Madam de Sevigne, Paris, Librairie Artheme Fayard, 1955.
2. DEDIEU (J), **Montesquieu**, Paris, Alcan, 1913.
3. MORNET Daniel, Rousseau, Paris, Hatier, 1950.
4. NAVES Raymond, **Voltaire**, Paris, Hatier, 1962.

IV. Revue d'Histoire Litteraire de la France, **La LETTRE AU XVIIIe siecle**, Paris, **Armand Colin**, Novembre-Decembre 1978.

Ce numero comporte les articles suivants :

1. BEUGNOT Bernard, **Style ou styles epistolaires**, p. 939-957.
2. CUENIN Micheline, **La Lettre educatrice de le Sensibilite : l'exemple de Voiture**, p. 922 a 938.
3. DUCHENE Roger, **Le lecteur de lettres**, p. 977a993.
4. GERARD Mireille, **Art epistolaire et art de la conversation : les vertus de la familiarite**, p. 958a976.

⊕ ⊕ ⊕

مصر والشرق في مراسلات جوستاف فلوبير

دولت صالح العرب

في القرن التاسع عشر بدأ كثير من الأدباء والفنانين يحلمون بالشرق ، مثل : شاتوبريان وفيكتور هيجو ، وديلاكروا ، وجيرار دونرفال ، ومكسيم دوكامب ، وفلوبير .

وبعضهم تحدث عنه حتى دون ان يجيئه قط شأن فيكتور هيجو الذى تعد مجموعته الشعرية المسماه « الشرقيات » (المنشورة سنة ١٨٢٩) نقطة تحول في الأدب الفرنسى ، وفيها نجد النزوع الى الصبغة المحلية والاهتمام بالتفاصيل ـ بدلا من تعميمات الأدب الكلاسيكى ـ والاحساس بالشرق .

يقول هذا الشاعر متغنيا بمصر :

« مصر تنشر حقولها المزركشه مثل البساط النفيس
وقد توجتها السنابل بالشقرة »

ان الجمال لا يرتكز في الشرقيات على سحر الشرق وحده ، ولكن ايضا على المهاجره الى ما وراء الافق ، الى ما ليس هنا بل هناك .

وقد كثر التلميح الى أسلوب فيكتور هيجو في استخدام الضوء ، كما تجلى في الشرقيات . وبالفعل فان للون فيها وضوحا أقوى مما في نصوص الأدب الكلاسيكى ، ولكن اللون ليس هو موضوع الوصف ، بل رمزا يعين الشاعر ، انه يعبر عن الجلوح والتضارب والغموض . والطابع الحقيقى للشرقيات هو أن الهروب فيها ليس هربا الى الشرق ولكن الى الخارج العالم الممكن بأسره ، انها محاولة لرؤ ية المستحيل وحلم خيالى وقصيد جسور الرؤ ية لا يحدد الطبيعة فيه خطوط الواقع وأحجامه ولكن يشكلها الغموض والخوارق واللاواقع .

وعندما يحدث أن يلتفت فيكتور هيجو صوب الواقع فان حديثه عنه يتسم بالهذيان فيقول :

دعوني لحالي حين يخفي الأفق الغائم
جبهة متموجة بقوس من ضباب
حين يحمر الكوكب العملاق ويتوارى
آه من سيبعث فجأة بينما أنا وحيد أحلم من النافذة
وتتجمع الظلال خلفي في الردهة
من سيلد هناك مدينة مراكشية ، كأبارقة مدهشة
تمزق عندها قوس الضباب بشهب
كأنها أسهم ذهبية انفلتت من حزمتها ؟
أيا شياطيني ! .. فلتأت (هذه المدينة) تلهمني
وتضيء أناشيدي المغبرة كسماء الخريف
وتلقي في عيني بظلالها السحرية وتظل غسقيه
تزين طويلا الأفق البنفسجي بألف برج
لقصر جنية وألف قبل أن تنطفئ وتحول أقاويل مختلقة (١)

ان موضوع حلم اليقظة هذا ليس هروبا حقيقيا للشمس ولكن هذا الخيال يفجر منظرا طبيعيا يختلف عن المنظر الذي يراه فيكتورهيجو من نافذته ، ان المدينة الشرقية هي ايضا ، غسقية ، كالغسق الحقيقي الذي يراه الشاعر . فلا يوجد هنا ضوء وغسق ولكن فقط غسق من نوع آخر ذو طابع جسور الرؤ ية يترك في القارىء أثرا دائما يفضل حصيلته اللغوية الملهمه . إنها الكلمه التي تعكس الوضع فتطوع هي هنا الفكر وتفجر الرؤ ية . أما عن الكلمة فمصدرها اللاوعي .

وهذا تحول جذري في الأدب الفرنسي ، فحتى نرفال الشاطح به الخيال (٢) والحلم يحتمي بقيد الاراده . ان الشرق عند فيكتور هيجو ليس الا اطارا لشعره او خيطا فيه .

وهذا الكاتب جيراردو نرفال قد زار الشرق على العكس من فيكتور هيجو وقضى ثلاثة أشهر في القاهرة من سنة ١٨٤٣ ورأى الفسطاط وهيليوبوليس وشبرا والاهرام ، ولكن ما كان يشغله خاصة في مصر هي المهرجانات في الشوارع ، وأعياد الزواج ، والجنائز ، ومطوعو الثعابين ، ورقصات العوالم ، وبفضل هذه المده التي قضاها في مصر ظهر لنا كتابه « رحلة الى الشرق » (٣) وهو واحد من أجمل كتب النثر الفرنسي في القرن التاسع عشر ، وصفه تيوفيل

(١) Victor Hugo, les Orientales, "Reverie"
(٢) CF. dawlat EIL Arab, Aurelia de Nerval, Analyse stylistique Structurale, le caire 1979 .
(٣) Edition charpentiers, 2 vol , 1851

قام بترجمة القصيد - عن الفرنسية - احمد علي بدوي .

جوتييه بأنه « كتاب خلاب يملؤه الحب واللازورد والنور »[٤] ولكن كتاب نرفال « رحلة الى الشرق » ليس مفكره ، ولكنه سرد مشغول بعبقرية أثر عودته الى فرنسا وعلى أساس من ذكرياته ومذكراته ، وفيه من الشعر أكثر مما فيه من الصدق ، ان وصف نرفال يرتكز من ناحيه على الملاحظة الشخصية ، ومن ناحيه اخرى على كتاب « ادوارد وليم لين » : « **وصف طبائع المصريين المحدثين وعاداتهم** » الذى كتبه فى مصر بين سنتى ١٨٣٣ ، ١٨٣٥ ، ونشره بعد ذلك فى لندن سنة ١٨٣٦ .

ويشهد نص كتاب نرفال « الرحله الى الشرق » نفسه على صاحبه بقصد متعمد للبناء ، ويتضمن السرد بخصوص ذلك اعترافا اساسيا يدلي إلينا به :

« أصبو أن أشكل حياتى كى تشبه القصه وأضع نفسى باختيارى فى موقف أولئك الأبطال الفعالين الطامعين الذين يريدون بأي ثمن أن يخلقوا حولهم الاثاره ، والاهتمام ، والتحديات ، أى بكلمة واحدة : الفعل . »[٥]

وبالفعل جعل نرفال من حياته قصه فى كتاب الرحله الى الشرق ، وسار مختالا بحذاء قواعد هذا الفن وليس على دربها بحيث كان يجنح تارة عن الصرامه ليعود اليها تاره اخرى : هذه هى صيغة **الرحلة الى الشرق** ، وهى صيغه ستأخذ بنرفال فيما بعد الى كتابة اعماله الكبرى فى سنواته الأخيره دفعة واحده ، والتى ستعطى لبنات النار (سنة ١٨٥٤) وأوريليا نغمتها المميزه ، وعبقرية نرفال التى اكتمل بناؤها قد اسستها الرحلة بخطوتها المتأرجحه .

فلنقرأ وصفه « لاشراق للشمس » فى القاهرة :

« صوت التركى الذى يعلو من المئذنة المجاوره ، الجرس الصغير الذى يحركه الجمل بهرولته الثقيله ، وقد يزيد عليه زعيقه الغريب ، والرفيف والصفير المبهمان اللذان يسريان فى الهواء والخشب والجدران بينما يرسم الفجر المجول على السقف بالضوء آلاف الشقوق من بصيص النوافذ ، ونسيم مبكر محمل بشذى مفعم يرفع ستربابي فأرى خلف حوائط الساحه رؤوس النخل تطفو ، كل هذا يأخذنى : يطربنى أو يشجينى باختلاف الأيام ، ذلك أنى لا أريد أن أقول أن صيفا خالدا يثمر حياة سعيدة الى الأبد ، إن شمس الحزن السوداء . . ترتفع أيضا على سهول النيل كما كانت ترتفع فوق ضفاف نهر الراين فى منظر ألماني بارد »[٦] .

ان رؤيا نرفال على عكس فيكتورهيجو تنصب على شروق حقيقى رآه ، ولكن الذي يترك فينا من تلك الصفحات أثرا دامغا قبل كل شيء هو الحزن . . . . انها اعترافات سرية لقلب لم يعثر على السعادة ، ان المنظر الطبيعى هنا ليس الا حالة نفسية ، والشرق ليس الا خيطا شعريا .

وساعة العودة الى أوروبا ينظر جيراردو نرفال وراءه .

---

(٤) J. M. Carre, voyageurs et ecrivains Francais en Egypt, 2 vols. Inprimerie de e I.F.A.O

(٥) Le Voyage en Orient " 2 eme edeton 1860 'gornier, Flammarion 1980t. .p 42.

(٦) Voyage en Orient. t. 1 . p.193 — 194

« إن الشرق ـ ومن الآن ـ لم يعد فى عينى الا حلما كأحلام الصباح التى تتسرب وشيكا لتتبعها هموم النهار » (٧) لقد جعلت « الرحلة » من الشرق حلما كبيرا كما لو كانت تفاصيلها دارت داخل غوامض النفس .

وجوستاف فلوبير مثل نرفال قد زار مصر والشرق اللذين قدمهما لنا فى المراسلات (٨) وهى التى سحرت عديدا من الكتاب من بينهم « أندريه جيد » الذى كتب قائلا :

« أحببته طويلا فلوبير كمعلم وصديق وأخ وكانت المراسلات رفيقة وسادتى . آه ! لقد قرأتها بعناية فى سن العشرين . واليوم ليس فيها جملة واحدة لا أعرفها ، وقد احتلت طيلة خمس سنوات مكان الانجيل على وسادتى وكانت معين الطاقة لى ، وكانت تسبغ على حماسى نوعا جديدا من الورع » (٩) .

لقد ظهر فلوبير طويلا بصورة معلم الواقعية الأكبر ، وقد يبدو غريبا للوهله الاولى أن يوضع فى صف فيكتورهيجو ، وجيراردو نرفال بين الرحالة الرومانسيين ، ولكن منذ نشر مراسلاته ومؤلفاته فى شبابه وكذلك النسخة الاولى من كتابه « اغواء القديس انطوان » لم يعد يسع النقد الا ان يعدل قليلا فقليلا عن هذا الرأى ، وكما يقول جون مارى كاريه :

« لقد وضح ان فلوبير لم يصبح دون مجهود كبير ومغالية للنفس المصور الصلد لحياة الريف ومبدع الروايه الواقعيه « مدام بوفارى » ، ولم يعد اليوم مما يصدم شعور أحد أن نؤكد أنه ليس واقعيا صرفا بل رومانسيا اشعث مقلقلا روض نفسه وضبطها بعسر . » (١٠)

وربما أصبحت رومانسية فلوبير الأولى الآن فى حكم المعروفة فى حين أن الدور الذى لعبه سفره الى الشرق فى تطوره من الرومانسيه الى الواقعية ليس معروفا بنفس الدرجة . تلك الدور الذى ستكشفه لنا الرسائل التى كان يكتبها طوال رحلته فى مصر وللشرق .

●●●

ان سنوات تأهيله لرحلته الشاقة تختلط عنده بسنوات ترحاله ، وتدرك من خطاباته أن السفر هو تكملة لا غنى عنها للاعداد لمهنة الكاتب ، فيجب ان يتعلم ان يرى جيدا ، وأن يلحظ ، وقد اورد موباسان فى مقدمته لكتاب « بيير وجان » المنشور سنة ١٨٨٥ النصيحه التى اسداها فلوبير إليه :

« يستحسن التمعن فى كل ما يراد التعبير عنه طويلا وبعناية كافية لاكتشاف ملمح لم يقله أحد ، وفى كل شىء هناك ما لم يكتشف بعد ، ولكننا لا نعرف هذه البديهية لاننا تعودنا أن نستخدم أعيننا بذاكرتنا ونتساءل فقط عما قاله من رأوا الشىء قبلنا ، ولكن أصغر شىء فيه قليل من المجهول ، فلنجده ، لكى تصف نارا تلظى وشجرة فى سهل يجب أن

---

(٧) Ibid, t. .p . 363

(٨) G ustatve Flaubert, Correspondance, 2 Vol. Paris, Gallimard 1973

(٩) La Nouvelle Revue Francaise, Avril 1913

(١٠) Voyageurs et ecrivains Francais en Egypte, t. P.81

تظل قبالة تلك النار وتلك الشجرة حتى لا يعود ايها ما يشبه لعينيك أي نار أو شجرة اخريين ، وهكذا تكون أصيلا » ويتابع موباسان كلامه قائلا : « لقد جعلني فلوبير أعبر في بضعة جمل عن كائن أو شيء بشكل يخصصه وحده ، ويفرق بينه وبين كل الكائنات التي من نفس جنسه او الاشياء التي من نفس نوعه لانه علاوة على مكتشفاته وضع يده على تلك الحقيقه وهي انه لا يوجد في العالم اجمع حبتا رمل او ذبابتان او يدان أو أنفان متطابقان تماما .

« كان يقول لي : : عندما تمر أمام بقال جالس عند بابه أو بواب يدخن غليونه او موقف لعربات الفيكر أرني هذا البقال وهذا البواب وضعهم وكل مظاهرهم البدنيه بحيث تحتوى كذلك كل ما في طبيعتهم الاخلاقية موضحة بدقة الصورة ، وبطريقه تجعلني لا اخلط بين ايها وبين اى بقال او بواب آخر ! واجعلني أبصر بفضل كلمة واحدة كيف يختلف حصان عربة عن خمسين حصان آخر يسبقه بعضهم ويتبعه البعض الآخر ! »

ويكفي أن نقرأ رسائل فلوبير ، وأن نفتح مخطوطه الذي لم ينشر بعد « كراسات السفر »[١١] لكي نجد مئات الامثلة على تلك القدره لالتقاط اللمح المتميز على الفور ونرى الصورة التي توضح « بدقتها » ، وتحكم الطابع الخاص للفرد الواحد او الشيء وتفرق بينه وبين نماذج أخرى لنفس الفرد أو الشيء ، وهي خصلة نادرة في كل الازمنه والأماكن ، ولكن ايضا كم تزداد قيمتها حين يرتحل الكاتب ! فاذا كانت شخصية « سالامبو » (بطلة احدى روايات فلوبير) على ما نراها عليه ، اذا كانت تبدو رغم غموضها مخلوقا حيا وليست مومياء لم تزل محاطة بلفائفها فلنبحث عن تفسير ذلك في صفحات رحلته الى الشرق[١٢] . واذا كانت رقصة سالومي تهز القارىء تماما كما حركت قلب هيرودس ، وذلك في آخر قصة من « حكايات ثلاث » لفلوبير ، وعنوانها « هيرودس » ، فلنسأل عن السبب بين صفحات نفس الرحلة ، والرسائل المكتوبة من مصر .

ان شرق فلوبير هو على عكس شرق نرفال الذى عولج وصفه بعد انتهاء الرحله بزمن . فان الاول يعرض علينا تلقائيا يوما بيوم في اثناء الرحلة نفسها في رسائل فلوبير الى ذويه واصحابه . ان فلوبير يذيع الاحداث ويصف الاشخاص والاطار الذى يحتويها وتثلج العجائب صدره ، وهو ينظر بالطريقه التي نصح بها موباسان وفي نفس الوقت فان نوعا من الضيق يعترينا ونحن نقرأ الرسائل ، نعم الشرق تحت الملاحظه ، ويمتليه ، ومع ذلك لا يتجاوز الامر ذلك ، ان فلوبير يظل مجرد ملاحظ ، وكما قال عنه سارتر « لا يلتزم قط ويعبر بفكره عما يحيط جسمه » .

●●●

كان جوستاف فلوبير في السابعه والعشرين من عمره غادر فرنسا في خريف سنة ١٨٤٩ بغية السفر الى الشرق ، لا

---

(١١) Gustave Flaubert, Carnets de Voyage Bibliothe que historique de La Ville de Paris.

(١٢) C.F.Giovanni Bonnacorso, L,Oriente nella narrative de Flaubert, Messine, Edas, 1979.

P.M.Wetherll, Flaubert et la Creation Litte raine, Paris, Nizet, 1964, Jean Bruneau, Le Comte Oriental de Flaubert Paris Penoel ,1973.

يعرفه احد خارج دائرة اصدقائه ، ولكنه كان ملفتا لنظر الاصحاب [١٣] والاغراب على السواء بقامته ووسامته وعضلاته المفتوله وكأنه احد غزاة الشمال الشقر « الفايكنج » ، وله عينان سوداوان وفم دقيق ، وقد كتب بعد ذلك من مصر قائلا ان نساءها كن لا ينقطعن عن لومه على اخفاء محاسن فمه تحت شاربه .

كان شهوانيا ولكن من نوع خاص . ففى سن الخامسة عشرة ، وقع فى غرام امرأة متزوجه تكبره باحد عشر عاما وبطريقة عاطفية تذكر بروايات الحب العفيف . ويقول احيانا انه ظل يكن لها حبا افلاطونيا ، كان يغشى دور الدعاره وكان له فى الدعاره « فلسفة » مستقلة ، فقد كتب يقول :

« قد يظن هذا انحرافا فى التذوق لكننى أحب الدعاره ، ولذاتها بصرف النظر تماما عن معالمها الجسديه . يأخذ قلبي فى الدق كل مره ارى فيها احدى تلك النسوه ذات الاثواب القصيره تسير قرب واجهة زجاجيه تحت المطر ، تماما مثلما كان الرهبان بملابسهم التى تلفها الحبال يلمسون دائما ركنا معينا عميقا زاهدا من روحى ، ان فكرة الدعاره هى نقطه التقاء عناصر عدة : الدنس ، والمراره ، وغياب الترابط الانسانى تماما ، والسعار العضل ، وصليل الذهب . ما أكثر ما يتعلمه الانسان داخل الماخور ، ان المرء يخامره حزن بالغ ، ويعاوده الحلم به بكثير من الحب واللوعة » .

لم يكن للجسد البشرى أسرار تستعصى على فلوبير فقد كان ابن جراح ، ويعرف هو نفسه كثيرا من الاطباء ، كما يعرف المشرحة التابعه للمستشفى ، وكان قد قطع قبل السفر الى مصر علاقة غرامية استمرت عدة سنين مع امرأة متزوجه وجميله وواسعة الثقافة اسمها « لويز كوليه » وقد خصها بجانب كبير من رسائله البليغه الماجنه . وقد باعت ابنة لويز كوليه تلك الرسائل فيما بعد وتم طبعها ونشرها ، ولكنه كان يكتب لعشيقته اكثر كثيرا مما يراها ، وتكاد لا تخلو احدى رسائله من فقرة تضم اعتذارا وتبريرا لتأجيل لقائها الى وقت لاحق ، وكانت اشد محبته مكرسة لآخرين هم امه وبعض اصدقائه من عمره ، وكان احد هؤلاء واعزهم « الفريد بواتفان » . وكان شابا حالما فى مثل موهبة فلوبير اخترمه الموت فهصر موته قلب فلوبير ، وكان ضحية السل ومرض آخر شائع فى ذلك العصر وهو السأم ، وكانت تلك الوفاة حلقة اخيرة فى سلسله من الوفيات ، ففى السنوات السابقه كان قد فقد عزيزين اخرين من ألصق اقربائه هما أبوه واخته « كارولين هامار » التى تركت بنتا صغيرة اسمها كارولين ايضا حيل بين ابيها المستهتر وبينها وربتها جدتها ام فلوبير وفلوبير نفسه فى بيتهم الريفى الصغير على ضفاف نهر السين فى كرواسيه وهى احدى ضواحى روين فى نورماندى حيث ولد فلوبير نفسه .

نريد أن نقول ان منظر فلوبير الخادع وملامح شكله الرياضيه وتقليده لابناء جيله فى غزوات الحب ليست الا مظاهر خارجية . فقد كان ذا حساسيه فائقه ، وعندما كان يتابع محاضرات القانون بعد تصميم من والده اصيب بسلسلة من نوبات الصرع اجبرته او بالاحرى اتاحت له ان يهجر دراسة القانون وان يحيا حياة رخيه فى بيت الاسره ، وأن يفعل ما يريد ، وقبل هذا وذاك أن يكتب . ذلك ان جوستاف فلوبير لم يكف يوما عن الكتابه . كان قد بدأ يسود السطور منذ

---

(١٣) CF. Albalat, Gustave Flaubert et ses amis, paris plon, 1977 Harry Levin the Gates of Horn : Astudy of Live French Realists New yourk , Oxford p.n.p 1963

أن تعلم الحروف الابجدية على حد قوله ، وباقترابه من سن الثامنة والعشرين كان على مكتبة عديد من الاقاصيص التى كتبها فى صباه ، وروايتان وخلاصة رحلة قام بها على قدميه فى اقليم « بريتانى » ثم عمل خيالى طويل اسمه « **اغواء القديس انطوان** » . وقد سرت الى فلوبير رغبة فى كل ماله سحر شرقى كما سرت الى العديد من معاصريه الذين كانوا اطفالا او فى سن المراهقة ابان العصر الرومانسى ، اما هو فجاءته خاصة اثر قراءته لبايرون ولشرقيات **فيكتورهيجو ولالف ليله وليله** ، فمنذ طفولته اذن كان يحلم بالشرق كما كان يحلم به كل الرومانسيين فى اعقاب حملة بو نابرت على مصر .

ان الشرق هو بغية حضارة « البقالين » . ففيه الحرية حيث ترتشف الحياة من منابعها ويحلو مذاقها كالاكسير . ويقول فلوبير عن العرب للويزكوليه : « احب هذا الشعب الفج المثابر المقاوم ، آخر طراز للمجتمعات البداية ، الذى يسخر ، فى الظل او تحت بطن الناقات ، وخلال دخان الشيبوك ، من حضارتنا البارعه التى تقشعر غضبا من ذلك » .

ان فلوبير الشاب يلفظ عالم الغرب الضيق المتمسكن ولا يحجم اكثر من مره عن ان يذهب فيلقى بنفسه فى العجيج البشرى بمدن الشرق . ان الشرق هو امكانية الخلاص القصوى : التى تتيح لفلوبير ان يعيش وفق هواه دون تضييق على ذاته الآخذه فى التضخم حتى لتكاد تختلط بالكل المطلق ، ان الشرق هو العالم الاخر عالم مجهول غامض ، وقد عبر فلوبير عن حبه للشرق فى اول كتاباته ، فى عباره قويه يقول فيها :-

« آه اني لأتنزل مختارا عن كل نساء العالم في مقابل أن أمتلك تمثال كليوباترا » هي مثل على ذلك التدفق للشرق الذي عرفه شبابه . والنسخة الأولى لمؤلفه « اغواء القديس انطوان » والتي تمثل أنضج أوج لذلك التدفق انتهى منها قبل سفره الى مصر مباشرة . ان هذا المؤلف هو ذكر لما تعرض له القديس في ملاذه بمصر من انقضاض جحافل من الوحوش والأوثان والهراطقة وسائر الخطاة عليه ، وبينما كان فلوبير يشتغل به ويقضي أيامه في اكفهرار روين كان يستشعر رغبة قوية جدا في الشمس وتوقا الى القدم الكلاسيكي . كانت لاتينية لابأس بها كما كان يعرف اليونانية القديمة ، ويبدو أن قراءته لهيرودوت جعلته يكتشف مبكرا جدا الطريق الذي يفضي الى القدم الشرقي ، وقد جعل لكي يستطيع أن يكتب كتابه « اغواء القديس انطوان » يقرأ مؤلفات عن أديان الشرق وشيئا فشيئا نما اهتمامه به فصار شيئا أعظم من مجرد تذوق متحفي . لم يكن بالسائح البسيط الذي سيذهب ليجوب الشرق ، وقد أدى غرامه بالشمس الذي هو سر ايمانه بوحدة الوجود ، وفهمه للحضارات الذي قاده الى اكتشاف الشرق القديم وحبه لاستطلاع كل ما يتعلق بالديانات الى تعميق مفهومه للشرق الذي بدأ بدوره يتخذ مكانا يزداد أهميه بالتدريج في تأملاته وفي كتاباته .

ان شرق فلوبير ليس فقط منظرا في حلم ولا هو مجرد مصدر للون الذي يثبت مكان القصيدة أو اقليمها . ان الشرق في عين فلوبير قد أصبح بالتدريج نوعا من وطن .

ولكنه وحتى عندما كان في الشرق كان ينتابه مرارا انطباع برتابه الظواهر فالشرق قد ظل الوطن الذي لم يكن رآه قط قبل ارتحاله اليه سنة ١٨٤٩ ، وكان لأحد أصدقائه المقربين وهو مكسيم دوكامب الذي كان قد التقى به أثناء دراسته في كلية الحقوق حظ أكبر من حظه ، فقد كان يستطيع وهو ثري يتيم أن يفعل كل ما يريد ، وفي سن العشرين سافر وحده

الى آسيا الصغرى ، وايطاليا والجزائر ، وفي سنة ١٨٤٨ عندما كان قد بلغ سن السادسة والعشرين نشر ذكرياته عن السفر في كتاب عنوانه « ذكريات ومشاهد من الشرق » وجه في مفتتحه الاهداء الى جوستاف فلوبير الذي اجابه بدوره أن يديه ارتعشتا فرحا لحظة افتض صفحات ذلك الكتاب . كان مكسيم هذا الميسور الحال النشط المرح الطموح المملوء حيوية والذي لا يحول عزمه هو الذي شجع فلوبير على مصاحبته في رحلة ثانية أطول من الأولى في وقت كان فيه فلوبير بدأ يستسلم لعاداته المنزلية التي بدأت تضعف فيه الحماسة للذهاب الى الشرق ، وكان هو أيضا بمثابرته ودقته الذي أقنع أم فلوبير ، وقد اشتد جزعها ، بالموافقة على سفر ابنها وباعطائه النقود التي تلزمه للرحلة ، وقد فعل ذلك بعد مجهود شاق وقد استعان بطبيب الاسرة الدكتور جول كلوكيه لاقناع فلوبير بان زيارة ابنها لبلد دافىء ستعود بالخير على صحته .

كان هناك ايضا ثاني اصدقاء فلوبير المقربين الباقين على قيد الحياه وان اختلفت ظروفه مع ظروف فلوبير ومكسيم دوكامب اختلافا شديدا وهو لويس بوييه وهو شاعر مسالم قليل الامكانيات الماديه ولم ينشر شعره قط ، وكان هجر دراسة الطب وعمل لكسب قوته مربيا في روين ، وكان يشارك فلوبير في حبه للقدم وللشرق ، وكانا يلتقيان مرارا ويتناصحان في الادب ، وقد روى مكسيم دوكامب في كتابه « ذكريات ادبيه » انه قبل السفر الى مصر كان الاصدقاء الثلاثة يلتقون في جلسات قد تستغرق احيانا الليل بأكمله (١٤) .

هذه هي باختصار ارضية وصف الرحلة الى الشرق الادنى التي قام بها فلوبير ، واربعة من الشخصيات الماثلة على هذه الارضية هي اهم شخصيات الرحلة نفسها : الرحالان فلوبير ومكسيم دوكامب والمنتظران بالوطن ام فلوبير ولويس بوييه اللذان كانا يتلقيان خطابات فلوبير ، وعلاوة على ذلك هناك شخصيتان يسميها فلوبير « الايكمان » : خادم اسمه « ساسّي » من اصل كورسيكي كان يعمل سابقا في الخياله العسكرية ثم اصطنعه مكسيم دوكامب في باريس لهذه المهمه ومرشدهم « جيسبي » الذي ولد في جنوه اصلا واكثروه في القاهره كما « فرنسوا اسمه فاصبح بكل بساطة « جوزيف » .

وخلال الرحلة بأسرها يظهر موظفون ورجال دين ومحتالون وراقصون وعاهرات ومخنثون ، والمسافران ينتقلان في القاهرة . ثم يركبان النيل ، ودائما في الخلفيه البعيدة قرب نهر رقيق وان لم يكن عتيقا كنهر النيل يقبع قرب شرفة طويله تملؤها النباتات مكتب الشاب فلوبير ينتظره كي يرجع ويكتب ، ولكن ماذا سيكتب ؟

●●●

كان فلوبير قد فكر في كتابة رواية عن حياة الريف الفرنسي ، وقد تمت بالفعل سنة ١٨٤٧ بعنوان « مدام بوفارى » . وكان قد توقف خلال رحلته الى اقليم « بريتاني » التي تحدثنا عنها آنفا عند « بلورا » على ضفاف « اللوار » ، وقال في مذكراته عن هذه المدينة الهادئه إنها ألهمته بفكرة جاءته لاول مرة فيقول : « الشوارع في بلوا خاليه والعشب ينبت

(١٤) Maxime du Camp , souvenirs Litteraires Paris , Hachette , 2 vol . 1882 — 1883

بين البلاطات المستديره وعلى جانبي الشارع تحيط أسوار طويله رماديه بحدائق واسعه ومن هنا وهناك باب صغير محتشم يكاد يفتمك بأنه لا يفتح الا ليلا للزوار الغامضين ، وهنا تشعر بأن كل الايام لا بد ان تتشابه ، وبأنه في هذه الرتابه الهادئة (التي تملك مع ذلك رقتها كما يفيد رنين نواقيس الكنيسه في معرفة الزمن) لا بد وان يوجد حزن نبيل ورغبات رقيقة ونوه او تتخيل ان في وسط تلك البيوت الوادعه عاشت، قصة عميقة يصعب البوح بها ، وعاطفة تكاد تشبه المرض المزمن الذي لا ينتهي الا بالموت ، والحب الخالد المكتوم الذي نجده عند عانس او امرأة متزوجه فاضلة ، ولا استطيع ان امنع نفسي من التفكير في كون هذا الموقع نموذجيا لامرأة لها أصل وجمال شاحب ويدان مرهفتان اظافرهما طويله متزوجه من رجل غيور بخيل خسيس يموت مسموما » . انه ذلك الكاتب الشاب الذي يحب ان يتخيل ذلك النوع من الحكايات بقدر ما هو الرومانسي الذي أنجز لتوه النسخه الاولى لاغواء القديس انطوان الذي سنصحبه في حلمه للشرق .

●●●

تفتحت في مصر ابواب كثير من المسؤولين الرسميين امام فلوبير ومكسيم دوكامب ، ولم يكن في ذلك يرجع الى كونهم « مبعوثين فرنسيين » وانما بمجرد فرنسيين ، فلم تزل لفرنسا مصالحها السياسية في مصر رغم سقوط نابليون الذي كان المصريون يدعونه بالسلطان الكبير ، وكان والي مصر محمد علي قد لفظ انفاسه الاخيره قبل وصول فلوبير بأشهر معدودات وهو الذي شجع النفوذ الفرنسي ، وكان قد الحق بخدمته عدة فرنسيين ، وانعم على بعضهم بلقب البك ، وأحيانا الباشا فسليمان باشا مثلا ، الذي اشار اليه فلوبير في رسائله ، كان كولونيلا سابقا بالجيش الفرنسي اسمه سيف ، وكان قد اسهم مع ابن محمد علي في دحر جيوش السلطان العثماني في موقعة نزيب سنة ١٨٣٩ ، كذلك كان ، جاليس بك ، وبرانستر بك اللذان ذكرهما فلوبير فرنسيين ايضا ، وكان الترحاب الذي لاقاه فلوبير من كبار الموظفين مصدر اطمئنان لوالدته ، وذلك ما دعاه الى ان يسرع بالحديث عنهم في اول رسائله اليها ، ولكن يبدو انهم لم يفارقوا ذاكرته سريعا ، فقد كتب بعد ذلك الى لويس بويه يقول :

« ان سفلة الفرنسيين المغتربين تثير الدهشه ، واسمح لي ان اضيف انها كثيرة العدد ! » ثم يذكر فلوبير في رسائله موظفين فرنسيين اخرين يعملون بمصر مثل لومبير بك وهو « شارل لومبير » المهندس وأحد اتباع سان سيمون ، وايضا موجل بك المهندس ولوبير بك ياور البلاط ، وكلوت بك وهو الطبيب « انطوان كلوت » وبكيريك الكورسيكي الاصل قائد الشرطة المصرية الخاصة بالاجانب ، وبالطبع لم يكونوا جميعا من السفله ، وكان لاخلاق لومبير العاليه وروحه النبيله اثر دائم على مكسيم دوكامب الذي اتجه بعد ذلك الى الصحافة التقدمية والنقد الاجتماعي ، كما كان كلوت طبيبا عسكريا ممتازا ، انما كان من بينهم بعض المغامرين .

كان والي مصر في نهاية سنة ١٨٤٩ (١) هو عباس باشا حفيد محمد علي كما هو معروف .

وصل جوستاف فلوبير ، ومكسيم دوكامب الى الاسكندريه يوم ١٥ نوفمبر ١٨٤٩ ، وفي يوم ١٧ نوفمبر وصف فلوبير في رسالة الى والدته انطباعاته الاولى عن الاسكندريه قائلا :

« عندما وصلنا في الساعة الثانية الى شاطىء الاسكندريه صعدت مع قائد الدفه الى السطح ولمحت سراى عباس باشا كقبة سوداء على زرقة البحر ، وكانت الشمس تصب أشعتها عليها وخلفها رأيت الشرق او ربما رأيته في ضوء فضى اكبر اعتصر بين البحر والسماء ولم يمض قليل الا وبدأ الشاطىء يرتسم ، وكان اول ما رأيناه على اليابسة جملين يقودهما الجمال ، ثم على طول الساحل عرب نشيطون يصطادون في ثنايا هواء لا حدّ لمسالمه ، وساعة النزول كان ضجيج كأنه مجموع دفوف الشرق كلها تذهب باللب ، وقد تصادف ان كان سليمان باشا رجل مصر القوى ، وقاهر نظيم ، ومرعب القسطنطينية موجودا في الاسكندرية بدلا من القاهره ، وقد قمنا بزيارة له أمس ، وقابلنا بما يثير الاعجاب . انه رجل ساحر ودود ، وكذلك رأينا مسيو جاليس المهندس بالعسكريه المصرية والبك برانستو وغيرهما ، ويكفى لكى تفهمى الطريقه التى سنسافر بها أن أقول لك اننا اعطينا جنودا يفرقون حشودا تتكاثر علينا حينما نلتقط الصور ، وأظن ذلك شيئا من الاناقه ، وترين أيتها العجوز المسكينه انى لا استطيع أن أكون اسعد حظا ! » (١٥)

كان مكسيم دوكامب قد اخذ معه آلة تصوير ، وكان التقاط الصور في ذلك الوقت شيئا جديدا تماما ، واستحوذ على مكسيم دوكامب الى حد أنه عند عودته من الشرق نشر البوما بمائة وخمسين لوحة فتوغرافية عنوانه « **مصر والنوبة وفلسطين وسوريا** » يصحبه نص تفسيرى وتسبقه مقدمه . (١٦)

وفى يوم ٢٢ نوفمبر سنة ١٨٤٩ استقبل أرتين بك المسئول عن الشئون الخارجية المصريه جوستاف فلوبير ومكسيم دوكامب اللذين ارتديا زيا مهيبا : له سوداء وصدارا أبيض وخفا ، ومنحهما ما يسهل لهما اجراءات رحلتهما كلها ، وفى يوم ٢٣ نوفمبر غادرا الاسكندريه ، ويقول فلوبير حين يكتب الى امه :-

« تبدأ الصحراء مباشرة عند ابواب الاسكندرية ، وهى تلال رمليه منقطة هنا وهناك بأشجار النخيل ثم سهول رملية لا تنتهى ، ومن حين لآخر تبدو لك عند الافق برك مياه بين السهول ، وعند الحد الاقصى الذى يظهر ملامسا للسماء يمر بخار رمادى سريعا كقطار سكة حديد ، إنه السراب ، والكل يبتل به : العرب والاوربيون ، أولئك الذين اعتادوا الصحراء ، وأولئك الذين يرونها لاول مرة . » (١٧)

غادر المسافران الاسكندرية يوم ٢٥ نوفمبر ويسجل فلوبير في كراسات سفره :-

« تركنا الاسكندرية الى القاهرة على ظهر سفينة يجرها مركب بخارى صغير لا يحمل الا محركه : شواطىء المحمودية قطساء مبه - الليله الاولى على ظهر النيل أشعر بالطرب والميل الى الغناء - أثرثر وأتحرك وأقرأ لنفسى بصوت عال سطورا

---

(١٥) Correspondance , t . I , pp . 528 — 529

(١٦) Ed . Gide et J . Baurdry 2 vol , 1852 .

وجدير بالذكر ان قاعة اخناتون بمجمع الفنون بالقاهرة قد أقامت بين يوم ١٧ و ١٨ فبراير سنة ١٩٨٢ معرضا للصور الفوتوغرافية بعنوان « مصر في عهد فلوبير » تحت اشراف وزارة العلاقات الثقافية الخارجية الفرنسية ، وكان بين معروضاته صورة لفلوبير في القاهرة يوم ٩ يناير سنة ١٨٥٠ بعدسة مكسيم دوكامب .

(١٧) Correspondance , t . I , p . 530

من شعر بوييه ـ لا أستطيع إرغام نفسي على النوم ... افكر في كليوباترا ... الماء اصفر رقراق ، وبعض النجوم ..... يغشاني النوم على سطح السفينه على فراشي المتنقل بينما انا مدثر بمعطفي . ياللهناء ! الصحراء من ناحية ومن الناحية الأخرى الحقل الاخضر ، وهو بمزروعاته يشبه من بعيد أحد سهول نورماندى التي تنمو فيها أشجار التفاح ، ولون الصحراء رمادى محمر ، ويظهر اثنان من الاهرامات ثم ثالث يصغرهما وعلى يسارنا تظهر القاهرة قابعة على تل وقبة مسجد محمد على وورائها تلال المقطم العاليه . »[١٨]

وقد لمى فلوبير ملاحظاته المدونة من قبل في رسائله وخاصه تلك التى بعث بها الى لويس بوييه وهى اكثرها تفصيلا وألفة وعمقا وتأملا ، وفيها يدل الوصف الذي يتنوع المرة تلو المرة لنفس المشاهد على الاهتمام الذي يحمله فلوبير لتجاربه مثلها في هذا القصيد البريدى الذى بعث به من القاهرة يوم ١٤ نوفمبر سنة ١٨٤٩ الى رفيق ثقافته :

« أبدأ ايها القديم العزيز بتقبيل رأسك الطيبه ، وبان أنفح الورق كل مايلهم روحك كى توافيني ، وان كنت اعتقد على أية حال انك تكثر التفكير فينا . ذلك اننا نكثر التفكير فيك ، ونوحشنا مائة مره في اليوم . وفي الساعه التى أكتب فيها اليك يسطع القمر على المآذن وقد صمت الكل ، ومن حين لآخر تنبح كلاب ، وأمامي من النافذه التى انحسرت عنها الستر كتل الاشجار تبدو سوداء في الحديقه تحت نقاء الليل الشاحب ، أكتب من فوق طاولة مربعه يزينها بساط اخضر وتضيؤها شمعتان ، واستمد الحبر من آنية دهان ، وأسمع من خلال الحائط صديقنا الشاب مكسيم يعد جرعته لتحميض الصور ، والأبكمان ، زاشى والترجمان ينامان فوق السطح ، ولا أخفى عليك ان هذا الترجمان هو من أحذق وأخبث القوادين الممكن وصفهم ، اما سيادتي فمكسو بقفطان نوبي طويل موشى بأشكال المدهد (ويطول وصف تصميمه) وهامتى حليقه تماما ويعلوها طربوش أحمر زاعق اللون كاد يهلكني من فرط الحر في الايام الاولى التى ارتديته فيها ، ولقد أصبحنا نبدو للناظر شرقيين للغاية » . [١٩]

ان فلوبير مندهش من تجربته الجديده ويرتدى الزى الشرقي ، ولكن ذلك لم يكن الا لعبة أو استعراضا ! ذلك ان أكثر ما يحبه هو الاستعراضات ، ومسارح الشوارع ، والمشاهد الشعبيه ، والمشاجرات ، والتحطيب كما يدل عليه باقى الرساله : ـ

« ... ها أنذا الخص في كلمة واحدة ما احسست به : اندهاش قليل من الطبيعه بارضها وسمائها وصحرائها وسرابها ، واندهاش هائل من المدن والبشر ، لو كان هيجو هنا لقال : كنت اقرب الى الله منى الى الانسانيه ، ولعل ذلك الاندهاش يرجع الى انى كنت احلم واتلهب واتخيل كل ما هو افق وخضرة ورمال واشجار وشمس وفاتنى حتى ان اتوقع ما هو ديار وشوارع وازياء ووجوه ، فكان لى مع الطبيعه لقاء ، ولكن كان لى في غيرها وجد ، ولكن هناك عنصرا جديدا لم أكن أن انتظر أن اراه ويفرض وجوده هنا وهو يضحكك ببشاعته ذلك هو السحق الهزلى من ضرب العبيد ،

---

(١٨) Ibid , p 532

(١٩) Correspondance , t . 1 , pp 536 — 537

وبائع الرقيق الذي يدلل على نسوة مكتنزات ، والتاجر الناصح ـ وقد عاد الى الشباب حقيقا أخاذا ، وليس اكرم من العصا التي تنثر ضرباتها يمينا وشمالا في الشوارع وفي البيوت لسبب او لغير سبب . »[٢٠]

لم يخرج فلوبير في انطباعاته عن تلك الظواهر عن سلوك سائر الاوربيين الذين زاروا الشرق في القرن التاسع عشر ورأوه بعين عابره ، وكأنه الركن الشرقي من متحف الشمع وقد عاد الى الحياة . وقد ذكرنا ان الرحلة الى الشرق ـ وكون فلوبير كتب سجلا ادبيا لها ـ هما اللذان رسوا بسفينته بعد اهواء الرومانسيه على صخرة الواقعيه ، وقبل أن نواصل في رفقته اكتشاف الاهرام فلنتظر كيف وصف الرومانسي الشاب في سنة ١٨٤٥ منظر الهرم الاكبر من اعلى معتمدا على خياله وقراءاته فحسب ! ان الفقره التاليه هي من النسخة الاولى من رواية فلوبير المسماة « التأهيل العاطفي » ، وهي نموذج طيب للاسلوب الذي كان يكتب به فلوبير عن الشرق قبل سفره :

« عندما يصل المسافر الى قمة الهرم تكون يداه قد تمزقتا وركبتاه قد دميتا تحيطه الصحراء ويبتلعه الضوء ويحرق الهواء الخشن رئيته ، وقد نال منه التعب ، وأعماه الوميض ، فيخر على الحجر بين مداعبات الطيور التي جاءت هنا كي تموت . ولكن فلينظر ! فلينظر فوق رأسه يسارا ليرى تلك المدن ذات القباب الذهبيه والمآذن من الفخار ، والقصور من المرمر والحمامات من الرخام ، حيث يجيء السلاطين ليغسلوا اجسادهم في الساعه التي يجعل فيها القمر الظلال زرقاء والمياه فضيه تأخذ في التألق ، وليفتح عينيه ! هذه الجبال اليابسه تخفي وديانا خضراء في جوانحها ، وهناك افيال حبشية في تلك الاكواخ من البوص ، وفي تلك القبور يرقد ملوك العصور القديمه وما زالوا يحملون تيجانهم . وليسمع النسر يصرخ في السحاب ، وبعيدا تقرع نواقيس الاديره! وليرَ القوافل تبدأ رحلتها والقوارب تطفو على النهر والادغال تزداد اتساعا والبحر يزداد عمقا والافق يزداد بعدا حتى يلامس السماء ويتحد بها ! فلينظر ! فليعر اذنا ! فليسمع ولينظر وعندئذ سيرتوي من ظمأ وتمر كل حياته وكأنها حلم لانه سيشعر بروحه تخرج من خلال الضوء وتحلق في اللامنتهي » .

فلنقابل بين هذا القصيد الممل يوحي من مذهب وحدة الوجود ووصفه ذلك الاكتشاف بالفعل في كراسات السفر ! لا شك ان الالتقاء بأبي الهول تجربة لا تنسى ، ولكن في أدق لحظاتها وابلغها اثاره لا ينسى فلوبير ان يحلل وان يفصل ما يراه فيقول : ـ

« حوالي الثالثة والنصف كدنا نلامس الصحراء حيث تنتصب الاهرام ، ولم استطع ان اواصل تحكمي في جوادي الذي انطلق بأقصى سرعته ، وحذا مكسيم حذوي بعد دقيقتين خائضا في المستنقعات . كان سباقا مجنونا وصحدت مني صرخات رغم انفي وشدنا هذا الاعصار حتى ابي الهول وفي البداية تبعنا العرب متصايحين باسمه العربي (هنا يكتب فلوبير كلمة ابو الهول بحروف لا تينية مرتين) كان يكبر ويكبر ويخرج من الارض مثل كلب آخذ في النهوض ورأيناه : « والد الفزع » كما يحق اسمه العربي ، كان هو والاهرام والرمال غارقين في لون رمادي ذي طلعة ورديه والسماء شديدة الزرقه ، ودارت النسور محلقه بطيئة حول قمم الاهرام ، وتوقفنا أمام ابي الهول ، كان ينظر الينا بطريقة مفزعة ، كان

(٢٠) Correspondance , t. 1 , p 538

مكسيم شاحبا جدا ، واحسست انا بخوف مما يمكن أن يفعله بي هذا الرأس ، وحاولت التحكم في مشاعرى ، وعدنا على اعقابنا مجانبين مشتين بين الاحجار ، وطفنا بالاهرام وعند سفحها لم تسعفنا ألسنتنا وحل الليل ونصبنا خيمتنا » . (٢١)

●●●

كان فلوبير يقدس أمه ويعاملها بحرارة فجة ! هي « عجوزه المسكينه » كما يخاطبها في رسائله . يتخيلها وقد ظلت وحدها بعد سفره تبكي وقد تهدل ركنا فمها ، وكذلك جعل يكتب لها بانتظام ليحدثها عن احداث يومه الصغيره خلال حياته في الشرق ، وفي رسالته اليها في يناير سنة ١٨٥٠ يقول لها : ـ

« ان رسالتك الطويله الطيبة المؤرخة في ١٦ الماضى يا عزيزتي العجوز المسكينه قد وصلتني كأنها هديه رأس السنة يوم الاربعاء الماضى . لقد تسابقنا بالجمال ، وماذا تدرين ؟ لا يسبب الجمل غثيانا او الما كما قيل عنه ، ان الواحد منا يجلس عليه كأنه على مقعد وثير ويغير من وضعه كما يحب ، فيضع ساقا على ساق او يتمدد على رقبة البهيمه او يضجع في الهودج . يصعب على ان انظر لكى انطق امامك كنيتى !! أتعرفين بم يدعوننى العرب حيث أن نطق الاسماء الفرنسيه يواجههم بصعوبة كبيره فيضطرون ان يخترعوا لكل فرنسى اسما من وضعهم ؟ خمنية اذن هذا الاسم الذى اشتهرت به !! « ابو شنب » ! ومعناه والد الشوارب ! وعند العرب تستعمل كلمة ابو بمعنى الصاحب لوصف الشيء الأساسى المتعلق بالشخص موضع الحديث ، فمثلا يقولون أبو الأحذية وابو الصمغ وابو المسطرده ليعنوا تاجر الاحذية او تاجر الصمغ او تاجر المسطرده ، وقد اطلقوا على مكسيم اسما طويلا جدا لم اعد اذكره ، ومعناه الرجل بالغ النحافه ، ولك ان تحكمى على ابتهاجى عندما عرفت بالشرف الذى يسبغونه على هذا الجزء المتواضع من شخصى . » (٢٢) وفي سطور تاليه يتحدث عن مستقبله كأي ابن يتحدث في ذلك مع والديه او احدهما ، على انه يضيف الى ذلك الحديث عن انتاجه الادبي فيقول « عندما افكر في مستقبلى ـ ونادرا ما يحدث ذلك فاني لا افكر في اى شيء على الاطلاق بخلاف الافكار الكبرى التي يجب ان تهب الانسان حال رؤيته للاطلال ـ باختصار عندما اتساءل ماذا سأفعل عند الرجوع ، وماذا سأكتب وماذا سأريد وقتها ، وأين يجب ان اعيش الخ الخ يملؤني الشك والتردد ، وقد تراجعت دائما وعند كل سن على ان اواجه نفسي ، وسأهلك في الثمانين قبل ان اكون رأيا في نفسي ، وربما ايضا قبل ان اكتب عملا يعطيني ثقلا . القديس انطوان أهو جيد ام ردىء ؟ هذا هو مثلا ما أتساءله مرارا ، أينا قد أخطأ انا أم الآخرون ؟ وفيما عدا ذلك لا يقلقني شيء . أحيا كالنبات وأترك الشمس والاضواء والالوان والهواء العميم تخترقني » .

---

(٢١) Correspondance , t . 1 , p 570
voyage en Orient in
Flaubert Oeuvres Completes
Ill ustrees, paris , ed . du centenaire , 1925 , p . 33

(٢٢) Ibid pp . 561 — 562

ولاول مره عبر فلوبير عن شكوك ساورته بخصوص رحلته لمصر فى خطاب للدكتور جول كلوكيه يوم ١٥ يناير سنة ١٨٥٠ فقال :

« ها نحن اولاء فى مصر أرض الفراعنه وموطن البطالمه وموئل كليوباترا (كما يمكن ان يتمادى المرء فى اسلوب راق) . نحن موجودون عليها ونعيش فيها ، وقد جعلت الحلاقه منا الرأس أنعم من الركبه . ندخن فى غلايين طويله ، ونشرب القهوه مضطجعين على ارائك . ماذا أقول وماذا تريد منى أن اكتب اليك ! لا أكاد افيق من دهشتى الاولى ، انك لكأنك قد القى بك وانت نائم فى وسط سيمفونية لبتهوفن فى الموضع الذي تمزق فيه الآلات النحاسيه الاذن وتزعق نغمات القرار ويتنهد الصفار ، يحتويك الملمح الدقيق ويأخذك ويلدغك وكلما يزيد ذلك يقل ادراكك للمجموع ثم قليلا يعود الانسجام وتعود الشجره الى الالتزام بقوانين الغابه » . (٢٣) . وجميلة جدا المقارنه بسيمفونيه لبتهوفن ، وفى نفس الوقت فان للفقره دلالتها فيما يختص بفلوبير ، فرغم حدة ذكائه وقدرته الفائقه على الاستيعاب الفكرى فانه يشعر انه لا يستطيع ان يحيط بمصر فى شموها ، ولكن عندما يعود الانسجام فانه لا يتجاوز الشكل الخارجي ولا يتيح قط لابن الغرب تمام المشاركة .

●●●

وبعد ذلك شرع مكسيم دوكامب فى تشكيل مجموعة للذهاب لرؤية مصر الفراعنة ، وكانت إسنا التى مرا بها عند صعودهما النيل مسرح لقائهما « بالعالمه » المخلدة كوتشوك هانم ، وقد صار هذا الحدث من رحلة فلوبير الآن معروفا فقد سرده فلوبير فى يومياته وفى رسالة الى لويس بوييه بتاريخ ١٣ مارس ١٨٥٠ ، وهكذا يصفها :

«ان كوتشوك هانم هى محظية ذائعة الصيت . وعندما وصلنا عندها ، وكان ذلك فى الثانية ظهرا ، وجدناها فى انتظارنا ، وكانت وصيفتها قد جاءت من الصباح الى القارب وبصحبتها خروف مستأنس لطخ فى مجموعه بالحنه الصفراء وعلى انفه كمامه من القطيفه السوداء ويتبعها كالكلب وكان ذلك مضحكا للغاية . كانت قد خرجت لتوها من الحمام وقد غطت اعلى رأسها بطربوش كبير انتشر زره على كتفيها العريضتين وعلى قمته شارة ذهبية مرصعة بحجر كريم اخضر ، وكان شعرها ينزل من تحت الطربوش عبر جبهتها فى ضفائر رفيعه تلتقى على اسفل رقبتها من الخلف بينما اختفى اسفل جسمها تحت سروال ضخم وردى ، والصدر عار كله تحت شاش بنفسجي ، كانت واقفه على رأس سلمها والشمس وراءها فاكتمل منظرها ، تحد اطاره السماء الزرقاء . انها مخلوقة امبراطورية ذات ثديين ولحم ، وفتحتا انفها ضيقتان وعيناها متسعتان وفخذاها فخمتان وبطنها يكسوها طبقة فوق طبقة شحم يتفاخر حين ترقص ، والركبتان رالعتان ، وبدأت بأن عطرت ايدينا بماء الورد ، وكانت تنبعث من حلقها رائحة التربنتين المحل بينما يحوطه عقد مثلث من الذهب ، وامر بالموسيقيين فاحضروا وبدأ الرقص » . (٢٤)

---

(٢٣) Ibid p . 563

(٢٤) Ibid t . I . pp 605 — 606

وهذه اللوحه التي رسمها فلوبير نجدها مفصلة في مذكراته حيث يتم وصف رقصة كوتشوك هانم الوحشية فيقول : ـ
« وضعت لكي ترقص حزاما هو في الاصل شال أسمر فيه خطوط ذهبيه حول بطنها وعقدته كربطة العنق بثلاث عقد ذهبية معلقة بشرائط وجعلت ترتفع من قدم الى قدم بروعة ، فقدم يظل على الارض والاخر يطوف بنا كيا يدور قوس الساق في الهواء وخلفه عمود الساق الاخرى ، وكل هذا تغلفه قفزة رشيقه » . (٢٥)

وفي نهاية السهرة ظل مكسيم وحيدا على اريكه بينما قضى فلوبير الليل مع كوتشوك هانم على سرير مصنوع من سعف النخيل . والذى نستغربه هو ان هذه المرأة التي جعلت حبر فلوبير ينسكب وأوحت الى لويس بوييه بقصيدة بناها على وصف فلوبير وحده للوح وكأنها لم توجد الا في خيال الكاتب ! فان امرأة حقيقية حية ـ كما تبدو كوتشوك هانم ـ تتحدث عن نفسها وعن مشاعرها ، ولكن فلوبير هو الذى يتحدث بالنيابه عنها ، ويقول : « المرأه الشرقيه ليست إلا آلة » والمرأه الشرقية تتيح لفلوبير ان يسلم نفسه الى احلامه المتقده كما يقول في مذكراته . إن كوتشوك هانم بأنوثتها وأنوثيتها الدافقتين هي قالب حي لشخصيق فلوبير . . سلامبو ، وسالومى ، وكذلك لكل انواع الاغراء الجسدى الانثوى التي تعرض لها بطله القديس انطوان ، كانت تستطيع ان تنطق بقول بلقيس سبأ « انا لست امرأة بل عالما بأكمله » (٢٦)

كذلك على صعيد النيل مر قارب فلوبير ومكسيم امام طيبه وهنا يأخذنا ثراء الالوان في حصيلة فلوبير حيث نقرأ في مذكرات سفره وصف غروب الشمس على مدينة هابو :

« ان الجبال هي باللون النيل الداكن ، الازرق المتحجب بالرمادى المسود تتضارب فيها شرائح من النبيذ بينما تبدو النخيلات سوداء كالحبر ، والسماء حمراء والنيل كنضار بحيره من الرصاص المذاب » . (٢٧)

ان هذا المنظر الطبيعي يثير فيه انفعالا عميقا يحتفظ به لنفسه ويحلله في نفس الوقت بذكاء وبصفاء عقل يذكرانا بجيرار دونرفال فيقول :

« حينما وان طرب بهذه الاشياء وانظر الى موجات ثلاث تتقلب الواحدة على الاخرى تحت الريح احسست بسعادة وقور تعلو داخل بمناسبة هذا المشهد ، وشكرت خالقى في قلبي لانه اهلنى لان اسر بهذا الشكل ، واحسست بنعمه الفكر مع انى لم احس انى افكر في شيء كانت متعه اليفه شارك فيها كياني كله » . (٢٨)

وكان فلوبير يعيد على ظهر قارب القاء اشعار صديقه لويس بوييه ويذكر بالتحديد بيتي شعر يقولان :
« لم يكن آباؤ نا يعرفون العطر المخدر الذى يحمله النيل المتسكع على شطآنه » وقد كتب اليه في رسالة بتاريخ ١٣ من مارس سنة ١٨٥٠ يروى له نقاشا شهده قبل ذلك بشهور ، ويتعلق بذات البيتين فقال : ـ

---

(٢٥) Voyage en Orient , in oeuvres , completes ed . Societe des Belles Lettres p. 595
(٢٦) Flaubert, la Tentation de saint A ntoine , in Oeuvres t.I.p 85
(٢٧) voyage en orient , t . p . 590
(٢٨) Ibid

« انا فى حاجه سريعه لكى أؤكد لك شيئا بخصوص تشبيهك للنيل بالمشكع ، لا يوجد تشبيه أوقع وادق وفى الوقت نفسه اشمل من تشبيهك ! انه نهر عظيم ومغرور يغلب عليه طابع المحيط اكثر من طابع اى شىء مالى آخر . تمتد على ضفتيه سهول من الرمال يفقد البصر مداها وإن كانت تحدها الرياح كأنها خلجان . وابعاد ذلك هائله فلا تعرف الى اى طرف يجرى التيار ، وكثيرا ما تظن نفسك حبيس بحيرة كبرى » (٢٩)

ويتحدث فلوبير الى صديقه ورفيق آدابه عن قلقه بشأن عمله والشكوك التى تساوره :

« أشعر انى اجوف جدا افطس جدا عقيم جدا ، ماذا افعل متى عدت ادراجى ، أأنشر شيئا ام لا افعل ؟ ماذا سأكتب وهل سأكتب ؟ لا اخفى عليك ان حكاية القديس انطوان قد اصابتنى بضربه قاضيه . لقد حاولت عبثا ان ابنى ما يشبه حدوته شرقيه ، وكنت فى الايام الاولى قد باشرت الكتابة قليلا ولكن ـ ولله الحمد ـ ادركت فيها وبسرعة بلاهتها . يحسن ان يكون الواحد منا عينا وهذا حسبه » (٣٠)

أن يكون الواحد عينا وهذا حسبه .. هذا يعنى مداومة الملاحظة كما أجادها فلوبير منذ سفره الى الشرق .

وتزل المسافران عبر النيل ، وهنا تبدأ استكشافات الاثار التى ينتظرها مكسيم دوكامب منذ زمن ليتعرف على المعابد ، ويرى فلوبير المعابد ولكنه يرى اكثر الحياة التى تحوطها والضوء المصرى الاعظم فيكتب الى امه فى ٢٢ ابريل ١٨٥٠ قائلا : « الأن نحن نهبط الى سطح النيل عائدين ببطء فى عكس الاتجاه الذى اتخذناه فوق هذا النهر العظيم بقلاعين أبيضين ، ونتوقف امام كل الاطلال فيرسو القارب وننزل الارض . وهناك دائما معبد يتوارى فى الرمال الى كتفيه ، ولا يكاد يظهر منه الا جزء وكأنه رسم اهيل عليه التراب ، وعلى الحوائط البيضاء رسمت اوثان تحمل رؤوس التماسيح وعجول ابيس ، بينما زينت اطرافها بعصافير كأنها تسكن الشقوش التى تفصلها عن بعضها ، تنزهنا بين الاعمدة ، وأزحنا التراب بعصى من خشب النخل وعدد من خيالنا المشحون ، ومن خلال ثنايا المعبد نظرنا الى الشمس التى تحرك الزرقة بينما تلوى النيل كالثعبان بين الصحراء وفاض على ضفتيه ، فجاوبته كل ضفة بخصلة خضراء . مصر كلها هى هذا ! عادة يوجد حولنا قطيع من الخراف السود يدبدب وغلام عار له عينا قطة واسنان من عاج وفى اذنه اليمنى قرط فضى . انه الضوء وروعته التى تجعل كل شىء يأتلق . ان ذلك يبهرنا دائما فى المدن عندما تتضارب الالوان مثلا فى حقل تنكرى حيث تتشتت الالوان بين الابيض والاصفر واللازوردي فى فجاجة ثم تصفو بظلالها فتغشى عينى كل فنان » . (٣١)

وراح فلوبير يتنزه فى الاقصر فى ضوء القمر وقد القى بريقه على الاطلال الكبرى فيقول فى مذكراته عن رحلته « تبرق فى الظلام كتلة الاعمدة ويبدو القمر الذى يرتفع وراءها كأنه يرتكز على الافق منخفضا ومستديرا وثابتا » ومن اجلنا

(٢٩) Correspondance, t, 1, p. 601

(٣٠) Ibid, pp. 601 — 602

(٣١) Ibid, pp 614 — 615

نحن فقط ، وفقط لكى يضيىء الارض المنبسطه امام الافق ، والهواء دافىء ، والسماء تعمر بالنجوم التى تشبه فى الليل اقواسا كأنها عقود من الماس سقطت منها بعض احجارها ، بالزراية لغتنا اذ اضطرتنا ان تقارن النجوم باحجار الماس ! »

وكان الكرنك هو الذى استرعى انتباهه بين غيره فيكتب الى امه بتاريخ ١٧ مايو سنة ١٨٥٠ قائلا :

« لن انسى قط اول انطباع لقصر الكرنك ! بدا لى كأنه صنع جن سكنوه ، وكانوا يتناولون طعامهم فى اطباق ذهبيه تحوى انسا فى اسباخ كالسمان » (٣٢) وكان هذا الطابع الوحشى لحياة الفراعنه كما سجلها فلوبير فى رسائله ، وفى مؤلفه رحلة الى الشرق » (٣٣) اثر ملهم على روايته المقمه بملحمة الشرق والتى اسمها « سلامبو » . لقد راعه وادى الملوك . ولنقرأ خطابه الى امه حيث يصفه بما يذكرنا بجحيم دانتى فى الكوميديا الالهية فيقول :

« تصورى واديا بحاله منحوتا فى جبل لم يعد فيه نبت اكثر مما على مائده من رخام وعلى كل من ناحيته دروب يجد كلا منها رمس ، وفى كل منها يمكن النزول بسلم يتلوه سلم فسلم ، وهكذا الى مالا نهاية ثم تدخل فى القاعات الكبيره المنقوشة من اسفل الى اعلى وفى السقف حيث يسبح المرء ولا ابالغ !! تصورى كهوفا حوائطها مموهة بالذهب واللازورد وغيرهما ! انها تصاوير خيالية او رمزية : ثعابين متعددة الرؤوس تسير على اقدام آدمية ، رؤوس مفصولة تطفو ، ويجمع بحر سفنا ، وملوك على عروشهم ، وجوههم خضر وملامحهم غريبه ، والرسومات طازجه كانها صنعت لتوها ويخشى اذا لمست ان تنتشر ، وهناك عازب العازب ، والراقصون والناس ياكلون ، انه شىء مذهل ، كفاك . . سأحدثك عنه مرة اخرى » . (٣٤)

اى زاد يمكن لمخيلة فلوبير الاعتراف منه ! سنرى ان تلك المناظر ليست فقط قدوة لرواية فلوبير الشرقيه اى « سلامبو » ، ولكن ايضا لروايته الريفيه الفرنسية مدام بوفارى حيث ترمز الحية للغرام الجذب او القاتل .

كذلك سحر البحر الاحمر فلوبير ، وقد نزل يستحم فيه باستلذاذ ثم ظل يرقب مدة وجزره طيلة ساعات . ولنشر ثانيه الى فن فلوبير الرسام الذى يحصى الف لون ولون فى رسالته الى لويس بويه فى ٢ يونيه سنة ١٨٥٠ :

« كان قاع الماء يحوى الوانا يفضل اصدافه ولواقعه ومرجانه تفوق ما تحويه حقول الربيع بيراعمها ، اما عن لون سطح البحر فقد امتزجت فيه كل الاصباغ المحتملة وتدرجت بعضها فوق بعض ، وذابت معا ، بدءا بالشيكولاته وانتهاء بالزمرد : بدء بالوردى وانتهاء باللازوردى » . (٣٥)

●●●

(٣٢) Correspondance , t I . p . 620

(٣٣) Voyage en Orient , t . ,PP 135 — 154

(٣٤) Correspondance , t , I , p . 621

(٣٥) Ibid , p 637

واخيرا تنتهى الرحلة ونقرأ فى ملاحظات كراسات السفر : -

« اليوم الأخير .. وداعا .. ان حزنى عند الفراق يجعلنى ادرك مدى تشوقى عند الوصول .. النسوه يجلبن الماء ، الفلاحون لن أراهم كلهم بعد ولا الطفل الذى يستحم فى بركه الساقيه الصغيره » .

وكتب من الأسكندريه بعد سفره قائلا :

« غادرت السفينه الميناء بينما انا نائم ، لم ار ارض مصر تتوارى وراء الافق ولم استطع توديعها .. ترى هل اعود يوما ؟ »

ويجيب التاريخ على سؤال فلوبير بـ « لا » . فلم يعد قط ، وهو الذى قضى فى سنة ١٨٥٨ بضعة اسابيع فى تونس حول موقع قرطاج الأثرى بغية كتابة روايته سلامبو وكانت آخر مره رأى فيها الشرق .

وقد سافر فلوبير ومكسيم دوكامب بعد ان غادرا مصر عبر فلسطين وسوريا وتركيا واليونان وايطاليا حيث لاقتهم ام فلوبير فى ابريل سنة ١٨٥١ ، ولم ينس فلوبير قط ان مصر أول ما افعمه بالالوان . وقال فى رسالة كتبها الى لويس بوييه من القسطنطينية فى ١٤ نوفمبر سنة ١٨٥٠ ، وفيها يتحدث عن مؤلفات « اسفار تشيلدهار ولد » ، « وحكايات من تركيا » التى تضم كذلك قصة « خطيه أبيدوس » « الوردة بايرون » ، قال :

« فكرت كثيرا فى بايرون امام أبيدوس ، هذا هو الشرق الذى رآه ، هو الشرق التركى ، شرق السيف المقوس والبزة الألبانية والنافذة المحصنة بالقضبان المطله على فيض الزرق ، أما انا فأحب حرة شرق البدو فى الصحراء ، اعماق افريقيا المؤتلقه . قل لى ما هذا الشرق الكئيب للرجوع الى مصر ! »(٣٦)

●●●

لقد كان للرحلة للشرق فى حياة فلوبير مكانة كبيرة ليس فحسب للوقت الطويل نسبيا الذى كرسه لها هذا المحب لمنزله ، ولكن ايضا للتأثير العميق الذى لها على فنه . فهو مدين لها بأكثر مما تنتظر عادة ان يدين به كاتب لرحلة ، وقد رصد منها موضوعات ألهمته وأثرته من تلقاء نفسها بتفاصيل عديده ، وبلمسات الألوان التى لولاها لظلت فرشاته متحجره ، بل وبمادة بعض اهم مؤلفاته . وقد وجد فى الشرق اتساعا لأفاقه ، كما جعلته انطباعاته عن الآثار الصامته الشاهدة على التاريخ والعروض المتحركة الشاهدة على الاخلاقيات والعادات المختلفة ، جعلته يفكر عند عودته ، وتشهد بذلك رسائله التى تقول لنا بأثر الشرق القوى عليها ، ويدين كثير من مؤلفات فلوبير سواء من حيث الأصل او تحديد التفاصيل لرحلته الشرقية ، وان كان اوضحها يتمثل فى سلامبو سنة ١٨٦٢ وهيروديس سنة ١٨٧٧ ، وعدة صفحات من اغواء القديس انطوان سنة ١٨٧٤ . وتبدو لنا اهمية المكانه التى تتمتع بها رسائل الروائى وكراسات سفره التى تابع تدوينها نقول اهميتها لمعرفة عمله بمجموعه .

---

(٣٦) Correspondance, t, I, p 710 — 711

وكما يقول فلوبير نفسه فى رسالة لاحقه الى أرنست شيفالييه :

« اي نعم لقد رأيت الشرق ان مرأى اى القول كان احد المباهج التى اخذت بعقل اكثر من اى شىء فى حياتى ، وإذا كنت لم ألق حتى هنالك فذلك لان جوادى او الله لم يرد ذلك عن قصد » .

لقد فصل فلوبير جيدا الملامح الخارجيه لبلاد الشرق ووصف طراوة شواطىء البحر المتوسط وشجنها كما وصف سحر مدن السواحل عند انقشاع الفجر او حلول القمر . ويمكن لمن قرأ رواية سلامبو ان يعيد قراءة الصفحة التى وصف فيها قرطاجنه فى النوم . ففيها كل سحر تونس والاسكندرية ، واسهب فى وصف الشرقيين الذين جاورهم فى وصف ملابسهم وازيائهم وعاداتهم وطرق معيشتهم .

ولا نستطيع مع ذلك ان نحجم عن ابداء دهشتنا عندما نقرأ رسائل فلوبير ! هؤلاء الشرقيون الا يتكلمون هم ابدا عن انفسهم بأنفسهم ؟ ألا يعبرون هم اطلاقا عن مشاعرهم وعن حضورهم وعن تاريخهم ؟ ان فلوبير هو الذى يتكلم بلسانهم ويمثلهم . أوليس هذا مسلك كل غربى فى القرن التاسع عشر تجاه الشرقى او تجاه الآخر الذى لا يراه حقا ؟ ان روابط الغرب بالشرق يحكمها التسيد والتسلط ، وبذلك لم يكن مسلك فلوبير الغربى فى نهاية القرن التاسع عشر حالة متفردة ، فهو يعبر بما فيه الكفاية عن رؤيه الغرب للشرق ولدوره ، وللكلام القليل الذى يأبى الغرب أن يسمع من الشرق غيره .

المراجع

J.P. Sartre L. de la Famille Gustave Flaubert, paris Gallimard, 3 vol. 1971 — 1978

BEM, J ' langages de flaubert' Revue d, Histoire Francaise .

Septembre 1976 pp. 849 —851

BONNACO RSO, Giovanni, 'L influence de L orient dans la Trois les Amis de Flaubert, no 50 mai 1979 pp. 9 — 21, no 51 decembre 1979 — pp. 29 — 41

BRUNEAV, Jean ' le voyage en Egyptede flaubert et de langlois'

le pays d Ange, Fevren 1976 — pp. 3 — 8

COMBESCOT, Pierre. ' le mirage de L orient chez Flaubert Magazine no 108 Jouvier pp. 18 —19

CARLUT, charles essai sur Flaubert, paris Nizet 1979

EL - NOUTY, Hassan Le proche - Orient dans la Litterature de Nerval a barres, paris, Nizet 1958

NADEAU, Maurice Gustave flaubert, ecrivain, paris, les lettres nouvelles, 1980

PROSCHW, TZ, Gabor von. flaubert dans ses lettres un Coeur mis a nu'

les Amis de flaubert, no 45, decembre 1974, pp. 20 — 22

PRUCHET, Anda La

SuFFEL, Jacques, quelque uemarque sur la correpondance Flaubert et de Yoxime du camp'

essais sur Flaubert, no 3616, 1979 pp. 23 — 61

VACCARO, Barbarel pietro ' l arte flaubertiana attraverso la correspondance

' Culture Francaise, Bari , Luglio agosto 1979, pp. 109 — 120

***

رسائل مردث

«التعبير عن الصمت»

محمد شاهين
الجامعة الاردنية

هذا هو الكاتب الذي قال عنه الناقد المعروف ديفد ديكس Devid Daiches انه أصعب كاتب انجليزي يمكن تقييمه من الناحية النقدية (١) . ولا بد ان ديكس كان على وعي باسلوب مردث المعقد في الكتابة عندما اطلق هذا التصريح النقدي في دراسة مطولة لتاريخ النقد الأدبي الحديث . وما دمنا بصدد الحديث عن رسائله فالسؤال اللذي يطرح نفسه هنا هو ما اذا كان اسلوب مردث في رسائله يختلف عنه في رواياته التي كان يعنيها ديكس في تعليقه ؟ ولكن قبل البدء في الموضوع لابد من عجالة تعرض سيرة حياة الكاتب سيما وان الرسائل تكون عادة مرتبطة ارتباطا مباشرا أو شبه مباشر بحياة الكاتب التي يحاول جاهدا طمس معالمها الواضحة عندما يحولها الى فن .

ولد جورج مردث George meredith عام ١٨٢٨ في مدينة سوثهامبتون Southampton من أبوين متوسطي الحال ، وكان أبوه يعمل في حانوت يختص بتجهيز الزي لأفراد الأسطول البحري ، وهو وحيد أبويه ، وقد توفيت أمه قبل أن يبلغ السادسة من العمر . وتلقي علومه الأولية في مدرسة داخلية وذلك على نفقة تركة صغيرة كانت والدته قد خلفتها له . وفي عام ١٨٤٢ التحق بمدرسة تدعى Moravian تقع على نهر الراين بألمانيا لمدة عامين ، وقد رجع من ألمانيا الى بريطانيا في تموز ١٨٤٤ . وفي الثالث من شهر شباط عام ١٨٤٦ التحق بمكتب محام للتدرب على اعمال المحاماة فيه .

وعمل لمدة خمس سنوات بجانب محام يدعى Stephen charnock ولحسن الحظ أو لسوئه كان

---

(١) David Daiches, A Critical History of England, IV (London,1968), P. 1072

لدي محاميه ميول أدبية ساعدت مردث نفسه على التعرف بعالم الأدب مما أدى الى أن يكتشف في نفسه ميلا أكثر الى الأدب ونتيجة لذلك هجر المحاماة في عام ١٨٤٩ واتجه في نهاية الأمر الى الأدب ليتخذ منه حياة ومهنة استمرت حتى النهاية .

ومن خلال محاميه تعرف على شريكة حياته الأولى التي كانت من بين الأدباء الناشئين الذين شاركوا في اصدار مجلة محدودة الانتشار واسمها : The Monthly Observor وكان مردث ومحاميه من بين المحررين للمجلة وقد وقع مردث في غرام Mary Ellen من خلال النشاط الأدبي الذي كان يجمع الاثنين معا ، وهي ابنة الأديب المعروف Thomas Love Peacock وكانت تكبر مردث بعدة سنوات وهي أرملة توفي زوجها البحار في حادث سفينة عام ١٨٤٤ .

وعاش مردث بعد زواجه حياة عوز حيث ان دخله من الكتابة التي انكب عليها لم يكن كافيا ، وفي السنين الأولى من الزواج أقام مردث في بيت والد زوجته الذي كان يتميز بعادات شخصية غريبة كخوفه الشديد مثلا من حدوث حريق بالبيت في أية لحظة ، ومما زاد حياة العوز إنجاب طفل اسمه Arthur عام ١٨٥٣ وفي عام ١٨٥٥ كتب مردث قصته الأولى واسمها The Shaving of Shagpat وهي أشبه بقصة طويلة مستقاة من مصادر شرقية ولا توجد فيها خصائص الرواية وفي عام ١٨٥٨ تأزمت العلاقة بين مردث وزوجته ربما كان العوز فيها دافعا رئيسيا وفي نهاية العام هربت ميري مع Henry Wallace الفنان الذي وقعت ميري في شركه ، الى ايطاليا . وما هي الا بضعة أشهر حتى عاد الطرفان الى بريطانيا بعد أن تسدت العلاقة بينهما .

وقد بلغت حدة التأثر عند مردث مبلغا جعله يعتني بالطفل الذي تركته ماري وراءها بنفسه ، دون الاستعانة بأية امرأة في هذا السبيل ، وقد منع أمه من رؤ يته إلا في الأيام الأخيرة ، عندما كانت تشرف على الموت وبعد توسلات لاحدّ لها ، أما هو شخصيا فلم يرها طيلة سنوات الانفصال الأربع سوى دقيقتين في أمر يتعلق بابنهما .

وقد سجل مردث هذه التجربة في روايته الاولى التي تدعى The Ordeal of Richard Feverel والتي نشرت عام ١٨٥٩ ، وهي بلا شك رواية تحتل مكانة خاصة في الرواية الانجليزية وأثارت ضجة بين الجمهور سأتحدث عنها في مكان لا حق هنا ، وقد نجح مردث في تحويل المحنة الشخصية الى رواية فنية ، استطاع فيها أن يسيطر على مشاعره الشخصية الجارفة التي كانت تشعره بمأساة الحدث .

وفي عام ١٨٦١ توفيت ماري بعد هجر دام حوالي خمسة أعوام وقد اختتم مردث هذا الفصل من حياته بمجموعة من القصائد نشرها تحت عنوان Modern Love وفيها يستعرض مردث بب؟لوب شعري جذور المأساة التي يعتقد أن كلا الزوجين ساهم في المأساة بقدر متساو واعترف مردث أن انشغاله في كتاباته قد أسهم في تحول قلب ماري عنه الى شخص آخر وان العاطفة الزائدة التي كانت لدي ماري والتي ظن أنها كانت ضربا من الجنون الذي ورثته من أمها كان سببا آخر وقال قولته الشعرية المشهورة والتي تناقلها نقاده عنه من بعده (Passions Spin the plot)

وقبل ذلك بما يزيد عن عقد من الزمن (١٨٥١) كان مردث قد نشر مجموعة من القصائد هي في الواقع قصيدة واحدة واسمها Love in the Valley وكانت تحية عطرة لعاطفة الحب الجياشة التي شعر بها مردث نحو ماري في ايام غرامه بها .

وبعد ذلك باعوام تزوج مردث من فتاة اسمها Marie Vulliamy عام ١٨٦٤ ، وعاش معها حياة وادعة يملؤها الاستقرار النفسي الى ان توفيت عام ١٨٨٥ وكانت مثال الزوجة التي عرفت كيف تتعامل مع زوج يقضي جل وقته وهو يعايش الكلمة ويبدو أن مردث نفسه تعلم من زواجه الأول فابتعد عن الهوى ومسبباته طيلة زواجه ورضي بما تقدمه الحياة الزوجية في الظروف العادية الواقعية .

●●●

انصرف مردث بعد الزواج الى تحقيق طموحه في الكتابة وحاول في الستينيات محاولة جاهدة كسب شهرة في هذا المجال . وكان يعلم حق العلم أن الرواية التي تعرض حوادث مثيرة وقصصا تعتمد بشكل رئيسي على الحدث أكثر من اعتمادها على الشخصية هي الرواية التي كانت تلاقي رواجا عند جمهور القراء وما كان منه الا أن حاول مثل هذا النوع من الرواية رغم أنه في الوقت نفسه يخالف معتقداته الأدبية ، وتوفرت لديه المادة سيما وأنه كان يعمل مراسلا لجريدة Morning postوذهب فعلا الى ايطاليا ليغطي أخبار الحرب الايطالية وليستخدم تلك الأخبار خلفية لروايتيه Emilia in England و Vittoriaوتشير رسائله التي كتبها في هذه الفترة بلهفة الى تحقيق الشهرة غير أن رغبته هذه ظلت بعيدة المنال وانصرف عنها الى الأبد .

وفي بداية السبعينيات كتب رواية حققت رغبته من ناحية فنية وفي الوقت نفسه جذبت أنظار الجمهور اليه أكثر من ذي قبل واسم الرواية Harry Richmond وتحكي قصة البطل نفسه ، وكيف أن تجربة الحياة هي التي تشكل نمو الشخصية على مر الزمن . والرواية في هيكلها العام تشبه رواية Richard Feverel من حيث إنها تدور حول قصة الصراع بين الأب وابنه ، فيما يتعلق بالأخذ والعطاء في أمور التربية ، وكتب مردث هذه الرواية على غرار ما يعرف في الأدب باسم Bildungsroman والأصل في هذا النوع الأدبي - كما يشير الاصطلاح - ألماني ، وهو نوع كان جوته رائده وكانت روايته المعروفة Wilhelm Meisterأساسا له ، وقد شاع هذا النوع الأدبي في منتصف القرن الماضي واستمر بعد ذلك يظهر عند أشهر الروائيين في هذا القرن وتتركز حوادث مثل هذه الرواية حول البطل الذي يروى قصة حياته بنفسه ، ويعرض لنا تجاربه من الحياة العملية وتأثيرها على نمو شخصيته وضمن هذا النوع الأدبي كتب ديكنز روايته Great Expectations وكتب تكري Henry Esmond

وفي هذه الفترة كتب مردث أيضا رواية أخرى من نوع آخر وهي : Beauchamp,s Career وهي على منوال رواية George Eliot التي ظهرت قبل رواية مردث بقليل وهي Felix Holt وكلتا الروايتين لها خلفية سياسية تتعلق بالانتخابات المحلية التي تشكل أهم جزء في تاريخ البلد السياسي وهي أيضا رواية تحكي الصراع بين فردية

الشخصية التقدمية وخلفيتها المعارضة مضافا الى ذلك الصراع بين واجب الفرد السياسي وهواه الشخصي ومن حيث الانجاز الفني لم تكن الرواية أقل من سابقتها .

أما في الثمانينيات فقد كتب مردث Diana of the Crossways وهي الرواية التي أقبل عليها الجمهور بشغف لا مثيل له في ذلك الحين والسبب أنها روت فضيحة سياسية نشر تلميح عنها في جريدة التايمز وملخص الأمر ان زوجة أحد المسؤولين السياسيين البارزين أفشت سرا يتعلق بقوانين بيع القمح وهي في عرف الشعب الانجليزي فضيحة لا أخلاقية كبرى ، وقد أثارت الرواية فضول الجمهور من حيث معرفة ديانا الأصلية ولم يهتم مردث طبعا بكشف النقاب عن الشخصية التي استقى بها الحادث ، كذلك لم تعطه الشهرة التي كسبها فجأة عند الجمهور تلك الرغبة التي كان يتوق اليها من قبل ، وهو أيضا لم يكتب الرواية بقصد الشهرة ومن هنا تبدو المفارقة .

واختتم مردث أعماله الروائية في التسعينيات بعملين رئيسيين ، الأول : One of our Conquerors والثاني The Amazing Marriage ويبدأ الأول بأطول جملة في اللغة الانجليزية . وقد لفتت الرواية التي تعتبر أعقد رواية في أسلوبها أنظار المراجعين للرواية وعلق الجميع على أسلوبها المعقد وجملتها الافتتاحية وتدور حوادث الرواية حول حياة رجل أعمال لم يغنه غناه عن فراغ حياته الشخصية ، عاش حياة ملؤها القلق والحيرة يتنقل من مكان الى آخر مع خليلته التي أحبها وعاش معها كزوجة وكان يخشى نقمة المجتمع الذي كان يمكن أن يطيح بماله وجبه لو عرف عن سره هذا وقد عاشت Nataly حياة تخلو من الاستقرار النفسي وكان Victor يأمل أن يحل القدر المشكلة مع زوجته الأولى التي لم يحبها يوما واحدا والتي وجد نفسه زوجا لها بقوة التقاليد الاجتماعية ، ورغم اللحظات السعيدة التي كانت تجمع بين فكتور وناتالي الا أن حياة الجحيم كانت هي التي تسيطر في أغلب الأحيان ، فكلاهما كان يشعر بخطورة المغامرة في الحياة الحاضرة وقسوة الغموض بالنسبة للحياة المستقبلة وكان فيكتور على وعي بما تقاسيه ناتالي مما يزيد من معاناة نفسه بسبب ان ناتالي كانت عاجزة تماما عن السير في أي خطوة عملية كامرأة في ذلك العهد ، وكانت براءتها العلنية تعذبه أكثر من عجزه شخصيا عن السير في حل عملي . ويخلص فيكتور من هذا الموقف الى نظرة عميقة في الحياة ، نشعر أنه يصل اليها بسبب المعاناة الحقيقية .

وتعرض الرواية الأخرى حياة بطل نرجسي رومنتيكي هجر زوجته بعد اليوم الأول من الزواج دون معرفة الأسباب . ويجلب هذا التصرف على نفسه دمارا عاطفيا حيث يعيش Fleetwood نتيجة هذا التصرف في حيرة من أمره وعندما يحاول أن يصلح الأمر يكون قد فاته الأوان لأن Carinthia البريئة تكتسب خبرة من الحياة نتيجة القسوة والمقاساة .

بقي أن نذكر أن مردث كان في الأصل شاعرا واتجه الى الرواية لأن كتابة الشعر لم تكن لتؤمن له أي دخل مادي يذكر ورغم انشغال مردث بالرواية فقد ظل يكتب الشعر من حين الى آخر ، والى آخر أيام حياته ، وقد ظهرت أشعاره في مجلدين قامت بنشرهما مطبعة جامعة ييل قبل أعوام قليلة ، كذلك نشر مردث مقالة نقدية طويلة عام ١٨٧٨ تعالج

الكوميديا وتعتبر وثيقة هامة في تاريخ الكوميديا ، وفحواها أن الكوميديا قوة تبحث عن كل ما هو زائف في الانسان لتشعره به أولا ثم لتشفيه منه ثانيا ويعتقد مردث أنه اذا وصل الانسان الى درجة أن يضحك على ما في نفسه من زيف فإن هذا سيكون هو بداية الخلاص مما هو زائف . وفي معرض الحديث عن الكوميديا يقول إننا عندما نضحك على غيرنا ممن نحب فإن هذا لا يعني أننا نقلل محبتنا اليهم . وحاول مردث تطبيق هذا الأمر النظري في روايته التي تكاد تكون أشهر ما يعرف عنه وهي The Egoist وقد تجنبت ذكرها لأن الحديث عنها يكون مرتبطا بالحديث عن الكوميديا والذي لا داعي للحديث عنه هنا .

●●●

عندما توفي مردث عام ١٩٠٩ سارع ابنه وليم في الاعلان على صفحات الجرائد عن نيته بشأن جمع رسائل والده ونشرها لتصبح في متناول الجمهور وبعد حوالي ثلاثة أعوام ظهرت الرسائل في مجلدين وحازت على استقبال حار من المراجعين الذين أدلوا بتعليقاتهم في مختلف الصحف والمجلات ، وقد ذكر أحدهم في الملحق الأدبي لجريدة التايمز TLS أن الرسائل تعرف القارىء عن قرب بعقل يتمتع بقوة غير عادية لجمل القارىء يتساءل فيما اذا كان هنالك عقل آخر يتمتع بمثل هذه القوة في الأدب الانجليزي بجانب عقل شكسبير .

وفي الوقت نفسه وجهت الصحيفة نقدا الى عملية التحقيق ووصفتها بأنها ناقصة حيث إن وليم ضمن قسما من الجزء الأول حواشي مختلفة تفسر ما ورد في المتن ولكنه توقف عند ذلك الحد وجاء المتن في أغلبه بعد ذلك دون حواش وأبرزت الصحيفة نقدا آخر يتعلق بندرة الرسائل التي تتعلق بزواجه الأول الذي ما زالت تفاصيله تثير فضول المهتمين بأدب الكاتب وحياته (٢) .

ولا بد أن وليم أعطى نفسه الحرية في منع بعض الرسائل من الوصول الى الجمهور عن طريق النشر على الأقل وهو بلا شك لم ينشر جميع الرسائل التي وردت اليه ، وهو بذلك كان يحافظ على قدسية أسرار والده الشخصية سيما وأن مردث نفسه كان فكتوريا الى حد كبير فيما يتعلق بالأمور الشخصية ورغبته في إخفائها عن الجمهور ، ولا أعتقد أنه توقع في يوم من الأيام أن تنشر رسائله على الملأ

وعندما عرض عليه أحد الكتاب في ذروة شهرته مشروع إعداد سيرة لحياته رفض المشروع بدون تردد (٣) . كذلك لم يأذن لزوجة اللورد جوردن بنشر رسائله التي كتبها لها وهي شابة يانعة حتى بعد مضي ما يزيد عن الثلاثين عاما على كتابتها وأجابها أن تلك الرسائل وما شابهها يجب أن تظل بعيدة عن النشر والانتشار ومن الواضح أن مردث لم يكن يفكر

(٢) Meredith's letters The Times Literary Supplement, 10&17 October, P.58&60.

(٣) كذلك حاول أحد أصدقاء مردث بما فيهم اللورد موريل صديقه الناشر السير جيمز باري ، أثيره في هذا الأمر ، بكتابة سيرة حياة مردث ، غير أن السير جيمز رفض المشروع قائلا إن مردث نفسه عارض بشدة هذه الفكرة في حياته وكل ما كان يريده هو أن يعرفه الناس من خلال أعماله الفنية . وقد وردت هذه الملاحظة في كتاب :
Robert Esmonde Secourt, The life of George Meredith (London, 1929), P. vii.

في الشهرة على المدى البعيد ، ويكفي أن نعلم أنه كان يستخدم صفحات المخطوطات التي فرغ من نشرها لقافات يشعل بها التبغ ، كذلك تروي ابنته أنها رأته يعمل حريقة وقود نارها المخطوطات التي اعتقد أنها غير لازمة او صالحة للنشر ، اما المخطوطات المتبقية فقد وزع اغلبها على الأمة التي كانت تعتني به ، والجنائني الذي كان يعمل عنده في البستان .

كل هذا يجعلنا نعتقد أن مردث كتب رسائله بتلقائية بعيدة عن التحسب والتخوف وما وصلنا منها كان في تقدير مردث أنه سيظل طي الكتمان ، أي أنه لم يكتب رسائله بمنظور يشبه منظور هنري جيمز Henry James الذي كان يكتب وهو يعلم أن الرسائل ستكون سجلا أدبيا للخلف ، وهذا ما جعله يكتب باستمرار وهو لا بد أنه كان على وعي بهذا ، فقد كتب مثلا ما يقرب من خمسمائة رسالة الى Edmund Gosse لوحده .

وفي عام ١٩٧٠ طلعت علينا مطبعة جامعة اكسفورد بثلاث مجلدات حوت بين صفحاتها حوالي الفي رسالة ، علاوة على السبعمائة والسبع والثمانين رسالة التي ظهرت في المجلدين السابقين . وقام بجمع وتحقيق الرسائل الأستاذ كلاين C. L. Cline وقضى باعترافه زهاء ربع قرن في هذه المهمة ، وجاء المتن هذه المرة ومن حوله الحواشي المفسرة والمرشدة أكثر دقة وانضباطا ، وقد عاب كلاين على وليم أنه لم يقم بمهمته على الوجه الأكمل واتهمه مثلا انه لم يرد بعض الرسائل التي وصلت اليه لنقلها ومن ثم نشرها كما وعد ، ومثل تلك الرسائل رسائل صديقه الحميم John Morley وخلال تلك الفترة التي قضاها في جمع الرسائل لم تقع في يد كلاين رسالة واحدة أصلية من مورلي حتى يستطيع - مثلا - مقارنتها بالرسائل المنشورة مما أدى إلى نشرها في المجموعة الجديدة كما هي (٤) وقد بالغ كلاين في حنقه على وليم وادعى أنه استعمل اسم مورلي ، صديق والده في الاعلان عن الاستعداد لنشر الرسائل كغطاء للحصول على الرسائل دون أن يدرك أن مورلي كان أحد الأوصياء الثلاثة الموكلين في شؤون وتركة مردث (٥) . كذلك ادعى أن القصور الذي بدا في جمع الرسائل ونشرها كان مرده الى أن وليم كان منفصلا عن زوجته وكان يقيم أغلب الوقت في منزله خارج لندن .

غير أن الرسائل التي كتبها وليم في العشرينيات تدل دلالة واضحة على اهتمامه برسائل والده وقد كان في نيته أن يجمع ما تبقى من رسائل والده ويخرج بطبعة جديدة ، ومن النظرة الأولى الى تلك الرسائل يمكن أن نستدل أن وليم كان جادا في الأمر وعلى وعي تام بالمسؤولية وانه لم يكن البتة مستهترا بالأمر(٦) .

ويبدو أنه غاب عن بال كلاين نفسه أن عمل أي محقق وجامع يظل ناقصا مهما حاول صاحبه الوصول الى درجة الرضا او الكمال ، مثلا هذه مقدمة كلاين لعمل أنفق فيه زهاء عقدين من الزمن تجيء خالية من أي اشارة الى القيمة

---

(٤) أنظر مقدمة الرسائل : C.L.Cline (ed.) The letters of George Meredith 3vols (London,1970), pp. xxix - xxxv.
وقد كتب كلاين عن نفس الموضوع قبل وبعد ظهور الرسائل ، وفي أكثر من مناسبة معاتبا ومبالغا في هذه المشكلة !

(٥) John Morley, Recollections, vol.I, (London, 1917) p.36.

(٦) يدلل على نية وليم الحسنة واهتمامه الجاد نحو رسائل والده رسائله الكثيرة ونسخه من الرسائل المطبوعة التي ضمنها اشياء كثيرة زيادة على ما جاء في المجلدين والمحفوظتين في مكتبة جامعة اكسفورد .

الأدبية التي يمكن أن تضيفها الرسائل وتكتفي بتمجيد عملية الجمع والتحقيق نفسها حتى أن العملية تتحول الى قصة شيقة في حد ذاتها ويؤكد ذلك أن كلاين كرر هذا التمجيد في مواقع كثيرة تمتد من الخمسينيات الى نهاية السبعينيات .

كذلك غفل كلاين عن الاعتراف بجهد أكثر من اهتم بدراسة وتحقيق مردث واسمه Maurice Buxton Forman وقد قام فورمان في العشرينيات بنشر مجلدين من البيليوجرافيا عن مردث كان لهما الفضل في تدوين المصادر الأولية والثانوية التي تتعلق بأعمال مردث ، ولولاهما لاختفت وربما الى الأبد معلومات قيمة عن مردث ومازال المجلدان مرجعين هامين عن مردث ، هذا بالاضافة الى كتاب نشره فورمان وجمع فيه مقالات تقديرية كتبت عن مردث ، أضف الى ذلك بعض الرسائل التي نشرها في ملازم محدودة الانتشار ، وقد حاول كلاين أن يتخطى فورمان عن عمد لاعتقاده أنه ابن موريس Harry الذي كان شريكا للبيليوجراف الشهير Wise والذي برع في تزوير عدد الملازم التي كان ينشرها بين الحين والآخر في بداية هذا القرن . وقد تصادف أن حصلت على بعض ما كان قد جمعه فورمان والذي تركه لابنته التي بعثت به الى أكبر مزاد في بريطانيا واسمه Sotheby[٧] . وفي حوزتي مجلدا الرسائل مع أوراق كثيرة مختلفة كان فورمان قد وضعها بداخل المجلدين . ومن الملاحظ أن فورمان قابل كل رسالة مطبوعة مع الأصل الذي جهد في الحصول عليه من مصادر مختلفة والذي كان قد انتهى الى مكتبات مختلفة في بريطانيا وأمريكا ومن الواضح أن فورمان كان ينوي إصدار طبعة جديدة للرسائل ، ولو قدر لها أن تخرج الى حيز الوجود لجاءت عملا جادا متميزا بالدقة والاتزان . ومن الطريف أن أغلب الرسائل التي جمعها كلاين وأضاع وقتا طويلا في الحصول عليها كانت موجودة عند فورمان ، إما منسوخة بخط يده أو مطبوعة على الآلة الكاتبة ، ولكنها لسبب أو لآخر بقيت محفوظة في مكتبة فورمان بعد أن قرر الانقطاع عن عالم البحث في أواخر الثلاثينيات من هذا القرن . وقد أغراني الحصول على ما حصلت عليه من أوراق فورمان على تجهيز مختار لرسائل مردث نواته العمل الذي قام به فورمان ، ولكني أضفت اليه في السنوات الماضية شيئا من جهدي الشخصي بعد أن وصلت الى كل ما يمكن الوصول اليه من أوراق ورسائل مردث . . . ويضم المختار بعض الرسائل التي لم تظهر في المجموعة التي نشرها كلاين ورسائل أخرى ظهرت ، ولكنها لم تدقق لعدم تمكن كلاين من الحصول على أصولها ، وآمل ان تنشر هذه الرسائل في المستقبل القريب حيث إنها الآن جاهزة ومعدة للنشر .

ولا يعاب على محقق أن تكون مجموعة رسائله غير حاوية لبعض الرسائل أو أن تكون بعض الرسائل غير مقارنة مع النص الأصلي ، حيث إن الأمر في أحيان كثيرة يخضع لعامل الصدفة . ولكن النقد الذي يمكن أن يوجه الى كلاين هو أنه لم يحاول إبراز القيمة الأدبية لبعض الرسائل ، فهذه مقدمة مثلا تبجل مردث الأديب ولكن دون أية اشارة محددة ومفيدة للنواحي الأدبية ، كذلك الحواشي لم تتعرض لغير حوادث السيرة الأدبية ، أي أن كلاين عامل الرسائل معاملة تكاد تكون متساوية من حيث أهميتها . وربما هذا هو الذي جعل الاستاذ Christopher Cricks يقلل من قيمة الجهد الذي بذله كلاين عندما راجع الرسائل المنشورة على صفحات جريدة التايمز في ملحق السبت عام ١٩٧٠ بعيد نشرها . ولا أقصد من هذا أن يتحول كلاين من جامع ومحقق الى ناقد ومحلل ولكني أعني بشكل خاص أن ينوه على الأقل الى ما في بعض الرسائل من قيمة أدبية تتميز على غيرها من الرسائل التي كتبت بقصد التفاهم على عمل أو أمر ما .

(٧) Sotheby's Catalogue (April 10, 1972), no 213.

ومن المعروف أن رسائل الأديب تختلف عن رسائل غيره من عامة الناس من حيث ارتباطها غير المباشر بأدبه وهذه هي القيمة الحقيقية التي تظل محتفظة بها . ولو كانت رسائل الأديب مهمة في حد ذاتها لتساوت في قيمتها مع أية رسائل أخرى ، أو لربما كانت قيمتها أقل . فهنالك من غير الأدباء من يكتب رسائل تكون شيقة أكثر من رسائل الأدباء . . . ويمكن أن يكون هذا هو السبب الذي يجعل بعض المحققين يشركون من لديهم الخبرة والتخصص في الناحية الأدبية وذلك ليتحقق التوازن المطلوب وليظل كاتب الرسائل في نظر القارىء أديبا قبل كل شيء .

●●●

وفيما يلي عرض موجز لمختارات من رسائل مردث كتبها في ظروف معينة ولها أهمية خاصة في حياته سواء ما ارتبط منها بالحياة الشخصية أو بالنشاط الأدبي[٨] .

هذه مثلا مراسلات مردث مع R.H.Horne الكاتب الذي كان يعرف بنشاطاته الأدبية المتنوعة دون التخصص في نوع أدبي محدد وكان على صلة بالمجلات والصحف الأدبية وهذه رسالة من أوائل الرسائل التي أمكن الحصول عليها والتي نشرها كلاين في مجموعته ولكنها كانت في متناول فورمان وقد كتبها مردث في بداية حياته الأدبية في الثامن من مارس ١٨٤٩ .

سيدي ،

« أنت شاعر وناقد ومن خلال بعض كتاباتك تبين لي ما تكنه من عاطفة للشعراء الناشئين . ولما كانت هذه حقيقة نادرة بين رجال الأدب فقد أعطيت نفسي الحرية في الكتابة اليك بدون استئذان .

وأود أن أضع بين يديك بعض القصائد التي نظمتها لتعطيني رأيك (الذي أستطيع أن أثق به) في قيمتها أو بشكل خاص فيما أمتلك من قوة شعرية .

واذا كان هذا الطلب سيأخذ كثيرا من وقتك الثمين (الذي سعدت بالتعرف على ثماره) فانني طبعا سأكون قانعا ومتفهما للوضع أما اذا كان في مقدورك أن تساعدني بنصيحتك فانني سأكون مدينا لك بالشيء الكثير وشاكرا لفضلك » (I, ١ - ٢)

وفي رسالة أخرى كتبها اليه بعد ذلك بحوالي شهر أخبره فيها أنه كان سعيدا عندما وجد طلبه الذي أوصاه به وهو بعض أشعار جوته بالألمانية وشكره على ما أسداه من نصائح حول كتابة الشعر . وبعد ذلك بعام تقريبا أرسل له رسالة على شكل قصيدة مرفقة مع قصيدة طويلة كتبها مردث نفسه ونشرها في أول مجموعة شعرية له عام ١٩٥١ . وقد كان لهورن الفضل في تقديم مردث الى المجلة التي كان يحررها تشارلز ديكنز وهي Houshold Words وقد أسهم مردث وزوجته ماري في تحريرها خلال السنوات الأولى من زواجهما في الخمسينيات .

---

(٨) المرجع الى رسائل مردث التي ترد في المتن هو المجلدات الثلاثة التي ترد في المتن هو المجلدات الثلاثة التي حققها وجمعها البروفسور كلاين والتي نشرتها جامعة اكسفورد عام ١٩٧٠م . والاشارة التي في المتن هي الرقم المجلد باللغة اللاتينية والصفحة بالأرقام العربية .

وبعد ما يقرب من عقدين من الزمن كتب مردث الى هورن رسالة يشكره فيها على مسرحيته التي عنوانها **Tragedy of Marlowe** والتي يقول مردث بأنه أجبر أصدقاءه على قراءتها ويأمل أن يكون ثمن ذلك الاجبار هو أن يفعلوا مع غيرهم ما فعله هو معهم ، ثم يعتذر له عن عدم رده على رسالة كان هورن قد بعث له بها من استراليا . ويضيف قائلا بأنه لا تتوفر لديه صورة شخصية يبعث بها اليه تلبية لطلبه ولا نسخة واحدة من كتبه ، ويعزو السبب في الحالة الأخيرة الى أن الجمهور لا يقبل عليها بالدرجة التي يجعلها تنشر في طبعات متجددة ثم يؤكد أنه لم يعد يهتم بإرضاء الجمهور عن طريق كتابة ما يسليه من أدب لا يرقى الى المستوى الجاد الذي يتعامل هو (مردث) معه وأنه قانع بإرضاء ذوقه ، حيث يجد في ذلك سعادة ما بعدها سعادة (I، ٤٥٥)

والذي يقرأ بين السطور يلاحظ أن الرسالة شبه رسمية وأنها تخلو حتى من اللهفة العادية التي ينتظر الصديق أن يستقبل بها صديقه بعد غياب ما يقرب من سبعة عشر عاما قضاها هورن في استراليا .

وفي الأول من أغسطس عام ١٨٧٥ يكتب هورن الى مردث فيقول :

« مضت على فراقنا سنوات عديدة دون أن يرى أحدنا الآخر كما تعودنا أن نلتقي في البيوت ونمرح في الغابات ومازال الزمن يزحف علينا أو ينسل من بيننا » .

ثم يطلب من مردث أن يزوره وبعد ذلك بأن عتاب مر من هورن يذكر فيه أن **Wyse** صديق الطرفين أخبره بصراحة عن حديث له علاقة بالفضيحة العائلية التي وجدها في انتظاره إثر عودته الى بريطانيا بعد طول غياب وأن الذي أدلى بالحديث (ويعني بذلك طبعا مردث نفسه) كان يجب أن يكون آخر شخص يقذف بمثل هذا الخبر عليه حتى لو كان الكذب (الفضيحة) حقيقة ثابتة ، ثم يستمر قائلا :

« أنا لم أفقد أبدا بالمثل السيء الذي ضربه ديكنز في استعراض أحزاني الشخصية ، لقد شعرت دائما أن من واجبي كتمانها »[٩]

وهذا هو رد مردث على هورن في الثالث من أغسطس عام ١٨٧٥ .

عزيزي هورن ،

« إنني سعيد أن أسمع منك مباشرة ، أولا دعني أكتب اليك بالنسبة لما جاء في رسالتك : لقد أخبرني وايز أنك تألمت بعض الشيء لأنني لم أقم بالاتصال بك عند عودتك . لقد تصادف أنني ذكرت خبرا يتعلق بك ، وأود أن أعلمك أنني لا أعير انتباها للفضائح العائلية وأنها لا تؤثر علي ولا أقول هذا تبريرا لما قلت ، فالذي ذكرته أنني تكلمت مع أناس أبدوا عدم رغبتهم في تجديد علاقتهم معك ربما بسبب تلك الفضيحة ولتعلم أن زمن الشهامة الفروسية في الدفاع عن المرأة من قبل العاطفيين المتطرفين قد ولى .

سأكون سعيدا بأن أقوم بزيارتك عندما أجد نفسي حرا من قيود العمل ، لكنني الآن غارق في العمل إلى أذني ، وأن قضاء ليلة في لندن يعني سلبي من صباح هادىء في البيت » .

---

(٩) Letters of Horne to George Meredith, Letters from George Meredith to Richard Hengist Horne (Privately printed , Cape Town, 1919) pp.5&6.

وبعد ذلك يعلق مردث تعليقا لا يخلو من القسوة لما فيه من الغمز واللمز الى الفرق بين منهج مردث في الكتابة ومنهج هورن فيقول :

« لو كنت كاتب نثر يباع على منصات القطارات أو مؤلف أشعار خفيفة لهان الأمر علي ، ولكني أكتب وأنا أدرس ما أكتب . . . »

ثم بعد أن يزوره ظهر يوم من الأيام ويخبره أنه من عشاق الجو الريفي وأنه لا يقوم بزيارات مجاملة لأصدقائه رغم أنه يودهم ويحبهم (I, ٥٠٥)

ولا يخفى على قارىء هذه المراسلات أن أسلوب الرسائل الأولى يختلف عن أسلوب الرسائل الأخيرة فالأولى ودية والأخرى أبعد من أن تكون كذلك ، ومن هنا يبرز التساؤل . وأول شيء يخطر على البال هو أن الزمن باعد بين الصديقين وجعل أحدهما ينظر الى الآخر على أنه غريب ، ولكن الذي يبطل هذا الافتراض هو أن مردث شخصيا لا يدع للزمن ذلك الأثر الذي يمكن أن يحوله عن صديقه كذلك لا يمكن أن يرضى مردث لنفسه أن يظهر بمظهر المتعالي على صديقه حتى لو تصادف وان الزمن جار على صديقه أو كرم عليه ، ومثل هذا السلوك (التكبر على الصديق الذي كان يقف بجانبه يوما ما على قدم المساواة) يعتبر معيبا ، على الأقل في التقاليد الانجليزية الاجتماعية وأكبر توضيح لمثل هذا الأمر يأتي من خلال تصور شخصية pip في رواية ديكنز « الآمال العظام » التي فيها يصور ضعف بب الذي يشار اليه عادة على أنه (Snob) في تحوله عن صديق صباه ، والافتراض الآخر هو أن يكون مردث قد تحول في ذوقه عن الصحفية التي تتميز بها كتابات هورن ، حيث كان هورن يكتب في أي موضوع كان ، وكتب فعلا في كل ما هب ودب ، ولكن هل هذا يوجد مبررا لمردث أن يهجر الكاتب الذي مد إليه يد العون عندما كان أحوج الناس إليها ؟

المهم أنه ليس من العسير على القارىء أن يتحسس اختلاف الموقف عند مردث . ماذا يفعل القارىء أو الباحث أو المحقق للرسائل في هذه الحالة من أجل أن يحاول ملء بعض الفراغ الذي نشأ في هوة تقرب من العشرين عاما ؟ في الحاشية يعلق كلاين على رسالة هورن لمردث من استراليا فيقول إن هورن أرسل لمردث من استراليا كتابا ورسالة وصورة شخصية معها في تشرين ثان عام ١٨٧١ « ولكني لا أعرف شيئا آخر » (I, ٥٠٥) . وفي ربع القرن الذي قضاه كلاين في البحث عن رسائل مردث لم يستطع أن يجد رسالة واحدة لمردث في عام ١٩٥٢ . ولو نظرنا الى جميع كتب السيرة التي كتبت عن مردث لوجدنا أن المعلومات عن حياته في الخمسينيات قليلة جدا ، فهي مثلا لا تذكر شيئا عن علاقة مردث بهورن أكثر مما ورد في الرسائل المذكورة أعلاه . وقد كانت في يوم من الأيام أي عند ظهور مجموعة الرسائل التي نشرها ابن مردث تقتصر على الرسائل التي كتبها مردث في الخمسينيات .

وأول من لاحظ هذا النقص هو فورمان حيث حصل من مكتبة والده (الذي كان أمينا على تركة هورن الأدبية) على المراسلات بين مردث وهورن في السبعينيات ، كذلك حصل فورمان على رسالة مطولة كتبتها زوجة هورن الى زوجها في نوفمبر ١٩٥٢ وبعث بها اليه في استراليا بعيد مغادرته انجلترا . جمع فورمان كل هذه الأوراق واستعملها في محاضرة

ألقاها في بريتوريا بجنوب افريقيا[١٠] . ولكن الرسالة نفسها لم تر النور بعد ذلك وهي الآن في حوزتي وستظهر قريبا في دراسة عن حياة مردث ستنشر في مجلة **Modern Language Review** .

كتبت الرسائل المذكورة كاثرين Catherine المعروفة بـ Kate زوجة هورن وفيها وصف مفصل لأزمة عائلية بين مردث وزوجته ماري شهدتها هي بنفسها عندما كانت تقضي عطلة نهاية الاسبوع مع الاثنين ، وتصف الرسالة مزاج ماري العصبي الحاد وموقف مردث المتسامح معها وبقدر ما تلاحظ من نقص في ماري تلاحظ مقابله كمالا في مردث ولكنها تخشى عليه أن تضيع شخصيته مع كل هذا التسامح .

ولسنا هنا بصدد التعليق على الرسالة وقيمتها في سيرة مردث الادبية ولكن يمكن القول إن الرسالة تلقي ضوءا على أن العلاقة بين عائلة مردث وعائلة هورن تطورت بعد المراسلات الأولى وأصبحت علاقة ودية ، تلك العلاقة التي لا ذكر لها فيما كتب عن مردث . كذلك تكشف الرسالة بصراحة أن عواطف كاثرين كانت مع مردث لا مع زوجته .

وعندما تأزمت العلاقة بين مردث وزوجته تصادف أن تأزمت العلاقة بين كاثرين وزوجها في عامي ١٨٥٧ و ١٨٥٨ . ويبدو أن سلوك هورن كان مشابها لسلوك ماري فالأول وقع في غرام فتاة ولدت مولودا غير شرعي وهو مازال زوجا لكاثرين والثانية وقعت في هوى ذلك الفنان وولدت له مولودا غير شرعي وهي مازالت زوجة لمردث . وفي الوقت الذي رفضت كاثرين أن تبقى زوجة لهورن رفض مردث أن تعود ماري الى بيته . ولابد أن مردث كان يرى في حالة كاثرين ما كانت تراه في حالته من جور الشريك على شريكه .

ومهما حاول مردث التزام الموضوعية والحياد ، فلن يحيد عن مواساته لكاثرين التي لابد وأنه كان يعتبرها شريكة مماثلة في الأحزان ، عانت مما عانى من تحول قلب الشريك عن شريكه . ولكن مردث كان يحافظ فعلا على الأسرار العائلية سواء أسراره الخاصة أو أسرار الآخرين ، ولهذا نجده يتكتم على أسراره مثلما يتكتم على أسرار الآخرين . وربما هذا هو السبب الذي جعله يتخفى وراء الأسلوب بما فيه من اشارة ورمز ولغز وقد آثر أن يثير حتى صديقه القديم عليه على أن يكشف له ظلمه لزوجته (كاثرين) أو حبه وعطفه عليها . وعندما كتب في رسالته الى هورن الآتي :

The chivalry of the defence of women by Sentimentalists has gone greater lengths

كان يهدف ان ينفي عن نفسه تهمة الوقوف بجانب كاثرين . وعلى أي حال فدافع الوقوف بجانبها كان أعقد من أن يكشف عنه في رسالة حتى لو أراد ذلك .

●●●

(١٠) لقد تفضلت ابنة فورمان المسز **B.Holmes** وأرسلت لي رسالة في ١٥ يونيو ١٩٢٢ تفيد أن والدها الذي توفي عام ١٩٣٢ كان قد التقى الشاعر في بداية العشرينات . وقد ضمنت الرسالة أيضا معلومات مفيدة أخرى عن جهود والدها فيما جمعه عن مردث .

وهذه المراسلات وما شابهها تعطينا مثلا على العلاقة بين حياة الكاتب الشخصية والمراسلات التي يمكن أن تكون حلقة وصل بين الأديب الشخص والأديب الفنان أو بين فن الأديب وبين ذاته . وقد تبدو العلاقة متشابكة يصعب علينا في بعض الأحيان النظر الى كل واحد منها على حدة . ويمكن القول إن الأديب الذي يشعر عند الشدة أن الرسائل ليست هي الوسيلة للتعبير عن الموقف ، هو الأديب الذي لا يطول عليه الوقت حتى يجد نفسه على أبواب مدخل جديد أرحب أفقا . ولو كانت الرسائل تتسع لايواء حدة الأزمة لما برزت الحاجة أصلا للتعبير الفني . وعندما كانت الأزمة العائلية على أشدها في ابريل عام ١٨٥٨ كتب مردث الى صديقه :

« كيف يمكن أن أسرّي عنك ياصديقي العزيز ، فلو بدأت الحديث الطويل ، ياصديق العمر ، لوجدت نفسي مندفعا الى التحدث عما أنا فيه ، وهو أمر يخلو من البهجة . . . »

ثم يختتم الرسالة بقوله :

« أرجو أن تكتب لي مرة أخرى اذا تصادف وأن حل بك المقام بعيدا في أي وقت . ثم أرجوك ألا تفاجأ بالنسبة لما في هذه الرسالة من ملل وسأوافيك في رسائلي القادمة بأخبار أكثر حيث إنني الآن في حالة مرض وإنهاك لكثرة العمل وغيظ شديد ولكنني أتحسن تدريجيا . وما عليك الا أن تعتمد على حسن النية لدي » (I، ٣٤ - ٣٥)

ولأسباب لا نستطيع أن نجزم في أمرها التزم مردث الصمت الذي يكاد يكون كاملا في أمر الأزمة العائلية . وقد حافظ على سرية هذا الأمر لدرجة ان Hardman عندما التقى به في سبتمبر ١٨٦١ ونشأت بينهما صداقة بعد ذلك كان يظن أنه أرمل ، وربما استمر في ظنه لولا أن مردث كتب له بعد وفاة ماري بقليل يقول :

« عندما ثُبت الى رشدي ووجدت نفسي في هذا العالم من جديد أيقنت أن شخصا ودعه الى الأبد حاملا معه اسمي . وقد أيقظ هذا في نفسي ذكريات الميلانخوليا التي يندر أن أدعها تتسرب الى نفسي ، ولحسن الحظ فان ابني العزيز لا يحس بالصدمة لأن ظروفه تختلف عن ظروفي » .

وإنني أكتب هذا لأجد ما يبرر صمتي في الكتابة اليك . . . » (I،١٠٨)

وعندما طلب مردث يد Marie Vulliamy طلب منه والدها ان يجيبه خطيا على عدة أسئلة منها سؤال يتعلق بطريقة انفصاله عن زوجته الأولى وهذه هي إجابة مردث :

« سوف يشرح لك مستر هاردمان الموضوع . أما الانفصال فقد كان من صنعها ، ولولا أمر طفلي لما تأسفت على هذا الانفصال . ولم يكن الانفصال رسميا ، ولم أعتبره نهائيا الا عندما توفرت لدي المعرفة التي جعلتني أرى ضرورة اعتباره هكذا . »(١١)

(١١) C.L.Cline, "The Betrothal of George Meredith to Marie Vulliamy" Nineteenth — Century Fiction, xvi (1961), 237.

ويبدو أن مردث شعر أن خيبة الأمل في الحب أو في الصداقة تكون من الحدة بمكان ما يجعل التعبير عنها أمرا عسيرا . ولا بد من كسر حدتها أولا حتى يتم التعبير عنها . وهذا لا يتسنى الا بمحاولة انفصال بين صاحب التجربة والفنان . وعندما أصبح مردث الشخص يقف على بعد نسبي من مردث الفنان ظهرت روايته الأولى وقصيدته الثانية . ولكن الجمهور لا يدع الأديب يستمتع بصمته مدى الدهر فعندما تظهر عواطفه الشخصية وهي مغلفة بفنه يبدأ الاستفزاز يلاحق الأديب من أجل الافصاح عن مكنون مشاعره في أدبه ويستسلم الأديب خصوصا عندما يجد القاريء أو الناقد أو المراجع (reviewer) أومن له علاقة ما بعمله الأدبي قد أساء فهمه أو عرقل سبيل انتشار عمله بطريقة أو بأخرى . ويمكن كذلك أن يكتب الأديب رسالة حول موضوع ادبه تحسبا من التجني على مضمونه او أسلوبه أو طريقة عرض غرضه . وهذه أمثلة على ذلك .

عندما ظهرت رواية مردث الأولى **The Ordal of Richard Feverell** استقبلها المراجعون بشيء من السخط لأنها تعرض موضوعا مؤلما في التربية كذلك اتهم مردث من قبل بعض المراجعين أن الرواية تعمل على إفساد خلق الجيل الناشيء وخصوصا من الفتيات والاشارة هنا الى قصة الغرام بين ريتشارد الذي يحاول والده أن يحيطه بجميع أنواع الرعاية كي لا يختلط بالجنس الآخر قبل سن معينة وماكان من ريتشارد الا أن وقع في غرام ابنة مزارع مجاور وبذلك يكون قد تخطى كل قيود الرعاية قبل الأوان وتزوجها بعيدا عن بيت أبيه ورغم معارضة كل من حوله . ونتيجة للمراجعات المعارضة أوقف Mudie (صاحب المكتبة المتنقلة التي كانت تتحكم في انتشار الكتب في ذلك الوقت) التزامه الذي كان قد التزم به من قبل بشأن شراء خمسمائة نسخة من الكتاب وتوزيعها على المكتبات . وقد غضب مردث كثيرا لأن ميودي أخل بالتزامه وكتب مردث عام ١٨٥٧ الى Samuel Lucas المحرر الأدبي لجريدة التايمز ورئيس تحرير صحيفة **Once a Week** التي كان مردث من بين المسهمين في تحريرها يقول :

« أما بالنسبة الى الرواية فيا للويل ! يبدو أنني أغضبت ميودي وجمهور الأمهات ، فهو الآن لن يجرؤ أن يعلن عني في كتالوج مكتبه وذلك بسبب المخالفات الأخلاقية التي أصورها . ياله من عصر مشين . إنني أتوقع بركانا جارفا يتبع ميودي الذي هو مترنخ **Metternich** وفي الوقت نفسه أود ان أخبرك أن ذكري اصبح محرما في جميع الصالونات المرموقة .

وعندما أعدت قراءة بعض أجزاء الرواية شعرت أنها مملة وضعيفة وبدأت أمزقها بأصابعي . ومع كل هذا فإن الهدف الرئيسي للكتاب يظل قائما على حاله ومن المؤكد أن أحدا من المراجعين لم يدرك كنهه حيث إنني بكل تأكيد أحطته بالغموض فنظام التربية الخاص (الذي ابتدعه الوالد لتربية ابنه) نجح فقط من خلال الصدفة الحسنة التي ساعدت الابن على أن يجد مثل هذه الفتاة الرائعة . ويظل حب ريتشارد الخالص لهذه الفتاة نجاحا الى أن يهدم الأب بنيان النظام الذي أقامه هو بنفسه . فالأمل الذي بني عليه النظام ، كما ترى ، هو كره الأب لزوجته لا حبه لابنه وهكذا يحمل النظام في داخله جذور الفناء ، والعظة من ذلك انه لا يمكن لمثل هذا النظام ان ينجح في اصلاح الطبيعة البشرية الا اذا تصوره صاحبه في الأصل بعيدا عن العاطفة الشخصية . فالنظام هو

طريقة ابتدعها Sir Austin الاب من أجل أن يشبع انتقامه من زوجته . ورغم كل هذا فالكتاب يحتاج الى قراءة ثانية لو أراد القارىء أن يتبين الغرض منه ، وقد أخطأت في أنني جعلت الكتاب مملا الى درجة أنه لا يشجع على قراءة أخرى ، على الأقل بين نقاد الصحافة الأفاضل .... » (آو٤١)

وعلى أثر هذه الرسالة كتب لوكاس مراجعة مطولة في صالح الرواية ومبنية على ما ورد في الرسالة ولكن القارىء المتفحص للمراجعة يدرك أن قدرة لوكاس الأدبية والصحفية لم تنجح في إزالة الابهام الذي أدى الى سوء فهم القصد من وراء نظام التربية في الرواية . ويرجع السبب الى أن الرسالة نفسها لم تزد الامر توضيحا فمثلا كيف يكون النظام العقلاني ناجحا من خلال الخط اللاعقلاني ؟ ومع أن مردث أشار الى أن الرواية تتمركز حول الواقع الاصلي من وراء النظام الا أن قراءة الرواية تتعدى ذلك بكثير ، ومع هذا تظل الرغبة في توضيح ما ساور فهمه بارزة عند الأديب حتى لو كان الأديب على يقين أن رسالته ستنتهي الى ما انتهت اليه روايته .

وحول روايته The Abventures of Harry Richmond التي تشبه في إطارها الخارجي الرواية الأولى من حيث إنها تصور تاريخ حياة أب وابنه ، كتب مردث الى صديقه Augustus Jessopp قائلا :-

« تهدف الرواية الى عرض الحياة الداخلية كما تكشفها عقول الشخصيات في فترات مختلفة من حياتها وهي على درجة عالية من النشاط والحيوية . وهي تعرض نظرة شبه تأملية لتلك الشخصيات وترقب العالم الخالي ومصيره . أما بالنسبة للوعظ المقدس فإني أتركه لاساطين اللاهوت ، فنظرتهم الثاقبة يتمكنون من التحدث عن الموضوع والاسهاب فيه . وأستطيع القول إن الرواية لن تستقبل استقبالا محمودا لكني أعرف سبيل وأقوم بواجبي . وإن بقيت في فقر دائم ، فإني آمل أن تنفع جيوبي في الوقت المناسب .... » (آ١٥١)

وقد هدف مردث من هذه الرسالة أن يبين لصديقه أن حوادث الرواية ما هي الا خلفية ، القصد منها أن تكشف عن حياة الشخصيات الداخلية وألا تكون هدفا في حد ذاتها . وما كانت من المراجعات الا أن أشادت بالكتاب لما فيه من حوادث شيقة ومثيرة وأغلبها علق على شخصية الأب المغامرة والكوميدية وكأنها ضرب من الخيال . واستمر الموقف من روايات مردث على هذه الحال في الرواية التي تلت وهي Beauchamp,s Career وقد حاول مردث بنفس الطريقة أن يبين في رسالته أن شخصية البطل لا تقبل أن تخضع لأمر صانعها ، لأنها شخصية مستقلة وتتصرف بمحض من مكونات شخصيتها . ولكونها شخصية مثالية فنتائج الحياة العملية يجب ألا تكون الحكم القاطع على الشخصيات . ولكن المراجعات قامت بالتركيز على فشل البطل في الانتخابات وقوته من خلال هذه النتيجة .

●●●

ولقد كان مردث عصريا في نظرته الى فن الرواية حيث اعتقد أن الصورة الروائية هي ما ترسمه الشخصية لا ما يرويه الحدث وقد سبق جيمز في نظرته الى التلاحم بين الحدث والشخصية . ولم تكن لدى مردث القدرة على تضمين الرواية

حبكة محكمة وحوادث مثيرة بجانب الشخصية كما فعل ديكنز وجورج اليوت كتنازل للجمهور الكريم ، لهذا السبب ظلت رسائله حول الموضوع تدور في فراغ ولا تؤدي الرسالة النقدية المطلوبة . ولكنها ظلت شاهدا للقارىء الحديث ينتفع منها اكثر من قارىء مردث المعاصر .

ومن الجدير بالذكر أن مردث كان على وعي مستمر أن الجمهور سيسيء فهم رواياته وأنه لن يستقبلها بحماس ، ومع ذلك فقد واصل كتابة الرسائل التوضيحية . هذه رسالته . الى R.L.Stevenson عن أشهر رواية من رواياته وهي The Egoist كتبها في ابريل ١٨٧٩ :

لقد فرغت من روايتي هذه قبل شهرين من الزمان ولكن Kegan Paul لن ينشرها قبل أكتوبر . ولا أعتقد أنك ستحبها وأشك أنها ستكون مقبولة من الذين يقبلون على عملي ويهتمون به ، ولهذا السبب وبعد أن بذلت قصارى جهدي في كتابتها فإني لن أكون في عجلة من أمري لرؤيتها مطبوعة . وهي كوميديا تصنعي فقط فيها ، ولهذا فمن غير المحتمل ان تسترعي انتباه الجمهور أو الأصدقاء . هذا وقد أتممت ما يقرب من الربع من رواية The Amazing Marriage والتي أعد أنها ستعجبك أكثر . » (II ٥٦٩) .

وكتب لصديق آخر حول نفس الرواية بعد ما يقرب من شهر ونصف : « لقد أتممت بسرعة رواية من ثلاث مجلدات وتعتمد على محاكمة العقل ولا شيء فيها يثير الخيال ولهذا كنت تواقا الى أن أفرغ منها فور تصورها » (II و ٥٧٣) .

ويمكن للناقد أن يستخلص من رسائل مردث آراء نقدية كان له السبق في الوصول اليها ورغم مخالفتها لذوق العصر الا أنها عاشت الى عصرنا الحاضر لتأخذ مكانة رفيعة في النقد الحديث وربما كان هذا هو مصدر الخلاف بين مردث وجمهور عصره . وقد قال لي شخصيا أحد معجبيه المحدثين وهو E.M.Forster الذي تعلم من مردث الشيء الكثير في فنه الروائي أن مشكلة مردث تكمن في أنه كان تقدميا بالنسبة لعصره وأنه ولد مبكرا بالنسبة للعصر الفيكتوري[١٢] . وفي رسالة الى Bainton في سبتمبر ١٨٨٧ كتب مردث يقول :

أنا لا أصنع حبكة ولو تصادف ان شخصيات رواياتي وجدوا أنفسهم مغلقين في حبكة عند بداية الرواية أو في مرحلة تصوري لها فإنه سرعان ما تبدأ ملامح هذه الحبكة تختفي . » (II, ٨٨٨)

هذا ما سارت عليه Virginia Woolf وليس من المستغرب ان تجد هذه الكاتبة في روايات مردث نموذجا صالحا تقتدي به . وعندما قرأت روايات مردث ، ربما في مكتبة والدها Leslie Stephen الذي كان يدخرها لتثقيف أبنائه وبناته أعجبت بها وكتبت عن مردث ما كتبته من نقد ميزته فيه عن معاصريه بعصرية متقدمة .

---

(١٢) For details see: "Forster on Meredith", The Review of English Studies, xxiv (1973), 185—91.
وهي مقالة قصيرة تناقش فيها الموضوع بشيء من التفصيل .

ولما كان القرن التاسع عشر يفتقد الى منصة يعبر الكاتب من خلالها عن آرائه النقدية فقد جاءت الرسائل لتملأ هذا الفراغ . وبالنسبة لمردث فقد كانت أكثر أهمية من غيرها في هذا المجال لأن مردث بطبيعة الحال كان لا يجيد أن يكتب مقدمات نقدية لرواياته كما كان يفعل معاصروه ولذلك فقد كانت الرسائل هي المتنفس الوحيد وخصوصا في المرحلة الأولى والوسطى من تاريخ حياته الأدبية (وقد اعتمد مردث في بعض رواياته بعد رواية Beauchamp's Career على تضمين بعض الآراء النقدية في الرواية نفسها وهو تقليد اتبعه بعض الروائيين أمثال جورج اليوت وغيرها) ومن هنا اصبحت الرسائل المرآة التي يرى الكاتب نفسه فيها . كتب مردث مثلا الى لوكاس عندما كانت روايته Evan Harrington تنشر في مسلسلات اسبوعية :

« إن هذه الرغبة اللعينة التي تأسرني بالنسبة لعرض مسببات الأمور هي العائق الدائم في حرية الحركة في الرواية . »(I, ٥٧)

وكان مردث يدرك جيدا أن رغبته أصيلة من الناحية الفنية ، وأنه ثار ضدها لأنها لا توافق هوى الجمهور الذي كان آنذاك يتعطش الى الحوادث الكثيرة التي تدفع بتواليها الحركة الروائية الى الأمام . وعندما حاول أن يكبح جماح هذه الرغبة وكتب Emilia in England و Vittoria وضمن الروايتين حركة روائية ظل أسلوب مردث هو المسيطر وكان الحركة الروائية لم تشفع له بالنسبة لأقبال الجمهور على رواياته .

وفيما بعد تطور العائق الدائم في حرية الحركة وأصبح يتمثل في عرض العقل الباطني للشخصية وأكثر ما يظهر هذا في روايته One of Our Conquerors حيث تقع حوادث اثني عشر فصلا في يومين فقط ولا يتحرك العمل الروائي من مكانه فوق لندن بردج الا بعد عدد من الصفحات .

ومن أهم القضايا النقدية التي كتب فيها مردث والتي كانت تشغل فكر معاصريه من الكتاب هي قضية الواقعية . والرسالة التالية توضح فكر مردث النقدي الذي تميز عن معاصريه بالنظرة المستقبلية :

« لا يوجد تباين حقيقي بين الواقعية والمثالية . إحداهما تكمل الأخرى فالواقعية هي الأساس عند البداية في الكتابة . ذلك الأساس الذي يتضمن الدراسة والملاحظة ووضع القوى الفنية موضع المحك . وينبغي على الكتاب الناشئين أن يكونوا واقعيين ، فهذا يساعدهم على الأقل في إنجاز عمل يرتكز على قاعدة صلبة . . . . أما الكاتب العبقري فعليه أن يستخدم وسائل المثالية لأنه يستطيع أن يجمع أطراف الصورة الكبيرة للواقع دون أن يتركها مجسمة فيه خاضعة للايحاء الحسي . والمثالية هي جو تنتقل تأثيراته إلينا من خلال مجموعة من الايحاءات التي تحتفظ بإيحائها عندما تكون منفصلة عن القاعدة الأساسية للواقع . والكاتب الذي يفصل الواقعية عن المثالية تظل كتاباته ناقصة . والكتاب الذين أنحني اليها اجلالا (مثل شكسبير وجوته وموليير) هم في واقع الأمر واقعيون . فهم يقدمون لنا أرضية صلبة ، ولكنها أرضية محاطة بجو المثالية . » (I, ١٦٠ - ١٦١).

وومسائل مردث مليئة بالآراء النقدية التي يمكن أن نقربها بآراء النقاد المحدثين أمثال باوند واليوت وريتشاردز

وغيرهم ، لنرى كيف أن مردث كان يشق طريق النقد الحديث وكيف كان يدفع الثمن بسبب جدة فكره وأصالة أسلوبه .

●●●

ويمكن القول إن المراسلات عند مردث كانت حاجة عاطفية ملحة أكثر منها ضرورة للتوصيل ، والسبب في ذلك يرجع الى أنه قضى ما يقرب من نصف قرن منكبا على كتابة الرواية والشعر وهو يشعر أن الجمهور كان يعرض عنه لا لسبب إلا لأنه كان مجددا غير تقليدي ، وربما كان مردث نفسه مبالغا في هذا الشعور ولكنه عاش معه حتى آخر حياته وتكونت عنده مشاعر خيبة الأمل والضياع التي لا تقل في حدتها عن مشاعر الحب والاطمئنان . ومن خلال العديد من رسائله نجد أن مردث يومىء الى شعوره بعدم الانصاف . والذي يقرأ بين سطور بعض رسائله يلاحظ أنه كان تواقا لأن يجد من يحب ويستمع اليه ، ويستجيب الى صوته بأضعف وسيلة وهي الصمت والاستماع . وفي إحدى المرات كتب لمجلة محلية محدودة الانتشار رسائل تتعلق بموضوع تربية الأبناء في سن المراهقة ، وكان هو المرسل والمرسل اليه ونشرت الرسائل تحت أسماء مستعارة .

وفي خريف عام ١٨٨٦

أي بعد موت زوجته بقليل وجد مردث ضالته في هذا السبيل ، وجد من يبث اليها مشاعره بخيبة الأمل التي صحبته عبر السنين ، وهي فتاة في الرابعة والعشرين (وكان هو آنذاك في السابعة والخمسين) من عائلة كندية عريقة كانت تقيم في ذلك الحين في جنوب فرنسا واسمها Hilda DE Longueuil وتعرف عليها عندما كانت تزور بيت أحد أقربائها الذي كان يسكن في المنطقة المجاورة لبيت مردث وهو في نفس الوقت صديق لمردث واسمه Grant Allen . وعندما قابلها مردث لأول مرة وقع في غرامها وتأثر بمسحة الحزن الجميلة التي كانت تظهر عليها نتيجة تخلي حبيبها عنها آنذاك ، وكان يظهر عليها الخفر والحماس الساذج الذي كان يساعدها في أحيان كثيرة على التعبير عن نفسها بفكاهة وحيوية . ولم يخف على مردث ولا حتى على أصدقائه الذين كانت تقيم بينهم أنها كانت تبادله العاطفة وقد اعترفت هي نفسها لأقاربها بإعجابها الشديد بمردث ، وأخذ مردث يتردد على بيت أصدقائه أكثر من ذي قبل حتى يجد الفرصة لتجاذب أطراف الحديث معها .

وعندما رجعت الى فرنسا لم يجد مردث من وسيلة للتعبير عما في نفسه سوى المراسلة التي دامت قرابة عام كتب فيها مردث أرق رسائله وشعر أن الفرصة واته ليقل ما في نفسه ليس فقط من صبابة بل من أمور أخرى شغلته في عالم الأدب والحياة . وفي إحدى رسائله اقترح عليها أن تتعاون معه في التعليق والاجابة على رسائله حتى تنشر المراسلة في النهاية تحت عنوان « رسائل الى سيدة حول فن الرواية » ولكن المشروع لم يتحقق لأنه لم يكن فعلا هدفا رئيسيا عنده ولا رغبة ضرورية عندها .

ويبدو أن هيلدا أشعلت نار الهوى والشباب في مردث من جديد ورجعت به الى الوراء سنوات طويلة عندما كان يتغنى

يحب ماري آلن في Love in the Valley وفي إحدى المرات كتب لها رسالة هي قصيدة عنوانها « أشعار غيلدا تقرؤها عند الصباح والمساء » وتتكون من تسعة مقاطع ، وفيما يلي المقطعان الأولان :ـ

Can another Love be born
In heart that love has left outworn;
Appearing dead to sweet desire;
Its mouths of earth once mounts to fire?

Question first, if thou wouldst know,
This wilful love that wasted so;
And ask one heart that wildly went
To ashes, why the flames are spent

أما المقطع الأخير ففيه دعوة الى أن تتوجه الى حب فيه نبل بدلا من ذلك الحب الذي خاب أملها فيه (ويعني هنا حبيبها الذي هجرها والذي لا يعرف مردث من أمره شيئا)

The past is dust,thy heart is blood;
It bears thy fate upon its flood,
Set it on noblemess, and soon
A nobler love will crown thy noon.

(و ٨٥٣ـ ٥٤) II

وتبين أول رسالة بعث بها مردث اليها في ٢٨ نوفمبر ١٨٨٦ اهتمامه الشديد بتقديم مافي وسعه من ارشاد وتعليم من خلال التجربة العملية التي استوحى فلسفتها من تعليق بسيط عن الموت وصل اليه عن طريق أصدقائه :

« ان كلماتك الى جرانت الن فيما يتعلق بترحيبك بالنوم والموت تستحوذ علي وكأنها جزء من تاريخ حياتك ، وتكشف عن معاناة أو ضيق من المعاناة . ولكنها تبين لي أنك سائرة على درب الاستفسار مع رغبتك في الانعزال رغم أن الشوط الذي قطعته في الحياة ما زال قصيرا . وهذا يشير طبعا الى أنك لم تمتلكي بعد القدرة على اخضاع الحواس لتفهم ثابت في الحياة . ويتابنا جميعا مثل هذا التفكير عندما تبدو الحياة لنا محيرة لدرجة نميل عندها الى حب للنوم . ولن يكون باستطاعتنا الوصول الى هذا التفكير دون أن تكون لدينا القدرة عليه أصلا . أما اذا استطعنا الى ذلك سبيلا فاننا نتوصل الى تصور عالم من الطبيعة يمكن أن نهذبه متى شئنا ذلك العالم الذي يستطيع السير قدما بحرية وحبور فهو دائما في شغل شاغل وحياته هي في الفناء وراحته ما هي الا تجديد . ونتصور أيضا بكل تأكيد عالما من البشر تتحسن أحوالهم مع الزمن ولكن دون أن تتوافق رغباتهم أو قدراتهم ومن هنا تنشأ التعاسة .

وما زال أولئك الناس في وسط المعمعة العاطفية ويعني ذلك أن الحواس تظل ملتصقة بالفكر الذي أنتجته دون أن تدع السعادة تنطلق قبل ذلك . وعندما يتقدم بنا الزمن تدرك أنه لو تحرر الفكر من عواطفنا الشخصية فاننا نجد أنفسنا مع الطبيعة جنبا الى جنب مشاركين في نشاطها المبهج . وفي النظرة الى سير حياتها . . . . . اختطي في حياتك صورة واضحة للفهم . واعتقدي منذ البداية أن الحياة بهجة روحانية وهي شيء يتم بالمشاركة الا بالتملك .

أرجو المعذرة على هذا الوعظ الذي يبدو وكأنه درس يوم الأحد وان سمحت لي فاني سأكتب لك بين الحين والآخر وأعد ألا أثقل عليك كما فعلت هذه المرة . . . . وعندما تتوفر لدي التفاصيل فان كتاباتي ستكون حيوية . أما الآن فاني أميل الى التعميم » (II و ٨٤١)

ويبدأ رسالة أخرى لها في ٢٦ يناير ١٨٨٦ بقوله انه بدأ يشعر برهبة البيت الصيفي (الذي يأوي اليه عند الكتابة) ويظل ثقيل بسكن البيت بسبب رحيلها الى فرنسا :

« إنني أتبع سير رحلتك خطوة خطوة وساعة بساعة . . . . »

وفي نهاية الرسالة يعبر لها عن لهفة بالغة لتسلم رسالة منها قبل أن يغادر المكان الى St. Ives ليحضر ابنته التي كانت تقيم مع عائلة لزلي ستيفن . (II و ٨٤٤ ـ ٤٦) .

وفي رسالة أخرى (٣٠ ابريل ١٨٨٧) يتحدث الى أنسته العزيزة عن السياسة والأدب :

« تعني السياسة شغل العالم الشاغل ، ويمكن أن تصلح بعض السياسيين ولكنك لن تصلح المهنة نفسها . دعنا نتخيل ماذا سيحصل لو اسقطنا من اعتبارنا الحياة السياسية وتخلينا عن الفنون والآداب . عندها سنجد أنفسنا أمام اختيارين :

الراهب أحدهما وثانيهما الصياد ، ثم تصوري التحول الذي سيحدث فيما بعد . . » .

مع أن مردث وعد في رسالة سابقة ألا يثقل عليها الا أن هذه الرسالة لا تقل ثقلا عن سابقتها .

ويسر مردث عندما يعلم من رسالتها أنها أحبت قصائده التي أرسلها اليها . ويقول لها معقبا على قصائده . . . Ballads إن الالياذة وهي أعظم قصيدة وما هي الا (Ballaad) عظيمة . ثم يقول لها :

« ان الشعر القيم هو ما يتعانق فيه الفكر مع العاطفة كما هي الحال بين الرجل والمرأة . وفي هذه الحالة يلتحم أسمى ما في العقل مع أعمق ما في الطبيعة . . . ولهذا السبب فان الشعر أرفع مكانة من الفلسفة . . . . . » (II ٨٦١ ـ ٦٣) .

وفي رسالة أخرى يعرض مردث على هيلدا هموم الأزل عندما يشكو لها من المراجعين ويرسل لها مع الرسالة مراجعة لمجموعة أشعاره Ballads and poems of Tragic Life

« أرفق طيه نموذجا من ذلك النوع من الكتابة الذي أجلب دماره على نفسي من خلال ما أنشر ، وأنا لست من الناجحين عند المراجعين لأن رصيدي عند الجمهور قليل وأنا في الواقع لا أطالب بأي شيء منه ، كل هذا يدعو

أولئك المراجعين الى معاملتي بهذا الشكل من الظرف ، وأنا أعرف عندهم كبهلوان أو كصانع أشياء قديمة antics . وعندما أكتب فاني أختار التعبير الذي يبدو لخيالي مناسبا وهم يرفضون تعبيري لأنه غير تقليدي كذلك يكون تعبيري سلسا بالضرورة عند الأزمة العاطفية وهم يعترفون بهذا غير أنهم لا يسمحون لخيال الكاتب في المناسبات الأخرى أن يكون التعبير غير ذلك . وهكذا يستمر المراجعون في نسف كل كتاب جديد يظهر لي ولكنهم لا يساوون نقمتهم على الكتاب بكرهي شخصيا حيث أنهم يترددون في اظهار الأمر .

وفي الوقت نفسه نجد كل مجلد يفيق تدريجيا من الضربة القاصمة عندما يصبح تحت الطلب ويذكره القراء بشيء من الاحترام حتى ولو بعد حين فيعود ثانية الى الوجود . ولقد علمت أن المجلد الأول لأشعاري الذي ظهر عندما كنت كاتبا صغيرا يباع بمبلغ عشرة جنيهات . وكل كتبي يتضاعف ثمنها بعد حين ومع كل هذا فبعد أربعين عاما من العمل المخلص ما زلت أتلقى نفس الضربة . اني أزعجك بمزاجي الحاد هذا وبكل تأكيد سوف أجد منك كل تعاطف ، مع علمي أن فتاتي العزيزة تفكر في نفسها أنه من غير المستحيل ألا يكون لدى أولئك المراجعين ما يقولونه عن النقد رغم وجود فضولهم بجانب نقدهم .

وصدقيني أني لا أشكو الا سوء الخلق . أنا لا أنكر أخطائي وجميع الكتاب عندهم بعض الأخطاء . ويقع الظلم عندما يرى المراجعون ما هو فاضل فقط فيما يحبون وما هو ضعيف فيما يكرهون . أرجو المعذرة . فأنا لن أنشر كثيرا من الآن فصاعدا ، ولكن أن يلاحقني سوط المراجعين حتى النهاية فهذا متعب حتى لو من قبيل كونه مملا . لماذا أنشر أشعاري ؟ لست أدري حقا فأنا أتحمل أعباء البشر الغاية وملاحظات المراجعات السخيفة . لقد أرسلت لك نماذج شبه مختارة من أشعاري (II ، ٨٧٤ ـ ٧٣)

وهكذا نرى مردث يخصص رسالة كاملة تستأثر بظلم المراجعين له الذي لم يرافقه طيلة حياته . ولو أرادت هلداء العزيزة أن تحكم ، بموضوعية لا تخلو من القسوة أو لو استطاعت أن تكون صريحة مع مراسلها العزيز لوقفت بجانب المراجعين حتى لو اقتصر حكمها على أسلوب مردث عن المراسلات بينها وبينه

●●●

ولا شك أن أسلوب مردث في الكتابة هو المصدر الرئيسي لموقف المراجعين الذين لا بد وأن مردث بالغ في معاداتهم له . ويرفض مردث بالفعل ، كما يقول في رسالته ، التعبير التقليدي جملة وتفصيلا ، ولما كانت ثقافة مردث هي في أغلبها من تحصيله الخاص لا حصيلة دراسة أكاديمية أو تدرب مهني في الكتابة فقد شعر بحرية في استخدام اللغة ووجدها طيعة عند الاستعمال . كل هذا جعل مردث ينظر الى اللغة على أنها أداة لتعبير جديد كلما دعت الحاجة الى التعبير حتى لو كان مضمون التعبير فيها مألوفا . وكتابات مردث شعرا ونثرا مليئة بالصور الغريبة التي يشعر القارىء وكأنه يواجهها لأول مرة في حياته . وهذا ما يجعل أمر الأسلوب معقدا عند مردث لأن المرجع اليها لا هو في متناول المألوف ولا في متناول اليد بل هو من صنع مردث وخياله . ولقد كان محقا عندما قال عن نفسه في رسالته الى هورن إنه يكتب ويدرس في آن واحد . وكذلك كان صديقه محقا عندما سأله أمام مجموعة من الأصدقاء سؤالا تعجبيا وقال لماذا لا يكتب كما يتكلم وقد روي أنه يتكلم بطلاقة وسلاسة غير معهودتين .

وكثيرا ما علق المراجعون على لغة مردث أنها مردثية وأن اسلوبه مردثي أيضا ولو وجد مردث تشجيعا أكثر من جمهور القراء والمراجعين لوصل التعقيد عنده ما وصل عند جويس مثلا ، ولساهم في إغناء اللغة الانجليزية كما أغناها جويس ، تجد كثيرا في معاجم اللغة الانجليزية اشارات الى أن مردث أول من استعمل هذا التعبير أو ذاك الاصطلاح . ويمكن أن يخرج الدارس للغة مردث بقائمة طويلة من المصطلحات الغريبة التي لم يصطلح عليها من قبل . ويعتقد بعض نقاد مردث المحدثين أن خير دراسة لمردث هي ما يعالج أسلوبه سواء في شعره أو في رواياته .

ورغم أن مردث عاصر ديكنز الا أن أسلوبه لا يمت لأسلوب ديكنز بصلة ومع أنه أيضا كان يعلم أن جورج اليوت كانت تجذب الجمهور بشدة وكانت رواياتها تدر عليها من الربح المادي ما يساوي أضعافا مضاعفة مما تجلب روايات مردث اليه . وقد عبر عن هذا التفاوت بحسرة عندما كتب لصديقه Frederick Maxse في يونيو ١٨٦٢ وقال :

« لقد علمت أن جورج اليوت حصلت على مبلغ طائل من المال لقاء نشر روايتها Adam Bede (حصلت على ثمانية آلاف جنيه Pound أو أكثر ، مع الاحتفاظ بحق النشر الى مالا نهاية)

ما شاء الله تعالى . هل سيحصل شيء من هذا القبيل بالنسبة لي في المستقبل ؟ » (أ ـ ١٤٩) .

الا أن مردث لم يحاول تقليد أسلوبها . وهكذا ظل مردث نموذجا فريدا احتفظ بأسلوبه كمميز له بين كتاب عصره .

اذن لم تكن اللغة عند مردث توصيلا عاديا يستعمله كبقية الناس ، بل كانت أداة تخضع لتموجات العاطفة والفكر المعقدة . ومن أجل هذا السبب جاءت رسائله التي تختص بقضاء حاجة في العمل قصيرة ومقتضبة جدا وعند قراءتها تشعر كأنه كان يتعامل ببرقيات وقد كان الأستاذ Christopher Cricks غير محق عندما اقتبس بعض هذه الرسائل ليعمم حكما قاسيا على الرسائل بأكملها . حيث كان مردث يدخر اللغة الى مناسبات أخرى تبدو فيها محاكمات العقل أو مشاحنات العاطفة على أشدها .

لقد اعتقد مردث أنه عندما تحتد العاطفة وتتعمق وتنفصل عن الأهواء الشخصية (والانفصال دائما يكون نسبيا) كما ذكر في رسالته الى هيلدا ـ عند ذلك تجيء اللغة سهلة سلسة طيعة . ولكن هذا لا يتكرر كثيرا لا في حياة مردث ولا في كتاباته . وفي رسائله التي كتبها في بداية الستينيات الى Lady Duff Gordon ما يثبت ذلك لأنه كان فعلا يشعر أنها بعيدة المنال ورغم كل حبه لها الا أنه كان بعيدا في مطمعه عنها وكان ينظر اليها على أنها شيء جميل حقا يستحق التقدير والتعبير عنه بدون انفعال من النوع الذي يجعل العاطفة ملتصقة بصاحبها . ورغم أنها كانت تعيش مع أهلها على مقربة منه الا أنه كان يشعر أنها ستظل بعيدة عنه من ناحية عملية .

والمشهد الأول من روايته Harry Richmond هو قمة في السهل الممتنع لغويا ، ويعجب المرء عند قراءته لماذا لا

يستمر مردث على هذا الحال في الكتابة . وهو مشهد جميل حقا يصور النزاع الحاد على الطفل بين أبيه الذي جاء ليأخذه وجده الذي يريد أن يحتفظ به والطفل في خلفية الرجلين مصدر نزاع مشترك .

ويمكن أن نعفي مردث من اللوم اذا تذكرنا أن مثل هذه الحالات العاطفية لا تتوفر كثيرا ولا تدوم طويلا . ففي أغلب الأحيان تكون العاطفة حادة ولكنها لا تكون منفصلة عن صاحبها تماما كما يريد لها ليخف عنه عبء المعاناة فتظل المسألة معلقة دون أن يكون الأمر من اختيار صاحب الشأن . وهنا يصبح التركيب العاطفي أمرا معقدا ، يتطلب أسلوبا ولغة معقدين . ورسائل مردث الى هيلفا خير مثل على ذلك وخصوصا رسالته التي كتبها في ٢٦ ديسمبر ١٨٨٦ والتي تحتوي على صور يصعب فهمها وترجمتها . وروايته One of our Conguerors مثل بارز من كتاباته على هذا النوع من العاطفة . وقد كتب مردث كما ذكرنا سابقا روايته The Egoist بنظرة الفنان الحديث عندما جعل نصفه الفنان يسخر من نصفه الشخصي عن طريق ما يسمى في النقد بـ (aesthetic distance) . ولم يحقق مردث هذا الانجاز الفني الا بعد أن نجح في وضع حد بين الفنان المبدع والشخص الواقعي في الحياة .

وفي بعض الأحيان نجد أنه لا بد من الانفصال بين العاطفة وصاحبها لأمور تخرج عن ارادته . والأمثلة على ذلك علاقة مردث بزوجته الأولى ، وعلاقة الصداقة بين مردث وهورن الذي ذكر سابقا ، وعلاقة مردث بأعز أصدقائه John Morley عندما فترت العلاقة بينهما ردحا من الزمن . في مثل هذه الحالات يفضل مردث الا يعبر عن الموضوع مباشرة لأنه في نظره لا يحتمل المواجهة فمشاعر الصداقة والحب ليست من النوع الذي يستطيع المرء أن يتخلى عنها حتى لو طرأ عليها طارىء من الخارج وأوقف سيرها الى حين . في هذه الحالة كان مردث يفضل الصمت عن التعبير المباشر لو تحويل العاطفة الى فن في رواية أو في قصة قصيرة . وهذا ما فعله في روايته الأولى وفي مجموعة قصائده التي نشرت تحت عنوان Modern Love فرغم كل ما كان يعلم مردث مثلا عن فضول الجمهور بالنسبة لزواجه الأول وبالنسبة لموضوع Diana of the Crossways الا أن مردث آثر الصمت . ويمكن تعليل ذلك أن مردث كان لا يميل الى ما يميل اليه الجمهور وكتابهم من الحوادث المثيرة بما فيها من فضائح ومغامرات وهو ما يعرف تحت اسم sensational .

ولو أردنا مثلا أن ننظر الى رسائل مردث مقارنة مع رسائل معاصريه أمثال تشارلز ديكنز وجورج اليوت وثكري وغيرهم لوجدنا أن رسائل غيره تشترك في شيء واحد الا وهو وظيفتها التوضيحية ، فهي في أغلب الأحيان توضح أمرا له علاقة بالحبكة القصصية أو بصورة الشخصية أو بتفسير أهمية حدث من أحداث الرواية فات على القراء أو المراجعين قيمته الروائية . وبمعنى آخر تكون الرسائل بشكل عام اخبارية في أسلوب عرضها للموضوع . أما رسائل مردث فهي في الغالب ما تكون بشكل أو بآخر امتدادا لعمله الأدبي والذي يشكل هذا الامتداد هو الأسلوب الذي لا يتنازل عنه مردث عندما ينتقل من الرواية الى الرسالة . وفي الوقت نفسه فلا يوجد لدى مردث حبكة ولا حوادث قصصية مسرودة لأنه كان من أول المعارضين لهذا الوجه من الفن الروائي . ويمكن القول إن مردث كان يحاول تفسير ما كان يفوق فهم القارىء دون أن يدرك أن أسلوب المعالجة هو نفسه أساس المشكلة . ولهذا وجد مردث نفسه يدور في حلقة مفرغة بالنسبة للمراجعين حتى النهاية وكلما رد في رسائله على المراجعين ليفتح الباب بينه وبينهم وجد الباب يغلق عليه مرة أخرى . وربما هذا هو الذي جعل لمردث ترحيبا خاصا في فكرنا المعاصر .

شخصيات وآراء

شخصية البطل العربي في النثر اليوغسلافي

جمال الدين سيد

تمهيد :

انها بالفعل ـ لظاهرة تثير الاهتمام أن تقرأ رواية أو أقصوصة بقلم أديب يوغوسلافي جعل بطلها شخصا عربيا ، ولا شك في أنها ظاهرة ملفتة لأنظارنا ومثيرة لانتباهنا تستحق الدراسة والبحث . وكان أول من لفت النظر الى هذه الظاهرة هو الناقد اليوغسلافي والبحاثة يوفان سكرليتش[1] الذي لاحظ أن الأديب اليوغسلافي يعقوب إجنيا توفيتش كتب في الستينات من القرن التاسع عشر قصتين هما « منصور وجميلة » و « الدم من أجل عشيرتي » جعل أبطالها من الشخصيات العربية ، هذا فضلا عن أن هذا الأديب اليوغسلافي لم يخف ميله الشديد الى العرب . ويمكن القول ـ الآن بكل تأكيد ـ أن يعقوب إجنيا توفيتش لم يكن الوحيد في هذا المضمار ولم يكن الأخير كذلك ، فقد لوحظ أن العرب يقومون بمختلف الشخصيات والأدوار في قصص وروايات لأدباء آخرين وفي قرون متنوعة أخرى .

الا أن الناقد اليوغسلافي يوفان سكرليتش لم تكن لديه الامكانيات ولا بعد النظر ـ وربما الرغبة في المقام الأول ـ لأن يولي هذه الظاهرة اهتماما أكبر ويتعمق في بحثها ودراستها باستفاضة ، بل ان هذا الناقد نفسه هاجم بحدة هاتين القصتين من قصص إجنيا توفيتش بحيث انه ـ حسبما يبدو ـ أغلق الباب أمام أية محاولات تالية جادة لدراسة هذه الظاهرة عند الأدباء اليوغسلافيين الآخرين . وهكذا لم يقم أحد من النقاد أو الباحثين بأي شيء في سبيل دراسة هذه الظاهرة واستنباط النتائج الثابتة المؤكدة ، التي ستكون على جانب كبير من الأهمية والفائدة العلمية بالنسبة للدراسات والأبحاث في هذا المضمار ، وعلى الأخص بالنسبة لتاريخ الأدبين اليوغسلافي والعربي . وحتى قبيل هذه الدراسة التي بين أيدينا لم يحاول أحد القيام بدراسة وفحص الروايات والأقاصيص التي عن طريقها ـ

(١) يوفان سكرليتش ، « يعقوب اجناتوفيتش » ، بلغراد ١٩٢٢ .

فحسب ـ يمكن الحصول على انطباع شامل وكامل عن مقدار انتشار هذه الظاهرة في الأدب اليوغسلافي وعن كل الملابسات والظروف المحيطة بها ومن أسبابها ودوافعها وما إلى ذلك .

ولكي تكون الصورة أكثر وضوحا لا بد وأن ننوه هنا بأن هناك بعض الباحثين الذين بحثوا ظواهر مماثلة ، ومنهم البحاثة الروسي موريس بوتيلوف[2] الذي قام بمجهود لا بأس به ، وصل الأخص عن القصائد الملحمية الخاصة بالصراع مع البطل العربي . ولكن بوتيلوف لم يفعل أهم شيء لدراسة هذه الظاهرة وهو جمع القصائد الشعبية التي تظهر فيها شخصية البطل العربي ، وهو ما يعد شرطا أساسيا لاستخلاص النتائج المؤكدة .

كما أن هناك دراسة لأحد الباحثين الشبان الذي قام بالفعل بجمع القصائد الشعبية ودراستها [3] ولكنه كرر معظم ما ذكره بوتيلوف ولكن بشكل أكثر استفاضة وتفرعا ، الأمر الذي جعل النتائج تتوه وسط الزحام[4] .

وبناء على هاتين الدراستين فانه يمكننا أن نقول ان هناك رأيين يفسران هذه الظاهرة ـ أي ظهور شخصية العربي في الشعر الشعبي اليوغسلافي ، وهما رأيان متباينان . فأصحاب الرأي الأسطوري يرون في شخصية العربي جذورا للمعتقدات الغابرة . أما ممثلو الرأي التاريخي فيرجعون سبب ظهوره الى التاريخ القديم ووقائعه . واذا كان لي أن أبدي رأيا في هذا المضمار فاني أقول انه ينبغي تفسير ظهور العربي في الشعر الشعبي تفسيرا أسطوريا وكذا تاريخيا ، ولا يمكن فصلها عن بعضها ، بل ومن المستحيل تفسير هذه الظاهرة من جانب واحد فحسب لأن التفسير القائم على وجهة نظر واحدة سيقودنا ـ حتما ـ الى أخطاء وأوهام .

أسلوب البحث :

أما بحثنا هذا فسيتعرض لظهور شخصية البطل العربي في النثر الروائي باللغة الصربوكرواتية ، وهي اللغة السائدة في يوغسلافيا[*] . بيد أنه لا يمكن أن يكون هناك حديث عن هذه الظاهرة قبل أن نستعرض جميع الأعمال الروائية المنشورة ، والتي لها ارتباط بشخصية العربي ، ثم بعد ذلك ينبغي أن ندرس بعناية كل ما تجمع لدينا من مادة عن العرب وذلك عن طريق بحث وظائف ومهام وأدوار الشخصيات الرئيسية لهذه الأعمال الروائية وبحث موضوعاتها وأفكارها ، وكذلك القاء نظرة على زمن كتابتها وعلى مؤلفيها وعلى كل ما يتبع ذلك حتى نصل في النهاية الى نتائج مؤكدة قائمة على أسس ثابتة .

ونظرا لضخامة مجال وزمن البحث فقد كان من اللازم في بداية الأمر أن نحدد ونحصر الدراسة ونقصرها على فترة زمنية محددة حتى يسهل علينا جمع المادة الأساسية اللازمة من المجلات والصحف الأدبية والكتب الموجودة في متناول اليد ، وحتى يمكننا كذلك الخروج بنتائج تقوم على أسس صلبة متينة .

من أجل كل هذا تم اختيار النصف الثاني من القرن التاسع عشر كمجال للدراسة ، وبالتحديد الفترة الزمنية ابتداء من عام ١٨٥٠ وحتى عام ١٩٠٠ م . وقد

---

(٢) موريس بوتيلوف ، « القصائد الملحمية الروسية والسلافية الجنوبية » ، موسكو ١٩٧١ ، ص٤٤ ، ٩١ .

(٣) راتشو جوفيتش ، « العرب في الشعر الشعبي في المنطقة الناطقة باللغة الصربوكرواتية » ، بلغراد ١٩٧٧ .

(٤) ولي أسف شديد أن كثيرا في هذه الحقول من شكل الفكر العربي عن الشعر الشعبي اليوغسلافي وبالتالي عن الأدب اليوغسلافي بوجه عام . إن أغلب ما عرضه ابراز العرب في بعض أماكن بحثه التي تفترض فيه الأمانة والدقة العلمية ، بصورة غير صادقة . وأرجو من الله أن يوفق لي فرصة توضيح الثغرات الموجودة في بحثه هذا .

(*) يوجد في يوغسلافيا ثلاث لغات رئيسية هي : الصربوكرواتية ويتحدث بها سكان جمهوريات صربيا وكرواتيا والبوسنة والهرسك والجبل الأسود ، واللغة السلوفينية ويتحدث بها سكان جمهورية سلوفينيا ، واللغة المقدونية ويتحدث بها سكان جمهورية مقدونيا ، هذا علاوة على لغات ولهجات أخرى أقل أهمية .

اخترنا هذه الفترة بالذات لأنها مفعمة بالروح والمزاج الرومانسيين . ففي بداية القرن التاسع عشر ظهرت الحركات الأولى والأفكار الأولية للرومانسية ، الا أن قوتها لا تبرز إلا في العقد الرابع منه مع ظهور الحركة الايليرية والحركة السلافية القومية وظهور كبار الشعراء أمثال نجوش وبريشيرون وماجنو رانيتش وسرييرا دوفيتش . وستحدث - فيما بعد - بالتفصيل عن الرومانسية في يوغسلافيا لأننا نرى أن ظهور شخصية العربي مرتبط على نحو ما بظهور الرومانسية في يوغسلافيا .

ولكي يتم جمع المادة اللازمة لهذه الدراسة ، أي بعبارة أدق لكي نعثر على النصوص النثرية الروائية التي تظهر فيها شخصية العربي أو أي شيء يرتبط به جغرافيا أو ثقافيا ، أو يرتبط بحضارته المادية والروحية ، اطلع كاتب هذه السطور وتصفح جميع المجلات والصحف الأدبية الموجودة في متناول اليد والمجموعات القصصية ، وفي بعض الأحيان اطلع على الأعمال الكاملة لبعض الأدباء المنشورة باللغة الصربو كرواتية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر .

وعند جمع المؤلفات الروائية اليوغسلافية التي يجري فيها ذكر العربي من مختلف المجلات والصحف والكتب ، وقد بلغ عددها حوالي ١٤٨ أقصوصة ورواية ، وعند الفحص الأولي لهذه المؤلفات تبين لنا أن شخصية العربي تظهر في بعض الأحيان بصفتها الشخصية الرئيسية - أي البطل - في الرواية أو الأقصوصة ، وفي أحيان أخرى تظهر على أنها شخصية ثانوية أو أنها تذكر بشكل عابر تماما . وبناء على ذلك قسمنا على الفور المؤلفات الروائية إلى مجموعتين :

١ - **المجموعة الأولى** وتقع فيها المؤلفات الروائية التي يكون فيها الانسان العربي هو الشخصية الرئيسية . وتقع هنا أيضا المؤلفات الروائية التي يكون فيها للمفاهيم الجغرافية والثقافية المرتبطة بالعرب الدور الرئيسي الهام . وبهذه المجموعة ثلاث وعشرون رواية وقصة .

٢ - **المجموعة الثانية** وتقع فيها المؤلفات الروائية التي يظهر فيها العرب أو المفاهيم الجغرافية والثقافية والحضارية ظهورا ثانويا . وبها ١١٧ رواية وقصة .

ولا شك أن التركيز الأساسي سيكون على قصص وروايات المجموعة الأولى من النصوص ، لأنها أكثر أهمية من نصوص المجموعة الثانية . ولكن هذا لا يعني على الاطلاق أننا سنغفل نصوص المجموعة الثانية ولكننا سنفرد لها فقرة خاصة ، فهي لها أهميتها وتستحق منا دراستها .

وينبغي أن أنوه على الفور ومنذ البداية الى أن كاتب هذه السطور كان يرى التوسع في فهم وادراك المفاهيم المرتبطة بالعرب وبكل ما يتعلق بهم من مفاهيم روحية وجغرافية ومادية وما شابه ذلك من المفاهيم المتعلقة بالعرب والتي وجدناها في النصوص اليوغسلافية . ولا شك أن هذا هو الأسلوب الأمثل الذي سيمكننا من استنباط النتائج المؤكدة عن طريق تحليل ودراسة النصوص النثرية المتوفرة بين أيدينا ، وعن طريق تحليل ودراسة الأفكار المتضمنة في هذه النصوص وتحليل وظائف الشخصيات وأدوارها والمدلولات اللفظية لها وغير ذلك .

وكان من المحتم عليّ منذ البداية أن أحدد المهام والأهداف الرئيسية التي وضعتها نصب عيني في هذه الدراسة ، وهي ايجاد اجابات منطقية جلية على التساؤلات الآتية :

أ - من هو هذا البطل العربي الذي يظهر في الروايات والقصص اليوغسلافية ؟

ب - ما هو الأسلوب أو الكيفية اللذان ظهر بهما البطل العربي في النصوص المتوفرة أمامنا ؟

جـ - ما هو الشكل الذي ظهر به البطل العربي وما هي خصائصه ؟

د - كيف وبأي أسلوب استطاع النثر الروائي اليوغسلافي أن يتحدث عن العرب ويذكرهم ؟

هـ ـ ما مدى انتشار استخدام شخصية البطل العربي في النثر الروائي اليوغسلافي المكتوب باللغة الصربوكرواتية ؟

و ـ كيف وبأي أسلوب ومن أي مواقع أو زوايا يمكن أن نفسر وجود ذكر العربي واستمرار ذكره حتى وقت متأخر والانعكاسات الأخرى المترتبة على ذلك ؟

ز ـ هل يرجع ظهور شخصية البطل العربي إلى تراكمات تاريخية وأسطورية ؟

ح ـ من أين أتت هذه الكمية الوفيرة من المعلومات الموجودة في النصوص الروائية التي تتحدث عن شخصية العربي ، وعن كل ما يتعلق به من عادات وثقافة وأمور حياته ولغته وآماله وعن كل ما يتعلق بثقافته الروحية والمادية ؟

ط ـ هل يمكننا ـ بناء على المعلومات المتوفرة في هذه النصوص ـ أن نستنتج ماذا كانت الشعوب اليوغسلافية تعرف عن العرب الذين اتصلوا بهم عبر التاريخ ؟

« المحبوبان »

لا شك أن الوصف المفصل لرحلة ملادن بطل رواية « المحبوبان » يكشف لنا عن أديب يعرض أمامنا انطباعاته ومشاهداته خلال هذه الرحلة[6] . وهذه الرحلة في معظمها هي رحلة المؤلف نفسه بتفاصيلها الجميلة والكاملة وعلى الأخص عند وصفه للأماكن التي مر بها بالفعل . ولكنه يتحدث في عبارات عامه وموجزة عن الأماكن التي سمع عنها فحسب ، أو التي كان بها لفترة وجيزة ، ومنها على سبيل المثال اقامة بطل الرواية في الجزائر . فوصف رحلة ملادن بطل الرواية إلى الجزائر يعد وصفا عاما يفتقر الى التفاصيل[7] .

فالجزائر حسب ما رواه المؤلف في روايته كانت في ذلك الحين مستعمرة فرنسية ، وكان من الخطر أن يعيش الانسان فيها بسبب هجوم كتائب البدو ـ أي الجزائريين ، هذا فضلا عن أن الأجانب لم يكن باستطاعتهم أن يتحملوا شمسها المحرقة . وفي ذلك الحين كان سكان الجزائر مقاتلين ومحاربين أشداء بحيث كان من المستحيل السير على انفراد إلا ضمن مجموعة عسكرية كبيرة[8] . ثم يعترف المؤلف للجزائريين بالشجاعة والاقدام ويعترف بشدة المعارك التي يستخدمون فيها الرصاص والرماح ، وكذلك بكثرة الضحايا في الجانب الفرنسي نتيجة هذه المعارك الضارية . ولذا فان الفرنسيين كانوا ينعتون الجزائريين بنعوت غير طيبة[9] . ومن بين الصفات الطيبة للجزائريين أنه كان بامكانهم أن يتعرفوا على الأجنبي حتى ولو كان يجيد التحدث بلغتهم وهي اللغة الفرنسية في تلك الأونة[10] .

وبناء على هذه المعلومات التي أوردها الكاتب عن الجزائر فانه يمكننا أن نفترض أن المؤلف ب . أ . كان في الجزائر لفترة من الزمن أو أنه ربما مر بها مرورا عابرا . ويمكننا كذلك أن نفترض أنه سمع بتلك المعلومات المألوفة عن الجزائر أو قرأها أثناء وجوده في باريس . وحيث ان المعلومات الخاصة بتاريخ حياة المؤلف تفيد أنه لم يسافر إلا إلى المجر وسويسرا وانجلترا وألمانيا وايطاليا وفرنسا[11] . فاننا نرجح الافتراض القائل بأنه إما سمع بهذه المعلومات عن الجزائر ، أو قرأها خلال

(٦) أندرا جافريلوفيتش ، « تاريخ الأدب الصربي والكرواتي » ، بلغراد ١٩١٠ ، ص ٣٨٦ .

(٧) ورليا جيفانوفيتش ، « يوجويري أتانسكوفيتش » ، أعمال ب . أ . ، بلغراد ص٧١ .

(٨) المصدر السابق ، ص٧٥ .

(٩) المصدر السابق ، ص٧٦ .

(١٠) المصدر السابق ، ٧٦ .

(١١) الأعمال الكاملة لبوغدانة سكربليش ، بلغراد ، ١٩٧٧ ، ص٩٨ .

وجوده في احدى الدول المذكورة التي سافر اليها ، وعلى الأخص خلال وجوده في فرنسا التي كانت الجزائر مستعمرة لها حينذاك . غير أني لا أستبعد أن يكتشف الباحثون في تاريخ الأدب اليوغسلافي معلومات تفيد قيام مؤلف روايتنا هذه بزيارة الى الجزائر .

ويتلخص موضوع رواية « المحبوبان » أن الشاب ملادن والفتاة روجا يحب أحدهما الآخر ، وبعد ذلك تحدث عقبات مختلفة تفصل وتباعد ما بينهما ، منها سفره في رحلة الى بلاد بعيدة ومنها سجنه . وفي النهاية يعثر أحدهما على الآخر . ويأتي عنوان هذه الرواية من أن بطلها ملادن يحب وطنه وحبيبته . وفي الرواية كلها نجد الاحساس القومي والاحساس العاطفي يسيران جنبا إلى جنب ويتشابكان ويتحدان . وبعد عودة بطل الرواية من الجزائر وجد في انتظاره قبر والديه . وهكذا انتهت القصة بالجزائر التي أراد لها المؤلف في كل فرصة أن يبرز ويؤكد فيها ما رآه أو سمعه . وعلاوة على ذلك قدم لنا المؤلف صورة صادقة لبعض الشخصيات الحقيقية لمعاصريه وبذلك تضيف الرواية قيمة جديدة علاوة على قيمها الأخرى ، فهي تقدم لنا معلومات تصلح ـ بلا شك ـ عند تسجيل التاريخ ووقائعه .

ومن التشبيهات الطريفة في هذه الرواية وصف المؤلف للمدينة اليوغسلافية سريمسكا كارلوفيتسا بأنها « القدس العربية »[١٢] . ثم ان الفصل الخامس عشر من هذه الرواية يبدأ ببيت شعر مقتبس من قصيدة شعبية يجري فيها ذكر العرب[١٣] . وبهذا البيت المقتبس يريد الأديب اليوغسلافي أن يقول ان المجريين فعلوا في سريمسكا كارلوفيتسا ما فعله العرب في معركة كوسوفو . وهو أمر ينافي الحقيقة التاريخية لأن العرب لم يكونوا على الاطلاق في معركة كوسوفو التي جرت حوالي عام ١٣٨٩ م ، وهي معركة جرت أساسا بين الأتراك بقيادة السلطان مراد الأول وبين الصرب وحلفائهم . وقد كانت معركة ضارية قتل فيها السلطان مراد الأول ، ولكن ابنه بايزيد انتقم من الصرب وحلفائهم انتقاما رهيبا ، الأمر الذي جعل الرواة في يوغسلافيا ينشدون القصائد والقصص عن هذه المعركة . ومن هنا يتبين الخلط بين العرب والأتراك وهو ناتج عن أن كليهما كان يدين بالدين الاسلامي . ولم يكن مؤلف روايتنا وحيدا في هذا الخلط بين العرب والأتراك ، بل شاركه في ذلك كثير من الأدباء اليوغسلاف .

ويوجوبوي أتانا تسكوفيتش مؤلف هذه الرواية مولود عام ١٨٣٦ ـ وتوفي عام ١٨٥٨ . وقد أنهى دراسته الثانوية في مدينة « بايا » بيوغسلافيا . وفي بودابست ، وأنهى دراسة الحقوق في بودابست وبوجود وفيينا . وبعد ذلك احترف المحاماة . وكان يكتب القصص الرومانسية الحزينة ، معالجا فيها موضوعات تتناول ماضي يوغسلافيا ، وكتب كذلك روايات عاطفية غرامية عالج فيها موضوعات من الحياة العصرية . وقد لفت بوجوبوي نظر النقاد اليه بقصته هذه وامتدحه النقاد بحماس ، ورأى بعضهم فيه صورة نموذجية للشاعر الرومانسي بايرون .

وينبغي أن نشير الى أن بوجوبوي كان لديه من الحكمة والموهبة والجرأة ما جعله يقدم على ما لم يقدم عليه غيره من الأدباء في ذلك الحين وهو اغفال موضوعات وأفكار ذلك الوقت التي كانت تنبع من مصادر التاريخ ومن الخيال الملتهب للأدباء المتأثرين تماما بالرومانسية الألمانية ، واتجاهه الى بيئته ومجتمعه وعصره ينهل منها موضوعات وأفكارا لقصصه ورواياته فيلمس كل ما يراه الجميع ويحسون به ويشعر بالحاضر وبالحياة اليومية لبني وطنه . وبذا كان بوجوبوي أول من أغفل التقاليد الروائية لذلك العهد وانتقل الى مجالات

(١٢) ويرجح أن المؤلف يريد بذلك أن يضفي على بلدة سريمسكا كارلوفيتسا نوعا من القدسية لأنها كانت مركزا لرئيس الأساقفة الصرب .

(١٣) باصالب . أ . بلغراد ، ص ١٦٧ .

ومـوضـوعـات لم يمسـهـا أحـد قبله . ففي روايته « المحبوبان » قدم لنا صورة للأفكار الثورية في ذلك العصر ، وتعرض لمفهوم الوحدة الأخوية بغض النظر عن الاختلاف في الدين .

ويعترف معظم النقاد بأن هذه الرواية هي أول رواية بوغسلافية جيدة تأخذ مادتها من الحياة العصرية[14] . ويمكن اعتبار الرواية مرآة للمساعي التي جرت خلال الحركة الشعبية في عام ١٨٤٨ وللمناقشات التي دارت بعدها . ومؤلف الرواية يأخذ الكلمة عدة مرات لكي يقول رأيه في بعض الأحداث ، وروايته للقصة ولأحداثها بنفسه يوضح أنه اشترك شخصيا في الحركة الشعبية[15] . والحقيقة أن بوجوبوي كان متأثرا إلى أبعد حد بالأحداث الثورية التي جرت في صربيا في عام ١٨٤٨ الأمر الذي جعله يحاول أن يضفي لونا من البطولة على أبطال روايته هذه وأن يجعلهم يقدسون العدالة الاجتماعية ويضحون بحياتهم من أجل وطنهم وأهلهم وبذلك يؤكد الكاتب رومانسيته .

وهناك أكثر من سبب لذكر المؤلف مناطق عربية - أقصد الجزائر - في روايته . فنحن نجد بوجوبوي متأثرا بالرومانسية شبه التاريخية التي أرسى قواعدها لدى اليوغسلاف الأديب ميلوفان فيداكوفيتش ، ولكن بوجوبوي ليس تلميذا لفيداكوفيتش ولا سائرا على دربه . وليست رومانسية بوجوبوي مأخوذة من فيداكوفيتش وحده . فقد تعرف بوجوبوي على الرومانسية من منابعها الأصلية في ألمانيا وفرنسا وغيرها من البلاد . وكانت الرومانسية تمجد الشرق وبلاده . ويتأثر بوجوبوي كذلك بالشعر الشعبي اليوغسلافي (بيت الشعر الذي سجله في مقدمة الفصل الخامس عشر وذكر فيه العرب) الذي يحبذ تكرار ذكر العرب وما يتصل بها .

وهناك اعتقاد سائد بين النقاد بأن بوجوبوي كان واقعا تحت التأثير القوي للروح الفرنسية ، وأن الأدب الفرنسي الرومانسي في ذلك الحين أثر عليه تأثيرا قويا . ويؤكد الناقد اليوغسلافي ميلوش بيتوفيتش هذا التأثير الفرنسي[16] ولم يكن هذا الرأي وليد وقته بل كان معروفا من قبل[17] . ويعتقد الناقد ميتابوسوفيتش أن بوجوبوي كتب مؤلفاته تحت تأثير المدرسة الفرنسية وأنه لم يستطع التخلي عن التأثير الفرنسي . أما الناقد يوفان سكرليتش فيعترف بأن هناك تأثيرا فرنسيا في رواية « المحبوبان » فحسب ، ودليله على ذلك أن بوجوبوي لم يمكث في فرنسا إلا سنة واحدة وهي مدة ليست كافية لتقبل التأثيرات .

أما التأثير الأعم والأهم فهو في المقام الأول تأثير الرومانسية الألمانية وربما الرومانسية المجرية . فقد درس بوجوبوي في المدارس المجرية والألمانية . وكان أول عمل أدبي له هو ترجمته لاحدى قصص الأدب المجري في عام ١٨٤٤ ، علاوة على أن البيئة التي يصفها في أعماله الأدبية والروح والنغمة التي تسيطر عليها وكذلك اللغة التي تتحدث بها شخصياته والشبه بالأسلوب الساذج للشاعر بايرون ، كل هذا يذكرنا بالنماذج المجرية والألمانية الضعيفة ومؤلفات أدبائهم من الصف الثاني والثالث ، واللغة المكتوبة بها مؤلفاته الأول تبدو وكأنها ترجمة سيئة عن الألمانية[18] .

وفي ذلك الحين كانت الروايات العاطفية تغمر ألمانيا الحالة ، وفي نهاية الأربعينيات من القرن التاسع عشر

---

(١٤) أندرا جافريلوفيتش ، « تاريخ الأدب الصربي والكرواتي » ، بلغراد ١٩١٠ ، ص٣٨٥ .

(١٥) المصدر السابق ، ص ٣٨٦ .

(١٦) ميلوش بيتوفيتش ، « بوجوبوي أتاناسكوفيتش » ، مجلة براتكوفو كولو ، ١٨٩٦ ، ص١٤٩٣ .

(١٧) وهذا هو ما تؤكده صحيفة « اليوميات الصربية » في نعيها لبوجوبوي في ٥ سبتمبر عام ١٨٥٨ .

(١٨) الأعمال الكاملة ليوفان سكرليتش ، ص ١٢٤ .

كان التأثير الألماني على الأدب اليوغسلافي قويا ، وتتم ترجمة معظم مؤلفات الأدباء الألمان . ومعظم الأدباء اليوغسلاف في ذلك الحين كانوا يؤلفون أعمالهم الأدبية تحت تأثير ألماني قوي ، ولذا فانه من الطبيعي أن يتعرض بوجوبوي لنفس التأثير الذي تعرض له كل معاصريه ، حتى أقواهم وأكثرهم أصالة ، خاصة وأن تعليمه الألماني كان يشجعه على تقبل مثل هذا التأثير .

« حصار مدينة بلغراد »

في نفس السنة التي أخذ فيها بوجوبوي بنشر روايته « المحبوسان » ، أي في عام ١٨٥١ ، نشرت مجلة فيقوجانكا التي كانت تصدر بضاحية زيمون في بلغراد أقصوصة تاريخية بدون مؤلف بعنوان « حصار مدينة بلغراد » . وهذه القصة القصيرة كما يتحدث عنوانها تحكي حصار مدينة بلغراد اليوغسلافية من جانب المهاجين النمساويين الذين مكثوا عشرين يوما كاملة أمام بلغراد التي كانت واقعة في ذلك الحين تحت السيطرة التركية . وبالرغم من هذا الحصار طيلة الفترة الطويلة كلها فلم يتملك سكان المدينة أتى قلق أو جزع . وكان على الأتراك أن يواجهوا البحرية النمساوية .

وكان قائد عربي يقود القوة العسكرية التركية في مواجهة القوة النمساوية التي يقودها شفتمان النمساوي الذي كان ينتظر في برود وثبات وصول القائد العربي المتباهي وجنوده المغاوير . وكانت جميع القطع البحرية التركية تقصف وترعد دون انقطاع أو توقف ، وأخذت سحب الدخان تغطي نهر الدانوب كله في حين لا تزال البحرية النمساوية ملتزمة بالصمت والتربص . وأخيرا أعطى القائد النمساوي إشارة البدء ، وفجأة انطلقت جميع المدافع على السفن ودوت طلقاتها . وفقد الأتراك حماسهم وحاولوا النزول إلى الشاطىء إلا أن الجنود النمساويين أطلقوا نارا شديدة على الأتراك وأجبروهم على اللجوء مرة أخرى إلى السفن . وبعد ساعتين من القتال المتواصل تأكد القائد العربي من انتصار النمساويين ، وتحرك لكي يخترق بسفنه قلب الأسطول النمساوي حتى يتمكن بعد ذلك من مهاجمته من الخلف . ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل ، فقد أصيب القائد العربي بطلقة قاتلة ، وبعد مصرع القائد أدار الأتراك سفنهم وعادوا إلى بلغراد .

وكما نرى فاننا نجد في هذه الأقصوصة الأتراك والعرب المسلمين في جانب والنمساويين المسيحيين في الجانب الآخر . وهذا يعني بكل بساطة أن هذه الأقصوصة التاريخية تركز من بدايتها على الصراع بين عالمين متباينين ، ويمكن أن نعثر على آثار مشابهة لهذا الصراع في التراث الشعبي اليوغسلافي سواء أكان شعرا أم نثرا . ولقد كانت قيادة السفن التركية موكولة إلى القائد العربي ، وهذا في حد ذاته شرف ومفخرة للقائد العربي ، ويشير إلى كثير من المزايا القتالية المعروفة عن العربي والتي تصورها الأقصوصة بجلاء ، ورغم أن القائد العربي كان يكافح بكل بطولة وشجاعة حتى اللحظة الأخيرة فقد انهزم ولقي مصرعه . بالضبط كما يحدث في القصائد والحكايات الشعبية . وبعد مصرعه أدرك الأتراك أن المعركة مفقودة وخاسرة وضاع كل أمل لهم في القتال والنصر فولوا أدبارهم عائدين إلى ديارهم . وبهذا تكتمل في أذهاننا الصورة المشرقة التي رسمتها هذه القصة لهذا القائد العربي .

وحسبما يبدو فهذه الأقصوصة تتضمن عناصر تاريخية حقيقية ولكن لا يترك قارئها الانطباع بأن هذه الأقصوصة من حيث موضوعها وأسلوب عرضها تشبه ـ إلى حد كبير ـ الحكايات الشعبية . وعدم وجود مؤلف لها يؤكد هذا الافتراض ، ولا ريب أن هذه الأقصوصة التاريخية هي ثمرة من ثمار الرومانسية اليوغسلافية لأن الأدب اليوغسلافي في القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر كان مفعما بهذه الذكريات التاريخية وقد أتت الرومانسية لكي تدعم ـ فحسب ـ تقليدا شعبيا قويا للغاية وعادة أدبية عامة[١٩].

(١٩) بوغدان سكرليتش ، « الكتاب وكتبه » ، بلغراد ١٩٢٥ ، ص١٥٣ .

« منصور وجيله »

تغلغلت الرومانسية بكل أفكارها إلى وعي الأديب يعقوب إجينتوفيتش (١٨٢٢ ـ ١٨٨٩م) وجعلت منه مدافعا متحمسا عن القومية الصربية ولذا فان المضمون التاريخي في قصتيه « منصور وجيلة » (منشورة في عام ١٨٦٠) و « الدم من أجل عشيرتي » (منشورة في عام ١٨٦٢) مخضب لأعلى درجة بحبه للوطن .

ورواية « منصور وجيلة » قصة رومانسية وطنية تتلخص في أن ميلكا بنت بوشكو باكيتش وقعت عند سقوط مدينة بلغراد أسيرة في أيدي الأتراك وجعلوا منها جارية لدى الحاكم التركي . وقد استطاع الشاب العربي الجزائري وحامل الراية العظيم أن ينقذها من بين براثن الجنود ، ولكنه لم يستطع أن يساعدها أكثر من ذلك لانتقالها الى حريم الحاكم التركي . وقد أحب منصور جيلة حبا شديدا وتمكن من ايجاد السبل والوسائل لمقابلتها سرا داخل جناح الحريم . وكان هذا بمساعدة احدى الجواري العربيات الجزائريات . وكان منصور وجيلة خلال هذه اللقاءات السرية يتمنيان احتطها وحظ بلديهما اللذين يقعان تحت سيطرة الأتراك وكانا يجدان السلوى في الحب والغرام . وفي احدى المعارك يلتقي منصور بأخوة جيلة الستة ، ويحكي لهم ما حدث لها ويتأخون ويعدون « منصور » بتزويجه من جيلة . وينجح منصور فعلا في العمل على هرب جيلة من قصر الباشا التركي ويهربان معا الى الجزائر .

وفي محاولة منا لالقاء مزيد من الضوء على شخصيات هذه القصة نلفت النظر الى أن الشخصية الرئيسية في هذه القصة هو منصور العربي من بلاد الجزائر التي يمتدحها الأديب اليوغسلافي بأنها « بلاد الشرف العربي وبلاد الأبطال والفتيات الجميلات والخيول الأصيلة السريعة والابل الأليفة . وأبو منصور من أمراء الجزائر واهله من الفرسان الأبطال الذين يسابقون الرماح والغزلان . وهم من أفضل المرشدين ، واذا ما أتعبك الظمأ فانهم يمتطون الخيول ويحملون لك الماء في القرب خلال ساعات »[٢٠] . وبعد استيلاء الأتراك على الجزائر نقلوا « منصور » إلى تركيا حيث أجبروه على الانضمام الى جنود الانكشارية وأصبح جنديا حاملا للراية .

تلك هي الصورة التي رسمها الأديب اليوغسلافي يعقوب إجينتوفيتش لبطله العربي ، ومن هذه الصورة يمكننا أن نتبين أن إجينتوفيتش كان على معرفة طيبة بتاريخ العرب بوجه عام وتاريخ الجزائر بشكل خاص . وقد جعل الأديب اليوغسلافي من منصور العربي في هذه القصة تجسيدا حيا للبطولة والكرم العربيين . فمنصور لا يهاب الموت أبدا ، وهو في مقدمة الجيش دوما إذ يقول : « منذ أن عشت معكم وأنا لا أخشى الموت مطلقا من أجل رفعة وشرف النبي . انني أول من رفع الراية على قلعة شاباتس وكان الأعداء يتساقطون من حولي . وأنا أول من دخلت بوابة بلغراد وفتحت لكم باب النصر » . وكان أصل منصور النبيل لا يسمح له بالسرقة أو النهب . والوعد شيء مقدس عند منصور كما هي الحال عند كل عربي . وهو يقدر أحسن تقدير ضيوفه ويحترمهم ويبجلهم . ومنصور بطل همام يحمي البؤساء والضعفاء . وهو دائما يتذكر أيام العرب المجيدة اذ يقول : « انني عربي وخلفاؤنا وقادتنا السابقون كانوا سادة حتى في الأماكن البعيدة »[٢١] . والجميع يعترفون بحسن خلق منصور ويحيونه بأجمل التحيات والأماني الطيبة اذ يقول أحدهم : « منحك الله الصحة أيها العربي ، ومنحك الذرية ، وأكثر من عشيرتك ، وندعو الله أن تتحول حالكم وحالنا الى الأحسن » . وكل شخص يعجب بمنصور البطل الجميل وبحصانه السريع ، وكل شخص يقول ليس هناك ند للجندي العربي .

---

(٢٠) أعمال يعقوب اجينتوفيتش ، الجزء الأول ، نوفي ساد ، ليمانفار ١٨٧٤ ، ص١١٣ .
(٢١) المصدر السابق ، ص ١٦٦ .

وتأتي بعد منصور في الأهمية شخصية عربية ثانية هو خليل بن جانال من الجزائر أيضا . وهو كذلك من أصل نبيل وشريف ، ولكن ما ان تم أسره حتى اضطر الى الخنوع والاستسلام . ثم أخذ يشتغل بالتجارة وبأعمال الصرافة . وهو رجل طيب ولكنه أصبح يحب المال حبا جما ، فهو يشتري ويبيع الثمين من الأشياء ، ويقرض النقود لجواري الحاكم ثم يقوم صراف الحاكم بدفع كل هذه النقود دفعة واحدة دون أن يسأل عن قلتها أو كثرتها . وكان خليل يستغل ثقة الأتراك به ويحاول أن يعوض الجواري فيشتري لهن كل ما تشتهيه أنفسهن ويملأ أيضا جيوبه بالمال فهو لا يهتم بالأتراك ولا يبالي برفعة شأنهم أو مجدهم . لقد كان خليل قاسي القلب ، ولكن سمعه كان قويا لدرجة أنه كان يميز بين أنواع النقود من رنينها ، وقد قدم إلى منصور مساعدات جليلة اذ كان يساعده في الدخول والخروج من قصر الحاكم مختفيا داخل صندوق الملابس ، بيد أن « خليل » دفع حياته ثمنا لذلك في النهاية .

والشخصية العربية الثالثة في رواية « منصور وجيلة » هي المسئولة عن الجواري في قصر الحاكم التركي ، وهي كذلك عربية من الجزائر . وهي تحب أهل بلدها ، وتحب موطنها ومسقط رأسها الجزائر . وقد قدمت الكثير من المساعدات إلى منصور لأنه من أهل بلدها . ورغم أن هذه المساعدات عرضتها للأخطار ورغم ذكائها الفريد إلا أنها فقدت حياتها بسبب مغامرات منصور مع جيلة في قصر الحاكم التركي .

ومن الحتم أن تبرز هنا بعض النقاط التي لفتت أنظارنا في رواية « منصور وجيلة » ، ذلك أن الأديب اليوغسلافي كان يستغل كل فرصة للتأكيد على التشابه بين الشعب العربي والشعب المصري فيقول : « لابد أن الانسان العربي والانسان المصري كانا من عشيرة واحدة في حين من الأحيان ، ليعيش المواطن المصري والمواطن العربي البطلان »[٢٢] . وقد شدد إجينا توفيتش عدة مرات على الصداقة بين الشعبين العربي والمصري . ولا يفوتنا هنا أن ننوه بأن الأديب اليوغسلافي يعرف شيئا عن الاسلام وعن القرآن اذ يقول : « غير مكتوب في القرآن أن يسلم المسلم المسلمة أو أن تسلم هي نفسها كالدابة »[٢٣] . ولكن اتضح لنا فيما بعد أن معرفته بالقرآن لم تأت من مصادر موثوق بها ، لأنه يورد بعض المعلومات غير الصحيحة عن الاسلام . ومن الغريب أن الأديب اليوغسلافي يعرف كذلك بعضا من العادات والتقاليد الاسلامية ، فهو يشرح بالتفصيل كيفية دفن الميت المسلم[٢٤] . ويتحدث المؤلف على لسان منصور ليؤكد تسامحه الديني فيقول : « الله واحد والأنبياء كثيرون »[٢٥] ويصرح الكاتب في هذه الرواية بكراهيته وبغضه الشديدين للأتراك الذين احتلوا البلاد ، ويعبر أيضا عن رأيه في أنه لولا العرب ومساعدتهم لما ساد الأتراك العالم ولما كونوا امبراطوريتهم الكبيرة ، إذ يقول على لسان منصور : « اني عربي وهم أبطال حقيقيون ، ولو لم يكن العرب يؤازرون الأتراك لما رأوا كوسوفو على الاطلاق ولا حتى بلغراد »[٢٦] .

هكذا صور الأديب اليوغسلافي في روايته ثلاث شخصيات عربية متباينة في شكلها وتصرفاتها ولكنها كلها من الجزائر ، وهذا يدل دلالة واضحة على أن يعقوب إجينا توفيتش كان يميل ميلا شديدا الى العرب بوجه عام ، والى الجزائريين بشكل خاص . ولكن إجينا توفيتش لم يكن الأول في هذا المضمار ، فقد سبقه كما بيّنا بوجوبوي أتانا تسكوفيتش الذي تحدث أيضا عن الجزائر والجزائريين . إلا أن الدوافع والأساليب تختلف لدى

(٢٢) المصدر السابق ، ص ٢١٢ ، ١٦٢ .
(٢٣) المصدر السابق ، ص ١٤٨ .
(٢٤) المصدر السابق ، ص ٢١٣ .
(٢٥) المصدر السابق ، ص ١٦٨ .
(٢٦) المصدر السابق ، ص ٢٠٥ .

الكاتبين . ولكن مما لا شك فيه أن الأعجاب لدى إجينا توفيتش أكبر وأعمق ، فهو معجب بالعرب وبماضيهم وتاريخهم أيما اعجاب . ومن الأدلة على ذلك أنه كتب في عام ١٨٦٠ مقالة أدبية مطولة بمجلة « دانيتسا » عبر فيها بكل صراحة وجلاء عن حبه الشديد للعرب وعن إعجابه بهم وبتاريخهم وحضارتهم . ومن بين ما سجله إجينا توفيتش في هذا المقال « أن الناس يسمون المواطن الصربي بالمواطن العربي الأوروبي . وهم على صواب في هذه التسمية . ولا تظن أنه ذلك المواطن العربي الذي يسير وراء سيده ويشعل له الغليون عند اللزوم . إن المواطن الصربي مشابه لذلك الانسان العربي الذي كان في حين من الأحيان يحكم بغداد والذي هيمن على الشرق تحت إمرة محمد وخلفائه .. مشابه لذلك الانسان العربي الذي ساعد بحكمته وبطولته الجنس التركي على أن يهز كيان أوروبا . مشابه لذلك الانسان العربي الذي حارب الفرنسيين العداة في افريقيا منذ ثلاثين عاما من أجل وطنه . إن دماء الانسان العربي من أشرف الدماء ، مثله في ذلك مثل حصانه الأصيل . وذهن الانسان العربي صاف على الدوام ، وهو يحب وطنه وأسرته ويسعى الى المجد ويتحلى بصفات الفرسان » . ويختتم الأديب اليوغسلافي مقاله بجملته **المأثورة : « لو لم أكن مواطنا صربيا لوددت أن أكون عربيا . وما دمت لا أستطيع أن أكون عربيا فالأفضل أن أكون مواطنا صربيا »** .

وليس بعسير علينا أن نستخلص من هذه الكلمات الموجزة للأديب اليوغسلافي أنه يعرف الكثير عن تاريخ العرب وحياتهم وخصالهم ، وهذا يدعونا بل ويدفعنا إلى التأكيد بأن هذه الكلمات الصادقة لم تصدر عن كاتبها من قبيل الصدفة المحضة أو عن هوى عرضي في حنايا نفسه ، أو تعاطفا منه مع الانسان العربي الذي كان متخلفا عن أجداده في ذلك الحين ، بل على العكس لقد صدرت هذه الكلمات المنتقاة عن ايمان عميق بها وعن اعتناق أكيد بصحتها وصدقها . ولذا لابد أن نأخذ كلمات الأديب اليوغسلافي مأخذ الجد فهي ليست مديحا أو اطراء ، بل هي كلمات صحيحة نابعة عن تجربة واقعية وهذا يضفي عليها أهمية خاصة .

وكالعادة اختلف النقاد حول رواية « منصور وجميلة » فمنهم من اعترف بأن هذه الرواية الرومانسية العاطفية تلهب على الدوام خيال الجماهير العريضة من القراء وتثير دوما اعجابهم ، ومن جهة أخرى يزعمون أن مثل هذه الرواية التاريخية من روايات إجينا توفيتش تمثل الجانب الضعيف من أعماله الأدبية . وكان أشد النقاد هجوما على هذه الرواية هو الناقد اليوغسلافي يوفان سكرليتش ، إلا أن آراءه بشأن إجينا توفيتش متناقضة ومتعارضة بشكل لا يتفق والموضوعية العلمية ، ويسمح لنا بألا نعول عليها كثيرا . فبنظرة موضوعية بعيدة عن التحيز والانفعال يمكننا ألا نقبل اليوم مثل هذه الأراء من جانب هذا الناقد اليوغسلافي ، لأنه في نقده أغفل السمة العامة للكتابة آنذاك وأغفل الظروف المختلفة التي أحاطت بكتابة هذه الرواية . من أجل ذلك نجد أن هناك نقادا غير سكرليتش عارضوه في هجومه الشديد على إجينا توفيتش وعلى أعماله الأدبية الأولى ، ونذكر على سبيل المثال لا الحصر الناقد اليوغسلافي سلوبودان ماركوفيتش الذي ركز في نقده الموضوعي على النوعية الجيدة لهذه الرواية وعلى تهافت القراء على قراءتها وعلى الجوانب الايجابية في هذه الرواية[٣٢] .

ولا خلاف في أن الأديب اليوغسلافي يعقوب إجينا توفيتش كتب هذه الرواية الرومانسية الوطنية مستخدما فيها التاريخ الفعلي بأقل درجة ممكنة . وركز على العناصر الثلاثة التالية : تعظيم التاريخ وحب الوطن والاعجاب بالشرق ، وهي من مميزات الأدب الرومانسي الذي يمكننا القول الآن بأن يعقوب إجينا توفيتش هو أحد أعلامه ، رغم أن النقاد ينكرون عليه هذه الصفة نظرا لأنه فيما بعد ترك الأدب الرومانسي ، وأصبحت رواياته التالية هي النموذج الذي يحتذى به في الأدب الواقعي .

(٣٢) سلوبودان ماركوفيتش ، « الأعمال المختارة ليعقوب اجينا توفيتش » ، بلغراد ١٩٦٢ ، ص٩ .

وقد نوهنا من قبل إلى أن الرومانسية اليوغسلافية تتلمذت في مدرسة الرومانسية الألمانية ، بل إن معظم الأدباء في القرن الثامن عشر تعلموا في الجامعات الألمانية أو كانوا يجيدون اللغة الالمانية ويقرأون الأدب الألماني الرومانسي الذي ركز على الاهتمام بالشرق . وفي عهد الرومانسية كتب كثير من كتاب الغرب عن الشرق وعن تاريخه وعن عاداته وتقاليده . فقد كان الشرق بغرائبه ومباهجه وأدبه مادة خصبة لرواياتهم ولأشعارهم ، بل كان الشرق يوحي للأدباء بالأفكار ويلهمهم بكثير من الموضوعات ، وفي هذا العهد حدث تقارب عجيب بين أوروبا الغربية والشرق ، ومعظم كبار الشعراء قرضوا شعرا عن الشرق ومنهم جوته وبايرون وبوشكين ولامارتين وغيرهم . وكانت الرومانسية كذلك تحيط الماضي والتاريخ القديم بهالة عظيمة . وهذا التعظيم للماضي كان يمنح الجماهير أملا في مستقبل أفضل . وقد انتقلت هذه الأفكار من أفكار الرومانسية الألمانية إلى الأدب اليوغسلافي الذي امتلأ خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر بالموضوعات التاريخية في معظم الفنون الأدبية .

يضاف إلى هذا كله أن هذا الاهتمام الرومانسي بالشرق كانت وراءه في يوغسلافيا بعض الظروف المحلية الأخرى . حيث أسفر هذا الاهتمام عن اكتظاظ المجلات الأدبية اليوغسلافية بترجمات كثيرة عن العرب والشرق بوجه عام وبترجمات من الأدب العربي، واهتم الأدباء اليوغسلاف بالشعر العربي للمسلمين اليوغسلاف ، رغم أنهم يمقتون الأتراك - كمسلمين - وكل ما يمت لهم بصلة .

ويمكننا أن نؤكد أن السبب الأساسي الذي دفع إجنا توفيتش إلى كتابة مثل هذه الرواية الرومانسية الوطنية هو تأثره العميق بالأفكار الرومانسية التي كانت قد تغلغلت في الأدب اليوغسلافي . ولالقاء المزيد من الضوء على الدوافع التي دعت إجنا توفيتش الى الكتابة عن العرب - أي عن الجزائريين - يمكنني أن أضيف أن الباحثين اليوغسلاف من خلال كتاباتهم عن حياة وشخصية الأديب اليوغسلافي يعقوب إجنا توفيتش ذكروا أنه سافر الى بلاد الشرق ، وسافر عدة مرات الى القسطنطينية في تركيا ، وأنه حارب في الجزائر ، ذلك لأنه في عام ١٨٤٩ كان مهاجرا الى باريس حيث سنحت له الفرصة آنذاك للانتظام في صفوف جيش الأجانب الفرنسي الذي كان يحارب في الجزائر وترقى به حتى أصبح ضابطا[٢٨] . وكما يحكي إجنا توفيتش بنفسه فقد أصيبت احدى عينيه في معركة مع الجزائريين في الصحراء . وقد أدت هذه الاصابة الى فقد عينه حتى أنه عاش طوال حياته فيما بعد يقرأ ويكتب بعين واحدة[٢٩] . وهناك بالطبع من يشككون في مسألة اقامة إجنا توفيتش بالجزائر . ويقول آخرون أن اتصاله بالجزائر ربما كان عن طريق غير مباشر ، أي أنه ربما تصادق أثناء اقامته في باريس مع بعض الجزائريين وعرف عنهم المعلومات التي ذكرها في روايته .

« الدم من أجل عشيرلي »

وهذه القصة الشائقة لاجنا توفيتش تتميز تميزا خاصا ، لا باعتبارها شكلا من أشكال قصص إجنا توفيتش الرومانسية الوطنية فحسب بل باعتبارها النموذج الأول ، وربما مصدرا لجميع القصص اليوغسلافية الوطنية في الستينيات من القرن الثامن عشر . ونلاحظ في هذه الرواية ثلاثة مشاعر رئيسية : الكراهية الشديدة تجاه الأتراك ، وابراز كفاح المناضلين في صربيا ، والميل الشديد تجاه العرب .

وتتلخص هذه الرواية في أن البطل فوينو راديتش اقتيد من سرايفو إلى الجيش التركي في عربستان .

---

(٢٨) بوفان سكرليتش ، يعقوب اجناتوفيتش ، بلغراد ١٩٣٣ ، ص ٤٢ .
(٢٩) المصدر السابق ، ص٤٢ .

ورغب عثمان باشا التركي في الزواج من أنجيليا خطيبة فوينو ووحيدة القسيس لوكا . وحاول الأب دون جدوى أن ينقذ وحيدته بتهريبها ، إلا أن الجنود الأتراك لحقوا بها وأشعلوا النيران في الدير الذي كانت تختبىء فيه وقادوا الفتاة الى حريم الباشا . وجلست الفتاة تندب حظها داخل حريم الباشا ولم تفقد الأمل في امكانية الهرب . وذات مرة دعت أنجيليا رجب طبيب القصر لكي يساعدها ، وبالفعل تمكنت ، بمساعدته ، من الهرب وذهبت الى خالها الذي أعادها الى ديانتها . ولسوء الحظ وشى به أحد الرهبان فقتل الأتراك خال الفتاة ونصبوا القسيس الواشي رئيسا للدير . ويعلم فوينو ـ الذي أصبح « عمر » بعد إسلامه ـ كل ما فعله الأتراك بانجيليا وبخالها فيسرع مع اخوته لكي ينقذها وينجحوا في ذلك . ويعود فوينو أيضا الى ديانته المسيحية ، ولكن لم تعد به رغبة في الزواج من أنجيليا التي أصبحت في حريم الباشا كالوردة الذابلة . ويتعاهد الجميع على مقاتلة الأتراك حتى النفس الأخير وأن تسيل دماؤهم من أجل عشيرتهم .

ويستمر فوينو ورفاقه من المناضلين في قتال الأتراك ولكن دون جدوى فعدد الأتراك كبير ، وقوتهم عظيمة . وفي احدى المعارك تبحث أنجيليا عن حبيبها فوينو فتعثر على الطبيب رجب بين الجرحى فتضمد له جراحه وتعالجه وتطلب منه البحث عن فوينو . ويجتمع شملها مع فوينو ثانية . وفي معركة أخرى مع الأتراك يخشى فوينو أن تقع حبيبته أسيرة في أيدى الأتراك فيطعنها في صدرها . غير أن اصابتها لم تكن قاتلة ويعالجها الأتراك وتصبح جارية مرة أخرى . وفي قتال آخر يأسر الأتراك فوينو ويعذبونه حتى الموت . وحينما تعلم انجيليا بذلك يتملكها اليأس وتريد أن تنتحر فينصحها رجب بأن تنتقم أولا من عثمان باشا . فتلعب اليه وتطعنه طعنة نجلاء ويقتل رجب أنجيليا بيديه حتى لا يعذبوها ، ويأمر السلطان التركي بخنق رجب .

والطبيب العربي رجب ـ كما رسمه اجيناتوفيتش في هذه الرواية ووضح معالمه ـ هو صورة مجسدة لكل الصفات الطيبة للعرب . انه عربي يحترم وعده إذ يقول : « العربي الذي يخلف وعده اليوم يخون شرف شعبه »[٣٠] . وهو شريف ونبيل فيقول له أخو انجيليا : « انني أرى الآن أنك من عشيرة طيبة وليست هناك عشيرة غير العرب تضحى بنفسها من أجل الشرف »[٣١] . وكان أهم مبدأ لديه هو القيام بأعمال الخير فيقول : « أنت الفتاة التي أنقذتها من قبل وقد جئت لتنقذيني . لقد أرسلك الله لي . وقد كان الخليفة الرشيد على صواب حين قال : « افعل الخير ولن تندم عليه »[٣٢] . وكانت كرامة وكبرياء رجب فوق كل شيء فيقول إجيناتوفيتش في روايته : « وكان رجب يعرف فوينو ولكنه لا يريد أن يكلمه ، اعتقادا منه بأن فوينو لن يعرفه ورجب لا يطلب الرحمة من أحد »[٣٣] . ولم يكن رجب أنانيا فهو لا يريد الحرية طالما ظل زملاؤه في الأسر فيقول : « يافوينو ، لقد حررتني ولكني لا أستطيع أن أكون حرا مالم تطلق سراح باقي الأبطال الأسرى . هؤلاء وأولئك الذين سقطوا ناضلوا بشجاعة ، أما الجبناء فهم الذين تراجعوا . أطلق سراح هؤلاء الاثنى عشر وإلا فسأظل معهم في الأسر وأشاركهم الموت » ولا ينسى إجيناتوفيتش أن يعترف ويشهد لرجب العربي بالبطولة وقوة الشخصية .

ومن السهل علينا أن نلحظ في هذه الرواية كما في سابقتها أنها تحوى معلومات وفيرة عن العرب وعن حياتهم وعن الاسلام وعن المسلمين وعن عاداتهم وما شابه ذلك . وليس هناك أدنى شك في أن أجينا توفيتش

---

(٣٠) الدم من أجل عشيرتي ، ص ٣٠ .
(٣١) المصدر السابق ، ص ٢٩ .
(٣٢) المصدر السابق ، ص ١١٠ .
(٣٣) المصدر السابق ، ص ١٢٤ .

يعرف الكثير عن تاريخ العرب والاسلام ، بل هو يعرف كذلك عادات العرب في دفن موتاهم .[٣٤]

ووصف النقاد اليوغسلاف هذه الرواية بالسذاجة والضعف ، وكان أشدهم هجوما على هذه الرواية الناقد يوفان سكرليتش الذي يعتقد أنها رواية مفعمة بالسذاجة والتحيز الشديد للصرب والكراهية العميقة للأتراك[٣٥] ، ومعظم أحداث الرواية خيالية رومانسية يظهر فيها الصرب كالملائكة في طهرهم وكالأسود في قوتهم . ويظهر الأتراك في صور قبيحة مشينة وكلها صفات تتنافى مع الواقع . وبالرغم من هذه العيوب وهذا الهجوم العنيف فقد اعترف النقاد بأن هاتين القصتين من قصص إجينا توفيتش قد لاقتا قبولا رائعا واعجابا شديدا من الجماهير اليوغسلافية عند صدورهما ، وشهد النقاد بأن ما يذكرونه من عيوب ونقائص كانت تعتبرها جماهير القراء فضائل ومزايا في حينها . والحقيقة المهمة في كل هذا أن الأديب اليوغسلافي يعقوب إجيناتوفيتش لم يكتب هاتين الروايتين التاريخيتين باعتباره أديبا فحسب ، بل باعتباره وطنيا يحب وطنه أولا وقبل كل شيء وفوق كل شيء .[٣٦] لقد كان إجيناتوفيتش يقصد أساسا من هاتين الروايتين أن يحكي لأهل وطنه مقتطفات من تاريخهم بأسلوب شاعري ، حتى يستمتع أهل وطنه بماضيهم ويأخذوا منه العظة ويتحمسوا لحاضرهم ومستقبلهم . لقد كان إجينا توفيتش يهدف إلى ايقاظ المشاعر القومية لقرائه وإلى دعم ثقة الشعب بنفسه ولفت أنظاره إلى القيم النبيلة في الحياة[٣٧] .

ويعتقد النقاد اليوغسلاف أن روايات اجينا توفيتش الرومانسية التاريخية هي إستمرار للخط الذي سار عليه رواد القصة الرومانسية التاريخية في الستينيات من القرن الثامن عشر . وحسب ما كتبه الناقد سلوبودان ماركوفيتش فان المعلم الأول لاجيناتوفيتش في مجال الأدب كان الأديب ميلوفان فيداكوفيتش (١٧٧٠ ـ ١٨٤١ م) الذي كتب أيضا بعض الروايات التاريخية ، وكان مدرسا ومربيا هادئا في حياته وفي قصصه المعسولة ، وكان المعلم الثاني هو الأديب سيماميلوتينوفيتش (١٧٩١ ـ ١٨٤٧ م) الذي كان على صلة شخصية بالشاعر جوته الألماني ، وبكثير من الشخصيات الأدبية في أوروبا ، والذي كانت حياته الشخصية تختلط بأشعاره الحالمة . وعلى الرغم من اختلاف طباع معلمي إجيناتوفيتش إلا أنهما كانا يشتركان في خط واحد ، وهو أن كلا منهما كان على طريقته الخاصة مناضلا قويا وداعية للقومية . وربما هذا هو ما جلب إجيناتوفيتش اليهما لأنه كان هو نفسه مشبعا بالروح القومية .

ولا بد أن نبرز أيضا هنا تعلم إجيناتوفيتش في المجر حيث انتقل إلى كثير من الأماكن وتعرف على مجموعة كبيرة من الناس . وتحت تأثير تربيته ومعلميه وعصره اشترك إجينا توفيتش في الحركة الرومانسية اليوغسلافية ، وأصبح أحد كتاب النثر الرومانسي النادرين . وقد ساهم مع زملائه من الأدباء في عصره في أن يكون للرومانسية ـ كمذهب أدبي ، وللموضوعات والأفكار الرومانسية ـ أدباؤها البارزون في مجال النثر أيضا . ونتيجة لكل هذا ظهرت شخصية العربي في قصص إجيناتوفيتش .

« حياة المتمردين »

في عام ١٨٦١ بدأ الأديب اليوغسلافي يوكسيم نوفيتش أوتوتشانين (١٨٠٦ ـ ١٨٦٨ م) بنشر في مجلة

---

(٣٤) المصدر السابق ، ص ٨٣ .

(٣٥) يوفان سكرليتش ، « يعقوب اجيناتوفيتش » ، بلغراد ١٩٢٢ ، ص ١٨٠ .

(٣٦) المصدر السابق ، ص ١٢١ .

(٣٧) جيفورين يوشكوف ، « الأعمال المختارة ليعقوب اجيناتوفيتش » ، الجزء الأول ، نوفي ساد ، بلغراد ، ص ١٥ .

« دانيشا » قصته « حياة التمردين » وهي من ناحية الترتيب الزمني تقع بعد نشر قصة « منصور وجميلة » وقبل نشر قصة « الدم من أجل عشيرتي » . ومؤلف هذه القصة بمحاكاته للحكايات الشعبية كان يصف - باللغة الأدبية - حياة الشعب وحياة المتمردين[٣٨] في البوسنا . وهو يروى ثانية بأسلوبه بعض الحكايات الشعبية وربط بعضها بالبعض الآخر عن طريق البطل الشعبي ستارين نوفاك . وبالطبع كان للعرب مكان أيضا ، لأن الحكايات الشعبية هي الأخرى مليئة بالقصص عن العرب .

وعلى سبيل المثال يحكي البطل الشعبي الشهير ماركو كرالييفيتش كيف أنه مزق اثنى عشر وزيرا . وفي الحقيقة كان المؤلف يوكسيم يعيد سرد نفس القصيدة أو الحكاية الشعبية بلغة أدبية نقية جميلة . وبالطبع يوجد الكثير من التفصيلات عن العرب وعن شجاعتهم وبطولتهم وما الى ذلك . وفي بعض الأماكن توجد كلمات طيبة كثيرة عن العرب ، فيقول البطل اليوغسلافي ماركو كرالييفيتش عن العرب أنهم شعب شريف يدفع الناس الى حبه ، والعربي طيب كشعبه ، ونرى في طريقته دماثة الأبطال[٣٩] . وكان ماركو مضطرا الى قطع رقاب هؤلاء العرب الاثنى عشر ، لأن السلطان التركي وعد بأنه لن يهاجم الصرب اذا ما أخضع ماركو وقتل المتمردين الاثنى عشر في عربستان ، وجعل الهدوء مستتبا فيها . ولنلق نظرة إلى الرد الطريف الذي ذكره مؤلف الرواية على لسان العرب مرسلا إلى السلطان . يقول رد العرب على السلطان « ان الدولة العربية أعرق ، والعرب سادة ، والأتراك ليسوا إلا خدما لهم ، لأن محمدا أيضا كان عربيا وكان الخلفاء الراشدون والمسلمون كذلك من العرب . وكانت تركيا والشام والأناضول تحت السيطرة العربية ، في حين لم تقع الدولة العربية على الاطلاق تحت سيطرة الأتراك »[٤٠] . ويمكن بناء على هذه الكلمات أن نستنتج أن المؤلف - أو الراوى الشعبي - كان على علم - من مصادر مختلفة - ببعض الحقائق التاريخية .

ويعترف ماركو في معرض حديثه أنه لو لم يكن هو مع الأتراك لهلكوا ، لأن العرب قاتلوا بمنتهى البطولة ، وقطعوا الكثير من رؤوس الأتراك « كم هم ملفتون للنظر وأبطال ، ولكن ماذا أفعل وعندى بلدى صربيا أهم من أى شيء في العالم »[٤١] . وبوجه عام كان ماركو حزينا لاضطراره إلى مقاتلة العرب فيقول : « لن أنسى على الاطلاق كم هم أناس على قدر من الروعة والسمعة .

(٣٨) التمردين أو الهايدوتسي هي ظاهرة نشأت في يوغسلافيا ابتداء من النصف الثاني للقرن السادس عشر وخلال السيطرة التركية على الأراضي اليوغسلافية . وقد بدأت ظاهرة التمرد في يوغسلافيا حينما اشتد سوء حال السكان اليوغسلاف بعد انهيار النظام الاقطاعي التركي وضعف النظام والانضباط والسلطة المركزية التركية . وبعد تزايد الهجمات الحربية وانتشار الأمراض والجدب الذي أصاب المحاصيل لعدة سنوات إلى جانب الرعية ما تدفع به الجزية والضرائب الأخرى المفروضة واضطر أفراد الشعب إلى بيع أملاكهم حتى يسددوا هذه الضرائب . وساءت الأحوال كذلك في الأماكن الواقعة بالقرب من شرايين المواصلات الحيوية والتي كانت القوات التركية تتوافد اليها ، وساءت أيضا في المناطق التي كانت توجد بها كتائب مستجدة من الجنود الأتراك . وفي ظل هذه الظروف والأحوال كانت تفرض معارك وقتالا متكررا بين أفراد الشعب اليوغسلافي وبين ممثلي السلطات التركية ولذا فان كثيرا من هؤلاء الأفراد اضطر إلى الهروب الى الجبال والغابات القريبة وأصبح يطلق عليهم اسم التمردين أو الهايدوتسي .

وفي البداية كان هؤلاء التمردون يطردون من الظلم والعقوبات الواقعين على أفراد الشعب من جانب السلطة التركية . وكانوا يطردون من الظالمين النهاة وفارضي الجزية ومن التجار الأتراك ومن كل من كانوا يؤيدون السلطة التركية . ويقال ان التمردين والقصائد الشعبية اليوغسلافية هما الحصن الذي كانت تحتمي به الرعية . وظل هذا السلوك من جانب التمردين محل تقدير وحب شعبية كبيرة عند جماهير الشعب الذي كان يتغنى بأعمالهم في عديد من القصائد الشعبية .

وبسبب قسوة الظروف وبسبب هجمات الأتراك المتكررة فقد شكل التمردون كتائب ، وكل كتيبة تختار لنفسها قائدا أو زعيما يطلق عليه اسم « حرامي باشا » وكان يطلب من التمرد أن يكون شجاعا وألا يخشى الموت وأن يكون مطيعا لزعيمه . وأصبحت ظاهرة التمرد موجودة - تقريبا - في جميع المناطق الأوروبية الواقعة تحت السلطة التركية . وظهور حركة التمردين يمثل أول شكل للكفاح المسلح ضد السلطات التركية .

(٣٩) يوكسيم أوتوتشانين ، « حياة التمردين » ، مجلة دانيشا ١٨٦١ ، ص٣٥٥ .

(٤٠) المصدر السابق ، ص٣٥٥ .

(٤١) المصدر السابق ، ص٣٥٦ .

وكنت أتمنى لو أنهم فكروا في ذلك الحين وتركوا القتال اللعين » .

وفي حكاية أخرى يجري قتال بين البطل اليوغسلافي ماركو وبين العربي العملاق ، وهو ضخم الجسم وعظامه كبيرة بحيث أن أضخم الأتراك في ذلك الحين كانوا لا يبلغون إلا صدر العربي العملاق »(٤٢) . وكان الأتراك في صف العربي وضد ماركو ، وهذا يقودنا الى الافتراض بأن المؤلف يريد أن يؤكد بشدة على فكرة الصراع بين عالمين ، وهي فكرة تتكرر على الدوام في الحكايات الشعبية .

وهاهي حكاية ثالثة عن إلغاء جزية الزواج وتروى أن ماركو قتل طاغيا عربيا عند صوفيا في بلغاريا ، وذلك لأن هذا العربي كان يفرض مختلف الجريات ، وكانت آخر بدعة هي فرضه جزية على الزواج . والفكرة أو الموضوع هو نفسه الموجود في القصيدة أو الحكاية الشعبية التي تحمل نفس العنوان . وعلاوة على اللغة الأدبية الفنية فالفارق الوحيد هو أن بوكسيم قد عالج الموضوع بشكل أفضل وبتفاصيل طريفة أكثر . وبالمقارنة بين الحكاية الشعبية الأصلية وحكايات بوكسيم هنا نجد أنه لم يضف شيئا جديدا فيما يتعلق بالعرب .

والمؤلف يستخدم هنا تعبير « العربي الأسود » من أجل المقارنة فحسب(٤٣) .

مما سبق يتبين لنا أن المؤلف بوكسيم قلد الحكايات الشعبية بلغته الأدبية الفنية ووصف حياة الشعب وحياة المتمردين في البوسنا وتعرض لبعض الأحداث التاريخية من الماضي القريب أو البعيد . وقد اختار عن عمد الموضوعات التي تمكنه من تحميس الشباب للمثاليات الوطنية وتربيته على التقاليد التاريخية النبيلة . وليس عسيرا أن نلحظ في حكايات بوكسيم كراهيته الشديدة تجاه الأتراك وميله وتعاطفه الجلي تجاه العرب . وهو في هذا الأمر لا يختلف عن الراوي الشعبي الأصلي الذي كان يتخذ موقفا مماثلا تجاه الأتراك والعرب . وكما هو واضح فإن هذه الحكايات في أساسها ليست حكايات بوكسيم ولا من تأليفه ، ولكن المؤلف عند إعادته لسردها أطلق العنان لخياله المبدع ولقدرته على الابتكار .

من هنا يمكننا أن نستنتج أن بوكسيم قد استغل في الأغلب العرب كشخصيات رئيسية في رواية « حياة المتمردين » تحت تأثير التقاليد الشعبية اليوغسلافية وتحت تأثير الأدب الشعبي . والأديب بوكسيم في هذه الرواية يعد راويا شعبيا طيبا ورومانسيا ، لأنه حاول محاولة حرفية وكاملة في أن ينفذ الفكرة الرومانسية التالية : وهي أن يؤلف على أساس الشعر الشعبي وعلى أساس الموضوعات والأفكار التي قدمها الأدب الشعبي - المصوصة فنية روائية(٤٤) .

ومن تاريخ حياة بوكسيم يمكننا أن نفصل بعض العناصر التي يمكنها أن تلقي مزيدا من الضوء عن أسباب ظهور شخصية في روايته هذه . فقد درس بوكسيم بالمدرسة الثانوية في سريمسكا كارلوفتسا وفي ساروش بوتوك وفي المجر ، ودرس الفلسفة في بيشا وجينتج وهاج ، ودرس الحقوق في فينا في عام ١٨٢٤ . وقد انضم إلى المتمردين في جبال البوسنا والهرسك ، وعاش بين الأرناؤوط وقضى سنتين في السجن . وفي عام ١٨٤٩ اشترك في المعارك ضد المجر ، وفي نفس الوقت حاول القيام بثورة في البوسنا . وأثناء قيامه بأعمال المتمردين في رومانيا وفي دورميتور وخلال اقامته في قصور الباكوات البوسنويين وقضائه فصل الشتاء في المراعي الأرناؤوطية وفي مراعي الجبل الأسود ، في هذه الحياة الرومانسية خلق بوكسيم لنفسه - وهو ابن الضابط والنبيل وخريج المدارس الألمانية - روحا مغايرة تماما ، وأصبح من أفراد الشعب ، وبطلا من أبطال الحكايات

(٤٢) المصدر السابق ، ص٤١ .
(٤٣) المصدر السابق ، ٤٩ .
(٤٤) بوغدان سكرليتش ، « تاريخ الأدب الصربي الحديث » ، بلغراد١٩٥٣ ، ص٣٧٩ .

الشعبية (٤٥). ومما لا ريب فيه أن العيش في مثل هذه الظروف وهذه البيئات قدم الأساس والقاعدة لرواية « حياة المتمردين » (٤٦).

ومن العناصر الهامة الأخرى في حياة يوكسيم أنه أقام في فيينا فترة من الزمن في نفس الوقت الذي كان يقيم فيه بفيينا المصلح اللغوي فوك كراجيتش . وقد قدم يوكسيم المساعدات لفوك بشأن اختيار القصائد الشعبية ، وكذلك بشأن اللغة ، لأن يوكسيم ترعرع في منبع هذه القصائد . وفي سريم في منزل والد يوكسيم الذي كان شاعرا ملحميا ، كان يتوافد كل يوم ضيوف أعزاء من محبي القصائد الشعبية . هذا علاوة على أن يوكسيم كان يجيد معرفة اللغات اللاتينية واليونانية والسلافية القديمة وكان يفهم التركية ، ولا أحد أفضل منه كان يعرف الحياة الشعبية وعادات ولغة الشعب (٤٧).

« الهوى لا يسمع »

منذ نشر رواية « حياة المتمردين » التي نشرت نهايتها في مجلة « دانيتسا » في عام ١٨٦٣ ، وحتى عام ١٨٧٠ حينها تم نشر الأقصوصة التاريخية « الهوى لا يسمع » بقلم بطرس دسبوتوفيتش في مجلة « دانيتسا » أيضا لم ينشر أي شيء آخر فيما يتعلق بالعرب . ويتحدث المؤلف في هذه الأقصوصة التاريخية عن بطولة وجرأة خارقة لامرأة عربية تسمى « قولة » . ولا يمكن بسهولة التأكد من هذه الشخصية وإثبات وجودها في الواقع خاصة اذا أخذنا في الاعتبار أن هذه الأقصوصة حدثت في القرن الثامن . ومن ناحية أخرى أراد المؤلف أن يقدم موعظة بأن الهوى لا يرى ولا يسمع .

والمرأة العربية « قولة » انضمت الى الجيش العربي الذي كان يحاصر دمشق بحيث أن المدينة كانت في أكبر خطر . وقد عرض مواطنو هذه المدينة على القائد العربي خالد بن الوليد الكثير من الذهب لا لشيء إلا لكي يتخلى عن حصاره . وفي دمشق كان هناك الشقيقان « باقلو » و « بطرس » ، وهما مشهوران ببطولتهما في كل الجيش اليوناني . ولكن منذ فترة من الزمن وقد سيطر عليهما شرود الذهن ولا تندفع رماحهما كالبرق كما كانت تندفع من قبل . وكان السبب في ذلك هو البطلة العربية ، « قوله » الجميلة . وبالرغم من بطولة الشقيقين فقد كانا عاشقين ، ولذا فقد أجبرهما أمهما على أن يقسما بأنهما سيطيعانها أثناء المعركة . وتم أسر شقيق « قوله » في القتال وهرب جميع العرب الى أن وصلت اليهم « قوله » وجعلتهم يقلعون عن الهرب . وبعد ذلك أخذت مجموعة صغيرة واستطاعت ان تنقذ أخاها من الأسر .

وفي معركة أخرى هجم « باقلو » بجنوده وحطم كتيبة الفرسان العربية غير أن « قولة » ظهرت على صهوة جوادها الجميل فأشعلت الحماس بين العرب الذين ما ان رأوا بطلتهم القوية حتى عادت إليهم حيويتهم وهجموا بهمة شديدة على الكتائب اليونانية . وبنظرة استطاعت « قولة » أن تأسر الفارس اليوناني العاشق الذي أخذ يهرول وراءها دون أن يسمع أو ينصت لصوت أمه . وأخذ الهوى الذي لا يسمع ولا يرى يلتهب في أعماقه . وهكذا تم القبض على الفارس « باقلو » ولم يكن شقيقه بأحسن حظا منه ، فبعد فترة وجيزة أسرت هذه العربية الجميلة بطرس أيضا الذي لم يسمع هو كذلك صوت أمه الذي كان ينبهه إلى واجبه ، بل على العكس كان يهرول هرولة عمياء وراء المرأة العربية الجميلة .

وأهم شخصية عربية في هذه الأقصوصة التاريخية هي المرأة العربية « قولة » . وحينما وصلت إلى الجيش العربي

(٤٥) يوفان سكرليتش ، « الرومانسية والواقعية » بلغراد ١٩١٢ ، ص٩١ - ٩٧ .
(٤٦) ميل نتوكرا ، « يوكسيم أونوفتاين » ، مجلة دانيتسا ١٨٦٨ ، ص٣٦ - ٤١ .
(٤٧) المصدر السابق ، ص٤١ .

كانت ترتدي أجمل ثيابها وأثمنها التي لا توجد إلا في الشرق ، وكانت تعتلي صهوة حصان جميل ضخم مغطى بغطاء موشى بالذهب بدلا من السرج . وكان وجهها أبيض من وجوه العرب وكانت أشجع بطلة . وحينما رأت أهلها من العرب يهربون صاحت بأعلى صوتها بحيث ان الصحراء اهتزت لسماعه بعيدة وشجعتهم بالكلمات الجريئة حتى أقلعوا عن الهرب . وكذلك حينما سمعت أن اخاها قد أسر لم تهدأ إلا بعد أن انقذته من الأسر . ومن المؤكد أن « قولة » كانت في غاية الجمال والجاذبية ما دام كل من باغلو وبطرس قد افتتنا بها بهذا الشكل . وطالما لم تكن « قولة » موجودة في الجيش العربي كانت أمها تنام في هدوء ، ولكن منذ أن ظهرت « قولة » تلاشى هذا الهدوء وانهزم أبناؤها ولم يهزمها القائد الشجاع خالد بن الوليد ولم يطحنها ضرار المسمى بالصاعقة القطيعة ، بل هزمتها امرأة ، هزمها الهوى .

وهناك انطباع بأن هذه الأقصوصة التاريخية لها أساس تاريخي رغم أنه مشكوك في أصالتها . ومن الأرجح أن بطرس دسيوتوفيتش قد عرف هذه الأقصوصة عن طريق طرف آخر ثم أعاد سردها ، أو ربما ترجمها إلى اللغة الصربوكرواتية ترجمة حرفية أو محرفة . والدليل على ذلك عدم وجود أية شخصيات يوغسلافية بالأقصوصة ، وكذلك احساسنا في القصة كلها بنوع من التعصب الديني والنظر إلى كل شيء من خلال الصراع بين المسلمين والمسيحيين . وحسب روح ولهجة الأقصوصة ، وحسب بعض الاهانات الموجهة الى العرب فليس عسيرا أن نستنتج أن بطرس دسيوتوفيتش كان في صف المسيحيين ، وأن آراءه كانت ضيقة متعصبة وكأنه لا يزال يعيش في عصر الحروب الصليبية .

ومن المؤكد أن بطرس دسيوتوفيتش قد كتب هذه الأقصوصة التاريخية تحت تأثير الرومانسية التي كانت تشجع على الاهتمام بالشرق وبالموضوعات التاريخية ، وعلى وجه السرعة تحمس الرومانسيون اليوغسلاف الذين كانوا يبحثون عن نماذج وقواعد الذوق في الأدب الألماني في ذلك الحين [٤٨].

وفيما عدا ذلك فقد كان بطرس دسيوتوفيتش من العاملين في مجال التربية فهل كان يريد بقصته هذه أن يحمس الشباب المسيحي ؟ احتمال قائم ولكنه لم يثبت . والعجيب أن بطرس لم يستمر كثيرا في مجال الأدب ، فقد أُسدلت عليه ستائر النسيان بشكل سريع ، وواضح أن لذلك مبرراته ، فقدراته وإمكانياته الأدبية محدودة . وكان الجمهور ذو الذوق الأدبي غير المتطور يقرأ مؤلفاته . ومما يذكر أنه قد أنهى دراسته الثانوية ثم التحق بمدرسة المعلمين في سومبور وبعد انتهائه من الدراسة بها اشتغل مدرسا في نفس المكان ثم مدرسا في مدرسة المعلمين في باكراتس . وبعد ذلك درس علوم الأحياء في فيينا . ومن الغريب أنه مثل أمام المحكمة في فويفوديا بتهمة الخيانة العظمى ، وعلى اثر ذلك فقد وظيفته كمدرس . وكان يكتب كتب التربية والقصائد والأقاصيص . وفي التربية التاريخية كان في الأغلب يعرض الحقائق بشكل موضوعي . وإذا ما تعمق في معالجتها فانه يتخذ موقفا مثاليا [٤٩].

« بكم الدجاجة أيها الفلاح » ؟

هذه الأقصوصة هي في الحقيقة الفصل الرابع من رواية « ليلى التي جعلوها مسلمة » تأليف الكاتب ميلان جاكوف ميليتشيفيتش . وفكرة هذه الأقصوصة بايجاز أن المرأة العربية « نجيبة » كانت جارية عند ليلى التي هربت من والديها وذهبت إلى « حسن أغابك » وأصبحت زوجته . ولفترة طويلة بحث عنها والداها إلى أن عرفا مكانها وحضرا إليها في المكان المخصص للحريم في

---

(٤٨) يوفان سكرليتش ، « الشباب وأدبه » ، ص ٢٩٦ .

(٤٩) دائرة المعارف اليوغسلافية ، جزء ٤ ، ص ٢٩٤ .

القصر . وعندئذ أحضرت لهم الجارية العربية القهوة وكذلك الهدايا .

وقد يظن أحد أن هذا الدور لجارية عربية دور صغير ولا يستحق أي اهتمام منا . ولكن على العكس من ذلك يعتقد كاتب هذه السطور أن الأمر مناقض لذلك ، وأن دور مثل هذه الجارية العربية مهم للغاية ويستحق دراسة مفصلة . فمن جهة يمكننا أن نؤكد أن مثل هذه الجارية العربية كانت وسيلة من وسائل انتقال الثقافة العربية الاسلامية ، ومن جهة أخرى كانت هي وأمثالها من العناصر المهمة بشكل لا مثيل له في نشر وتعميق التصورات المختلفة والحكايات المتنوعة عن العرب في جميع المجالات . وليس من المبالغ فيه أن نقول أن تصور الشعوب اليوغسلافية عن العرب كان مرتبطا في المقام الأول بمثل هؤلاء الجواري العربيات .

وفي القصة التي أمامنا دخلت الفتاة اليوغسلافية « يانا » الاسلام بمحض رغبتها وأصبحت ليلى . وتغير مسلكها تماما وعاداتها وطريقة ارتدائها للملابس وما إلى ذلك . ويؤكد هذا كله الدهشة الكبيرة التي أثارها هذا التغير عند والديها اللذين ـ بكل بساطة ـ تسمرا في مكانيهما حينما رأياها في قصر « حسن بك » . بل انهما لم يتمكنا من التعرف على ابنتهما التي أنجباها . فمن اذن يقف وراء هذه التغيرات المذهلة في الملبس والمسلك والعادات وغير ذلك عند ليلى ؟

ليس هناك أدنى شك ولا أي خلاف على أمثال هؤلاء الجواري العربيات . . كن البطلات المجهولات وراء مثل هذه التغيرات . فقد كن مسئولات عن تعليم وتربية وتهذيب وتثقيف الفتيات حديثات العهد بالاسلام أمثال ليلى . وليس من نافلة القول أن ننوه هنا بأن الجارية المشهورة « تودد » قد نجحت أمام علماء هارون الرشيد في امتحانات الطب والحقوق والرياضة ومختلف مجالات العلم والثقافة[٥٠] .

ولهذا فان كاتب هذه السطور يعتقد أن هذه الأقصوصة قائمة على أحداث حقيقية واقعية ، وهي في الوقت نفسه تثبت وتؤكد الافتراضات المذكورة ، ومن هنا تأتي أهمية هذه الأقصوصة بالرغم من أن الدور الذي تقوم به الجارية العربية « نجية » صغير في الظاهر .

ومن المعلومات التي تهمنا عن مؤلف هذه الأقصوصة يمكننا أن نذكر أن ميلان جاكوف (١٨٣١ ـ ١٨٧١م) درس المدرسة الثانوية واللاهوت وقد بدأ نشاطه الأدبي بترجمة المقالات التربوية . وكان يجيد معرفة اللغتين الروسية والفرنسية . وبعد انتهائه من الدراسة عمل بوزارة الثقافة ، وقد سمح له هذا العمل بالتجول في أنحاء صربيا وبذلك سنحت له الفرصة لأن يرى الشعب ويتأمله ويتعرف على آلامه وأمانيه . ولذا فانه ترك المؤلفات التربوية واشتغل بتصوير ووصف حياة الشعب ، وكتب عدة مؤلفات تاريخية وجغرافية وأثنوغرافية . وقد اكتسب معارفه بالقراءة والرحلات . وكان يتابع بالملاحظة النشيطة ويسجل هذه الملاحظات والبيانات ويعالجها عندما تحين له الفرصة بلغة نقية مفهومة للشعب .

« حاج بالقوة » :

نشر المؤلف ميلان يوفانوفيتش هذه الأقصوصة في مجلة « يافور » في عام ١٨٨٠ ويحكي فيها عن لورد شاب لم يذهب الى فلسطين من أجل الحج بل بأمر من والده الجنرال لكي ينسى فتاة أحبها ، وهي من طبقة أدنى من طبقته وحتى لا يتخذها زوجة له ، وحتى لا تتدفق دماء الدهماء في العروق الارستقراطية لأحفادهما مما قد يؤدي الى طرد العائلة النبيلة من الطبقة الارستقراطية . وقد قام اللورد الشاب بالانتحار في رحلته ما بين يافا وبورسعيد وذلك لأنه في يافا وجد في انتظاره رسالة من حبيبته تودعه فيها الوداع الأخير لأنها تنوي الانتحار .

(٥٠) فيليب حتي ، « تاريخ العرب منذ أقدم العصور » ، سراييفو ١٩٦٢ ، ص ٣١٤ .

ولم يقدم لنا المؤلف أية أوصاف مفصلة للمدن العربية المذكورة في هذه القصة ، ومعلوماته عن فلسطين وعن القدس معلومات عامة فيقول : « يعلم المسيحيون أن فلسطين بلد مقدس حيث يذهب إليها لكي يصلي لله كل من لديه وقت ومال . وحينما نتحدث عن فلسطين فاننا نتذكر القدس والاردن وعيران والصليب وقبر المسيح ، ومن يذهب إلى هناك باعتباره انسانا عاديا يعود إلى بلده وهو حاج حكيم»(٥١) .

وقد كان مؤلف هذه الأقصوصة طبيبا وكان يكتب عن رحلاته . ولا شك أنه كتب أقصوصته هذه متأثرا بالأفكار الرومانسية . فنحن نلحظ هنا أن أشخاص القصة كلهم أجانب . أي ليسوا يوغسلاف . كما أن أحداث القصة تقع في أماكن أجنبية . ويسمى الرومانسيون هذا النوع من القصص « بالقصص الأجنبية » (٥٢) وهم لم يبتدعوا هذا النوع من الأدب وانما ورثوه من القرن الثامن عشر ، وقد ولعوا بهذا النوع من القصص لكي يرضوا به نزعاتهم في الفرار من الواقع ، واشباع الخيال بوصف بلاد أغنى مناظرا ، وأحفل بالمخاطرات وأكثر حيوية مما ألفوا في وطنهم . (٥٣) .

« ابن الصحراء » :

هذه القصة من تأليف الأديب اليوغسلافي نيكا جيرويتش أوجنيان ، وهي بالفعل أقصوصة تاريخية تحكي الأحداث التاريخية الحاسمة في العالم العربي الاسلامي خلال عهد الخلفاء الراشدين عمر وعثمان وعلي . وتروي لنا هذه الأقصوصة أن محمد بن الخليفة أبي بكر أحب زليخة التي كانت كل نجد تسميها « لؤلؤة الصحراء » ، وكانت هي أيضا تحبه ، وكانت تتحدث معه في حماس عن فضائل الانسان بحيث أن محمدا الرجل النبيل حمل في قلبه أرق الأحاسيس لهذه الفضائل ، التي تغلغلت وتعمقت جذورها في قلبه حتى أنه أصبح يعيش لأجل أمرين مقدسين ، من أجل حبيبته « لؤلؤة الصحراء » ومن أجل المشاعر والفضائل البشرية . ومن أجل زليخة كان محمد بن أبي بكر يرفض أية عروض للسيادة أو السلطة ، وكان يشعر بأنه غاية في السعادة لأنه يعيش في هدوء من أجل حبه ومن أجل شعبه . وحينما دعته طبول الحرب لكي يدافع عن شرف شعبه ولكي ترتفع أمجاد هذا الشعب كان يقف في مقدمة المناضلين ولا يبخل برخيص أو غال في هذا المضمار . وحينما ينقطع صليل السيوف يبتعد على الفور من المكان الذي يجري فيه تقسيم الغنائم وتوزيع المديح ، ويذهب الى واحته في الصحراء حيث يستريح في خيمته المتواضعة ويفكر في حبه وفي سعادة بني وطنه . ولم يك يقضي لحظة واحدة في العبث لأنه كان يعرف أن عمر الانسان قصير للغاية حتى أن الانسان يمكنه أن يفكر في الطيب النافع ويحققه لشعبه .

وكان يوسف صديق محمد يسيء استغلال صداقته بل ويسيء سمعته أمام حبيبته زليخة . وكان يوسف قادرا على تزييف الأمور والحقائق بمهارة بالغة حتى أثقل حبيبه صديقه بافتراءاته وكان آخرها اشاعته أنه هو ـ أي محمد ـ مدبر قتل الخليفة عمر . وصدقت زليخة هذه الافتراءة لأن يوسف كان يدس لها على مهل السم في قلبها بشكوكه المستمرة . وبذلك فقد محمد حبه وحياته من أجل سعادة بني وطنه .

والأقصوصة كلها مكتظة بمختلف الشخصيات العربية المتنوعة ولهذا فاننا سنتحدث هنا عن أهمها فحسب ، ومن أهم ملامحها كما وصفها المؤلف في قصته .

(٥١) ميلان بوقالوفيتش ، « حاج بالقوة » ، مجلة باقور ١٨٨٠ ، ص٧
(٥٢) د . محمد غنيمي هلال ، « الرومانتيكية » ، القاهرة ، ص ١٦٥
(٥٣) المصدر السابق ، ص١٦٩ .

محمد بن أبي بكر رجل نبيل ، من خصائصه الأساسية حبه للعدل . وكان مسلما بقلبه وروحه ، ولم يكن يفسر الاسلام وتعاليمه بحيث يثير بتفسيراته هذه عذاب وشقاء وسوء معاملة الآخرين ، وكان يعتبر أن من يفعل ذلك من المسلمين لص . كان قلبه رقيقا غير فاسد . وكان صديقه يوسف يقول عنه انه انسان كامل وصديق وفي ، وأن نجد كلها تمتدح نبله (٥٤) . وكان محمد يضع على الدوام حياته ونفسه كلها في خدمة تلك الحركة الشعبية التي كانت تهدف إلى مجد بني وطنه وعظمتهم . وبعد موت عمر اتفق أغلبية أعضاء المجلس على أن يعلنوا محمدا خليفة فقد كانت تزينه كل الفضائل الجميلة ، ولكنه رفض .

وحينما علم محمد بالثورة حول مكة والمدينة ضد عثمان هاجم المتمردين على وجه السرعة . ولم يستطع عثمان أن يأمل في مثل هذا السمو ولم يعرف كيف يجد الكلمات التي يشكر بها محمدا . لقد كان محمد يعرف طهارة نفسه من كل رذيلة ، ولذا فلم يكن يخشى أي شيء ، ورفض مرتين أن يتم اختياره خليفة لجميع المسلمين .

وكان الشعب تحت أشجار الكستناء وأشجار النخيل يحكي وينشد ما شاء له عن نبل محمد بن أبي بكر . وكان المنشدون ينتقلون من واحة الى أخرى ويحكون وينشدون عنه الأعاجيب . وكانت أعمال محمد تمجد على أنها مقدسات ، وكان اسمه يذكر بأكبر درجات الاحترام ، لقد كان أثيرا لدى كل عربي وبدوي . ولو أنه جلس على كرسي الخلافة لكان من الممكن ألا يكون محترما ومحبوبا بهذا الشكل ، ولكن لأن الشعب يرى أعماله الوطنية الصادقة ويرى عدم أنانيته وتضحيته ، ويرى تفوقه الفعلي في المجال الذي يحتاج اليه فيه ، فقد كان يخلص له ويحبه بصدق . وقبر محمد الآن من المقدسات لدى البدو ، فهم يحترمونه أشد الاحترام ويمتدحون أعماله ، وظلوا أوفياء لرغبته الأخيرة ، فهم يحيون حتى اليوم حياة متواضعة بسيطة .(٥٥)

وخلافا لمحمد كان يوسف يطلب الجنتين : جنة الأرض وجنة السماء . ولأنه اشتهى أن يأخذ زليخة لنفسه فقد كانت كل كلمة من كلماته تتهم محمدا ، وكان دائما يصب السم على الجرح الذي لم يلتئم . وكان ماهرا في إخفاء آرائه ، ولكن بمجرد أن امتلك زليخة وتزوجها ظهرت طباعه على حقيقتها ، فقد أصبح مغرورا وطاغيا وقاسيا . وأصبحت قبيلته المشهورة لا تجرؤ على طلب أي شيء من أميرها الجديد ، لأنه كان لا ينظر إلى أفرادها على أنهم بشر بل على أنهم عبيد مطيعون خاضعون . وكان يطلب لنفسه الحرية ولكنه يستأصل جذورها في كل مكان . وكان يتصرف في جميع الأمور بديكتاتورية وقسوة . وإذا ما ارتكب مظلمة من المظالم وسمعت زليخة بذلك كان يكذب أمامها ويقلب الأمر لصالحه . وبعد زواجه كان يعارض بصراحة كل ما يقوله محمد وزليخة . وعلاوة على ذلك كان يعاقب « لؤلؤة الصحراء » بتهديداته وكلماته القاسية .

وقد فقد يوسف هدوءه وسروره حينما اتضح له أن جميع مؤامراته وافتراءاته التي حاكها ضد محمد سقطت كلها على رأسه . ولكن الجبان السافل ليس له حياء الأبطال وشيمتهم . والرجل الذي يكثر من الكلام الأجوف ليست لديه الجرأة لأن يثبت قوله بالفعل . فبمجرد أن عرف يوسف بافتضاح سره وبمعرفة محمد لافتراءاته عليه لم تبق لديه الجرأة لأن ينتظر مواجهته بل لاذ بالفرار حتى يحافظ على حياته . ولم يكن ليوسف أصدقاء على الاطلاق لأنه لم يكن يثق بأحد ولم يكن يحب فعل الخير .

وتكتظ الأقصوصة بالكلمات الجميلة المنتقاة عن العرب وعن البدو وعن حياتهم وعاداتهم وتقاليدهم .

(٥٤) مجلة يافور ، ١٨٨ ، ص٧٧٣ .
(٥٥) المصدر السابق ، ص١٢٧٢

وهذه الكلمات يمكن أن تبين لنا معرفة المؤلف بالعرب ، فهو يعرف عن العرب أنهم يسلكون الطريق الذي يؤدي من واحة إلى أخرى(٥٦) وأن البدوي قليل الكلام ولكنه اذا قال شيئاً ووعد بأمر فانه يضمن كلمته بحياته(٥٧) ، ويعرف الكاتب عن منطقة نجد أن نجوم الجمال ، والحكمة والانسانية تتلألأ في سمائها(٥٨) . ويعرف الكاتب أن أهل نجد طيبون وعاقلون وأنه بإمكان المرء أن يتحدث معهم عن كل ما هو حكيم وأنهم ليسوا متعصبين على الاطلاق(٥٩) . غير أنه علاوة على ذلك تحتوي القصة على بعض المعلومات غير الصحيحة(٦٠) مما يجعلنا نرتاب في أصالة وحياد المصدر الذي استلهم منه المؤلف مادة أقصوصته التاريخية .

وقد عرض المؤلف كذلك معلومة تاريخية غير صحيحة فيما يتعلق بمكتبة الاسكندرية . فهو يزعم أن الخليفة عمر قد أمر باحراق كتب مكتبة الاسكندرية . ولكن المؤرخين يؤكدون أن مكتبة الاسكندرية أحرقت في عام ٣٨٠ م حسب أوامر الأمبراطور تيودسيا . وبناء عليه ففي زمن الفتح العربي لمصر في عام ٦٤٧ لم تكن هناك أية مكتبات مهمة في الاسكندرية ، ولم يتهم أي مؤرخ على الاطلاق القائد عمرو ولا الخليفة عمر بحرق مكتبة الاسكندرية(٦١) .

وفي الجملة فقد ظهر العرب في أقصوصة ابن الصحراء في مكانهم الطبيعي لأنها قصة تاريخية عن العرب فحسب . ونلاحظ أن هناك تشابها بين هذه القصة وسابقتها من حيث ان أحداثها تدور في بلاد أخرى غير تلك التي يقيم فيها المؤلف . وهذه القصة كذلك تنطبق عليها سمات كثيرة من سمات الرومانسية فهي قصة تاريخية أجنبية تتعلق أحداثها بالشرق ، ويحضرنا الآن قول فريدرش شليجل « بأنه يجب علينا ان نبحث في الشرق عن أسمى المواد والصور الرومانتيكية »(٦٢) . والقصة التي بين أيدينا ما هي إلا دليل جديد على ولع الرومانسيين بالشرق وبتاريخه . وبناء عليه يمكننا أن نؤكد ان هذه القصة مكتوبة تحت تأثير الرومانسية الألمانية وتأثير الأدب الألماني الذي كان يميل ميلا شديدا إلى الشرق وإلى حياته(٦٣) .

« تيميا » :

المثل فليام ميلكوفيتش نشر في مجلة « يافور » في عام ١٨٨٦ هذه الأقصوصة الطريفة التي تحدثنا عن أن « باكور » دمر قبيلة الملك بوميث وأسر ابنته « تيميا » ولكنها نجحت في أن تقتله وأن تهرب مع العبد « إزرياض » إلى قبيلة نوبية . وقد وعدت « تيميا » العبد « إزرياض » بالزواج . ولكن بمجرد أن رأت الملك النوبي العربي نسيت وعدها . واتفقت مع الملك على أن تكون زوجته وملكة على القبيلة . وسمع العبد « إزرياض » بكل هذا وأجبر « تيميا » على احتساء السم .

والملك النوبي العربي كان رجلا جميل الطلعة ، حسن القوام ، نظراته نارية ، وعيونه رمادية اللون . وكان في مقتبل شبابه ، إذ لم يكن قد أنهى الخامسة والعشرين من

(٥٦) المصدر السابق ، ص ٦٧٨ .
(٥٧) المصدر السابق ، ص ٦٨٠ .
(٥٨) المصدر السابق ، ص ٧٤٣ .
(٥٩) المصدر السابق ، ص ٧٦٤ .
(٦٠) يذكر المؤلف أن لدى البدو عادة بأن تحتفظ النساء القريبات بأكثر من زوج . وأن هذه العادة استمرت حتى بعد ظهور الاسلام (ص ١٢٠٣) وهو طبعاً أمر ينافي الحقيقة .
(٦١) فيليب حتي ، « تاريخ العرب » ، ص ١٦٢ ، وكذلك Edward Gibbon, The history of decline and fall of the Roman Empire, London 1855 ,p 452 .
(٦٢) محمد غنيمي هلال ، « الرومانتيكية » ، ص ٦٤ .
(٦٣) يوفان سكرليتش ، « الشباب وأدبه » ، ص ٢٩٣ .

عمره ولم يكن متوحش الطباع . وكان يقدر كل ما هو جميل ونبيل وقد كان هو نفسه نبيلا .

وكما نرى فان مزايا هذا الملك العربي ليست محددة أو بعبارة أخرى ليست مزايا عربية مائة في المائة ولا تقتصر على العرب فحسب . فأسماء الشخصيات وتصرفاتها في هذه الأقصوصة لا تسمح لنا بأن نؤكد إن كانت عربية أم نوبية . ولكن المؤكد أنه ليس لدى المؤلف تصور مسبق عن النوبيين أو عن العرب . ولا شك في أن ظهور هذه الشخصيات النوبية العربية هو وسيلة للفت الأنظار ، وهذا هو الأرجح في نظرنا . فقد تعمد كاتب هذه الأقصوصة ـ وهي الأولى والأخيرة ـ أن يلفت أنظار القراء بهذه الأسماء الأجنبية وهذا الجو الغامض والمسلك العجيب لشخصياته . ويمكننا أن نرجح كذلك أنها تشبه بجوها هذا إحدى القصص الفرعونية أو أن فكرتها مأخوذة من قصة فرعونية . ويحتمل أن تكون القصة رمزية ، ولكننا لم نعثر على ما يمكننا من حل هذه الرموز .

ولم أتمكن على الاطلاق من العثور على معلومات مفصلة عن المثل ميلكوفيتش يمكنها أن تلقي مزيدا من الضوء على نشاطه الأدبي . ومن هنا يمكن الافتراض بأن ميلكوفيتش لم يكرر هذه المحاولة غير الناجحة بسبب ضعف قدراته وإمكانياته الأدبية . وهذه الأقصوصة التي بين أيدينا هي ـ فيما يبدو ـ الدليل الوحيد الذي لا يقبل الجدل بالنسبة لهذا الافتراض .

« المولى محمد »

الأديب اليوغوسلافي نيكو بيساروفيتش عاشق الحكايات الشعبية بدأ نشاطه الأدبي بتسجيل القصائد والمؤلفات الشعبية ، وبعد ذلك نشر عدة قصص من حياة منطقة البوسنا بيوغسلافيا : أولا قصة « المولى محمد » في عام ١٨٨٧ ثم قصة « عارف الوزير الكبير » وقصة « حورية من الجنة » .

ويمكن أن نوجز فكرة قصتنا في أن المولى محمدا كان يعمل في ترقيع الملابس بسرايفو . وقد تزوج سبع مرات ، وتوفيت ثلاث من زوجاته وطلق أربعا منهن . وأقنعه جيرانه بأن يتزوج للمرة الثامنة . وكانوا يمدحون له ابنة لرجل عجوز كانت تعرف نقش الأغصان على النحاس وتكسب بذلك في اليوم خمس جروشات » . وفي اليوم التالي للزفاف لاحظ أن زوجته سوداء كالعربية . وقد كانت بالفعل امرأة عربية نشيطة ، إلا أنها تعرفت على امرأة سيئة كانت تدفعها إلى عمل كل شيء ، وتحت تأثير هذه المرأة السيئة أرادت المرأة العربية أن تذبح زوجها ، ولذا فان القاضي حكم عليها بالسجن ستة شهور .

ومما لا ريب فيه أن المؤلف هنا صور هذه المرأة العربية تحت تأثير الحكايات الشعبية التي كانت الشخصيات العربية تظهر فيها أيضا . ولذا سنفرد لها ـ مستقبلا ـ دراسة خاصة . وفي بداية القصة وصفها بأنها سوداء كالعربية ، وهذه المقارنة كثيرا ما تظهر في الابداع الشعبي . وهو بذلك يرسم ملامحها ، فالمرأة العربية في قصته « ضخمة وطويلة وأصابعها طويلة وكأنها بعبع ، وشعرها أجعد وقصير وفمها منفصل كما في أنثى الفرس »[٩٤] انه وصف غريب أشبه بالخيال وهذا يقودنا إلى التقرير بأن الغرابة والخيال هي أجزاء لا تتجزأ من هذه القصة ، وهي بذلك تتشابه مع الحكايات الشعبية الخيالية التي ينبغي أن نبحث فيها عن جذور هذا الرأي الغريب للمؤلف فيما يتعلق بالنساء العربيات . وكأن كاتبنا هذا قد رسم صورة كاريكاتيرية للمرأة العربية ، أي أنها صورة مبالغ فيها ، ولا شك أنها صورة ساذجة تعبر عن ضيق الأفق .

وكما كان راوي الحكايات الشعبية يفعل عند سرده لأية قصة فقد كان المؤلف يركز هنا في هذه الأقصوصة على سواد المرأة العربية . وقبل الزفاف رأى المولى محمد في حلمه « أن رجلا حطم على رأسه سبع بيضات والبيضة الثامنة كانت سوداء كالزفت » ، وعند لعبه

(٩٤) مجلة حورية البوسنا (بوسانسكا فيلا) ، ١٨٨٧ ، ص ١٣٠ .

بأوراق اللعب كان لا يحصل إلا على الآس الأسود أو الثمانية السوداء . وهكذا نرى أن السواد هنا قد أصبح رمزا ، الأمر الذي يجعلنا نؤكد أن تصور المؤلف عن النسوة العربيات مختلط ببعض عناصر المعتقدات الشعبية القديمة ومختلط بالتراث الروحي القديم وببعض المعارف الواقعية . وكل هذا يبين ويؤكد لنا إلى أي مدى كان المؤلف متأثرا بالأدب الشعبي عند كتابته لهذه القصة . وبالرغم من هذا كله فلا نستبعد أن يكون لهذه القصة أساس واقعي .

« حورية من الجنة »

هذه القصة هي من أفضل ما ألف نيكوبيساروفيتش ، وهي قصة لها نغمة عاطفية ، فكرتها مأخوذة من قصيدة شعبية معروفة [٦٥] . وتروى لنا هذه القصة أن زوجة « بيجو » الأولى توفيت وذهبت الى الجنة وأصبحت حورية فيها ، وفي ليلة من الليالي رأى « بيجو » في منامه أن أنكا زوجته المتوفاة تأمره بأن يذهب الى الكعبة وأن يوزع على الفقراء أكبر كمية من المال ، لأنه ليس حتى الآن أهلا للجنة . وأدرك بيجو أنه لم يكن يحسن معاملة أنكا زوجته الأولى لأنه لم يكن يسوى بينها وبين زوجته الثانية . وبالفعل ذهب بيجو الى الحج ولكن إثر عودته من الكعبة أصيب بالمرض وتوفى بعد بضعة شهور . وفي الجنة أعادت الملائكة عقد قرانه على أنكا .

وتصور لنا القصة البيئة الاسلامية في البوسنا بأسلوب واقعي . ومن المعروف أن الأديب البوغسلافي من البوسنا نيكو بيساروفيتش علم نفسه بنفسه في مجال الأدب وكان يحاكي في أسلوب كتابته للقصص أسلوب الحكايات الشعبية البوغسلافية . وكان يكتب أولا وقبل كل شيء لجمهوره الصغير المحدود في البوسنا سرايفو وعلى الأخص لجمهور المدن الذي يعرف مزاجه معرفة جيدة . ورغم أن أسلوبه كان بعيدا عن أية مدرسة واقعية أدبية الا أن المؤلف استطاع من خلال تصوره للبيئة القديمة في سرايفو ، لا أن يضيف المزيد من الواقعية التي أعرب عنها بتنوع لغته فحسب ، بل أن يضيف موضوعات معينة من الحياة العائلية الخاصة ببيئة المسلمين في البوسنا[٦٦] .

وفيما عدا ذلك فمن المعروف أن المؤلف كان يجمع المؤلفات الشعبية بجميع أجناسها وعلم نفسه بنفسه عن طريق القراءة واكتسب كذلك نوعا من الثقافة الأدبية ، وفيما بعد وصل بجهده الخاص الى مستوى طيب ، وتعلم بمفرده اللغة التركية قراءة وكتابة ولغة حديث . وحينما جرى إصدار مجلة « حورية البوسنا » اشترك مع مجموعة محرريها ، وكانت الموضوعات التي تنشرها هذه المجلة ترتبط بالتراث الشعبي الاسلامي الخاص بمنطقة البوسنا والهرسك وكانت متأثرة بالموجة المتأخرة من الرومانسية وتعمل على ايقاظ الشعب ثقافيا بلغة شعبية نقية »[٦٧] .

« الملك فلاديمير دوكلياتسكي »

يؤكد فولفانج كايزر في كتابه « العمل الفني اللغوي » أنه يوجد في تاريخ الأدب الألماني فصل خاص عن « روايات الأساتذة » يجري فيه الحديث عن أساتذة الجامعات الذين يكتبون الروايات وكان عددهم ليس بالقليل[٦٨] . ويبدو أن الأديب البوغسلافي ستيفان سريمالس ، وكان يكتب تحت اسم مستعار وهو « سيتشاتين » ، بقصصه التاريخي الذي كان يعتمد فيه على التراث الشعبي تمثل في كتابته بهؤلاء الأساتذة الذين يكتبون الروايات . ومن المفيد أن نضيف أن التراث الشعبي عنصر هام للغاية للحفاظ على الوعي القومي وتنميته لدى جميع الشعوب ، وهو الوعي القومي الذي

(٦٥) يوفان كرشيتش ، « مقالات مختارة » ، سرايفو ١٩٥٢ ، ص ٢١٧ .
(٦٦) المصدر السابق ، ص ٢١٥ .
(٦٧) المصدر السابق ، ص ٢١٤ .
(٦٨) فولفانج كايزر ، « العمل اللغوي الفني » ، بلغراد ١٩٧٣ ، ص ٦٠ .

تم الحفاظ على استقلاله عبر عديد من القرون . ويستخدم التراث الشعبي عبر فترات التاريخ والتغيرات المختلفة كوسيلة قوية للحفاظ على الاستقلال السياسي والقومي، وفي نفس الوقت يعد هذا التراث هو المصدر الوحيد تقريبا للمعرفة الفريدة بالحياة الشعبية المتعددة الجوانب(٦٩) .

وسريمانس في هذه القصة التي بين أيدينا ، يحاول ، بأسلوب حيوي ، أن يرسم صورة رائعة لهذه المأساة التقليدية الطريفة التي عاش فيها الملك دوكليان وترعرع وأنهى فيها حياته أيضا . انها قصة عن الحب الحزين الكئيب بين الملك فلاديمير دوكليان وبين كوسارا ابنة صمويل . والمهم بالنسبة لبحثنا هنا أنه يجرى الحديث في هذه القصة عن الشرقيين ، وهو تعبير يطلق على العرب والمسلمين بوجه عام (٧٠) . وقد أرادوا الاستيلاء على الامبراطورية في آسيا وعلى قبر المسيح في الشرق . والأمر الذي يميز بشكل خاص هذه الأقصوصة لسريمانس هو « أنها ليست قصة خيالية منتزعة من ماضي منطقة صربيا بل ان المؤلف اقتبس كل هيكل القصة من حقائق تاريخية ثابتة »(٧١) .

وعبر سطور القصة يتلألأ كقطع الكريستال سيل جارف من التعبيرات الشاعرية والمقارنات ، وهي تذكرنا الى حد ما بمأساة شكسبير المشهورة « روميو وجولييت »(٧٢) . وهذه الأقصوصة بعناصرها الشاعرية تقترب من روايات الكاتب الانجليزي والترسكوت رائد الروايات التاريخية (٧٣) .

وقد نوهنا فيما سبق الى أن من بين ما ركزت عليه الرومانسية هو تقديس الماضي . وعن طريق تعظيم الماضي العريق وتمجيده يتم توليد وخلق ايمان بمستقبل أفضل (٧٤) . ومثل هذه الأفكار للرومانسية الألمانية في العشرينيات وفي الثلاثينيات من القرن الماضي انتقلت أيضا عند الصرب بحيث ان الأدب الصربي ، في النصف الأول من القرن التاسع عشر ، كان مفعما بالموضوعات التاريخية ، وقد أتت الرومانسية لدى الصرب لكي تدعم فحسب تقليدا شعبيا وعادة أدبية عامة موجودة من قبل(٧٥) .

وعلى هذا النحو ظهر الشرقيون أو العرب في هذه الأقصوصة . لقد كان الرومانسي ستيفان سريمانس وفيا غاية الوفاء لفكرة الرومانسية ، وكان يحب حبا جما ماضي بني وطنه ، ولذا فقد كتب هذه الأقصوصة التاريخية التي يظهر فيها العرب في دورهم التاريخي والطبيعي . ومن المستصوب أن نضيف هنا أن التاريخ في هذه القصة اختلط بالشعر ولكنه كان كان مخصصا للتربية القومية(٧٦) كما سنبين فيما يلي .

« الدوق الكبير تشاسلاف »

هذه القصة الثانية لسريمانس نشرت أيضا في مجلة

---

(٦٩) جورج بليتش ، « من كتاب القضاء » ، الجزء الثاني ، مجلة ميلو رقم ٣٤ ، ١٩٠٥ ، ص١٣٤ .

(٧٠) في هذا المضمار يقول د . ابراهيم علي طرخان في كتابه « المسلمون في أوروبا في العصور الوسطى » ص٢٦ «أن الأجانب لم يقتصروا على استعمال كلمة عرب للدلالة على العرب وعلى المسلمين بعد ذلك ، بل أطلقوا أيضا كلمة « سراكين » للدلالة على العرب والمسلمين . وقد أراد اليونان والرومان بهذه الكلمة القبائل العربية المقيمة على حدود الامبراطورية الرومانية في بادية الشام والأطراف الشمالية للجزيرة العربية ، وفي شبه جزيرة سيناء . وكانت هذه القبائل كثيرة الاغارة على حدود الامبراطورية . غير أن اليونان والرومان لم يكونوا مبتدعين لهذا المصطلح ، وانما نقلوه عن السريان ، فهم الذين استحدثوه وأطلقوه على القبائل الاسماعيلية ، نسبة الى اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام ، المقيمة في شرق فلسطين والشام ، وكانت هذه القبائل تحيا حياة بدوية . ويعدد المؤلف اشتقاقات المصطلح واحتمالات أصله ولكنه في النهاية يرجح أن كلمة سراكين تصحيف لكلمة شرقيين . (ص ٢٧٠) .

(٧١) جورج بليتش ، « من كتاب القضاء » الجزء الثاني ، مجلة ميلو رقم ٣٤، ١٩٠٥ ، ص١٣٦ .

(٧٢) ميل بوبوفيتش ، « تاريخ الشخصيات المشهورة » ، بلغراد ١٩٣٧ ، ص٦٩ .

(٧٣) جورج بليتش ، « من كتاب القضاء » ، ص١٣٩ .

(٧٤) يوفان سكرليتش ، « الشباب وأدبه » ، بلغراد ١٩٢٥ ، ص١٠٢ .

(٧٥) المصدر السابق ، ص١٠٣ .

(٧٦) يوفان سكرليتش ، « دراسات » ، الجزء الأول ، نوفي ساد ، بلغراد ١٩٦١ ، ص ٣٦٠ .

« حورية البوسنا » مثل القصة الأولى . وهى تحكى أن القيصر البلغارى « سيمون » نادى بالاتحاد مع حاكم القيروان الخليفة « مظلوم » لكى يهاجما القسطنطينية المتباهية . ولكنهما لم يفلحا فى ذلك لأن البيزنطيين أمسكوا فى عرض البحر برسل القيروان وألقوا بهم فى عرض البحر . ويحاول الكاتب فى قصته هذه أن يخرج بدرس مستفاد وهو أن الله والقدر موجودان لكي يحافظا على المثاليات وعلى العدالة .

وعبر سطور هذه القصة يجرى حديث طويل عن الشرقيين أى العرب وعن هجماتهم المنطلقة من بحر السين . وهؤلاء العرب حسب كلام الكاتب شجعان وحكماء ، وبحكمتهم أصبحوا على قدر كبير من القوة(٧٧) ، كما أنهم لا يحبون الهدوء والسكينة(٧٨) . وفى بعض الأحيان يصفهم بأنهم قراصنة متوحشون وبما هو أسوأ من ذلك .

ويتجلى على أوضح وجه فى هذه القصة الارتباط ، الذى لا ريب فيه على الاطلاق ، بين التاريخ الحقيقى وبين الأدب الجميل ، ذلك لأن الخيال الحر والأسلوب الأدبى فى عرض القصة اذا انضما إلى الهيكل المأخوذ من حقائق التاريخ فبإمكانهم جميعا أن يقدموا لنا صورة حية لفترة تاريخية سابقة أو لحدث مشهور(٧٩) . ويمكن أن نلحظ بسهولة فى كلتا قصتى سريماتس اتجاها محددا ، وهو السمو بماضى الشعب وبعظمائه وتمجيدهم . ويجرى هنا تصوير الماضى بشكل شاعرى وبألوان براقة أكثر مما يفعله التاريخ نفسه . ويعتقد الناقد اليوغسلافى ياقل بوبوفيتش أن طابع وموضوع وأسلوب معالجة وعرض هاتين القصتين يذكرنا بشىء مماثل لدى يوفان جورجيفيتش(٨٠) وهو خال المؤلف ، ويبين أن ابن الأخت قد وجد نموذج كتابة مثل هذه القصص لدى خاله(٨١) .

ولا ينبغى أن نغفل أن مثل هذه القصص التاريخية للأديب اليوغسلافى ستيفان سريماتس قد وجدت كبار المعجبين المتحمسين لها . ويؤكد الناقد لوبومير نيديتش أن القصص المذكورة والتى نشرت فيما بعد فى كتاب يحمل عنوان « من كتب القدماء » هو مؤلف سيعمر لفترة طويلة بعد سريماتس(٨٢) . وحسب اعتراف رئيس تحرير مجلة « حورية البوسنا » نيكولا كاشيكوفيتش فقد كان القراء أنفسهم فى طول البوسنا والهرسك وعرضها يمتدحون هذه القصص مدحا عظيما وكأنها القصص الوحيدة التى تعجب القراء(٨٣) . وهاتان القصتان المذكورتان تعجبان الناقد اليوغسلافى جورج يلينيتش أكثر من قصصه التى تعالج موضوعات عصرية(٨٤) . وكان سريماتس يضع كثيرا من الآمال على هذا القصص التاريخى ولذا فإنه ألفه بعناية فائقة وبضمير ووعى ، وأضاف عليها من أحاسيسه الشاعرية ورومانسيته ولكنه راعى ألا تنقص أو تشوه الحقائق التاريخية .

وهناك رأى آخر يقول ان سريماتس وهو يكتب هذه القصص كان له علاوة على الالهامات الشاعرية هدف تعليمى عملى مباشر . فباعتباره مدرسا للتاريخ أدرك جفاف الحقائق والمعلومات التاريخية التى تشتمل عليها كتب التاريخ ولذا بدأ بخياله المبدع أن يحيى مادتها ويكملها(٨٥) . إلا أن الناقد اليوغسلافى يوفان

(٧٧) مجلة حورية البوسنا ١٨٩٨ ، ص ١٠١ .
(٧٨) المصدر السابق ، ص ٢٦٠ .
(٧٩) جورج يلينيتش ، « من كتاب القدماء » ، ص ١٣٦ .
(٨٠) يوفان جورجيفيتش (١٨٢٦ ـ ١٩٠٠) أديب يوغسلافى اشترك فى تحرير ورئاسة تحرير عديد من المجلات اليوغسلافية وكان مدرسا للتاريخ العام فى المدرسة العليا فى بلغراد ونظرا لأنه خال ستيفان سريماتس فقد أثر عليه تأثيرا كبيرا .
(٨١) ميل بوبوفيتش ، « تاريخ الشخصيات المشهورة » ، ص ٢٨ .
(٨٢) يوفان سكرليتش ، « دراسات » ، الجزء الأول ، ص ٣٦١ .
(٨٣) ميل بوبوفيتش ، « تاريخ الشخصيات المشهورة » ، ص ٧١ .
(٨٤) من كتاب القدماء ، ص ١٣٦ .
(٨٥) ميهايلوجور جفيتش ، « سريماتس كمؤرخ » ، مجلة العلم الصربى ، رقم ١٨٣ ، ١٩٠٦ ، ص ٦ .

سكرليتش يعتقد أن هذا القصص التاريخي لم يكن تاريخا ولا أدبا ، فبالنسبة للتاريخ لم يكن قائما على أسلوب علمي بالدرجة الكافية ولم يكن مؤسسا على الحقائق وعلى المعرفة بتفاصيل العصر الذي يتم وصفه . وبالنسبة للأدب فان هذه القصص لم تكن أدبية بدرجة كافية لأن سريماتس لم يكن يمتلك الكثير من الخيال ومن الحساسية بل كان يحصر نفسه في الاستطرادات البلاغية المتحيزة ، وفي الحزن المصطنع ، وفي الصيغة المحلية السطحية الشاحبة ، وفي المؤثرات السهلة بالعبارات وبالكلمات الرنانة(٨٦) .

ومن المؤكد أن من بين الأسباب التي دعت ستيفان سريماتس الى كتابة هاتين القصتين التاريخيتين وأمثالهما من القصص التاريخية(٨٧) : تأثير الرومانسية عليه ، فقد كانت تشدد على تقديس التاريخ الماضي . وكان هذا النوع من القصص مجالا للتغني بالوطنية الى جانب عرض القضايا الاجتماعية ، وكان له تأثير في دراسة التاريخ دراسة جديدة فكان جنسا أدبيا ذا طابع ذاتي(٨٨) . وكانت هناك أيضا بعض الظروف المحلية المساعدة على ذلك فلم يكن الصرب الذين عانوا من الاستعباد والاحتلال ـ يملكون شيئا في حاضرهم ولذا وجهوا عيونهم الى أيام الماضي يبحثون فيها عن العزاء في مواجهة بؤس وخزي الحاضر ، وكان هذا الماضي يمنحهم الدافع والحافز في كفاحهم ومعاركهم ويهبهم الأمل في مستقبل أفضل(٨٩) .

واذا نقبنا في حياة ستيفان سريماتس (١٨٥٥ ـ ١٩٠٦ م) بحثا عن بعض الجوانب في حياته التي يمكنها أن تقدم لنا مبررات أكثر لظهور شخصية العربي او الشرقي في قصصه ، فيمكننا أن نضيف أنه درس دراسات لغوية وتاريخية في المدرسة العليا ببلغراد وبعدها أصبح مدرسا في المدارس بمدن نيش وبيروتا وبلغراد . وكما نرى فقد قادته مهنته الى مدينة نيش ، وهي في ذلك الحين مدينة صغيرة تشعر فيها بروح الشرق وبرائحة العصر التركي وبنكهة النظام العتيق . وبالنسبة له ـ وهو الرومانسي القومي التقليدي ـ كان لا بد أن يعجبه هذا الشرق الفاتن غير المألوف . وقد عاش سريماتس في نيش أكثر من عشر سنوات ، وتشبع بشذا المدينة المتميزة في جنوب صربيا وتأمل وسجل التفاصيل والأحداث من حياة هذه المدينة(٩٠) . هذا علاوة على أننا نجد في قصصه صورة للتراث الشعبي وأساطيره وينعكس هذا أكثر في استخدامه الغزير للرموز والتشبيهات والمجازات وأساليب الأدب الشعبي بوجه عام .

« رحلة الى سيناء »

في عام ١٨٨٨ بالقاهرة كتب الحاج سافاكوساتوفيتش قصته هذه ـ التي وصف فيها رحلته الى جبل الطور بسيناء وكتب فيها أيضا بعض ذكرياته وانطباعاته وتجاربه أثناء السفر . وفي هذه القصة توجد شخصيات عربية كثيرة كتب عنها المؤلف . ومن المهم هنا أن نذكر أنه كان لدى الحاج سافا تصور مسبق عن مصر وعن أحوالها الجوية ، فهو يعرف أن الثلج لا يسقط على الاطلاق في القاهرة وأن الأمطار تسقط مرة أو ثلاث مرات على الأكثر على مدار العام ، وأثناء الشتاء تدفئك شمسها الساطعة الجميلة ، وفي الربيع تزدهر الورود والفواكه والزهور الأخرى(٩١) . وهو يعرف كذلك شيئا عن تاريخ الاسكندرية التي ـ كما يقول المؤلف ـ أنشاها الاسكندر الأكبر المقدوني في حوالي ٣٣٣ ق . م وأنه مع

(٨٦) يوفان سكرليتش ، « دراسات » ، ص ٣٦٢ .
(٨٧) للمؤلف قصة تاريخية أخرى بعنوان « رافشكو » ذكر فيها الشرقيون أي العرب والمسلمين ذكرا قليلا .
(٨٨) د . محمد غنيمي هلال ، « الرومانتيكية » ، ص ١٦٨ .
(٨٩) يوفان سكرليتش ، « الشباب وأدبه » ، ص ١٣٢ .
(٩٠) دراجي [illegible] ، « الأدباء الوطنيون الصرب ومن سبقوهم » ، بلغراد ١٩٧٠ ، ص ٢١٢ .
(٩١) حاج سافاكوساتوفيتش ، « رحلة الى سيناء » ، سراييفو ١٨٨٨ ، ص ٨ .

مصر قد عبرها كثير من الغزاة من السوريين والأثيوبيين والفارسيين واليونان والرومان والأتراك والعرب ، وفي الفترة الاخيرة احتلها الفرنسيون والانجليز(٩٢) . وفي بعض الأحيان نحصل على الطباع بأن مؤلف هذه القصة قد درس بالتفصيل تاريخ الاسكندرية فهو يعرف أنها ميناء هام ونقطة حيوية بالنسبة للتجارة لتوسطها بين الشرق وأوروبا وكذلك الهند خاصة اذا تم ربطها بالسكك الحديدية بالسويس على البحر الأحمر(٩٣) .

الا أن معرفته ليس موثوقا بها وليست صحيحة من الناحية التاريخية على الدوام فهو ينسب الى أتباع النبي محمد (صلعم) حرقهم لمكتبة الأسكندرية وأنهم كانوا يستخدمون كتبها وقودا للتدفئة بدلا من الفحم (٩٤) وقد بينا من قبل عدم صحة هذه المعلومة .

وكان للمؤلف أسلوب متميز فبمجرد وصوله الى مكان من الأماكن كان يصفه ويتحدث بعض الشيء عن تاريخه وعن آثاره الثقافية . وحكايات المؤلف مكتظة بالمعلومات القيمة عن العرب وعلى الأخص أولئك الذين يعيشون في مصر . أما خلال رحلة الكاتب الى سيناء فقد كان يرافقه مرشد عربي اسمه عيد كان يهتم بشؤون الحمار وكان يسير أمامه ويحمل له العصا ويعلق في وسطه مصباحا ويحمل كذلك سيفا عريضا قصيرا معلقا بالحزام ، وهو سيف حاد كالحية . وهكذا كان العرب الأخرون يتسلحون .

وكان المؤلف يتفاهم مع عيد في الأغلب بالاشارات وببعض الكلمات ، لأن عيدا بمرافقته للرهبان تعلم بعض الكلمات اليونانية القديمة ، وحفظ الحاج سافا بعضا من الكلمات العربية واليونانية القديمة كذلك . وبعد أن قتل عيد إحدى الحيات السامة يحكي المؤلف بعض انطباعاته وحكاياته عن الحيات .

وأخيرا وصلا الى الجنة أي الى جبل الطور بسيناء حيث توجد كنيسة رائعة مزينة بالذهب والفضة تجعل كل شيء فيها يثير اعجابك . وفي الكنيسة وحولها كان يوجد الكثير من العرب الذين يعدون من أمهر الصيادين ، وما عليك إلا أن تقول لهم كلمة واحدة فيتفرقون إلى أماكن يعرفونها ويعودون حاملين شمواة أو أرنبا أو حجلا أو طائر السماني .

ويتحدث الكاتب بالتفصيل عن تاريخ هذه الكنيسة والجامع المجاور لها . ومن الطريف أن الكاتب وضع بعض الكتب اليوغسلافية في مكتبة سيناء(٩٥) . ويحدثنا المؤلف عن القبائل العربية التي تعيش في شبه جزيرة سيناء . وبعد أن أنهى المؤلف مراسم حجه الى جبل الطور بسيناء انتقل الى القاهرة التي يقوم بوصفها ووصف سكانها . ومن بين المعلومات الطريفة التي يعرضها المؤلف عن القاهرة هو أنه كان يعيش فيها في ذلك الحين حوالي ٣٢٢ شخصا من اليوغسلاف أغلبهم من الصرب وأهل الجبل الأسود ـ وكذلك من الرومانيين(٩٦) .

وقد جرى هنا تصوير العربي بشكل واقعي بدون أية اضافات ، ولذا فان هذا الكتاب يمثل وثيقة ومستندا غاية في الأهمية في مجاله . وقد كان مؤلف هذا الكتاب مطرانا لمدينة سرايفو وكان أديبا أيضا وكان يشتغل بجمع الأشياء القديمة والكتابات الموجودة على قوائم القبور .

« جريفنا »

في عام ١٨٩١ نشرت مجلة « يافور » أقصوصة جريفنا التي كتبها جورج يوفانوفيتش . وهي قصة تاريخية تتحدث عن الثورة في البوسنا ، وتحكي عن البطلة جريفنا التي كانت تكافح مع أهل وطنها ضد الأتراك .

---

(٩٢) المصدر السابق ، ص ١٨ .
(٩٣) المصدر السابق ، ص ١٤ .
(٩٤) المصدر السابق ، ص ١٩ .
(٩٥) يذكر المؤلف أنه وضع في مكتبة سيناء القصة الشعرية « السلاسل الجبلية » للشاعر اليوغسلافي بطرس نجوش . المصدر السابق ، ص ٥٢ .
(٩٦) المصدر السابق ، ص ٨٦ .

وكان العربي هنا يعمل خادما لدى درويش باشا الشجاع ، وكان يطيع أوامره فحسب وينفذها وقليلا ما كان يتكلم .

وقد تحدثنا من قبل عن الدور الذي يقوم به مثل هؤلاء العرب في نقل الثقافة العربية الاسلامية ، وفي نشر مختلف الحكايات عن العرب . ومن الملاحظ أن أمثال هؤلاء العرب كانوا على الدوام مرتبطين بشخصيات تركية . وهكذا كانت الحال في قصة « ليلى التي جعلوها مسلمة » . وهذا يدعونا الى الافتراض بأن ظهور العربي في هذه القصة يحتمل أن يكون نتيجة طبيعية لقدوم الأتراك الى يوغسلافيا .

« الخادم الغريب »

لاحظ الباحثون أن عددا كبيرا من قصص الأديب يانكو فيسيلينوفيتش كان مشابها للقصص الشعبية من حيث لهجة السرد ومن حيث اللون والصوت والترنيم . وبعض منها كان له الهيكل الانشائي للحكاية الشعبية[٩٧] . وهذه الملحوظة تسري أيضا على قصة الأديب يانكو فيسيلينوفيتش « الخادم الغريب » التي نشرتها مجلة « ديلو » عام ١٨٩٥ . ومؤلفها يعترف بنفسه بأنها حكاية شعبية خرافية[٩٨] . وهي تحكي عن تاجر يدعى « يفتا » كان غنيا يملك الكثير من الأموال ، وبالرغم من ذلك فقد كان بخيلا يجمع الذهب ولا يريد أن يعيش كانسان . من أجل هذا فقد تقرر أن تذهب ثروة « يفتا » البخيل إلى « بيرا » القصاب . وكان العربي الأسود يحرس هذه الثروة ورفض أن يلمسها « يفتا » لانها لم تعد ملكه . وهذا هو ما حدث بالفعل فقد حصل « بيرا » القصاب ذو القلب الطيب على هذه الثروة كما كان مقدرا .

يتضح من هذا الموجز للقصة أن مؤلفها كاتب شعبي بالمعنى الحقيقي لهذه الكلمة . وهذا ليس فحسب لأنه يضفي على الأقصوصة الروح الشعبية بل لأنه كان يكتبها في شكل الحكايات الشعبية أيضا . وبداية الأقصوصة تذكرنا بالفعل بالحكاية الشعبية ، والحوار أيضا مشابه لحوار الشعب لأن المؤلف يضفي عليه الصبغة واللهجة الشعبية ويصيغه بمهارة بالغة وبشكل طبيعي بحيث يحصل المرء على انطباع بأن كل كلمة وكل صوت في مكانه . ومن المفيد أن نضيف هنا أن المؤلف قد أخذ فكرة هذه الأقصوصة من فكرة الحكاية الشعبية المسماة « بثروة بكري باشا »[٩٩] .

سواد العربي :

وقد ضمن المؤلف في قصته اعتقادا شعبيا قديما بأن الانسان العربي أسود اللون . ونظرا لتكرار هذا الوصف في كثير من القصص فانه يحتاج إلى وقفة وتمعن . لقد كان يوجد بالمعتقدات القديمة للسلاف الجنوبيين ـ وهم أسلاف اليوغسلاف الحاليين ـ صراع بين الاله الأسود والاله الأبيض[١٠٠] وقد انعكس هذا الصراع في عديد من القصص الشعبية . وبعدها اكتشف السلاف أن هناك عربا سود البشرة . ويبدو أن هذا الاكتشاف كان صدمة لهم . وقد ازداد عدد العرب السود منذ أن بدأ اختلاط مسلمي افريقيا والبربر بالعرب ، ومن المرجح أن السلاف الجنوبيين عرفوا عربا سودا أكثر من معرفتهم للعرب غير السود وذلك خلال التعارف التاريخي بين العرب والسلاف الجنوبيين[١٠١] في المعارك التي جرت بين العرب والبيزنطيين . كما أن للعباسيين دورا خاصا هنا بشرتهم السوداء وكذلك بعباءتهم السوداء . وقد انطبع لونهم وشكلهم في ذهن السلاف الجنوبيين وذلك

---

(٩٧) الأدباء اليوغسلاف العرب ، ص ١٤ .
(٩٨) مجلة ديلو ، ١٨٩٥ ص ١٩٩ .
(٩٩) مجلة « حورية البوسنة » رقم ١٩ ، ١٩٠٠ ، ص ٢٦٨ وما بعدها .
(١٠٠) اليسابيتا شايكافوفيتش ، « الاسطورة والدين عند العرب » ، بلغراد ١٩٧٣ ، ص ٣٥١ .
(١٠١) لكاتب هذه السطور دراسة مفصلة عن العلاقات بين العرب والسلاف الجنوبيين عبر التاريخ ستنشر في فرصة لاحقة وقد أوجزناها في نهاية هذه الدراسة .

علاوة على التأثير المحتمل لقصص البطولات الشعبية العربية التي يقوم ببطولتها عرب سود البشرة مثل عنترة ابن شداد والظاهر بيبرس . واختلط كل هذا بمختلف الأفكار الخاطئة المتعلقة بالمصائب التي يجلبها اللون الأسود والخرافات المتعلقة بهذا اللون . ومما لا ريب فيه أن تصور وانطباع السلاف الجنوبيين عن العرب اختلط ببعض عناصر المعتقدات والتراث الروحي والواقع الحقيقي .

وقد كانت هذه الصفة تستخدم في الأدب الشعبي فحسب . واستخدام المؤلف لنفس هذه الصفة يقرب قصته من الحكايات الشعبية . وفي هذا المضمار يعترف المؤلف نفسه بأن للفن الشعبي تأثيرا عظيما على تطور نشاطه الروائي ويعترف كذلك بأنه بدأ الكتابة متمثلا ومحتذيا بالحكاية الشعبية باعادته سرد أفكارها ومراعيا أن يكون صادقا في التعبير عن لهجتها ولغتها»[١٠٢]. وزيادة في الايضاح نضيف أن للمؤلف في حياته ثلاثة معلمين وهم : الشعر الشعبي وخادمه الخاص (نيكولا) وجدته « بويانا » . أما الشعر الشعبي فقد منحه الالهام والخيال . وكان خادمه الخاص الذي زار عديدا من البلاد يحكي للمؤلف حكايات كثيرة عن هذه البلاد . ومن جدته « بويانا » تعلم المؤلف كثيرا من الحكايات الشعبية التي لا تنسى[١٠٣]. وعند كتابته لأول قصصه كان المؤلف يجتهد في أن يفعل ذلك كما يفعله الشعب وكما سمعه من فم جدته . هذا علاوة على أنه تعلم تعليما جيدا في مدرسة الشعب ، ففي خلال فترة قيامه بالتدريس حمل في قلبه أقوى الانطباعات من حياة الشعب وكان هذا هو مصدر هذه الحكاية وغيرها من الحكايات الاخرى .[١٠٤]

« الصوم الكبير »

هذه القصة القصيرة لمؤلفها ياشاتوميتش والمنشورة في مجلة « ديلو » عام ١٨٩٦ هي في الحقيقة جزء من رواية طويلة بعنوان « الناصريون » وتحكي عن « بوريفوي » الذي أنقذ أحد الرهبان ، فحدثه الأخير عن بيت المقدس وعن تلك العجائب التي تحدث هناك وقص عليه الراهب كيف أن أعدادا غفيرة من الناس تذهب إلى هناك لكي يريحوا أنفسهم ويتقبلوا الغفران لذنوبهم . ومنذ ذلك الحين ازداد إهتمام بوريفوي بالقدس إلى أن أعلن هو و « سيما » بائع الخبز أنهما يريدان أن يريحا أنفسهما وأن يذهبا إلى القدس وأن يأكلا خبز البركة هناك . وقبل ذلك يريد كل منهما أن يستعد استعدادا لائقا لهذا الغفران ويصوم أكبر صوم للحج وهو ثلاث سنوات متواصلة . إلا أن « سيما » بائع الخبز لم يتحمل الصيام وبعد ستة شهور أقلع عنه ، وأخذ يدافع عن نفسه أمام الناس بأنه لم يستطع أن يتحمل اختبارات الشيطان الذي كان يأتي له كل ليلة . أما « بوريفوي » فلم يستسلم إلى أن ظهر له الشيطان الذي كان من بين ما وسوس له به أن زوجته تخونه . ولم يستطع « بوريفوي » أن يتحمل أكثر من ذلك وقتل زوجته انتقاما لشرفه الذي لم يمس على الاطلاق ، وبدلا من أن يذهب إلى القدس ذهب لقضاء عقوبة الأشغال الشاقة .

وفي هذه القصة تدور جميع الأحداث حول مدينة القدس التي ـ فيما يبدو ـ لا يعرف عنها المؤلف معلومات كثيرة ، فعلى سبيل المثال لا يعرف عن الطريق المؤدي إليها إلا أنه يمر عبر ممالك وصحارى ومدن وبحار[١٠٥] . ومن الطريف أن رواية « الناصريون » مكتوبة كلها في السجن[١٠٦]. والكاتب هنا لم يؤلف روايته حسب مبدأ الفن للفن بل حسب مبدأ الفن من أجل الأفكار . وذكره هنا للأماكن العربية الدينية مرتبط أساسا بالفكرة الدينية التربوية لروايته . *

---

(١٠٢) يوفان سكرليتش ، « أدباء وكتب » ، الجزء الثاني ، بلغراد ١٩٣٢ ، ص ١١٠

(١٠٣) سفيتان بيلوفا ، « ياكوفسليفيتش حياته ومؤلفاته » ، بلغراد ، ص ٢١٠ - ٢٢ .

(١٠٤) المصدر السابق ، ص ٢١١ .

(١٠٥) ياشاتوميتش ، « الناصريون » ، نوفي ساد ١٨٩٦ ، ص ٢٧ .

(١٠٦) فلاستوري الكسيفيتش ، « تاريخ حياة ياشاتوميتش » ، بلغراد ١٩٣٨ ، ص ٥٥ - ٥٦ .

وياشاتوميتش (١٨٥٦ - ١٩٢٢م) اشتغل بالصحافة والسياسة وبالأدب وقد درس الطب والأدب في فيينا وبراج، ولكن شغله بالسياسة أبعده عن الدراسة. ومعظم أعماله الأدبية تمثل محاولة القيام بمعالجة أدبية لموضوعات سياسية لها مضمون اشتراكي في البداية ثم مضمون راديكالي برجوازي فيما بعد. ومن المحتمل تأثره بالرومانسية من ناحية اهتمامها بالشرق.

«ماركو يلغي جزية الزواج»

من المعروف أن الأدب الحقيقي لكل شعب هو مرآة لحياته وصدى لمشاعره وموقظا للأفكار العظيمة، ونظرا لأن منطقة الجبل الأسود بيوغسلافيا ثرية جدا بالشعر الشعبي وبالمؤلفات الشعبية بوجه عام فلم يكن من العجيب أن مجلاتها في ذلك الحين كانت تفسح على صفحاتها مكانا لنشر هذه الأجناس من الأدب الشعبي[١٠٧].

وعلى صفحات مجلة «الشعلة» التي تصدر في مدينة تستينيا بمنطقة الجبل الأسود وفي عددها لعام ١٨٩٦م نجد محاولة لتأليف مسرحية أخذت فكرتها من الشعر الشعبي، فقد كتب المؤلف «يوفو توتا» مسرحية من فصلين تقوم في أساسها على نفس فكرة القصيدة الشعبية التي تحمل عنوان «ماركو يلغي جزية الزواج».

ويركز الكاتب في مسرحيته هذه على أن عربيا اشترى منطقة كوسوفو من السلطان التركي بايزيد، وقد منحه هذا حقا في أن يفرض قانونا وحشيا صارما على الصربي البائس. وقوة العربي وظلمه هنا أكثر بروزا وجلاء منها في القصيدة أو الحكاية الشعبية اللتين تحملان نفس العنوان. ونظرا لأن العربي كان - على نحو ما - ممثلا للسلطة التركية، فقد كان الشعب يكرهه كما كان يكره الأتراك، ومن هنا تأتي العداوة الشديدة، والخوف المريع من العربي الذي كان ينشر الهلع والفزع بطغيانه وجبروته.

ولقد كان سكان منطقة الجبل الأسود هم الجنود المتأهبون على الدوام في الكفاح الدامي ضد الأتراك من أجل حريتهم واستقلالهم، ولذا فإن قصائد البطولة ازدادت وفرة وخصوبة في ذلك الحين. وبناء عليه فإن المؤلف «يوفو توتا» لم يختر بمحض الصدفة هذا الموضوع الخاص بالغاء جزية الزواج لكي يضعه في قالب مسرحي، بل أراد أن يقدم بأسلوبه مثالا نموذجيا للطريقة التي يتم بها تأليف عمل أدبي جديد على أساس شعبي - أي قائم على فكرة مأخوذة من القصائد الشعبية أو من الأدب الشعبي بوجه عام. إلا أنه ليس من المفهوم على الاطلاق تجاهل النقاد في ذلك الحين - بل وحتى النقاد فيما بعد - وعدم تقويمهم لهذه المسرحية الدرامية رغم أنها كانت تمثل محاولة فريدة في نوعها وفي مجالها

وحسب ما كُتب عن مجلة «الشعلة» التي نشرت هذه المسرحية الدرامية يمكن أن نستنتج أن هذه المسرحية لم تحظ بالنقد الحقيقي المطلوب[١٠٨]. وبغض النظر عن كل هذا فقد نجح المؤلف في أن يكون كاتبا مسرحيا جيدا وأن يحقق فكرته الرومانسية بتأليف مسرحية درامية على أساس فكرة مأخوذة من القصائد الشعبية.

«بلا هدف»

كاتبا هذه الرواية قدما في حينها عددا كبيرا من القصص المرتبطة بمنطقة البوسنا والهرسك. وفي هذه القصص كان الكاتبان، عثمان - عزيز، لا يحاولان إحياء بقايا الأساليب الرومانسية، بل حاولا أن يتحدثا بأعلى صوت لقدراتهما على إصلاح بيئتهما. وهكذا كانت أيضا روايتهما «بلا هدف» التي شرحا فيها على ما يقرب

(١٠٧) تريفون جوكيش، «عرض النشاط الأدبي لمنطقة الجبل الأسود»، تستينيا ١٩٥١، ص٨٦.

(١٠٨) دوشان فوكسان، «عرض للصحافة في منطقة الجبل الأسود من ١٨٣٤ وحتى ١٩٣٤»، تستينيا ١٩٣٤، ص٧٣.

من مائتي صفحة الفكرة الأساسية التالية · لا يمكن تقديم أية مساعدة على الاطلاق إلى الجيل الأول من الشباب الحالي ، لأن جذوره وأعماقه أصابها الفساد ولن تنبت منها بعد ذلك أية نباتات فيها حياة ، ولكن لا يأس مع الحياة فلديهما حل للمشكلة وهو أنه علاوة على التطبيق السليم للاسلام ـ الذي حسب رأي الكاتبين لم يتفقه فيه العلماء بالدرجة الكافية ـ لابد الا يُقبل من الثقافة الغربية إلا كل ما هو طيب وجيد . وهذا الحل وحده يمكن أن ينقذ مسلمي البوسنا والهرسك .

وفي ذكرهما لمبررات هذه الفكرة الأساسية كان لابد للكاتبين أن يتحدثا عن العرب وعن ثقافتهم وحضارتهم . فتحكي لنا الرواية على سبيل المثال أن البطل قد التحق بالمدرسة بناء على رغبة والديه ورغبته هو أيضا لأنه كان يتمنى منذ صغره أن يكون واعظا وأن يكون بامكانه أن يرتدي الجبة والقفطان اللذين عادة ما يُعتبران عند المسلمين في البوسنا والهرسك علامة على العلم في حين يرتديهما كل عربي لديه ما يكفي من النقود لشرائهما . ومن الجلي أن أحد الكاتبين أو كليهما يعرف اللغة العربية وأن معرفتهما بالعرب على مستوى طيب ، ويمكن الاستدلال على ذلك بالمناقشة التي جرت عن الاسلام بين شخصيات الرواية والتي نخرج منها بأن الكاتبين يعتقدان أن الاسلام لا يمنع أحدا من التمسك بقوميته ، أي أن يكون مسلما فرنسيا أو ألمانيا حسب ماضيه ودمه ولغته ، ذلك لأن الاسلام ليس دينا محصورا ضيقا ، وفي مقارنة بين الأدب الأجنبي والأدب العربي يدلي المؤلفان برأيهما بأن كل شيء مسروق من العرب .

وبوجه عام يتحدث المؤلفان عن الاسلام على أساس معرفتهم الكاملة بالموضوع من مصادره العربية الأصلية . وهذا يؤكد معرفة أحدهما أو كليهما باللغة العربية معرفة جيدة . ويؤكد هذا أيضا الكثير من التعليقات عن اللغة العربية وعن قواعد نحوها المتناثرة في كل الرواية[١٠٩] ويعترف المؤلفان ـ على لسان بطل الرواية ـ أنهما شاهدا اخوتهما المسلمين في أفريقيا وآسيا وأن بينهم تشابها كبيرا[١١٠] .

« المهاجر »

أما قصة « المهاجر » لنفس المؤلفين فتحكي عن « هاسو » الذي يستعد للذهاب إلى استامبول لقضاء بعض الأعمال . ولكي يرى أكثر خلال رحلته فقد توجه إلى مصر ومنها بحرا إلى تريستا . وقد زار الاسكندرية ومنها توجه إلى بورسعيد حيث ركب الباخرة المتجهة الى تريستا . وعلى ظهر الباخرة تعرف على قبطانها الكرواتي الذي كان يعرف صديقه ورفيق صباه « رضوان » . وقد قص القبطان على « هاسو » كيف رأى « رضوان » منذ سنة في ميناء بورسعيد وهو يعمل حمالا . وفي احدى المرات انقلب « رضوان » بالحمل الذي كان يحمله وسقط به في البحر . وعند سقوطه ارتطم رأسه بالباخرة ولم يعد هناك أمل في انقاذه . والمعلومات المذكورة عن هذه المدن المصرية ضئيلة للغاية ، ولا يمكننا على أساسها أن نقدر مقدار معرفة الكاتبين لهذه المدن .

ونجد في تاريخ حياة عثمان حاجيتش أنه يجيد اللغة العربية وأنه ترجم كثيرا من المؤلفات العربية[١١١] . أما عزيز (إيفان ميليتشيفيتش) فقد درس الحقوق في جامعة فيينا[١١٢] وكان محررا ومؤسسا لبعض المجلات القانونية في زغرب[١١٣] .

(١٠٩) عثمان ـ عزيز ، « بلا هدف » ، زغرب ١٨٩٧ ، ص ٣٧ ، ١٦٩ .
(١١٠) المصدر السابق ، ص ١٧٤ .
(١١١) كان من بين ما ترجمه عثمان حاجيتش هو كتاب عن محمد عليه الصلاة والسلام تأليف أبو الفدا وصدر في سراييفو ١٩٠٢ ، واشترك كذلك في ترجمة قصص ألف ليلة وليلة .
(١١٢) دائرة المعارف اليوغسلافية ، الجزء السادس ، زغرب ١٩٥٥ ، ص ١١٩ .
(١١٣) ينظر لاسدا ، « الأدب في منطقة الهرسك » ، مجلة أوروبا الجديدة ، العدد السابع والثامن ١٩٣٥ ، ص ٢٧٣ .

« الدخل الأخضر »

يتحدث الأديب اليوغسلافي « أدهم مول عبديتش » في هذه الرواية عن دخول الجيش النمساوي إلى البوسنا . وهذه الرواية في حقيقتها تجربة شخصية للمؤلف ، تجربة ذاتية موضوعية ، تجربة محزنة في جوهرها وبعيدة المدى باعتبارها تحولا وفتحا لحضارة جديدة واكتشافا لأفق روحي جديد(١١٤) وقد عالج المؤلف هذه التجربة وطورها فنيا بشكل مؤثر في روايته .

وتحكي الرواية عن مدينة « ماجلاي » التي كان يوجد فيها مقهى صغير يسمى مقهى العربي . وكان مالك هذا المقهى عربيا حضر مع سيده من الكعبة ، وبعد وفاته أصبح حرا وفتح هذا المقهى التي كان يجلس فيه الشباب ، ورغم فقر هذا العربي فقد حطم كل ما في مقهاه وذهب لكي يكافح مع الشعب ضد المحتل النمساوي . واشترك العربي بكل جرأة في هذا النضال ضد المحتل ، وكان على الدوام في المقدمة إلى جانب الراية رغم أن المعارك كانت عنيفة . وفي النهاية فقد العربي حياته في كفاحه البطولي ضد المحتل رغم هرب الكثيرين .

ونجد أن أدهم مول عبديتش اتخذ من بعض جوانب حياته وذكرياتها مادة موضوعية لأحداث روايته أو أنه أوجزها في أفكار طورها إلى مواقف ونظريات تتشابك في عمله الأدبي كله . وهذا يدلنا على صدق المؤلف وعلى خوضه لهذه المواقف في الحياة وعلى معرفته لأبطال الرواية ولأوهامهم وآمالهم ولعثراتهم ونجاحاتهم . ويبدو لنا في بعض الأحيان أنه يريد أن يقدم موعظة معينة أو أنه يدعو لفكرة معينة .

وأول جانب من تاريخ حياة المؤلف هو خوضه لغمار الاحتلال النمساوي المنغاري للبوسنا والهرسك . وقد عاش هذه التجربة بشكل مأساوي وكأنها مصيبة كبيرة يمكن أن تصيب أي شعب وأي بلد . والجانب الثاني من تاريخ حياته هو تقديسه للعمل وللتعليم والتعلم ، الأمر الذي يبرز في حيرته العلمانية(١١٥) .

ويذكر النقاد أن المؤلف في وصفه لزوجة عمر أفندي ولأبنائها قد سجل العديد من المعلومات عن عائلته الشخصية بينما يؤكدون أن شخصية الابن الأصغر في الرواية ما هي إلا شخصية المؤلف نفسه . ومن المعروف أن المؤلف قد ولد في مدينة « ماجلاي » وفي خلال الحكم التركي لهذه المناطق أنهى دراسته الأولية ثم الرشيدية(١١٦) وبعد ذلك أنهى دراسته بمدرسة المعلمين . وبناء عليه فمن المؤكد أنه يعرف اللغتين التركية والعربية . وأدب المؤلف نابع من التقاليد الروائية الشعبية وكذلك من ملاحظاته للحياة العصرية . ومن جهة أخرى نرى أن أدبه لا يعالج إلا المشاكل الراهنة للتطور الاجتماعي والثقافي للمسلمين في البوسنا والهرسك . وبذلك فإن أدبه يجمع بين الماضي والحاضر ، بين التقاليد العريقة والواقع الحالي لمسلمي البوسنا والهرسك إبان حكم النمسا المنغارية . ولكنه يتعايش مع كل هذا بشكل ذاتي وشخصي وكأنه أجزاء مكملة لحياته ولمصيره .

وعند قراءة تاريخ حياة المؤلف نحصل على انطباع بأن رواية « الدخل الأخضر » ليست شيئا آخر سوى تجربة واقعية صادقة للمؤلف . وهذه التجربة تدفعنا إلى التساؤل : ألا يمكن أن تكون شخصية العربي في هذه الرواية حقيقية هي الأخرى . ورغم أنه من السهل للغاية أن نفترض ذلك إلا أن ذلك يصعب اثباته . وبالاضافة إلى ذلك يمكن أن يكون ظهور العربي في هذه الرواية رمزا للتعاون والوفاء مع شعب البوسنا والهرسك . والعربي أيضا رمز للكفاح المستمر ضد المحتل النمساوي المنغاري . وقد أثبت العربي ذلك بأفعاله فقد كان قلبا وروحا في جانب الشعب وكافح معه

(١١٤) محسن رزفيتش ، « الأعمال المختارة لأدهم مول عبديتش » ، الجزء الثاني سراييفو ١٩٧٤ ، ص٨ .

(١١٥) المصدر السابق ، ص٨ ـ ٩ .

(١١٦) الرشيدية هي المدرسة الاعدادية وهي مستخرجة من الكلمة العربية « رشيد » بمعنى ناضج .

ورافق أحمد بطل الرواية كظله الذي لا ينفصل ، وحاربا معا بشراسة وشجاعة ضد المحتل إلى أن ضحى العربي بحياته في النهاية من أجل استقلال ماجلاي .

« القاطرة »

وتتحدث هذه الأقصوصة التي كتبها كذلك أدهم مولى عبديتش عن أول قاطرة بخارية تدخل المدينة ، وقد تم استقبالها استقبالا حافلا . وعند وصفه للقاطرة ذكر المؤلف أنه هبط منها عربيان وتركاها وحدها . ومثل هذا الرأي كان سائدا بين الناس الذين كانوا يعتقدون أن القاطرة البخارية قد أتت من جهنم وكان يدفعها عربيان وكأنها زبانية جهنم . والحقيقة أن سواد الدخان قد غطى وجهي السائقين بحيث أنهما كانا يبدوان كائنين من السود .

وقد وصف المؤلف العرب بأنهم سود اللون وهو في ذلك متأثر بالأدب الشعبي كما وضّحنا من قبل . والمقارنة هنا معبرة وتشبه التوابل التي تضاف إلى التعبيرات من أجل ابراز مجازات معينة . ويورد أحد الباحثين في الأدب الشعبي أن الشعب قد أخذ المقارنة بالألوان من بيئته المباشرة عن طريق تداعي الأفكار والخواطر . ولكن هذا الباحث لم يثبت لنا بالأدلة افتراضه هذا ، ولم يعالجه على نحو مفصل ، ولم يذكر لنا كذلك شيئا عن المقارنة المشهورة : أسود كالعربي [١١٧] . وبغض النظر عن كل هذا فمن اليسير أن نلاحظ أن روح الأدب الشعبي بمعتقداته قد سيطرت على أدب المؤلف .

وأدهم مولى عبديتش (١٨٦٢ - ١٩٥٤م) قضى الجزء الأكبر من حياته في سرايفو عاصمة منطقة البوسنا والهرسك المملوءة بالمسلمين وكان رئيسا لتحرير مجلة « بيهار » ، وكان يكتب القصص والروايات والمسرحيات الدرامية ويصور في مؤلفاته حياة مسلمي البوسنا والهرسك .

الذكر الثانوي :

رغبة منا في القاء مزيد من الضوء على هذه الظاهرة قررنا أيضا دراسة ما أسميناه بالذكر الثانوي للعرب وكل ما يتعلق بهم من ثقافة وحضارة وأماكن جغرافية وما الى ذلك . فهذا الذكر الثانوي يشمل جوانب عديدة من حياة العرب ويتناثر هذا الذكر في مؤلفات عديدة من مختلف ألوان وأجناس النثر ويتم عرضه بأساليب مختلفة وأشكال متباينة . ومن المؤكد أن لهذا الذكر أيضا أهميته فهو ليس بالظاهرة اليومية المألوفة التي يمكننا أن نتغاضى عنها وألا نلتفت اليها .

ولاينبغي أن نغفل الحقيقة القائلة بأن عدد النصوص النثرية التي وجدنا فيها ذكرا ثانويا للعربي بلغت ١٢٣ نصا يوجد فيها بهذا أو ذاك الأسلوب ذكر للعرب ولأشياء كثيرة مرتبطة بهم سواء من قريب أو من بعيد . ولابد أن تكون لهذا كله دوافعه وأسبابه . ولاشك أن دراسة وتحليل هذه النصوص يمكن أن تقدم لنا أساسا لبعض الاستنتاجات الجديدة المفيدة الهامة أو على الأقل يدعم الاستنتاجات التي خرجنا بها من دراسة نصوص المجموعة الأولى .

وحسب قائمة النصوص النثرية التي تم جمعها يمكن ملاحظة أن هناك كتابا وأدباء يوغسلافيين يكثرون من ذكرا العرب وكل مايتصل بهم ذكر ثانويا ، ولذا فاننا سنلقي نظرة موجزة على أهم هؤلاء الكتاب حتى تكون الصورة أمامنا أكثر وضوحا .

ولقد كانت الرومانسية خلال عشرين عاما هي الطابع الأساسي لمؤلفات الأديب « جورا ياكشيتش » (١٨٣٢ - ١٨٧٨ م .) وكانت الاحداث الثورية التي جرت في الفترة من ١٨٧٥ وحتى ١٨٧٨م قد ملأت قلب « جورا » بحب الوطن [١١٨] ، وكل قصصه الرومانسية تعالج الأحداث التاريخية من الماضي البعيد أو القريب ويصور فيها « جورا » الوقائع كما يصور

---

(١١٧) ميلولوي كنيجيتش ، « الأدب الشعبي » ، سرايفو ١٩٧٤ ، ص ٢٦٧ - ٢٧٨ .

(١١٨) يرين جيفانوفيتش ، « الأعمال الكاملة لجورا ياكشيتش » ، الجزء الرابع ، بلغراد ١٩٣١ ، ص ٢٢١٢ .

الرسام الواقع في لوحاته . (١١٩) وأقاصيصه التاريخية ليست الا تعبيرا عن الموضة الرومانسية في تصوير القرون الوسطى . وقد قدم لنا في قصصه صورة للبؤس الفظيع الذي كان على أفراد الشعب الصربي أن يتحملوه وهم ينوءون بعبء سيطرة أغنياء المجر وسلطانهم . والعناصر الأساسية لأسلوبه هي التعبير العاطفي والكلمات الخطابية والوصف الجميل ، وهو أسلوب أصيل للغاية ومكتظ بالتشبيهات ولهجته عاطفية على الدوام . والأديب الرومانسي جورا ياكشيتش يعرف كيف يعثر على التعبير الخاص بالرقة وبالحزن وبالآلام .

والأديب اليوغسلافي جالسكي كسافر شاندور (١٨٥٤ ـ ١٩٣٥ م) الذي أكثر من ذكر العرب في مؤلفاته ـ رومانسي أيضا . وهو يعد مؤسس الرواية الاجتماعية السياسية ، وهو الأديب الذي عقد صلة وثيقة بين فن القصة الكرواتية وبين الأدب الحديث لأوروبا الغربية وبين الأدب الواقعي الروسي . ومؤلفاته وثائق تاريخية تقدم في كثير من الأحيان صورة موثوقا بها أكثر مما تقدمه الدراسات السياسية أو الثقافية أو التاريخية(١٢٠) .

أما الأديب أوجست شنوا (١٨٣٨ ـ ١٨٨١) فقد ورث في مؤلفاته جميع أفكار الرومانسية وكل أشكالها وقد أخذ عن الرومانسية أيضا اهتمامه بالرواية التاريخية . وفي قصة « اليهودي الأبدي في زغرب » قدم لنا شنوا صورة للكروات كما رآهم في طفولته وفي سنوات صباه وفي فترة دراسته بالجامعة ، ويصور كذلك تصرفاتهم على مر العصور . وفي قصة « ذهب الصائغ » حاول شنوا أن يعرض صورة للحياة الكرواتية القديمة ، أما رواية « ثورة الفلاحين » فهي رواية تاريخية الى حد كبير ولدرجة أنه يمكن تسميتها بالدراسة التاريخية في شكل رواية (١٢١) .

أما الأديب لاذا لازاريفيتش (١٨٥١ ـ ١٨٩١م) ، فبالرغم من أنه كان يكره كل ماهو المثالي الا أن أفكاره عن المجتمع والانسان تكونت في برلين بالذات . وهذا الأديب الذي فهمه النقاد وقدموه لفترة طويلة على أنه كاتب واقعي لم يكن هكذا على الاطلاق بالمعنى الكامل للكلمة . لقد كان لاذا في أساسه رومانسيا يعبر عن نفسه بلغة واقعية في الظاهر بالتكنيك الأدبي لعصره ، انه رومانسي يشمئز من رومانسيته . وقد حقق لاذا في مؤلفاته دقة التعبير وتوازنه وشفافيته العجيبة بشكل لم يعرف له مثيل في الأدب اليوغسلافي (١٢٢)

وقد ذكرنا عن المؤلفين عثمان ـ عزيز أن أكثر أقاصيصهما من منطقة البوسنا والهرسك التي حكمها الأتراك مايقرب من خمسة قرون وتركوا فيها الكثير من عناصر الثقافة والحضارة العربية . وكان عثمان يعرف اللغتين العربية والتركية مما أتاح له أن يعرف الكثير عن العرب وعن الاسلام ويتجلى هذا في قصصهما .

وكان يوسيب تومينش يسعى في مؤلفاته الى تركيز اهتمامه على الدقة التاريخية رغم رواياته التاريخية كانت تلميحا والماعا الى الظروف العصرية . أما فلاديمير بوروتا فقد كتب أقاصيص تعالج موضوعات من بيئة البوسنا وركز فيها على تميز البيئة ووصف التناقضات بين العادات الجديدة والتقاليد الاسلامية (١٢٣) .

وبالنسبة للأديب الرومانسي لوبيشا ميتروث (١٨٢٤ ـ ١٨٧٨ م) فقد كان يقرأ المؤلفات الايطالية في أصولها وكان مشغوفا بالأدب الايطالي (١٢٤) وكان

---

(١١٩) ستيسلاف فوانوفيتش ، « الأقصوصة الفنية في الأدب الصربي الحديث » ، بلغراد ١٩٣٠ ، ص٣٢١ .

(١٢٠) إميل لقامير ، « جالسكي ك . شاندور » ، زغرب ١٩٥٢ .

(١٢١) أنطون باراتس ، « أعمال اوجست شنوا » ، الجزء الثاني ، زغرب ١٩٥١ ، ص٥٩ ـ ٥٣٠ .

(١٢٢) برني جيفانوفيتش ، « الأعمال الكاملة للاذا لازاريفتش » ، بلغراد ، ص XIII — XLVIII .

(١٢٣) دائرة المعارف اليوغسلافية ، الجزء الثامن ، زغرب ١٩٥٥ ، ص٣٦٦ ـ ٣٦٧ .

(١٢٤) كتاب القصة القصيرة في صربيا ، اعداد ماود بوجدانوفيتش ، الجزء الأول ، زغرب ، ص٧ ، ٨ .

يحتذي بالعاطفة الأدبية والخيال الجامح لكتاب القصة اليوغسلاف الذين تتلمذوا على يد ضعاف الأدباء الألمان . انه رومانسي يحتذي بالرومانسيين الايطاليين ، ومعروف عنه حبه للغة الشعب وعاداته (١٢٥) . وقصته « الحجر الملعون » هي تاريخ كامل عن المشعوذات وعن أعمالهن الشريرة . وقصته « الفتاة الفاتنة » هي رواية تاريخية صغيرة قدم فيها صورة عريضة لفترة حكم عائلة باشتروفيتش (١٢٦) .

والأديب ميلوراد بوبوفيتش شايتشانين كان يقرأ منذ شبابه المبكر مؤلفات اليوغسلاف والأجانب ، وكان يقرأ على الأكثر باللغة الألمانية وكان يفضل قراءة كتب التاريخ اليوغوسلافية والأجنبية . وكان يجيد معرفة اللغة الألمانية ويتابع لمراجع التربوية والتخصصية عن طريق المؤلفات والمجلات الألمانية . وعلاوة على ذلك كان يقرأ باللغات الروسية والفرنسية والبولندية التي كان يترجم منها أيضا (١٢٧) . وقصته الطويلة « حسن أغا » هي رواية كاملة تعالج موضوع ثورة حسن أغا ، وبعض أحداث من تاريخ البوسنا . وبالقصة مجال كبير للرومانسية وتحتوي على قصص ثانوية تضيع فيها الأحداث والشخصيات الأساسية . وركز فيها المؤلف على الاتجاه الوطني ، وفي بعض الأحيان كان يكثر من تكرار الحقائق التاريخية فتضيع بذلك الفكرة الرئيسية للاقصوصة . وقصة « الأسقف جينيديا تحتوي على الكثير من الرومانسية والعاطفية وتحكي قصة حب سطحي بين شاب صربي وفتاة تركية وبذا يكون فيها مجال لأشياء ترتبط بالعرب .

أما الأديب الرومانسي بوجوبوي اتانا تسكوفيتش فقد قضى - كما ذكرنا من قبل - فترة طويلة في فرنسا وألمانيا وسويسرا وايطاليا وانجلترا . والوطنية تبرز من كل سطر من سطوره ، وهناك صلة قريبة بين كتاباته وبين الشعر الشعبي الذي يستعير منه الكثير من التفاصيل والموضوعات ، وهي كلها أمور كانت تحبب القراءة في أعماله . انه رومانسي ونادرا ما كان يبتعد عن رومانسيته ، ويعتقد الناقد يوفان سكرليتش أن قصة « الأم والابنة » تبدو في بعض أماكنها وكأنها ترجمة ألمانية عاطفية محزنة (١٢٨) .

وهكذا نرى أن معظم الأدباء الذين يذكرون العرب في أقاصيصهم ورواياتهم هم أدباء رومانسيون خاضعون لتأثير الرومانسية سواء أكانت يوغسلافية أم ألمانية ، هذا علاوة على تأثير الأدب الشعبي على مؤلفاتهم وكذلك تأثير معرفتهم للغات الأجنبية . وقد قصدنا بعرضنا لمقتطفات من حياة بعض الأدباء الذين ذكروا العرب في كتاباتهم بشكل أو بآخر أن نؤكد هذه الأمور من واقع حياة هؤلاء الأدباء .

واذا ألقينا نظرة على قائمة النصوص النثرية التي جمعناها تبين لنا أن بعض النصوص منشورة في مجلات أدبية والبعض الآخر في كتب . ومن ثم تعين علينا اعادة ترتيب النصوص حسب نشرها ، واتضح لنا على الفور أن مجلة الاكليل (فيناتس) (١٢٩) التي كانت تصدر في

---

(١٢٥) يوفان سكرليتش ، « لوبيشا ستيبانا ميتروفا » ، مجلة ليتوبيس ماتيتسا صربسكا لعام ١٩٠٨ ، العدد ٢٤٨ ، ص٣٠ .

(١٢٦) ميلوش سافكوفيتش ، « الأدب اليوغسلافي » ، بلغراد ١٩٥٨ ، ص١٣٨ .

(١٢٧) أورويش جوتيش ، «(١٢٧) أورويش جوتيش ، « الأعمال الكاملة لميلوراد شايتشانين » ، بلغراد ١٩٣٢ ، الجزء الخامس ، ص ١٥

(١٢٨) الأعمال النقدية ليوفان سكرليتش ، ص١٠٨

(١٢٩) مجلة الاكليل « فيناتس (١٨٦٩ - ١٩٠٣) تصدر في زغرب وكانت - في حينها - هي المجلة الكرواتية الرئيسية وكان لها دور ونشاط كبير في المجال الأدبي . وقبل ظهور هذه المجلة كانت أفضل المجلات الأدبية في كرواتيا تعالج الأدب معالجة لغوية فحسب أو تعتبره انه وسيلة مساعدة في الكفاح من أجل التحرر القومي . وكان شعار هذه المجلة انها تعمل من أجل التسلية والموعظة وهي تسعى في نفس الوقت الى التأثير على البيئة الثقافية في كرواتيا عن طريق الأدب الجميل وسرعان ما أصبحت هي الحكم الرئيسي على الأدب علاوة على انها كانت توجهه نحو الأدب الأوروبي . وليس هناك كاتب كرواتي لم ينشر أعماله الأدبية من خلال هذه المجلة بغض النظر عن المذهب الأدبي الذي ينتهجه أو ينتمي اليه . ونظرا لأنه لم يكن هناك نشاط منظم لنشر الأعمال الأدبية فقد كان الانتاج الأدبي في هذه الفترة مركزا على هذه المجلة بحيث لم يكن لها منافس أو منازع في هذا المضمار . وقبلت المجلة تعمل على جمع الكتاب والمحررين الجدد والقدامى حولها . وعلى نشر الأخبار الأدبية الداخلية وكانت دوما هي النافذة المفتوحة على أوروبا مسجلة كل الظواهر الثقافية الهامة . وبهذا الشكل أصبحت المجلة وثيقة ومستندا لا غنى عنه لكل من يقدم على دراسة الأدب اليوغوسلافي عامة والأدب الكرواتي خاصة في تلك الحقبة .

زغرب نشرت أكبر عدد من هذه القصص والروايات ويبلغ عددها ثلاثين نصا وأغلبها بقلم مؤلفين كروات. وتليها مجلة « حورية البوسنا » (بوسانسكاڤيلا) (١٣٠) التي كانت تصدر في سراييفو ونشرت تسعة عشر نصا، وتليها مجلة شجرة القيقب (ياڤور) (١٣١) التي كان يصدرها الأديب الشاعر يوفانوفيتش زماي في نوفي ساد ونشرت ستة عشر نصا.

وقد وجدنا أن هذه القصص والروايات تحتوى على كمية ضخمة من المعلومات المرتبطة بالعرب وبكل مايتعلق بهم. واذا جمعنا هذه المعلومات المذكورة عن العرب وعن كل مايرتبط بهم من مفاهيم جغرافية وثقافية ومادية وجدنا أن هذه النصوص النثرية قد قالت الكثير عن العرب. ومن الأماكن الجغرافية العربية المذكورة في هذه النصوص : الاسكندرية، الجزائر، العربية السعودية، عربستان، بغداد، الجليل، دمشق اليمن، القدس، الأردن، القاهرة، المدينة (المنورة)، مكة والكعبة، مصر، النيل، عدن، الفرات، النوبة، الصحراء، البحر الأحمر وغيرها. ومن الكلمات المتعلقة بثقافة العرب : الأرابيسك (الفسيفساء) واللغة العربية واسم النبي محمد (صلعم) والقرآن والاسلام وغيرها، ومن هذا يتبين لنا أن الأدباء اليوغسلاف أكثروا من ذكر الأماكن الجغرافية العربية عن ذكرهم للمفاهيم الثقافية العربية، ولم يترك الأدباء الكرواتيون - بصفة خاصة - الحصان العربي دون أن يذكروه في مؤلفاتهم.

وينبغي أن ننوه الى أن النصوص النثرية المذكورة، لم تنشر في نفس السنوات بل في فترة زمنية طويلة تبدأ من عام ١٨٥٢ وحتى ١٩٠٠، ولاشك أن هناك أهمية معينة لسنة وتاريخ نشر هذه القصص والروايات. ولكن ينبغي على الفور أن ننوه الى أنه كان من العسير للغاية في بعض الأحيان التوصل الى التاريخ الصحيح لنشر أو كتابة نص من النصوص، وفي أحيان أخرى كان من المستحيل على الاطلاق التأكد من دقة هذا التاريخ. وحتى لا تقودنا المعلومات الناتجة الى استنتاجات غير دقيقة فقد جمعنا النصوص الموجودة في كل عشر سنوات حسب الجدول التالي :

	عدد النصوص
١ - من ١٨٥٢م حتى ١٨٦٠م	٢
٢ - من ١٨٦١م حتى ١٨٧٠م	٢
٣ - من ١٨٧١م حتى ١٨٨٠م	٢٢
٤ - من ١٨٨١م حتى ١٨٩٠م	٣٥
٥ - من ١٨٩١م حتى ١٩٠٠م	٥٦

ومن هذا يتبين لنا أن عدد هذه النصوص كان في تزايد مستمر، وعلاوة على ذلك يمكننا أن نخلص الى أن القصتين الأوليين قد تم نشرهما في ١٨٥٢م، وهناك كذلك سنوات لم يتم العثور فيها على أي نص يتعلق بالعرب، وعلى الأخص في الفترة من عام ١٨٥٢ حتى عام ١٨٦٢. وأخيرا نجد أن أكثر النصوص التي جمعناها موجودة في أعوام ١٨٩١، ١٨٩٦، ١٨٩٧، لو

(١٣٠) مجلة حورية البوسنة - بوسانسكاڤيلا (١٨٨٥ - ١٩١٤م) كانت تصدر في سراييفو وتنشر جميع الأعمال الأدبية من جميع مناطق يوغسلافيا باللغة الصربوكرواتية. وقد تفوقت على مثيلاتها من المجلات الأوروبية واكتسبت شعبية خاصة منذ عام ١٨٨٧ وحتى ١٩٠٩، وبسبب اتساع شهرتها حاولت الحكومة اصدار مجلة أدبية مضادة الا انها لم تستمر رغم الامكانيات المادية الكبيرة التي كانت متاحة لها. وفي عام ١٨٩٦ حصل رئيس تحريرها نيكولا كاشيكوفيتش على وسام من السلطان التركي بسبب مجهوداته المبذولة في الاخاء بين الصرب والمسلمين. وخلال فترة صدورها كانت المجلة مصدرا لمعرفة الأدب والحياة الثقافية في يوغوسلافيا في تلك الفترة علاوة على تجميعها للقصائد الشعبية والمؤلفات الشعبية ذات القيمة العظيمة.

(١٣١) مجلة شجرة القيقب - ياڤور كانت تصدر في مدينة نوفي ساد منذ عام ١٨٦٢ من اجل التسلية والعلم والأدب. وكانت من أهم المجلات الأدبية في صربيا في تلك الحين. ومن خلالها نشر أفضل الأدباء مؤلفاتهم الشعرية أو النثرية وذلك علاوة على ترجمات لأعمال أندرسن وجرجول وجوته وبوشكين وتورجنيف وزولا ودوستويفسكي ومارك توين وموباسان وغيرهم وكان لها اهتمام خاص بالمسرح وتنشر مختلف الأخبار الثقافية والأدبية ومناقشات حول مشاكل اللغة.

(١٣٢) من اجل مزيد من التفصيلات انظر « العربي في النثر باللغة الصربوكرواتية » للمؤلف، رسالة دكتوراه لم تنشر، جامعة بلغراد يوغوسلافيا ١٩٧٩م.

في الفترة الزمنية من عام ١٨٩١ وحتى عام ١٩٠٠ (١٣٢) وهي فترة كانت تسودها الأفكار الرومانسية .

الأسباب الرئيسية :

مما سبق يتبين لنا أن شخصية البطل العربي تظهر في الأدب الروائي باللغة الصربوكرواتية في مختلف الوظائف والمهام والأدوار الرئيسية ، وبأساليب مختلفة ، ولأسباب متنوعة ومتعددة . ويمكننا أن نؤكد أن شخصية البطل العربي محفورة حفرا عميقا في هذا الأدب الروائي ، الا أنه لم تتم على الدوام معالجة هذه الشخصية بشكل متكافىء ، ففي بعض الأحيان تم تصويره من جوانب متباينة ، وفي أحيان أخرى صدرت عليه احكام وتقديرات متضاربة . وغالبا ماظهرت هذه الشخصية في لوبها التاريخي وفي بيئتها الطبيعية ، وقد أصدر كتاب هذه الأقاصيص والروايات أحكاما وتقديرات متناقضة وغير متكافئة على البطل العربي مما يجعلنا نستنتج أن كاتب الأقصوصة أو الرواية كان من خلال شخصية البطل العربي يتحدث عن ملاحظاته وانطباعاته عن العرب ، وهي ملاحظات وانطباعات تم التوصل اليها بالخبرة العملية أو تحت تأثير التقاليد الشعبية المنقولة من جيل الى جيل . تلك التقاليد الشعبية التي ظهر تحت تأثيرها بعض الأوهام . ومثل هذا الظهور لشخصية العربي يعد أمرا منطقيا وطبيعيا للغاية لأن كل كاتب ينتقي بشكل مستقل موضوعاته وأفكاره الشخصية ويعالجها حسب قوانينه التأليفية الداخلية ، وهكذا تتشكل لدى الكتاب تصورات معينة عن العرب ، منها الجيد والسيىء ومنها الصحيح وغير الصحيح .

من الدراسة المتقدمة يمكننا أن نوجز أسباب ظهور شخصية العربي كشخصية رئيسية أو ثانوية في الأدب الروائي باللغة الصربوكرواتية في الأسباب التالية :

العلاقات التاريخية :

اذا ألقينا نظرة نحو الوراء في الحقبة الأولى لبدء الفتوحات الاسلامية وجدنا أن هناك علاقات متباينة بين العرب وبين أسلاف اليوغسلاف ، وهم السلاف الجنوبيون ، في أحوال الحرب وأوقات السلم . وقد أدت هذه العلاقات الى تعرض السلاف الجنوبيين لتأثيرات متنوعة لاحصر ولا حد لها من جانب الحضارة الاسلامية العربية ، وتشير المعلومات والحقائق التاريخية الى أن التعارف بين العرب والسلاف الجنوبيين وما استتبع ذلك من تأثيرات محتملة قد تم أساسا من خلال السبل التالية :

١ ـ عن طريق الامبراطورية البيزنطية : فلقد أصبحت شبه جزيرة البلقان بلادا سلافية بعد نزوح السلاف الجنوبيين وتدفقهم على هذه المنطقة ابتداء من القرن السادس الميلادي ، وكانت شبه جزيرة البلقان تقع آنذاك تحت سيطرة الامبراطورية البيزنطية . وفي بداية القرن السابع احتاجت الامبراطورية البيزنطية الى تكوين جيش قوي جديد ، وحيث ان عدد الجنود البيزنطيين لم يكن كافيا فلم يكن من الممكن سد هذا الفراغ في الجيش الا بتجنيد السلاف الجنوبيين ، وبذلك أضافوا دما جديدا الى الجيش البيزنطي (١٣٣) وتحول السلاف الجنوبيون الى قوات تحارب وترد هجمات العرب المتكررة (١٣٤) الا انه في عام ٦٥٨م وفي عهد القيصر قسطنطين الثاني انتقلت وحدة عسكرية بيزنطية قوامها خمسة آلاف جندي من السلاف الجنوبيين الى صف القائد العربي عبد الرحمن واستوطنت في سوريا (١٣٥) ، وهذا يقودنا ـ توا ـ الى الاستنتاج بأن السلاف الجنوبيين كانوا يحاربون مع البيزنطيين ومع العرب على حد سواء . وقد جرت على الحدود بين الدولة الاسلامية

---

(١٣٣) جيورجي اوستروجورسكي ، « بيزنطة والسلالة » ، بلغراد ١٩٧٠ ، ص٩ .

(١٣٤) تاريخ يوغوسلافيا ، بلغراد ١٩٧٦ ، ص٢٥ وكذلك Aleksandar Vasilev, History of the Byzantine Empire 324 — 1453, I, Madison 1970 — 1971, p.218.

(١٣٥) قسطنطين يريتشيك ، « تاريخ الصرب » ، المجلد الأول ، بلغراد ١٩٢٢ ، ص٧٦

وبين الامبراطورية البيزنطية حروب استمرت الى مايقرب من ثمانية قرون اشترك فيها السلاف الجنوبيون مع العرب المسلمين ومع البيزنطيين . وتدفعنا هذه الحقيقة الى التقرير بأن استعراض العلاقات الحربية وغير الحربية بين العرب والسلاف الجنوبيين .

وعلى أساس هذه الحقائق يمكننا أن نؤكد ان أول اتصال مباشر مسجل بين العرب وبين السلاف الجنوبيين تم في بداية القرن السابع الميلادي وبالتحديد في عام ٦٢٩ م . على الحدود بين الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية (١٣٦) . وفي عهد الأمويين والعباسيين وحتى بداية القرن العاشر الميلادي تقريبا جرت معارك مريرة على هذه الحدود من أجل كل شبر من الارض ، وكانت تتكرر كل عام تقريبا الهجمات من كلا الجانبين ، ويتم أسر الجنود من الطرفين وتبادلهم . ومن المؤكد أن كل هذا كان يؤدي الى حدوث اتصالات مباشرة بين العرب وبين السلاف الجنوبيين وقد انعكس هذا فيما بعد على الأدب الشعبي ومنه على الأدب الروائي اليوغسلافي . وقد عرفت هذه الحدود أيام السلم أيضا عندما كان يمكن أن يتم بلاعقبات أو عوائق تبادل الثقافات والاتجاهات والأفكار الروحية وأسباب الحضارة والثقافة .

ولا شك أن العرب كانوا أول خصم للسلاف الجنوبيين عبر التاريخ ، علاوة على أن السلاف الجنوبيين كانوا يتحاربون مع العرب الذين كانوا في ذروة قوتهم ومجدهم . وظل العرب على هذه الصورة في وعي كل سلافي جنوبي الذي نقل بدوره هذه الصورة إلى أحفاده وإلى الأجيال من بعده .

ولا خلاف على أن الحرب المديدة المتواصلة التي اشترك فيها كل من العرب والسلاف الجنوبيين قد سمحت بعلاقات ثقافية متنوعة متميزة بينهما . ومن المعروف أن الحياة المشتركة قد تفرض على الأعداء في بعض الأحيان أن يتصلوا ببعضهم وأن يتعاونوا في جميع المجالات الممكنة وبمختلف الأشكال ، وبناء على ذلك فمن المنطقي تماما أن نفترض أنه كان يوجد لدى البيزنطيين وجنودهم من السلاف الجنوبيين الموجودين على الحدود العربية البيزنطية شكل من أشكال قصص البطولات يشبه قصص البطولات العربية ، ولا شك أن الجندي السلافي قد حاول أن يحكي - على طريقته الخاصة في أيام السلم وفي لحظات الاطمئنان حكايات عما كان يحدث كما كان يفعل الجندي العربي أيضا . وهذا يدفعنا ببساطة إلى الاستنتاج بأن قصص البطولات الشعبية عند السلاف الجنوبيين لا بد أنها نشأت على الحدود بين الامبراطورية البيزنطية وبين الدولة الاسلامية العربية . وهنا تعرف السلاف الجنوبيون على الأدب والحضارة العربيين . وبالتوازي مع هذا كله كانت الخبرات والتقاليد الشعبية تنتقل من العرب إلى السلاف الجنوبيين في وقت الحرب وكذلك في زمن السلم .

٢ - **عن طريق حوض البحر الأبيض المتوسط** : اذ من الحقائق المؤكدة أن الهجمات العربية على بحر الأدرياتيك خلال القرن التاسع الميلادي استمرت قرنين كاملين على فترات متقطعة بالطبع . ومما لاشك فيه أن هذه الهجمات العربية أثبتت بروز عنصر خارجي جديد له قوته الأمر الذي سيؤثر فيما بعد على تاريخ دول بحر الادرياتيك . وقد جرت معارك قاسية بين البيزنطيين والفرنجة على شواطىء بحر الأدرياتيك في اطار الصراع الاستراتيجي العسكري والاقتصادي في منطقة البحر المتوسط من أجل التجارة بين غرب أوروبا والشرق (١٣٧) .

٣ - **وقد قام تجار الدولة الفاطمية** بدور بالغ في التجارة بين مصر والهند وكذلك مع أوروبا (١٣٨) ويذكر أنه كان

---

(١٣٦) فيليب حتي ، « تاريخ العرب منذ أقدم العصور حتى اليوم » ، سراييفو ، ١٩٦٧ ، ص١٤٥ .

(١٣٧) A. Vasilev, History of the Byzantine Empire, p.212.

(١٣٨) The Cambridge history of Islam, Cambridge, 1970 p.187.

لدى الخليفة المهدي حرس خاص أغلبه من السلاف الجنوبيين القادمين من شواطىء شبه جزيرة البلقان (١٣٩) وعلاوة على ذلك كان الخليفة المعز لدين الله الفاطمي يعرف اللغة السلافية وهذا يؤكد وجود عدد كبير من الجنود والضباط من السلاف الجنوبيين لديه .

٤ ـ وقد أعادت الحروب الصليبية الاتصال المباشر بين العرب والسلاف الجنوبيين . وقد اشترك الكروات بقيادة الملك أندريا الثاني الكروات والمجر في هذه الحروب (١٤٠) التي كانت تعني الكثير بالنسبة للحضارة الغربية ، وأدت الى ازدهار النشاط التجاري بين الشرق والغرب ، وأثر هذا النشاط على أحوال أوروبا سياسيا واقتصاديا واجتماعيا ، ونتيجة لنمو التبادل التجاري انتقلت كثير من المؤثرات العربية الى الحياة الأوروبية . وفي هذا المضمار اعترف المؤرخون بأن التأثير العربي على الأدب الأوروبي كان قويا وشديدا حينما استمتع الصليبيون ومن بينهم أسلاف اليوغسلاف الى قصص من كتاب ألف ليلة وليلة ، وكليلة ودمنة ونقلوها الى بلادهم . وأصبح المماليك ـ وعلى الأخص أولئك المماليك الذين اشتركوا في الحروب الصليبية ـ صورة للبطل العربي المثالي الذي لم تنقطع الأساطير والأقاصيص عن تحميل مآثره كما في قصة عنترة بن شداد وقصة الظاهر بيبرس ، وبنفس الأسلوب أخذ المنشد أو الراوي ينقل من المجتمع الطباع والعادات والتقاليد الشعبية التي يراها حوله في قاهرة المماليك .

٥ ـ وكانت قرطبة الأموية بأسبانيا من أعظم مدن العالم مركزا للحياة الثقافية والروحية بالغرب الاسلامي كله ، لأن الحضارة العربية فيها بلغت ذروتها وكان عدد السلاف الجنوبيين بها كبيرا ، وكانوا يشكلون الحرس الخاص لبعض الحكام مثل الخليفة الحكم (١٤١) والخليفة عبد الرحمن الثالث (١٤٢) ، وبوجه عام كان الدور السياسي للسلاف الجنوبيين في أسبانيا دورا كبيرا للغاية وعلى قدر عظيم من الأهمية . وكان منهم بعض المحاربين والحكام أصحاب القصور الرائعة . وعلى الصعيد الثقافي يوجد عدد كبير من الشخصيات السلافية التي برزت بفضائلها وخدماتها (١٤٣) ، ونذكر منها على سبيل المثال لا الحصر هرمان الدالماسي الذي يقال عنه انه أول من ترجم القرآن الكريم إلى اللغة اللاتينية (١٤٤) واستمرت الحضارة العربية بالأندلس تشع نورها الثقافي والاقتصادي والفني ، وظهر أثر ذلك واضحا في أوروبا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر وما بعدهما .

٦ ـ عن طريق طائفة الباشقرد المسلمين بالمجر ، وكان عدد كبير منهم من المقاتلين الرحل ، وكان تعليمهم الاسلامي ممتازا (١٤٥) ، وكان لهؤلاء المقاتلين الرحل علاقات متنوعة بالسلاف ، ولذا فمن البديهي أنهم نقلوا عناصر الحضارة الاسلامية والعربية إلى شبه جزيرة البلقان .

٧ ـ ومن المؤكد أن الامبراطورية التركية قد حلت على الامبراطورية البيزنطية في دور الوسيط والناشر لعناصر الثقافة العربية الاسلامية بين السلاف في البلقان (١٤٦) ، وهنا كانت سبل نشر الثقافة والحضارة عديدة ومتعددة الجوانب . وقد قام بنقل عناصر الحضارة الاسلامية كل من الجنود والتجار ورجال الدين والحجاج وكذلك الحكام ورجال القلم .

---

(١٣٩) د. أ . سيميونوفا ، من تاريخ مصر الفاطمية ، موسكو ١٩٧٤ ، ص١١٨ .
(١٤٠) دائرة المعارف اليوغسلافية ، الجزء الأول ، زغرب ١٩٥٥ ، ص١٥٠ .
(١٤١) انظر فيليب حتي ، ص٤٧١ وكذلك .Cambridge history of Islam, p.413
(١٤٢) فيليب حتي ، ص٤٧١ ، وكذلك احمد عبدالفتاح العبادي ، الصقالبة في اسبانيا ، القاهرة ١٩٥٣ ، ص١١ .
(١٤٣) بوراي الدراسلي ، « السلاف في اسبانيا منذ الف عام » ، مجلة ناروديا ستارينا ، عدد ١٦ ، زغرب ١٩٢٨ ، ص٨٨ وما يليها .
(١٤٤) ميركو براير ، « النشاط الأدبي لهرمان الدالماسي » ، مجلة فيالس ، ١٨٩٦ ، ص٢٠٠ ـ ٢٠١ .
(١٤٥) .History of the Byzantine Empire, p. 316
(١٤٦) [illegible] ، « العناصر الشرقية في الحضارة الشعبية للسلاف الجنوبيين » ، مجلة الفيلولوجيا الشرقية ١٩٦٦ ـ ١٩٦٧ ، ص١٠٧ ـ ١٠٩ .

وتعرض لنا الكتب العربية القديمة معلومات عن مبعوثين ورسل وحملة رسائل الذين كان العرب والسلاف الجنوبيون يرسلونهم لتأدية مختلف المهام . ومازال ثابتا حتى يومنا هذا ما كتبه العرب عن هؤلاء السلاف الجنوبيين . المهم انه لا خلاف على أن الرسل والمبعوثين كان لهم دور هام في تعريف السلاف الجنوبيين بالعرب .

الاعجاب بشخصية العربي :

كثمرة للعلاقات التاريخية والحضارية المذكورة أعجب السلاف الجنوبيون بشخصية العربي وأعربوا عن ذلك في قصائدهم وأقاصيصهم الشعبية التي تناقلتها الأجيال حتى وصلت الينا وفيها نجد تعاطفا وميلا نحو العربي . ونتذكر في هذا المضمار كلمات الأديب اليوغسلافي يعقوب اجناتوفيتش وهي كلمات لم تصدر عن فراغ أو عن حب أعمى او هوى مؤقت بل هي تعبير عن معرفة حقيقية وعن اعجاب قائم على حقائق التاريخ .

الأدب الشعبي :

ذكرنا في معرض حديثنا أن عديدا من الأدباء اليوغسلاف قد أبرزوا شخصية العربي في أدبهم الروائي تأسيا بالأدب الشعبي الذي يكثر من ابراز العرب . والمقصود بالأدب الشعبي اليوغسلافي الفنون الأدبية المختلفة ، شعرا ونثرا ، التي لم ترتبط باسم مؤلف معروف ، والتعبير الشعبي هنا يعني تبعيتها للشعب ككل . وانتقلت هذه الفنون الأدبية شفاهة سواء بانشادها أو سردها وحكايتها من جيل الى جيل ومن بيئة الى أخرى . والمعروف أن بدايات هذا التقليد ترجع الى عصور سحيقة ، كما هي الحال لدى أي شعب من الشعوب ، حينما أخذت الحياة الاجتماعية لأسلاف اليوغسلاف تأخذ شكلها ، الا ان التغيرات القوية المتعددة في حياة اسلاف اليوغسلاف كانت تمحو باستمرار من ذاكرتهم الأشكال الادبية القديمة وتحل محلها نصوصا جديدة . وقد خلف لنا بعض المؤرخين البيزنطيين من القرنين السادس والسابع الميلادي معلومات تشهد بوجود القصائد الشعبية لدى اسلاف اليوغسلاف الذين كانوا قد نزحوا الى مناطق البلقان الواقعة تحت السيطرة البيزنطية[١٤٧] .

وسيطرة الأتراك في القرنين الرابع عشر والخامس عشر على معظم الأراضي اليوغسلافية أصبح الأدب الشعبي بألوانه وفنونه المتباينة هو التعبير الوحيد عن عواطف الشعب وآماله وأفكاره فحصل بذلك على موضوعات وأفكار جديدة ترتبط اساسا بمقاومة الأتراك الغزاة . وكان اللون الاكثر بروزا من فنون الادب الشعبي هو الملحمة التي نجد آثارها منذ القرن السادس عشر تقريبا . وهناك مجموعات كاملة من القصائد الملحمية تحكي عن الأحداث والشخصيات الهامة في الصراع الرهيب بين الأتراك واليوغسلاف . وهناك - على سبيل المثال - مجموعة كاملة من القصائد عن معركة واحدة هي معركة كوسوفو وعن الأبطال الذين سقطوا في ساحتها ، وعن تفاصيلها ووقائعها وما الى ذلك . وتوجد ايضا مجموعة قصائد عن البطل اليوغسلافي ماركو كارليفيتش وعن مبارزاته ولقاءاته مع البطل العربي . وفي هذه القصائد تبرز روح الثورة والنضال والتضحية والبطولة . وهنا يتخذ الأبطال ملامح أسطورية لا تمحى ، فالبطل ماركو كارليفيتش يتحول الى رمز للنضال من أجل العدالة والشعب والحرية ، ويصبح العربي رمزا للبطش والاستبداد والطغيان وما الى ذلك من الرموز التي سرعان ما اختلطت بالرموز الأسطورية . وكان المقصود أساسا من هذه الرموز هو رفع الحال النضالية لدى جماهير الشعب واشعال حماسه لمواجهة أي مستعمر أو غاز ، وهكذا يمتزج الواقع التاريخي الفعلي بخيال المنشدين وبأحلامهم النفسية ،

(١٤٧) ميودراج بوبوفيتش ، « الرومانسية » ، الجزء الأول ، بلغراد ١٩٧٤ ، ص ١١ .

وهكذا تمتزج قضايا ومعارك الماضي بقضايا الحاضر ومعاركه . وقد أبدع المنشدون في هذا المزج بين الواقع والخيال بحيث يصعب الفصل بينهما .

وخلال القرن الثامن عشر لم يكن الأدب الشعبي معروفا لدى جماهير المثقفين اليوغسلاف . ويرجع أن الاهتمام الفعلي بهذا النوع من الأدب بدأ منذ عام ١٧٧٤م حينما أطلع الكاتب الايطالي البرتو فورتيس (١٧٤١ - ١٨٠٣م) الرأي العام على القصائد الشعبية اليوغسلافية من خلال ترجمته للقصيدة الشعبية المشهورة عن زوجة حسن أغا[١٤٨] .

وعلى اثر ذلك أخذ الشعر الملحمي ينتشر ويتغلغل بين جميع طبقات الشعب ، وأدى الانتشار الى اثراء مضمونه وتكامل أشكاله بحيث انه في نهاية القرن الثامن عشر وعلى الأخص خلال الثورة التي انفجرت من عام ١٨٠٤ وحتى عام ١٨١٥م عاشت الملاحم عصرها الذهبي ، خاصة أن المنشدين اخذوا يفرضون ذاتيهم وبطولة الثورة على القصائد الملحمية مما صبغها بصبغة رومانسية وحيث انهم كانوا في اشعارهم يدعون الى تغيير المجتمع الاقطاعي البالي عن طريق الثورة فقد كانوا باشعارهم هذه يبكرون بالدعوة الى عصر الرومانسية في الادب اليوغسلافي بوجه عام .

وفي نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر كان للأدب الشعبي اليوغسلافي وعلى الأخص الشعر - التفوق على مؤلفات الادباء اليوغسلاف من حيث الاصالة وعمق الأفكار والموضوعات ومن حيث الانتشار الاجتماعي والجغرافي . وبينما كان الأدباء اليوغسلاف المثقفون يعبرون عن وعي الجزء المثقف من المجتمع ، كان الأدب الشعبي وعلى الأخص شعر الملاحم يحمل بين جنباته روح وآمال الشعب كله . وعن طريق القصائد الملحمية كانت الاساطير القومية تربط برباط قومي جميع طبقات الشعب في جميع أنحاء البلاد وخلال القرن الثامن عشر أصبح شعر الملاحم الشعبي قوة تلقائية للشعب . وفي بداية القرن التالي فرض نفسه كأدب قومي رئيسي . وفي ثورة ١٨٠٤ - ١٨١٥م سيكون هذا الشعر الملحمي رسولا وأداة للثورة القومية والاجتماعية . وبوجه عام كان للأدب الشعبي أهمية قومية ، ذلك لأنه لم يكن يعرف التقسيمات وكان يتجاوز الحدود الاقليمية والقومية[١٤٩] .

وفي النصف الأول من القرن التاسع عشر بدأ فوك كراجيتش يجمع ويسجل بشكل منتظم جميع المؤلفات الشعبية وشرع في نشرها في كتاب تلو الآخر[١٥٠] . وبفضله وبفضل اتصالاته العلمية مع اوروبا أصبح الشعر الشعبي اليوغسلافي محل اهتمام وعناية كبار رجال الثقافة في العالم وعلى الأخص الرومانسيون منهم ، وأخذ يدرسه ويترجمه كبار رجال الثقافة في العالم امثال هردرو والاخوة جريم وجوته وبروسبير ووالتر سكوت وبوشكين وميتسكيفيتز وغيرهم ، واخذت الرومانسية الاوروبية - وعلى الأخص الالمانية والمجرية - تستوحي الالهام من الشعر الشعبي اليوغسلافي . هذا علاوة على اقتراب الادب الشعبي من ناحية حريته ولاحدوديته وتحريره للذات الابداعية للانسان - من الروح الرومانسية ومن افكارها التي أخذت تسيطر على الادب العالمي في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر .

وكانت لغة الشعر الشعبي لغة أدبية خصبة متكاملة ، وبينما تفيض لغة الشعب بالخصب والجمال والنضارة ، لم يكن للأدب المكتوب لغة ادبية حقيقية مما جعل الجماهير المتخلفة ثقافيا تقبل على تذوق الشعر الشعبي وتتعلق به وبانشاده وتبتعد أكثر فأكثر عن الأدب الفني المثقف والاحت زيادة انتشار الشعر الشعبي الى ان يفرض لغته على الشعر الفني في يوغسلافيا خلال

(١٤٨) المعجم الأدبي اليوغسلافي ، بلغراد ١٩٧١ ، ص٣٥١ .
(١٤٩) ميودراج بوبوفتش ، الرومانسية ، ص١٣ .
(١٥٠) الاعمال المختارة لفوك كراجيتش ، بلغراد ١٩٦٤ ، ص٢٧ .

القرن التاسع عشر . وبذلك كان الشعر الشعبي سباقا الى توحيد الشعب توحيدا لغويا وبالتالي توحيدا روحيا قبل جميع الحركات والافكار الخاصة بتوحيد الشعوب اليوغسلافية .

ولميز الأدب الشعبي وخاصة الشعر بأسلوبه وبافكاره وموضوعاته وبنقاوة وسلاسة لغته وبارتفاع قيمته الفنية والابداعية ، ومن ثم فقد اخذ يؤثر على الأدب المكتوب الذي كان أقل في المستوى واضعف في الاسلوب والافكار والذي كان تائها بين الكلاسيكية والعاطفية .

الرومانسية والأدب الالماني :

ألمحنا فيما سبق الى ان الفترة التي كثر فيها عدد المؤلفات المرتبطة بشخصية العربي هي الفترة التي كانت تسيطر عليها الأفكار الرومانسية ، وان معظم كتاب هذه المؤلفات من الرومانسيين ، وبذلك يكون ظهور شخصية العربي راجعا الى تأثر الأدباء المذكورين بالرومانسية وبأفكارها . والمعروف ان الرومانسية هي من الظواهر الأدبية التي سادت في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر وظهرت أولا في المانيا ثم انتقلت منها الى انجلترا وفرنسا وروسيا والى باقي البلاد الاوروبية . ومن العسير ان نعطي تعريفا قصيرا لهذا المذهب الأدبي المعقد الجوانب . وكتب الأديب الألماني فريدرش شليجل (١٧٧٢ ـ ١٨٢٩م) انه جمع محاولات تعريف الرومانسية في مائة وخمس وعشرين صفحة ، وقد أحصى بعض مؤرخي الادب عام ١٩٢٥ مائة وخمسين تعريفا للرومانسية[١٥١] . ولاشك ان معرفة الرومانسية تحتاج الى الالمام باتجاهاتها ، وربط هذه الاتجاهات بالحقائق التاريخية والاجتماعية ليمكن فهم الروح الرومانسية في خصائصها واستجابتها للحاجات الفنية للمجتمع ، ذلك لأن الرومانسية روح عامة تسيطر على مشاعر الرومانسي وارائه وهي مرتبطة أشد الارتباط بالتاريخ وبالحياة الاجتماعية .

والرومانسية في يوغسلافيا انبثقت عن المدرسة الالمانية الرومانسية . وفي الوقت الذي يظهر فيه اليوغسلاف على ساحة الثقافة الأوروبية في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر أصبحوا يجدون أسوتهم في الالمان المتفوقين عليهم ثقافيا . وبالرغم من ان الانسكلوبيديين الفرنسيين هم الذين لهم الشعبية الكبرى في العالم الا أن المثقفين اليوغسلاف كانوا يتجهون الى الجامعات الالمانية لتلقي العلم ولسماع محاضرات الفلاسفة الالمان أمثال فولوف وايرهارد ثم كانت وشيلنج وهيجل وخاصة الشاعر هردر الذي يلمز الهنور لدى اليوغسلاف بأفكاره عن الشعر الشعبي وعن تنبؤاته وعن مستقبل السلاف . وفي مجال الادب كما في مجال الفلسفة التأثير الالماني هو المسيطر وهو الأقوى بشكل خاص في النصف الأول من القرن التاسع عشر[١٥٢] . وفي هذه الفترة تنشر الصحف في صربيا ترجمات من الأدب الالماني للأدباء هردر وفيلاند وشيلر وجوته وغيرهم .

وفي أغلب الأحيان كان الالمان هم الملهمون للكثير من الاتجاهات التقدمية في مجال الادب . ولاشك ان الجهاد الجيل الرومانسي الجديد نحو الروح الشعبية ونحو الادب الشعبي ونحو الافكار الخاصة بالدفاع عن الثقافة المحلية ونقاء لغة الشعب . هذا كله كان تحت تأثير الرومانسيين الالمان ، وعدد كبير من الأسماء البارزة في العلوم والآداب الالمانية يعضدون فوك كراجيتش في اصلاحاته اللغوية وفي نضاله من اجل ادخال الروح الشعبية في الأدب ، ومنهم جريم وجوته وتالفي وزاتكه وجرهارد ويسرخ وفاتر ، وكذلك الجامعات في يينا وجيتنجن تعضده كذلك[١٥٣] . ومن الجلي ان الالمان

(١٥١) د . محمد غنيمي هلال ، « الرومانتيكية » ، ص ١ .

(١٥٢) ميودراج ميوفتش ، « تاريخ الادب الصربي » ، بلغراد ١٩٧٢ ، ص ٣٩ .

(١٥٣) ميودراج ميوفتش ، « الرومانسية » ، ص ١٥ .

يؤثرون على شكل الملامح الثقافية لليوغسلاف خلال هذه الفترة وتأثيرهم أقوى من تأثير الفرنسيين والانجليز والروس. والوطنيون اليوغسلاف - اسوة بالالمان - يصرون على ايقاظ روح الشعب الذي يجدون منابعها في ماضيه، ويركزون كذلك على العنصر الفولكلوري والقومي التاريخي. وهكذا أخذ اليوغسلاف يعرفون قيمتهم الذاتية الحقيقية تحت تأثير الالمان، فالصحف الالمانية في فيينا هي أول صحف تكتب عن الأدباء اليوغسلاف حتى قبل الصحف اليوغسلافية نفسها وتنشر ترجمة القصائد الشعبية اليوغسلافية.

وهناك بعض الكتاب الأوروبيين كتبوا بشعبية كبيرة عن الشرق باعتباره بلاد الخيال والاحلام، ذلك لأن شعوب الشرق وعاداتهم وتقاليدهم - وعلى الأخص كما صورتهم ليالي الف ليلة وليلة - كانت تبدو غاية في الطرافة، وكانت مصدر الهام للأدباء والشعراء[١٥٤] ومعظم الادباء المشهورين امثال جوته وبايرون وبوشكين ولامارتين وميتسكيفيتش وغيرهم تحمسوا للشرق في عصر الرومانسية ومن اقوال فريدرش شيجل واضع نظريات الرومانسية الالمانية انه «يجب علينا ان نبحث في الشرق عن أسمى المواد والصور الرومانسية». وولع الرومانسيون بطبيعة الشرق الجميلة ومناظره العجيبة وشمسه الوضاءة المشرقة وكان فلوبير يذوب شوقا للشرق ليبحث فيه عن صور[١٥٥]. أما في يوغسلافيا فان الاهتمام بالشرق كان علاوة على هذه الأمور مدفوعا بظروف محلية[١٥٦].

ونظرة واحدة الى المجلات الأدبية في يوغسلافيا تبين انه كان يوجد بها الكثير من الترجمات. وكان ببعض المجلات الأدبية أجزاء أو أبواب ثابتة للشعر وللنثر المترجم. وهذا طبعا تأسي بالمجلات الأدبية الالمانية. وعلى سبيل المثال لا الحصر تنشر مجلة «فوينوجانكا» اليوغسلافية في عام ١٨٥٢ مقالا عن الشعر العربي، وتنشر مجلة «سيدميتسا» ترجمة غير حرفية لبعض القصص العربية ولبعض الأمثال الشعبية العربية والتركية[١٥٧]. وكانت الترجمة تتم من جميع اللغات الأجنبية الهامة تقريبا. وفي بعض الاحيان كانت توجد صور لبعض المناطق او الشخصيات العربية[١٥٨]
ومن الأمور المتناقضة ان الكتاب الرومانسيين اليوغوسلاف كانوا يمقتون الشعر الاسلامي اليوغسلافي أي الشعر الذي كتبه المسلمون اليوغسلاف بينما كانوا قبل ذلك يكرهون الاتراك والمسلمين قلوبهم بالبغض تجاههم[١٥٩]. وتفسير هذه الظاهرة ان الرومانسيين الصرب في بحثهم عن قواعد التذوق في الأدب الالماني الرومانسي في ذلك الحين - الذي كان مفعما أكثر من أي أدب آخر بالميل نحو الشرق والتعاطف معه - تحمسوا هم ايضا للشرق ونسوا بغضهم وكراهيتهم للاتراك. ولا ننسى ان الأديب الرومانسي الفرنسي فيكتور هيجو رسم لاستانبول التركية صورة تكاد تباري بها باريس جمالا وفتنة[١٦٠].

وينبغي ان نذكر انه كان في يوغسلافيا خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر اهتمام خاص باللغة الالمانية وقراءة مؤلفات الكتاب الالمان. فالمجلات الادبية الصربية تنشر عن طريق الترجمة من الالمانية كثيرا

---

(١٥٤) د. محمد غنيمي هلال، «الرومانتيكية»، ص ٦٣.
(١٥٥) المصدر السابق، ص ٦٥.
(١٥٦) يوفان سكرليتش، «الشباب وأدبه»، ص ٣٠١.
(١٥٧) يوفان سكرليتش، «يعقوب إغيالوفيتش»، بلغراد ١٩٢٢، ص ٦٦.
(١٥٨) على سبيل المثال تنشر صحيفة «شومادينكا» في عدد ٣٥ لعام ١٨٥٢، ص ١٣٧ صورة لمنظر على نهر النيل، وتنشر مجلة «يافور» في عدد ٣٠ لعام ١٨٦٢، ص ٢٣٩، ٢٤٠ صورة لنساء أحد الأعراب في الصحراء، ومجلة «فيلا» في عدد ٣٥ لعام ١٨٦٥ ص ٥٩١ منظرا للنيل عند القاهرة، وفي عددها ٤٩، ص ٦٦٣، صورة للموصل بالعراق.
(١٥٩) يوفان سكرليتش، «الشباب وأدبه»، ص ١٥٤.
(١٦٠) د. محمد غنيمي هلال، «الرومانتيكية»، ص ٦٦.

من مؤلفات الشعوب الأخرى ، ومنها على سبيل المثال ترجمة مؤلفات بايرون وشكسبير وبيتشر ستيوفا ودفوا وفولتير ولاسيج وبيلنسكي وبوشكين ولامارتين وغيرهم . وتصبح المراجع والكتب الالمانية مصادر لدراسة تاريخ الأدب . واول كتاب لتاريخ الادب الصربي كتبه مؤلفه شافريك في عام ١٨٢٦ باللغة الالمانية ، وهناك كذلك كتب أخرى عن اليوغسلاف باللغة الالمانية . وهناك بعض الأدباء اليوغسلاف الذين ينشرون مؤلفاتهم باللغة الالمانية .

وهذا ناتج عن تعلم معظم المثقفين اليوغسلاف في المانيا . فمنذ المهد واليوغسلاف يعرفون لغتين : لغة وطنهم واللغة الالمانية . وهم يدرسون الادب الالماني في المدارس المتوسطة والعليا الجامعية . وفي المكتبات الشخصية تجد في الأغلب العدد الأكبر من الكتب والمجلات باللغة الالمانية . واليوغسلاف يقرأون مؤلفات الادباء الالمان في اصولها ويترجمون بعضها . وبعض الكتاب يحاكون المؤلفات الالمانية ، وبعض آخر يترجم الاعمال الالمانية ويضفي عليها الطابع اليوغسلافي اي يعالجها ويحورها ويكيفها لاحتياجات القراء ودون تقيد بالأصل ، وفي اغلب الاحيان يفعل ذلك دون ان يذكر اسم المؤلف الاصلي .

والمعروف ان الادب الرومانسي انصرف الى احياء العصور الوسطى في القصص التاريخية وفي عنايته ببعث ماضي الامة وتاريخها في مؤلفاته . ويعد والترسكوت رائد القصص التاريخية وسن لمن بعده أصولا ظلت هي المتبعة دون تغيير في مختلف الآداب الاوروبية[١٦١] فكان يختار ابطاله من الماضي البعيد ، وخاصة من أبطال العصور الوسطى ، ويجعل للشخصيات المكان الثاني في قصصه لئلا يتقيد بحقائق التاريخ ، ويجتهد في احياء العصر التاريخي بعاداته وتقاليده وملابسه ومقوماته المختلفة . وقد اجتهد في احياء معالم العصور مع الاستعانة بخياله في ملء الفجوات الزمنية مستعينا بالمعلومات التاريخية الواسعة . وقد تأثر الأدب اليوغسلافي تأثرا كبيرا بهذا الاتجاه الرومانسي ، واكبر دليل هو ما بين ايدينا الآن من عرض للقصص التاريخية التي كتبها الادباء اليوغسلاف واعطوا فيها للعرب أدوارا رئيسية . وهناك من يعتقد ان الاهتمام بالموضوعات التاريخية في الادب اليوغسلافي له جذور أعمق من ذلك وانه لا يمكن قصره على التأثيرات الخارجية فحسب[١٦٢] .

تأثير الأدب المجري :

كان التأثير المجري قويا في الأونة التي نتحدث عنها ، ذلك لأن اليوغسلاف وهم يعيشون بين المجر ويتلقون العلم في المدارس والجامعات المجرية كانوا يتخذون المجر اسوة ونموذجا يحتذون به في حياتهم الخاصة والعامة وعلى الأخص في حركاتهم القومية والسياسية . وكان للتجديد السياسي والأدبي في المجر في حوالي عام ١٨٢٥ صدى كبير بين اليوغسلاف ايضا ، وتأسيا بالمجر أخذ اليوغسلاف يصبغون حياتهم وادبهم بالصبغة القومية ويؤسسون المؤسسات الأدبية والفنية . والكتاب اليوغسلاف الرومانسيون يتعرفون على الأدب المجري المزدهر في الفترة من عام ١٨٥٠ وحتى عام ١٨٦٠م . ويتحمس الشباب المجري واليوغسلافي الموجود في بودابست لقصائد الشاعر الثوري القومي الاجتماعي المجري شاندور بيتيف . وبوجه عام تتم ترجمة اعمال الأدباء والشعراء المجريين الداعين الى الحرية والاستقلال ويؤثرون تأثيرا كبيرا على الشعراء اليوغسلاف في الستينيات من هذا القرن[١٦٣] .

(١٦١) المصدر السابق ، ص١٦٧ .
(١٦٢) ميودراج بوبوفيتش ، « تاريخ الأدب الصربي » ، ص٢٩ .
(١٦٣) بوفان سكرليتش ، « الرومانسية الواقعية » ، بلغراد ١٩١٢ ، ص ٣٦ .

معرفة اللغات الأجنبية :

وقد لاحظنا أن عددا كبيرا من الأدباء الذين يكررون ذكر العربي في مؤلفاتهم ويمنحونه الادوار الرئيسية في اعمالهم يجيدون بعضا من اللغات الأجنبية وعلى الأخص اللغات الالمانية والعربية والتركية والمجرية وغيرها . وليس من اللازم ان ندلل هنا على اهمية معرفة اللغات الاجنبية وعلى التأثير الذي يمكن أن يكون لهذه المعرفة على الأدباء اليوغسلاف وعلى أهمية هذا كله بالنسبة لظهور شخصية العربي في الأدب الروائي باللغة الصربوكرواتية . وقد دللنا في معرض حديثنا على اللغات الاجنبية التي يعرفها كل كاتب .

للتشبيه :

ثم ان هناك بعض الأدباء اليوغسلاف الذين ذكروا العربي في مؤلفاتهم من اجل التشبيه أي لكي يوضحوا فكرتهم بأفضل اسلوب ممكن وبأصدق ما يمكن وبشكل اكثر واقعية . وعلى سبيل المثال فان الأديب ايفانوف لم يذكر العربي مصادفة في تشبيهه . « سيقول العربي انها واحة ضئيلة للغاية »(١٦٤) ، لأنه أراد ان يكون واقعيا وصادقا في تعبيره ، فاستخدم هذا التشبيه للعربي . ومن جهة اخرى لا يمكن ان يكون هناك شك في ان معرفة الكاتب بالعرب على مستوى عال ، الأمر الذي مكنه من ان يصل الى مثل هذا التشبيه والمجاز الصادق . ومثال آخر يؤكد ان المثال السابق ليس وحيدا على الاطلاق ، وفي هذا المثال (١٦٥) اراد الكاتب « بيترو فيتش برالا » ان يصور كيف ان الشاب يوفو قد تعذب في بحثه عن الفتاة سميليا طوال حياته الى ان وجدها في النهاية بالضبط كما يتعذب العربي في بحثه عن واحة الى ان يجدها في النهاية . ولاشك ان هذا الكاتب كذلك أراد ان يعبر بشكل اكثر صدقا وواقعية فاستخدم هذا التشبيه التصويري .

الخلط بين العرب والأتراك :

أوردنا ان العرب كانوا على نحو ما ممثلين للسلطة التركية خلال سيطرتها على الأراضي اليوغسلافية ، وعند ذكر الاتراك يتعرض المؤلفون اليوغسلاف الى ذكر العرب أيضا والأمور المتعلقة بحضارتهم المادية والروحية . وكثيرا ما كان يحدث خلط بين العرب والاتراك على اساس أن دينهم المشترك هو الاسلام ، وحينما يوجه المؤلف كلمات حادة الى الاسلام فانه يقصد بذلك الاتراك لا العرب ، والدليل على ذلك ما ذكر من انه لولا العرب لما سيطر الاتراك ولما كونوا امبراطوريتهم .

وهذه الأسباب كلها تترابط مع بعضها وتتشابك بحيث يصبح في كثير من الأحيان من العسير للغاية ان نفصل سببا عن آخر .

الخاتمة :

وبناء على هذه الدراسة يمكننا ـ علاوة على ما سبق ذكره ـ ان نفترض أراء اليوغسلاف في العرب . وقد لوحظ ان اليوغسلاف يعرفون العرب معرفة جيدة وواقعية أقرب الى الحقيقة وهو أمر طبيعي للغاية ومنطقي اذا أخذنا في الاعتبار الأسباب التي عددناها وشرحناها لظهور شخصية البطل العربي في الأدب الروائي باللغة الصربوكرواتية . وقد نوهنا الى ان هذه المعرفة لم تكن صحيحة على الدوام واشرنا الى بعض الاوهام والاخطاء في الحكم على العرب وهي أساسا ناتجة عن الترجمات من اللغات الاخرى وعلى الاخص ترجمات بعض المستشرقين من العرب ، وناتجة كذلك عن اوهام الادب الشعبي الذي اختلط فيه الواقع بالخيال والحقيقة بالاسطورة . وكان الأدب الشعبي برومانسيته في كثير من الاحيان يصدر احكامه الخاصة على الأحداث

(١٦٤) مجلة فيناس ١٨٩٥ ، ص ١٠٥ .

(١٦٥) مجلة « حورية البوسنة » ١٩٠٠ ، ص ٣٦٠ .

ويضفي مضامينه على الحقائق التاريخية، وبذلك يخلق نموذجه الخاص به للتاريخ الذي يبتعد كثيرا جدا عن الواقع .

وبصرف النظر عن قبولنا او عدم قبولنا لهذا التعرف اليوغسلافي على العرب وعن نقدنا لآراء اليوغسلاف عن العرب التي تضمنتها النصوص الروائية التي بين ايدينا ، فان الحقيقة الجوهرية والحاسمة انه توجد امامنا كمية كبيرة من المعلومات عن العرب كتبها كتاب يوغسلاف .

واذا كان الأدب يتحدث بلغته الذاتية وبأساليب متباينة عن الناس وعن الحياة، فان المعلومات اليوغسلافية المذكورة عن العرب في الادب الروائي اليوغسلافي هي حديث وحوار فريد عن كل ما رآه اليوغسلاف وسمعوه وجربوه في اتصالهم بالعرب خلال التاريخ . ومن الطبيعي ان هذه المعلومات كلها ليست حقائق علمية مؤكدة نستطيع ان نطبق عليها أساليب البحث العلمي الدقيقة . ولكنها بالتأكيد معلومات تتحدث بوضوح عن العلاقات الدولية وعن كثير من خصائص عصر وزمن .

***

مطالعات

الأحوال الداخلية في سلطنة الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون ٧٦٤-٧٧٨هـ - ١٣٦٢-١٣٧٦م

حياة ناصر الحجي
قسم التاريخ - جامعة الكويت

لعل أول ما يلفت النظر في دراسة موضوع الأحوال الداخلية في سلطنة المماليك، في عهد الأشرف شعبان[١]، هو أن هذا السلطان تولى الحكم وعمره عشر سنين[٢] أي أنه كان طفلا محدود التفكير ضيق الإدراك مما يجعلنا نتساءل عن الأسباب التي أوصلته إلى كرسي السلطنة خلفا للسلطان المعزول صلاح الدين بن محمد بن المظفر حاجي بن الناصر محمد بن قلاوون. وعلى ذلك، فإننا نود أن نعرف لماذا يا ترى عُزل السلطان صلاح الدين محمد؟ يقول أبو المحاسن: «أشيع في هذه السنة (٧٦٣هـ/١٣٦٠م) عن السلطان الملك المنصور محمد أمور شنعة نَفَرت قلوب الأمراء منه، واتفقوا على خلعه من السلطنة، فخُلع في يوم الثلاثاء خامس عشر شعبان سنة أربع وستين وسبعمائة، وتسلطن بعده ابن عمه الملك الأشرف شعبان بن حسين، وحسين[٣] المذكور لم يتسلطن غير أنه كان لُقِّب بالأمجد من غير سلطنة. واعتقلوا الملك المنصور محمدا وحبسوه داخل الدور السلطانية بقلعة الجبل. وكانت مدة سلطنته سنتين وثلاثة أشهر وستة أيام، وليس له فيها من السلطنة إلا مجرد الاسم فقط. والأتابك يلبغا[٤] هو المتصرف في سائر أمور المملكة»[٥].

ويضيف أبو المحاسن قائلا: «وسبب خلعه والذي أشيع عنه أنه بلغ الأتابك يلبغا أنه كان يدخل بين نساء الأمراء ويمزح معهن، وأنه كان يعمل مكاريا للجواري ويركبهن ويجري هو وراء الحمار بالحوش السلطاني، وأنه كان يأخذ زنبيلا فيه كعك ويدخل بين النساء ويبيع ذلك الكعك عليهن على سبيل المداعبة. وأنه يفسق في الناس ويخل بالصلوات، وأنه يجلس على كرسي الملك جنبا وأشياء غير ذلك. فاتفق الأمراء عند ذلك على خلعه. فخلعوه وهم يلبغا العمري الخاصكي وطيبغا الطويل[٦] وأرغون الإسعردي وأرغون الأشرفي وطيبغا العلائي والجاي اليوسفي[٧] وأروس المحمودي وطيدمر البالسي وقطلوبغا المنصوري وغيرهم من المقدمين والطبلخانات والعشروات»[٨].

(١) انظر ترجمته، الدرر، جـ٢، ص١٨٨.
(٢) السلوك، جـ٣، ص٧٣، انظر، بدائع، جـ١، ص٢١٩.
(٣) انظر ترجمته، الدرر، جـ٢، ص١٨٧-١٨٨.
(٤) انظر ترجمته، الدرر، جـ٥، ص٢١٤-٢١٥.
(٥) النجوم، جـ١١، ص٦.
(٦) انظر ترجمته، الدرر، جـ٢، ص٢٣٩.
(٧) انظر ترجمته، الدرر، جـ١، ص٤٤٢.
(٨) النجوم، جـ١١، ص٩، انظر كذلك بدائع، جـ١، ص٢١٩.

ومن ثم يمكننا أن نستنتج عدداً من الملاحظات حول طبيعة الحال في البلاط السلطاني حينذاك ، فنجد أولاً تسلط كبار الأمراء على صلاحيات السلطان الحاكم اسميا ، والتفرد بادارة شئون الدولة دون الرجوع اليه . وثانيا حرص كبار الأمراء المماليك على تعيين سلطان طفل لا يتجاوز العاشرة من العمر حتى يتمكنوا من التصرف في شئون الدولة دون معارضة أو تدخل منه . ثالثا اصرار هؤلاء الأمراء الأوليجاركية المملوكية على تعيين سلطان من البيت القلاووني على الرغم من أنه كان بوسعهم تعيين أحدهم سلطانا ، ولعل ذلك يعود الى رغبتهم في وجود سلطان شرعي من بيت حاكم معروف لسد أفواه الناس عن الكلام ، بالاضافة الى أن وجود السلطان الطفل على كرسي السلطنة يتيح لهم جميعا فرصة التمتع بصلاحيات الحكم وامتيازات السلطة ، في حين أن وصول أمير قوي الى كرسي الحكم يقيد الى حد كبير ما يتمتع به الآخرون من سلطات في مختلف المجالات . وربما حرص أولئك الأمراء الأقوياء على أن يكون السلطان الطفل محمود السيرة ، حسن الأخلاق ملتزماً بأصول وقواعد الشريعة الاسلامية فيكون بذلك صفحة مشرقة فاضلة أمام الرعية ولا يثير بالتالي سخط العلماء ، أو مقت رجال الدين ، أو نقمة الرعية بمختلف طبقاتها ، مما يتيح لهم فرصة مناسبة لحكم البلاد كيفما يشاؤون دون الالتفات لقضايا جانبية ناتجة عن سوء أخلاق السلطان أو اعوجاج سلوكه .

وفي ظل هذه المطالب والشروط التي كان الأمراء الأوليجاركية يرغبونها تم وصول السلطان الأشرف شعبان الى حكم سلطنة المماليك .

وعلى ذلك يتبين لنا أهمية الدور الذي يلعبه الأمراء الأوليجاركية في خلع سلطان وتعيين آخر بما يتفق مع مصالحهم العامة والخاصة ، كما أن سير زمام الأمور متعلق باتفاقهم على شخص دون آخر دون بذل أي اعتبار لمشورة الخليفة العباسي أو رأي القضاة الأربعة ، فمتى تم الاتفاق يتم حصول الخلع ، وتم تعيين الشخصية المناسبة ، ويبقى استدعاء الخليفة العباسي وقضاة القضاء الأربعة لغرض اضفاء طابع الشرعية على الحاكم الجديد مما ييسر للأمراء الأوليجاركية ادارة شئونهم كيفما يرغبون دون معارضة أي فئة في المجتمع .

وعلى ذلك يكون حضور الخليفة والقضاة الأربعة من أجل اقرار خلع السلطان السابق ، وتأكيد شرعية السلطان الجديد ، حيث يتم بعد ذلك جلوس السلطان المتفق عليه على كرسي الحكم ، وتكتمل الصورة بلبس خلعة السلطنة واللقب السلطاني ثم الحلف له تصديقا لمبايعة الخليفة العباسي بصلاحيته وأهليته لكرسي السلطنة ومسئولياتها ، ويبقى مسألة ابلاغ ذلك التغير في شخصية السلطان الى الأقاليم والأعمال أمراً عادياً ومقبولا ومتوقعا حدوثه بين الفينة والفينة خلال تلك الحقبة من تاريخ سلطنة المماليك .

وعلى ذلك يكون الأمراء المماليك الأوليجاركية المحور الرئيسي المحرك لما يجري من حوادث مختلفة على مسرح السياسة في البلاط السلطاني ، في حين تكون بقية الأطراف فروعا ثانوية ليس لها من الفعالية قيد أنملة .

بالاضافة إلى كل ذلك يظهر لنا واضحا ذلك الدور المهم الذي قام به يلبغا في خلع المنصور محمد وتولية الأشرف شعبان مما يدل على قوة الصلاحيات التي كان يتمتع بها حينذاك ، ويعود أمر يلبغا الى عهد السلطان الناصر حسن بن محمد بن قلاوون[9] عندما « اشترى مملوكا يدعى يلبغا ، فقربه وأدناه وأفاض عليه احسانه ، وأكرم مثواه ولقبه بالخاصكي ، فكبر شأن يلبغا وعظم حاله »[10].

ولكن قبل أن نستطرد في معالجة الأحوال الداخلية والعلاقات الخارجية في عهد الأشرف شعبان - ربما - يجدر بنا أن نعرف شيئا عن شخصية هذا السلطان يقول المقريزي :

« مولده في سنة أربع وخمسين ، ومدة سلطنته أربع عشرة سنة وشهران وخمسة عشر يوما . وعمره اربع وعشرون سنة . وكان لينا يحب أهل الخير ويقف عندما يحسن له من فعل الخير إلا أنه كان يحب جمع المال وتفرقه . جدد في أيام دولته تفرقة الأقبية الحرير بالطرز الزركش في كل سنة على الأمراء ، مع ركوبهم الخيل وقت لبس الأقبية المذكورة بالسروج الذهب ، والكنابيش الزركشي ، فكان يعم بذلك ألوف الأمراء والطبلخاناة والعشرات والمماليك الخاصكية ، على قدر رتبهم . ولم يتقدمه ملك لفعل ذلك . وكانت أيامه في هدوء وسكون ، وأبطل مكس شنيعون كان يتحصل منها مال عظيم ، فبطلا من بعده ، ولم يكن فيه أذى ولا تجبر ، بل يرفع يديه ويسأل الله تعالى أن يخرب ديار من يريده بالناس سوءا . بالجملة فكان الى التشبه بالنساء أميل منه الى التشبه بالرجال ، وترك من الأولاد سبعة ذكور : أمير علي ، وأمير حاجي ، وكلاهما

(٩) انظر ترجمته ، الدرر ، جـ ٢ ، ص١٢٤ - ١٢٥ .
(١٠) الالمام ، جـ ٤ ، ص١٦٨ .

سلطان ، وقاسيا ، ومحمداً واسماعيل ، وأبابكر ، وأحمد وسبع بنات »(11).

وبعد مرور قرابة عام على تولي الأشرف شعبان السلطنة ، بدأت سلسلة من الانعامات الأميرية ، فيشير المقريزي ضمن حوادث سنة ٧٦٥هـ/ ١٣٦٣م الى أن السلطان قد أنعم على جماعة بأمريات طبلخاناة ، منهم تمرتغا العمري ، ومحمد بن قماري أمير شكار ، والطيبغا الأحمدي ، وأقبغا الصفدي . وأنعم على كل من ابراهيم بن الأمير صرغتمش وطشتمر العلاي(12) طاجار من عوض ، وأروس بغا الخليلي ، ورجب بن كلفت التركماني بإمرة عشرة(13) كما يذكر مع بداية حوادث السنة التالية أنه :

« أنعم على كل من قطلوبغا البلباني ، وكشبغا الحموي ، وجنغرا السيفي ، وأقبغا الجوهري بإمرة طبلخاناة ، وعلى كل من سلجوك الرومي ، وأروس السيفي ، وسنقر السيفي بإمارة عشرة »(14).

فإذا كنا نعرف أن الأشرف شعبان كان لا يتعدى الثانية عشرة من العمر فلابد لنا أن ندرك أن أسبغ بهذه الانعامات الأميرية على هؤلاء المماليك بوحي من أولئك الذين كانوا يمكنون السلطنة بصلاحيات مطلقة وفعاليات غير محدودة .

ولكن الطفل يكبر ويتسع ادراكه ويتعمق في التفكير والنظر فيما يدور حوله من حوادث ووقائع لاخيار له فيها ، وبالتالي بدأ يفكر في العمل على أن يكون له رأي في مسار الأحوال في دولته .

ويظهر أن العامة التي كانت تقاسي الأمرين على يد كبار الأمراء المماليك الأوليجاركية قد أدركت تلك السلطة القوية التي ابتدأ الأشرف شعبان يمارسها في علاقاته مع الأمراء والخاصة فطمعت في عطفه وشفقته وحمايته من أذى وظلم كبار الاداريين في البلاد .

وأصبح الناس وقد بلغ السلطان الخبر ، فشق عليه وأنكره وقال للأمير يكتمر المؤمني « عجلت بالأضحية على الناس » ولوعده فرجف فؤاده ونحب قلبه ، وقام فلم يزل صاحب فراش حتى مات . وأمر السلطان بالافراج عن المسجونين ، ونودي بالأمان ، وفتح الأسواق ، ففتحت . وقد كان الناس قد أصبحوا على تخوف شديد لما مر بهم في الليل »(15).

وعلى ذلك بدأت تظهر الى الوجود تلك العلاقة الودية بين الأشرف شعبان ورعيته من عامة الناس ، فأحس أنهم يجدون فيه النصير الرحيم لحقوقهم من أجل خلاصهم مما يعانونه من ظلم وقهر ، في حين أنهم بدأوا يدركون أن في القلعة سلطاناً يتعاطف مع قضاياهم ويفتح صدره لشكاواهم ضد كبار الولاة وأصحاب السلطة .

وتشير المصادر التاريخية المعاصرة الى تلك الرابطة الوثيقة التي كانت قائمة بين الأشرف شعبان والعامة حيث كان يكن لهم الود والرحمة ، ولعل ذلك يعود الى يوم وقوف العامة الى جانبه في حركة المماليك الأجلاب و لما قصدوا أذى السلطان مع الأمير أستدمر الخاصكي ، فاستجالت العوام وقتلوا الأجلاب ، وجعلوهم مطرّحين على التراب ، وهم خلف بغير خلاف ، فعلم بذلك أنهم نصاري يجيئون من الايمان ، فصارت العوام عند السلطان في أعز مكانة يحبهم لنصرهم له ، وقيامهم معه ، فصاروا له جيشاً ملتزمين الطاعات من غير جوامك ولا الطاعات »(16).

ويعقب النويري الاسكندراني على هذه الواقعة بقوله :

« فلما نصحت العوام السلطان ، ألقى الله في قلبه محبته لهم في جميع البلدان ، حتى أهل الاسكندرية نالوا من احسانه أن نثر عليهم الذهب فالتقطوه وكل منهم بما حصل له منه أخذه وذهب ، ثال به السبب ، وتركهم يتفرجون بإيوان ملكه ، ويشاهدون جمال حسنه ، من غير طرد ولا منع »(17) . وعلى ذلك يمكن القول أن الأحوال السياسية التي حال منها الأشرف شعبان كان لها بالغ الأثر في تلك المشاعر الطيبة التي كان يحملها لرعاياه من العامة ، وفي نفس الوقت كانت تلك الأوضاع سبباً رئيسياً في تعاطف العامة معه ومحبتهم اياه واشفاقهم عليه .

ومع ذلك فان بعض المؤرخين للعصر المملوكي كانوا يرون أن

---

(11) السلوك ، جـ٣ ، ص٢٨٢ - ٢٨٣ ، انظر كذلك النجوم ، جـ١١ ، ص٢١ ، بدائع ، جـ١ ، ص٢١٢ ، شذرات ، جـ٩ ، ص٢٠ .

(12) انظر ترجمته ، المنهل ، جـ٢ ، ص٣٦ .

(13) السلوك ، جـ٣ ، ص٩٠ - ٩١ .

(14) السلوك ، جـ٣ ، ص٩٢ .

(15) السلوك ، جـ٣ ، ص١٢٣ - ١٢٤ ، انظر كذلك بدائع ، جـ١ ، ص٣٦ .

(16) الالمام ، جـ٦ ، ص١٨ .

(17) الالمام ، جـ٦ ، ص١٩

زمام الأمور في السلطنة مازال في قبضة كبار الأمراء المماليك مديري أحوال البلاد فيقول ابن حجر :

وعلى ذلك فإن كلاً من الخليفة والسلطان كان دون سلطة أو قوة تذكر ، في حين حظي الأمراء الأوليجاركية بمختلف السلطات والصلاحيات غير المحدودة ، وبما أن هؤلاء أصحاب الكلمة في الدولة كانوا منشغلين بمصالحهم الخاصة ومنافعهم المادية[١٨] فإن الكثير من الأمور غير العادية والشنيعة كانت تقع في أثناء هذه السنوات من حكم الأشرف شعبان حيث يذكر في عام ٧٧٤هـ/١٣٧٢م « اشتد الحر بوادي الأخيضر على الحاج الشامي وهم رجوع ، فمات منهم جماعة عطشا ، وكان السبب في ذلك أن أمير الحاج في الذهاب ضرب الموكلين على الفساقي بسبب قلة ما بها من الماء فلما عاد الحاج لم يجدوا أولئك عملوا في الفساقي أصلا حقدا منهم على ما صنع بهم ، وكان في ظن الحاج أنهم يجدون الفساقي ملأى فقدموا معتمدين على ذلك حتى ان بعضهم سقى بقية ما معه من الماء للجمال ، ولما وصلوا فلم يجدوا الماء اقتتلوا على البئر فمات منهم خلق كثير من الزحمة ومن العطش ، ومات بعد ذلك منهم أكثر من قتل بالعطش »[١٩].

ولا شك أن وقوع هذه الحادثة يدل على أن نواب الأقاليم المملوكية كانوا لا يبذلون الاهتمام الكافي لمصلحة الأقاليم وسكانه ، مما أوقع بهؤلاء الكثير من الأمور البغيضة في سلطنة تميزت بالثراء الفاحش في خزائنها مع انتعاش أسواقها التجارية وازدهار علاقاتها الاقتصادية مع الدول القريبة والبعيدة .

وبالاضافة الى صغر سن الأشرف شعبان ، وانفراد كبار الأمراء المماليك الأوليجاركية بالسلطة والحكم ، وانشغال نواب الأقاليم بمنافعهم الشخصية ، فان مجلس الأشرف شعبان كان يفتقر الى أهل العلم والنصيحة الطيبة حيث اتصف أصحاب المشورة بالجهل وسوء النصيحة ، ولكن رغم كل ذلك فان الأشرف شعبان كان حريصا على أن يقتدي بمن سبقه من سلاطين أسرة بني قلاوون ، فاجتهد في عمارة مدرسته حيث يقول ابن حجر :

« وفي صفر (٧٧٧هـ/ ١٣٧٥م) ابتدئ في عمارة المدرسة الأشرفية تحت قلعة الجبل ، وهدم من جوارها عدة أماكن للناس ، منها بيت كبير لسنقر الجمالي ونقل اليها عمودان عظيمان وجدا في بيت خوند الحجازية عمة السلطان برحبة العيد ، وكان اللشد عليها اينبك »[٢٠] ويؤكد المقريزي ذلك بقوله انه :

« في نصف صفر (٧٧٧هـ/ ١٣٧٥م) ابتدأ السلطان بعمارة مدرسة بالصوة تجاه الطبلخاناة من قلعة الجبل ، وشرع في هدم بيت الأمير سنقر الجمالي ، ليضيفه اليها .

وفي هذا الشهر وجد في قصر الحجازية من القاهرة ـ حيث كان باب الزمرد أحد أبواب القصر الفاطمي ـ تجاه رحبة باب العيد عمودان عظيمان الى الغاية تحت ردم ، فرسم بسحبها الى عمارة السلطان »[٢١].

كذلك كانت :

« خوند بركة أم السلطان الملك الأشرف شعبان وكانت ذات حسن وجمال وذات دين وخير ولها بر ومعروف وهي التي أنشأت المدرسة التي بالتبانة ورتبت بها دروسا للمذاهب الأربعة وحضورا في كل يوم للصوفية ومكتبا للأيتام وحوضا وسبيلا ولما ماتت دفنت بهذه المدرسة »[٢٢].

كما حظي معاصرو هذا العهد بانشاء المدارس بكثرة حتى ازداد عددها الى درجة كبيرة[٢٣]. وهذا يدل على وفرة الأموال في أيدي كبار رجالات الدولة ، الى جانب الازدياد المطرد في أعداد طلاب العلم والمعرفة .

ويبدو في أواخر حياة الأشرف شعبان أنه أخذ يؤسس لنفسه

---

(١٨) السلوك ، جـ٣ ، ص٢٠١ .
(١٩) انباء ، جـ١ ، ص٣٧ .
(٢٠) انباء ، جـ١ ، ص١٥٣ .
(٢١) السلوك ، جـ٣ ، ص٢٥١ ، انظر كذلك ، النجوم ، جـ١١ ، ص٦٦ .
(٢٢) بدائع ، جـ١ ، ص٢٢٦ ، ٢٢٨ .
(٢٣) انباء ، جـ١ ، ص١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٣٩ ، ١٤٦-١٤٧ ، ١٥٩ ، ١٦٤ ، ١٧٩ ، ١٨٢ ، ١٨٦ ، ١٨٩ ، ١٩١ ، ٢٠٢ ، ٢٢٠ ، الخطط ، جـ٢ ، ص٣٩٩-٤٠٠ ، بدائع ، جـ١ ، ص٢٢٧ .

قاعدة متينة يرتكز عليها من أجل بداية عهد جديد يكون فيه صاحب الكلمة العليا في الدولة حيث يذكر المقريزي أنه :

« في أخريات هذا الشهر (ربيع الآخر سنة ٧٧٨هـ/ ١٣٧٦م) استجد السلطان عدة خاصكية من مماليكه ، وأسكنهم في بيت الأمير أكوك(٢٤) بجوار باب الستار من القلعة ، وقدم عليهم الطواشي شرف الدين مختص الأشرفي وأمره أن يوقفهم بين يديه ، ولا يدع أحداً منهم يجلس ، فصاروا مضافة منهم الأمير يشتاك عبدالكريم الخاصكي »(٢٥) (٢٦) .

الا أن القدر لم يمهل الأشرف شعبان كي يعاصر هذا العهد الجديد فالأمراء المماليك الأوليجاركية ما كانوا ليسمحوا له بذا فتخلصوا منه ، وقد « كانت مدة سلطنة الملك الأشرف أربع عشرة وشهرين وعشرين يوماً ، ومات وعمره أربع وعشرون سنة » .(٢٧)

وبعد هذه النبذة عن حياة الأشراف شعبان وبداية توليه الحكم في سلطنة المماليك لا بد لنا من الدراسة لحوادث هذا العهد حتى يمكننا أن نتعرف بشكل موضوعي على علاقة الأشرف شعبان بما كان يحدث في الدولة من تغيرات ووقائع والى أي مدى كانت الأوضاع الداخلية في السلطنة مرتبطة بشخص السلطان الجالس على كرسي الحكم ، وبالتالي العوامل التي أثرت في مجرى الحوادث حتى أعطت هذا العهد طابعاً خاصاً يستحق الدراسة .

●●●

مع بداية حوادث سنة ٧٦٧هـ /١٣٦٥م يذكر المقريزي بعض التفاصيل الخاصة بغزو القبارصة وبعض طوائف الفرنج الصليبيين للاسكندرية ، بينما كان السلطان الأشرف شعبان والأتابك مشتغلين بالصيد خارج القاهرة ، من ذلك قوله :

« وفيه سرح السلطان على العادة الى سرياقوس ، وتوجه الأمير يلبغا الأتابك الى الصيد بالعباسة . فورد الخبر في يوم السبت رابع عشرينه بمنازلة الفرنج مدينة الاسكندرية ، وأنهم قدموا يوم الأربعاء حادي عشرينه ، فسرح الطائر بذلك الى الأمير يلبغا ، فتوهم أن تكون هذه مكيدة يكاد بها فبادر ودخل الى داره خارج القاهرة ، وتبعه السلطان ، فصعد القلعة في يوم الأحد خامس عشرينه ، فلما تحقق يلبغا الخبر عدى النيل من ساعته الى البر الغربي ، وتلاحق به أصحابه ونودي بالقاهرة : من تأخر من الأجناد غداً حل دمه وماله فخرج الناس أفواجاً ، وسار السلطان بعساكره الى الطرانة ، وقدم عسكراً عليه الأمير قطلوبغا المنصوري والأمير كوكنداي ، والأمير خليل بن قوصون ليدركوا أهل الثغر ، فقدر الله تعالى في ذلك أن أهل الثغر كان قد بلغهم منذ أشهر اهتمام الفرنج بغزوهم فكتب بذلك الأمير صلاح الدين خليل بن عرام - متولي الثغر - الى السلطان والأمير يلبغا ، فلم يكن من الدولة اهتمام بأمرهم فلما توجه ابن عرام الى الحج ، واستناب عنه في الثغر الأمير جنغرا - أحد أمراء العشرات - وجاء أوان قدوم مراكب البنادقة من الفرنج ، لاح للناظور عدة قلاع في البحر ثم قدم في بكرة يوم الأربعاء حادي عشرينه الى الميناء ، ثمانية أغربة ، وتلاها من الأغربة والقراقر ما بلغت عدتها ما بين سبعين الى ثمانين قطعة ، فأغلق المسلمون أبواب المدينة ، وركبوا الأسوار بآلة الحرب ، وخرجت طائفة الى ظاهر البلد وباتوا يتحارسون ، وخرجوا بكرة يوم الخميس يريدون لقاء العدو فلم يتحرك الفرنج لهم طول يومهم ، وليلة الجمعة فقدم بكرة يوم الجمعة طوائف من عربان البحيرة وغيرهم ، وبعضوا جهة المنار ، وقد نزل من الفرنج جماعة في الليل بخيولهم وكمنوا في الترب التي بظاهر المدينة ، فلما تكاثر جمع المسلمين من العربان ، وأهل الثغر ، عند المنار ، برز لهم غراب الى بحر السلسلة ، حتى قارب السور ، فقاتله المسلمون قتالاً شديداً ، قتل فيه عدة من الفرنج ، واستشهد جماعة من المسلمين وخرج اليهم أهل المدينة وصاروا فرقتين ، فرقة مضت مع العربان نحو المنار ! وفرقة وقفت تقاتل الفرنج بالغراب ، وخرجت الباعة والصبيان وصاروا في لهو ، وليس لهم اكتراث بالعدو فضرب الفرنج عند ذلك نفيرهم ، فخرج الكمين وحملوا على المسلمين حملة منكرة ، ورمى الفرنج من المراكب بالسهام فانهزم المسلمون ، وركب الفرنج أقفيتهم بالسيف ، ونزل بقيتهم الى البر فملكوه بغير مانع ، وقدموا مراكبهم الى الأسوار فاستشهد خلق كثير من المسلمين . وهلك منهم في الازدحام عند عبور باب المدينة جماعة . وخلت الأسوار من الحماة ، فنصب الفرنج سلالم ، وطلعوا السور ، وأخذوا نحو الصناعة ، فحرقوا ما بها وألقوا النار فيها ،

(٢٤) انظر ترجمته ، المنهل ، جـ١ ، ص٥٢ .
(٢٥) انظر ترجمته ، المنهل ، جـ٢ ، ص١٠ .
(٢٦) السلوك ، جـ٣ ، ص٢٦٦ .
(٢٧) النجوم ، جـ١١ ، ص٥٢ .

ومضوا الى باب السدرة ، وعلقوا الصليب عليه فانحشر الناس الى باب رشيد ، وأحرقوه ، ومروا منه على وجوههم وتركوا المدينة مفتوحة بما فيها للفرنج ، وأخذ الأمير جنغرا ما كان في بيت المال ، وقاد معه خمسين تاجرا من تجار الفرنج كانوا مسجونين عنده ، ومضى هو وجماعة الناس الى جهة دمنهور فدخل وقت الضحى من يوم الجمعة ، ملك قبرص ، واسمه ريير بطرس ابن ريوك ، وشق المدينة وهو راكب ، فاستلم الفرنج الناس بالسيف ، ونهبوا ما وجدوه من صامت وناطق ، وأسروا وسبوا خلائق كثيرة ، وأحرقوا عدة أماكن ، وهلك في الزحام بباب رشيد ، مالا يقع عليه حصر ، فأعلن الفرنج بدينهم ، وانضم اليهم من كان بالثغر من النصارى ، ودلوهم على دور الأغنياء فأخذوا ما فيها واستمروا كذلك يقتلون ويأسرون ويسبون ، وينهبون ويحرقون من ضحوة نهار الجمعة الى بكرة نهار الأحد ، فرفعوا السيف ، وخرجوا بالأسرى والغنائم الى مراكبهم ، وأقاموا بها الى يوم الخميس ثامن عشرينه ، ثم أقلعوا ومعهم خمسة آلاف أسير فكانت اقامتهم ثمانية أيام ، وكانوا عدة طوائف ، فكان فيهم من البنادقة أربعة وعشرون غرابا ومن الجنوية غرابين ، ومن أهل رودس عشرة أغربة ، والفرنسيس في خمسة أغربة ، وبقية الأغربة من أهل قبرص .

وكان مسيرهم عند قدوم الأمير يلبغا بمن معه ، فلما قدم عليه الأمير قطلوبغا المنصوري ، لم يجد معه سوى عشرين فارسا وعليه اقامة فارس ، فغضب عليه ، ووجد الأمر فات ، فكتب بذلك الى السلطان ، فعاد الى القلعة ، وبعث بابن عرام ، نائب الاسكندرية على عادته ، فأمر الأمير يلبغا بعمارة من استشهد من المسلمين ورم ما احترق ، وغضب على جنغرا وهدده ، وعاد فأخذ في التأهب لغزو الفرنج ، وتتبعت النصارى فقبض على جميع من بديار مصر ، وبلاد الشام وغيرها من الفرنج ، وأحضر البطريق والنصارى ، وألزموا بحمل أموالهم ، لفكاك أسرى المسلمين من أيدى الفرنج ، وكتب بذلك الى البلاد الشامية ، وتتبعت ديارات النصارى ، التي بأعمال مصر كلها ، وألزم سكانها باظهار أموالهم وأوانيهم ، وحملوا على ذلك » .[٢٨]

وفي الحقيقة نحن لا نريد أن ندخل في تفاصيل واقعة الاسكندرية حيث أن هذا الموضوع قد درس أكثر من مرة على يد الباحثين من المسلمين والغربيين ، الا أن ما يهمنا في هذا الموضوع هو علاقته بوجود الأشرف شعبان على كرسي الحكم ، أو بتعبير آخر لماذا وقعت غزوة الاسكندرية في عهد الأشرف شعبان دون غيره من السلاطين المماليك ؟ لكي نعرف الاجابة على ذلك ينبغي علينا أن نطلع على الأسباب التي يحددها النويرى الاسكندراني ، وبالتالي حلت بطرس لوزجنان على غزو الاسكندرية[٢٩] ، كما يشرح النويرى بالتفصيل كيفية نجاح هذه الحملة القبرصية في دخول الاسكندرية من أجل السلب والنهب والتخريب .[٣٠] كذلك كان لعامل المفاجأة أثر الهائل في حصول الفرنج على الكثير من الغنائم الثمينة والنفائس الغالية .[٣١] ولكن مع كل هذا الشرح المفصل الا أن هذا المؤرخ المعاصر لا يشير على الاطلاق الى أى نوع من العلاقة بين وجود الأشرف شعبان على كرسي السلطنة وبين وقوع هذه الحملة في هذا الوقت بالذات ، مما يجعلنا نتساءل ونحاول البحث عما يفيد هذه الظاهرة ، وعما اذا كان باستطاعتنا أن نعتمد بعض الحوادث كدليل يفيد أى نوع من العلاقات التي يمكن أن تربط بل وتحتم قدوم هذه الحملة في هذه الفترة .

ويبدو أن وقوع الغزو الصليبي ضد الاسكندرية جعل سلطة المماليك متخوفة دائما من احتمال حدوث ذلك مرة أخرى[٣٢] ، ولهذا كان الأشرف شعبان دائم الاهتمام بحراسة ثغرى الاسكندرية ودمياط خشية تعرضهما لأى هجوم كما حدث ذلك سنة ٧٧٢هـ / ١٣٧٠ م حينما أرسل « الى الاسكندرية من الأمراء اسنبغا بن البوبكرى وقطلبغا المنصوري والأمير المعروف بسيدى ابن عمة السلطان الملك الأشرف شعبان ، وولى أيضا لها أروس البشتكي والأمير ابن تغرمس والأمير شرف الدين بن الازكشي والأمير اخواتبغا جلب والأمير مبارك الطازي بأجنادهم ومماليكهم ، فكان دخولهم الاسكندرية مستهل ذى القعدة سنة اثنتين وسبعين وسبعمائة غير من بها مثل ملك الأمراء صلاح الدين خليل بن عرام وقراز أمير حاجب ويكتمر العلمي أمير حاجب أيضا بما معهم من الأجناد والمماليك الى غير ذلك من قياد الصناعة ورماة القاعات المطوعة والعربان المركزة ظاهر الاسكندرية ورباطها أيضا الأثرف

---

(٢٨) السلوك ، جـ٣ ، ص١٠٤ - ١٠٧ ، انظر كذلك النجوم ، جـ١١ ، ص٢٩ - ٣٠ ، بدائع ، جـ١ ، ص٢١٤ - ٢١٥ .
(٢٩) الالمام ، جـ٢ ، ص٩٦ - ١١٨ .
(٣٠) الالمام ، جـ٢ ، ص١٣٠ - ١٦١ .
(٣١) الالمام ، جـ٢ ، ص١٧٧ - ١٧٤ .
(٣٢) الشارات ، جـ٦ ، ص٢٠٨ .

المؤلفة من أهلها والغرباء التي صارت مقيمة بها ومهيأة للحرب فيه وكلهم طالبون الجهاد في سبيل الله ، وما النصر الا من عند الله »[٣٣].

ترى ألا يدل هذا على أن الأشرف شعبان قد أصبح أكثر وعيا وادراكا لما يدور حوله من حوادث ووقائع ؟ واذا كان الرد بالايجاب فلا بد لنا أن نتساءل عن مدى علاقة هذا الوعي والادراك الفكري عند الأشرف شعبان بعزله بعد فترة على يد كبار الأمراء المماليك. على أية حال حتى نعرف الجواب على ذلك يجب علينا أن نؤكد بأن الحذر والترقب قد أصبح من مسئوليات السلطنة المملوكية تجاه الثغور المصرية من أجل حماية البلاد ضد غزوات الصليبيين ، مما يجعلنا نحس بشكل مؤكد أن صفحة من صفحات الجهاد الاسلامي بدأت تظهر مرة أخرى ضمن برنامج السياسة الاستراتيجية للحكم المملوكي ، ومن النتائج التي ترتبت على واقعة الاسكندرية اهتمام سلطنة المماليك بتجهيز سفن حربية مناسبة للدفاع عن الثغور المملوكية من ناحية ، وغزو الفرنج في عقر دارهم من ناحية أخرى انتقاما للاعتداءات الصليبية المتكررة ضد السواحل الاسلامية الأمر الذي كان يتطلب اتخاذ الاجراءات الحربية الحازمة من أجل استقرار وأمن السلطنة بجميع أقاليمها الساحلية في مصر والشام ، يقول المقريزي :

« وفي هذه المدة اهتم الامير يلبغا الاتابك بعمل الشواني البحرية لغزو الفرنج فجمع من الأخشاب والحديد والآلات ما يجل وصفه ، وشرع النجارون في عملها بجزيرة أروى المعروفة بالجزيرة الوسطى ، وتولى عملها الوزير فخر الدين ماجد بن قزوينة[٣٤] فقام في ذلك اتم قيام ، وبذل همته ، واستفرغ وسعه ، واتصدى له ليلا ونهارا ، واستقر شاد العمل الأمير علاء الدين طيبغا العلائي استادار الأمير يلبغا ، وناظر العمل بهاء الدين بن المفسر فقدم للعمل مائة شيني ، ما بين غراب وطريدة ، برسم حمل الخيل ، فكان أمرا مهولا ، ونودي بالقاهرة ومصر بحضور البحارة والنفاطة ، ومن يريد الجهاد في سبيل الله ، الى بيت الأمير يلبغا الاتابك للعرض وأخذ النفقة للسفر في المراكب فاجتمع عدة من المغاربة رجال البحر ، وكتبت أسماؤهم ، وقررت لهم المعاليم ، وأقيمت لهم نقباء ، وقاموا في مساعدة صناع المراكب ، وكتب الى طرابلس ، ونحوها من بلاد الساحل بانشاء مراكب حربية ، وجمع رجالها ، فكان عملا جليلا »[٣٥].

ويبدو أنه نتيجة لهذه الاستعدادات العسكرية الشاملة في القاهرة أن « قدم الخبر بفرار تجار الفرنج من الاسكندرية من البحر ، فلم يقدر عليهم »[٣٦].

يظهر لنا من هذه الحادثة أن الأمير يلبغا كان صاحب الكلمة العليا في حقل الشئون العسكرية والحربية بحيث أن مختلف القرارات التي تتخذ في هذا المجال كانت مقرونة برأيه الشخصي دون منازع ، بالاضافة لما يترتب على ذلك من مصروفات وموظفين ورتب عسكرية جديدة وقرارات حاسمة تحدد طبيعة الجهود الحربية الواجب بذلها .

وبناء على دراستنا لحقيقة أحوال هذا العهد ، فاننا لا نستغرب هذه الصلاحيات العسكرية المطلقة التي تمتع بها الأتابك يلبغا في حقل الشئون الحربية ولكننا نسأل الى أي مدى استطاع يلبغا أن ينجح في القبض على زمام الأمور في هذا المجال الاستراتيجي داخل الجهاز الاداري ؟ يقول المقريزي ضمن حوادث سنة ٧٦٧هـ / ١٣٦٥م :

« طلب نقباء أجناد الحلقة ، وألزموا بأن لا يخفوا أحدا من أجناد الحلقة ، وهددوا ان أخفوا أحدا منهم ، فكتب كل نقيب مضافيه وأحضروهم للعرض ، فقطع الأمير يلبغا منهم جماعة »[٣٧].

وهذا يبين أن الأمير يلبغا لم يكن ذلك الشخص القوي المهيب الذي يستطيع أن يلزم نقباء الجيش بالخضوع لأوامره ونواهيه ، ولذا فهم لا يتورعون عن اخفاء من تحت امرتهم من الجند ، مما تطلب مثولهم بين يدي يلبغا كي يسمعوا التهديد الشخصي منه بالعقاب الشديد ما لم يبادروا الى العمل الفوري لحضور الجند وجمعهم للعرض من أجل تصنيفهم طبقا لما يتلاءم مع الاحتياجات العسكرية للدولة .

ورغم كل ذلك فان الأمير يلبغا مضي في تكملة الاستعدادات الحربية لمحاربة الفرنج ، وبناء على ذلك :

استقر الشريف بكتمر والي القاهرة في ولاية الاسكندرية عوضا

(٣٣) الالمام ، جـ٣ ، ص٨٦ - ٨٧ .
(٣٤) انظر ترجمة ، الغرر ، جـ٣ ، ص٣١ .
(٣٥) السلوك ، جـ٣ ، ص١١٣ .
(٣٦) السلوك ، جـ٣ ، ص١١٤ .
(٣٧) السلوك ، جـ٣ ، ص١١٤ .

عن صلاح الدين خليل بن عرام ، وكانت ولاية حرب ، فاستقر ليكثر نيابة يقدمه ألف ، وهو أول من باشرها نيابة سلطنة ، وعمل معه حاجب أمير طبلخاناة ووالي حرب امرية عشرة وخمس مائة فارس بالثغرة »(٣٨)

ومن ثم ، فقد كان لواقعة الاسكندرية أثر كبير على التصنيف الاداري للاسكندرية من مجرد ثغر مثل دمياط الى نيابة على رأسها نائب مثل نيابة الشام ، مما يدل على زيادة الاهتمام بها عقب ذلك الهجوم الصليبي المعروف ، وقد تبع ذلك تعزيز في الكتائب الحربية القائمة على حمايتها ضد اى اعتداء مفاجىء .

على أية حال يبدو أن الاستعدادات كانت قائمة على قدم وساق من اجل عمارة السفن الحربية للانتقام لما وقع للاسكندرية حيث يذكر المقريزي معلقا على ما حدث في الاسكندرية بقوله :

« فكانت هذه الواقعة من أشنع ما مر بالاسكندرية من الحوادث ومنها اختلت أحوالها واتضع أهلها ، وقلت أموالهم ، وزالت نعمهم ، وكان الناس في القاهرة ، منذ أعوام كثيرة تجرى على ألسنتهم جميعا : « في يوم الجمعة تؤخذ الاسكندرية » ، فكان كذلك ، ومر بمن خرج من الاسكندرية في وقت الهزيمة ، من العريان بلاء لا يوصف » .(٣٩)

ويضيف المقريزي قائلا :

« وفي هذا الشهر (ربيع الاول سنة ٧٦٩هـ/١٣٦٧م) كملت عمارة الشواني البحرية ، وعدتها مائة قطعة ما بين غربان وطرايد ، فاستخدم الأمير يلبغا لها من الرجال ما يكفيها ، وجمعهم ما بين مغاربة وتراكمين وصعايدة ، ورتب لهم رؤساء ونقباء ، وأنفق فيهم المعاليم المقررة ، وشحن الأخربة بالعدد الحربية ، وجميع آلات السلاح ، فلما تهيأت كلها فرقها الأمير يلبغا على الأمراء ، فتسلم كل أمير ما خصه من الشواني وزينها بأصلاحه ، وأقام فيها الطبول والأبواق وأنزل بها عدة من مماليكه ، وقد ألبسهم آلة الحرب ، وأمرهم بالمسير فيها للغزو اذا سارت ، ثم ركب السلطان والأمير يلبغا وسائر أمراء الدولة وأعيانها لرؤية الشواني ، وقد كملت وتم أمرها ، وتهيأت رجالها ، وخرج الناس من أقطار المدينة وأتوا من كل جهة في يوم السبت رابع عشرين ربيع الأول . فسار السلطان بعساكره من القلعة الى جزيرة أروى ، وركب الحراقة ، وقد امتلأت تلك الأراضي بالناس ، فقدمت الشواني ، ولعبت رجالها بالآلات الحربية ، كما يفعل عند لقاء العدو ، ورقت كوساتها ونفخت بوقاتها ، وأفلتت النفوط ، فكان أمرا مهولا ومنظرا جميلا ، وأمرا حسنا لو تم »(٤٠)

ومن جانب آخر :

رسم للأمير طيغا حاجب الحجاب بعرض أجناد الحلقة ، فاستدعاهم وجلس لعرضهم بجزيرة أروى حيث تعمل الشواني الحربية ، وتشدد عليهم ، وقطع منهم جماعة في عدة أيام ، حتى منهم للشيهم » .(٤١)

بالاضافة الى ذلك :

« قدم الحاج محمد التازي المغربي ريس البحر ، وقد تسلم من الشواني التي عمرها يلبغا غرابا كمله بالعدد والآلات ، وشحنه بالمقاتلة من رجال المغاربة ، وأعطاه غرابا آخر من الاسكندرية مكملا بالعدد والرجال ، ومضى في البحر وهجم على الفرنج ، فملك منهم غرابا قتل منه جماعة وأسر باقيهم ، وقدم في تاسع عشرين شعبان فتلقاه من الأمراء بتجمل عظيم ، وخرج الناس الى لقائه وسروا به ، فلما مثل بين يدي السلطان خلع عليه ، وأنعم عليه بجميع ما أحضره من الغنائم » .(٤٢)

ويذكر كذلك أنه من أسباب الاجتهاد في بناء السفن الحربية « أن جماعة من الفرنج صاروا يعيثون في البحر ويقطعون الطريق على التجار ، فعين لهم السلطان تجريدة وأنشأ مائة غراب »(٤٣) .

علاوة على ذلك كان الفرنج يقومون بعمليات التجسس لصالح حكوماتهم فيأتون الى الثغور المصرية على هيئة تجار يحملون البضائع الغربية لتبادلها ببضائع الشرق الاسلامي ، في حين أنهم في حقيقة الأمر يتجسسون على الأوضاع الداخلية في سلطنة المماليك لمعرفة حقيقة القوة العسكرية والانضباط الاجتماعي داخل البلاد من أجل هدف خدمة أطماع دولهم في غزو سواحل السلطنة المملوكية ، وعلى ذلك يذكر المقريزي أنه :

« في خامس عشرينه (جمادى الاولى ٧٦٩-٨ /١٣٦٧ م) قدم الاسكندرية نحو مائة وخمسين من الفرنج في الخشب ، وذلك انه

(٣٨) السلوك ، جـ٣ ، ١١٤ ـ ١١٥ .

(٣٩) السلوك ، جـ٣ ، ص١٠٨ .

(٤٠) السلوك ، جـ٣ ، ص١٢٩ ، ١٣٠ ، انظر كذلك ، النجوم ، جـ١١ ، ص٣٥ ، ٣٦ ، الذهبات ، جـ٦ ، ص٢٠٨ .

(٤١) السلوك ، جـ٣ ، ص١٢٩ .

(٤٢) السلوك ، جـ٣ ، ص١٥٩ ، انظر كذلك النجوم ، جـ١١ ، ص٣٥ ، بدائع ، جـ١ ، ص٢١٢ .

(٤٣) بدائع ، جـ١ ، ص٢١٢ .

ورد ميناء الاسكندرية عدة مراكب في هيئة أنها مراكب تحمل البضائع فدخل منها الى المدينة نحو مائة وخمسين رجلا فحولهم الأمير استبغا النائب حتى ينبث له أمرهم ، فسارت المراكب مقلعة وعادت من حيث أتت ، فأمر بتخشيب أيدي المذكورين وحملهم الى القاهرة ليرى السلطان فيهم رأيه »(٤٤).

ويظهر أن غزو الفرنج للاسكندرية عام ٧٦٧هـ/١٣٦٥ م كان سهلا هينا ومغنما وفيرا ، مما شجع الفرنج على العزم للقيام بعمليات هجومية أكثر ضد الثغور المملوكية من أجل التخريب والهدم من ناحية ، والسلب والنهب من ناحية أخرى ، من ذلك قول المقريزي :

« وفي أول صفر (٧٦٩هـ /١٣٦٧ م) ورد الخبر بوصول الفرنج الى طرابلس في مائة وثلاثين مركبا ، ما بين شيني وقرقورة وغراب وطريدة ، والمشحون عليها متملك قبرص ، ومتملك رودس ، والاسبتار ، وكان النائب غائبا ، فقاتلهم المسلمون قتالا شديدا ، حتى اقتحم العدو المدينة ، ونهبوا من أسواقها ، فتحامل المسلمون عليهم واشتدوا في قتالهم ، حتى أخرجوهم بعد ما قتلوا منهم نحو الألف ، واستشهد من المسلمين نحو الأربعين رجلا ، فركبوا سفنهم وأقلعوا خائبين ، فرسوا بمدينة اياس في مائة قطعة ، فسار اليهم الأمير منكلي بغا نائب حلب »(٤٥) وقد فر أهل اياس منها ، فدخلها الفرنج فلما قدم نائب حلب جلوا عنها »(٤٦).

ويناقش ابن اياس هذا الغزو الصليبي بأن الفرنج كانوا يستهدفون كافة الثغور المملوكية بدليل قدومهم قلعة اياس في بادئ الأمر فلما تصدت لهم العساكر المملوكية توجهوا نحو طرابلس فكان غزوهم لها سهلا بسبب غياب نائبها في الوقت الذي كانت فيه الأوليجاركية الحاكمة مشغولة بالوباء الذي كان منتشرا في القاهرة ، مما أعاق ارسال نجدة عسكرية الى الثغور السورية لحمايتها ضد الهجوم الصليبي اذ نجده يقول :

« ثم دخلت سنة تسع وستين وسبعمائة فيها جاءت الأخبار من حلب بأن الفرنج جاءوا الى قلعة اياس وحاصروها فخرج اليهم الأمير منكلي بغا الشمسي نائب حلب وصحبته العساكر الحلبية ، فلما سمعوا به رحلوا عن قلعة اياس ثم قصدوا نحو طرابلس وكانوا ثلاثة ملوك وهم صاحب قبرص وصاحب رودس وصاحب الاسبتار فجاءوا في مائتي مركب حربية ، فلما جاءوا الى طرابلس كان النائب غائبا عن المدينة فطمع الفرنج في أخذ المدينة ثم خرج اليهم بعض عسكر طرابلس فوقفوا معهم فانكسر عسكر طرابلس ودخل الفرنج الى المدينة ونهبوا أسواقها وقتلوا بها جماعة مسلمين نحو ألفي انسان فلما تسامع أهل البلاد بذلك جاءوا الى الفرنج وحاربوهم وقتلوا جماعة كثيرة منهم فانكسرت ملوك الافرنج كسرة قوية ورحلوا عن ساحل طرابلس فلما جاءت الأخبار الى القاهرة بما جرى اضطرب السلطان من ذلك والأمراء وقصدوا أن يجهزوا لهم تجريدة وكان في تلك السنة بالقاهرة وباء عظيم حتى كان يخرج من أبواب القاهرة في كل يوم اثنا عشر ألف جنازة وكان أكثر عمله في الأطفال والغرباء »(٤٧).

ولكن رغم انشغال الأمراء المماليك بمصالحهم الشخصية ونفوذهم ، وسوء الأوضاع الداخلية بسبب ارتفاع اسعار الغذاء وانتشار الأوبئة ، الا أن الدولة المملوكية بدأت تهتم بحماية الثغور المملوكية ، وبدأ السلطان الأشرف شعبان يدرك ضرورة تحصين هذه المناطق المفتوحة ، ولذا نجده يزور الاسكندرية حيث يقول النويري الاسكندراني انه :

« في يوم الجمعة الرابع من جمادى الأولى سنة سبعين وسبعمائة دخل السلطان الملك الأشرف شعبان بن الحسين بن الملك الناصر محمد ابن الملك المنصور قلاوون ثغر الاسكندرية المحروس »(٤٨).

وقد فرح أهل الاسكندرية بزيارة الأشرف شعبان حيث « اجتمعت الرجال والنساء والعبيد والاماء ترق به ، فصاروا يدعون له ، والنساء صرن يزغرتن فرحا به لشبابه وحسنه وجماله »(٤٩).

ويفهم من كتابات المعاصرين أن الهدف من زيارة الأشرف شعبان للاسكندرية هو الاطمئنان الشخصي على سير الأحوال فيها

---

(٤٤) السلوك ، جـ٣ ، ص١٥٦ .
(٤٥) انظر ترجمته ، الضوء ، جـ٥ ، ص١٣٢ .
(٤٦) السلوك ، جـ٣ ، ص١٤٩ - ١٥٠ ، انظر كذلك النجوم ، جـ١١ ، ص٩٢ ، ٩٣ .
(٤٧) بدائع ، جـ١ ، ص٢٢٢ ، انظر كذلك ، شذرات ، جـ٦ ، ص٢١٢ .
(٤٨) الالمام ، جـ٥ ، ص٣٨١ .
(٤٩) الالمام ، جـ٦ ، ص١٠ .

بعد هجوم الحملة الصليبية القبرصية حيث يذكر النويري الاسكندراني انه :

« في ذلك اليوم لم يبق بالاسكندرية افرنجي تاجر ولا علج غلام الا وتحصن بالمراكب خوفا من السلطان ... ثم ان السلطان شاهد المكان الذي صعدت منه العدو السور والخندق الجديد الذي أنشأه الأمير صلاح الدين بن عرام مكان صعودهم ، ولم يكن قبل ذلك المكان خندق ... ثم شاهد السلطان أيضا الخندق الغربي المتجدد خلف الباب الأخضر المعروف بالطرق » .(٣٠)

وعلى ذلك يمكننا أن نستنتج أن احتياطات الدفاع قد تم انجازها جميعا على أتم حال عقب وقوع الغزو الفرنجي ، ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو : هل تم ذلك بأمر من السلطان الذي كان سنه حينذاك « دون الستة عشر »(٣١) ؟

وقد كشفت تلك الزيارة الى الاسكندرية عن الكثير من صفات الأشرف شعبان ذلك أنه :

« لما طلع دار الطراز قلع قلوبته ، وتخفف حتى صار في ملوطة وقبع نوفرة وجعل يطوف على الأنوال يبصرها ، ويدخل رأسه تحتها ، لينظر أسفلها ، ويتفرج على الصناع كيف ينسجون ، والى مكاكيهم كيف يرمونها ولما يرجعون ، ويرفع رأسه يشاهد من أعلى الأنوال الشيالون من الصبيان كيف يشيلون خيطان السدى ولما يحطون وكيف تصنع الطيور المنسوجة والنالات والشاذروانات وغيرها بتلك الخيطان الطالعة والهابطة الى أن يكمل كل طائر وغيره » .(٣٢)

ولا شك أن هذا يدل على مدى حبه للمعرفة والرغبة الشديدة في التعرف على ما كان موجودا في السلطنة من حرف وصناعة بقصد الاستفادة الشخصية لخدمة الصالح العام .

ورغم كل هذه الاستعدادات والاهتمام الكبير من جانب الحكومة المملوكية الا أن الفرنج استمروا في غزوهم الصليبي ضد مدن السواحل المملوكية ، ففي سنة ٧٧٠ هـ/١٣٦٩ م « كثر الخوف ببلاد الساحل من الفرنج والعشير ، ووصل الى صيدا عدة من مراكب الفرنج فحاربوا المسلمين ، ورجعوا خايبين »(٣٣)

بالاضافة الى ذلك فقد حدث في :

« يوم الجمعة ثامن ذي الحجة (٧٧٠ هـ/١٣٦٩ م) قدم الخبر بنزول أربع قطايع على الاسكندرية من الفرنج ، وأنهم رموا على المدينة بمنجنيق ، فخرج تلك الليلة ثلاثة وعشرون أميرا ، منهم ثلاثة من الألوف وعشرة من الطبلخاناة وعشرة من أمراء العشرات ، فقدم الخبر في عشية السبت أن المغاربة والتركمان نزلوا في المراكب ، وقاتلوا الفرنج وقتلوا منهم نحو المائة وغنموا منهم مركبا »(٣٤) .

الى جانب أنه :

« في أول المحرم (٧٧١ هـ/١٣٦٩) ورد قاصد الامير ناصر الدين محمد ابن الامير طاز ، ومعه اربعة وعشرون من الفرنج ، أسرهم من ناحية الطينة ، وكان مجردا بها »(٣٥) .

الا أنه يبدو أن هذه الغزوات السريعة والمفاجئة لم تحقق للفرنج سوى بعض الغنائم ، وفشلوا في أن يحصلوا من ورائها على أي انتصار عسكري أو سياسي ، بل على العكس من ذلك تماما ، فقد تشنجت العلاقات الاقتصادية بين دولة المماليك والدول الاوروبية ، وتحطمت الروابط التجارية ، وحرم الفرنج من القدوم الى الأسواق المملوكية الأمر الذي جعلهم يفكرون في اقامة الصلح مع السلطنة من أجل خدمة منافعهم التجارية .

ومن جانب آخر بدأت الأوضاع في الدول ذات الاهتمامات الصليبية تخدم السلامة والأمن داخل الأقاليم المملوكية .

اذ يقول ابن العماد :

« في رجبها (٧٧٠ هـ/١٣٦٨ م) هلك صاحب قبرص الذي هجم على الاسكندرية وتولى ولده فأرسل بهدية وطلب الهدنة فوقع الصلح ولله الحمد »(٣٦) .

ومن ثم بدأت وفود الدول الاوروبية تقدم الى البلاط السلطاني تسأل الصلح والصداقة فيذكر المقريزي أنه :

---

(٣٠) الالمام ، جـ ٦ ، ص٣-٤ .
(٣١) الالمام ، جـ ٦ ، ص٣ .
(٣٢) الالمام ، جـ ٦ ، ص٤-٥ .
(٣٣) السلوك ، جـ ٣ ، ص١٧٤ .
(٣٤) السلوك ، جـ ٣ ، ص١٧٥-١٧٦ .
(٣٥) السلوك ، جـ ٣ ، ص١٨٠ .
(٣٦) الشذرات ، جـ ٦ ، ص٢١٧ .

« أول صفر (٧٧٢ هـ/ ١٣٧٠ م) قدمت رسل الفرنج لطلب الصلح ، فحلفوا على ألا يغدروا ولا يخونوا وخلع عليهم ، وسافروا ومعهم من يحلف ملكهم ، وأخذت منهم رهائن بالقلعة »[٥٧] .

بل علاوة على ذلك عمل الفرنج على اعادة الأسرى المسلمين الى بلادهم رغبة في كسب رضى الحكام المماليك وعودة العلاقات التجارية الى ازدهارها السابق حيث يقول المقريزي :

وفيه (جمادي الاولى سنة ٧٧٢ هـ/ ١٣٧٠ م جاءت رسل الفرنج ومعهم عدة ممن أسروهم من المسلمين نحو المائة »[٥٨] .

وقد تكررت مسألة اطلاق سراح الأسرى المسلمين بعد ذلك أكثر من مرة حيث « بعث الفرنج من بقي من أسرى المسلمين ببلادهم ، وتم الصلح وفتحت كنيسة القيامة بالقدس »[٥٩] .

من ذلك يظهر أن الفرنج رغبوا بالاضافة الى تحقيق المصالح الاقتصادية فتح كنيسة القيامة في القدس ، ولذا عمل سفراؤهم على مناشدة السلاطين المماليك لتحقيق ذلك ، فتم لهم ما أرادوا ـ ربما ـ رغبة من الدولة المملوكية في ارساء قواعد علاقات الصداقة بين الجانبين .

ورغم ذلك فقد كان يحدث بين فترة وأخرى أن تقوم جماعة صليبية بشن الغارات ضد السواحل المملوكية اذ يذكر ابن اياس أنه في عام ٧٧٥ هـ/ ١٣٧٣ م « جاءت الفرنج الى رشيد فشرع اليهم الأتابكي منجك مع جماعة من العسكر فكسروهم وهربوا منهم الى بلادهم »[٦٠] .

ولكن على الرغم من حدوث ذلك الا أن سير الحوادث يؤكد أن تلك الاعتداءات كانت تتم على يد جماعات صليبية صغيرة ، وأن الممالك المسيحية ذات الاهتمامات التجارية كانت حريصة على العلاقات الودية مع سلطنة المماليك .

ويؤكد المقريزي ذلك بالاشارة الى حرص حاكم جنوه على اطلاق سراح الأسرى المسلمين وارسالهم الى القاهرة محملين بالهدايا الى البلاط السلطاني مع الاعتذار لما حدث للاسكندرية على يد حاكم قبرص عام ٧٦٧ هـ/ ١٣٦٥ م ، وأن ملك جنوه كان حريصا على حسن معاملة الأسرى الذين بعث بهم حاكم قبرص اليه هدية له ، ليرسلهم الى بلادهم رغبة في كسب صداقة سلطنة المماليك اذ يقول المقريزي :

« قدمت أيضا رسل متملك جنوة بستين أسيرا من أهل الاسكندرية ، وهدية للسلطان وللأمير يلبغا ، وذكر أن هذه الأسرى كانت نصيبه ، واعتذر بأنه لم يعلم بواقعة الاسكندرية الا بعد وقوعها ، وانه مستمر على الصلح ، ومتى قدر على أخذ متملك قبرص قبضه وقتله . فقبلت هديته وأثنى الأسرى عليه خيرا ، وأن متملك قبرص لما عاد من الاسكندرية ، قسم ما غنمه منها بين ملوك الفرنج ، وبعث بهؤلاء الى متملك جنوه ، فعرضهم وتغمم لهم ، وأحسن اليهم ، وكساهم ، وأجرى لهم الرواتب حتى بعث بهم »[٦١] .

ولا شك أنه كان لصغر سن الأشرف شعبان وانهماك الأمراء المماليك الأوليجاركية بمصالحهم المادية بالغ الأثر في حدوث واقعة الاسكندرية وما تبعها من غزوات صليبية ضد الثغور المملوكية ، اذ وجد حكام الفرنج في تلك الأحوال الظرف المناسب لتحقيق رغباتهم في الانتقام من سلطنة المماليك التي كان لها فضل القضاء على الممالك الصليبية في الساحل السوري ، الا أن هذه الممالك الفرنجية وجدت أنها قطعت بذلك علاقاتهم التجارية وروابطها الاقتصادية بدولة المماليك مما كان له آثاره الاقتصادية السيئة فما كان منها الا أن عجلت بارسال السفارات والبعثات للاعتذار عما حدث واسترضاء الحكومة المملوكية بتقديم الهدايا الثمينة واطلاق سراح الأسرى المسلمين .

وعلى ذلك يظهر لنا من سير الحوادث أن الفئة الحاكمة في سلطنة المماليك هي تلك الطبقة من الأمراء المماليك الأوليجاركية أصحاب الكلمة العليا في تسيير سياسة الدولة داخليا وخارجيا اذ أننا نعرف أن الأشرف شعبان كان لا يتجاوز العاشرة من العمر عندما تولى الحكم ، كما أننا ندرك أن ذلك تم من أجل هدف أن تحظى تلك الجماعة بما تريد من السلطة والقوة والصلاحيات غير المحدودة ، وعلى ذلك فان اختياره لذلك المنصب الحساس لم يأت اعتباطا وانما عن قصد معين هدفت اليه الطبقة صاحبة الكلمة الفعلية في حكم البلاد ، وقد ترتب على ذلك أن « استقر الأتابك

(٥٧) السلوك ، جـ٣ ، ص١٨٩ .
(٥٨) السلوك ، جـ٣ ، ص١٩٠ .
(٥٩) السلوك ، جـ٣ ، ص١٩١ .
(٦٠) بدائع ، جـ١ ، ص٢٢٩ .
(٦١) السلوك ، جـ٣ ، ص١٢٢ ـ ١٢٣ .

يلبغا العمري الخاصكي مدبر الممالك ومعه خجداشه الأمير طيبغا الطويل أمير سلاح على عادتها »[٦٢] .

فاذا كنا نعلم أن يلبغا العمري هو الذي مهد لجلوس الأشرف شعبان على كرسي الحكم ، فليس لنا أن نستغرب استقراره في منصب الأتابكية وتدبير شئون المملكة ، ولكن لا بد لنا أن ندهش حين نقرأ عن هيبة المكانة التي يتمتع بها القضاء في نفس يلبغا رغم ما كان بيده من سلطات مطلقة اذ يذكر المقريزي أنه :

« في يوم الاثنين سادس عشر جمادى الآخرة عدى قاضي القضاة عز الدين ابن جماعة[٦٣] النيل الى بر الجيزة ، وقد غيم بها السلطان على العادة ، بكوم برا ، وسأل الأمير يلبغا في اعفائه من القضاء ، وتشفع اليه بمصحف معه ، وعزل نفسه ، وقام ، وقد اقر الأمير يلبغا نواب الحكم على حالهم فلما عدى السلطان النيل وصعد القلعة في يوم الخميس تاسع عشرة ، وجه الأمير يلبغا بالأمير جرجي امير آخور[٦٤] الى ابن جماعة يدخل عليه في عوده الى وظيفة القضاء ، فامتنع غاية الامتناع ، فبعث اليه بكاتب السر علاء الدين علي ابن فضل الله فلم يجبه ايضا ، فركب الأمير يلبغا بنفسه في يوم السبت حادي عشرينه ، واتاه الى منزله بالجامع الاقمر والح في سؤاله وهو يمتنع . فلما ايس منه سأله ان يعين من يصلح ، فاشار بولاية ابي البقاء ، ثم انفصل وراءه المغرب وانصرف . فاستدعى في يوم الاثنين ثالث عشرينه بأبي البقاء وفوض اليه السلطان قضاء القضاة ، عوضا عن ابن جماعة وخلع عليه واضاف اليه نظر وقف الاشراف ، وخلع معه على بهاء الدين احمد بن السبكي[٦٥] واستقر في قضاء العسكر عوضا عن ابي البقاء ، وخلع على تاج الدين محمد ابن بهاء الدين ، واستقر في وكالة الخاص زيادة على ما بيده من نظر المارستان .

وفي يوم الخميس سادس عشرينه ، خلع على عز الدين بن جماعة واستقر في نظر جامع احمد بن طولون ، وتدريس الفقه ، وتدريس الحديث به ، ورتب له على بيت المال في كل شهر الف درهم »[٦٦] .

وهذا التصرف من ابن جماعة واصراره على ترك وظيفة القضاء برهان على رفضه لما كان يجري من وقائع على ارض السلطنة المملوكية وداخل الجهاز الاداري الحكومي ، في حين كان الامير يلبغا حريصا على استمرار هذه الشخصيات في وظائفها القضائية - ربما - لانه يرى ان رفض هؤلاء لتلك الوظائف يتضمن دلالة واضحة امام الرعية لرفض رجال الدين لسياسة يلبغا وعدم التزامه بمبادىء الشريعة الاسلامية ، فكان دائم الالحاح على استرضائهم واستبقائهم في وظائفهم القضائية ، ولكن يبدو ان ابن جماعة كان مصرا على الامتناع عن ممارسة هذه الوظيفة والاقتصار على العناية بشئون تدريس الموضوعات الدينية بعيدا عما يجري على يد الامراء المماليك الاوليجاركية .

ومن جانب آخر تمتع هؤلاء الامراء المماليك الاوليجاركية بثروات كبيرة وعاشوا في رفاهية من العيش الكريم ، ولاشك ان ذلك قد حصل اما نتيجة لوصولهم الى خزائن الدولة بسهولة دون سؤال من احد ، واما بالتطاول على حقوق الرعية وظلمها والتعدي على امتيازاتها وثرواتها واراضيها في حين كان الاشرف شعبان مجردا من كافة السلطات التي تتيح له التدخل والاستفسار ، بل كان لا يتاح له معرفة ضخامة تلك الثروات الا بعد وفاة اصحابها حيث يقول المقريزي :

« وفي ثانيه (جمادى الآخرة سنة ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م) عرضت مماليك الامير الكبير الاتابك منكلي بغا الشمسي على السلطان بعد موته وهم مائتان وواحد ، فجعلهم في خدمة ولده امير علي »[٦٧] .

ومن ثم فاننا قليلا ما نقرأ انه وصل الى تلك المناصب العليا في البلاد شخصيات تتصف بعمل الخير من اجل الصالح العام ، الا ان هذا لا يعني انه لم يصل الى تلك المناصب شخصيات من هذا النمط ، وقد كان من بين هؤلاء المخلصين علي المارديني اذ يذكر ابن اياس « وفي هذه السنة (٧٧٢هـ / ١٣٧٠م) توفي الامير علي المارديني[٦٨] الناصري نائب السلطنة بمصر وكان اميرا دينا خيرا كثير البر والصدقات قليل الاذى كثير الخير قريبا من الناس تولى نيابة دمشق ونيابة حلب ونيابة السلطنة بمصر ومات والناس راضون عنه وكثر عليه الاسف والحزن من الناس ولما مات خلع السلطان على

---

(٦٢) النجوم ، جـ١١ ، ص٢٦ .
(٦٣) انظر ترجمته ، الدرر ، جـ٢ ، ص٤٨٩-٤٩١ .
(٦٤) انظر ترجمته ، الدرر ، جـ٢ ، ص٣٦ .
(٦٥) انظر ترجمته ، الدرر ، جـ١ ، ٢٢٨-٢٢٩ .
(٦٦) السلوك ، جـ٣ ، ص٩٨-٩٩ .
(٦٧) السلوك ، جـ٣ ، ص٢٠٨ .
(٦٨) انظر ترجمته ، الدرر ، جـ٣ ، ص١٤٩ .

الامير طشتمر العلائي واستقر به نائب السلطنة بمصر عوضا عن الامير علي المارديني الناصري »[٦٩] .

وقد تعاقب على منصبي الاتابكية ونيابة السلطنة عدد من الشخصيات المهمة التي حظيت بصلاحيات مطلقة ورواتب وفيرة ، فنلاحظ من ضمن حوادث عام ٧٧٥هـ/ ١٣٧٣م « ان السلطان ارسل خلف المقر السيفي ايدمر نائب طرابلس[٧٠] فلما حضر خلع عليه واستقر به اتابك العساكر عوضا عن الجاي اليوسفي فاقام ايدمر في نيابة السلطنة بمصر مدة يسيرة ثم توفي الى رحمة الله تعالى فراسل السلطان خلف المقر السيفي منجك اليوسفي نائب[٧١] الشام فلما حضر خلع عليه السلطان واستقر به اتابك العسكر عوضا عن ايدمر ، واضاف اليه نيابة السلطنة مع الاتابكية وفوض اليه امور المملكة قاطبة من الديار المصرية والبلاد الشامية ورسم له بان يخرج الاقطاعات من غير مشورة السلطان من اربعمائة دينار الى ستمائة دينار ، وكانت عادة نواب السلطنة من قديم الزمان ان لا يخرجوا من الاقطاعات اكثر من اربعمائة دينار الى مادون »[٧٢] .

غير انه يبدو ان الاشرف شعبان عندما كبر وبدأ يدرك طبيعة مجريات الحوادث من حوله اخذ يضجر من تلك القوة التي تمتع بها اولئك الاشخاص ، ومن ثم ابطل في الاشهر الاخيرة قبل مقتله منصب نيابة السلطنة[٧٣] ، ولعل هذا الادراك والوعي هو السبب الرئيسي الذي جعل الامراء الاوليجاركية يعملون على التخلص من الاشرف شعبان حيث بدأوا يحسون انه اخذ ينتهج منهجا آخر مخالفا لما اعتادوه منه ، وكان يرضي نفوسهم بما يتيحه لهم من التلاعب بصلاحيات الحكم وسلطاته فما كان منهم الا ان بادروا بالتخلص منه بالقتل .

من الامور التي تستحق الدراسة ايضا في هذه الحقبة تلك التغييرات الشاملة فيمن يتولى المناصب الادارية العليا في الدولة ، فنجد عند تولي اي سلطان جديد لكرسي الحكم ان ذلك التغيير يشمل ايضا العديد من الوظائف الادارية ، وكأن الجهاز الحاكم كله تغير . يشير بعض مؤرخي العصر المملوكي الى تجديد في وظائف نيابة الشام وحلب وطرابلس وصفد وحماه والكرك وغزة ، وكذلك في ولاية القاهرة وقطيا والجيزة والاشمونين ومنوف ودمياط والفيوم .[٧٤] ترى لماذا كان كبار الامراء يصرون على حدوث هذا التجديد مع تولي كل سلطان جديد طالما اننا ندرك ان هذا التغيير لم يحدث بناء على طلب السلطان الذي لم يتجاوز عمره عشر سنوات ؟ ولا يفهم بالتالي اهمية هذه المناصب او حتى طبيعة عمل من يتولاها ، هل يمكننا ان ندرك ان السبب وراء ذلك هو رغبة هؤلاء الامراء اصحاب السلطة في ايهام الرعية بان عهدا جديدا قد بدأ ، ومن ثم ، فان ذلك يتضمن تغييرات في الجهاز الاداري للدولة . وعلى ذلك فان هذه الطبقة الحاكمة تفترض الجهل في الرعية في مختلف الطبقات الاجتماعية فتغفل ادراكهم بان شيئا لم يتغير بولاية سلطان جديد لا يتعدى العاشرة من العمر ، وان الاحوال مستمرة على ما كانت عليه طالما ان جماعة الامراء الاوليجاركية مازالت تسوس امور الدولة وفقا لما تريد وبنفس الاسلوب المعتاد قبل ولاية السلطان الجديد ، وان كل الذي تغير ينحصر في خلع طفل وتعيين آخر بدلا منه على كرسي السلطنة حسبما يتناسب مع مطامع هؤلاء الامراء ، ويؤيد ابو المحاسن هذا الاسلوب المتبع لدى اصحاب السلطة عند بداية ولاية اي سلطان جديد ، فيحدث تغيير شامل في شخصيات من يتولون وظائف الدولة[٧٥] ـ ربما ـ من اجل تعيين الموالين لهم والعاملين على خدمة مصالحهم ، وربما ايضا كما سبق ان اشرنا لاسكات الالسنة عن التقولات المختلفة حول تلاعب اصحاب السلطة بتعيين سلطان وخلع آخر لما فيه خدمة مطامعهم الشخصية .

كذلك نلاحظ انه عقب وقوع اية مؤامرة يقوم بها احد كبار الامراء المماليك الاوليجاركية وتنتهي بالفشل وظهور فئة متسلطة اخرى يحدث تغيير في الاشخاص المتولين في الوظائف الادارية بالدولة ، كما يتم عزل جماعة وسجن اخرين ، في حين يحظى البعض بالخلع السلطانية والمناصب الادارية العليا[٧٦] مما يجعلنا نقرر دون شك ان الوصول الى تلك المناصب في ظل ذلك الوضع

---

(٦٩) بدائع ، جـ١ ، ص٢٢٦ - ٢٢٧ .
(٧٠) انظر ترجمته ، الدرر ، جـ١ ، ص٤٨٩ .
(٧١) انظر ترجمته ، الدرر ، جـ٥ ، ص١٣٠ - ١٣١ .
(٧٢) بدائع ، جـ١ ، ص٢٢٨ - ٢٢٩ .
(٧٣) السلوك ، جـ٣ ، ص٢٣١ .
(٧٤) السلوك ، جـ٣ ، ص٨٤ ، ٨٨ ، ٩٠ ، ٩١ .
(٧٥) النجوم ، جـ١١ ، ص٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ .
(٧٦) النجوم ، جـ١١ ، ص٥٩ - ٦٠ .

غير المستقر ليس دليلا على الكفاءة والقدرة وانما ذلك مرهون بمدى اهمية هذا الشخص في مجال تحقيق مطامع تلك الفئة الجديدة صاحبة السلطة في هذه الوظيفة او ذلك المنصب .

ويصف ابن اياس ذلك الوضع الاداري الجديد عند تولي الاشرف شعبان الحكم على انه نتيجة طبيعية لتغير شخص السلطان الجالس على كرسي السلطنة اذ انه يقول :

« فلما تم امر الاشرف شعبان في السلطنة اقر الاتابكي يلبغا اميرا كبيرا على عادته واستقر بالأمير قشتمر المنصوري[٧٧] في نيابة السلطنة على عادته كما كان ثم عمل الموكب وجلس على سرير الملك وخلع على من يذكر من الامراء وهم اقر السيفي طيبغا الطويل واستقر به امير سلاح عوضا عن الامير ازدمر العمري الناصري[٧٨] الشهير بالخازندار واستقر بالأمير أزدمر المذكور نائب طرابلس وخلع على الأمير خشتمر المارديني واستقر به أمير مجلس على عادته وخلع على الأمير أرغون الشهير بالأسعردي واستقر به دوادارا كبيرا وخلع على الأمير أرغون الأرقي واستقر به رأس نوبة النوب وخلع على الأمير طيبغا العلائي واستقر به حاجب الحجاب ثم عمل الموكب الثاني وخلع فيه على من يذكر من الأمراء وهم أرباب الوظائف وهم اقر السيفي منكلي بغا الشمسي واستقر به نائب الشام وأرسل المراسيم الشريفة الى قطلوبغا الأحمدي[٧٩] بأن يكون نائب حلب على عادته ثم خلع على الأمير قشتمر المنصوري واستقر به نائب صفد وخلع على الأمير عمر شاه وهو صاحب القنطرة واستقر به نائب حماه وخلع على الأمير عمر بن أرغون[٨٠] النائب واستقر به نائب غزة ثم فرق الاقطاعات على جماعة من المماليك وجعل منهم أمراء طبلخانات وأمراء عشراوات ، ثم أنفق على العسكر وأرضى الجند بكل ما يمكن فاستقام أمره في السلطنة ونفذت أحكامه » .[٨١]

وتتكرر عمليات الخلع والتنصيب في وظيفة ولاية الأقاليم المملوكية في مصر والشام فيذكر المقريزي :

« واستقر آل ملك السيفي في ولاية الشرقية ، وفخر الدين عثمان الشولي في ولاية البهنسا ، عوضا عن الشهاب أحمد بن جبل واستقر ابن جبل في ولاية الأشمونين ، واستقر شمس الدين ابن الدينياري في ولاية الفيوم ، عوضا عن علاء الدين العمري » .[٨٢]

وهذا الشيء يدل بشكل مؤكد على عدم استقرار الوضع الاداري والشؤون الداخلية في هذه الأقاليم ، مما يجعلنا نبحث عن السبب في ذلك ، وعلاقته بمسألة صغر سن السلطان الأشرف شعبان .

اعتمادا على مصادر التاريخ المملوكي يتبين لنا أن أصحاب السلطة في هذا العهد كانوا يهدفون الى تغيير شامل لجميع الشخصيات في نيابة الأقاليم وولاياتها[٨٣] ولعل ذلك يعود الى رغبة الأمير يلبغا في تعيين شخصيات جديدة تدين له بالطاعة والولاء ، ويعتمد عليها بالتالي في تحقيق ما يرغب به من مصالح .

ويؤكد ابن اياس هذا الاستمرار في تغيير متولي الوظائف الادارية العليا بقوله :

« ثم دخلت سنة خمس وستين وسبعمائة فيها أرسل السلطان بالقبض على قطلوبغا الأحمدي نائب حلب وخلع على الأمير طشتمري المارديني واستقر به نائب حلب عوضا عن قطلوبغا الأحمدي ثم خلع على الأمير خليل بن قوصون واستقر أمير مجلس عوضا عن الأمير طشتمر المارديني » .[٨٤]

وهكذا نلاحظ أن المصادر المملوكية تشير بكثرة الى التغيير في الوظائف الادارية في الدولة سواء في الحسبة أو القضاء أو استيفاء الخاص أو نيابة الأقاليم أو ولاية المدن[٨٥] مما يدل على عدم الاستقرار الاداري في الأجهزة الحكومية ، هل يمكن أن نعتبر هذه الحقيقة اشارة الى عدم الاستقرار في الوضع السياسي داخل دولة المماليك حيث كان السلطان طفلا صغيرا في حين لم يعد يلبغا قادرا

(٧٧) انظر ترجمته ، الدرر ، جـ٣ ، ص٣٣٣ - ٣٣٤ .
(٧٨) انظر ترجمته ، الدرر ، جـ١ ، ص٣٢٨ .
(٧٩) انظر ترجمته ، الدرر ، جـ٣ ، ص٣٣١ ، ٣٣٧ .
(٨٠) انظر ترجمته ، الدرر ، جـ٣ ، ص١٢٩ .
(٨١) بدائع ، جـ١ ، ص٢١٣ .
(٨٢) السلوك ، جـ٣ ، ص٩٨ .
(٨٣) السلوك ، جـ٣ ، ص٩٩ - ١٠٠ ، ١٢٠ .
(٨٤) بدائع ، جـ١ ، ص٢١٣ - ٢١٤ .
(٨٥) السلوك ، جـ٣ ، ص٩٦ - ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ .

على مسك زمام الحكم ، الأمر الذي كان يتطلب التغيير المتواصل في شخصيات الاداريون في الجهاز الحكومي في مصر والشام .

يروي المقريزي أنه « في المحرم (٧٦٦ هـ / ١٣٦٤ م) استعفى الشيخ جمال الدين عبد الرحيم الأسنوي(٨٦) من وكالة بيت المال ، حنقا من الوزير فخر الدين بن قزوينة(٨٧) ، فأعفي . وخلع على علاء الدين علي بن عرب(٨٨) واستقر عوضه في الوكالة والكسوة ، مضافا الى حسبة القاهرة »(٨٩) .

ترى هل يمكن أن نعتبر هذا التصرف من الشيخ جمال الدين عبد الرحيم الأسنوي على أنه رفض لسوء الأوضاع الادارية ، وما كان يدور في ذلك الجهاز من تلاعب لصالح فئة معينة في البلاط السلطاني ؟ ومن ثم هل نقبل رد فعل علاء الدين علي بن عرب على أن البعض كان يوافق تلك الفئة بما كانت تقوم به من أعمال في سبيل أن يحقق هو بالتالي منفعة خاصة من وراء ذلك ؟ للاجابة على هذه التساؤلات ينبغي علينا معرفة شيء عن أخلاق الوزير فخر الدين ماجد بن قزوينة . يقول عنه ابن حجر :

« كان ظالما ، جامعا للمال ، كثير الأنفة مستطيلا على الأكابر بجاه يلبغا ، وقد خلف لما مات بيوت الأموال عامرة بالذهب والفضة ، والأمراء بالغلال حتى قيل أنه ترك ما يكفيه لثلاث سنين »(٩٠) .

ولا شك أن هذا القول بما يتضمنه من شرح لسوء سيرة الوزير ابن قزوينة دليل على أن هذا الوزير كان لا يتورع عن اقتراف المظالم ، ومصادرة أموال الناس ، وممارسة الظلم على الأغنياء الضعفاء من أجل الكسب الحرام ، وملء خزائن بيت المال بالذهب والفضة لغرض اشباع أطماع الأمراء المماليك الأوليجاركية وعلى رأسهم يلبغا . وبالطبع فان جمال الدين الأسنوي الذي كان فقيها ماهرا ومعلما ناصحا ومفيدا ، صالحا مع البر والدين والتودد والتواضع »(٩١) لا يمكن أن يوافقه على ما كان يأتيه من المظالم فأعفى نفسه من وظيفة وكالة بيت المال حتى لا يكون بصمته وسكوته موافقا له على ما كان يرتكبه من مظالم في حق الرعية . ومن جانب آخر ربما قبل ابن عرب وظيفة وكالة بيت المال ، أما من أجل تحقيق منفعة مادية ، واما رغبة منه في الاصلاح والحيلولة دون وقوع الظلم في ذلك الجهاز الاداري المهم .

وفي نفس الوقت حرص الأمراء المماليك الأوليجاركية على أن يكون أصحاب الوظائف ذات الاتصال المباشر بالناس من ذوي الأخلاق العليا والصفات المثالية حفاظا على صورة الدولة في نظر الرعية ومنعا لشكاوي الظلم عند القضاة . ولعل أبلغ مثال على ذلك ما يذكره ابن حجر يقول :

« وفيها (٧٧٣هـ -٨/ ١٣٧١ م) كائنة بمادة القبطي مشارف المواريث الحشرية ادعى عليه بأشياء منها أنه يديم ترك الصلاة فحكم بعض المالكية بقتله فقتل وطيف برأسه ، وكان الرهوني قد تعصب له وألقى بحقن دمه فلم يقبل منه »(٩٢) .

بالاضافة الى حرص بعض نواب الأقاليم على تطبيق مبادىء الشرف والفضيلة في المجتمعات المحلية التي يتولون ادارة شؤونها من ذلك اشارة ابن حجر ضمن حوادث سنة ٧٧٣ هـ/ ١٣٧١ م اذ يقول :

« شدد منجك نائب الشام على أهل اللهو وأمر بقطع اشجار المتنصاب التي بين النهرين وبتخريب المكان الذي أحدث بالشرف الأعلى ، وأزال المنكرات من هذا المكان ومن الذي فوق الجبهة أيضا وهدم الأبنية والحوانيت المستجدة هناك »(٩٣) .

الى جانب ذلك يذكر المقريزي أنه :

« في يوم الاثنين تاسع عشرة (ذي الحجة سنة ٧٧٦ هـ / ١٣٧٤ م) قبض على الصاحب كريم الدين شاكر ابن الغنام وعلى حواشيه وعلى مقدم الدولة الحاج سيف وشريكه عبيد البازدار ، وعلى الأمير شرف الدين حمزة شاد الدواوين ، وأبطل الوزارة ، وأمر فأغلق شباك الوزارة بقاعة الصاحب من قلعة الجبل فخلع على الأمير شرف الدين موسى بن الأزكشي أطلسين ، واستقر مشير الدولة بامرة طبلخاناة ورسم له أن يحمل الدولة والمرملة كما هي عادة الوزراء ، وخلع على سعد الدين ابن الريشة ، وعلى أمين الدين

---

(٨٦) انظر ترجمته ، الدرر ، جـ ٢ ، ص٤١٣ .
(٨٧) انظر ترجمته ، الدرر ، جـ ٣ ، ص٣٦١ .
(٨٨) انظر ترجمته ، الدرر ، جـ ٣ ، ص١٥٨ .
(٨٩) السلوك ، جـ ٣ ، ص٩١ .
(٩٠) الدرر ، جـ ٣ ، ص٣٦١ .
(٩١) الدرر ، جـ ٢ ، ص٤١٤ .
(٩٢) انباء ، جـ ١ ، ص٧ .
(٩٣) انباء ، جـ ١ ، ص١٤ .

مين ، واستقرا في نظر الدولة ، ورسم لهما أن يجلسا من وراء شباك الوزارة وهو مغلق ، وخلع على كريم الدين صهر النشو وعلى فخر الدين ابن علم الطويل ، واستقرا في استيفاء الدولة » .(٩٤)

وعلى ذلك يتبين لنا قيام رجال الدولة بنوع من حملة للتطهير شملت بعض الاداريين في الحكومة ـ ربما ـ من أجل الاصلاح والصالح العام . بل زيادة على ذلك تضمنت هذه الحملة ابطال الوزارة بسبب ما ارتكبه الوزراء في السابق من التطاول على حقوق الرعية والتمتع برفاهية زائدة من العيش الوثير حتى اقتضى الوضع القبض على بعضهم ومن حولهم من الحاشية والصبيان . ولعله كان للأشرف شعبان دور فيما حدث للوزارة في هذه الفترة المتأخرة من تاريخ سلطنته . الا ان ابطال الوزارة لم يطل فبعد شهور قلائل تم اعادة منصب الوزارة حيث يذكر المقريزي انه :

« في يوم الاثنين ثامن عشرينه (ربيع الاول سنة ٧٧٧ هـ/١٣٧٥ م) خلع على الصاحب تاج الدين النشو الملكي (٩٥) وأعيد الى الوزارة بعد ابطالها (٩٦) وقد يكون ذلك بسبب الحاجة الى وجود وزير في الدولة لادارة بعض الشئون المتعلقة بهذا المنصب الحساس ، أو لعل الاشرف شعبان قد وجد في شخص تاج الدين النشو ضالته من حيث الكفاءة والخلق الكريم مما جعله يقدم على اعادة منصب الوزارة في الحكومة المملوكية ، الا اننا نستبعد هذا الرأي بسبب ما يرويه المقريزي من عزل تاج الدين الملكي بعد بضع شهور حيث يذكر انه .

« في يوم الاحد ثاني عشرين ذي القعدة (٧٧٧ هـ/١٣٧٥ م) عزل الملكي عن الوزارة . وخلع من الغد يوم الاثنين ثالث عشرينه على أمين الدين مين ، واستقر في نظر الدولة ، بغير وزير ، فانفرد الصاحب شمس الدين أبو الفرج المقسي ناظر الخاص بالتدبير وخلع عليه ، واستقر مشير الدولة ، وخلع على أمين الدين جميعص واستقر مستوفي الدولة » . (٩٧)

ونتيجة لذلك كله يمكننا القول بأن الوضع الاداري في سلطنة المماليك كان غير مستقر في هذه الفترة بسبب تلاعب بعض كبار الاداريين بصلاحيات المناصب الادارية العليا في الدولة ، في حين كان الأشرف شعبان صغير السن ، مغبون الحق ، مجردا من السلطة والقوة حتى لم يكن بمقدوره التدخل سواء بالرفض على تعيين شخص يحبه في منصب اداري ، أو حتى بالموافقة على ذلك فقد كانت كافة تلك الأمور تجرى خارج نطاق كلمته وسلطاته الاسمى .

ولعله يجدر بنا أن ندرس وضع أحد أولئك الأشخاص الذين تولوا منصب الوزارة في عهد الأشرف شعبان كمثال على ما يذكره المؤرخون لأحوال سلطنة المماليك في هذه الفترة من أن هؤلاء كانوا غير جديرين في القيام بمسئوليات هذا المنصب المهم في جهاز الدولة الاداري . يأتي على رأس هؤلاء « ماجد (٩٨) ابن تاج الدين موسى (٩٩) بن أبي شاكر القبطي المصري فخر الدين ، كان صاحب ديوان يلبغا ، ثم ولي الوزارة في دولة الأشرف ونظر الخاص » . (١٠٠)

وعلى ذلك فان ابن قزوينه لم يأت هذا المنصب بناء على ما كان يتمتع به من خصال وصفات مثالية ، وانما نتيجة لتلك الصلة الوطيدة التي تربطه بمدبر شئون الدولة يلبغا العمري . ومما يدل على سوء تدبيره في أحوال البلاد ما يذكره المقريزي ضمن حوادث سنة ٧٧٦ هـ/١٣٧٤ م من أنه :

« ترك بالاهراء السلطانية ما ينيف على الثمانية ألف أردب . وفي النواحي مثل ستتين . وكان يحمل الى الأمير يلبغا بعد تكفية السلطان ، وتكفية الأمير يلبغا وصرف الرواتب في كل شهر ، ستين ألف دينار . وكان أمينا عارفا مهابا ، عمر بيوت الأموال وخزائن الخاص بأنواع الأموال ، الا أنه كان كثير الترفع حتى على الأمراء ، فعذب عذابا شنيعا ، ضرب غير مرة بالمقارع ، ولفت أصابع يده اليمنى بالشاق ، وغمست في الزيت ثم أشعلت بالنار حتى احترقت يده كلها ، وجعل في عنقه الحديد ، وصار يمر بالأسواق ، وهو

(٩٤) السلوك ، جـ٣ ، ص٢٤١ .
(٩٥) أنظر ترجمته ، الدرر ، جـ٢ ، ص ٢٨٤ .
(٩٦) السلوك ، جـ٣ ، ص٢٥٦ .
(٩٧) السلوك ، جـ٣ ، ص٢٥٩ .
(٩٨) أنظر ترجمته ، الدرر ، جـ٣ ، ص ٣٦١ .
(٩٩) أنظر ترجمته ، الدرر ، جـ٥ ، ص١٤٤ ـ ١٤٥ .
(١٠٠) أنباء ، جـ١ ، ص١١٨ ، أنظر كذلك ، السلوك ، جـ٣ ، ص٢٤٢ .

كذلك على حمار ، ويذكر أن فقيرا قدم له قصة فى وزارته ، فمزقها وطرده ، فدعا عليه ، وخرج ، فلم يمض سوى أيام حتى قبض عليه وعذب الى أن مات » . [١٠١]

وعلى ذلك فقد ارتكب الوزير ابن قزوينة مختلف أنواع المظالم فى سبيل الفائدة المادية والمنفعة الخاصة محتميا بسلطة الأتابك يلبغا الخاصكي ، الا أن أمره لم يطل عقب وفاة يلبغا بسبب كراهية كبار الأمراء له فعجلوا بامساكه والقضاء عليه ، فنجد المقريزى يقول :

« وتوفى (سنة ٧٧٦ هـ/١٣٧٤ م) الوزير الصاحب ناظر الخاص فخر الدين ماجد ، ويدعى عبدالله ، ابن تاج الدين موسى بن علم الدين أبى شاكر بن سعيد الدولة ، فى يوم الجمعة عاشر ذى القعدة ، وأبوه حى » [١٠٢]

وعلى ذلك فان السؤال الذى ينبغى طرحه هنا هو الى أى حد تأثر المحيط الادارى فى سلطنة المماليك فى هذا العهد بمطامع كبار الأمراء المماليك فى سبيل هدف التمتع بالسلطة العليا فى الدولة ؟

كذلك فى ظل هذا الوضع الادارى غير الطبيعى لا بد لنا أن نسأل عن ماهية الحالة السياسية ابان هذه الحقبة ، والى أى مدى شهدت طابعا من الاستقرار والثبات فى ظل حكم سلطان بلا سلطة وأمراء بيدهم كل مقاليد الأمور فيما يختص بمختلف أجهزة الدولة السياسية والعسكرية والادارية ؟ للاجابة على هذا السؤال ينبغى علينا تقصى تطور الوضع السياسي خلال سنوات هذا العهد آخذين بعين الاعتبار ما وقع فى أثنائها من مؤامرات وفتن اما من أجل مزيد من السلطة ، وأما لهدف الاستئثار بجميع مقاليد الحكم ، واما لقصد اطاحة حكم الأشرف شعبان . ويذكر المقريزى وقوع أول مؤامرة خلال هذا العهد ، وبالتحديد بعد ثلاث سنوات من تولى الأشرف شعبان حكم سلطنة المماليك .

ويبدو أن الهدف منها كان التخلص من الأمير طيبغا الطويل بسبب رغبة يلبغا فى الانفراد بحكم الدولة دون منافس ، وقد حاول طيبغا الطويل أن يستفيد من هذه المؤامرة بالتخلص من مدبرها يلبغا العمرى ، الا أن الأمير طيبغا الطويل فشل فى تحقيق أهدافه وانتهى الأمر بالقبض عليه ، وقد بدأ ذلك عندما » كان الأمير طيبغا الطويل أمير سلاح قد خرج الى العباسة يتصيد ، فبعث الأمير يلبغا اليه مرسوم السلطان فى يوم الثلاثاء ثالث عشره (جمادى الاخرة سنة ٧٦٧ هـ/١٣٦٥ م) مع الأمير أقبغا العمرى [١٠٣] الحاجب ، بأن يتوجه الى دمشق نائب السلطنة بها ، وحمل معه التقليد والتشريف ، فلم يوافق على ذلك ، ورد الحاجب ردا غير جميل ، وكان الأمير يلبغا بتربه ملكتمر المارديني [١٠٤] مقيما على قبره ، فلما بلغه الحاجب جواب الأمير طيبغا ، غضب ، وبعث اليه الأمير أرغون الأسعردى ، الدوادار ، والأمير أروس المحمودى ، والأمير أرغون الأزقى ، والأمير طيبغا العلاى بالتشريف وتقليد النيابة ، وأكد عليهما فى ترجيعه عن الفتنة ، وان لم يمض فليقبضوا عليه . فما هو الا أن مضوا حتى أبعدوا قليلا ، فتأخر عدة من مماليك الأمير طيبغا العلاى ومماليك أرغون الأزقى ، ووافق الأمير طيبغا فامتنع من اجابتهم الى السفر ، وقال : « ليس بينى وبينهم الا السيف » . فمال اليه أرغون الأسعردى والأمير أروس ، وقبضوا على الأمير طيبغا العلاى ، ففر أرغون الأزقى الى الأمير يلبغا ، وهو بالتربة ، ثم لحق به الأمير طيبغا العلاى ، وأخبراه بما وقع ، فركب من فوره الى قلعة الجبل ، وأمر فدقت الكوسات حربيا ، ولبس السلطان وعامة العسكر السلاح ، وركبوا ليلة السبت سابع عشره ، وعمل كمينا فى خلف الجبل ، قريبا من قبة النصر ، فلما طلع الفجر حتى وافى الأمير طيبغا الطويل قبة النصر ، فاقتتل الفريقان ، فاستظهر طيبغا الطويل على القوم وكادت النصرة تتم له ، فخرج الكمين من ورائه . وعاد الأمير يلبغا بعدما أبعد قليلا ، فانهزم طيبغا الطويل ، وتفرق جمعه ، فاختفى بالقاهرة .

وعاد السلطان الى القلعة ونودى باحضار من وجد من المنهزمين ، وهدد من أخفاهم ، فلم يسر والى القاهرة ، والنداء بين يديه ، عن بين القصرين ـ من القاهرة ـ غير قليل ، حتى دله بعض الناس ، على طيبغا الطويل فدخل خانكاة بيبرس وأخذه منها ، وصعد به القلعة ، فقيده وسجن ، وظفر أيضا فى آخر النهار بالأمير أروس ، وبالأمير أرغون الأسعردى ، والأمير كوكنداى أخى طيبغا الطويل ، والأمير كليم ، ثم قبض على الأمير جركتمر السيفى منجك الجوكندار ، والأمير أرغون عبد الملك شاد الشرابخاناة والأمير جق الشيخونى ، والأمير تلك ، وأقبغا العمرى البالسي ، وقرا السلاح دار ، والأمير أزكاه السيفى ، وجرجى بن كوكندى ، وأزدمر بن مصطفى ، وطشتمر العلاى ، فحملوا الى ثغر

(١٠١) السلوك ، جـ ٣ ، ص ١٤٧ - ١٤٨ .
(١٠٢) السلوك ، جـ ٣ ، ص ٢٤٧ ، أنظر كذلك ، النجوم ، جـ ١١ ، ص ٩٧ .
(١٠٣) أنظر ترجمته ، الدرر ، جـ ١ ، ص ٤٢٠ .
(١٠٤) أنظر ترجمته ، الدرر ، جـ ٥ ، ص ١٣٩ .

الاسكندرية في النيل مقيدين ، وسجنوا هناك ، وأخرج الأمير حسين بن طوغان الساقي منفيا الى الشام . وارتجع اقطاع ولدى طيبغا الطويل - وهما علي وحمزة - وأنعم في يومه على الأمير طيدمر البالسي ، واستقر أمير سلاح عوضا عن طيبغا الطويل ، واستقر الأمير طيبغا البوبكري المهمندار ، دوادارا بامرة طبلخاناة .

وفي ثاني ثالث عشرينه خلع على الأمير أرغون الأزقي ، واستقر استادار السلطان عوضا عن أروس ، واستقر الأمير قطلوبغا الشعباني شاد الشراب خاناه ، بامرة طبلخاناة ، عوضا عن أرغون عبد الملك ، واستقر الأمير تمرقيا العمري جوكندار ، عوضا عن جركتمر السيفي ، وأنعم على كل من الأمير أقبغا الأحدى المعروف بالجلب ، والأمير أستدمر الناصري بتقدمة ألف .

وفي يوم الأحد خامس عشرينه ، نودي بزينة القاهرة ومصر ، فزينتا أحسن زينة »(١٠٥)

ويؤكد أبو المحاسن مقالة المقريزي موضحا السبب وراء رغبة الأتابك يلبغا العمري في التخلص من خشداشة طيبغا الطويل رغبة في السيطرة على جميع زمام الأمور في الدولة ، وربما أيضا تخوفا من ازدياد نفوذ طيبغا فيبدأ في منافسة يلبغا والتخلص منه اذ انه يقول :

« هذا ، وقد ثقل على يلبغا وطأة خشداشة طيبغا الطويل لأراد أن يستبد بالأمر وحده وأخذ يلبغا يدبر عليه في الباطن ولقد حكى لي بعض من رآهما قال : كانا ينزلان من الخدمة السلطانية معا ، فتقول العامة : يا طويل حسك من هذا القصير! فكان طيبغا يلتفت الى يلبغا ويقول له وهو يضحك : ما يقولون هؤلاء ! فيقول يلبغا : هذا شأن العامة يثيرون الفتن » . (١٠٦)

وهذا يبرهن بوضوح على أن الرعية كانت تدرك نوايا يلبغا العمري الأتابك في الانقضاض على طيبغا وإيداعه السجن ، فبات يتربص به ، ولم يكن الطلب اليه أن يسافر الى نيابة الشام الا خطوة أولى من أجل التخلص منه نهائيا ، ومن ثم بدأ يخطط من أجل تحقيق هذا الهدف « واستمر يلبغا على ذلك الى أن خرج طيبغا الطويل الى الصيد بالعباسة أرسل اليه يلبغا جماعة من مقدمي الألوف وهم : أرغون الاسعردي الدوادار والأمير أروس المحمودي الاستادار وأرغون الأزقي وطيبغا العلائي حاجب الحجاب ومعهم تشريف له بنيابة دمشق فساروا حتى قدموا على طيبغا الطويل وأخبروه بما وقع ، فلما سمع طيبغا ذلك غضب وأبى قبول الخلعة ، وخامر واتفق معه أرغون الأسعردي الدوادار وأروس المحمودي وهرب طيبغا العلائي وأرغون الأزقي ولحقا بالأتابك يلبغا وأعلماه بالخبر فركب يلبغا في الحال ومعه السلطان الملك الأشرف شعبان بالعساكر في صبيحة اليوم المذكور وقد ساق طيبغا الطويل من العباسة حتى نزل بقبة النصر خارج القاهرة ليأتيه من له عنده غرض فوافاه يلبغا في حال وصوله بالعساكر وقاتله فاقتتلا ساعة وانكسر طيبغا الطويل بمن معه وأمسك هو وأصحابه من الأمراء وهم أرغون الاسعردي وأروس المحمودي وكوندك أخو طيبغا الطويل وجركتمر السيفي منجك وأرغون من عبدالله وجق الشيخوني وكليم وأخو طيبغا الطويل وتلك أخو بيبغا الصالحي وأقبغا العمري البالسي وجرجي ابن كوندك وأرزمك بن مصطفى وطشتمر العلائي ، وأرسلوا الجميع الى سجن الاسكندرية ، وأخذ يلبغا اقطاع ولدى طيبغا الطويل وهما : علي وحمزة وكانا أميري طبلخاناه » (١٠٧)

وفي هذا كله دلالة أكيدة على أن يلبغا العمري كان صاحب الكلمة العليا في الدولة دون منافس ، وكان يوحي الى الأشرف شعبان أنه انما يعمل على التخلص من هذا الأمير وذاك الوزير رغبة منه في حماية الأشرف والابقاء على حكمه . وقد كان يفعل كل ذلك مستغلا طيبة أخلاق الأشرف شعبان وقصر ادراكه لما يدور حوله بسبب صغر سنه ، ولما كانت الأمراء تلجأ الى السلطان لانجاز أي أمر يخالف رغبة يلبغا فيقول أبو المحاسن :

« ثم في يوم الاثنين خامس عشرين شعبان من سنة سبع وستين وسبعمائة ، باست الأمراء الأرض للسلطان ويلبغا الأتابك معهم ، وطلبوا من السلطان الافراج عن الأمراء المسجونين بثغر الاسكندرية المقدم ذكرهم ، فقبل السلطان شفاعتهم ، ورسم بالافراج عن طيبغا الطويل خاصة ، فأفرج عنه ورسم بسفره الى القدس بطالا ، فسافر الى القدس وأقام به ، ثم بعد ذلك في يوم عيد الفطر رسم السلطان بالافراج عمن بقي في الاسكندرية من أصحاب طيبغا الطويل ، فأفرج عنهم وحضروا فأخرجوا الى الشام متفرقين بطالين وصفا الوقت ليلبغا العمري وصار هو المتكلم في الأمور من غير مشارك والسلطان الملك الأشرف شعبان معه آلة في السلطنة ، وأنعم يلبغا باقطاعات أصحاب طيبغا الطويل على جماعة من أصحابه ، فأنعم على الأمير أرغون بن يلبك الأزقي بتقدمة ألف ، عوضا عن ملكتمر المارديني بحكم وفاته ، وأنعم على أينبك

(١٠٥) السلوك ، جـ٣ ، ص١١٥ - ١١٧ ، أنظر كذلك ، بدائع ، جـ١ ، ص٢١٥ - ٢١٦ .

(١٠٦) النجوم ، جـ١١ ، ص٣٠ .

(١٠٧) النجوم ، جـ١١ ، ص٣١ ، أنظر كذلك ، بدائع ، جـ ، ص٢١٦ .

اليحوي أمير آخور يلبغا العمري بإمرة طبلخاناة واستقر استادار استاذه يلبغا » . (١٠٨)

وعلى ذلك فكأنما الأشرف شعبان عمد الى تقليص نفوذ طيبغا الطويل وما كان يتمتع به هو وأصحابه من اقطاعات من أجل أن يسبغها على الأتابك يلبغا العمري وأتباعه حتى بدأ ذلك يظهر وكأنه السبب الرئيسي الذي جعل يلبغا العمري يخطط من أجل القبض على خشداشه ، وان كنا نعتقد بأن الرغبة الشخصية عند يلبغا العمري في التمتع بنفوذ وسلطات مطلقة في الدولة دون منافس كانت أيضا عاملا مهما في قيامه بتلك الاجراءات المقصود ضد طيبغا الطويل ، ويضيف المقريزي أنه :

« أخرج الأمير قطلوبغا العمري الحاجب ، والأمير أحمد بن ابي بكر ابن أرغون النايب ، بعدما قطع لسان كل منهما ، ونفي الى الشام » . (١٠٩)

وهكذا عمل يلبغا العمري على تأديب كل من عمل على مساعدة طيبغا الطويل ومساندته وكأنه يريد أن ينذر كل من تسول له نفسه العمل على مساعدة متمرد ضد الدولة ، أو مساندة منافس يرغب في مجاراته بما يحظى به نفسه من سلطات غير محدودة وصلاحيات مطلقة في ادارة شئون الدولة دون رقيب أو حسيب . كما اجتهد يلبغا في نفي كل من يطلق سراحه من أتباع طيبغا الطويل الى الشام فلا يعملون على اثارة الأمراء الآخرين والقضاة وأهل العلم ضده بالاضافة الى أن هؤلاء لن يجدوا لهم الأنصار الذين يأملون في بلاد الشام خاصة بعدما حرموا اقطاعاتهم وثرواتهم ، وبذلك يصفو له الوضع السياسي الملائم لأطماعه الشخصية وتطلعاته في السلطة العليا في الدولة .

وعلى ذلك يذكر المقريزي انه :

« في يوم عيد الفطر رسم بالافراج عن الأمير أرغون الأسعردي ، والأمير أروس المحمودي ، وبقية الأمراء المسجونين ، فأفرج عنهم وأخرجوا الى الشام متفرقين » . (١١٠)

وهكذا لم يطل الوقت بطيبغا الطويل في السجن اذ أفرج عنه ، وربما ـ خشية الفتنة بين صفوف الأمراء المماليك ، وخرج الى القدس حيث عاش بطالا فترة من الزمن ، حتى انتهى الأمر بتوليته نيابة حماة .

فيقول المقريزي انه :

« في تاسع صفر (٧٦٨ هـ/١٣٦٦ م) استقر الأمير طيبغا الطويل في نيابة حماة » . (١١١)

ولكن يبدو أن كبار الأمراء المماليك استمروا يخشون تمرد طيبغا الطويل بعد الذي قاساه بسببهم ، وبات الأشرف شعبان يتخوف من الفتنة حتى شاع « الخبر باتفاق الأمير طيبغا الطويل نايب حماة ، والأمير اشقتمر (١١٢) نايب طرابلس على المخامرة ، فتجهز الأمير أستدمر الاتابك للسفر ، وتقدم بتجهيز الأمراء ، وبعث القصاد للكشف عن ذلك على البريد ، فعادوا باستمرار بقية النواب على الطاعة ، ما عدا المذكورين ، فكتب بالقبض عليهما ، فقبضا وقبض معهما على اخوة طيبغا الطويل ، وحملوا الى الاسكندرية مقيدين .

واستقر استدمر الزيني في نيابة طرابلس ، وأعيد عمر شاه الى نيابة حماة في أوائل ذي القعدة ، واستقر أرغون الازلي في نيابة صفد » . (١١٣)

وبذلك يظهر واضحا أن تأثير يلبغا العمري على الأشرف شعبان استمر حتى عقب مقتل يلبغا العمري وتولي استدمر منصب الاتابكية اذ استمر الأشرف شعبان متخوفا من طيبغا الطويل خشية أن يدبر فتنة تطيح بسلطانه ، ولذا بات يشك في تصرفاته وتحركاته حتى انتهى الأمر بالقبض عليه وسجنه للمرة الثانية . وفي الحقيقة لا تشير المصادر المملوكية الى أن طيبغا الطويل قد فكر ولو مرة واحدة في التمرد ضد الأشرف شعبان أو اثارة الفتنة . ويثبت ابو المحاسن حدوث هذه الوقائع ضد طيبغا الطويل فنجده يقول :

« واستقر طيبغا الطويل الناصري رفيق يلبغا العمري الخاصكي المقدم ذكره في نيابة حماة وكان بطالا بالقدس في تاسع صفر فلم تطل مدته وقبض عليه منها في ذي القعدة واعتقل بالاسكندرية ثانيا » . (١١٤)

---

(١٠٨) النجوم ، جـ ١١ ، ص ٣١ ، قارن ، السلوك ، جـ ٣ ، ص ١٢٠
(١٠٩) السلوك ، جـ ٣ ، ص ١٢٠ .
(١١٠) السلوك ، جـ ٣ ، ص ١٢١ .
(١١١) السلوك ، جـ ٣ ، ص ١٢٧ .
(١١٢) أنظر ترجمته ، الدرر ، جـ ١ ، ص ٤١٦ .
(١١٣) السلوك ، جـ ٣ ، ص ١٤٥ .
(١١٤) النجوم ، جـ ١١ ، ص ٤٦ .

وهذا يدل على عدم استقرار الوضع السياسي داخل دولة المماليك حيث امتلأت النفوس بالظنون والشكوك ، وباتت الثقة في الأمراء مهزوزة ، والأشرف شعبان حائر في معرفة مواقع الصدق فيما يحدث من اتهامات في النوايا الشخصية والاخلاص في العمل ، حتى اننا نقرأ عن اطلاق سراح طيبغا الطويل بعد فترة وجيزة ، بل واستقراره في نيابة حلب اذ يقول المقريزي :

« وأفرج عن الأمير طيبغا الطويل ، واستقر في نيابة حلب عوضا عن منكلي بغا الشمسي » . (١١٥)

وهذا يثبت بشكل مؤكد عدم وجود الأدلة الكافية لادانة طيبغا الطويل بالتآمر ضد السلطان أو اثارة الفتن ، الأمر الذي يدل على أن كل الاتهامات التي وجهت ضده كانت قائمة على الشكوك المجردة من أي برهان مما يبين عدم صفاء الجو السياسي بسبب الأطماع الشخصية والتطلعات السياسية حتى ولو كان ذلك على حساب المصلحة العامة في الدولة . وقد استمر طيبغا الطويل نائبا في حلب حتى وفاته فيقول المقريزي :

« ومات الأمير طيبغا الطويل نائب حلب بها ، في تاسع ذي القعدة (٧٦٩ هـ/١٣٦٧ م) » (١١٦)

ومن ثم ففي « العشرين من ذي القعدة (سنة ٧٦٩هـ/١٣٦٧م) استقر استبغا بن البوبكري في نيابة حلب عوضا عن طيبغا الطويل بعد موته (١١٧) .

وبذلك انتهت بوفاة طيبغا حياة شخصية مملوكية رغبت في خدمة الدولة باخلاص ، الا أن الوضع السياسي غير الطبيعي قد حال دون نجاحها في تحقيق ذلك الهدف في حقبة طغت فيها المطامع الخاصة على خدمة المصلحة العليا .

ولكن من هذه الشخصية التي تيسر لها أن تلعب هذا الدور الرئيسي في عهد الأشرف شعبان ؟ هو يلبغا بن عبد الله الخاصكي الناصري الذي كان « رأس من قام على أستاذه الناصر حسن حتى قتل ، وتسلطن المنصور محمد بن حاجي واستقر أتابك ثم خلعه في شعبان سنة أربع وستين ، وتسلطن الأشرف شعبان وتناهت اليه الرياسة ولقب نظام الملك ، وصار صاحب الأمر والنهي والحل والعقد ، وهو السلطان في الباطن والأشرف بالاسم ، وانتهى اليه الى أن صار العدد الكثير من مماليكه نواب البلاد ومقدمي ألوف واستكثر من المماليك الجلبان وبالغ في الاحسان اليهم والاكرام حتى صاروا يلبسون الطرز الذهبية العريضة يركب معه منهم نحو الف نفس » . (١١٨) وبناء على هذه الحقيقة يمكننا أن نتبين الدور الذي قام به يلبغا للتخلص من أستاذه السلطان الناصر حسن الذي كان صاحب الفضل عليه لما وصل اليه من مكانة وسلطة - ربما - من أجل سيطرة أكبر وصلاحيات أكثر فكان سببا في تسلطن المنصور محمد ليصبح اتابك ، ولكن الرغبة في الوصول الى صورة سياسية للسلطة تتناسب مع ما كان يتطلع اليه من سلطة وقوة كانت عاملا اساسيا في قيامه على خلع المنصور محمد وتولية الأشرف شعبان ليمارس صلاحيات مطلقة في حكم سلطنة المماليك دون أية معارضة أو منافسة ، « فأصبح صاحب الأمر والنهي والحل والعقد وهو السلطان في الباطن والأشرف بالاسم »(١١٩)ولكن الشعور بعدم عدالة ما اقترفه من أعمال الظلم والتآمر أدخل هواجس الخوف الى نفسه ، وباتت تزعج فكره ، فاجتهد باحاطة نفسه بالمماليك من أجل حراسته وحمايته ، بل لقد بلغ الأمر أن عدد مماليكه كان « ثلاثة آلاف » (١٢٠) كما كان حريصا على تعيين بعضهم نوابا للاقاليم المملوكية فيكونون بذلك ركائز ثابتة له في كل مكان بحيث يعتمد على ولائهم له من أجل خدمة أهدافه الخاصة ومطامعه الشخصية في مختلف النواحي .

يقول ابن حجر : « وكانت ليلبغا صدقات كثيرة على طلبة العلم ، ومعروف كثير في بلاد الحجاز ، وهو الذي حط المكس عن الحجاج بمكة وعوض أمراءها بلدا بمصر » .(١٢١) ترى هل كان يلبغا يبحث عن شعبية له بين الرعية في سلطنة المماليك فيعين طلاب العلم ، ويساعد الحجاج ، ويوزع الصدقات . أم أنه كان يفعل كل ذلك كي يضمن ما كان يحظى به من مكانة وثراء وسلطة ، فتصمت الألسن عن التحريض للثورة ضده أو التخلص

(١١٥) السلوك ، جـ٣ ، ص١٥٦ .

(١١٦) السلوك ، جـ٣ ، ص١٦٥ .

(١١٧) السلوك ، جـ٣ ص١٥٩ .

(١١٨) الدرر ، جـ٥ ، ص٢١٣ .

(١١٩) الدرر ، جـ٥ ، ص٢١٣ .

(١٢٠) الدرر ، جـ٥ ، ص٢١٣ .

(١٢١) الدرر ، جـ٥ ، ص٢١٤ .

من وجوده وأفعاله . يصعب في الحقيقة تعيين السبب وراء ذلك ، ولكن يمكن القول أن كل ذلك كان عنصرا أساسيا لابد من عمله كي يستمر الوضع الذى كان يلبغا يريده لنفسه بغض النظر عن نوعية الدافع وراء ذلك .

ويؤكد المقريزى هذه الواقعة بقوله :

« وكتب مرسوم باسقاط ما يؤخذ من مكس الحجاج بمكة فيما يحمل اليها من البضائع . خلا مكس الكارم تجار اليمن ، ومكس الخيل ، ومكس تجار العراق وعوض امير مكة عن ذلك اقطاعا بمصر ، وحمل اليه مبلغ اربعين الف درهم فضة ، عنها يومئذ نحو الالفي مثقال ذهبا »[122]

بالاضافة الى ذلك :

« أبطل يلبغا المكوس من مكة والمدينة ورتب عوض ذلك من بيت المال مائتي الف وستين الفا » .[123]

ومن جانب آخر تمتع يلبغا بمظاهر الترف والرفاهية في العيش « فكان موكبه من أعظم المواكب ، ويقال ان فخر الدين بن قزوينه كان يحمل الى خزانة يلبغا في كل يوم ألفي دينار » .[124]

ويذكر المقريزى :

« وفيها (٧٦٤هـ) فرق الأمير يلبغا كثيرا من الغلال والمال في الفقهاء والصوفية . وولى من ذلك جانبا موفورا القاضي علم الدين ناظر الجيش ، فارتفق الناس بهذه الصدقات بحيث استغنى منها جماعة »[125]

ترى هل يمكن أن نعتبر هذا المسلك من الأمير يلبغا محاولة منه في التقرب الى أهل الدين ، فيكسب محبتهم ورضاءهم عنه ، وبالتالي يدحض شكوكهم حول موقفه المتآمر من السلاطين فيعزل هذا ويولي هذا بما يخدم مصالحه وأطماعه ، وأنه لم يفعل ذلك الابدافع من الحرص على مصالح الدولة والرغبة في خدمة أعدائها ، وأن ذلك لا يمكن أن يتم في ظل حكم سلطان لعوب ما جن ولابد من استبداله بآخر ، وكأن الناس لا تدرك بأن كلا السلطانين طفل لا حيلة له ، وان زمام الأمور مرهون برأى الأمير يلبغا وتدبيره . وعلى ذلك هل يمكن أن نعتبر تصرفه نوعا من الدعاية السياسية أو الرشوة الاجتماعية من أجل خدمة أهداف شخصية بحتة حتى ولو كان في ذلك مضرة للمصالح العامة للدولة ، ولكن لماذا يهتم الأمير يلبغا رغم ما كان يتمتع به من الصلاحيات بارضاء هؤلاء « الفقهاء والصوفية »؟! هل هو الخوف من أن يكون هؤلاء مصدر تحريض للرعية ضده ، فيكون في ذلك نهاية للمنزلة العالية التي كان يحظى بها ؟ أم هي الخشية من أن تحاول الرعية أن تجد من خلال هؤلاء الأتقياء منفذا للثورة ضد حكم الطغاة من الأمراء الأوليجاركية ، بل وتخليص أولئك السلاطين الأطفال من لعبة العزل والتولية بما يتفق مع مصلحة الأمراء المماليك ؟ لعله يمكننا أن نقول انها كل هذه الأسباب مجتمعه حيث لا يعقل أن نعتقد أن يلبغا قد انتهج ذلك المسلك بدافع من الرغبة في مساعدة الفقراء من أهل الدين اذ لابد أن يحول دون اعتقادنا هذا ما كان يقوم به يلبغا من تلاعب بأشخاص أولئك السلاطين الأطفال من بيت قلاوون .

كذلك يشير المقريزى ضمن حوادث سنة ٧٦٥هـ/١٣٦٤م أن الأمير يلبغا الأتابك حفر « ترعة استجدها من البدرشين بالجيزية فكثر النفع بها » .[126] وعلى ذلك تتعدد الوسائل التي كان ينتهجها يلبغا من أجل المصلحة العامة ، وان كان يصعب علينا التكهن بطبيعة الدوافع الكامنة وراء مثل هذه الأعمال . ومن المحتمل كثيرا أن يلبغا كان يرى في خراب البلاد نهاية لما كان يسعد به من مكانته وثراء ورفاهية ، ومن ثم اجتهد في خدمة البلاد بهدف استمرار أسباب سعادته .

كذلك عنى الأمير يلبغا بتوزيع الرتب الاميرية على اتباعه المماليك[127] ـ ربما ـ من أجل أن يجتهدوا في العمل على خدمته في مختلف ميادين النفع والمصلحة .

ولكن هذه الأبهة والرفاهية غير العادية لم تستمر حيث عمل يلبغا على قطع أخبار بعض الأجناد ، الى جانب تسلطه على مماليكه الجلبان وتطاوله عليهم حتى أدى الأمر الى تعاونهم من أجل هدف التخلص منه مما عجل بوقوع فتنة كبيرة هددت بتحطيم سلطة المماليك في مصر لولا التفاف مختلف الطوائف والفئات حول السلطان الأشرف شعبان ، والتمكن بالتالي من هزيمة يلبغا وأنصاره حيث يقول المقريزى : :

« وكان الأمير يلبغا ـ لأمر يريده الله تعالى ـ قد شحت نفسه ،

(١٢٢) السلوك ، جـ٣ ، ص٩٨ .
(١٢٣) النجوم ، جـ١١ ، ص٣٤ .
(١٢٤) الدرر ، جـ٥ ، ص٢١٣ ـ ٢١٤ .
(١٢٥) السلوك ، جـ٣ ، ص٨٨ .
(١٢٦) السلوك ، جـ٣ ، ص٩٣ .
(١٢٧) السلوك ، جـ٣ ، ١١٤ ـ ١١٨ ، أنظر كذلك جامع جـ٦ ، ص٢١٩ .

وساءت أخلاقه فاجتمع مماليكه الأجلاب الى رؤوس النوب ، وشكوا ما يلقوه من الامير يلبغا وانه يخوفهم ، ويهينهم ، ويبالغ في معاقبة أحدهم على الذنب اليسير ، حتى انه ضرب عدة منهم بالمقارع وقطع ألسنة جماعة ، وأنهم قد صاروا يدا واحدة ، يريدون قتله ، وقتل من لم يوافقهم على ذلك ، فأشار الاكابر منهم عليهم بالتمهل قليلا حتى يأخذوا ما عند الأمير يلبغا ويحدثوه في شأنهم . وانتدب منهم الامير استدمر الناصري . (١٢٨) والامير الجغا جلب الاحدى(١٢٩) . والامير قجماس الطازى ، والامير تغرى برمش العلاى ، والامير الجغا جركس امير سلاح ، والامير قرابغا الصرغتمشي ، ومضوا الى الامير يلبغا ، وحدثوه في امر المماليك ، وسألوه الرفق بهم ، فجبهم . ورد عليهم ردا جافيا ، وتهددهم ، وحلف بالأيمان الحرجة انه لابد من ضرب جماعة من مماليكه بالمقارع ، واشهارهم في الوطاق ، فشق ذلك عليهم وخرجوا من بين يديه وقد توغرت صدورهم وحدثوا اخوانهم من المماليك بما كان من الامير يلبغا ، واتفقوا جميعا على الفتك به وتمالئوا على ذلك ولبسوا سلاحهم ليلة الاربعاء خامس ربيع الآخر ، وكبسوا مخيم يلبغا وأحاطوا به ليأخذوه فمضى اليه بعض خواصه منهم ، وأعلمه الخبر ، فبادر الى الفرار على فرس وقصد بولاق التكرورى في نفر من خاصته ، وبعث الى الامير طيبغا حاجب الحجاب يعلمه بما هو فيه ، فلم يشعر الحاجب ، وقد جلس بكرة يوم الاربعاء لعرض الاجناد على عادته ، وهم منه على تخوف ان يقطعهم كما فعل بغيرهم ، الا وجاءه أحد مماليك يلبغا وأسر اليه طويلا ، ثم قام عنه ، وقد تغير حاله ، فأمر الاجناد بالانصراف ، وأبطل عرضهم ، وركب الى داره ، فلبس آلة الحرب هو ومماليكه ، وعاد الى الجزيرة ، وتقدم بطلب اجناد الحلقة ومن تأخر بالقاهرة من الأمراء ، فأتوه في السلاح ، وقد ارتجت القاهرة بأهلها وخرجت العامة من كل موضع الى الجزيرة ، وما حولها ، ومنع أرباب المراكب النيلية ان يعدوا بأحد النيل من البرين ، وجمعت المراكب كلها الى بر مصر ، وضموا الشواني الحربية ، والقوا مراسيها في وسط النيل ، وأخرجوا منها رجالها . وتقدم حاجب الحجاب الى فتح الدين صدقة رئيس الحراقة السلطانية ان يخرج الحراقة الذهبية من بر الجيزة ، ولا يعدى الا بالسلطان والامير يلبغا فقط ومن يصحبهما ، وكان الامير عمر بن النائب ـ نائب الغيبة ـ قد اغلق ابواب القلعة ، وألبس من بها من مماليك السلطان السلاح وأقامهم على الاسوار ، واستعد .

وأما يلبغا فانه سار ليلة من جزيرة القط الى بولاق التكرورى ، فلم يأتها الا عند نصف النهار من يوم الاربعاء فلم يجد مركبا يعدى به النيل الى الحراقة الذهبية فعدى فيها ، وقد عرفه الرايس صدقة حتى وافى حاجب الحجاب بالجزيرة ، ومن انضم اليه من الامراء والاجناد ، فأكد في المنع بالتعدية بأحد ، من بر الجزيرة ، وسار في جحفل كبير الى القلعة ، فمنعهم نايب الغيبة من دخولها ، ورأوا منعتها عليهم بمن فوقها من المقاتلة ، فعاد عنها بجمعه الى منزله بالكبش وظل فيه بقية نهاره ، وبات ليلة الخميس ، وقد رجع الامير طيبغا حاجب الحجاب الى الجزيرة لحراسة المعادى .

وأما المماليك فانهم لما بلغهم فرار يلبغا نادوا و من أراد قدومه يلبغا فليتبعه ، ومن أراد السلطان فليقم معنا » . فتبع يلبغا طايفة وتأخر اكثرهم ، فأسرع القوم الى من فارقهم وأخذوهم وقيدوهم واقتسموا جميع ما معهم . وتجمعوا بأسرهم عند وطاق السلطان ونزلوا عن خيولهم ، ومثلوا بين يديه وقبلوا الارض ، وأعلموه بما كان من يلبغا في حقهم ، وما رده من الكلام الجافي عليهم ، وسألوه تصريحهم عليه ، فوعدهم بخير ، وقوى عزايمهم ، فحلفوا له . ثم ساروا به الى بولاق التكرورى في ليلة الاربعاء ، حتى وافى شط النيل فلم يجد مراكب يعدى بها النيل ، فخيم هناك بمن معه ونودى بالاقامة ثلاثة ايام . وكتبت البطاين الى الاسكندرية ودمياط ورشيد البراس على أجنحة الحمام ، بقدوم من بها من الأمراء والاجناد المركزين في اليزك على العادة لحفظ الثغور من الفرنج ، وكتب بحضور من بالوجه القبلي والوجه البحرى ايضا ، فقدموا شيئا بعد شيء ، وأخذ ولاة الجيزة في جمع المراكب من شاطيء النيل ، فجمعوا منها عدة ركب بها طائفة في الليل ، وأخذوا كثيرا من الشواني الحربية التي في وسط النيل وضموا بها ما بقي منها وصاروا بها جميعها الى بولاق التكرورى ، وفيها آلات الحرب ، فما طلع النهار ، حتى زينت ونصبت عندها ، وعمرت بالرجال البحرية والمماليك السلطانية فكأن الامير يلبغا انما تعب فيها لتكون مقاتلة له ومزيلة لنعمته ، وسالبة لملكه .

فلما كان يوم الخميس ، ركب الامير يلبغا في عسكر موفورا الى الجزيرة ، فبرزت اليه الشواني من بر الجيزة حتى صارت في وسط النيل ورمته المماليك السلطانية منها بالسهام ، والنفط فما زال القوم يترامون نهارهم ، ثم أمر يلبغا فجيء اليه بالخليفة ، وأنوك بن حسين بن محمد بن قلاوون . وطلب يلبغا من الخليفة ان يفوض اليه السلطنة عوضا عن أخيه شعبان ابن حسين ، فامتنع الخليفة من

(١٢٨) أنظر ترجمه ، الدرر ، جـ١ ، ص ٤١٣ .
(١٢٩) أنظر ترجمه ، الدرر ، جـ١ ، ص ٤١٩ .

ذلك واحتج بأن الشوكة للأشرف شعبان ، فأمر يلبغا بالكوسات ، فدقت ، وأقام شعار السلطنة كله . وقال : أنا أعيه وأنا بنه ، ومن الشوكة غيري؟ ، فلم يجد الخليفة بدا من سلطنة آنوك . فأقاموه سلطانا ولقبوه بالملك المنصور ، وأركبوه بالشعار السلطاني .

واشتدت الحرب بين الفريقين يوم الخميس وليلة الجمعة . وجلس المنصور آنوك بكرة يوم الخميس وبين يديه ارباب الدولة من الامراء وأرباب الاقلام على العادة ، فلما انقضت الخدمة ركب بالعساكر مع الامير يلبغا للحرب ، واستمر الرمي من الشواني طول نهار يوم السبت . ثم نزل عدة من الاشرفية في اربعة شواني يريدون جهة الروضة ، فندب يلبغا جماعة من اصحابه الى جهتهم حتى يمنعوهم الصعود الى البر ، ثم خرجت ثلاث طرايد ايضا ومضت من بولاق التكروري تريد جهة جزيرة الفيل وشبرا ، فسير اليهم يلبغا طائفة أخرى تمنعهم النزول الى البر ومنهم الأمير طغاى تمر النظامي ، والامير قرابغا البدري ، والامير طبغا المجدي ، فالتقوا قريبا من الوراق وصار البدري والنظامي في جملة الاشرفية ، فبعثوا بها الى بولاق التكروري ، ونزل الاشرفية الى ناحية شبرا في نحو ثلاثة آلاف فملكوا البر الشرقي .

هذا وأسواق القاهرة طول هذه الايام مغلقة ، والاسباب متعطلة ، وليس للناس شغل سوى الفرجة في شاطئ النيل على المقاتلين من السلطانية واليلبغاوية ، وصاروا يلهجون كثيرا بقولهم « سلطان الجزيرة ما يساوي شعيرة » يريدون ان أمر آنوك لا يتم ويهزأون به . وصار الامير قجماس الطازي يمر في قارب لطيف ومعه طائفة ، حتى يقرب من البر ، ويرمي بالنشاب ، فيرمونه ايضا ويتسابقوا ، وتعصبت العامة للسلطان ، وعملوا لهم رايات ، وسبحوا النيل اليه ، وصاحوا عنده «السلطان منصور» فأخذ امر يلبغا ينحل فلما قدم البدري والنظامي على السلطان ، وأعلماه بأخذ السلطانية البر الشرقي ، وتفرق اليلبغاوية في طلب الشواني ، وأشارا عليه بتعدية النيل . ركب في بقية الاغربة بمن معه ، ومضى الى جهة شبرا والعامة تحاذيه من البرين . وتستغيث بالدعاء له . حتى نزل شبرا ، والتفت عليه جموعه ، فسار يريد القلعة فتسلل أصحاب يلبغا عنه . طائفة بعد طائفة ، فلم يجد يلبغا بدا من الفرار ، وتوجه يريد القلعة ، وقد فر عنه من كان قد بقي معه من الامراء ، وهم يعقوب شاه ، وأرغون ططر (١٣٠) ، ويبغا العلاى الدوادار ، وخليل بن قوصون . وآقبغا الجوهري . (١٣١) وكمشبغا . وبيغا شقير ، وأينبك . ولحقوا جميعهم بالسلطان . ولم يتأخر مع يلبغا سوى علاى الدين طيبغا حاجب الحجاب . وكان العامة قد لقبوه قصاونس . وفر مماليكه شيئا بعد شيء . فأيقن الزوال . وبعث بسلطان الجزيرة آنوك الى القلعة ، وأصعد بكوساته الى الطبلخاناة ، ونزل عن فرسه تحت الميدان بسوق الخيل . وصلى ركعتين . وحل سيفه من وسطه ، وأمر طيبغا حاجب الحجاب ان يمضي به ، ثم ركب فرسه ومضى الى داره بالكبش ولم يبق معه الا دون الثلاثة فارس ، والعامة تهزأ به وتسبه ، وترجمه بالحجارة حتى وصل داره .

وقدم السلطان الى القلعة في عساكره ، وعساكر يلبغا ، وعالم كبير من العامة ، فدخل من باب الاصطبل أول ليلة الاحد ، فنزل عند بابه ، والكوسات تدق ، والعساكر واقفة تحت القلعة في الرميلة . ثم أمر باحضار يلبغا ، فاحضر اليه في الحال ، مع عدة من الامراء والمماليك المتوجهين اليه من قبل السلطان . وأحضر معه طيبغا حاجب الحجاب ، فحبسا بالقلعة . فخشيت المماليك منه ان يفرج السلطان عنه ، فيبيدهم ، فصاروا بأجمعهم الى أكابرهم والاعيان منهم ، وهم الامير أستدمر ، والامير الجاي البغا جلب ، والامير قجماس ، وما زالوا بهم حتى طلبوا من السلطان ان يمكنهم منه ، فخلاهم وإياه . فأخرجوه من السجن ومشوا به حتى قرب من باب السلسلة ، فقدم له فرس ليركبه ، فعندما أراد ركوبه ، بدره من مماليكه قراتمر ، الذي رأسه عن بدنه ، والتحم بقيتهم عليه بسيوفهم ، حتى قطعوا شلوه ، وحملوا رأسه الى السلطان ، وبين يديه مشعل قد اضرمت ناره وعلاهيه ، فألقوا الرأس في النار ، ثم اخرجوه وغسلوه ، فعرفه من هنالك بسلعة كانت تحت اذنه ، وحملت جثته الى خلف القلعة . فعند ذلك قام السلطان وصعد الى قصره من القلعة ، فأخذ الامير طاش تمر ـ دوادار يلبغا ـ الرأس ، وتتبع الجثة حتى وجدها في ليلته ، ثم غسل الجميع ، ودفنه بتربته المعروفة بتربة يلبغا ، خارج باب المحروق من القاهرة ، وذلك ليلة الاحد عاشر شهر ربيع الاخر ، حتى أصبح نهار الاحد ، صعدوا الى الخدمة بالقلعة ، وقد تعين منهم الامير الجاي البغا الجلب والامير استدمر والامير قجماس ، وأخذوا في تدبير امور الدولة ، وقبضوا على الامير قرابغا البدري . والامير يعقوب شاه ، والامير يلبغا الداودار وقيدوهم وبعثوا بهم فحبسوا بالاسكندرية ، وألزم الامير خليل بن قوصون بأن يقيم في داره بطالا .

هذا وقد امتدت ايدي العامة وأسافل الاجناد الى بيوت الاعيان فنهبوها بحجة انهم من حواشي يلبغا . حتى شنع الامر في ذلك ،

(١٣٠) أنظر ترجمته ـ الدرر ، جـ١ ، ص ٣٧٦ .

(١٣١) أنظر ترجمته ـ الدرر ، جـ١ ، ص ٤١٩ .

ونهبوا بيت الأمير علاء الدين والي القاهرة ، وصار من يريد ان يبلغ من عدوه ما يريد يقول عنه انه يلبغاوي ، فما هو الا ان تسمع العامة عنه ذلك ، واذا بهم انوكأنهم جراد منتشر ، فما يحقوا ولا يكفوا ، وان صدفوا في طريقهم احدا سلبوه ثيابه . فحل بالناس من هذا بلاء لا يمكن وصفه وتخوف كل أحد ان يصيبه بلاؤهم ، فتنهب داره ثم تخرب . وتتفرق آلاتها في الايدي كما فعل بجاره او قريبه أو صديقه ، فلما تجاوز العامة في افسادهم المقدار . ركب الامير غروط الحاجب . ومعه الى القاهرة في عشية النهار . ونودي بالامان . وأن غريم السلطان قد امسك ومن تعرض لاحد من الناس او نهب شيئا حل ماله ودمه للسلطان وشنق ، فانكفوا عن افسادهم .

وفي يوم الاثنين حادي عشر ، جلس السلطان بدار العدل من القلعة على العادة ، وخلع على الأمير قشتمر المنصوري(١٣٢) ، واستقر حاجب الحجاب . وخلع على الأمير ايتمر الشامي ،(١٣٣)واستقر مقدم الف ناظر الاحباس دوادارا كبيرا ، وعلى الامير قجماس الطازي ، واستقر امير سلاح . وعلى الامير غروط ، واستقر حاجبا ، عوضا عن يعقوب شاه ، وعلى الامير ناصر الدين محمد بن قماري ، واستقر امير شكار ، عوضا عن جمال الدين عبدالله بكتمر الحاجب .(١٣٤)وخلع على الوزير فخر الدين ماجد بن قزوينه . واستمر على حالته وقبض على الامير ارغون العزي ، والامير ارغون ارغوني(١٣٥) والامير ازدمر العزي ابو دقن ،(١٣٦)والامير يونس العمري الرماح ، والامير الجوهري .(١٣٦)والامير كمشبغا الحموي رأس نوبة يلبغا ، وسجنوا بالقلعة ما عدا كمشبغا الحموي وألبغا الجوهري ، فانهما سجنا بخزانة شمايل .

وفي يوم الثلاثاء ثاني عشرة قبض على الامير ايبك البدري فصالح عن نفسه بأن ينفق على المماليك الاجلاب من ماله ، فأنفق فيهم ، وكانوا الفا وثماني مائة مملوك ، اعطى كل مملوك منهم الف درهم فضة ، عنها يومئذ زيادة على خمسين مثقالا من الذهب ، وحمل مالا جزيلا الى الأمراء حتى اعيد اليه اقطاعه .

وفي ليلة الأربعاء ثالث عشرة توجه الأمير تغري برمش بعدة من الامراء والمماليك المقبوض عليهم الى الاسكندرية فسجنوا بها .

وفي يوم الخميس رابع عشرة قدم الأمير الطيبغا البشتكي نائب غزة .

وفي ليلة السبت سادس عشرة اخرج كمشبغا الحموي والبغا الجوهري من خزانة شمايل ، الى الاسكندرية .

وفي يوم السبت المذكور خلع على الامير طيدمر البالسي واستقر استادارا . وانعم على الأمير قرابغا الصرغتمشي احد العشرات بتقدمه الف . وفي عشريه خلع على الأمير اسنبغا القوصوني ، واستقر لالا عوضا عن البغا الاحمدي(١٣٧) . واستقر قراقمر المحمدي خازندارا عوضا عن ملكتمر المحمدي .

وفيه قدم الطواشي سابق الدين مثقال الأنوكي(١٣٨) من قوص فخلع عليه السلطان واكرمه .

ونودي في الناس « من قطع طيبغا حاجب الحجاب خبزه وقت المرض فليحضر ويأخذه » . فاجتمع كثير منهم في دار الامير قشتمر حاجب الحجاب فرد اليهم اخبازهم »(١٣٩) . وهكذا انتهت حياة الاتابك يلبغا العمري ومن تبعه من الأنصار والاصحاب ، وقد اظهرت هذه الحركة بعض الملاحظات التي تجدر الاشارة اليها :

١) الجبروت الذي كان عليه يلبغا في ادارته لشئون الدولة والحكومة مما اثار روحا من الكراهية حوله .

٢) كثرة العساكر والاجناد والمماليك الذين كانوا يعملون لخدمة يلبغا وصيانة مصالحه الكثيرة .

٣) تمرد مماليك يلبغا عليه وخاصة طائفة الجلبان التي استقوى امرها ، مما عجل بنهاية يلبغا على ايديهم ، بل انهم نجحوا في كسب السلطان الاشرف شعبان الى جانبهم ضد يلبغا بسبب ادراكهم حقيقة موقف الاشرف من اتابكه بسبب تسلطه عليه وعلى حقوقه .

---

(١٣٢) أنظر ترجمته ، الدرر ، جـ ٣ ، ص ٣٣٣ ، ٣٣٤ .
(١٣٣) أنظر ترجمته ، الدرر ، جـ ١ ، ص ٤٥٨ .
(١٣٤) أنظر ترجمته ، الدرر ، جـ ٩ ، ص ٦١ .
(١٣٥) أنظر ترجمته ، الدرر ، جـ ١ ، ص ٣٧٨ .
(١٣٦) أنظر ترجمته ، الدرر ، جـ ١ ، ص ٤١٩ .
(١٣٧) أنظر ترجمته ، الدرر ، جـ ١ ، ص ٤١٩ .
(١٣٨) أنظر ترجمته ، الدرر ، جـ ٣ ، ص ٣٦٣ .
(١٣٩) السلوك ، جـ ٣ ص ١٣٠ ، ١٣٩ ، أنظر كذلك النجوم ، جـ ١١ ، ص ٣٩ ، ٤٠ ، بدائع ، جـ ١ ، ص ٩١٧ ...

٤) نجاح يلبغا في تعيين آنوك اخي السلطان الاشرف سلطانا جديدا لدولة المماليك وهي اللعبة التي كان يمارسها بنجاح من اجل اهدافه الشخصية ، الا ان الوضع هنا يختلف بسبب وجود سلطان شرعي معترف به على كرسي الحكم ، ولا يمكن ان يستمر الحال بوجود سلطانين في دولة المماليك ، بل زاد ذلك من خطورة الموقف ، وان بدا وضع الخليفة العباسي ضعيفا حيث بادر باعطاء البيعة للسلطان الجديد المنصور آنوك بسبب ضغط يلبغا .

٥) مناصرة العامة للاشرف شعبان وتأييدهم له من اجل استمرار سلطنته مما يدل على شعبيته الواسعة .

٦) تأثير الوضع السياسي داخل المجتمع المملوكي في مصر على الحياة العامة اذ تسببت هذه الفتنة في تشنج الحياة الاقتصادية وتجمد النشاط الاجتماعي اليومي حيث دأبت الرعية على متابعة مراحل هذا الصراع بين الاشرف شعبان واعداء اتابكه وبين يلبغا العمري وانصاره يوميا ، فتوقفت الاسواق واقفلت الدكاكين وانشغل الناس عن ممارسة انشطة موارد الرزق المختلفة .

٧) كراهية العامة للاتابك يلبغا العمري فوجدوا في هذه الفتنة فرصة مناسبة للانتقام منه .

٨) ضيق الاشرف شعبان البالغ بسبب ما كان يتعرض له من الحجر والتحقير على يد يلبغا فوجد في هذا الموقف مجالا للانتقام منه بسبب ما حصل له على يديه .

٩) استغلال بعض العامة لحالة عدم الاستقرار السياسي وانشغال الحكومة والعسكر بالفتنة ، فعملوا على السلب والنهب ، والاعتداء على منازل الناس ودكاكينهم مما كاد ان يؤدي الى افلات زمام الامور لولا انتباه كبار الامراء لذلك الوضع ، ومبادرتهم للعمل على نشر الامان والاطمئنان في نفوس الناس ، مع الاجتهاد في العمل من اجل أن يستتب النظام في المجتمع وتستقر الامور .

١٠) نجاح العسكر السلطاني في القبض على انصار يلبغا وعلى رأسهم الوزير ماجد بن قزوينة الذي طالما تطاول على حقوق الرعية ، وكذلك كل من عمل على مساعدة يلبغا في حركته هذه .

وهكذا انتهت هذه الفتنة بالتخلص من يلبغا وابن قزوينة وغيرهم حيث كان لتلك المؤامرة نتائج عديدة فيذكر المقريزي انه :

« في يوم الخميس تاسع عشرة (جمادى الأولى) نزل جماعة الامراء من القلعة الى المدرسة المنصورية ، فحلفوا بها ، وخلع عليهم بالشرابيش على العادة ، وركبوا الى القلعة ، وقد زينت القاهرة لهم ، فكان يوما مشهودا »[١٤٠] كما تم في ذلك اليوم « نقل الامير علاء الدين والي القاهرة الى ولاية مصر ، واستقر عوضه في ولاية القاهرة الشريف بكتمر ، فسر الناس بعزله وزوال دولة يلبغا ، وقبض ابن قزوينه ، وابقوا الزينة يومهم كله »[١٤١] .

وكأن الاشرف شعبان كان يريد بذلك مكافأة العامة بسبب وقوفها الى جانبه ضد الاتابك يلبغا ، فحقق لها مطلبا كانت ترغب فيه . وتذكرنا هذه العلاقة الودية بين الاشرف شعبان ورعاياه من العامة بتلك التي ربطت بين الناصر محمد والعامة طوال عهده حيث انهم طالما وقفوا الى جانبه مناصرين له ، كما كان هو حريصا على تلبية مطالبهم من اجل كسب رضائهم .

كذلك من النتائج التي ترتبت على وقوع مؤامرة يلبغا ضد الاشرف شعبان ثم فشله والقبض عليه ان حدث تغيير شامل في ولاة الوظائف الادارية[١٤٢] . بما يتفق مع مصالح الفئة الجديدة التي وصلت الى السلطة من طائفة كبار الامراء المماليك حيث « استقر الامير طيبغا النظامي هو المتحدث في حل المملكة وعقدها ومعه اقبغا جلب الاحمدي وأسندمر الناصري »[١٤٣] بالاضافة الى ذلك نجد انه :

« في يوم الخميس ثاني عشر جمادى الأولى قبض على فخر الدين ماجد بن قزوينة وسلم لقرابغا الصرغتمشي ليستخلص منه الاموال »[١٤٤] .

وهذا يدل على ان ابن قزوينة كان ناهبا لكثير من الاموال بغير حق حتى امتلأت خزائنه بثروات الغير الى ان جاء الوقت لتخليصها من يده .

بالاضافة الى ذلك :

« اشتد الطلب على المماليك اليلبغاوية ، فقبض منهم على نحو الألف ، وحبسوا ، فبلغ السلطان ان الاميرين يلبغا أص والكشتمر يريدا اخراج المذكورين وسكنى بيت يلبغا في الكبش وركوبهما بهم على السلطان وقتله ، فبادر وقبض على يلبغا أص من الغد يوم

---

(١٤٠) السلوك ، جـ ٣ ، ص ١٤٠ . أنظر كذلك ، بدائع ، جـ ١ ، ص ٢١٩ ـ ٢٢٠ .
(١٤١) السلوك ، جـ ٣ ، ص ١٤١ .
(١٤٢) النجوم ، جـ ١١ ، ٤١ .
(١٤٣) النجوم ، جـ ١١ ، ص ٤٠ ـ ٤١ . أنظر كذلك ، بدائع ، جـ ١ ، ص ٢١٩ .
(١٤٤) النجوم ، جـ ١١ ، ص ٤١ . أنظر كذلك ، بدائع ، جـ ١ ، ص ٢٢٠ .

الثلاثاء سابع عشرة (جمادى الأولى) ، وصل تلكتمر المحمدي وجماعة من المماليك ، وحمل الأمراء الى الاسكندرية ، فسجنوا بها »[١٤٥] .

ومن ناحية اخرى نلاحظ انه :

« في ليلة الخميس تاسع عشرة (جمادى الأولى) اغرق السلطان في النيل جماعة من المماليك اليلبغاوية الذين اتفقوا على قتله وامر بتقوية زينة القاهرة ومصر ، فبالغ الناس في تحسينها .

وفي بكرة يوم الخميس هذا سُمّر من الأجلاب اليلبغاوية مائة من اعيانهم ، ووسطهم ، واغرق جماعة منهم ، ونفى باقيهم الى الشام والى اسوان ، فكان عن نفى من اليلبغاوية برقوق وبركة ، والطنبغا الجوباني ، وجركس الخليلي[١٤٦] واقبغا المارديني ، فتسلمهم الشريف بكتمر والي القاهرة ، واوقفهم في داره وقد جعلت ايديهم في الخشب ، وحضر غداؤه فلم يطعمهم شيئا ، ورسم عليهم من توجه بهم الى قطيا ، فتسلمهم والي قطيا وبعث بهم الى غزة ، فأرسلهم نائبها الى الكرك ، فسجنوا بجب مظلم في قلعتها عدة سنين . ثم افرج عنهم ومضوا الى دمشق ، فخدموا عند الأمير منجك نائب الشام حتى استدعى السلطان بالمماليك اليلبغاوية ليستخدمهم بديوان ولديه فحضر برقوق وبركة وغيرهما الى القاهرة . وخدم برقوق فيمن خدم عند ولدي السلطان حتى قتل السلطان بعد عودة من عقبة ايلة ، وقام الامير اينبك بامر الدولة ، فصار برقوق من جملة امراء الطبلخاناة ، وعنها ملك الاصطبل ، واقام به حتى تسلطن »[١٤٧] .

ومن ثم بدأت الاوضاع تستقر بعد هذه الفتنة التي حدثت بتقسيم الدولة والحكم ، واخذت الامور تعود الى وضعها الطبيعي حيث :

« اخلع الملك الاشرف في تاسع عشرين شهر رمضان على الامير ارغون الازقي باستقراره رأس نوبة كبيرا عوضا عن تلكتمر بن بركة واستقر تلكتمر المذكور امير مجلس عوضا عن طغيتمر النظامي[١٤٨] » .[١٤٩]

ولكن يظهر ان موقف الاشرف شعبان الناصر للمماليك الجلبان قد زاد من صلابة موقفهم وما كانوا عليه من تكبر وتسلط ، ولعل هذا هو السبب الذي جعل يلبغا يجتهد في كبح جماحهم . وبعد ان خمدت هذه الفتنة استقوى المماليك الجلبان اكثر واخذوا يتطاولون على حقوق الناس وحرماتهم ، الامر الذي هدد بانفلات الزمام لولا تدخل كبار الامراء الذين تجمعوا لمحاربة هذه الفئة المستقوية الطائشة خشية ان يستفحل امرها ويهدد استقرار المجتمع في تلك الفترة .

وبذلك تم التخلص مما كانوا يثيرونه في المجتمع من اعمال العنف والسلب . يقول المقريزي :

« في يوم الخميس سادس عشر من شهر رجب ركب الامراء للحرب بالسلاح ووقفوا تحت القلعة ، وكان قد اشيع ان الاجلاب اليلبغاوية يريدون الحرب ، وقبض الامراء ، واول ما بدأوا به ان قبضوا على الامير قرابغا الصرغتمشي وحبسوه ، واقاموا على الحرب ، هذا وقد تفاحش امر الاجلاب بحيث سلبوا الناس في الطرقات ، وهجموا الحمامات على النساء ، واخذوهم بالقهر وقصدوا ارباب الاموال بالاذى ، حتى شمل الخوف الناس . فلما كان يوم الثلاثاء حادي عشرينه ركب الامير تغري برمش للحرب في جماعة كبيرة من الاجلاب ، تركب الامراء لحربهم ، وقبضوا على تغري برمش المذكور ، وعلى الامير اينبك البدري ، والامير قرابغا المزي ، والامير مقبل الرومي ، واسحق الرجبي ، وبعثوا بهم الى الاسكندرية ، وقبضوا ايضا عدة من الاجلاب ونفوهم من ارض مصر .

وفي سادس عشرينه انعم على الامير الطاي بتقدمة الف وعلى الامير قطلوبغا جركس بتقدمة الف »[١٥٠] .

وبذلك انتهى امر يلبغا الذي كان ظالما حيث اصبحت « الطرقات في زمانه في غاية الفساد من العربان والتركمان بالبلاد الشامية لقطعه اخبارهم ، واغرى بعض الامراء اسوان فقتك باولاد الكنز فكر بعضهم على اسوان فأخرجها وفتك في اهلها وصاروا يقطعون الطرق على المسافرين »[١٥١] .

---

(١٤٥) السلوك ، جـ ٣ ، ص ١٥٣ ـ ١٥٤ .
(١٤٦) أنظر ترجمته ، الدرر ، جـ ٢ ، ص ٧٠ .
(١٤٧) السلوك ، جـ ٣ ، ص ١٥٤ ـ ١٥٥ .
(١٤٨) أنظر ترجمته ، الدرر ، جـ ٢ ، ص ٣٢٤ .
(١٤٩) النجوم ، جـ ١١ ، ص ٥١ .
(١٥٠) السلوك ، جـ ٣ ، ص ١٤١ ، أنظر كذلك ، النجوم ، جـ ١١ ، ص ٤٢ .
(١٥١) الدرر ، جـ ٣ ، ص ٢١٤ .

الا ان السؤال هنا هو هل امكن بالقضاء على هذه الفتنة الخطيرة الوصول الى الاستقرار السياسي المطلوب من اجل استمرار مسيرة مختلف التيارات الحضارية والمظاهر الحيوية في المجتمع المملوكي ؟ يقول المقريزي :

« وكان الامير استدمر(١٥٢) قد صار في رتبة استاذه يلبغا ، واليه تدبير امور الدولة ، وعنه يصدر ولاية اربابها وعزلهم ، وسكن في دار يلبغا بالكبش »(١٥٣) .

ويبدو ان الامير استدمر بدأ ينهج نفس سلوك يلبغا العمري من الانفراد بالسلطة والحكم وهو السبب الذي ادى الى الاطاحة بالاتابك يلبغا العمري ، بل كان استدمر « ممن ثار على استاذه ، فلما قتل استقر مدبر المملكة »(١٥٤) .

الا انه « لما استقل بتدبير المملكة ارادوا (الامراء) الثورة عليه فظفر بهم ، وقبض على خمسة وعشرين اميرا ، واقام غيرهم من جهته »(١٥٥) .

ويشرح المقريزي هذه الواقعة غير العادية بقوله :

« فلما كان يوم الاحد سابع شوال (٧٦٨هـ / ١٣٦٦م) بلغ الامير استدمر ان جماعة من الامراء قد اتفقوا على الفتك به وبالاجلاب ، وهم اعضاده وبهم يصول . فخرج ليلا من داره الى دار الامير قجماس الطازي ، وبذل له مالا كبيرا حتى استماله اليه ، ثم فارقه ، وفي ظنه انه قد صار معه ، ولم يكن كذلك ، وعاد الى منزله بالكبش واستدعى خواصه من اليلبغاوية ، وقرر معهم انه اذا ركب للحرب يقتل كل واحد منهم اميرا ، او يقبض عليه ، ويبذل لهم مالا كبيرا حتى وافقوه ، وما هو الا ان خرج استدمر من عند قجماس ليدبر ما قد ذكر مع الاجلاب ، ركب قجماس الى جماعة من الامراء وقرر معهم القبض على استدمر ، فركبوا معه للحرب ، ووقفوا تحت القلعة ، فنزل السلطان في الحال الى الاصطبل ، ودقت الكوسات حربيا .

واما استدمر فانه بات هذه الليلة في اصطبله ، حتى طلعت الشمس ، وركب من الكبش بمن معه من اليلبغاوية وغيرهم ، ومضى نحو القرافة ، ومر من وراء القلعة ، حتى وافاهم من تحت دار الضيافة ، ووقف تحت الطبلخانات فالتقى مع الامراء ، واقتتلوا فهزموهم بمن كان قد دبر معهم من اليلبغاوية في الليل قبض الامراء او قتلهم وثبت الامير الجاي اليوسفي(١٥٦) والامير ارغون ططر ، وقاتلا استدمر الى قبيل الظهر ، فلما لم يجدا معينا ولا ناصرا انكسرا الى قبة النصر ، وانفض الجمع بعدما قتل الامير ضروط الحاجب ، وجرح الامير قجماس والامير البغا الجلب(١٥٧) ، وكثير من الاجناد والعامة ، فقبض الامير استدمر على الامير قجماس ، والامير البغا الجلب والامير القطاي ، والامير قطلوبغا جركس ، وهؤلاء امراء الوف ، وقبض من امراء الطبلخاناة على قرابغا شاد الاحواش ، واختفى كثير من الامراء ، ومرت مماليك استدمر وطائفة من الاجلاب في خلق كثير من العامة ، فنهبوا بيوت الامراء ، فكانت هذه الواقعة من اشنع حوادث مصر واعظمها فسادا .

وفي يوم الثلاثاء غد الواقعة ، قبض على الامير ايدمر الشامي الدوادار(١٥٨) ، فضربه الامير استدمر ضربا مبرحا ، وعنفه على مخالفته عليه ، ثم قيده مع بقية من قبض عليه ، وفيه امسك ايضا الامير الجاي اليوسفي احد امراء الالوف والامير يلبغا شقير احد الطبلخاناة ، فقيدوا وحمل الجميع الى الاسكندرية ، فسجنوا بها .

وفي يوم الاربعاء قبض على الامير طغاي تمر النظامي ـ احد الالوف ـ وعلى الامير ارغون ططر ـ احد الالوف ـ وعلى قطلوبغا الشعبالي ، وايدمر الخطاي ، وقراز الطازي ، وهم من الطبلخاناة ، ثم قبض على الامير الطنبغا الاحدي احد مقدمي الالوف ، وعلى طاجار من عوض ، وآسن الناصري ، وقرالمر المحمدي . وقرابغا الاحدي ، من الطبلخاناة ، وعلى جماعة اخرى ، فكانت عدة من قبض عليه استدمر خمسة وعشرين اميرا »(١٥٩) .

وبذلك تكون هذه الحركة قد حققت عكس الاهداف التي رغبت

(١٥٢) أنظر ترجمته ، الدرر ، جـ ١ ، ص٤١٣ .
(١٥٣) السلوك ، جـ ٣ ، ص١٤١ .
(١٥٤) الدرر ، جـ ، ص٤١٣ .
(١٥٥) الدرر ، جـ ١ ، ص٤١٣ .
(١٥٦) أنظر ترجمته ، الدرر ، جـ ١ ، ص٤٣٣ .
(١٥٧) أنظر ترجمته ، الدرر ، ج ١ ، ص٤١٩ .
(١٥٨) أنظر ترجمته ، الدرر ، جـ ١ ، ص٤٥٥ .
(١٥٩) السلوك ، جـ ٣ ، ص١٤٢ ـ ١٤٣ ، أنظر كذلك النجوم ، جـ ١١ ، ص٤٢ ـ ٤٥ ، بدائع ، جـ ١ ، ص ٢٢٠ ـ ٢٢١ .

فيها فبدلا من التخلص من استدمر وما وصل اليه من سلطان وسطوة ، تم القبض على عدد كبير من امراء الالوف اللذين كانوا يعارضونه حيث سجنوا وتعين بدلا منهم جماعة من مؤيدي استدمر ، ومن ثم يكون قد نجح في تثبيت ركائز له في مختلف الأجهزة الادارية في الدولة .

وهكذا اضحى البلاط المملوكي في هذه الحقبة مسرحا للصراعات السياسية بين طوائف الامراء المماليك في سبيل النفوذ الشخصي والمصالح الخاصة .

ويلفت نظرنا محاولة استدمر في التخلص من وجود عدد من الامراء الكبار حيث يجتهد باتهامهم امام السلطان الأشرف شعبان فيجد في ذلك مبررا لزجهم في السجن الى اجل غير مسمى مما جعل عملية اختلاق التهم سهلة عند اصحاب السلطة العليا ، ولعل من اهم الوقائع المؤيدة لما نقول ما يذكره المقريزي من انه في :

« يوم الثلاثاء ثالث عشرة (رمضان ٧٦٩هـ / ١٣٦٧م) قبض على الامير طغاي تمر النظامي والامير ارغون ططر ، واتهما بإثارة فتنة على السلطان »[١٦٠] .

ولكن يبدو ان هذا الاتهام كان قائما على شكوك لا اساس لها من الحقيقة والدليل على ذلك ما يرويه ابن حجر اذ يقول :

« ارغون ططر بن عبدالله التركي ، كان من مماليك حسن و وتقدم في دولة يلبغا ، ثم ولي رأس نوبة ثم قبض بعد كائنة يلبغا سنة ثمان وستين وحبس بالاسكندرية ، ثم افرج عنه ، وولي امرة حماة واستقر بها الى ان مات في اوائل هذه السنة (٧٧٤هـ / ١٣٧٢م) »[١٦١] .

وعلى ذلك يمكن القول بانه حدث عقب القضاء على هذه المؤامرة وجود نوع من الاستقرار السياسي في سلطنة المماليك في ظل حكم مجموعة جديدة من كبار الأمراء الأوليجاركية التي حرصت على استتباب الامان والسلام في المجتمع المملوكي من اجل الاهداف التي لابد انها استجدت مع تغير الجهاز الاداري ووصول مجموعة اخرى من الامراء الى المناصب العليا في الدولة .

ومن ناحية اخرى حققت طائفة المماليك الجلبان لنفسها عن طريق تأييد استدمر ضد الامراء مزيدا من الامتيازات والحقوق والسلطة بحيث اصبح من الصعب السيطرة عليها من اجل المحافظة على الاستقرار الاجتماعي بين طبقات الرعية ، بل انه يبدو ان استدمر نفسه بات رهين اشارتهم بدليل ما يذكره ابن حجر من انه لما كانت فتنة الأجلاب واقلقهم استدمر خشية منهم وتقوية بهم فكسرهم الله وكفى شرهم ، وسجن استدمر بالاسكندرية فمات بها في رمضان سنة ٧٩٦هـ »[١٦٢] .

ومن ثم كان هؤلاء المماليك الجلبان سببا في ضياع استدمر وما حقق به من سلطة وصلاحيات واسعة اذ يفصل المقريزي ذلك بقوله :

« وفي يوم الجمعة سادس (صفر سنة ٧٦٩هـ / ١٣٦٧م) ركب المماليك الاجلاب اليلبغاوية لمحاربة الامير استدمر الناصري الاتابك ، وطلبوه في ان يسلمهم بيرم الدوادار[١٦٣] وازدمر ابو دقن[١٦٤] وجركتمر[١٦٥] امير مجلس في عدة اخرى . فلم يجد بدا من ان يبعث الى الامراء ، فلما اتوه قبض على الامير جركتمر والامير ازدمر ابو دقن امير سلاح ، والامير بيرم العزي الدوادار ، والامير يلبغا القوصوني امير اخور ، والامير كبك الصرغتمشي الجوكندار ، وحملهم مقيدين الى الاسكندرية . فلم يقنعهم ذلك ، وباتوا بسلاحهم ، وقصدوا بيوم البيت على حريمهم ، وطلبوا منه خليل بن قوصون ، فسلمه اليهم ، فافتدى نفسه منهم بمائة الف درهم ، عجل منها ربعها ورسموا عليه ليقوم بباقيها ، واهانوه اهانة بالغة ، ونزعوا السلاح ، وفي باطنهم غل كثير ، ثم تجمع اكابرهم في ليلة الاحد واتفقوا على قتل الامير استدمر وقتل السلطان ، واقامة سلطان غيره ، وتحالفوا على ذلك ، وركبوا من ليلتهم وقصدوا القلعة ، فأمر السلطان بالكوسات ، فدقت ليجتمع الامراء والعسكر ، واحضر الامير خليل بن قوصون ، واركب معه المماليك السلطانية ، وهم نحو الفين ، والأجلاب نحو الالف وخمسمائة ، ونودي في القاهرة بركوب اجناد الحلقة ، وحضور العامة لقتال الاجلاب . وكانت النفوس قد مقتتهم لقبح سيرتهم ، وكثرة شرهم ، وزيادة تعديهم . فبادروا الى تحت

(١٦٠) السلوك ، جـ٣ ، ص١٥٩ .

(١٦١) أنباء ، جـ١ ، ص٤٥ .

(١٦٢) الدرر ، جـ١ ، ص٤١٣ .

(١٦٣) أنظر ترجمته ، الدرر ، جـ٢ ، ص٢٧ .

(١٦٤) أنظر ترجمته ، الدرر ، جـ١ ، ص٣٦٨ .

(١٦٥) أنظر ترجمته ، الدرر ، جـ٢ ، ص٦١ .

القلعة زمرا زمرا ، وركب الامير استبغا بن البوبكري ،(١٦٦) والامير قشتمر المنصوري(١٦٧) وغيره . فتناولت العامة الاجلاب بالرجم من كل جهة ، وتقدم اليهم المماليك السلطانية والامراء والاجناد وقاتلوهم فكسروهم فمضوا في كسرتهم الى الامير استدمر بمنزله من الكبش ، وما زالوا به حتى ركب معهم في موكب عظيم ، ومر على القرافة حتى اتى من وراء القلعة ، كما فعل فيما تقدم ، فلم تثبت له المماليك السلطانية ، وانهزمت عند رؤيته ، فثبتت العامة وحدها لقتاله ، وتقدموا اليه ورموه بالحجارة رميا متتابعا ، وهو ومن معه يرمونهم بالنشاب ، فكان بين الفريقين قتال شديد شنيع ، قتل فيه جماعة منهما ، وطالت المعركة بينهما ، فعادت المماليك السلطانية والامراء ، وحملوا هم والعامة على استدمر والاجلاب حملة منكرة ، فلم يثبت لهم ، وولى الادبار بمن معه ، وامتنع باصطبله من الكبش وقت الظهر ، فقبض من اصحابه على الامير قرمش الصرغتمشي والامير الطنبغا آص الشيخوني ، والامير ارسلان خجا وسجنوا بخزانة شمايل من القاهرة .

وركب الوالي عن امر السلطان ، ونادى بالقاهرة ومصر وظواهرهما ، « من قدر على احد من الاجلاب فله سلبه ، ويعطى كذا من المال اذا احضره ، فتتبعت العامة عند ذلك الاجلاب في الازقة والحارات ، واخذوا منهم جماعة ، وركب الامير خليل بن قوصون الى الامير استدمر ، فأخذه من داره وطلع به الى القلعة ليقيد ويسجن ، فشفع فيه جماعة من الامراء وقرروا عليه مالا لينفق في مماليك السلطان ، فقبل السلطان شفاعتهم وخلع عليه ، واقره على حاله ، فنزل الى داره في ليلة الاثنين ، ومعه الامير خليل بن قوصون مرسما عليه ، حتى يحضر من الغد بالمال ، فخدع استدمر ابن قوصون ووعده بأن يقيمه في السلطنة ، فانه ابن بنت السلطان الملك الناصر محمد ابن قلاون ، فانخدع ابن قوصون ، ومال اليه وتحالفا على ذلك فبعث استدمر فجمع اليه الاجلاب . وبذل فيهم المال ، ووعدهم ومناهم ، فما طلع نهار يوم الاثنين حتى ركب استدمر وابن قوصون في جمع كبير ، ووقفا تحت القلعة ، فعادت الحرب وركب الامراء والاجناد ، وخرج عامة الناس ، فكان الامراء اذا رأوا ابن قوصون بجانب استدمر انضموا اليه ، ظنا منهم انه سلطاني . فأمر السلطان فدقت الكوسات ، ونزل الى الاصطبل بآلة الحرب ، فاجتمع اليه الامراء والمماليك السلطانية والعامة ، وبعث الى استدمر وابن قوصون ليحضرا اليه فامتنعا ، وصرحا بأنهما يريدان نزع السلطان من الملك واقامة غيره في السلطنة لتخمد الفتنة . فلما عاد جوابهما الى السلطان ، بعث ثانيا يخوفهما عاقبة الغدر ، فاظهرا انهما اجابا ، وهما بالحضور ، ثم سلا سيفيهما ، ومرا ليفتكا بالسلطان . وقد ركب ووقف تحت الاصطبل ، فنبههما من معهما من الاجلاب ، وهم شاهرون السلاح ، ليفعلا فعلهما . فبادر السلطان بالنداء في العامة ، هؤلاء غامرون فارجموهم ، فصاحت العامة باجمعها ، غدارين ، ورجموهم بالحجارة ، ورمتهم المماليك السلطانية بالنشاب ، فلم يكن غير ساعة حتى انكسر استدمر وابن قوصون ، وقتل عدة من الاجلاب ، فأخذتهم العامة في هزيمتهم ، واتوا بهم الى السلطان ارسالا وقد نزعوا ثيابهم ، وكشفوا رؤوسهم ، ونالوا منهم ما شفى صدورهم ، ثم قبضوا على خليل بن قوصون من ناحية المطرية ، واتوا به . ثم اخذوا استدمر من نحو وادي السدرة تجاه قبة النصر . وقبض على الامير الطنبغا اليلبغاوي ، والامير سلطان شاه بن قرا . وهما من امراء الالوف . وقبض على احد عشر اميرا سوى هؤلاء من اليلبغاوية وقيدوا ، ومضى بهم الامير ملكتمر ، والامير الطنبغا العلائي ، والامير درت بغا البالسي الى الاسكندرية .

ونودي في آخر النهار بالامان ، فلا ينهب احد شيئا ، فلقد ظفر السلطان بغرمائه ، فزينوا القاهرة ومصر ، فزينتا احسن زينة ، وفرح الناس بزوال دولة الاجلاب »(١٦٨) .

علاوة على ذلك :

« أمر بهدم بيت الامير يلبغا الخاصكي بالكبش ، فهدم جميعه حتى لم يبق منه سوى بعض سوره »(١٦٩) .

لعل الملاحظة الرئيسية التي تثبتها هذه المؤامرة هو ضعف مكانة الاشرف شعبان حيث لا تقيم له اية فئة شيئا من الاعتبار ، فالجميع يرغبون في عزله واقامة سلطان آخر ، وكان ذلك اسهل الامور ويبقى بعد ذلك معالجة الامور الاخرى ، الا انه يسترعي اهتمامنا ذلك التأييد الكبير الذي كان يحظى به الاشرف شعبان بين صفوف العامة الذين كانوا يجتهدون لمناصرته ودعمه ضد الامراء والمماليك الآخرين بقصد حمايته واستمرار سلطته ولعل في ذلك نوعا من

(١٦٦) أنظر ترجمته ، المنهل ، جـ١ ، ص ٤١٢ .

(١٦٧) أنظر ترجمته ، الدرر ، جـ٣ ، ص ٣٣٣ ـ ٣٣٤ .

(١٦٨) السلوك ، جـ٣ ، ص ١٥٠ ـ ١٥٣ ، أنظر كذلك النجوم ، جـ١١ ، ص ٤٦ ـ ٤٩ ، بدائع ، جـ١ ، ص ٢٢٣ ـ ٢٢٥ .

(١٦٩) السلوك ، جـ٣ ، ص ١٥٥ .

التعاطف الضمني معه بسبب ما كان يعانيه من حجر وضغط واهانة لشخصه وحقوقه على يد كبار الأمراء في الدولة .

بالاضافة الى هذا وذاك يلفت نظرنا الحزازات التي كانت شائعة بين طوائف الأمراء وجماعات المماليك الاميرية والسلطانية والجلبان ، كل يهدف الى تحقيق المزيد من المنافع الخاصة والفوائد المادية .

كذلك يظهر ان السلطة العليا كانت الشغل الشاغل لتلك الجماعات كافة دون بذل ادنى اهتمام بتطوير اجهزة الدولة او اصلاح المرافق وانشاء مراكز التعلم والفكر وكأنه لم يعد هناك في سلطنة المماليك مسألة تستحق الاهتمام سوى السلطة وامتيازاتها ، فكان الجميع يعيشون في دوامة من النزاع والصراع الذي لا يكاد يتوقف حتى ينبثق مرة اخرى على يد جماعة جديدة ، والاشرف شعبان يصارع تلك الفئات من اجل استمراره على كرسي الحكم والابقاء على حياته ، في حين انه كان مغبون الحرية بمختلف معانيها .

ومن ثم فقد تولى منصب الاتابكية بعد استدمر الامير « منكلي بغا بن عبدالله الشمسي ، اتابك العساكر بعد قتل استدمر ، وكان قبل ذلك نائب السلطنة بمصر ، وولي امرة دمشق وحلب وصفد وطرابلس في اوقات ، وتزوج بنت الملك الناصر ثم بنت ابنه حسين اخت الملك الاشرف ، وكان مشكور السيرة »[١٧٠]

وقد توفي سنة ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م ، وهو الذي فتح باب كيسان ، وكان له من عهد نور الدين الشهيد لم يفتح ، وجدد خطبة في مسجد الشهرزوري . قلت : وبنى بحلب جامعا ايضا ، وعمر الخان عند جسر الجامع والخان بقرية سمسم ، وهو والد خوند زوج الملك الظاهر برقوق »[١٧١]

ومن الجدير بالذكر ان كل فتنة أو مؤامرة تخلق من ورائها شخصية كبيرة يقدر لها ان تلعب دورا مهما في الحوادث التالية ، ومن ثم تكون هذه الشخصية السبب الاساسي في حدوث فتنة جديدة يكون لها بالغ الأثر على مجريات الأحداث . ولعل السبب في ذلك أن وجود تلك الشخصيات في المناصب العليا يتيح لها التمتع بالكثير من الصلاحيات والسلطات المطلقة فتظهر نوازع الجشع والطمع ثم الرغبة في مزيد من القوة والسلطة والامتياز مما يجر الى وضع الخطط من اجل الاطاحة بالسلطان ، فتقع الفتنة مرة أخرى ويجد الأشرف شعبان نفسه من جديد أمام مؤامرة ربما تؤدي الى القضاء على حياته وحكمه وحريته . وفي أحيان أخرى يبدأ الأمير صغيرا برتبة متدنية ثم يكبر تدريجيا حتى يصل الى أعلى المناصب في الدولة ، وبالتالي يبدأ يخطط من أجل الاستحواذ الكامل على السلطة العليا بعيدا عن تدخل السلطان ، وهذا هو بالفعل ما حدث مع الجاي اليوسفي اذ بدأ نجمه حسب قول المقريزي عندما « خلع على الأمير الجاي اليوسفي واستقر امير سلاح ، عوضا عن ازدمر » .[١٧٢]

ومن ثم أخذ يترقى في سلك المناصب الوظيفية العليا في الدولة مما يعني حصوله على مزيد من النفوذ والسلطة . ويصف المقريزي هذا الترقي المطرد الذي حظي به الجاي فيقول :

« الأمير الكبير الأتابك الجاي اليوسفي ، أحد مماليك الناصر حسن ، ارتقى حتى صار حاجب الحجاب ، ثم عزل في تاسع رجب سنة ثلاث وستين واستقر أمير جاندار ، الى أن كانت فتنة الأمير أستدمر والأجلاب ، تولى حربه وقاتله قتالا عظيما ، كانت بينهما فيه ست عشرة وقعة ، فلما انتظر استدمر قبض على الجاي ، وسجنه بالاسكندرية الى أن زالت أيام استدمر أفرج عنه وعمل أمير سلاح ، ثم صار الأتابك واليه أمور الدولة كلها » .[١٧٣]

وقد حدث بعد ذلك انه « في يوم السبت عشرينه (رمضان ٧٧٠هـ / ١٣٦٩م) تنكر السلطان على الأمير آقتمر الحنبلي لكلام جرى بينه وبين الأمير الجاي ، وأمر بنفيه الى الشام » .[١٧٤]

وهذا يدل على أن السلطان الأشرف شعبان أخذ يخص الجاي اليوسفي برعايته وعنايته بحيث يعادي من يعاديه ويقربه على حساب خصومه حتى جاء اليوم الذي وصل فيه الجاي الى منصب الاتابكية حيث يقول ابن حجر : « وفيها (٧٧٤هـ / ١٣٧٢م) امر أن لا يزيد عدد الشهود في كل مركز على أربعة وأن لا يستنيب أحدا من القضاة من غير مذهبه ، وذلك من قبل الجاي اليوسفي » المتحدث في المملكة .

---

(١٧٠) أنباء ، جـ١ ، ص ٧٠ .

(١٧١) أنباء ، جـ١ ، ص ٧٠ ـ ٧١ ، أنظر كذلك شذرات ، جـ٦ ، ص ٢٢٦ ، ٢٢٧ .

(١٧٢) السلوك ، جـ٣ ص ١٥٥ .

(١٧٣) السلوك ، جـ٣ ، ص ٢٢٠ ، أنظر كذلك ، النجوم ، جـ١١ ، ص ٥٣ ـ ٥٥ .

(١٧٤) السلوك ، جـ٣ ، ص ١٧٦ .

وفيها استقر الجاي أتابك السلطنة ، وولي نظر المارستان فاستناب كريم الدين بن الغنام فيه ، . (١٧٥)

ولكن من جانب آخر يذكر المقريزي :

« واستقر (٧٧٤هـ / ١٣٧٢م) الأمير الجاي اليوسفي أتابك العساكر وناظر المارستان ، عوضا عن الأمير منكلي بغا الشمسي فسأل قاضي القضاة برهان الدين ابراهيم بن جماعة(١٧٦) في التحدث عنه في نظر المارستان فلم يقبل ، فولى الصاحب كريم الدين شاكر بن ابراهيم بن غنام في نيابة النظر عنه بالمارستان » (١٧٧)

ونتيجة لذلك بدأ الأتابك الجاي اليوسفي يتدخل في كل صغيرة وكبيرة من شئون الدولة . الا أننا نتعجب من موقف قاضي القضاة برهان الدين ابراهيم بن جماعة من تلك المناصب التي يعرضها كبار الأمراء عليه فيرفض وكأنه يتحاشى العمل معهم ويمتنع عن التعاون معهم حيث أنه لا يقر ما يقدمون عليه من أعمال هادمة للدين في كثير من الأحيان من أجل خدمة المنافع الشخصية . وفي نفس الوقت اجتهد الجاي في تقريب اتباعه وأهله وتعيينهم في المراكز العليا فيكون له خير مساعد على تحقيق ما يصبو اليه حيث يذكر ابن حجر :

« أرسل الجاي أخاه طغيتمر الحسني الى دمشق لعرض الأجناد بها فحصل أموالا عظيمة حتى قيل : ان الذي خصه خمسون ألف دينار ، وأخذ من ذخائر القلعة أشياء نفيسة ، وبالغ في الظلم فاستغاث الناس الى منجك نائب الشام ، فكاتب فيه . ثم توجه المذكور الى جهة حلب ففعل في بقية البلاد أشد مما فعل بدمشق ولولا تلطف النائب وناظر الجيش بالناس لهلكوا معه ، واستناب الجاي في نظر الأوقاف الشريف بكتمر الذي كان والي القاهرة وصار يحمل اليه المعلوم » . (١٧٨)

وبذلك بدأ الجاي يغتني من أموال الناس بالحق والظلم مما يعني الاساءة الى الرعية دون علم السلطان الأشرف شعبان أو تدخله . وهذا يدل دون شك على عدم القيام بمسئوليات المنصب كما يجب ، بل استغلال امتيازات هذه المراكز بما يتناسب تحقيق الكثير من المنافع الخاصة والأموال الوفيرة ، ويسيء بالتالي الى سمعة الحاكم الجالس على كرسي السلطنة . كما يظهر انه أخذ يصرف أمور الدولة دون استشارة الأشرف شعبان أو محاولة معرفة رأيه بدليل ما يرويه المقريزي من أنه :

« في عشرينه (جمادى الاولى سنة ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م) تقدم الامير الكبير الجاي اليوسفي بأن لا يجلس في كل حانوت من حوانيت الشهود سوى أربعة ، وأمر القضاة الا يجلس كل قاض من الشهود الا من كان على مذهبه ، فانحصر الشهود من ذلك ، ثم تنجزوا مرسوم السلطان باعادتهم الى ما كانوا عليه ، فبطل ذلك » . (١٧٩)

ومع ذلك كله فقد استمرت مكانة القضاة الأربعة لها هيبتها التي يحترمها هؤلاء الأمراء المماليك الأوليجاركية رغم ما تيسر بين أيديهم من قوة وسلطة وصلاحيات . ومن ثم حظي القضاة الأربعة باحترام الأتابكة ونواب السلطنة حتى ولو أن هذا الاحترام قد جاء رغم عدم رضاء النفس الطبيعي الا أنه استمر موجودا ، وحد بالتالي من تلك الامتيازات المطلقة في السلطة التي كان كل أتابك يفسرها حسبما يريد وبما يرضي أطماعه وجشعه في سبيل مزيد من السلطة المطلقة والنعمة المادية . ولعل أبلغ مثال على ما نقول ما يذكره المؤرخ ابن حجر من أنه في أواخر ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م :

« عقد الجاي مجلسا بالعلماء في اقامة خطبة بالمنصورية ، فأفتاه البلقيني وابن الصائغ وآخر بالجواز ، وخالفهم بالبارود ، فانفصل بالمجلس على ما قاله الجمهور » . (١٨٠)

وعلى ذلك يمكن القول أنه في كثير من الأحيان في أثناء هذه الحقبة كانت كلمة القضاة هي العليا التي لا يجرؤ أي مسئول في الدولة على عدم احترامها والعمل وفقها .

ونتيجة لذلك كان القضاة هم الملجأ الذي يهرع اليه الضعفاء من الرعية طلبا للمساعدة والاطمئنان النفسي الذي لابد أنهم يفتقدونه في ظل تلك الأحوال غير المستقرة .

ولكن السؤال الذي يجب أن يطرح هنا هو ما السبب الذي جعل الأشرف شعبان يفضل الجاي اليوسفي ويقربه على هذا النحو غير

(١٧٥) إنباء ، جـ١ ، ص٣٨ .
(١٧٦) أنظر ترجمته ، الدرر ، جـ١ ، ص٣٩ ، ٤٠ .
(١٧٧) السلوك ، جـ٣ ، ص٢٠١ ، أنظر كذلك ، بدائع ، جـ١ ، ص٢٢٧ .
(١٧٨) إنباء ، جـ١ ، ص٣٨ ، ٣٩ .
(١٧٩) السلوك ، جـ٣ ، ص٢٠٣ .
(١٨٠) إنباء ، جـ١ ، ص٣٩ ، أنظر كذلك السلوك ، جـ٣ ، ص٢٠٦ .

العادي ؟ نلاحظ أن الجواب على هذا السؤال يقع في صلة النسب التي كانت تربط الجاي بالأشرف اذ كان الأول زوج والدة السلطان ، ومن ثم حظي بهذه المنزلة الرفيعة في بلاط الأشرف شعبان واستمر ذلك حتى عقب وفاة زوجته - أم الأشرف - بقليل . ويشرح ابن حجر طبيعة هذه الرابطة مبينا أهمية مكانة أم السلطان فيقول :

« بركة خاتون (١٨١) بنت عبدالله المولدة ، والدة الملك الأشرف تزوجت الجاي في سلطنة ولدها ، وماتت في عصمته في ذي القعدة (٧٧٤هـ / ١٣٧٢م) ولها مدرسة بالتبانة ، وكان الأشرف كثير البر لها بحيث أنه عادها مرارا حتى لروضة مقابل مصر ، وماتت في ذي القعدة ، فأراد الأشرف أن يزوج الجاي ابنته ، فقيل : لا تحل له ، فجمع القضاة فأفتوه بالمنع لأن بنت الربيب ربيبة ، فعوضه عنها بسرية له وكان يحبها اسمها « بستان » فأعتقها وزوجها له ، ثم وقع بينهما منافرة بسبب تركة أم الأشرف التي ماتت رحمها الله تعالى » . (١٨٢)

ومن جانب آخر يقول المقريزي :

« وتوفيت خوند بركة أم السلطان ، في يوم الثلاثاء آخر ذي القعدة (٧٧٤هـ / ١٣٧٢ م) وهي التي بنت المدرسة المعروفة بمدرسة أم السلطان ، بخط التبانة ، قريبا من قلعة الجبل ، وبنت الربع المعروف بربع أم السلطان ، وقيسارية الجلود التي تحت الربع المذكور ، بخط الركن المخلق ، وكانا في جملة أوقاف مدرستها هذه حتى أخذهما الأمير جمال الدين يوسف الاستادار فيما أخذ من الأوقاف والأملاك » . (١٨٣)

ومن ثم لم يمض قليل على وفاة والدة الأشرف شعبان حتى دب النزاع بين الأشرف وألجاي بسبب الارث مما أثار الفتنة في البلاط السلطاني ، بل أن ألجاي طمع في السلطنة والحكم حتى أدى الأمر الى القتال بينهما حيث يقول ابن حجر :

« فيها في المحرم (٧٧٥هـ / ١٣٧٣م) قتل الجاي اليوسفي وكان قد تنافر هو والسلطان الأشرف بسبب منازعة وقعت بينهما في تركة والدة السلطان ، فركب الجاي ، واقتتل مع مماليك السلطان بسوق الخيل فكسروه ، فانهزم الى بركة الحبش ثم رجع من وراء الجبل الأحمر الى قبة النصر ، فهرب جماعة من أصحابه الى السلطان ، وخامر اينبك عليه ، ثم ثار له العسكر السلطاني فهرب فساقوا خلفه الى الخرقانية من أعمال قليوب ، فرمى بنفسه في بحر النيل فغرق ، ثم أطلع من بحر النيل ودفن في تربته ، وكان أول أمره حاجبا في أول دولة يلبغا ثم استقر خازندارا ، ثم حبس في ايام استدمر ، ثم أفرج عنه بعد قتل استدمر واستقر أمير سلاح ، وتزوج أم السلطان وعلت كلمته الى أن صار هو الحاكم في الدولة كلها ، وكان تام الشكل حسن التودد الى العوام مع هوج فيه أداه الى أن ركب على العامة بالسيف في سنة سبعين ، فلولا أنه كان في آخر النهار لأفنى منهم خلقا كثيرا ، وذكر بعض خواصه أنه كان يتصدق في كل يوم اثنين وخميس بألف درهم دائما ، وكان استقراره في الأتابكية بعد منكلي بغا ، فلم تطل أيامه في ذلك وقبض على جماعة من حواشيه ، فقيل ان سبب مخامرته انه كان يبيت عند السلطان ليلة الموكب فجاءه من أخبره أن السلطان يريد القبض عليه ، فتأخر وأرسل فأحضر ثياب مبيته ، فأرسل له السلطان يعاتبه فاعتذر ، ثم شرع في تفرقة السلاح على أتباعه ، فبلغ السلطان فأمر الأمراء بالاجتماع عنده ، فلما كان في السابع من المحرم ركب الجاي بمن معه الى الرميلة ، والتقى مع أطلاب الامراء ومماليك السلطان ، فاقتتلوا قتالا شديدا حتى قيل انهم التقوا أحد عشر وجها وقتل جماعة وجرح جماعة ، وفي الآخر انهزم الجاي الى قبة النصر وتفرق عنه الجيش وتردد الناس من عند السلطان اليه في الصلح فلم يتم ، وأرسل اليه خلعة بنيابة حماة فلم يقبل ، ثم تقلل الجمع عنه الى أن صار في خمسمائة فخرج اليه أرغون شاه في جماعة من الخاصكية فقاتلوه فانهزم وتفرق من معه ، ونودي بالقاهرة : من أمسك مملوكا من مماليك الجاي أخذ خلعة ، فقبض على أكثرهم وصودر من كان في خدمته ، واستقر ايدمر نائب طرابلس أتابك العساكر ، أحضره السلطان منها بعد قتل الجاي في صفر ، واستقر في نيابة طرابلس يعقوب شاه ، واستقر اقتمر عبدالغني في نيابة السلطنة بمصر » . (١٨٤)

وبذلك انتهت حياة الجاي اليوسفي الذي حباه الأشرف شعبان بالمناصب العليا ، والمال الوفير والنسب السلطاني ، فكبرت نفسه وازداد طمعه حتى أدى ذلك الى نهايته على أسوأ حال وأشنع عاقبة .

« ثم قبض السلطان على مماليك ألجاي ونودي بالمدينة ان كل من

(١٨١) أنظر ترجمتها ، الدرر ، جـ٢ ، ص٧-٨ .
(١٨٢) أنباء ، جـ١ ، ص٤٨-٤٩ ، أنظر كذلك ، النجوم ، ج١١ ، ص٥٨-٦٠ .
(١٨٣) السلوك ، جـ٣ ، ص٢١٠ ، أنظر كذلك ، النجوم ، جـ١١ ، ص٥٩-٦١ .
(١٨٤) أنباء ، جـ١ ، ص٧٣-٧٤ ، أنظر كذلك السلوك ، جـ٣ ، ص٢١٤-٢١٥ ، النجوم جـ١١ ، ص٥٧-٦٢ .

لقي أحداً منهم يحضره الى السلطان ويأخذ له خلعة . ثم أخذ السلطان أولاد الجاي وهم أخوته لأمه ورتّب لهم ما يكفيهم واحتاط على سائر موجود الجاي وأخذ جميع مماليكه وصفح عنهم وجعلهم في خدمة ولديه : أمير علي وأمير حاج .

ثم قبض السلطان على جماعة من الأمراء ممن كان يلوذ بالأمير الجاي وهم صراي العلائي وسلطان شاه بن قراجا وطقتمر الحسني وعلي بن كلبك وصادره ثم أمسك بيبغا القوصوني وخليل ابن قماري الحموي فشفع فيهما الأمير طشتمر الدوادار .

ثم في آخر صفر رسم السلطان بنفي جماعة الى البلاد الشامية ، وهم محمد شاه دوادار الجاي وخليل بن عرام المعزول عن نيابة الاسكندرية وعلي بن كلبك والبغا الجمقدار خازندار الجاي وكان السلطان في تاسع المحرم رسم ليوري الحلبي الخازندار أن يتوجه الى طرابلس لاحضار نائبها الأمير عز الدين ايدمر الدوادار الناصري الى مصر ، فتوجه بوري اليه وأحضره ، فلما مثل بين يدي السلطان خلع عليه باستقراره بأتابك العساكر بالديار المصرية ، عوضاً عن الجاي اليوسفي وتولى عوضه نائب طرابلس الأمير يعقوب شاه ، وبعد موت ألجاي أنعم السلطان على جماعة من الأمراء بالطاعات ووظائف فأخلع على الامير صرغتمش الأشرفي باستقراره أمير سلاح خاصكيا يجلس بالايوان في دار العدل واستقر أرغون الأحدي (١٨٥) الأ لا أمير كبير برانيا وأجلس بالايوان » . (١٨٦)

ومن ثم بدأت الأوضاع تستقر وتعود الأحوال الى نصابها حيث يشير المقريزي الى أنه في محرم ٧٧٥هـ / ١٣٧٣م « استدعى بأولاد الجاي وأسكنوا بالقلعة ورتب لهم كفايتهم ، ووقعت الحوطة على جميع ما خلفه الجاي ، فكان شيئاً كثيراً ورتبت مماليكه في خدمة ولدى السلطان ، وقبض على محمد شاه دوادار الجاي ، وعلى ألبغا الجمقدار خازن داره ، وعلى مباشرى ديوان والزامه ، والزموا بمال كبير ، فحملوا بعض ما ألزموا به وخلى عنهم » . (١٨٧)

من جانب آخر نلاحظ أنه في « رابع صفر (٧٧٥هـ / ١٣٧٣م) قدم الأمير ايدمر الدوادار من طرابلس ، فخلع عليه واستقر أتابك العساكر ، عوضاً عن الجاي اليوسفي » . (١٨٨)

ثم بعد ذلك بقليل « فتحت مدرسة الجاي بعد موته ، وكان قد بقي من عمارتها شيء فأكمله الأوصياء ، واستقر في تدريس الشافعية بها الشيخ سراج الدين البلقيني ، وفي تدريس الحنفية جمال الدين محمود القيسري (١٨٩) » . (١٩٠)

ونتيجة لذلك تجدر الملاحظة بأن منصب الأتابكية (١٩١) كان سبباً في وقوع أكثر من فتنة في عهد الأشرف شعبان ، الأمر الذي طالما هدد مكانة الأشرف على كرسي السلطنة والحكم . ولعل السبب في ذلك أن صاحب هذا المنصب يعتبر بمثابة القائد الأعلى للجيش ، فتكون جميع الكتائب رهن كلمته واشارته مما يجعله يشعر بأنه سيد الموقف وبيده ما يرغب به من سلطات مطلقة وصلاحيات غير محدودة . ومن هنا تظهر النزعة الشديدة من أجل الاستحواذ على السلطة الرسمية والتخلص من وجود السلطان الشرعي الذي كان يمثل رغم سلطته الاسمية منافساً خطيراً لأتابك العساكر خاصة اذا ما كنا نعلم قوة الرابطة الودية بين السلطان وقضاة السلطنة ، في حين كان هؤلاء يمثلون العنصر الرافض لكل ما يهد الأتابك من صلاحيات وامتيازات .

ويلفت نظرنا أن سلطة أتابك العساكر قد طغت على سلطة نائب السلطنة طيلة عهد الأشرف شعبان بعكس الحال ابان عهد الناصر محمد بن قلاوون حين بلغ من قوة نائب السلطان أن كانت لديه القدرة على عزل السلطان والجلوس على كرسي الحكم بدلاً منه الى أن بدأ العهد الثالث لسلطنة الناصر محمد وأضحى قوياً قادراً على تسيير زمام الأمور فعمل على الغاء وظيفة نيابة السلطنة كي لا تعود مصدراً لكثير من المصائب التي تحل بسلاطين الدولة .

ولعله من الأسباب التي أدت الى تزايد سلطة أتابك العساكر ، وبالتالي تفاقم خطورة هذه القوة على شخص السلطان هو صغر سن السلطان الشرعي الجالس على كرسي الحكم ، فكان في هذا الوضع عنصراً مشجعاً لكبار الأمراء من أجل الوصول الى مزيد من النفوذ والسطوة ، بل العمل على خلع السلطان الصغير والجلوس بدلاً منه على كرسي الحكم .

(١٨٥) أنظر ترجمته ، الدرر ، جـ ١ ، ص ٣٧٣ ـ ٣٧٤ .
(١٨٦) النجوم ، جـ ١١ ، ص ٦١ ـ ٦٢ .
(١٨٧) السلوك ، جـ ٣ ، ص ٢١٦ .
(١٨٨) السلوك ، جـ ٣ ، ص ٢١٧ .
(١٨٩) أنظر ترجمته ، الدرر ، جـ ٥ ، ص ١٠٥ ـ ١٠٦ .
(١٩٠) البناء ، جـ ١ ، ص ٧٩ .
(١٩١) أنظر ، صبح ، جـ ٤ ، ص ١٨ .

ومن ناحية أخرى نجد أن تمتع أتابك العساكر بذلك النفوذ الواسع كان سببا في اشتداد الصراع بينه وأتباعه وبين بقية طوائف الأمراء المماليك الأوليجاركية بدافع من الحسد والطمع والحقد مما كان يجر الى الفتن والخلافات التي لا تكاد تنتهي حتى تشتعل مرة أخرى . وقد نتج عن تلك الخلافات ذلك القتال المتواصل بين طوائف المماليك السلطانية والأميرية والجلبان واليلبغاوية وغيرهم في مناطق البلاد حظيت كل فرقة بالكثير من النفوذ والامتيازات فوجدت في ذلك الوضع الكبير وسيلة مناسبة لهزيمة هذه الطائفة أو تغريم تلك ، بالاضافة الى التطاول على حقوق الرعية وحرماتها ، فكانوا يدخلون المنازل وينهبونها ، ويعتدون على الناس ، ويسرقون الدكاكين ، مما أشاع جوا من عدم الاستقرار الاجتماعي خلال سنوات هذا العهد ، الى جانب الاستقرار السياسي الذي شهدته الدولة طوال هذه الحقبة من تاريخ سلطنة المماليك .

والى جانب منصب الأتابكية وجد أيضاً منصب نيابة السلطنة الذي تعاقب عليه عدد من كبار الأمراء المماليك ، وان كان يبدو أنه لم يكن بيد هؤلاء النواب سلطات واسعة كالتي تيسرت لدى الأتابكة . ومن ثم قدم بعض أولئك النواب خدمات جليلة للدولة في أثناء حكم الأشرف شعبان ، ويأتي على رأس هؤلاء « منجك بن عبدالله التركي (١٩٢) ، تنقل في الولايات بالبلاد ، وولي الوزارة بالقاهرة ، واستقر في الآخر نائب السلطنة بمصر والي أمور المملكة ، وقد عمر خانات نافعة وجوامع وأصلح الجسور والطرقات ، مات في تاسع عشرين ذي الحجة (٧٧٦هـ / ١٣٧٤م) وقد جاوز الستين . ومن أحكامه مع ما كان ـ يعني به من تعمير المدارس والخوانق والخانات والقناطر ـ أمره بكسر أواني الخمر ومنع عملها ، ومنع النساء من الركوب بين الرجال والخروج الى مواضع النزه والخروج في الليل ، وتضييق الأكمام ، ومنع تعليق الأجراس بأعناق الحمير ، وألزم كل من يدخل الحمام بالتستر بالميازر وغيرها » . (١٩٣)

ولكن كيف تيسر لمنجك الوصول الى وظيفة نيابة السلطنة ؟ يشير ابن حجر الى ان منجك هذا كان نائبا للشام حيث يذكر أنه :

« في أول يوم من جمادى الآخرة (سنة ٧٧٣هـ / ١٣٧١م) وصل قود نائب الشام منجك يشتمل على شيء كثير جدا حتى اتفق أهل المعرفة أنه لم يتقدمه مثل ذلك نائب ، ومن جملة ما كان فيه أسدان وضبع وأيل ونحو الخمسين من الكلاب المعلمة ونحو الخمسين من البخاتي بلبوسها وخمسة من البخاتي أيضا كل منها بسنامين وكلها بثياب أطلس ونحو الأربعين حملا يشتمل على قماش وحلوى وفاكهة ونحو الأربعين هجينا ومن المنابيش الزركش والعرقيات الزركش والقبي الحرير شيء كثير جدا ومن الصوف الملون والحرير والفرى خمسون بقجة الى غير ذلك » . (١٩٤)

وهذا يدل من غير شك على سمو المكانة التي حظي بها منجك في بلاد الشام ، فكان صاحب الكلمة العليا فيها خاصة وأن الأحوال السياسية لا تكاد تستقر في مصر بسبب التطلعات الخطيرة لدى الأتابكة ، ومن ثم أدار منجك بلاد الشام بحرية وعدل ، فنال الكثير في المكانة والعزة في العيش الكريم بدليل هذه الهدايا التي أهداها على الأشرف شعبان عند قدومه البلاط السلطاني في القاهرة .

ومن ناحية أخرى كان الأشرف شعبان يقدر نائب الشام ويدرك ما يتصف به من جميل الخصال وفضائل الصفات ، ولذا فعندما خلا منصب نيابة السلطنة في عام ٧٧٥هـ / ١٣٧٣م استدعى الأشرف شعبان نائب الشام كي يتولى مسئوليات هذه الوظيفة الحساسة في البلاط السلطاني حيث يقول ابن حجر :

« وفيها (٧٧٥هـ / ١٣٧٣م) في شهر رمضان حضر منجك نائب الشام الى مصر فاستقر نائب السلطنة بها ، فوضت اليه جميع أمور المملكة من الكلام في الوزارة والخاص والأوقاف والأحباس واخراج الاقطاع الى ستمائة دينار والعزل والولاية لأرباب المناصب بما يقتضيه رأيه ، وقرىء تقليده بذلك ، وكان النائب قبله اقتمر عبدالغني فنفي الى الشام في جمادى الأولى ، وكانت مدة نيابته أربعة أشهر ، ثم قرر نائبا بطرابلس عوضا عن يعقوب شاه » . (١٩٥)

ونعجب في الحقيقة اذ نرى الأشرف شعبان يحمل منجك مسئوليات كل هذه الوظائف فأصبح نائب السلطنة والوزير وناظر الخاص وناظر الأوقاف والأحباس ، وحدد له مرتبا قدره ستمائة دينار ، وفوض اليه صلاحيات تعيين من يريد وعزل من لا يريد ، فكأن منجك أصبح الشخصية الثانية في الدولة بعد الأشرف شعبان ولعلنا نستطيع ان نفسر سبب ذلك بالمعاناة التي قاساه الأشرف على

(١٩٢) أنظر ترجمته ، الدرر ، جـ ٥ ، ص ١٣٠ ـ ١٣١ .
(١٩٣) أنباء ، جـ ١ ، ص ١٤٨ .
(١٩٤) أنباء ، جـ ١ ، ص ١٣ ـ ١٤ .
(١٩٥) أنباء ، جـ ١ ، ص ٧٥ .

يد يلبغا وأستدمر والجاي وما أثاروه من فتن والرد وتنكر لما حباهم به من مكانة وعزة .

ومن ناحية أخرى يشير ابن حجر الى تلك الحفاوة التي استقبل بها منجك عند قدومه القاهرة كي يستقر ويزاول مسئوليات مناصبه الجديدة ، فيذكر أنه في جمادى الاخرة سنة ٧٧٥هـ / ١٣٧٣م « نقل منجك الى القاهرة وكان دخول منجك الى القاهرة في ذي القعدة ، وخرج جميع العساكر للتلقاه ، ولم يتأخر عنه الا السلطان وولاه النيابة » .(١٩٦)

ويؤكد المقريزي تسلم منجك مقاليد هذه الوظائف ، وكذلك ما استقبل به من حفاوة وترحيب (١٩٧)

وهكذا ، فان الاشرف شعبان بعد أن ضاقت به الحيلة يلجأ الى انصار جده الناصر محمد لعلهم يعينونه على تأسيس حكم مستقر في الدولة لدرجة انه يوكل الى منجك التصرف في « سائر أمور المملكة » ، خاصة وأن منجك معروف فعلا جدير بالمسئوليات التي ألقيت على عاتقه وغير ذلك من الأفعال الحسنة التي ضاعفت من محبة وجوده في ذلك المركز المهم (١٩٨)

وهكذا استمر منجك يزاول مهام وظائفه طيلة عام كامل الى أن توفي اذ يقول ابن حجر :

« منجك الناصري ، أحد أكابر الأمراء ، (توفي سنة ٧٧٦هـ / ١٣٧٤م) وأول ماولي امرة حلب عقب طاز سنة تسع وخمسين ، ثم تنقل في الولايات وولي الوزارة وغيرها وله أوقاف كثيرة على وجوه البر وجاوز الستين » . (١٩٩)

وقد استمر طيلة نيابته جليل القدر في نفس الأشرف شعبان الذي كان يحترمه ويعزه ، وعندما :

« مرض الأمير منجك اليوسفي النائب نزل السلطان لعيادته ، ففرش منجك تحت رجلي فرسه الشقق الحرير وقدم له عشرة مماليك وعشره بقج وعدة خيول فقبلها السلطان ثم أنعم بها عليه ، وكان ذلك في يوم الثلاثاء سابع عشرين ذي الحجة ومات منجك بعد يومين » . (٢٠٠)

وقد دفن الأمير منجك اليوسفي في خانقاة التي أنشأها في رأس الصوة تحت القلعة . (٢٠١)

وبوفاة منجك خسر الأشرف شعبان شخصية مهمة كان يعول على وجودها الكثير في حقبة تكاتفت فيها جميع الظروف على أن يكون الأشرف في حاجة الى رجال لا تطغى على نفوسهم النظرة المادية ، وانما يحرصون من أجل العمل لهدف المصلحة العامة .

واذا نظرنا الى هذا العهد من زاوية أخرى مختلفة ندهش اذ نجد خشية الأمراء المماليك الاوليجاركية من طبقة القضاة الذين يمثلون الركيزة الأساسية لتطبيق مبادىء الشريعة الاسلامية ، فهؤلاء الذين لا يقيمون وزنا لسلطان الدولة ، يعملون الكثير من الحساب لأولئك القضاة ، فيجتهدون من أجل كسب رضائهم ، ويتحاشون خشية اثارة غضبهم وسخطهم على ما يقومون به من أعمال منافية للحق والعدل . ويمكننا أن نلاحظ هذا كله مع توالي الحوادث مع بدء سلطنة الأشرف شعبان بشكل يثير التساؤل والعجب يقول المقريزي :

« وفي يوم الخميس ثالث عشرين رمضان عزل قاضي القضاة موفق الدين الحنبلي نفسه من أجل أن الأمير يلبغا استدعاه ، فوافاه القاصد وهو نايم ، فلم يتمهل عليه حتى ينتبه ، بل أمر به فأيقظ وقد انزعج ، فغضب لذلك ، وعزل نفسه ، وأبى أن يجيب القاصد أو يجتمع به ، فشق ذلك على الأمير يلبغا . وما زال يرسل اليه ويترضاه حتى رضي . ثم استدعي في يوم الاثنين سابع عشرينه الى مجلس السلطان ، وخلع عليه ، وأعيد الى وظيفة القضاء على عادته » . (٢٠٢)

وهكذا يتكرر ظهور الامير يلبغا في مجرى الحوادث بشكل ظاهر مما يؤكد أنه فعلا القائم على ادارة شئون الدولة في مختلف مجالاتها ، بل بلغ به الأمر الى التطاول على شخص القضاة القائمين على أمور الشرع الشريف من أجل خدمته فأدى الحال الى رفضهم هذا الأسلوب بالامتناع عن ممارسة مسئوليات الوظيفة ، ولكن يبدو أن الأمير يلبغا كان حريصا على رضاء القضاة عنه ، ربما ، من أجل

(١٩٦) أنباء ، جـ ١ ، ص ٦٨ .

(١٩٧) السلوك ، جـ ٣ ، ص ٢٢٤ - ٢٢٥ . أنظر كذلك ، النجوم ، جـ ١١ ، ص ٦٤ - ٦٥ .

(١٩٨) السلوك ، جـ ٣ ، ص ٢٣٥ .

(١٩٩) أنباء ، جـ ١ ، ص ١٩٠ .

(٢٠٠) النجوم ، جـ ١١ ، ص ٦٥ .

(٢٠١) السلوك ، جـ ٣ ، ص ٢٤٧ . أنظر كذلك ، بدائع ، جـ ١ ، ص ٢٢٠ .

(٢٠٢) السلوك ، جـ ٣ ، ص ٨٤ .

تحقيق الاستقرار الاجتماعي الذي يتيح له التمتع بما يرغب فيه من امتيازات فكان لا يرى بأساً في استخدام المجلس السلطاني وشخص السلطان لتحقيق ذلك الهدف . ويتم له ما يريد بشكل ربما يبين ضعف نفوس القضاة حينذاك ، أو لعلها الرغبة في المشاركة حتى عن غير رغبة للاطلاع على ما يدور من أمور غير مشروعة في ظل حكم سلطان طفل . ومن المحتمل أن الأمير يلبغا كان يجد في كسب رضاء القضاة اذنا له بالموافقة على ما كان يحظى به من صلاحيات ، بل لعله كان يرى في سكوتهم عما يمارسه من عزل وتولية لسلاطين الدولة مع الاستفادة البالغة مما يتيحه ذلك الظرف من مكاسب موافقة منهم على شرعية ما يقوم به ، فيطمئن فكره بأنه انما يفعل ذلك من أجل صالح الدولة فحسب . ولكن مع كل ذلك الا يلفت نظرنا ما كان يعتبر حقا من حقوق القضاة ، الا وهو عزل القاضي لنفسه من وظيفة القضاء دون الرجوع لأولي الأمر في الدولة ، الأمر الذي كان بالفعل مصدر قلق لهؤلاء أصحاب السلطة ، فيعملون جاهدين من أجل تلافيه ، وعلى ذلك تختفي فعالية ذلك الحق في ممارسة قليل من الحرية الشخصية في ظل حكم الطغاة . ومع ذلك يظل وجود هذا الحق الشخصي في حرية ممارسة مسئوليات تلك الوظيفة مصدرا للأمل لمعاصري ذلك العصر نحو مجتمع أفضل . بالاضافة الى ذلك ، فإنا نعجب لكيفية استخدام السلطان الصغير في سبيل ترضية القاضي الذي يطلب بناء لأمر السلطان أو بالأحرى الأمير يلبغا للحضور بين يدي المجلس السلطاني ، فيخلع عليه ويخاطبه بودٍّ كي يعود الى ممارسة وظيفته كقاضٍ ، وتستقر الأمور الى ما كانت عليه ويبقى أمرٌ واحدٌ مقفلا ، ترى ما السبب في عودة القاضي الى وظيفته ، هل هي الرغبة في الاستفادة من وجود سلطان طفل على كرسي الحكم ؟ أم هو العزم على الوقوف الى جانب السلطان الطفل ؟ لعل في ذلك عونا له واصلاحا للوضع ؟

لقد كان القضاة يحرصون دائما على الوقوف الى جانب الضعفاء للدفاع عن حقوقهم أمام أصحاب السلطة بغض النظر عن علو المكانة وسلطات صاحبها فقد كانوا على أتم الادراك بأنهم أقوى في المنزلة من هؤلاء الأمراء . ومن الأمثلة على ذلك ما يذكره ابن حجر اذ يشير الى أن عمر بن اسحاق بن أحمد الغزنوي [٢٠٣] ، سراج الدين الهندي قاضي الحنفية بالقاهرة ، توفي سنة ٧٧٣هـ / ١٣٧١م [٢٠٤] « تكلم في أوقاف الشافعية لما ولي الجاي نظر الأوقاف ، فلما حضر معه استعرض الدروس في الجامع الطولوني وبالمدرسة الأشرفية وضيق عليهم ، فقام الهندي في ذلك قياما عظيما وأغلظ له القول حتى قال : اقطاعك يبلغ ألفي ألف درهم وتستكثر على الفقيه المسكين هذا القدر ؟ فقال : أنا آخذ الاقطاع لحفظ بلاد المسلمين فقال : ومن علمكم الجهاد الا الفقهاء ؟ فسكت وترك كل أحد على حاله » . [٢٠٥]

وهكذا كانت كلمة القضاة باستمرار تعلو على كلمة رجال البلاط السلطاني دون خشية أو وجل ، وانما على أساس من الاحترام والتبجيل .

كذلك مما يدل على مكانة القضاة وشيوخ الدين ما حدث أيام الشيخ المنفلوطي ولي الدين محمد بن أحمد الديباجي (ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م) [٢٠٦] حيث « كان ابن عقيل قد ولي درس مدرسة حسن قبل موت السلطان ، فلما قتل أراد يلبغا هدم المدرسة ومنع ابن عقيل من تدريسها وولاها الشيخ ولي الدين ، فغضب ابن عقيل وهجر ولي الدين ، ثم استرضى يلبغا ابن عقيل بالخشابية واستمر التراضي بينهما » . [٢٠٧]

وعلى ذلك يمكننا أن نتبين قاعدة سلوكية ثابتة اشتهر بها رجال السلطة في هذا العصر ألا وهي الحرص على استرضاء القضاة ورجال الدين وشيوخ الشريعة الاسلامية - ربما - لأن هذا السلوك هو خير وسيلة توصلهم الى كسب رضى الرعية وسكوتها عما يقترف بحقها من ضياع الحقوق وامتهان الحرمات .

ويصف المقريزي بأسلوب غير مباشر استغلال بعض أصحاب السلطة لوظيفة القضاء من أجل خدمة مصالحهم مما كان له بالغ الأثر في اعتزال عدد ممن تولوا هذا المنصب ، فيقول عند سيرة حياة القاضي عز الدين ابو محمد عبدالعزيز ابن جماعة (ت ٧٦٧هـ / ١٣٦٥م) [٢٠٨] :

« وولي قضاء القضاة بديار مصر تسعا وعشرين سنة بأحسن

---

(٢٠٣) انظر ترجمته ، الدرر ، جـ٣ ، ص ٢٣٠ - ٢٣١ .

(٢٠٤) انباء ، جـ١ ، ص٦٩ .

(٢٠٥) انباء ، جـ١ ، ص ٣٠ - ٣١ .

(٢٠٦) انظر ترجمته ، الدرر ، جـ٣ ، ص٣٩٥ .

(٢٠٧) انباء ، جـ١ ، ص ٣٧ - ٣٨ .

(٢٠٨) انظر ترجمته ، الدرر ، جـ٢ ، ص ٤٨٩ - ٤٩١ .

سيرة وأجل طريقة ، ثم ترك ذلك تنزها وتعففا ، وجاور بمكة ، فقضى بها نحبه » . (٢٠٩)

بالاضافة الى ذلك يقول ابو المحاسن :

« وفي هذه السنة وهي سنة ست وستين وسبعمائة عزل قاضي القضاة عز الدين عبدالعزيز بن محمد بن جماعة نفسه من قضاء الديار المصرية في سادس عشر جمادى الأولى ونزل اليه الأتابك يلبغا بنفسه الى بيته وسأله بعوده الى المنصب فلم يقبل ذلك وأشار على يلبغا بتولية نائبه بهاء الدين ابي البقاء السبكي فولي بهاء الدين قضاة الشافعية عوضه » . (٢١٠)

وهكذا كان بعض القضاة يسعى لعزل نفسه من وظيفة قضاء الديار المصرية - ربما - بسبب ا كان يحيق بها من تدخل كبار الأمراء في هذه القضية أو تلك من أجل منافعهم الخاصة مما يؤدي الى تكرر الصدام بين الجماعتين ، فيؤثر القضاة الابتعاد عن هذه الوظيفة تزهدا وتعففا . ومن ثم كان القضاة في هذه الفترة مظهرا من مظاهر الحق والعدل والاصلاح في المجتمع المملوكي الذي كان يشهد تطاحنا مستمرا بين طوائف الاوليجاركية في سبيل السلطة والقوة .

ومن الجدير بالذكر أنه تعاقب على هذه الوظائف في مراكز القضاة الأربعة سلسلة من كبار الشخصيات الجليلة التي عرفت أصحابها بالخلق الطيب والعلم الغزير . علاوة على ذلك تجدر الاشارة الى أنه عندما يعزل أحد القضاة نفسه من وظيفة القضاء يحرص على أن يرشح شخصية بعينها على تولي المنصب من بعده - ربما - بدافع من الحرص على توجيه القاضي الجديد بحيث يكون كفئا لمسئوليات المنصب فيقوم بها على خير ما يرام . وعلى ذلك نجد أن عز الدين عبدالعزيز بن جماعة يرشح أبا البقاء السبكي الذي كان يتصف بالخلق الكريم والسمعة الطيبة والعلم الوفير حيث يقول ابن حجر :

« محمد بن عبدالبر بن يحيى بن علي بن تمام بهاء الدين ابو البقاء السبكي ، ولد سنة ثمان وسبعمائة - وفي معجم ابن رافع : سنة سبع وسبعمائة ، وتفقه على القطب السنباطي والمجد الزنكلوني وعلاء الدين القونوي والزين الكتاني ، وأخذ عن ابي حيان ولازمه والجلال القزويني ، وسمع من وزيره والحجار والوالي والختني وغيرهم وحدث عنهم ، وانتقل الى دمشق سنة تسع وثلاثين وولي قريبه تقي الدين القضاء وناب عنه في الحكم بدمشق ، ثم ولي استقلالا بعد صرف ابنه تاج الدين السبكي مدة شهر واحد ، وذلك سنة تسع وخمسين ، ثم ولي قضاء طرابلس ، ثم رجع الى القاهرة وولي قضاء العسكر ، ووكالة بيت المال في سنة خمس وستين ، ثم ولي قضائها في سنة ست وستين بعد عز الدين ابن جماعة بعد ان كان ينوب عنه وذلك في جمادى الاخرة ، ثم ولي قضاء دمشق ومات بها في ربيع الأخر . وكان الشيخ جمال الدين الاسنوي يقدمه ويفضله على أهل عصره ، وكان الشيخ عماد الدين الحسباني يشهد انه يحفظ الروضة ، وكان الشيخ بدر الدين الطنبدي يحكي عنه أنه كان يقول : أعرف عشرين علما لم يسألني عنها بالقاهرة أحد ، ومع سعة علمه لم يصنف شيئا . قال ابن حبيب : شيخ الاسلام وبهاؤه ، ومصباح أفق الحق وضياؤه ، وشمس الشريعة وبدرها وحبر العلوم وبحرها ، كان اماما في المذهب ، طرازا لرداء المذهب ، رأسا لذوي الرئاسة والرتب ، حجة في التفسير واللغة والنحو الأدب ، قدوة في الاصول والفروع ، رحلة لارباب السجود والركوع ، مشهورا في البلاد والأمطار ، سالكا طريق من سلف من سالف الانصار ، درس وأفاد ، وهدى بفتاويه الى سبيل الرشاد ، وباشر القضاء بمصر والشام .

ولما عزل عن قضاء القاهرة وسعى في قضاء الشام بعد أن كان السلطان الأشرف أمر باخراجه فاستقر بها ، ثم في هذه السنة (٧٧٧هـ/ ١٣٧٥م) سعى السعد السعي حتى استقر ولده ولي الدين في قضاء الشام في حياته ، وعاش بعد ذلك قليلا ومات » (٢١١) في ربيع الاول سنة ٧٧٧هـ / ١٣٧٥م .

علاوة على ذلك كان للسلطان الحق في عزل من لا يرغب به من القضاة لأسباب مختلفة رغم أننا ندرك تماما بأن السلطان الأشرف شعبان كان يعاني من الحجر عليه ومحروما من جميع حقوقه كحاكم للبلاد ما عدا عزل القضاة ، وهذا بالفعل ما حدث مع القاضي أبي البقاء السبكي حيث يذكر المقريزي :

« وفي يوم الاثنين ثامنه (جمادي الاولى ٧٧٣هـ / ١٣٧١م) كانت الخدمة السلطانية بدار العدل من القلعة ، وحضر قضاة القضاة على العادة ، ثم انفضت الخدمة ، فمضى القضاة على عادتهم وجلسوا بالجامع من القلعة ، اذ أتاهم رجل من عند السلطان ، وأسر الى أبي البقاء ثم التفت الى بقية القضاة وبلغهم

(٢٠٩) السلوك ، جـ ٣ ، ص ١٢٥ .
(٢١٠) النجوم ، جـ ١١ ، ص ٩٨ ، انظر كذلك ، الدرر ، جـ ٤ ، ص ٢١٠ .
(٢١١) انباء ، جـ ١ ، ص ١٨٣ - ١٨٥ ، انظر كذلك ، الدرر ، جـ ٤ ، ص ١٠٩ - ١١٠ .

عن السلطان أنه قد عزل أبا البقاء ، وأمره أن يلزم بيته ، فاتفضوا على ذلك » . (٢١٢)

ولعل السبب وراء ذلك هو رغبة السلطان في اسناد منصب القضاء الى برهان الدين ابن جماعة حيث وصل الخطيب « في خامس جمادى الآخرة وكان برهان الدين حين عزل أبا البقاء بدمشق زائراً لأهله من ربيع الأول ورجع بعد خمسين يوما بعد أن فوض له النائب نظر القدس والخليل فخالفه البريدي في الطريق فأمره النائب بلحاقه الى القدس فلحقه فخطب في السادس عشر من جمادى الآخرة خطبة بليغة تعرض فيها لتوديعهم فأبكاهم وتوجه على البريد ، فلما اجتمع السلطان عرض عليه المنصب فاشترط شروطا كثيرا فالتزم له السلطان بها ولبس الخلعة وركب معه الحجاب والقضاة على العادة ومشى معه الجاي اليوسفي والأمير الكبير الى باب القلعة وركب في حشمة عظيمة وأبهة زائدة ، فراح الناس الى تهنئته حتى القاضي المعزول فرحا منه به لعلمه برياسته وحسن سياسته » . (٢١٣)

وكانت مدة عطلة الناس من ولاية قاضي القضاة سبعة وعشرين يوما ، وقد وقع مثل ذلك في أيام الناصر محمد بن قلاوون ، تعطلت القاهرة من بعض قضاة القضاة سبعة وعشرين يوما » . (٢١٤)

وبذلك يخضع القضاة لأمر السلطان في تولي مهام وظيفة القضاء في مصر ويبدأ القاضي بممارسة مسئوليات المنصب حتى يظهر الاختلاف بين رغبتهم في الاصلاح واقبال كبار الأمراء على تحقيق المنافع المادية ، فيقع الصدام الذي طالما انتهى بعزل القاضي لنفسه كي لا يكون باستمراره في المنصب عنوانا لرضاه عما يحدث على يد الأمراء ، أو اشارة لضعفه وعدم قدرته على مقاومة ذلك السلوك الشائن ، ومن ذلك نرى أنه :

« في رابع عشرين ذي الحجة عزل القاضي برهان الدين ابن جماعة نفسه من القضاء بسبب تثقيل بعض الأمراء عليه في أمر بعض الموقعين ، فراسله السلطان فامتنع ، فأرسل اليه بهادر أمير آخور (٢١٥) فحلف عنده بالطلاق ان السلطان حلف بالطلاق انه ان لم يجب الى العود نزل الى بيته وألزمه به ، ولم يزل به الى أن ركب معه الى القلعة فاجتمع بالسلطان فسأله ان يعود وألح عليه ، فكان آخر كلامه الامهال الى أن يستخير الله تعالى في الليلة ، فلما أصبح طلع الى القلعة في الخامس والعشرين من ذي الحجة واشترط شروطا أجابه السلطان اليها ، ونزل في أبهة عظيمة الى الغاية ، وازدادت مهابته وتصميمه في الامور » . (٢١٦)

ولا شك أن في هذا دلالة بالغة على علو المنزلة التي حظي بها القضاة في هذا العهد من تاريخ سلطنة المماليك . ولكن كان يحدث في بعض الأحيان أن يرفض البعض منصب القضاء عنتا بهذا العلو أو ذاك ، بل يبلغ الأمر الى الاصرار على الرفض والامتناع كما حدث عندما « شغر قضاء الحنفية بموت قاضيه صدر الدين ابن التركماني ، فطلب الأشرف الشافعي شرف الدين ابن منصور لذلك من دمشق فحضر فلم يتم له أمر ، وعرض السلطان القضاء على الشيخ جلال الدين التباني ، فامتنع فألح عليه وأحضرت الخلعة فأصر على الامتناع وقال : العجم لا يعرفون أوضاع أهل مصر ، فآل الى استقرار صدر الدين ابن الكشك » . (٢١٧)

الا أنه حينما يقبل البعض الآخر بهذا المنصب ، فانه يكون صارما في تطبيق مبادئ الشريعة الاسلامية ، شديدا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فيبادر ولاة الأمر في النصح لهم بالأسلوب الأكثر ملاءمة في معاملة الرعية حيث يذكر المقريزي :

« وفيه (محرم ٧٧٨ هـ / ١٣٧٦ م) طلب قاضي القضاة برهان الدين ابراهيم بن جماعة دوادار الأمير أقتمر الحنبلي نائب السلطان ، وأنكر عليه ، ونهره في مجلس حكمه ، ووضع من استاذه بسبب ما يجري من أحكامه بين الناس ، فانه بلغه عنه أنه ضرب رب دين بحضرة مديونه . فترفق له وتلطف به في المداراة حتى خلص من مجلسه وقد ملئ قلبه منه خوفا » . (٢١٨)

ولعل من أهم النواحي التي لعب فيها القضاة دورا ايجابيا في خدمة المجتمع مسألة ابطال الضرائب المكوس التي كانت تشكل عبئا ثقيلا على بعض الطوائف اذ طالما تدخل القضاة من أجل

(٢١٢) السلوك ، جـ ٣ ، ص ١٩٢ ، انظر كذلك ، بدائع ، جـ ١ ، ص ٢٢٢ .
(٢١٣) انباء ، جـ ١ ، ص ١٠ ، ١١ .
(٢١٤) السلوك ، جـ ٣ ، ص ١٩٢ .
(٢١٥) انظر ترجمته ، الدرر ، جـ ٢ ، ص ٣٠ .
(٢١٦) انباء ، جـ ١ ، ص ٩٤ ، ٩٥ . انظر كذلك السلوك ، جـ ٣ ، ص ٢٤١ ، ٢٤٢ .
(٢١٧) انباء ، جـ ١ ، ص ٩٣ - ٩٤ .
(٢١٨) السلوك ، جـ ٣ ، ص ٢٦٤ .

التخفيف عن هذه الفئات رغبة في الاصلاح وخدمة للصالح العام حيث يذكر ابن حجر :

« وفيها (٧٧٥هـ /١٣٧٣م) في صفر أبطل الملك الأشرف ضمان المغاني ومكس القراريط التي كانت في بيع الدور ، وقرىء بذلك مرسوم على المنابر ، وكان ذلك بتحريك الشيخ سراج الدين البلقيني واعانة أكمل الدين وبرهان الدين ابن جماعة ، ويقال ان السلطان كان توعك فأشاروا عليه بذلك فاتفق أنه عوفي فأمضى ذلك واستمر »[٢١٩] .

والسؤال هنا ترى ما هو ضمان المغاني والقراريط ؟

يقول المقريزي : « آخر ما أدركنا ابطاله ضمان الأغاني وضمان القراريط في سنة ثمان وسبعين وسبعمائة على يد الملك الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاون . فأما ضمان الأغاني فكان بلاء عظيما وهو عبارة عن أخذ مال من النساء البغايا فلو خرجت أجل امرأة في مصر تريد البغاء حتى نزلت اسمها عند الضامنة وقامت بما يلزمها لما قدر أكبر أهل مصر على منعها من عمل الفاحشة ، وكان على النساء اذا تفس أو عرس امرأة وخضبت امرأة يدها بحناء أو أراد أحد أن يعمل فرحا لا بد من مال بقرير تأخذه الضامنة ومن فعل فرحا بأغان أو نفس امرأته من غير اذن الضامنة حل به بلاء لا يوصف . وأما ضمان القراريط فانه كان يؤخذ من كل من باع ملكا عن كل ألف درهم عشرون درهما وكان متحصل هاتين الجهتين مالا كثيرا جدا »[٢٢٠] .

ولا شك أن هذا يعني أن الحكومة تشجع بطريق غير مباشر تعاطي البغاء بواسطة تعيين ضامنة تجمع الضرائب لصالح الحكومة من عمل البغاية حيث أن الحكومة بعد أخذ الضريبة تكفل لتلك المرأة فرصة تعاطي هذه المهنة الشائنة الأمر الذي يتعارض مع مبادىء الشريعة الحنيفة ، فعمل القضاة جاهدين للحيلولة دون استمرار ذلك ونجحوا في تحقيق مبتغاهم حينما أصدر الأشرف شعبان مرسوما بهذا المنع .

ولكن يبدو أن بعض كبار الأمراء المماليك كانوا يستفعون من وراء هذه المكوس والضرائب ، وعز عليهم أن يبطل السلطان ذلك فيحرموا من هذا المصدر المالي المنتظم ، ولذا اجتهدوا من أجل اعادة العمل بهذا الحقل لهدف الفائدة المادة من الضرائب المتحصلة منه ، وفي هذا الموضوع يقول ابن حجر :

« كان ابن آقبغا آص تكلم في اعادة ضمان المغاني ، فبلغ ذلك برهان الدين ابن جماعة فغضب ، وامتنع من الحكم فتكلم الشيخ سراج الدين البلقيني وغيره مع السلطان في ذلك فأنكره السلطان وأمر بابطال ذلك من مصر وقبض بعد مدة يسيرة على ابن آقبغا آص ونفي الى الشام وصودر ، وكان ضمان المغاني من القبائح الشنيعة ما كان أحد يقدر يعمل عرسا حتى يغرم قدر عشرين الى ثلاثين مثقالا ذهبا وكانوابمصر والقاهرة لاتغيب مغنية عن بيتها ولو الى زيارة أهلها الا أن أخذ الضامن منها رشوة . وأما بلاد الريف فكان للمغاني حارة مفردة يعمل فيها من الفساد جهرا ما يقبح ذكره ، ومن اجتاز بها غلطا ألزم أن يزني بخاطئة ، فان لم يفعل فدى نفسه بشيء ، وأبطل الأشرف أيضا ضمان القراريط وكان مكسا يؤخذ من كل من باع دارا ولو تكرر بيعها في الشهر الواحد مرارا لا بد ان يأخذ الضامن على ذلك مكسا معلوما ، ولا يستطيع أحد من الشهود أن يكتب خطه في مكتوب دار حتى يرى الختم في المكتوب » .[٢٢١]

ومن جانب آخر يذكر المقريزي :

« في سنة ٧٧٨هـ /١٣٧٦م عزم الأمير ناصر الدين محمد بن آقبغا آص على اعادة ضمان المغاني فغضب من ذلك قاضي القضاة برهان الدين ابراهيم بن جماعة ، وامتنع من الحكم ، وحضور دار العدل ، فاستدعاه السلطان وسأله عن امتناعه من الحكم ، فقال : « بلغني أن ضمان المغاني أعيد وهذا يوجب الفسق » . فحلف له السلطان أنه ما أمر باعادته ، ولا عنده منه علم ، وبعث الى ابن آقبغا آص يعلمه بذلك ، فاعتذر بعذر غير طائل ، فرسم بابطاله ، وكتب بذلك تواقيع قرئت على الناس وسيرت الى النواحي ، فبطل ذلك ولم يعد » .[٢٢٢]

وهكذا يظهر واضحا أنه كان بامكان كبار الأمراء المماليك أن يتلاعبوا بالقوانين السلطانية ، الا أن القضاة ادوا للمجتمع المملوكي خدمة كبيرة في سد هذه الثغرة ، فوقفوا ضد تطاول الامراء على السلطة التشريعية والتنفيذية التي تعتبر من أخص حقوق السلطان . كما اجتهدوا في مساندة السلطان ودعمه للحد من تطلعات هؤلاء الأمراء في الاستفادة من ضعفه وقلة حيلته . وقد استطاع أولئك القضاة بجهودهم المستمرة في حقول العلاقات

(٢١٩) انباء ، جـ ١ ، ص ٧٣ ، انظر كذلك السلوك ، جـ ٣ ، ص ٢١٧ ؛ بدائع ، جـ ١ ، ص ٢٢٠ .

(٢٢٠) الخطط ، جـ ١ ، ص ١٠٦ .

(٢٢١) انباء ، جـ ١ ، ص ١٩١ ـ ١٩٢ ؛ انظر كذلك السلوك ، جـ ٣ ، ص ٢٦٦ ـ ٢٦٧ .

(٢٢٢) السلوك ، جـ ٣ ، ص ٢٦٨ .

الانسانية في المجتمع المملوكي أن يحققوا نصرا كبيرا في سبيل خدمة الرعية وحمايتها من جشع الطبقة الأوليجاركية .

بالاضافة الى ذلك نلاحظ أنه :

« في يوم الاثنين ثاني عشره (جمادى الآخرة سنة ٧٧٨هـ/١٣٧٦م) قبض على الأمير ناصر الدين محمد ابن آقبغا آص الاستادار ، وأحيط بموجوده بمصر والشام ، وأمر بنفيه وولده الى طرطوس . فلم يزل الأمراء بالسلطان حتى رسم أن يستقر بالقدس بطالا فسار اليها من يومه ، ولحق به ابنه من الغد . هذا مع شدة تمكنه من السلطان ، وكثرة اختصاصه به ، حتى انه كان يقول لولده في الملأ انا ادعاه « سيدي محمد » .[223]

ولعل نجد في ذلك دليلا على أن السلطان الأشرف شعبان بدأ يدرك أن أخصامه المحيطين به من الامراء لا يشيرون عليه الا بما يخدم منافعهم الشخصية دون النظر الى ما قد يجر اليه هذا الفعل أو ذلك المرسوم من ظلم وامتهان في حقوق الناس وكراماتهم ، بل انهم في كثير من الأحيان كانوا يستغلون وجودهم قريبا منه في البلاط سببا مشجعا لهم على فعل الكثير من الأعمال المنكرة من أجل المنفعة الخاصة ، الأمر الذي يحمل داخلها سوء سيرة الأشرف بين الرعية والتي كانت لاتدرك في أغلب الاحيان أن كثيرا من الامور تقع دون علم السلطان . ويرجع الفضل في ادراك السلطان ووعيه لما يقع حوله من أمور منكرة الى القضاة الذين اجتهدوا من أجل تنبيه السلطان الى ما يحدث حوله من أعمال يعاني منها الشعب الكثير من المذلة والمهانة الى جانب الخسائر المادية .

كذلك أبطل الأشرف شعبان المكس الذي يجمعه أمير مكة عجلان بن رميثة بن أبي نمي[224] من المأكولات « وعوض عن المكس الذي كان يأخذه من المأكولات بمكة بألف أردب قمح يحمل اليه من مصر » ، وقد استمر ذلك قائما حتى وفاة عجلان هذا عام ٧٧٧هـ/١٣٧٥م[225] .

أما بالنسبة للمجاعات والاوبئة في هذه الفترة فنلاحظ أن هذا العهد قد بلي بأزمات ومحن عديدة في هذا المجال حيث توالي وقوع ارتفاع الأسعار وانتشار الأوبئة والمجاعات التي ابتلى بها بوجه خاص الطبقات الدنيا في المجتمع . فبعد اعتلاء الأشرف شعبان كرسي الحكم بوقت قصير يذكر المؤرخ أبو المحاسن :

« ثم وقع الفناء في هذه السنة (٧٦٤هـ/١٣٦٢م) في البقر حتى هلك منها شيء كثير وأضر ذلك بحال الزراع » .[226]

ومن جانب آخر يشرح ابن العماد حال الوضع الاجتماعي لسلطنة المماليك في بداية هذا العهد فيقول :

« فيها (٧٦٤هـ/١٣٦٢م) اشتد الوباء والطاعون بالبلاد الشامية والمصرية »[227] كذلك من بين حوادث سنة ٧٦٦هـ/١٣٦٤م يقول أبو المحاسن : « ثم وقع الوباء بالديار المصرية حتى بلغت عدة الموتى في اليوم أكثر من ألف نفس ، وأقام نحو الأربعة اشهر وارتفع » .[228]

ولا شك أن هذا يدل على عدم التفات الجهاز الحاكم لما يحدث في البلاد من أزمات ومصائب حيث يجب اتخاذ الاحتياجات اللازمة للحيلولة دون وقوع مثل هذه المحن وتكرارها . بالاضافة الى أننا نلاحظ اهمالا كبيراً في الوقاية والرعاية الصحية بدليل انتشار الأوبئة وتفشيها بشكل كبير حيث يذكر المقريزي أنه :

في سنة ٧٧٢هـ/١٣٧٠م « وكان الوقت خريفا كثرت الأمراض في الناس بالقاهرة ، والوجه البحري ، وتجاوز عدد الأموات بالقاهرة ثمانين في كل يوم » .[229]

وفي الحقيقة لا بدلنا أن نتوقع حدوث ذلك نتيجة لعدم الاستقرار السياسي الذي كانت تشهده السلطنة في هذا العهد الى جانب اضطراب الأحوال الاجتماعية واهمال كبار المسئولين من الأمراء لواجبات وظائفهم .

ولم يقتصر هذا الوضع السيء على مصر بل امتد أيضا فشمل الشام حيث يقول ابن حجر :

« وفيها (٧٧٤هـ/١٣٧٢م) كان الوباء بدمشق فدام قدر ستة أشهر ، وبلغ العدد في كل يوم مائتي نفر . وفي ربيع الأول الموافق لتشرين الأول زادت الانهار بدمشق فسدت أبوابها فانكسر بعضها

(٢٢٣) السلوك ، جـ ٣ ، ص ٢٤٨ .
(٢٢٤) انظر ترجمته ، الدرر ، جـ ٣ ، ص ٩٨ .
(٢٢٥) البداية ، جـ ٦ ، ص ١٧١ ـ ١٧٢ .
(٢٢٦) النجوم ، جـ ١١ ، ص ٢٩ .
(٢٢٧) شذرات ، جـ ٦ ، ص ٢٠٠ .
(٢٢٨) النجوم ، جـ ١١ ، ص ٤٩ .
(٢٢٩) السلوك ، جـ ٣ ، ص ١٩٠ .

فانقلب على نهر بردى فتلف بسبب ذلك شيء كثير وبطلت طواحين كثيرة وحمامات ». (٣٣٠) كذلك يقول المقريزي :

« وفيها (٧٧٤هـ /١٣٧٢م) فشت الطواعين ببلاد الشام مدة ستة أشهر ». (٣٣١)

كما يقول المقريزي :

« وقدم الخبر بغلاء الأسعار بمكة ، حتى بيعت الغرارة القمح - وهي مائة قدم مصري - بأربعمائة درهم وثمانين درهما . وعز وجود الأقوات بها فهلك جماعة كثيرة جوعا ، ونزح أكثر أهلها عنها ، فجهز الأمير يلبغا الاتابك في جمادى الأول الى مكة ألفي أردب قمحا ، وواصل الارسال حتى حمل من مصر اليها اثني عشر ألف أردب ، فرقت كلها في الناس ، فعم النفع بها ». (٣٣٢)

لا شك ان في هذه الواقعة دلالة على تقلب سعر الغلال في الاقاليم المملوكية مما كان يهدد اهل هذه المناطق بالموت جوعا ، في حين توفر بيد الامراء المماليك الاوليجاركية كميات هائلة من الغلال والحبوب برهاناً على سوء تصرف الساسة اصحاب السلطة حيث تمتعوا بكل شيء من اجل الرفاهية في العيش ، في الوقت الذي كانت فيه الرعية تعاني الهلاك من الجوع نتيجة الاهمال والطمع وسوء الادارة .

ومن ثم يظهر اسهام يلبغا في مدّ العون لأهل مكة فيرسل اليهم « ألفي أردب قمحا ، وواصل الارسال حتى حمل من مصر اليها اثنى عشر ألف أردب ». (٣٣٣)

ومع ذلك اما كان من الأجدى له أن يحول منذ البداية دون وقوع ذلك الارتفاع في الأسعار حيث هلك « جماعة كثيرة جوعا »(٣٣٤) خاصة وأنه صاحب الكلمة الأولى في السلطنة المملوكية . ولكن رغم كل ذلك لا يسعنا الا الاشارة الى أن قيام يلبغا بهذا العمل دليل على أن السلطنة المملوكية بجميع أقاليمها كانت وحدة متكاملة تتشارك أجزاؤها في المنفعة بما يحول دون وقوع الضرر .

وفي بعض الأحيان ارتبط وقوع الوباء بارتفاع الأسعار والغلاء الفاحش فيعاني عامة الناس الجوع والمرض في حين تشهد الطبقات العليا من كبار الأمراء المماليك الأوليجاركية صراعها السياسي المعهود حيث تكون النتيجة الطبيعية لذلك اهمالاً لشئون المجتمع الاقتصادية والصحية فينال الناس بلاء عظيما .(٣٣٥)

وهذا يدل على أن النشاط الاقتصادي والتجاري كان في حالة تجمد وتشنج نتيجة لعدم الاستقرار السياسي في المجتمع المملوكي في أغلب سنوات هذا العهد الأمر الذي أدى الى البطالة والكساد حيث لا يجد العامل المال الكافي لغذائه . وكثيرا ما أعقب ذلك ، بسبب ندرة الغذاء ، انتشار الأوبئة بين طبقات الشعب بشكل كبير حيث تكثر أعداد الموتى في الطرقات ، ولا تجد جثث المسلمين من لديه المال الكافي للتكفين والدفن مما جعل الحال الصحي في أقصى درجة من السوء والاهمال حيث يقول المقريزي :

« وفي آخره (ذي القعدة سنة ٧٧٦هـ /١٣٧٤م) فشت الأمراض في الناس بالطاعون ، وقل وجود الأموات المطرحاء ، وبيع الأردب الشعير من عشرين درهما الى ستة وعشرين درهما ». (٣٣٦)

وهذا يبين الارتباط المتلازم في تغير طبيعة الأحوال الداخلية في مصر والشام فما أن يطرأ أي تغير في أحوال مصر حتى يسرى ذلك على الأوضاع في بلاد الشام ، وهذا أمر طبيعي بسبب خضوع كلا البلدين لحكم واحد تشمل آثاره مختلف الأقاليم السلطانية(٣٣٧) دون تمييز أو اختلاف . واذا حدث وقوع الاختلاف فان هذا يعود دون شك الى شخصية نائب بلاد الشام وما يمكن أن يقوم به من واجبات حيال الأوضاع الداخلية هناك .

ويظهر أن وقوع الأوبئة قد قل في أواخر عهد الأشرف شعبان وان استمر الاهمال في الشئون الصحية حيث يقول المقريزي ضمن حوادث الشهور الأخيرة من حكم الأشرف شعبان :

« وفي هذا الشهر (جمادى الآخرة سنة ٧٧٨هـ/١٣٧٦م) بدت الأمراض بالحميات في الناس ، واستمرت الى آخر شعبان فمات خلق كثير ». (٣٣٨)

كذلك نلاحظ كثرة عدد المرات التي يحدث فيها ارتفاع كبير في

(٣٣٠) البداية ، جـ ١ ، ص ٣٧ .

(٣٣١) السلوك ، جـ ٣ ، ص ٢٠٢ ، انظر كذلك ، شذرات ، جـ ٢ ، ص ٢٣٠ .

(٣٣٢) السلوك ، جـ ٣ ، ص ٩٧ .

(٣٣٣) السلوك ، جـ ٣ ، ص ٩٧ .

(٣٣٤) السلوك ، جـ ٣ ، ص ٩٧ .

(٣٣٥) السلوك ، جـ ٣ ، ص ٢٢٣ - ٢٢٤ ، انظر كذلك النجوم ، جـ ١١ ، ص ٦٦ - ٦٨ .

(٣٣٦) السلوك ، جـ ٣ ، ص ٢٣٩ .

(٣٣٧) شذرات ، جـ ٦ ، ص ٢٠٧ .

(٣٣٨) السلوك ، جـ ٣ ، ص ٢٦٨ .

الأسعار حيث يتعسر على متوسطي الحال الحصول على الغذاء اليومي . وقد كان لتدهور الوضع السياسي ابان هذا العهد اثر بالغ على عدم استقرار أسعار الغذاء ، والتقلب المستمر في أسعار مختلف السلع الضرورية للحياة اليومية ، ومن ثم فاننا نجد أنفسنا أمام سلسلة طويلة من الأزمات الاجتماعية الناتجة عن ارتفاع الأسعار .

علاوة على ذلك كان لزيادة مياه النيل عن المعدل أثر كبير على عدم الاستقرار في الأسعار ، كما كان عدم وفرع الفيضان في موعده سببا في ارتفاع الأسعار مما كان يثير الفزع بين طبقات الشعب خاصة العامة منهم .

ولعل أصدق مثال على ما نقول هو ما يذكره ابن حجر : « وفيها (٧٧٣هـ /١٣٧١م) زاد النيل زيادة مفرطة وثبت الى أيام من هاتور فاجتمع جماعة بالجامع الازهر وبجامع عمرو وسألوا الله تعالى في هبوطه وكرروا ذلك فهبط وزرع الناس » .(٢٣٩)

وهذا يدل على عدم الاهتمام بانشاء القنوات الثابتة للتخفيف من ضغط المياه الزائدة وقت فيضان النيل ، وعدم تعمير الترع والسواقي على ضفتي النيل لتسهيل مجرى المياه الفائضة مما يدل على وجود تلاعب في أموال الدولة دون الادراك بضرورة صرفها على الانشاءات اللازمة من أجل النفع العام .

ومن جانب آخر نلاحظ انه في عام ٧٧٥هـ /١٣٧٣م « توقف النيل عن الزيادة وأبطأ الوفاء إلى أن دخل توت أول السنة القبطية ، . . . . . . واستمر التوقف الى تاسع توت فاجتمع العلماء والصلحاء بجامع عمرو بن العاص واستسقوا وكسر ذلك اليوم الخليج عن نقص أربعة اصابع من العادة ، ثم توجهوا الى الآثار وأخذوها الى المقياس فأقاموا من قبل العصر الى آخر النهار يتوسلون الى الله تعالى ويبتهلون ويستسقون ، فلم يزدد الأمر الا شدة ، ثم نودي بصيام ثلاثة أيام ، وخرجوا في ثالث ربيع الآخر الى الصحراء مشاة ، وحضر غالب الأعيان ومعظم العوام وصبيان المكاتب ونصب المنبر فخطب عليه شهاب الدين ابن القسطلاني خطيب جامع عمرو وصلى صلاة الاستسقاء ودعا وابتهل وكشف رأسه ، واستغاث الناس وتضرعوا ، وكان يوما مشهودا .

وابتدأت زيادة الاسعار في الغلال والحبوب من شهر ربيع الاول وعلم جرا الى أن بلغ سعر الأردب خمسين درهما تقدر بدينارين هرجة ونصف وثلث ، ثم تزايد الى الستين والسبعين وهذا في ذلك الوقت نحو أربعة دنانير » .(٢٤٠)

وهكذا كان كل من زيادة مياه النيل عن الحد المعقول وقت الفيضان ، وعدم حدوث الزيادة المتوقعة من ناحية أخرى سببا في زيادة الأسعار خاصة المواد الغذائية مما كان يثير الفزع والانزعاج بين الناس ، بل وتفاقم نقمتهم ويقع اللوم على السلطان .

« وفيها (٧٧٥هـ/١٣٧٣ م) لازم شخص من العوام الصياح تحت القلعة : اقتلوا سلطانكم ترخص أسعاركم فأخذ وضرب بالمقارع وشهر » .(٢٤١)

ولكننا نعلم من دراستنا المفحصة هذه أن السلطان لم يكن له يد فيما يقع من حوادث أو تغير في شئون البلاد ، وأن السلطة كلها كانت بيد الأتابك الى جانب طائفة كبار الأمراء الأوليجاركية حيث كان السلطان مجرد صورة شرعية للوضع السياسي لا تتجاوز حقوقه اطار الرسميات والحكم الاسمي ، في حين مارس أولئك الأمراء مختلف فعاليات الحكم والنفوذ .(٢٤٢)

« ليلة السبت ثاني عشرة (ربيع الآخر ٧٧٥هـ/١٣٧٣ م) أرعدت السماء وأبرقت ، وسحت بأمطار غزيرة ، عمت كثيرا من أراضي مصر بحيث زرع بعضها أريا من هذه المطرة البرسيم ، فسر الناس بذلك وانحل سعر القمح خمسة دراهم الاردب ، وكان قد بلغ أربعين درهما » .(٢٤٣)

ولكن ذلك لم يطل اذ « أخذ سعر الغلال يرتفع وفي خامس عشر جمادى الاولى - وهو سابع هاتور - زاد النيل اثنى عشر أصبعا ، وفي الغد ، وبعد الغد ثماني أصابع ، ثم نقص ، ولم يعهد مثل ذلك » .(٢٤٤)

واستمرت الأسعار تتزايد حتى « بلغ سعر الأردب القمح الى

---

(٢٣٩) انباء ، جـ١ ، ص٥٠ ، انظر كذلك السلوك ، جـ٣ ، ص ١٩٥ .

(٢٤٠) انباء ، جـ١ ، ص٧٦ - ٧٧ .

(٢٤١) انباء ، جـ١ ، ص٧٩ .

(٢٤٢) السلوك ، جـ٣ ، ص٢١٨ - ٢١٩ .

(٢٤٣) السلوك ، جـ٣ ، ص٢٦٠ .

(٢٤٤) السلوك ، جـ٣ ، ص٢٦٠ .

خمسين درهما ، والأردب من الشعير والفول الى خمسة وعشرين درهما ، والحملة الدقيق - وهى ثلاثمائة رطل الى أربعة وثمانين درهما » . (٢٤٥)

ومع حلول ذى الحجة سنة ٧٧٥ هـ/١٣٧٣ م كما يقول المقريزى : « تزايد سعر الغلة ، فبيع الخبز أربعة أرطال بدرهم ، بعدما كان خمسة أرطال . وفى ثالث عشر ذى الحجة قبض على رجل مغربي كان يقف فى النيل تحت القلعة ويصيح : اقتلوا سلطانكم ترخص أسعاركم ويجرى نيلكم ، فضربه والى القاهرة بالمقارع وتركه لحاله » . (٢٤٦)

واذا ما أدركنا ان كل ما فعله السلطان كان لا يعدو أكثر من حل سطحى للتخفيف من معاناة الرعية ، فاننا لا نعجب اذا ما استمر حدوث تلك المحنة فى ألتالية حيث يقول ابن حجر :

« فيها (٧٧٦ هـ/١٣٧٤ م) طلع النيل على عادته وأوفى فى ربيع الاول رابع عشرى مسرى ، واستهلت والغلاء قد تزايد جدا الى أن بلغ الأردب بمائة وعشرة ثم بلغ فى شعبان مائة وخمسة وعشرين ، وقيمتها بالذهب اذ ذاك خمسة مثاقيل وربع ، وبيع اذ ذاك دجاجة واحدة بأربعة دراهم ، وصار أكثر الناس لا يقدر الا على النخالة كل قرص أسود بنصف درهم وأكل الفقراء النشع والطين ، وكادت الدواب أن تعدم لكثرة الموت بها ، وأكلوا الميتات ، وأمر السلطان بفرقة الفقراء على الأغنياء فكان على الأمير المقدم على الألف مائة فقير ، وعلى كل أمير بعدد مماليكه ذلك ، وعلى الدواوين كل واحد بحسبه ، وعلى التجار كذلك ، ونودى فى البلد بأن من سأل فى الأسواق صلب ، ومن تصدق عليه ضرب .

وفيها عقب الغلاء وزيادة النيل وتكامل الزرع وقع الفناء فتزايد فى الفقراء لا سيما لما دخل البرد . وزاد ذلك الى أن بلغ فى اليوم من العشرين مائتى نفس ومن الطرحاء نحو خمسمائة ، ثم بلغوا الى نحو الألف ، وتصدى الأمير ناصر الدين ابن اقبغا اص والأمير سودون الشيخونى لدفن الطرحاء من أموالهما . (٢٤٧)

كذلك بلغ سعر مكيال الشعير مائة درهم . (٢٤٨) كما « وقع الغلاء بحلب وأعمالها كنحو ما وقع بمصر » (٢٤٩) بالاضافة الى أن الطاعون كان « فاشيا بدمشق من رمضان السنة الماضية ، فتزايد فى المحرم الى أن بلغ خمسمائة ثم تناقص بعد ذلك ، ومات فيه جماعة من الأعيان » . (٢٥٠)

وهكذا شهدت مصر وبلاد الشام أزمة كبيرة نتيجة لنقص الغذاء ، وارتفاع الأسعار ، وانتشار الوباء . (٢٥١)

ومع مرور الوقت تزايدت مرارة الأزمة حيث شهدت الشهور التالية ارتفاعا هائلا فى الأسعار ، ولكن يلفت نظرنا الدور الذى قام به الأشرف شعبان لمعالجة هذه الأزمة حيث يقول المقريزى :

« وفى شهرى رجب وشعبان (٧٧٦ هـ/١٣٧٤ م) اشتد الغلاء ، فبلغ الأردب القمح مائة وخمسة وعشرين درهما والأردب الشعير تسعين درهما ، والأردب الفول ثمانين درهما ، والبطة الدقيق زنة خمسين رطلا بأربعة وثلاثين درهما ، وشنع الموت فى الفقراء من شدة البرد والجوع والعرى ، وهم يستغيثون فلا يغاثون ، وأكل أكثر الناس خبز الفول والنخال ، عجزا عن خبز القمح . وبلغ الخبز الأسود كل رطل ونصف بدرهم وكثر خطف الفقراء له ، ما قدروا عليه من أيدى الناس . ورمى طين بالسجن لعمارة حائط به ، فأكله المسجونون من شدة جوعهم . وعز وجود الدواب لموتها جوعا .

وفى رابع عشرين شعبان انتدب الأمير منجك نائب السلطان لفرقة الفقراء على الأمراء وغيرهم ، فجمع أهل الحاجة والمسكنة ، وبعث الى كل أمير من امراء الألوف مائة فقير ، والى من عدا أمراء الألوف على قدر حاله ، وفرق على الدواوين والتجار وأرباب الأموال كل واحد عددا من الفقراء . ثم نودى فى القاهرة ومصر بأن لا يتصدق أحد على حرفوش وأى حرفوش شحذ صلب . فآوى كل أحد فقراءه فى مكان ، وقدم لهم من الغذاء بما يسد رمقهم على قدر همته وسماح نفسه ، ومنعهم من التطواف لسؤال الناس . فخفت تلك الشناعات التى كانت بين الناس ، الا أن الموت عظم ، حتى كان يموت فى كل يوم من الطرحاء على الطرقات ما يزيد على خمسمائة نفر ، ويطلق من ديوان المواريث ما

(٢٤٥) السلوك ، جـ٣ ، ص٢٢١ .
(٢٤٦) السلوك ، جـ٣ ، ص٢٢١ ، انظر كذلك بدائع ، جـ١ ، ص٢٢٩ .
(٢٤٧) انباء ، جـ١ ، ص٩٢-٩٣ .
(٢٤٨) انباء ، جـ١ ، ص٩٩-١٠٠ .
(٢٤٩) انباء ، جـ١ ، ص١٠٠ .
(٢٥٠) انباء ، جـ١ ، ص١٠٠ .
(٢٥١) السلوك ، جـ٣ ، ص٢٢١-٢٢٦ .

ينيف على مائتى نفس . وتزايد فى شهر رمضان مرض الناس وموتهم ، ونفدت الأقوات واشتد الأمر ، فبلغت عدة من يرد اسمه للديوان فى كل يوم خمسمائة ، وبلغت عدة الطرحاء زيادة على خمسمائة طريح . فقام بمواراة الطرحاء الأمير ناصر الدين محمد بن الأمير أقبغا آص ، والأمير سودن الشيخونى ، وغيرهما . وكان من أتى بميت طريح أعطوه درهما ، فأتاهم الناس بالأموات ، فقاموا بتغسيلهم وتكفينهم ودفنهم أحسن قيام ، بعدما شاهد الناس الكلاب تأكل الموتى من الطرحاء . (٢٥٢)

وفى الحقيقة اننا لا ندهش عندما نقرأ عن هذا الدور الايجابى الذى لعبه السلطان الأشرف شعبان فى سبيل مد يد المساعدة الى رعيته فى تلك الأيام العصيبة ، ولعل سبب عدم دهشتنا أن ذلك وقع أيام أتابكية منجك اليوسفى الذى عرف بالأخلاق الفاضلة ، والسمعة الطيبة ، فبذل جهودا كبيرة من أجل التخفيف من وقع هذه الأزمة على مختلف الطبقات وبوجه خاص الطوائف الفقيرة التى كانت عاجزة عن ايجاد ما يسد الرمق . وقد نجح فى أن يحمل الأغنياء والمقتدرين على قدر المساواة فى المساهمة للتخفيف من نتائج هذه المحنة الشاملة ، حيث أصبح كل واحد منهم مسئولا عن رعاية عدد من المعدمين والفقراء كى لا يقعوا فريسة سهلة للجوع والمرض والوفاة وفى هذا تحقيق لهدف الشريعة الاسلامية فى المشاركة الجماعية لدفع وقوع البلاء ، وحق الفقير فى مال الغنى خاصة فى وقت الشدة والحرج .

كما يشير المقريزى الى حدوث مثل ذلك فى بقية الأقاليم المملوكية فيقول : « وقدم البريد بغلاء الأسعار بحلب ، حتى بيع المكوك القمح بمائة وخمسين درهما » (٢٥٣) ولكن الأزمة انفرجت بعد أشهر وقبيل انتهاء السنة اذ انخفضت الأسعار وتوفر الغذاء فى الأسواق بأسعار معتدلة . (٢٥٤)

وهكذا تكاتفت العناصر على تخفيف وقع تلك الأزمة على الناس ، فتم بناء على الأوامر السلطانية توزيع الفقراء على الأغنياء كل حسب منزلته وثرائه ، كما وصلت تراويج القمح الجديد فأدى ذلك الى انخفاض الأسعار . بالاضافة الى الدور الكبير الذى قام به ناظر الحسبة شمس الدين محمد الدميرى من تحديد سعر الخبز وفرض رقابة صارمة على الطحانين والمخابز والأفران ، وان ظل طمع التجار عقبة فى سبيل تطبيق أوامر المحتسب بحيث كان عدم التعاون بين فئات المجتمع المملوكي هو احدى العقبات التى أثرت من طبيعة الاستقرار الاجتماعى فى الأقاليم المملوكية من ذلك قول المقريزى :

« وفى رابع ذى الحجة (٧٧٦ هـ/١٣٧٤ م) قطع الدميرى المحتسب سعر الخبز لثمانية أرطال بدرهم ، وقد كان خمسة أرطال وثلث بدرهم ، فامتنع الطحانون أن يشتروا القمح الا بثمانية عشر درهما ، فأبى تجار الغلال الجلابة بيع القمح بهذا ، وعادوا بمراكب الغلال من حيث أتوا فعز وجود القمح وبلغ أربعة وثلاثين درهما الأردب ، وتعذر وجود الخبز فى الأسواق عدة أيام ، وبيع أقل من ستة أرطال بدرهم » . (٢٥٥)

ولكن ما أن خفت الأزمة فى مصر ، ولمكن الوصول الى حلول ناجعة للحيلولة دون انتشارها حتى وصلت الأنباء بوقوع « الغلاء العظيم بدمشق » (٢٥٦) ، بل لقد استفحلت المصيبة « حتى أكلوا الميتة والقطاط والكلاب ، وباع كثير من المقلين أولادهم ، والفقر على كثير » . (٢٥٧)

ويثبت المقريزى حدوث هذه المحنة فى بلاد الشام فيقول :

« وقدم فى الحجة ٧٧٧ هـ/١٣٧٥ م) البريد بغلاء الأسعار بدمشق ، وأن الغرارة القمح بلغت نحو خمسمائة درهم ، وبيع الخبز بحلب كل رطل حلبى بستة دراهم والمكوك القمح بثلاثمائة درهم ونيف . وأكلت الميتات والكلاب والقطاط . ومات خلق كثير من المساكين . وانكشف عدة من الأغنياء وعم الغلاء بلاد الشام كلها ، حتى أكلت القطاط وبيعت الأولاد بحلب وأعمالها » (٢٥٨)

وفى الحقيقة لم يقتصر وقوع تلك الأزمات الخاصة بالغلاء والمرض بين الناس داخل الأقاليم المملوكية فحسب ، وانما كان يحدث أن يتعرض الحجاج وهم فى طريق الحج الى مثل تلك المحن

(٢٥٢) السلوك ، جـ٣ ، ص٢٢٥ - ٢٢٦ . انظر كذلك ، بدائع ، جـ١ ، ص٢٢٩ .

(٢٥٣) السلوك ، جـ٣ ، ص٢٢٨ ، انظر كذلك ، النجوم ، جـ١١ ، ص٦٥

(٢٥٤) السلوك ، جـ٣ ، ص٢٢٩ ، ٢٣٢ ، ٢٣٧ .

(٢٥٥) السلوك ، جـ٣ ، ص٢٣٩

(٢٥٦) انباء ، جـ١ ، ص١٥٤ .

(٢٥٧) انباء ، جـ١ ، ص١٥٤ ، انظر كذلك ، ص١٥٥ ، النجوم ، جـ١١ ، ص١٣٦ ، الشذرات ، جـ٦ ، ص٢٥٠

(٢٥٨) السلوك ، جـ٣ ، ص٢٥٩ .

وارتفاع الأسعار وتفشي المرض . ويشير ابن حجر الى « نهب الحاج المصري في رجوعهم »[٣٥٩] من الحج عام ٧٧٧ هـ/١٣٧٥ م . بالاضافة الى ذلك :

« جرى للحاج الشامي أشد مما جرى للمصري ، فانهم جاءهم سيل بخليص تلف منهم بسببه شيء كثير ، وفي الرجعة هبت عليهم ريح عاصف ، ثم اشتد عليهم الغلاء في الطريق حتى بيعت الغرارة الشعير بمائة درهم »[٣٦٠]

ومن ناحية أخرى يذكر المقريزي :

« وفي هذا الشهر (ربيع الآخر سنة ٧٧٧هـ/١٣٧٥ م) ارتفع سعر اللحم ، فبيع الرطل من لحم الضأن بدرهم ونصف ، والرطل من لحم البقر بدرهم وثمن » . [٣٦١]

كذلك من الأسباب التي كانت تؤدي الى ارتفاع الأسعار عدم استتباب الأمن في الطرق التجارية ، وكثرة قطاع الطرق ، فيتم الاستيلاء على مختلف أنواع البضائع حيث يندر وجودها في السوق مما يزيد في ارتفاع أسعارها . وهذا دليل على اهمال السلطة في ملاحقة وتأديب هذه الجماعات الاقطاعية اذ يقول المقريزي :

« قدم الخبر بكثرة فساد أولاد الكنز ، وطائفة العكارمة بأسوان ، وسواكن وأنهم منعوا التجار ، وغيرهم من السفر ، لقطعهم الطريق ، وأخذهم أموال الناس . وأن أولاد الكنز قد غلبوا على ثغر أسوان ، وصحراء عيذاب وبرية الواحات الداخلية ، وصاهروا ملوك النوبة ، وأمراء العكارمة ، واشتدت شوكتهم » . [٣٦٢]

من دراستنا لأحوال هذه الحقبة يمكننا أن نصل الى بعض العناصر المؤثرة في ارتفاع أسعار :

١ ـ زيادة النيل في وقت الفيضان كان لها أثر فعال في عدم استقرار الأسعار اذ حينما لا يصل فيضان النيل الى الزيادة المطلوبة لتوفير الماء للزراعة فان ذلك يعني ارتفاعا في سعر الغلال . [٣٦٣]

٢ ـ وقوع الوباء بين المواشي والأغنام كان يؤدي بالحتم الى زيادة سعر الغلال . [٣٦٤]

٣ ـ انتشار الجراد والقضاء على المزروعات في أي اقليم من أقاليم سلطنة المماليك كان على الدوام سببا رئيسيا من أسباب ارتفاع أسعار الغلال والحبوب . [٣٦٥]

٤ ـ تفشي الطواعين والأمراض الحادة بين الناس كان ينتج عنه دائما ارتفاع في سعر الغذاء[٣٦٦] .

٥ ـ طمع وجشع كبار الأمراء الأغنياء وحرصهم على تجميع الغلال والحبوب بحيث يعز وجودها في الأسواق فترتفع أسعارها ، ومن ثم يعمل هؤلاء على اخراجها بشكل قليل ومتقطع من أجل الربح الكبير ، وهذا هو السبب في أن المؤرخين المعاصرين دائما ما يشيرون الى بعض هؤلاء بعبارة « وانكشف عدة من الأغنياء » الذين كانوا دائما يظهرون الفقر ويدعون عدم الثراء ، فاذا حلت المصيبة تبين أنهم أثرياء بما يكفي عدم تضررهم .

٦ ـ كذلك جشع السلطان الأشرف شعبان [٣٦٧] وحبه الشديد لجمع المال ، في حين كان يجب عليه العناية بشئون البلاد الداخلية واصلاح المرافق العامة والمنشآت الاجتماعية ، وان كنا لا ننكر سلامة النية عند الأشرف ، ولكنه افتقر الى الأسباب التي توفر له فرصة العمل من أجل الصالح العام .

٧ ـ الاعتماد الكلي على مياه النيل وانتظار احتمال حدوث الفيضان ، وكذلك على المطر الذي قد لا ينزل . في حين أنه كان من الأجدى الاهتمام بانشاء الترع والجسور والبرك والقنوات المؤدية للأراضي الزراعية بحيث يمكن المحافظة على مياه النيل في أثناء حدوث الفيضان لمدة عام أو أكثر من أجل استخدامها على مدار السنة ، ولكننا نقرأ شيئا في كتابات المعاصرين عن الاهتمام بهذا الموضوع .

٨ ـ عدم وجود جهاز اداري قوي يعمل من أجل مصلحة البلاد ، فيتم توزيع الطحين بانتظام على الطحانين ، وتراقب

---

(٣٥٩) انباء ، جـ ١ ، ص ١٢٧ .

(٣٦٠) انباء ، جـ ١ ، ص ١٢٧ .

(٣٦١) السلوك ، جـ ٣ ، ص ٢٥٣ .

(٣٦٢) السلوك ، جـ ٣ ، ص ١٠٩ .

(٣٦٣) السلوك ، جـ ٣ ، ص ٨٥ .

(٣٦٤) السلوك ، جـ ٣ ، ص ٩١ .

(٣٦٥) السلوك ، جـ ٣ ، ص ٩٦ .

(٣٦٦) السلوك ، جـ ٣ ، ص ٩٦ .

(٣٦٧) السلوك ، جـ ٣ ، ص ٢٤١ .

الأفران من أجل بيع الخبز بالأسعار المحددة لكي يتمكن العامة والفقراء من الحصول على حاجتهم بسعر يقدرون على دفعه .

٩ ـ عدم كفاءة شخصية الأشرف شعبان بحيث لو كان على درجة من القوة والمهابة لعمل على منع الأمراء من تخزين الحبوب في الأجران وتقسيط بيعها بأسعار مرتفعة في حين كان المعدمون يموتون جوعا في الطرقات .

١٠ ـ تلاعب بعض رجال الحسبة مثل علاء الدين بن عرب الذي لم يهتم بمصلحة العامة وخدمتهم فطالبوا السلطان بعزله ، فخلع في عام ٧٧٥ هـ/١٣٧٣ م .

١١ ـ عدم وجود استراحات حكومية عامة على طول طريق الحج توفر للحجاج الغذاء والماء والحاجات الضرورية بأسعار معتدلة فلا يتعرضوا لارتفاع الأسعار وشح الطعام والعطش المميت ، ولكن يبدو أن البلاط السلطاني كان مشغولا بما يحاك فيه من مؤامرات سياسية تهدف الى خلع السلطان والاستحواذ المطلق على السلطة والحكم ، فكانت نتيجة ذلك أبعد ما يكون عن التفكير في تلك الشئون العامة المتعلقة بتوفير الرعاية اللازمة للرعية .

كل هذه العوامل تكاتفت على أن يشهد هذا العهد سلسلة طويلة من الأزمات والمحن المتعلقة بارتفاع الأسعار وقلة الغذاء في الأسواق ، وبالتالي انتشار الجوع والمرض الذي كثيرا ما يؤدي الى كثرة الوفيات ، في حين حظي كبار الأمراء المماليك بثروات طائلة وأموال وفيرة الى جانب كثرة ما تحت أيديهم من المماليك والحاشية .

ولعل هذا التفاوت الكبير في الحالة المالية يعود بالدرجة الأولى الى عدم قدرة السلطان الحاكم على الوصول الى نظام اقتصادي للبلاد يوفر للفرد من كافة الطبقات مختلف حاجاته الضرورية وبخاصة الغذاء بأسعار معتدلة .

أما فيما يتعلق بالوضع الاداري في سلطنة المماليك ، فنلاحظ حدوث بعض التغييرات الادارية مثل تحويل القدس من ولاية الى نيابة حيث يقول ابن حجر :

« وفيها (٧٧٧ هـ/١٣٧٥ م) استقر تمراز في نيابة القدس ، وهو أول من ولي نيابتها ، وكانت قبل ذلك يكون فيها والي من جهة والي الولاية بدمشق » .[٢٦٨]

كما كانت العلاقات ودية بين آل مهنا وسلطنة المماليك اذ يقول ابن اياس :

في عام ٧٦٧ هـ/١٣٦٥ م « حضر الى الأبواب الشريفة الأمير حيار بن[٢٦٩] امير آل فضل من عربان الشام فلما حضر أكرمه السلطان وخلع عليه واستقر به على عادته وكان له مدة طويلة وهو عاص فلم يؤاخذه السلطان وحلم عليه » .[٢٧٠]

اما فيما يختص بالعلاقات بين سلطنة المماليك وآل فضل فيذكر المقريزي انه في سنة ٧٧٠هـ/١٣٦٩م « اتفق ايضا ان بني كلاب[٢٧١] كثر فسادهم وقطعهم الطريق فيما بين حماة وحلب ، واخذوا بعض الحجاج . فخرج اليهم الامير قشتمر نائب حلب بالعسكر ، حتى النوال السلطان بظاهر حلب ، فاذا عدة من مضارب عرب آل فضل ، فاستاق العسكر جمالهم ومواشيهم ومالوا على بيوت العرب فنهبوها . فثارت العرب بهم وقاتلوهم ، واستنجدوا من قرب منهم من بني مهنا ، وأتاهم الامير حيار وولده نعير بجمع كبير ، فكانت معركة شنيعة ، قتل فيها الامير قشتمر النائب وولده وعدة من عسكره ، وانهزم باقيهم ، فركب العرب اقفيتهم فلم ينج منهم عريانا الا من شاء الله ، فكان ذلك وهنا في الدولة ، جره اليها طمع عساكرها »[٢٧٢] .

ونتيجة لذلك تجمدت العلاقات بين آل فضل وسلطنة المماليك مدة خمس سنوات حيث يبدو ان حيار امير آل فضل ندم على ما اقدم عليه نحو دولة المماليك ، ومن ثم قدم الى البلاط السلطاني يسأل عفو الاشرف شعبان اذ يقول ابن حجر :

« وفيها (٧٧٥هـ /١٣٧٣م) وصل حيار بن مهنا امير آل فضل الى باب السلطان طائعا ، فخلع عليه واستقر في امرة العرب وكان السلطان قد غضب عليه بسبب قشتمر بحلب قبل هذا التاريخ »[٢٧٣] .

---

(٢٦٨) انباء ، جـ ١ ، ص١٨٨ .

(٢٦٩) انظر ترجمته ، الدرر ، جـ ٢ ، ص٦٩ .

(٢٧٠) بدائع ، جـ ١ ، ص٢١٦ .

(٢٧١) بنو كلاب ، بطن من عامر بن صعصعة وكانت ديارهم في جهات الكبة الكبيرة ثم انتقلوا بعد ذلك الى الشام . السلوك ، جـ ٣ ، ص١٧٥ ، حاشية (١) .

(٢٧٢) السلوك ، جـ ٣ ، ص١٧٥ ، انظر كذلك ، بدائع ، جـ ١ ، ص٢٢١ .

(٢٧٣) انباء ، جـ ١ ، ص٧٨ .

ومن جانب آخر ارتبطت دولة المماليك في عهد الاشرف شعبان بعلاقات طيبة مع اليمن حيث حرص حكام اليمن على ارسال الهدايا الى البلاط السلطاني المملوكي توطيدا لعلاقات الصداقة مع دولة المماليك منذ ايام المجاهد علي بن داود[٢٧٤] الذي كان حريصا على تلك الرابطة الودية الى ان توفي عام ٧٦٧هـ /١٣٦٥م[٢٧٥].

ولما تسلطن ولده الافضل عباس استمر يبعث الرسل الى البلاط السلطاني اذ يقول المقريزي :

« وقدم وزير متملك اليمن بهدية من جملتها فيل »[٢٧٦] بالاضافة الى ذلك يذكر المقريزي :

« في يوم الخميس ثالث المحرم (٧٦٨هـ /١٣٦٦م) قدمت رسل الملك الافضل عباس بن المجاهد صاحب اليمن بهدية سنية على العادة ، وهم وزيره شرف الدين حسين بن علي الفارقي ، وامير آخوره ناصر الدين فوقفوا بين يدي السلطان وادوا رسالتهم ثم انزلوا في الميدان الكبير على شاطيء النيل ، وقدموا هدية مرسلهم في يوم السبت خامسه »[٢٧٧].

وهكذا ظلت العلاقات الطيبة قائمة بين الجانبين في ايام الافضل بن المجاهد مما يؤكد ان تلك الاسرة الحاكمة في اليمن كانت حريصة على استمرار الروابط الودية مع سلطنة المماليك اذ يقول ابن حجر :

« وفيها (٧٧٥هـ /١٣٧٣م) وصلت هدية صاحب اليمن الملك الافضل بن الملك المجاهد الى الديار المصرية صحبة ناصر الدين ابن الفارقي وغيره »[٢٧٨].

ويؤكد المقريزي حدوث ذلك فيقول :

« وفيه (عام ٧٧٥هـ /١٣٧٣م) قدم شرف الدين حسين الفارقي وزير صاحب اليمن بكتابه وصحبته امير آخوره ناصر الدين محمد ، ومعهما هدية سنية »[٢٧٩].

ومن ناحية اخرى نلاحظ ان دولة الاشرف شعبان قد حققت بعض الفتوحات العسكرية في الحدود الشمالية حيث تم ـ على سبيل المثال ـ فتح مدينة سيس التي كانت تحت حكم الارمن حلفاء الدول الصليبية ، ففتحها اشقتمر المارديني نائب حلب حيث يقول ابن حجر :

« وفيها (٧٧٦هـ / ١٣٧٤م) فتحت سيس ـ وكانت قد بقيت في يد الارمن النصارى ـ على يد اشقتمر المارديني[٢٨٠] نائب حلب ، وكان قد تجهز اليها بعسكر حلب فنازلها شهرين الى ان قلت عندهم الاقوات ، فنصب عليها المجانيق وقدم في القتال التركمان من جميع الاصناف الارج فيه والبورقية ، وكان الذي نصب المنجنيق يقال له : المعلم خليل الغساني ، وهو ممن اشتهر بالمعرفة فيه ، فأبلى فيهم فأحسوا بالبوار ، فطلب صاحبها تكفور الامان وسلم القلعة ، فعلت كلمة اهل التوحيد بتلك البقعة بعد دهر طويل ، وجهز اشقتمر فاكثروا . وفوض الاشرف نيابة سيس ليحقوب شاه ، وهو اول من حكم فيها من ملوك الترك ، ثم استقر عوضه في هذه السنة ايضا عبدالله ، »[٢٨١] واستقر نجم الدين ابن الشهيد كاتب السر بها ، ثم جعلت مملكة برأسها وسميت « الفتوحات الجاهانية » واضيفت اليها طرسوس واذنة واياس وغيرها واستقر في امرتها شرف الدين موسى بن محمد بن شهري[٢٨٢] واستقر بها »[٢٨٣].

ومن ثم بدأ تنظيم الجهاز الاداري حسب النمط الاسلامي المعروف اذ يقول المقريزي :

« في ثالث المحرم (٧٧٧هـ /١٣٧٥م) خلع على نجم الدين بن الشهيد موقع الدست واستقر كاتب السر بسيس »[٢٨٤].

كذلك يظهر لنا واضحا حرص دولة المماليك ابان هذا العهد على فتح جميع المدن والبلاد الواقعة في الحدود الشمالية ، ولعل ابلغ

---

(٢٧٤) انظر ترجمته ، الدرر ، جـ٣ ، ص١١٨ ـ ١٢٠ .
(٢٧٥) شذرات ، جـ٦ ، ص٢٠٩ .
(٢٧٦) السلوك ، جـ٣ ، ص١٢٣ .
(٢٧٧) السلوك ، جـ٣ ، ص١٢٧ .
(٢٧٨) انباء ، جـ١ ، ص٧٨ .
(٢٧٩) السلوك ، جـ٣ ، ص٢٢٦ .
(٢٨٠) انظر ترجمته ، الدرر ، جـ١ ، ص٤١٦ .
(٢٨١) انظر ترجمته ، الدرر ، جـ١ ، ص٤١٩ .
(٢٨٢) انظر ترجمته ، الدرر ، جـ٥ ، ص١٥١ ـ ١٥٢ .
(٢٨٣) انباء ، جـ١ ، ص٩٧ ـ ٩٩ . انظر كذلك السلوك ، جـ٣ ، ص٢٣٧ ـ ٢٣٨ ، النجوم ، جـ١١ ، ص٦٦ ، بدائع ، جـ١ ، ص٢٢٩ ـ ٢٣٠ .
(٢٨٤) السلوك ، جـ٣ ، ص٢٥٠ .

مثال على ما نقول ما يذكره المقريزي من انه « كتب الى الامير جرجي نائب حلب(٢٨٥) ان يسير لأخذ قلعة خرت برت من ديار بكر ، واخذ صاحبها خليل بن قراجا بن دلغادر(٢٨٦) مقدم التركمان ، فنازل قلعتها نحو اربعة اشهر ، وعاد بغير طائل ، لمنعتها وحصانتها ، ثم ان ابن دلغادر طلب الامان ، فأمن ، وقدم الى القاهرة »(٢٨٧) .

بالاضافة الى تلك الجهود يقول ابن حجر : « وفيها (٧٧٧هـ /١٣٧٥م) تسلم نواب السلطان سنجار واحضر صاحبها الى القاهرة واستناب السلطان بها حيدر بن يونس المعروف بابن العسكري »(٢٨٨) .

كذلك ربطت العلاقات الطيبة بين سلطنة المماليك ومدينة ماردين منذ بداية حكم الاشرف شعبان حيث توالى على حكم ماردين الملك الصالح بن المنصور غازي(٢٨٩) الذي توفي عام ٧٦٦هـ /١٣٦٤م(٢٩٠) ، ثم حكمها ابنه داود(٢٩١) الذي توفي عام ٧٧٨هـ -١٣٧٦م(٢٩٢) ، ثم في اواخر عهد الاشرف حكمها الظاهر عيسى بن داود الذي كان حريصا على طيب الروابط مع دولة المماليك(٢٩٣) .

كذلك يشير المقريزي من بين وقائع سنة ٧٦٧هـ / ١٣٦٥م الى حادثة تثير الكثير من التساؤلات ، اذ يقول :

« وفيها حدثت وحشة بين السلطان اويس متملك بغداد وتوريز »(٢٩٤) وبين نائبه ببغداد ، خواجا مرجان ، فعصى عليه مرجان ، وخطب ببغداد للسلطان الملك الاشرف ، وبعث رسله بذلك فقدموا في اوائل جمادى الأولى ، ومعهم كتابه بأنه قد خلع اويس ، واقام الخطبة ، وضرب السكة باسم السلطان الاشرف ، واخذ له البيعة على الناس ببغداد ، وعزم على محاربة اويس وانه نائب السلطان ببغداد ، ان نصره الله عليه وان تكن الاخرى ، قدم الى ابواب السلطان فاكرمت رسله ، وجهز له تشريف جليل واعلام خليفتيه واعلام سلطانية ، وكتب له تقليد بنيابة بغداد ، وجهز ايضا عدة خلع لأمرائه واكابر دولته ، وخلع على رسله ، واعيد »(٢٩٥) .

وعلى ذلك يمكننا ان نستنبط ان الحكم المغولي في بغداد قد ضعف ايام سلطنة اويس بن حسين بن حسن بن آقبغا المغولي الذي تسلطن سنة ٧٦٠هـ /١٣٥٨م(٢٩٦) مما حدا بنائبه في بغداد الى الاستقلال عنه . الا انه يبدو ان خواجا مرجان كان متخوفا بعض الشيء من حركته الاستقلالية الانفصالية هذه ، فاظهر الولاء لسلطنة المماليك والاشرف شعبان ، وبعث رسله الى البلاط السلطاني في القاهرة ، في حين خطب في مساجد بغداد للاشرف شعبان وسكت النقود باسمه . بينما من ناحية اخرى رحب اصحاب السلطة المماليك برسل خواجا مرجان واكرموهم ، وكتب للنائب المنفصل اقرار سلطاني مملوكي بنيابة بغداد ، بالاضافة الى عدد من الخلع لكبار رجال دولته ونجد انفسنا ندهش في الحقيقة لما يجري ، ولكن في ضوء طبيعة الوضع السياسي لسلطنة المماليك في هذه الفترة (٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م) يمكن القول بأن ضعف دولة مغول فارس كان عاملا مشجعا لخواجا مرجان للتفكير في الانفصال الا ان دهاءه جعله يفكر بضرورة الاستناد على مساعدة دولة اخرى مجاورة تحسبا لما قد يقع من نتائج لحركته الانفصالية ، مما يدل على انه بالرغم من صغر سن الاشرف شعبان في هذه الفترة الا ان دولة المماليك كانت لا تزال تحتفظ بثقلها السياسي بين جيرانها من الدول القريبة ، مع الاخذ بالاعتبار ان النائب المنفصل كان ينظر لهذه التبعية لسلطنة المماليك كنوع من الخضوع الاسمي لدولة قوية بحيث يكون هذا

(٢٨٥) انظر ترجمته ، الدرر ، جـ ٢ ، ص ٧١ .
(٢٨٦) انظر ترجمته ، الدرر ، جـ ٢ ، ص ١٧٨ .
(٢٨٧) السلوك ، جـ ٣ ، ص ١٢٠ ، انظر كذلك ، بدائع ، جـ ١ ، ص ٢١٤ .
(٢٨٨) انباء ، جـ ١ ، ص ١٥٦ .
(٢٨٩) انظر ترجمته ، الدرر ، جـ ١ ، ص ١٥١ .
(٢٩٠) بدائع ، جـ ١ ، ص ٢١٤ .
(٢٩١) انظر ترجمته ، الدرر ، جـ ٢ ، ص ١٨٦ .
(٢٩٢) انباء ، جـ ١ ، ص ٢٠٧ ، ٢٠٨ .
(٢٩٣) انباء ، جـ ١ ، ص ٢٠٨ .
(٢٩٤) انظر ترجمته ، الدرر ، جـ ١ ، ص ٤٤٨ .
(٢٩٥) السلوك ، جـ ٣ ، ص ١١٢ .
(٢٩٦) الدرر ، جـ ١ ، ص ٤٤٨ .

الخضوع مصدرا دائما لمساعدته ضد دولة مغول فارس ، ونصيرا له من اجل تدعيم سيادته في بغداد . وعلى ذلك فهو يستبدل سلطة فعلية من مغول فارس بسيادة اسمية من سلطنة المماليك مستفيدا بذلك من عامل استعداد دولة المماليك لمساعدته على تثبيت حكمه المنفصل بالمال والسلاح والجند .

ومن ناحية اخرى اذا كان هذا النائب الثائر على ادراك تام بطبيعة الاحوال السياسية داخل دولة المماليك ، فلا بد انه كان يعلم حقيقة عدم جدوى الاعتماد على مساعدتها ، وانه لم يتخذ تلك الخطوات بالتقرب اليها الا بدافع من التلويح الذي يتضمن تهديدا لدولة مغول فارس بأن السلطنة بترحيبها برسله انما هي على اتم الاستعداد دائما لمساعدته على الاستمرار بحكمه المستقل في بغداد ، فاذا تأثر المغول بهذا الموقف السياسي يكون ضمن لنفسه حكما مستقلا ثابتا في بغداد ، اما اذا ادرك المغول حقيقة اللعبة ، وان المماليك لن ينجدوه وهم على ما كانوا فيه من عدم استقرار فيكون بذلك قد ضمن لنفسه شخصيا ولأتباعه مكانا يصلح للهجرة اليه طلبا للحماية والنجدة ، وفي كلتا الحالتين يكون قد حقق لنفسه شيئا من النفع بالاعتماد على سلطنة المماليك والتقرب اليها .

ولكن الامور لم تسر وفق مخططات خواجا مرجان اذ « قدم قاضي تبريز في جماعة برسالة السلطان اويس الى مرجان قد عصى عليه ، وانه قصد المسير لقتاله ، فلا يمكن ... اذا فر ... من دخوله الى الشام ومصر ، فأجيب بما لا يريد ، وانه ان اراد نجدة سيرنا اليه العساكر لنصرته ، واهين رسوله واعيد خائبا »[٢٩٧] .

ولا شك انه كان لقدوم هذه السفارة المغولية الى القاهرة وقع المفاجأة على نائب بغداد ، لولا ان سلطنة المماليك حافظت على وعدها له بالمساعدة وانها ستمده بالجند اللازم لمقاتلة السلطان اويس ، وبالتالي عادت السفارة المغولية الى بلاط السلطان اويس خائبة دون ان تحقق هدفا واحدا من الاهداف التي قدمت من اجلها ، وباتت على يقين بان أصحاب السلطة في دولة المماليك عازمون على القتال الى جانب خواجا مرجان ضد جند السلطان اويس ، وعلى ذلك يجب عليه ان يكون مستعدا في السلاح والعساكر لمحاربة دولة المماليك .

ولكن تطور الوضع لم يمهل خواجا مرجان كي يهنأ بحركته الانفصالية اذ سرعان ما بلغت اخبار هذه الحركة بلاط السلطان اويس في توريز ، فسارع من اجل الوصول الى بغداد وتخليصها من يد خواجا مرجان وعودتها الى حكم المغول اذ :

« قدم الخبر بمسير السلطان اويس من توريز الى بغداد ، وقبضه على خواجا مرجان وسمل عينيه ، وحبسه . وان حيار بن مهنا ، لما خرج عن الطاعة ، ثم فر الى العراق ، وطردت عربه من بلاد الشام ، خدم اويس زيادة على سنتين ، حتى خالف عليه خواجا مرجان ببغداد ، وقبض عليه ، فرمته بعض امرائه الى حيار . فلما طلبه منه اويس ، لم يبعث به اليه فبعث اويس يطرده من بلاده ، فسار عنها ، وسأل الامير عمر شاه ، نائب حماه ، ان يشفع الى السلطان فيه ، ويسأله رد الطاعة اليه . فكتب بذلك عمر شاه ، فأجيب الى قبول شفاعته وان يجهزه الى الابواب السلطانية صحبته . فقدم الامير عمر شاه ، ومعه الامير حيار في يوم الخميس خامس عشرة . وقدم عقيب ذلك رسول السلطان اويس يطلب الامير الذي فر الى حيار وان لا يمكن احدا فر من مملكته ان يعبر الشام ومصر ، فلم يجب الى قصده . وخلع على حيار وولده الامير نعير وخواصه ، واعيد الى الامرة ، وخلع على الامير عمر شاه ، واعيدوا الى محل ولاياتهما .

وفي اول ذي القعدة قدم رسول متملك ماردين بأن بيرم خجا التركماني قد تغلب على الموصل منذ سنتين وبلغ عسكره نحو الثلاثين الفا ... فلما اخذ السلطان اويس نائبه مرجان بعث الى الموصل جيشا فر منه بيرم خجا الى بلاد العجم ، وملكها اويس ، وقد عزم على اخذ ماردين ، ومتى ملكها تعدى منها الى حلب . وطلب نجدة ، فخرج من يكشف عن هذا الامر »[٢٩٨] .

ونتيجة لذلك نلاحظ انه في :

« يوم الخميس ثالث عشرين صفر خلع على الامير منكلي بغا الشمسي ، واستقر في نيابة حلب عوضا عن جرجي الادريسي ، فصارت نيابة حلب اكبر رتبة من نيابة دمشق ، واضيف من عسكر دمشق الى حلب اربعة الاف فارس »[٢٩٩] .

وهكذا يظهر واضحا ان سلطنة المماليك بدأت تخشى احتمال هجوم السلطان اويس على حلب ، فاجتهدت في تكثيف الدعم العسكري في حلب لرد اي هجوم مباغت من اويس . ولكن يبدو ان السلطان اويس لم يكن راغبا في مهاجمة حلب بل في توطيد روابط العلاقات الطيبة من جديد مع سلطنة المماليك ، ولذا نجده يبادر في

---

(٢٩٧) السلوك ، جـ٣ ، ص١٤٤ .

(٢٩٨) السلوك ، جـ٣ ، ص١٢١ ـ ١٢٢ .

(٢٩٩) السلوك ، جـ٣ ، ص١٢٢ ، انظر كذلك ، النجوم ، جـ١١ ، ص٣٩ .

بعث الرسل الى البلاط السلطاني لتوثيق الروابط الودية بين الدولتين اذ يقول المقريزي :

« وفي حادي عشرين ذي الحجة ، قدمت رسل السلطان اويس من بغداد »[٣٠٠] ومن ناحية اخرى حرصت سلطنة المماليك على بناء العلاقات الطيبة من جديد مع دولة السلطان اويس بعد ان فشلت محاولة مرجان الانفصالية حيث يقول المقريزي :

« وفيه (ذي الحجة سنة ٧٧٠هـ / ١٣٦٩م) توجه الامير ناصر الدين محمد بن الامير سرتقطاي في الرسالة الى اويس متملك بغداد »[٣٠١] .

بالاضافة الى ذلك عفا اويس عن نائبه في بغداد مرجان ، بل واسبغ عليه المنصب نفسه في حكم بغداد اذ يقول ابن حجر :

« مرجان بن عبدالله الخادم ، نائب السلطنة ببغداد لأويس ، وكان قد تغلب عليها فقصده اويس من تبريز ثم حضر اليه طائعا فعفا عنه وذلك في سنة سبع وستين ، واستمر نائبا ببغداد الى هذه الغاية . وكان شهما شجاعا ، كانت الطرقات قد فسدت بسبب عزله ، فلما اعيد اصلحها »[٣٠٢] .

وبعد ذلك توفي مرجان هذا سنة ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م . وقد استمرت العلاقات الودية بين الدولتين حتى وفاة السلطان اويس بن الشيخ حسن المغل عام ٧٧٦هـ / ١٣٧٤م[٣٠٣] .

ويبدو ان اخبار هذه الاستعدادات الحربية قد بلغت بلاطات الممالك الاوروبية ، فخشي بعضها فداحة الخسائر التي قد تصيب قبرص فيما لو قرر حكام السلطنة غزوها ، ومن ثم رأى اصحاب السلطة في هذه الممالك العمل على الحيلولة دون ذلك عن طريق ارسال سفارات اوروبية الى بلاط الاشرف شعبان لاسترضائه ، فان اصر على محاربة القبارصة فانهم يتعهدون له بمساعدة دولهم مقابل اطلاق سراح الاسرى الصليبيين ، وتجديد الصلح ، وصلاحية التبادل التجاري الامن بين الجانبين ، وفتح كنيسة القيامة بالقدس ، الا ان السلطان الاشرف شعبان وضح لافراد هذه السفارة الدبلوماسية عزمه وتصميمه على محاربة القبارصة في بلدهم ، وانه لن يتفق على اي تعاون معهم ما لم يحقق اولا ما يرجوه من نصر ضد القبارصة ومن ساعدوهم على مهاجمة الاسكندرية وتخريبها ونهبها ، فغادر الرسل البلاط السلطاني دون ان يحققوا المطالب المأمولة حيث يقول المقريزي :

« وفي اول شهر رجب قدم الخبر ، بوصول رسل الفرنج الى ميناء الاسكندرية ، وانهم طلبوا رهائن عندهم ، حتى ينزلوا من مراكبهم ويؤدوا رسالتهم ، فلم تؤمن مكيدتهم ، واقتضى الحال اجابتهم ، فاخرج من سجن الوالي - المعروف بخزانة شمايل - جماعة وجب قتلهم ، وغسلوا بالحمام ، والبسوا ثيابا جيلة ، وسفروا الى الاسكندرية . فأكرمهم النائب . واشاع انهم من رؤساء الثغر ، وبعث بهم الى الفرنج ، وشيع خلفهم نساء وصبيانا ، يصيحون ، ويبكون ، كأنهم عيالهم وهم يخافون الفرنج عليهم ، فمشى ذلك على الفرنج ، وعلى اهل الثغر لانتظام حال المكيدة ، وملاك امرها ، وجودة تدبيرها فتسلم الفرنج الجماعة ونزلت رسلهم من المراكب . وقدموا الى قلعة الجبل ، وقد عدى السلطان الى سرحة كوم برا بالجيزة ، فحملوا الى هناك . وجلس لهم الامير يلبغا الاتابك ، وقام الامراء والحجاب بين يديه وادخلوا عليه فهالهم مجلسه وظنوا انه السلطان ، فقيل لهم « هذا مملوك السلطان » . فكشفوا عن رؤوسهم ، وخروا على وجوههم يقبلون الارض ، ثم قاموا ، ودنوا اليه وناولوه كتاب ملكهم ، وقدموا هديته اليه ، ففرق ذلك بحضورهم فيمن بين يديه ، واختار منه طشتا وابريقا من ذهب ، ومصحفا لم يعرف ما فيه ، وتضمنت رسالتهم ، انهم في طاعة السلطان ومساعدوه على متملك قبرص ، حتى ترد الاسرى ، التي اخذت من الاسكندرية ، ويعوض المال . وسألوا تجديد الصلح . وان يمكن تجارهم من قدوم الثغر ، وان تفتح كنيسة القيامة بالقدس ، وكانت قد غلقت بعد واقعة الاسكندرية . فأجابهم ، بأنه لابد من غزو قبرص ، وتخريبها ، ثم اخرجوا فأقاموا بالوطاق ثلاثة ايام ، وحملوا الى دار الضيافة بجوار قلعة الجبل . فلما عاد السلطان من السرحة ، وقفوا بين يديه ، وقدموا هديتهم وادوا رسالتهم ، فلم يجابوا ، واعيدوا الى بلادهم خائبين »[٣٠٤] .

ورغم ذلك ، فان الممالك الاوروبية حرصت على استمرار بعث السفراء والرسل الى البلاط السلطاني في دولة المماليك في سبيل ارساء اواصر الصداقة بين الطرفين ، فنقرأ عن وصول رسل جنوه في عام ٧٦٨هـ / ١٣٦٦م يسألون السلطان ان يسمح بقدوم

---

(٣٠٠) السلوك ، جـ٣ ، ص١٦١ .

(٣٠١) السلوك ، جـ٣ ، ص١٧٦ .

(٣٠٢) الدرر ، جـ١ ، ص٧٠ .

(٣٠٣) الدرر ، جـ١ ، ص١١١ ، السلوك ، جـ٣ ، ص٢٤٥ ، النجوم ، جـ١١ ، ص٦٦ ، الشذرات ، جـ٦ ، ص٢٤١ ـ ٢٤٢ .

(٣٠٤) السلوك ، جـ٣ ، ص١١٨ ـ ١١٩ .

تجارهم الى الاسكندرية حيث اجاب طلبهم(٣٠٥) كذلك تكرر قدوم رسل الامبراطورية البيزنطية في السنوات ٧٧٠هـ /١٣٦٨م(٣٠٦) ، ٧٧٧هـ / ١٣٧٥م محملين بالهدايا عنوانا للنية الخالصة في ارساء روابط الود مع سلطنة المماليك(٣٠٧) . كذلك قدمت في عام ٧٦٧هـ / ١٣٦٥م رسل الملك ارخان بن عثمان حاكم الروم مصرية عن رغبته في نجدة سلطنة المماليك ضد ملك قبرص .(٣٠٨)

وقد انتهى حكم الاشرف شعبان نهاية متوقعة حيث تآمر عليه عدد من مماليكه مع فئة من كبار الامراء ، فاطاحوا بحكمه ، واستولوا على القلعة ، ثم تخلصوا منه شخصيا بالقتل ، ويلخص ابن حجر هذا الحادث بقوله :

« وفيها (٧٧٧هـ / ١٣٧٦م) تجهز السلطان الملك الاشرف الى الحج فارسل اخوته واولاد اعمامه جميعا الى الكرك فسجنوا بها وارسل معهم سودون الشيخوني ليقيم عندهم محتفظا بهم وارسل اقتمر الحنبلي الى الصعيد في جماعة امراء لحفظ البلاد من العرب ، وارسل عدة من الأمراء الى سائر الثغور لحفظها ايضا(٣٠٩)

وفيها خرج السلطان في تجمل زائد الى الغاية طالبا للحج ، فاقام بسرياقوس يوما ثم سافر في الثاني والعشرين من شوال ، فلما وصل عقبة أيلة في مستهل ذي القعدة خامر عليه الامراء الذين صحبته واكثر مماليكه ، وكانوا طلبوا منه ان ينفق عليهم نفقة اخترعوها فامتنع فداروا على الأمراء فمن اجابهم الزموه بالركوب معهم ومن امتنع هددوه بالقتل وركبوا بغتة فناوشهم الخاصكية القتال الى الليل ، فلما بلغه ذلك هرب راجعا الى القاهرة ، وكان الذين خلفهم بالقلعة قد واعدوا مع الذين خامروا عليه بالعقبة انهم يسلطنون ولده عليا ففعلوا ذلك بان اتفقوا وجاءوا الى الزمام فأخبروه ان السلطان مات وطلبوا منه ان يخرج لهم ولده عليا ، فامتنع فهجموا عليه وكسروا بابه ونهبوا بيته وامسكوه واخرجوا الصبي قهرا فأقعدوه بباب الستارة ، ثم اركبوه الى الايوان ، وارسلوا الى الامراء الذين بالقاهرة فامتنعوا من الحضور فأنزلوا الصبي الى الاصطبل ولقبوه بالعادل ثم بعد يومين بالمنصور فصعد اليه الامراء واحضروا اليه اكمل الدين وضياء الدين القرمي وحلفوا له ، فأمسكهم بعض القائمين بالامر وهم طشتمر اللفاف وقرطاي واستدمر وايبك وحبسوهم بالقلعة واقروا آقتمر عبدالغني نائب السلطنة ، ثم عهد الى الامراء الاكابر ولما ارادوا سلطنة علي عارضهم الضياء القرمي ووعظهم وقال لهم : ان الاشرف استاذكم قد احسن اليكم واخرجكم من السجن واعطاكم الاموال فكيف تكون هذه مجازاته منكم ؟ فلم يقبلوا منه بل هموا بقتله فردهم عنه قرطاي ورجع الى بيته فتحول الى القاهرة ، وفي غضون ذلك وصل قازان الصرغتمشي فاخبر بكائنة السلطان بالعقبة فارسلوا الى قبة النصر فوجدوا ارغون شاه وصرغتمش ويلبغا وغيرهم من الامراء الذين كانوا صحبة السلطان وهربوا معه قد وصلوا صحبته على الهجن فغلب عليهم النوم هناك فكبسوا عليهم فقتلوهم وهرب السلطان لما دهموه هو ويلبغا الناصري(٣١٠) ، ثم استخفى السلطان عند آمنة بنت عبدار امرأة ابن المستوفي اللفية كان يعرفها قبل ذلك فاختفه ، ثم دلهم عليه بعض الناس فكبسوا البيت فوجدوه قد اختفى في البادهنج فأمسكوه واطلعوه الى القلعة ، فتولى اينبك تقريره على الذخائر ، وضربه تحت رجليه نحوا من سبعين ضربة بالعصي ، ثم خنق في خامس ذي القعدة ودفن بالقرب من الست نفيسة ثم نقل الى تربة امه . وكان الاشرف هينا لينا محبا في للال محبا في اهل الخير والفقراء والصلحاء والعلماء مذعنا للأمور الشرعية ، ملك اربع عشرة سنة وشهرين ونصفا ، وكانت الدنيا في زمانه طيبة آمنة . وفيها عقب استقرار علي ولد الاشرف في السلطنة لقب « الملك المنصور » وعمره اذ ذاك ثماني سنين ، واستقر »(٣١١) .

وهكذا انتهى عهد السلطان الاشرف شعبان بن حسين بوفاته مقتولا في ذي القعدة عام ٧٧٨هـ /١٣٧٦م عن اربع وعشرين سنة (٣١٢) .

(٣٠٥) السلوك ، جـ٣ ، ص ١٤١ .

(٣٠٦) السلوك ، جـ٣ ، ص ١٦٩ .

(٣٠٧) انباء ، جـ١ ، ص ١٥٦ ، السلوك ، جـ٣ ، ص ٢٥٥ .

(٣٠٨) السلوك ، جـ٣ ، ص ١٢١ .

(٣٠٩) انظر السلوك ، جـ٣ ، ص ٢٧٦ .

(٣١٠) انظر ترجمته ، الدرر ، جـ٥ ، ص ٢١٥ - ٢١٨ .

(٣١١) انباء ، جـ١ ، ص ١٩٢ - ١٩٥ ، انظر كذلك ، السلوك ، جـ٣ ، ص ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ - ٢٨٢ ، النجوم ، جـ١١ ، ص ٦٩ - ٨٠ ، بدائع ، جـ١ ، ص ٢٢٠ - ٢٢٤ - ٢٢٥ - ٢٢٦ .

(٣١٢) انباء ، جـ١ ، ص ٢١٠ .

ومن الجدير بالذكر انه « لما فر السلطان من العقبة اضطرب الناس ، فانحدر القاضيان برهان الدين الشافعي وجار الله الحنفي الى القدس ، فأقاما فيه الى ان سكنت الفتنة ثم قدما القاهرة يوم الاثنين سادس عشر ذي القعدة ورجع اكثر الرؤساء الى القاهرة . وتوجه بهادر المشرف ابن يلي الى مكة واخلفت خزائن السلطان ثميت ورجع طشتمر والخليفة وتقي الدين ابن ناظر الجيش وكان سافر معهم عوضا عن ابيه لضعفه وبدر الدين كاتب السر وبدر الدين الاخنائي قاضي المالكية والشيخ سراج الدين البلقيني وصحبتهم حريم السلطان الى ان دخلوا القاهرة ، فلما دخلوا انكر طشتمر ماجرى وركب الى قبة النصر وأراد ان يسلطن الخليفة فلم يوافق على ذلك . فاقتتلوا معه فانكسر ثم اعطى النيابة بدمشق وتوجه اليها في عاشر ذي القعدة . وصدمت البيعة في ثامن ذي القعدة للملك المنصور ثم ثار المماليك الذين اعانوا الامراء على قتل الاشرف فطالبوهم بالنفقة التي وعدوهم بها وهي على ما قيل لكل نفر خمسمائة دينار فماطلوهم فجاهروهم بالسوء ، فلما اشتدوا على القبهم امروا بمصادرة المباشرين والتجار ودام ذلك مدة وكان ما اخذ من المودع الحكمي مائتي الف دينار فيما قيل ومن مقبل الجمالي مائة الف دينار ومن صلاح الدين ابن عرام نحو خمسين الف دينار وما اخذ من الوزير وناظر الخاص وغيرهما من الدواوين جملة مستكثرة . وعمد قرطاي الى الخزائن فانفقها في النفقات والهبات وكان كثير السخاء وانفق على المماليك كل واحد خمسمائة دينار وعشرة آلاف درهم فضة نقرة وكانت عدتهم ثلاثة آلاف من الاجلاب وغيرهم ، وقيل بل الفين وقيل دون ذلك »[313] .

من سير الحوادث الاخيرة من حكم الاشرف شعبان ، نلاحظ انه لم يكن يثق باحد على الاطلاق حتى اخوته واولاد اعمامه حيث كان يدرك تطلع كل منهم للوصول الى الحكم . كما كان يخشى قيام حكام الاقاليم المملوكية بحركات انفصالية بخلق ارساله الامراء لحفظ الاقاليم البعيدة شمالا وجنوبا .

ويفسر المقريزي هذه التحفظات التي عمل بها الاشرف شعبان بقوله : « وندب الامير اقتمر الحنبلي ان يخرج الى بلاد الصعيد ، ومعه عدة من الامراء والاجناد ، ويقيم به لحفظه مدة غيبة السلطان بالحجاز وندب الى الثغور ، مثل الاسكندرية ودمياط ورشيد والبرلس ، جماعة من الامراء والاجناد يكونوا مركزين بها لدفع العدو من الفرنج . وندب عدة امراء للمبيت كل ليلة في اماكن عينت لهم من خارج القاهرة ومصر . ورتب الامير ايدمر الشمسي للاقامة بقلعة الجبل لحفظها . وجعل نائب الغيبة بالقاهرة الأمير اقتمر عبدالغني ، ورسم له ولجميع الامراء المقيمين ان يحضروا في ايام المواكب الخدمة عند باب الستارة من القلعة ، ويقبلوا ايدي ولدي السلطان ، ويقفوا ساعة لطيفة . ثم يقوم امير علي ابن السلطان من مجلسه ويقول للامراء بيده « باسم الله » فينصرفوا بعد ان يسقوا مشروبا .

ولما قوي العزم على السفر اشار على السلطان جماعة من اهل الصلاح بأن لا يسافر ، فلم يقبل وصمم على السفر »[314] .

وبهذا يظهر لنا ان الاشرف شعبان كان يعرف جيدا الوضع في البلاط المملوكي مما جعله يندب « عدة امراء للمبيت كل ليلة في اماكن عينت لهم من خارج القاهرة ومصر »[315] طوال فترة غيبته .

كذلك نرى انه « لما قوي العزم على السفر اشار على السلطان جماعة من اهل الصلاح بأن لا يسافر ، فلم يقبل وصمم على السفر »[316] . وهذا يدل دون شك على وجود جماعة من النصحاء المخلصين الذين كانوا يرغبون حقا في مساعدة الاشرف شعبان واستمرار بقائه على كرسي السلطنة حيث انهم كانوا على وعي تام بنوايا بعض كبار الامراء المحيطين بالسلطان وخططاتهم في سبيل التخلص منه ، وانهم يبيتون من اجل ايجاد فرصة مناسبة في سفره للحج لقتله .

كذلك يتبين لنا من خلال الترتيبات التي اتخذت من اجل سفر السلطان للحج تلك الرفاهية والعيش الكريم الذي كان يحظى به السلطان[317] ، في حين كانت الازمات الاقتصادية تتوالى على عامة الشعب الذين يعانون الجوع ، وقلة الغذاء ، وارتفاع الاسعار ، والمرض والوباء ، بحيث يبرز هذا التفاوت الكبير في الحالة الاجتماعية الاقتصادية عدم اهتمام السلطان بالصرف من ماله وما يتمتع به من ترف من اجل اسعاد الطبقات الوسطى والدنيا في المجتمع . ولعل هذه المباهج والبذخ في العيش هي الشيء الوحيد

---

(313) النهج ، جـ١ ، ص١٩٦ ـ ١٩٨ .
(314) السلوك ، جـ٣ ، ص٢٧٢ .
(315) السلوك ، جـ٣ ، ص٢٧٢ .
(316) السلوك ، جـ٣ ، ص٢٧٢ .
(317) السلوك ، جـ٣ ، ص٢٧٢ ـ ٢٧٣ .

الذي حظي به السلطان من سيمات الحكم والسلطة إذ عاش محروما من ممارسة حقوقه كسلطان لدولة المماليك ، وبلغ من خشيته على نفسه انه اوصى بتولية ابنه علي فيما لو حدث له شيء ، وكأنه كان يقرأ ما في صدور المتآمرين من النوايا المكينة ، واحتمال التآمر ضده للاطاحة به والقضاء عليه ، فيتمكنون من ممارسة ما يرغبون فيه من السلطة المطلقة والحكم دون عقبة او قيد . ويبدو انه اصبح من الصعب عليهم تحقيق ذلك في ظل حكم سلطان في الرابعة والعشرين من العمر مدركا لما يدور حوله من الفتن والمؤامرات ، ولذا اصبح بحكم الضرورة لديهم ان يتم تعيين سلطان طفل للتمتع بالصلاحيات المطلقة ، والامتيازات غير المحدودة .

كذلك يتبين لنا بوضوح أن الأمراء الذين حوله ، وكذلك بعض المماليك كانوا يتحينون الفرصة من أجل الانقضاض عليه والتخلص منه في سبيل السلطة العليا ، ولا نجد سبباً لذلك سوى أن الأشرف شعبان قد بلغ الرابعة والعشرين ، وأصبح شاباً يافعاً يتطلع الى ممارسة مقاليد السلطة والحكم وهو الأمر الذي يرفضه كبار الأمراء الأوليجاركية ، فباتوا يتصيدون مناسبة ملائمة لقتله وتعيين سلطان صغير سهل المراس . وتظهر هذه النية واضحة في تسلطن علي ابن الأشرف شعبان الذي كان لا يتجاوز الثامنة من العمر . أما الأمراء الذين رفضوا المشاركة في هذه المؤامرة فتم القبض عليهم وأودعوا السجن ، كما تم الاستيلاء على الذخائر والنفائس التي كانت بحوزة السلطان ، وفي هذا الموضوع يقول المقريزي :

« فلما كان يوم السبت ثالث ذي القعدة أشتد لاثارة الفتنة بالقاهرة أينبك البدري ، وأستدمر الصرغتمشي ، وقرطاي ، وطشتمر اللفاف ، ومشوا فيمن تأخر بالقلعة من المماليك السلطانية ، وفي مماليك الأسياد ولدى السلطان ، وفي مماليك الأمراء المسافرين صحبة السلطان ، وفي جماعة من المماليك البطالة وواعدوهم جميعاً على القيام معهم ، ووعدهم بأن ينفقوا فيهم خمسمائة دينار ، عنها عشرة آلاف درهم ، لكل واحد منهم فمالوا اليهم وتحالفوا جميعاً على الاتفاق وركبوا بآلة الحرب .

ونزل المماليك السلطانية الذين بالطباق من قلعة الجبل وصعد الذين كانوا أسفل القلعة اليها ، وصار الجميع بباب الستارة ، وفي داخله الطواشي سابق الدين مثقال زمام الدور ، والأمير جلبان لالا الأسياد ، والأمير أقبغا جركس اللالا ، فأغلقوا باب الستارة . وأخذ القوم يطرقون عليهم الباب ، ويطلبون الأمير علي بن السلطان ويقولون : « قد مات السلطان ونحن نريد نسلطن ابنه الأمير علي » . فقيل لهم : « من كبيركم حتى نسلم اليه ابن السلطان » . فتآمروا فيما بينهم ساعة وجمعهم بكار ، ثم كسروا شباك الزمام المطل على تلك الجهة وصعدوا منه فنهبوا ما في بيت الزمام ، ونزلوا الى رحبة باب الستارة وقبضوا على الطواشي مثقال الزمام ، وعلى الأمير جلبان ، ودخلوا من باب الستارة بأجمعهم ، وأخرجوا الأمير علي ، وأجلسوه بباب الستارة . وأحضروا الأمير أيدمر الشمسي ، وألزموه بتقبيل الأرض ، فقبلها ، وأركبوا الأمير علي الى الايوان المعروف بدار العدل ، وأجلسوه على تخت الملك ، ولقبوه بالملك العادل » .[٣١٨]

ونلاحظ أن هذه المؤامرة تمت على يد فئة صغيرة من كبار الأمراء الأوليجاركية بمساعدة المماليك الطامعين في أموال السلطنة ، وقد انجزت بشكل فوضوي يدل على عدم التخطيط الواعي . كذلك يتبين لنا رفض بعض الأمراء لما حدث والرغبة في تولية الخليفة العباسي سلطاناً لدولة المماليك . وخلال كل تلك الحوادث كانت الكلمة العليا للقوة والسلاح ، كما كان الجشع والطمع هو السبب في مشاركة عدد كبير من المماليك المقربين الى الأشرف شعبان من أجل الحصول على حفنة من المال من الخزائن السلطانية ، حيث يذكر المقريزي :

« فلما أصبح نهار الأحد رابعه ، غيروا لقب الأمير علي وجعلوه الملك المنصور ، وأخذوا خطوط جميع العلماء والأمراء إنهم رضوا به سلطاناً ، ونادوا بالقاهرة وأعمالها ثانياً بالأمان والاطمئنان والدعاء للملك المنصور ، وخرج البريد لاحضار الأمير اقتمر الحنبلي من بلاد الصعيد . وتقسموا الأمريات ، فأخذ طشتمر اللفاف تقدمة أرغون شاه رأس نوبة ، وأخذ قرطاي تقدمة صرغتمش ، وأخذ اينبك تقدمة بيبغا السابقي ، وأخذ أستدمر الصرغتمشي تقدمة ، وأخذ بلاط الصغير تقدمة ، حتى عموا من أرادوا منهم بالأمريات .

واستقر الأمير شهاب الدين قرطاي أتابك العساكر . ونصبوا لهم خليفة من بني عم الخليفة المتوكل . وأقاموا عز الدين حمزة بن علاء الدين علي بن محي الدين بن فضل الله في وظيفة كتابة السر ، حتى يحضر أخوه بدر الدين » .[٣١٩]

ثم وقع ذلك التبذير غير المحدود في مال الخزائن السلطانية حيث كان نصيب كل مملوك من الأجلاب قدراً كبيراً يفوق ما وعدوا به ، مما يدل على عدم وجود الشعور بالمسئولية تجاه الصالح العام

(٣١٨) السلوك ، جـ٣ ، ص٢٢٥ ـ ٢٢٦ .
(٣١٩) السلوك ، جـ٣ ، ص٢٢٨ .

للدولة ، بل بلغ من سوء الحال ان الأمراء أصحاب السلطة في العهد الجديد عمدوا الى مصادرة كبار المسئولين الاداريين والمباشرين ، والتجار في سبيل جمع أكبر قدر من الأموال والنفائس .

وتجدر الاشارة الى أنه :

كان لحدوث هذه الفتنة السياسية في القلعة بالغ الأثر على اضطراب الوضع الاجتماعي في القاهرة وعدم استقرار الناس حيث يقول المقريزي :

« فأمروا أن ينادى في الناس بالأمان ، فنودي في القاهرة ومصر بين يدي والي القاهرة « الأمان والاطمئنان ، افتحوا دكاكينكم وبيعوا واشتروا ، وترحموا على الملك الأشرف والدعاء لولده الملك العادل علي ، ونائبه الأمير اقتمر الحنبلي ، فكثرت القالة بين الناس »[٣٢٠] .

ولكن الناس لم يهدأوا لما استمر الوضع السياسي غير مستقر والأمراء على لعبة الحرب حتى وصل الأمر الى أن :

« اضطرب الناس بالقاهرة ، وأغلقوا ما فتح من الحوانيت ، وكثر تخلفهم للحديث في أمر السلطان والقائمين بالدولة . ونودي بالقاهرة ومصر على السلطان ، وتوعد من أخفاه ، فاضطرب الناس ، وباتوا ليلة الاثنين على تخوف وقلق شديد »[٣٢١]

وعلى ذلك فقد كان لا يمكن أن تستقر أحوال الناس ويستمروا في ممارسة نشاطاتهم الاقتصادية في ظل تلك الظروف التي لا تكاد تستقر حتى تضطرب مرة أخرى . ونتيجة لذلك فمن غير المعقول أن نتوقع ازدهار النشاط الاقتصادي والتجاري في ظل مثل هذه الأحوال .

كذلك يتضح لنا الموقف المهزوز الذي وصلت اليه الخلافة العباسية في هذا العهد ، فالخليفة مجبور على إعطاء البيعة لأي شخص يرضى به الأمراء المماليك حتى ولو كان هناك سلطان آخر جالس على كرسي الحكم ، فلم يكن عندهم مانع من وجود سلطانين والغلبة للأقوى . كما كان من السهل كثيراً خلع خليفة وتعيين بدل منه من العائلة العباسية على حسب المنهج الذي يرضى ويتماشى مع رغبات الأمراء . لقد وصلت سلطة المماليك في هذه الفترة الى موقف سياسي حرج للغاية حيث فلت الزمام من يد السلطان الحاكم وتركزت السلطة بيد طائفة من الأمراء المماليك الأرلجاركية الذين وجدوا أن القوة هي الطريق الأنسب الذي يمكنهم مما يرغبون فيه من صلاحيات مطلقة في مجال السلطة والحكم ، وقد توفر لهم ذلك بالفعل في ظل سلطة طفل ، ولكنه عندما كبر ووعى في ظل عدد كبير من الفتن والمؤامرات أخذ يعمل من أجل المشاركة الفعالة في مجال الحكم ، وهنا ظهر الصراع الذي لا بد أن يظهر بينه وبين أولئك الطامعين ، وانتهى بمقتله وهو في مطلع الشباب لكي يتسلطن ولده ويعاصر حقبة مماثلة في أحداثها وفعالياتها .

❊ ❊ ❊

---

(٣٢٠) السلوك ، جـ٣ ، ص ٣٧٧ ، ٣٧٨ .

(٣٢١) السلوك ، جـ٣ ، ص ٣٨١ .

قائمة الاختصارات

الأرقام هنا تدل على رقم المصدر في قائمة المصادر والمراجع .

الالمام	النويري	٨٠
انباء	ابن حجر	١٥
بدائع	ابن اياس	٣
الخطط	المقريزي	٧٥
الدرر	ابن حجر	١٤
السلوك	المقريزي	٧٦
شذرات	ابن العماد	٥٥
النجوم	ابن تغري بردي	١٠
مآثر	القلقشندي	٦٥

المصادر والمراجع :

الأدفوي : أبي الفضل كمال الدين جعفر بن ثعلب (ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م) .
١ ـ الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد .
تحقيق سعد محمد حسن .
القاهرة ، ١٩٦٦م .
ابن الأكفاني : محمد بن ابراهيم (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٨م) .
٢ ـ نخب الذخائر في أحوال الجواهر .
تحقيق أ. م. الكرملي .
القاهرة ، ١٩٣٩م .
ابن اياس : محمد بن أحمد (ت ٩٣٠هـ/١٥٢٤م) .
٣ ـ بدائع الزهور في وقائع الدهور .
٣ أجزاء ، القاهرة ، ١٨٩٣ ـ ١٨٩٦م .
الباشا : حسن .
٤ ـ الألقاب الاسلامية ، القاهرة ، ١٩٥٧م .
٥ ـ الفنون الاسلامية والوظائف ، ٣ أجزاء ، القاهرة ، ١٩٦٥ ـ ١٩٦٦م .
ابن بطوطة : محمد بن عبد الله (ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧م) .
٦ ـ تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار .
القاهرة ، ١٢٨٧هـ/١٨٧٠م .
ابن تغري بردي : أبو المحاسن يوسف (ت ٨٧٤هـ/١٤٧٠م) .
٧ ـ حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور .
جزئين تحقيق ويليام بوبر .
لوس انجلوس ، ١٩٣٠ ـ ١٩٤٢ .
٨ ـ المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي .
الجزء الأول ، القاهرة ، ١٩٥٦م .
٩ ـ مورد اللطافة في من ولي السلطنة والخلافة .
باشراف ج . د . كارليل .
طبعة أوربا ، ١٧٩٢م .
١٠ ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة .
١٢ جزء ، القاهرة ، ١٩٢٩ ـ ١٩٥٦م .
الجبرتي : عبد الرحمن (ت ١٢٣٧هـ/١٨٢٢م) .
١١ ـ عجائب الآثار في التراجم والأخبار .
الجزء الأول تحقيق حسن محمد جوهر وآخرين .
الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٩٥٦م .
ابن الجيعان : يحيى بن شاكر (ت ٨٨٥هـ/١٤٨٠م) .

١٢ ـ النحلة السنية بأسماء البلاد المصرية .
بإشراف د. موريتز .
القاهرة ، ١٨٩٨م .
ابن الحاج : محمد بن محمد (ت ٧٣٧هـ/١٣٣٦م) .
١٣ ـ المدخل .
٤ أجزاء ، القاهرة ، ١٩٢٩م .
ابن حجر : أحمد علي (ت ٨٥٢هـ/١٤٤٩م) .
١٤ ـ الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة .
٥ أجزاء ، القاهرة ، ١٩٦٦م .
١٥ ـ انباء الغمر في أبناء العمر .
جزءان ، حيدر أباد ، ١٩٦٧م .
١٦ ـ فتح الباري بشرح صحيح البخاري .
١٣ جزء ، القاهرة ، ١٣١٩هـ/١٩٠٩م .
حسن : علي ابراهيم .
١٧ ـ مصر في العصور الوسطى من الفتح العربي الى الفتح العثماني .
القاهرة ، ١٩٦٤م .
١٨ ـ تاريخ المماليك البحرية .
القاهرة ، ١٩٦٧م .
ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد (ت ٨١٨هـ/١٤٠٦م) .
١٩ ـ كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر .
٧ أجزاء ، بيروت ، ١٩٦٥م .
٢٠ ـ المقدمة .
القاهرة ، طبعة دار الشعب .
دراج : أحمد .
٢١ ـ المماليك والفرنج .
القاهرة ، ١٩٦١م .
ابن دقماق : ابراهيم بن محمد (ت ٨٠٩هـ/١٤٠٦م) .
٢٢ ـ الانتصار لواسطة عقد الأمصار .
جزءان في كتاب واحد .
القاهرة ، ١٨٩٣م .
الدواداري : أبوبكر بن عبد الله بن أيبك (معاصر للناصر محمد بن قلاون) .
كنز الدرر وجامع الغرر .
٢٣ ـ ج ٨ الدرة الزكية في أخبار الدولة التركية .
تحقيق د. هارمان ، القاهرة ، ١٩٧١م .
٢٣ ـ ج ٩ الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر .
تحقيق هـ. ر. رويمر ، القاهرة ، ١٩٦٠م .
الذهبي : شمس الدين محمد بن احمد الشافعي (ت ٧٤٨هـ/١٣٤٨م) .

٢٥ - العبر في خبر من غبر .
٥ أجزاء ، الكويت ، ١٩٦٠ - ١٩٦٦م .
٢٦ - خلاصة تهذيب الكامل في أسماء الرجال .
تحقيق آ. أ. الخزرجي .
القاهرة ، ١٣٢٢هـ/١٩٠٤م .
٢٧ - كتاب دول الاسلام .
جزءان ، حيدر آباد ، ١٣٣٧هـ/١٩١٨م .
٢٨ - سير أعلام النبلاء .
٣ أجزاء ، القاهرة ، ١٩٥٦ - ١٩٦٢م .
٢٩ - تاريخ الاسلام وطبقات المشاهير والأعلام .
٦ أجزاء ، القاهرة ، ١٣٦٨-١٣٦٩هـ/١٩٤٨-١٩٤٩م .
٣٠ - تذكرة الحفاظ .
٤ أجزاء ، حيدر آباد ، ١٨٩٧م .
الزبيدي : محمد مرتضى الحسيني (ت ١٢٠٥هـ/١٧٩١م) .
٣١ - تاج العروس من جواهر القاموس .
طبع منها ١٦ جزءاً ، الكويت ، ١٩٦٥-١٩٧٦م .
زيتير شتين :
٣٢ - تاريخ سلاطين المماليك
نشرة كارل ف. زيتير شتين .
ليدن ١٩١٩م .
السبكي : تاج الدين أبي نصر عبد الوهاب .
٣٣ - معيد النعم ومبيد النقم .
طبعة داود وغلم موهرن .
ليدن ١٩٠٨م .
السخاوي : شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (ت ٩٠٢هـ/١٤٩٧م) .
٣٤ - الضوء اللامع لأهل القرن التاسع .
١٢ جزء ، القاهرة ، ١٣٥٣ - ١٣٥٥هـ/١٩٣٤ - ١٩٣٦م .
٣٥ - التبر المسبوك في ذيل السلوك .
القاهرة ، ١٨٩٦م .
السيوطي : جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١هـ/١٥٠٥م) .
٣٦ - حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة .
جزءان ، تحقيق م. أ. ابراهيم .
القاهرة ، ١٩٦٧ - ١٩٦٨م .
٣٧ - تاريخ الخلفاء .
تحقيق م. م. عبد الحميد .
القاهرة ، ١٩٦٤م .
ابن شاكر : محمد بن أحمد الكتبي (ت ٧٦٤هـ/١٣٩٣م) .

٣٨ ـ فوات الوفيات والذيل عليها .
٤ أجزاء ، تحقيق إحسان عباس .
بيروت ، ١٩٧٤م .
الشوكاني : محمد بن علي (ت ١٢٥٠هـ/١٨٣٤م) .
٣٩ ـ البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع .
جزءان ، القاهرة ، ١٣٤٨هـ/١٩٢٩م) .
الصفدي : خليل ابن أيبك بن عبد الله (ت ٧٦٤هـ/١٣٦٣م) .
٤٠ ـ إمارة دمشق في الاسلام .
دمشق ، ١٩٥٥م .
٤١ ـ الوافي بالوفيات .
٨ أجزاء ، ١٩٣١ ـ ١٩٧١م .
نشرة Bibliotheca Islamic
الصقاعي : فضل الله بن أبي الفخر .
٤٢ ـ تالي كتاب وفيات الأعيان .
تحقيق جاكلين سوبله .
دمشق ١٩٧٤م .
الظاهري : خليل بن شاهين (ت ٨٧٢هـ/١٤٦٨م) .
٤٣ ـ زبدة كشف الممالك .
تحقيق بول ريفز .
باريس ، ١٨٩٤م .
عاشور : سعيد عبد الفتاح .
٤٤ ـ العصر المماليكي في مصر والشام .
القاهرة ، ١٩٦٥ م .
٤٥ ـ مصر في عصر دولة المماليك البحرية .
القاهرة ، ١٩٥٩م .
٤٦ ـ مصر في العصور الوسطى من الفتح العربي الى الفتح العثماني .
القاهرة ، ١٩٧٠م .
٤٧ ـ المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك .
القاهرة ، ١٩٦٢م .
٤٨ ـ أوربا العصور الوسطى ، الجزء الأول ، التاريخ السياسي .
القاهرة ، ١٩٦٦م .
٤٩ ـ بعض أضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة في العصور الوسطى .
مقالة في المجلة التاريخية المصرية ـ العدد الرابع عشر ٦٦ ـ ١٩٦٧م .
عبد السيد : حكيم أمين .
٥٠ ـ قيام دولة المماليك الثانية .
القاهرة ، ١٩٦٦م .
ابن عبد الظاهر : محي الدين أبو الفضل عبد الله (ت ٦٩٢هـ/ ١٢٩٢م) .

٥١ - تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور .
تحقيق م. كامل .
القاهرة ، ١٩٦١م .
٥٢ - الروض الزاهر في سيرة الظاهر .
تحقيق عبد العزيز الخويطر .
بحث دكتوراه ، لندن ، ١٩٦٠م .
٥٣ - الألطاف الخفية من السيرة الشريفة السلطانية الأشرفية .
ليبزج ، ١٩٠٢م .
العريني : البـــاز .
٥٤ - المماليك .
بيروت ، ١٩٦٧م .
ابن العماد : عبد الحي أحمد (ت ١٠٨٩هـ/١٦٧٩م) .
٥٥ - شذرات الذهب في أخبار من ذهب .
٨ أجزاء ، القاهرة ، ١٩٣١ - ١٩٣٢م .
العمري : ابن فضل الله (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٩م) .
٥٦ - التعريف بالمصطلح الشريف .
القاهرة ، ١٨٩٤م .
عنـــان : محمد عبد الله .
٥٧ - مصر الاسلامية وتاريخ الخطط المصرية .
القاهرة ، ١٩٦٩م .
العيد روسي : عبد القادر ابن الشيخ بن عبد الله (ت ١٠٣٨هـ/١٦٢٩م) .
٥٨ - كتاب تاريخ النور السافر .
بغداد ، ١٩٣٩م .
أبو الفدا : اسماعيل بن علي (ت ٧٣٢هـ/١٣٣١م) .
٥٩ - المختصر في أخبار البشر .
٤ أجزاء ، القاهرة ، ١٣٢٥هـ/١٩٠٧م .
٦٠ - تقويم البلدان .
تحقيق م. رينود ، م. سلان .
باريس ، ١٨٤٠م .
ابن الفرات : محمد بن عبد الرحيم (ت ٨٠٧هـ/١٤٠٥م) .
٦١ - تاريخ الدول والملوك .
ج ٨ ، تحقيق قسطنطين زريق وآخرين .
بيروت ، ١٩٣٩م .
ابن أبي الفضائل : مفضـــل .
٦٢ - النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد .
ج ٢ ، ٣ ، تحقيق أ. بلوشيه .
باريس ، ١٩٢٨ .

فهمي : نعيم زكي .
٦٣ ـ طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب .
القاهرة ، ١٩٧٣م .
الفوطي : عبد الرزاق بن أحمد (ت ٧٢٣هـ/١٣٢٣م) .
٦٤ ـ الحوادث الجامعة .
تحقيق مصطفى جواد .
بغداد ، ١٩٣٢م .
القلقشندي : أحمد بن علي (ت ٨٢١هـ/١٤١٨م) .
٦٥ ـ مآثر الانافة في معالم الخلافة .
٣ أجزاء ، تحقيق عبد الستار أحمد فراج .
الكويت ، ١٩٦٤م .
٦٦ ـ صبح الأعشى في صناعة الانشا .
١٤ جزء ، القاهرة ، ١٩١٣ ـ ١٩٢٢م .
ابن القيم : شمس الدين محمد بن أبي بكر (ت ٧٥١هـ/ ١٣٥٠م) .
٦٧ ـ أحكام أهل الذمة .
دمشق ، ١٩٦١م .
كازانوفا : بــول .
٦٨ ـ تاريخ ووصف قلعة القاهرة .
ترجمة وتقديم أحمد دراج .
مراجعة جمال محرز .
القاهرة ، ١٩٧٤م .
ابن كثير : اسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤هـ/١٣٧٣م) .
٦٩ ـ البداية والنهاية .
١٤ جزء ، ١٩٣٢م .
الماوردي : أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب المصري (ت ٤٥٠هـ / ١٠٥٧م)
٧٠ ـ الأحكام السلطانية .
الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٣٨٦هـ / ١٩٦٦م .
مسعد : مصطفى
٧١ ـ الاسلام والنوبة في العصور الوسطى .
القاهرة ـ ١٩٦٠م
المقريزي : أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤٢م) .
٧٢ ـ البيان والاعراب عما بأرض مصر من الاعراب .
تحقيق م . عابدين .
القاهرة ، ١٩٦١م .
٧٣ ـ اغاثة الأمة بكشف الغمة .
حمص ، ١٩٥٦م .

٧٤ - الالمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الاسلام .
القاهرة ، ١٨٩٥م .
٧٥ - المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار « الخطط المقريزية » .
جزءان ، القاهرة ، ١٨٥٣م .
٧٦ - كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك .
ج ١ ، ٢ ، تحقيق محمد مصطفى زيادة .
ج ٣ ، ٤ ، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور .
القاهرة ، ١٩٣٩ - ١٩٧١م .
ابن منظور : جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري (ت ٧١١هـ/١٣١١م) .
٧٧ - لسان العرب .
٢٠ جزء ، طبعة بولاق .
موسى : محمد يوسف .
٧٨ - ابن تيمية .
القاهرة ، ١٩٦٢م .
النويري : احمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٢هـ/١٣٣٦م) .
٧٩ - نهاية الأرب في فنون الأدب .
١٨ جزء ، القاهرة ، ١٩٢٣ - ١٩٣١م .
النويري : محمد بن قاسم بن محمد النويري الاسكندراني .
(توفي بعد سنة ٧٧٥هـ/١٣٧٢م)
٨٠ - كتاب الالمام بالاعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية في وقعة الاسكندرية .
تحقيق اتين كومب عزيز سوريال عطية .
٦ أجزاء ، حيدر أباد ، ١٩٦٨ - ١٩٧٣م .
ابن الوردي : عمر بن مظفر (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٨م) .
٨١ - تتمة المختصر في أخبار البشر .
جزءان ، القاهرة ، ١٨٦٨م .
اليافعي : عبد الله بن أسعد (ت ٧٦٨هـ/١٣٦٧م) .
٨٢ - مرآة الجنان وعبرة اليقظان .
٤ أجزاء .
حيدر أباد ١٣٣٧ - ١٣٣٩هـ/١٩١٨ - ١٩٢٠م .
ياقوت : شهاب الدين بن عبد الله الحموي (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٩م) .
٨٣ - معجم البلدان .
٨ أجزاء ، القاهرة ، ١٩٠٦م .
اليوزبكي : توفيق سلطان .
٨٤ - تاريخ تجارة مصر البحرية في العصر المماليكي .
الموصل ، ١٩٧٥م .

* * *

إعادة بناء الفكر الديني عند ابن المقفع

مفهوم الدين في أدبيه الصغير والكبير

سعيد حسين منصور
أستاذ بقسم اللغة العربية جامعة قطر

نريد أن نبدأ هذا البحث بما انتهى اليه أحمد أمين في آخر حديثه عن ابن المقفع في ضحى الاسلام ليكون ذلك في الوقت نفسه امتدادا لبحث سابق[1] عن دور العقل في أدب هذا الكاتب الأديب المفكر كما يمثله كتاب الأدب الصغير . . غير أننا ننتقل هنا نقلتين ، نقلة من العقل الى الدين ، ونقلة أخرى لتضم الأدب الكبير الى الأدب الصغير ولانريد هنا أن نتجاوز هذا القدر الى غيرهما من كتابات ابن المقفع لأسباب كثيرة تتضح لنا خلال خطوات البحث غير أن الذي لابد أن نشير اليه الآن من هذه الأسباب أن الكتابين يشملهما لون من ألوان الوحدة الفكرية يصطبغ بروح واحدة تسري عبر كلماتها ، لاشك أنه اذا كان يطبع كتابات ابن المقفع بطابع عام الا أنه يتبلور في الكتابين على نحو خاص . . هذا سبب أول . . وسبب ثان يتمثل في صعوبة القضية . . قضية الدين في فكر ابن المقفع . . فهي قضية شائكة معقدة محيرة الى أبعد حد . . تضاربت فيها الآراء وكثرت فيها التهم في القديم وفي الحديث أيضا . . واذا كانت في القديم قد أدت الزندقة بحق أو بغير حق الى مقتله . . وتناقلتها الروايات والأخبار مما حشدته الكتابات الحديثة في كل كتاب أو فصل أو مقال أو مجموع من الصفحات يتناول ابن المقفع من قريب أو بعيد . اذا كان هذا شأن القضية في القديم فهي في الحديث قد اختلف الباحثون في أمرها أيضا . . وان كان منهم من دافع عن الرجل خاصة أنه لم يعلن اسلامه الا في مرحلة متأخرة من حياته . . ونحن لانريد أن نخوض في هذه الامور كلها الآن ، وان كنا قد اتفقنا على أن تكون نقطة بدئنا هي ما انتهى اليه أحمد أمين في قوله عن ابن المقفع :

---

(١) دور العقل في أدب ابن المقفع - حولية كلية الانسانيات والعلوم الاجتماعية - جامعة قطر (العدد السادس ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣) - ص١٣٥ - ١٦٥ .

« ان نبله وعلو خلقه أتيا من طريق الفكر والفلسفة ، لا من طريق الدين ، ورجال الخلق قد يكون خلقهم تدينا ، وقد يكون خلقهم تفلسفا . فأخلاق الحسن البصري العالية - مثلا مبعثها الدين ، يتجلى ذلك في حكمه وأقواله وسيرته . فهو يصدق ويحسن ويعدل لأن الله أمر بالصدق والعدل والاحسان ، أما ابن المقفع فباعثه الخلقي فلسفي ، يصدق لأن في الصدق شرفا ورفعة ، ولو لم يأمر به دين لكان في نفسه حسنا ! يظهر ذلك في حكمه ، فقل أن يستند في قوله الى آية أو حديث ، وانما يعلل ذلك تعليلا عقليا ، فهو رجل مدني وعالم مدني ، لا رجل دين ولا عالم دين . يتجلى في أقواله ايمان بالله ، وايمان بدين ، لكن لايتجلى فيها ايمان بتفاصيل دين (٢) » .

نريد أن نضع هذا كله على بساط البحث ، وأن يكون بذلك منطلق نظرنا في الأمر . . وأن ينحصر النظر في الأدبين كما ذكرنا ، عسى أن تتضح الملامح في دائرة أحكمت ، حلقاتها اذ لاشك أن الامور تتشعب وتختلط اذا تركناها تتسع على مساحة أوسع . . والقضية شائكة . . وان كانت الساحة كلها لابد أن يشملها النظر . . وتحتاج المساحة اذن الى أن ترتب عبر مراحل . . وأن تتدرج الخطى في كل مرحلة منها . . فليكن أول ما يكون النظر في أمر الخالق والمخلوق .

(١)

من أول الأمور التي تشغل تفكير ابن المقفع في الأدبين قضية الخلق ، بل ان قلمه ليلهج بذكر الخالق والمخلوق . . وليس الخالق سبحانه في عقيدة الكاتب المفكر غير الله تعالى . . قدرت قدرته على الخلق . . فكان المخلوق . . ولا يبدأ كتاب الأدب الصغير الا بهذا . . فيسطر أول كلمة فيه على هذا النحو يقول :

« أما بعد ، فان لكل مخلوق حاجة ، ولكل حاجة غاية ، ولكل غاية سبيلا ، والله وقت للأمور أقدارها ، وهيأ الى الغايات سبلها ، وسبب الحاجات ببلاغها » (٣) .

ولا تكاد تمضي في قراءة هذا النص بعد ذلك أسطرا قليلة حتى ترى الأشياء في الخلق لاتحدث الا باذن الله وحده . . فهو جل شأنه صاحب الاذن والأمر والقدرة ، ولاتحدث القوة والحياة في الحبة المدفونة في الأرض ولاتخرج الحياة من يبسها الا باذن الله يقول بن المقفع :

« وكما أن الحبة المدفونة في الأرض لا تقدر على أن تخلع يبسها ، وتظهر قوتها ، وتطلع فوق الأرض بزهرتها ونضرتها وريعها ونمائها ، الا بمعونة الماء الذي يغور اليها في مستودعها ، فيذهب عنها أذى الموت ويحدث لها باذن الله القوة والحياة ، فكذلك سليقة العقل . . . » (ص ٥) .

وابن المقفع في هذا انما يقتبس من قوله تعالى في كتابه الكريم :

« انما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون »

(سورة يس ٨٢)

« كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا باذن الله »

(سورة آل عمران ٤٩)

« والبلد الطيب يخرج نباته باذن ربه »

(سورة الأعراف ٥٨)

واذا كان كل مايحدث انما يكون باذن الله ، فانظر بعد ذلك خاصة في قوله تعالى في هذه الآية الكريمة :

---

(٢) فجر الاسلام - الجزء الأول (بيروت - الطبعة العاشرة) - ص ٢٣٧ .

(٣) رسائل البلغاء - تحقيق محمد كرد علي - (القاهرة - الطبعة الثالثة - ١٣٦٥ / ١٩٤٦) - ص ٤ (سنكتب أرقام الصفحات بعد النصوص المأخوذة من هذه الرسالة) .

« ولا حبة في ظلمات الأرض ولارطب ولايابس الا في كتاب مبين »

(سورة الأنعام ٥٩)

ويظهر من هذا أن الحبة المدفونة في الأرض كما جاءت عند الكاتب ليست غير الحبة في ظلمات الارض كما وردت في الآية الكريمة ، وهي لم تخلع يبسها عنه الا لأنها جاءت في الآية يابسة وقد رأينا أن العقل نفسه عند ابن المقفع لايعمل الا تحت ضوء الدين ، فهو يعمل باذن الله وأمره ، يقول :

والعقل باذن الله هو الذي يحرز الحظ . . . » (ص١٧) فلولا اذن الله وأمره للعقل أن يعمل ، ما بدأ العمل ولا سار فيه ولايخرج هذا كله عن الرؤية الاسلامية في شيء ، على نحو مايمضي بعد ذلك في قوله :

« وذلك دليل على أن الناس لم يبتدعوا أصولها ، ولم يأتهم علمها الا من قبل العليم الحكيم » (ص٥)
فابن المقفع في هذا لايقول الا بما جاء في قوله تعالى :
« قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم »

(سورة البقرة ٣٢)

وقوله تعالى :
« ولايحيطون بشيء من علمه الا بما شاء »
(سورة البقرة ٢٥٥)

وبذلك تسلك الأساليب البلاغية والصور البيانية القرآنية طريقها الى أسلوب الكاتب ، لا لتوجه فنه الأدبي من ناحية الشكل فحسب ، بل لتعينه على بلورة الفكرة أيضا من ناحية المضمون ، والفكرة هنا فكرة دينية . ولتنظر معي بعد ذلك في قوله :

« وكالنحل وجدت ثمرات أخرجها الله طيبة ، وسلكت سبلا جعلها الله ذللا ، فصار ذلك شفاء وطعاما وشرابا منسوبا اليها ، مذكورا به أمرها وصنعتها » . (ص ٦) .

مرة أخرى يتدرج موضوع النحل هذا في صميم عملية الخلق التي تقف عندها ، واذا كنا قد وصلنا مع الخلق الى دائرة النحل ، فانظر الى قوله تعالى :

وأوحى ربك الى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون . ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ان في ذلك لآية لقوم يتفكرون »

(سورة النحل ٦٨ ، ٦٩)

فهل خرج قول ابن المقفع هنا عن كلام الله تعالى في شيء ، أليست ألفاظ المعجم القرآني نفسها هي التي استخدمها ؟ بل هو المعنى بعينه ، الا يتيح هذا أن تكون هي العقيدة الدينية التي نص عليها القرآن في قضية الخلق ؟!

وفيما يخص قضية الخلق أيضا يعرض ابن المقفع لاثبات وجود الله والسبيل الى معرفته عن طريق دلالة الخلق على الخالق . . ومنرى من النص الآتي أنه يتضمن نفيا لقدم العالم ومعارضة الدهرية ، حتى هؤلاء الذين أصابهم الشك في الله تعالى لايرى ابن المقفع الا أنهم قد أقروا بانهم أنشئوا حديثا . . فهذا هو السبيل الموصل عنده الى الحق . . والحق هو الله تعالى . . يقول في الأدب الصغير :

« مما يدل على معرفة الله ، وهو سبب الايمان ، أن وكل بالغيب لكل ظاهر من الدنيا ، صغير أو كبير ، عينا فهو يصرفه ويحركه . فمن كان معتبرا بالجليل من ذلك فلينظر الى السماء فيعلم أن لها ربا يجري فلكها ، ويدبر أمرها ، ومن اعتبر بالصغير فلينظر الى حبة الخردل فيعرف أن لها مدبرا ينبتها ويزكيها ، ويقدر لها أقواتها من

الأرض والماء ، يوقت لها زمان نباتها وزمان تهشمها ، وأمر النبوة والأحلام وما يحدث في أنفس الناس من حيث لايعلمون ثم يظهر منهم بالقول والفعل ، ثم اجتماع العلماء والجهال والمهتدين والضلال على ذكر الله تعالى وتعظيمه ، واجتماع من شك في الله تعالى وكذب به على الاقرار بانهم أنشئوا حديثا ومعرفتهم أنهم لم يحدثوا أنفسهم . فكل ذلك يهدي الى الله ويدل على الذي كانت منه هذه الأمور ، مع مايزيد ذلك يقينا عند المؤمنين ، بأن الله حق كبير ، ولايقدر أحد أنه باطل » .

(ص ٢٢-٢٣) .

لايحتاج هذا النص على نحو ما نرى الى كبير جهد لرؤية الأثر القرآني في أسلوبه وبلاغته ، وفي فكره وفلسفته معا ، من تأمل في الكون وتحليق في أرجائه من السموات الى الأرض بل من فلك السماء الى حبة الخردل .. من أجل الاهتداء الى الصانع الأكبر ، عالم الغيب ، مدبر الأمر ، وبهذا يصل ابن المقفع الى معرفة الله ، والايمان به .. مثلما جاء في قوله تعالى
« ثم استوى على العرش يدبر الأمر »

(سورة يونس ٣)

« وقضى الأمر والى الله ترجع الأمور »

(سورة البقرة ٢١٠)

« والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم »

(سورة البقرة ٢١٣)

ومن صور الايمان بالغيب يذكر ابن المقفع في النص السابق مسألة النبوة والأحلام ، فهو يؤمن بالنبوة وان لم ينص هنا على نبوة محمد عليه الصلاة والسلام ، لكنه يقرن النبوة بالأحلام تمشيا مع الفكرة الاسلامية ، اذ يروي البخاري بسنده عن عائشة أم المؤمنين « أنها قالت أول مابدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم فكان لايرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح »[4] والحديث الشريف أيضا يقول :

« الرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة »[5]

وتتمثل في النبوة اذن وفي الأحلام والرؤي الصادقة صور العلاقة التي تربط بين الخالق والمخلوق ، كما تبدو في نظرة ابن المقفع الى الوجود

(٢)

نصل من هذا بعد قضية الخلق واثبات وجود الخالق الأعظم ، والايمان بالغيب ، الى العلاقة بين الخالق والمخلوق ، تلك العلاقة التي لاتقوم عند ابن المقفع إلا بالدين فلا يعني الدين عنده سوى أن يكون حبلا جعله الله ليعتصم الناس به ، والانفكاك عن هذا الحبل عنده أيضا لاشك يلقي بالانسان من حالق ، فلا يدري بعد ذلك أين يكون موضع قدمه . والكاتب الأديب المفكر حين يقدر العقل حق قدره لاينفصل به عن حظيرة الدين ، أو يبتعد عنه . وها هو ذا يتبلور مفهوم الدين واضحا في هذه الصورة حين يقول :

« الدين أفضل المواهب التي وصلت من الله تعالى الى خلقه ، وأعظمها منفعة ، وأحمدها في كل حكمة ، فقد بلغ فضل الدين والحكمة أن مدحا على ألسنة الجهال على جهالتهم بها وعماهم عنها » .

(ص ٢٠)

فما دام الدين هبة من الله تعالى كما يرى ابن المقفع يمنحها للانسان ليربط به ما بينه وبين خالقه برباط

(٤) صحيح البخاري - (دار احياء التراث العربي - بيروت - بدون تاريخ) ج ١ ص ٣ .

(٥) صحيح مسلم - الجزء الرابع - (دار احياء التراث العربي - بيروت - الطبعة الثانية - ١٩٧٢) - ص ١٧٧٣ .

وثيق ، فهو اذن هبة إلهية ، أو هو صنع رباني ، وليس نتاج عقل انساني ، فالعقل البشري لايستطيع أن يشرع لنفسه الدين ، بل ان محاولة ذلك لاتؤدي الا إلى فقدان الدين . يقول :

« فصل مابين الدين والرأي أن الدين يسلم بالايمان ، وان الرأي يثبت بالخصومة . فمن جعل الدين خصومة فقد جعل الدين رأيا ، ومن جعل الرأي دينا فقد صار شارعا ، ومن كان هو يشرع لنفسه الدين فلا دين له » . ويقول :

« قد يشتبه الدين والرأي في أماكن لولا تشابهها لم يحتاجا الى الفصل » . (ص ٢١) .

هذه قضية سبق أن عرضنا لها وبينا أن ابن المقفع - على عكس ما كان يظنه الكثيرون - يرفض الشريعة العقلية [٦] . ولكننا ونحن نترك جانب العقل هنا لنتنقل الى جانب الدين لانرى الا أن الفكرة الدينية تتغلغل في ذهن الرجل كما تعانق عقيدته وتتعلق بايمانه . ونحن لانفعل سوى أن نستخلص من الكلمات معناها ، وأن نستشف من هذا المعنى ما يمكن أن يكون وراءه من أشياء ، لانضيف اليه شيئا من هنا أو هناك ، أو نقتطع جزءا من شيء وضعه الكاتب في موضعه غير مقتطع ، غير أننا بطبيعة الحال نعمل على تنظيم الأفكار وتنسيق هيكلها وبناء طبقاتها طبقة فوق طبقة عسى أن تعيننا هذه المحاولة على اعادة بناء التفكير الديني عند ابن المقفع بما يمكن من التوصل الى حقيقة الرؤية الدينية عنده ومداها وابعادها وهو انما يؤكد على هذا بما لايختلف كما نرى - على أقل تقدير - عن الرؤية الاسلامية . وها هو ذا يوطد العلاقة الدينية بين الانسان وخالقه ، وهي علاقة بين العبد والرب المعبود ، وهو اذ يجعل للعاقل ساعات أربع يقسم وقته بينها ، يكون أولها : « ساعة يرفع فيها حاجته الى ربه » (ص١٣) .

ومن هنا لايكون الانسان عاقلا الا اذا اتصل بالله . ويقول :

« قد بلغ فضل الله على الناس من السعة ، وبلغت نعمته عليهم من السبوغ ، مالو أن أخسهم حظا ، وأقلهم منه نصيبا ، وأضعفهم علما ، وأعجزهم عملا ، وأعياهم لسانا ، بلغ من الشكر له والثناء عليه بما خلص اليه من فضله ، ووصل اليه من نعمته مابلغ له منه أعظمهم حظا ، وأوفرهم نصيبا ، وأفضلهم علما ، وأقواهم عملا ، وأبسطهم لسانا ، لكان عما استوجب الله عليه مقصرا ، وعن بلوغ غاية الشكر بعيدا . ومن أخذ بحظه من شكر الله وحمده ، ومعرفة نعمة الثناء عليه ، والتحميد له ، فقد استوجب بذلك من أدائه الى الله ، والقربة عنده ، والوسيلة اليه والمزيد فيما شكره عليه ، من خير الدنيا وحسن ثواب الآخرة » . (ص٢٠)

ويؤكد الكاتب على هذه المعاني الدينية السابقة ، بل انها لتصطبغ أحيانا بصبغة صوفية ، معاني القرب من الله ، وحب الله ، وحب حكمته ، والشكر له ، والطاعة والصلاح ، فلا يكون أحكم الناس الا أبعدهم من الشك في الله ، ولا يكون أصوبهم الا أوثقهم به تعالى ، ولا يكون أحقهم بالنعم الا أشكرهم لما أوتي منها . بل انه يعبر عن معاني الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهي معاني كلها أصيلة في الايمان ، لاتكون الا وليدة الدين ، يقول :

---

(٦) البحث المشار اليه سابقا - حولية كلية الانسانيات - جامعة قطر - العدد السادس ص ١٥٣ ، ص ١٦٣ - ١٦٥ .

« أفضل ما يعلم به علم ذي العلم وصلاح ذي الصلاح ، أن يستصلح بما أوتي من ذلك من استطاع من الناس ، ويرغبهم فيما رغب فيه لنفسه من حبّ الله ، وحب حكمته ، والعمل بطاعته .. وأقربهم من الله أنفذهم في الحق علما ، وأكملهم به عملا ، وأحكمهم أبعدهم من الشك في الله ، وأصوبهم رجاء أوثقهم بالله .... وأحقهم بالنعم أشكرهم لما أوتي منها » ويقول : « وليكن شكورا ليستوجب الزيادة » . (ص ٢٠ - ٢١ ، ٢٤)

فالكاتب في هذا كله لا يرى الا أن الآيات القرآنية تتلالا أمام عينيه وهو يسطر كلماته ، « ولأن شكرتم لأزيدنكم » ، في حين أنه المتهم بمعارضة القرآن ، وفي الأدب الصغير وحده أقام الكاتب محرابا من الفكر الديني الذي اذا ما أعيد بناؤه وجدناه يصعد في خط واحد عمودي لا يميل عنه ، ومع أن الأدب الصغير وحده ينهض بهذا كله خير نهوض ، فلننظر معي فيما يقوله الكاتب أيضا في الأدب الكبير ، فلا يكاد يبدؤه بعد مقدمته الا يباب في أصول الأدب في الدين ، وان كان موضوعه قد شغل أكثر ما شغل بغير الدين من أمور ، يقول :

« أصل الأمر في الدين أن تعتقد الايمان على الصواب ، وتجتنب الكبائر ، وتؤدي الفريضة ، فالزم ذلك لزوم من لاغناء عنه طرفة عين ، ومن يعلم أنه ان حرمه هلك . ثم ان قدرت على أن تجاوز ذلك الى التفقه في الدين والعبادة فهو أفضل » (ص٤٢) .

واضح أن في هذه الاسطر القليلة - على ايجازها - شيئا من تفاصيل الدين ، ففيها من مظاهر الايمان الصحيح ، ومن الصواب في الاعتقاد لزوم العبادة ، واداء الفريضة ، وتجنب الكبائر . بل ان في الالتزام بالحدود من الأوامر والنواهي نجاة من الهلاك . ولا يقف هذا عند حد الدعوة الى الاعتقاد في الدين بل يتجاوزه الى الحث على التفقه فيه ، وكلام ابن المقفع لا يعني الا أن المزيد من العلم بالدين يؤدي الى المزيد من الايمان ومزيد من العبادات ، فتتوثق الصلة بين الانسان وخالقه ، وهي صلة وسيلتها الدين ، ومن هنا ترسخ منزلة الدين وتتوطد دعامة ميزانه . وتتعدد صور هذا في أدبه ، ولننظر في صورة الامام في الدين كيف تكون منزلته ، وعلى أي نحو تكون الحقيقة فيه مما يتصل بمعاني القدوة والأسوة والسيرة ، وهي معان استمدت أول ما استمدت في الاسلام من شخصية رسوله عليه الصلاة والسلام متمثلة في سنته ، لكن ابن المقفع يقول :

« ومن نصب نفسه للناس اماما في الدين ، فعليه أن يبدأ بتعليم نفسه وتقويمها في السيرة والطعمة والرأي واللفظ والاخوان . فيكون تعليمه بسيرته أبلغ من تعليمه بلسانه . فانه كما أن كلام الحكمة يونق الاسماع ، فكذلك عمل عمل الحكمة يروق العيون والقلوب . ومعلم نفسه ومؤدبها أحق بالاجلال والتفضيل من معلم الناس ومؤدبهم » . (ص١٤) .

فاذا كان في هذا النص السابق أمور تتصل بالاخلاق العملية ، من تمييز بين اللسان والسيرة ، أو بين كلام الحكمة وعمل الحكمة ، فان انتهاء هذا كله انما هو انتهاء الى الدين ، والمثال الذي يحتذي يتمثل في الامام في الدين . واذا لم يكن قد ورد ذكر لفظ القرآن أو ذكر الرسول عليه الصلاة والسلام أو التصريح باسم الدين الذي يتحدث عنه في هذه المواضع الآن ، فان لهذا شأنا

آخر سنراه فيما بعد . . لكن الذي تراه معي هنا هو أن المعاني قد سبقت الالفاظ ، فقد رأينا المعاني القرآنية بكل ما تتبلق به من فكر وبيان تسبق الاستشهاد بالنص القرآني نفسه من الآيات .

ومن هنا فإنه اذا لم يكن قد جرى فيما مضى من كلامه آي الذكر الحكيم يتلوه لسانه فانه قد سرى في أعماق تفكيره وجرى لغته ومسالك أسلوبه ليوجه تيار أدبه وجهة لا تختلف عن الوجهة الدينية الاسلامية . واذا كان ابن المقفع قد ذكر أنه وضع في هذا الكتاب أو في غيره « من كلام الناس المحفوظ حروفا ، فيها عون على عمارة القلوب وصقالها وتجليه أبصارها ، واحياء للتفكير ، واقامة للتدبير ، ودليل على محامد الأمور ومكارم الأخلاق (ص٨) . . مما يمكن أن يكون في كلام الناس هذا من أخذ عن الثقافة الفارسية ونقل عن حكماء الفرس أو من غيرهم ، فان هذا لا يمنع - بكل ما رأيناه من أدلة دون أن نقصد الى الاحصاء أو الاستقصاء أن تكون له ثقافة اسلامية وفكر ديني وأن يقتبس من البلاغة القرآنية وهو الذي لا يكتب الآن الا بلغة الاسلام ولا يعبر الا بالبيان العربي . . ومع هذا كله فنحن لا نقول انه كان عالما من علماء الدين أو أنه كان داعية من دعاته وهو الذي لم يسلم الا في مرحلة متأخرة من حياته . . وانما هو كاتب أديب مفكر كان صاحب فكر ديني لا شك كما كان صاحب فكر اجتماعي وأخلاقي وسياسي كذلك . . ونحن انما نتعرف على وجهة هذا الفكر الديني من خلال تنظيم حركته ورصد اتجاهاته ورد ما يمكن أن يرد منه الى مصادره الاسلامية .

وأنا أرى أنك تريد أن تذكر ذلك لتقيم فكر الرجل على غير هذا كله . . لتقع بذلك تحت تأثير أحكام وأفكار مسبقة . . لكن الذي ينبغي أن أشير عليك به الآن في هذا الموقف كما ينبغي أن يشار اليه في كل موضع هو أنه لا يصح أن تسبق الزمن فتسرع بالخروج على ما سبق بيانه لتحتفي بذلك على أن تتعجل الاحكام . . فلا خير في عجلة تؤدي بصاحبها الى فساد الأمر كله . . وقد اتفقنا على أن نسير في الأمر على مهل فنلتزم الاناة مبتعدين تماما عن أي اندفاع . . مما اندفع فيه بعض الدارسين في الحكم على ابن المقفع حتى غدا الأمر يشبه المسرح الذي تتردد في جنباته أصداء الهتاف ورنات التصفيق أو كالزحام الذي تتدافع فيه الأيدي وتتلاطم الاقدام . . وسترى أمثلة لهذا مما لا يغيب عنك معرفته . . كما لا يغيب عني أنك تريد أن تثير من الأمثلة الآن ما ترى أنه لا بد أن يثار . . لكننا ينبغي ألا نشغل في هذا الموضع بغير ما شغلنا به من كلام الرجل نفسه ، حتى لا تختلط الأمور اختلاطا يسوقنا الى مسرح أو زحام . والذي لا شك فيه أننا ما دمنا قد أخذنا نسير معا في هذا الطريق الذي سار فيه الكثيرون منذ أيام ابن المقفع الى اليوم ، فلا بد اذن والأمر كذلك أن نضيء معا جنبات الطريق ليكون كل شيء أمامنا واضحا غير مظلم . . وان كان هذا لا يعني أن تكون وسائلنا في اجتياز الطريق ينبغي أن تكون هي بالضرورة وسائل الأخرين ممن دافع عن الرجل أو ممن اتهمه أو ممن أغلظ في التهمة حتى قتل فكر الرجل مقتلا فوق ما كان من بشاعة مقتله . الا يكون إذن من حق الحقيقة أن تعيد النظر معي في هذا الفكر بصبرك وأناتك دون أن تدافع عنه من حيث أسباب دفاع أو تتهمه حيث لاتكون دواع لتهمة ، عسانا نستطيع أن نقيم البناء على أساس من خطة أو رسم جديد ، وكل محاولة قد يفشل المرء فيها وقد لايكون مآلها الفشل ، لكنك توافقني على أن الخوف من ذلك ان كان ثمة خوف لاينبغي أن يحول بيننا وبين أن نحاول ، ووسيلتنا في ذلك كله لا يخرج عما سرنا عليه من قبل من اعمال ما أمكن من طرائق الفهم أو التفهم

واستخدام وسائل الاستقراء والاستنباط وأدوات البناء الفكرية المختلفة قدر ما يمكن عمل ذلك والقيام به .

ولقد شغل ابن المقفع كما رأينا بمنزلة الدين ، ورأى الدين أدق ميزان للعمل في الحياة ، لا تنحرف به كفة ، أو تميل به الى غير ما ينبغي أن ترجح به على الأخرى ، فهو مقياس لا يخيب ولا يفسد عمله ، عمله عمل دائم ، واحصاؤه دقيق ، ومع هذا فهو لايبلى على الدهر . لذلك كان لا يحيا المرء عنده في الحياة الا بدينه وعقله ، والعقل عنده لا يكون الا عقلا هذبه الدين وناه وهداه ، ولا يمكن أن يكون الدين عنده في واد والعقل في واد آخر ، وانما لا يرى العقل الا في موقعه في رحاب الدين ، وهو هو العقل نفسه الذي مجده ابن المقفع وأطال الوقوف عنده ، غير أن العقل ما كان ليعمل أو يشع منه ضوء دون أن يكون قد استمد هذا الضوء نفسه من الدين ، وهو في اختزانه هذا الضوء واحتفاظه به والحرص عليه والامتثال له والصدور عنه والانبثاق منه ، انما يسلم من الآفات سلامة الدين منها وسلامة العقل كذلك . ومن هنا لا تكاد تختلف الآفة التي تؤدي الى هلاك الدين عن الآفة التي تؤدي الى هلاك العقل . يقول :

« وكان يقال : عمل الرجل فيما يعلم أنه خطأ هوى ، والهوى آفة العفاف ، وتركه العمل بما يعلم أنه صواب تهاون ، والتهاون آفة الدين ، واقدامه على ما لايدري أصواب هو أم خطأ جماح ، والجماح آفة العقل » . (ص٢٧)

ومن هنا كان حرص ابن المقفع على العلم بالدين يهدف الى حفظ الدين من كل شائبة تشوبه ، حتى أنه ليعدد آفات كل شيء كما سبق ، فلا يرى آفة الدين شيئا غير التهاون ، فاذا جاز التهاون في أي أمر من أمور الحياة فانه لا يجوز التهاون في أمر الدين . ويقول :

« فضل العلم في غير الدين مهلكة ، وكثرة الأدب في غير رضوان الله ومنفعة الأخيار قائد الى النار ، والحفظ الذكي الواعي بغير العلم النافع مضر بالعمل الصالح ، والعقل غير الوازع عن الذنوب خازن للشيطان » . (ص٣٢)

ويقول :

« ولسنا بالكد في طلب المتاع الذي يلتمس به دفع الضر والعيلة بأحق منا بالكد في طلب العلم الذي يلتمس به صلاح الدين والدنيا » (ص٨)

وقد رأينا من قبل دعوته الى التفقه في الدين ، وان كان العلم الذي يصلح به الدين لا يتساوق مع العلم الذي تصلح به الدنيا ، لكن هذا لا يمنع من أن يكون للآخرة علمها ، وأن يكون للدنيا علمها : يقول :

« من اراد أن يبصر شيئا من علم الآخرة فبالعلم الذي به يعرف ذلك ، ومن أراد أن يبصر شيئا من علم الدنيا فبالأشياء التي هي تدل عليه » . (ص٢٤)

ويقول :

« ليكن المرء مسترلا ، وليكن فصولا بين الحق والباطل . . وليكن ذا حياء لئلا يستهم للعلماء ، فان مخافة العالم مذمة العلماء أشد من مخافته عقوبة السلطان » . (ص٢٥)

والعلماء الذين تخاف مذمتهم ليسوا عنده الا علماء الدين ، أو هم الاتقياء على نحو ما يعود بعد ذلك فيقول حين يضع الأتقياء قبل غيرهم من الناس :

« لا يستخدم ذو العقل بأحد ، وأحق من لم يستخف به ثلاثة : الأتقياء ، والولاة ، والاخوان . فانه من استخف بالاتقياء أهلك دينه ، ومن استخف بالولاة أهلك دنياه ، ومن استخف بالاخوان أفسد مروءته » . (ص٢٩) .

بل أنه حين يصنف أصحاب السلطان من الملوك لايراهم الا ثلاثة ، ولا يكون أولهم الا ملك دين ، يقول في الأدب الكبير :

« اعلم أن الملوك ثلاثة : ملك دين ، وملك حزم ، وملك هوى . فأما ملك الدين فانه اذا أقام لأهله دينهم ، وكان دينهم هو الذي يعطيهم الذي لهم ويلحق بهم الذي عليهم ، أرضاهم ذلك ، وأنزل الساخط منهم بمنزلة الراضي في الاقرار والتسليم . . . . » . (ص٤٩)

ويقول في آداب السلطان :

« لتكن حاجتك في الولاية الى ثلاث خصال : رضى ربك ، ورضى سلطان ان كان فوقك ، ورضى صالح من تلي عليه . ولا عليك أن تلهى عن المال والذكر ، فسيأتيك منهما ما يكفي ويطيب . . . » ويقول : « اعرف أهل الدين والمروءة في كل كورة وقرية وقبيلة ، فيكونوا هم اخوانك وأعوانك وبطانتك وثقاتك » . (ص٤٥)

والمروءة اذا ليست زي الدين لم تكن في الاسلام شيئا غير التقوى ، فقد عرفت الجاهلية المروءة . . . لكنها لم تعرف التقوى . . والدين والمروءة الآن عند ابن المقفع توأم متجانس ، لا يصلح عقل بغيرهما ، فهو يقول في الأدب الصغير :

« أمور لا تصلح الا بقرائنها : لا ينفع العقل بغير ورع . . ولا المروءة بغير تواضع . » .

ثم يقول :

« أمورهن تبع لأمور ، فالمروءات كلها تبع للعقل » . (ص٢٨)

واذا كان للدين أهله فإن للدين كذلك اخوانه ، وهم عند ابن المقفع أفضل الاخوان ان كنت تبحث في أمر الاخاء لتبتعد عن صداقة السوء . . يقول في الأدب الكبير :

« اذا نظرت في حال من ترتئيه لاخائك ، فإن كان من اخوان الدين فليكن فقيها ليس بمراء ولا حريص ، وان كان من اخوان الدنيا فليكن حرا ليس بجاهل ولا كذاب ولا شرير ولا مشنوع . (ص٧٧)

هذا وأنا أعلم ما سيدور بخلدك حين تنظر في ذكره لاخوان الدين ، فستقول انه يذكر اخوان الدين ولا يصرح بذكر المسلمين ، فأي دين ذلك الذي يتحدث عنه ؟ ولكنك لا تنس أنه يوازن بين اخوان الدين واخوان الدنيا ، فالمقابلة في الأصل بين هؤلاء وأولئك وأهل كل منهما . . وان كنت لا زلت أرى أن قضية التصريح أو التلميح هذه من الأمور التي لا زالت قيد بحث ، وموضع نظر . . ولم العجلة مما لا يمكن أن نصل منه الى شيء . . الا اذا أردت أن تسرع الخطو لتعود بنا من حيث أتينا ، وما هذا الذي أرتضيه أو ترتضيه . وعلى ذلك فإن عليك أن تنظر كذلك في قوله :

« لا يثبت دين المرء على حالة واحدة أبدا ، ولكنه لايزال اما زائدا واما ناقصا » . (ص٢٦) .

ان نظرك في هذا القول لا شك يثير أشياء كثيرة ، غير أنى هنا سأعطيك من القول وقد استجبت لما طلبته منك . . ولم أكن أريد كما عرفت منذ أول هذا الحديث أن أشغلك بالآراء والاحكام التي طالما أسرع الباحثون للادلاء بها والتوصل اليها والتأكيد عليها . . لكنني وقد أعطيتك من القول سأدعك تستمع معي الى مثال من أمثلة تلك الآراء والاحكام ، ويحسن أن نضع الصورة بكاملها - ما أمكن - حين نظر الدكتور عبد اللطيف حمزة في هذا الأمر الذي نحن فيه ومضى ليقول (٧) :

أما كتاب « مزدك » فقد نسب في الفهرست الى ابن المقفع . وقيل أن أبان بن عبد الحميد اللاحقي قد نظمه كما نظم « كليلة ودمنة » . ثم لا يكاد الباحثون يعلمون عنه فوق ذلك شيئا . ومن أجل ذلك آثرت أن أشير اليه فيما أشير اليه من الآثار التي يمكن أن تكون موضعا للشك . ولست أدري علام اعتمد العلامة « نولدكه » - كما نقل عنه ذلك الأستاذ « براون » في كتابه تاريخ الأدب الفارسي - حين قال الأول « انه كتاب أدب وضع للتسلية ويعتبر بمصاف كليلة ودمنة ولا تضر قراءته مسلما » . لست أدري - في الحق - كيف قال هذان العالمان الكبيران ذلك . والى أي شيء استندا في هذا القول . والكتاب نفسه مفقود ، ولم يكد يشير اليه مصدر من المصادر القديمة عدا الفهرست . وغاية القول عندي في هذا الكتاب أن اسمه قد يدل عليه ، ومن يدري لعل ابن المقفع كتبه في الفترة التي كان يستعرض فيها الأديان دينا دينا . وهو بسبيله - كما ذكرت ذلك من قبل - الى البحث في هذه المشكلة الهامة التي شغلته وهي مشكلة « حرية الارادة » . فهل صحيح أن الانسان يعتبر حرا في ارادته فهو مسئول حقا عن هذه الأفعال التي تصدر عنه وهو يختار لنفسه هذه الأفعال ولا يختارها الله له ؟ يظهر أن ابن المقفع كان يلقي على نفسه حينا بعد حين مثل هذا السؤال . ويظهر أنه كان حريصا في هذه الفترة على أن يسجل نزعاته تسجيلا دقيقا يستفيد منه في الوصول الى حل واضح لهذه المشكلة التي أثارها على هذا المثال . ومن يدري لعله ابتدأ بالاسلام ، وهو دين الدولة ، فعرضه على عقله وكتب في فضائله ؟ ثم نظر في المزدكية وهي دين آبائه وأجداده فكتب مثل هذا الكتاب الذي ساقنا مرة أخرى الى الكلام في الزندقة ، ومن يدري لعله بعد ذلك لم يشأ أن يقنع بجواب عن هذه المسألة في هاتين الديانتين ، وانتهى به الأمر الى أن كتب في « المانوية » فجاءت كتابته في هذه الديانة دالة على ارتياحه اليها ، وظفره فيها بالجواب الذي أراد ؟ ولا تعجب أن تمر بالرجل كل هذه الاطوار فهو القائل في كتابه « الأدب الصغير »

« لايثبت دين المرء على حال واحدة أبدا ، ولكنه لا يزال اما زائدا واما ناقصا » . (ص٢٦) .

وبذلك نكون قد عدنا الى عبارتنا ، وبعودتنا اليها بعد كل ما مرينا لا شك أنك ستعجب معي من كل ما رأيته من افتراضات لاطائل وراءها يتلو بعضها بعضا دون أن تؤدي الى شيء يمكن الافادة منه . واذا كان الأصل في الكلام السابق هو كتاب « مزدك » فان الكاتب نفسه قد صرح أنه يشير اليه - والكتاب مفقود - باعتباره من الآثار التي يمكن أن تكون موضع الشك . .

(٧) ابن المقفع (القاهرة - الطبعة الثانية) - ص١٥٧ - ١٥٨ .

وكان هذا الشك كفيلا في أن يحول بيننا وبين أن نمضي طويلا في مثل هذه الافتراضات . . وأما بحث ابن المقفع في الاديان واستعراضها دينا دينا ، ثم بحثه في المشكلة الهامة التي كانت تشغله وهي مشكلة حرية الارادة . . فليس بين أيدينا شيء يمكن أن يدل على ذلك . . فالترجمات التي تنسب الى ابن المقفع هي أعمال قصد منها الترجمة ، أما ما وصلنا من كتابته مما يمكن أن يكون من تأليفه فليس فيه ما يدل على حيرة في مشكلة حرية الارادة . . فقد رأينا ابن المقفع يمجد العقل ورأيناه يعمل على تأديبه وتهذيبه حتى يحقق بصحته وسلامته وعمله في ظل الدين صلاح الدين والدنيا ، ومعنى ذلك كله أنه كان يرى أن الانسان حر في ارادته وأنه لم يكن ليقبل شكلا من أشكال العقيدة الجبرية وهو الذي آمن بالثواب والعقاب وآمن بالجنة والنار وأن في قدرة الانسان التي وهبها الله اياه أن يختار الانسان طريق الصلاح أو غير هذا الطريق . بل انه كان يؤمن بالغيب كما رأينا ، ويؤمن من صور هذا الغيب بحقيقة الشيطان ، وما يحث عليه من ذنوب تسوق الانسان الى جهنم . . يقول في الأدب الصغير :

« حياة الشيطان ترك العلم ، وروحه وجسده الجهل ، ومعدنه في أهل الحقد والقساوة ومثواه في أهل الغضب ، وعيشه في المصارمة ، ورجاؤه في الاصرار على الذنوب » . (ص٢٥) .

ويقول : « ليكن المرء سئولا ، وليكن فصولا بين الحق والباطل . . وليكن ودودا لئلا يكون معدنا لأخلاق الشيطان » . (ص٢٤) .

ويقول : « أشجعهم أشدهم على الشيطان ، وأفلحهم بالحجة أغلبهم للشهوة والحرص ، وآخذهم بالرأى أتركهم للهوى ، . . . . وأحقهم بالنعم أشكرهم لما أوتي منها » . (٢١) .

ومن كان هذا قوله لا يمكن إلا أن يكون رأيه هو الرأى القائل بحرية الارادة ، فالاستطاعة عند الانسان قادرة إذا أراد أن تغلب الشهوة والحرص ، وأن تأخذ بالرأى وتترك الهوى ، وأن تفصل بين الحق والباطل ، فتتبع الحق إذا أرادت وتترك الباطل إن شاءت ، وهى بعد هذا كله شديدة على الشيطان قادرة عليه ، لأن الله تعالى وقد خلق الشيطان فقد خلق في الانسان العقل المهتدى القادر على اختيار طريقه فلا يندرج في حزب الشيطان أو يتبع هواه . والذى بين أيدينا من كلام ابن المقفع يدل على ذلك ، بل إن الأدب الصغير والأدب الكبير والآداب كلها ليست إلا غذاء يقوّم به الكاتب العقل ليعينه على النفس في طريق الصلاح ، هذا فيما يخص العقل ، وأما فيما يخص الدين فهو ما نحن فيه منذ بدأنا القول فيه ، وسنرى بعد قليل كيف يعرض ابن المقفع لأمر النفس في مجاهدتها الأهواء وصراعها معها ، مبينا السبيل الذى تستطيع بسلوكه أن تنجح في ذلك . . وهو السبيل نفسه الذى تسلكه حرية الارادة .

ولقد كنت حريصا منذ بدأت معى النظر في القضية أن نمضي معا في محاولتنا حتى نفرغ من إعادة البناء الفكرى عند ابن المقفع استنادا إلى ما يقوله الرجل من ناحية واعتمادا على استخدامنا لأدوات البناء من ناحية أخرى دون أن تدخل في شيء من ذلك الزحام الذى سبقت الأشارة اليه ، غير أن مثالا صغيرا كهذا ربما يزيل عنك بعض الشكوك التى قد تعترض الطريق لنمضى بعد ذلك فيما نحن فيه ، وقد رأيت أن هذا المثال أخذ يفترض أن ابن المقفع ابتدأ « بالاسلام » وهو دين الدولة فعرضه على عقله وأنه نظر بعد ذلك في « المزدكية » وهى

دين أجداده فكتب كتاب مزدك - وهو موضع شك - مما قاده إلى الزندقة ، ثم لما لم يقنعه هذا ولا ذاك ، كتب في « المانوية » « فجاءت كتابته في هذه الديانة دالة على ارتياحه إليها وظفره فيها بالجواب الذي أراد » . ولكن الذي نعرفه مما ذكرته المصادر القديمة وردته المراجع الحديثة أن ابن المقفع نشأ مانويا أو مجوسيا ثم أعلن إسلامه في قصة كثر تردادها ، فاهتداؤه إلى الاسلام كان آخر ما توصل إليه ، وربما أمكننا التوصل إلى شيء من ذلك في محاولة الاقتراب من الحقيقة استنادا إلى ما بين أيدينا من النصوص ، على ما يكتنف هذا بطبيعة الحال من صعاب .

أما عبارة ابن المقفع السابقة في عدم ثبات دين المرء على حالة واحدة وتعرضه للزيادة والنقصان ، فليس هذا دليلا على مروره بهذه الأطوار العقائدية التي سبق تصورها ، وإنما فيها دليل على تلك القضية التي كان قد بدأ يجادل فيها علماء الكلام حينما دار الجدل في مسائل العقيدة .. مما عاصره ابن المقفع .. والقضية هي قضية الايمان فيما إذا كان شيئا ثابتا بمعنى أن يكون إيمانا أولا يكون ، أو أن يكون شيئا متغيرا يقبل الزيادة والنقصان . وفي آيات القرآن ما يشهد بصحة ما ذكره ابن المقفع ، إذ نقرأ قوله تعالى « ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم » (سورة الفتح ٤) فإيمانهم اذن لم يثبت على حال واحدة ، وإنما قبل الزيادة ، فازدادوا إيمانا ، مع أنهم كانوا قبل الزيادة في إيمانهم مؤمنين . وقول ابن المقفع في العبارة السابقة لا يعكس شيئا غير هذا ، ولا علاقة له بأية أطوار أو شكوك دينية يفترض المفترضون أن يكون قد تنقل بينها .

وما دمنا قد طرقنا هذا المثال ، فلنمض معه إلى آخره حيث يقول الدكتور عبد اللطيف حمزة : « ثم هو القائل في نفس الكتاب (أي الأدب الصغير) ، وقد أتعبه الشك وأضناه العذاب : « المؤمن بشيء من الأشياء وإن كان سحرا خير ممن لا يؤمن بشيء ولا يرجو معادا » (رسائل البلغاء ص ٢٥) . فما أقرب الشبه بين ابن المقفع في هذا الكلام وبين أحد فلاسفة الاسلام ، وكان ممن يصطنعون الشك في تفكيرهم وفلسفتهم ، حتى كاد الشك أن يضلهم ويذهب بعقولهم ، فصاح في نفسه قائلا « اللهم إيمانا كإيمان العجائز » .[٨]

ليس في قول ابن المقفع هذا ما يصور شكا كاد أن يضله ويذهب بعقله حتى تمنى إيمانا كإيمان العجائز ، لأن كل ما بين أيدينا إنما يدل على أن إيمان ابن المقفع كان يستند إلى العقل ويحكمه الدليل والبرهان ، وقد رأيناه كيف حلق في فضاء الوجود ليصل من ذلك إلى الخالق الأعظم ، وكيف آمن بالغيب وذكر النبوة والأحلام وأكد العلاقة بين الخالق والمخلوق واعتبر « الدين أفضل المواهب التي وصلت من الله تعالى إلى خلقه » . ومن هنا فلا تشابه بين ابن المقفع في هذا وبين أحد فلاسفة الاسلام مما كانوا يصطنعون الشك في تفكيرهم وفلسفتهم . هذا شيء ، وأما الشيء الثاني ، فليس في قول ابن المقفع ما يدل على أن الشك قد أتعبه وأن العذاب قد أضناه ، وقد رأيناه يقول في هدوء في نفس الكتاب ، ولعل الموقف يستدعي أن نعيد قوله :

> « مما يدل على معرفة الله ، وهو سبب الايمان .... اجتماع من شك في الله تعالى وكذب به على الاقرار بأنهم أنشئوا حديثا ومعرفتهم أنهم لم يحدثوا أنفسهم فكل ذلك يهدي إلى الله ويدل على الذي كانت منه هذه الأمور ،

(٨) ابن المقفع - ص١٥٨ - ١٥٩ .

مع ما يزيد ذلك يقينا عند المؤمنين ، بأن الله حق كبير ، ولا يقدر أحد أنه باطل » . ص ٢٢ ـ ٢٣

كل هذا ورد في الأدب الصغير ، ومن هنا فإن هذه العبارة من كلام ابن المقفع تلك التي أدت إلى مثل هذا التصور البعيد للشك الذي أتعبه والعذاب الذي أضناه لا يمكن إلا أن يكون مضمونها عكس ذلك تماما ، فابن المقفع يجادل هؤلاء الذين أتعبهم الشك وأضناهم العذاب ، فهم لا يؤمنون بالله ، ولا يعتقدون الآخرة ، وإنما يؤمنون بالدهر بمعنى أنهم لا يؤمنون بشيء ، وهم مثل هؤلاء الذين صورهم الله تعالى في قوله : «

(وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر)

(من سورة الجاثية ٢٤)

يجادل ابن المقفع إذن هؤلاء ، ليوازن بين أمرين حتى يضعهم أمام أنفسهم ليروا حقيقة ما هم فيه من ضياع . ذلك أنهم وهم لا يؤمنون بشيء ولا يرجون معادا سيجدون خيرا منهم أولئك الذين يمكن وضعهم في أدنى الدرجات لانهم قد آمنوا بشيء من الأشياء وإن كان سحرا . . ومن هنا يصبح الذين لا يؤمنون بشيء في الدرك الأسفل من الحضيض ولا يسعنا إلا أن نمضي مع ابن المقفع وهو الذي كان يرجو معادا لنرى صورة الطريق في عينه من المعاش إلى المعاد

(٣)

يشمل الوجود في عقيدة ابن المقفع حياتين : الحياة الدنيا الظاهرة التي لا يجادل أحد في أمرها شيئا ، والحياة الآخرة في الغيب التي يؤمن بها المؤمنون وينكرها الجاحدون والدهريون . . مما يتصل بقضية الخلق التي مرت بنا . ولقد كان في عقيدة الرجل إيمان بالغيب شهدناه في مثل قوله :

مما يدل على معرفة الله ، وهو سبب الايمان ، أن وكل بالغيب لكل ظاهر من الدنيا ، صغير أو كبير ، عينا فهو يصرفه ويحركه » (ص ٢٢)

فصاحب هذه العيون هو الله علام الغيوب ، « عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم » (سورة الحشر ٢٢) ، ومن هذه العيون المحركة المتصرفة مفاتح الغيب « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو » (سورة الأنعام ٥٩) ، « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا » (سورة الجن ٢٦)

وإذا كان العلم الذي تدركه الحواس ، فإن عالم الكائنات اللامرئية هو من الغيب الذي إن غاب عن الحس فهو لا يغيب عند ابن المقفع عن دائرة الايمان . . وهذا كله تنقل تفكيره الديني في حركة دائبة نشطة قوية ما بين الدنيا والآخرة ، أو بين المعاش والمعاد ، أو ما بين الظاهر والغيب ، في صورة واحدة لا يفصلها إلا ليجمع بينها ، ولا يفرق بين هذا وذاك إلا ليسلك بها سبيلا يدرج به الخطو من هنا إلى هناك . . . « ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا » (سورة الاسراء ٧٢)

وعند كل نقطة على طريق الحركة المستمرة يوازن ويميز ، لا يلقي بنظرته يمنة إلا لتكون في اليسار نظرة أخرى ، في نقلة سريعة تقابل بين هذه وتلك . . (وما يستوى الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور) (سورة فاطر ١٩ ، ٢٠) (ولا تستوى الحسنة ولا السيئة) (سورة فصلت ٣٤) .

ومن هنا تبلورت في فكر ابن المقفع المفاهيم الدينية في أدبيه جميعا متابعة متلاحقة لتكسو المعاني الأخلاقية بردة

قرآنية امتزجت بالآيات الكريمة ، وصيغت بألفاظها ، دون أن يستشهد بنصها ، كما سبق أن بينا ، حتى ليمكن القول إن المعاني القرآنية قد امتزجت بروحه ، وسرت في دمه ، وانتفض بها بيانه ، على الرغم مما امتلأ به عقله الكبير من ثقافة الأمم وتراث الشعوب . وإليك الدلائل من النصوص الأدبية الدينية التي اتفقنا منذ البداية على أن نقرأها معا قراءة غير صامتة ولا خافتة ، عساها تسمع داخل المسرح أو وسط الزحام .

لقد قلنا إن الرجل رأى الدنيا طريقا للآخرة ، بل رآها زوالا يؤدي إلى بقاء ، ووقف عند كل منها وقفات طوالا ، لا يفتأ يردد ويؤكد ، فتتعدد صور الدنيا والآخرة لتلتقي بالأضواء تسكب عليها من كل جانب من جوانب فكره وعقيدته معا ، دون أدنى تضارب بين العقل والايمان ، يقول :

« من لا عقل له فلا دنيا له ولا آخرة » . (ص ٣٤)

ويقول : « لا عقل لمن أغفله عن آخرته ما يجده من لذة دنياه ، وليس من العقل أن يحرمه حظه من الدنيا بصره بزوالها » . (ص ٣٠)

وكأنه يقول بذلك « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا » .

ويقول : « السعيد يرغبه الله في الآخرة حتى يقول : لا شيء بعدها ، فاذا هضم دنياه وزهد فيها لآخرته لم يحرمه الله بذلك نصيبه من الدنيا ، ولم ينقصه من سروره فيها » . والشقي يرغبه الشيطان في الدنيا حتى يقول : لا شيء غيرها ، فيعجل الله له التنغيص في الدنيا التي آثر مع الخزي الذي يلقى بعدها » .

(ص ٣٠)

وليست رغبة الانسان في الدار الآخرة مع أخذ نصيبه من الدنيا سوى ما يدعو الله إليه في قوله تعالى :

(وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله إليك ، ولا تبغ الفساد في الأرض ، إن الله لا يحب المفسدين) (من سورة القصص ٧٧)

وأما التنغيص في الدنيا والخزي في الآخرة ، وهما شيء واحد ، لأنه خزي قائم هنا ، وخزي دائم هناك ، فقد جاء في آيات كثيرة مثل قوله تعالى :

(ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم)

(من سورة المائدة ٣٣)

(. . . ذلك الخزي العظيم)

(سورة التوبة ٦٣)

وأكثر من هذا أن الكاتب حين يصنف الناس يقيم هذا التصنيف على أساس نظرة الانسان إلى دنياه وآخرته ، وبذلك صار المقياس في ذلك مقدار نصيبه منها ، يقول :

« الرجال أربعة : جواد ، وبخيل ، ومسرف ، ومقتصد . فالجواد الذي يوجه نصيب دنياه جميعا في أمر آخرته ، والبخيل الذي لا يعطي واحدة منها نصيبا . والمسرف الذي يجمعها لدنياه ، والمقتصد الذي يلحق بكل واحدة منها نصيبها » . (ص ٣٠)

ويقول : « فاذا هو قد أبصر فضل الآخرة على الدنيا . . . » . (ص ٩)

وكأنه يهتدي بقوله تعالى :

(وللآخرة خير لك من الأولى)

(من سورة الضحى ٤)

أما الذين لا يرون ذلك فهم ـ في قوله تعالى ـ

(الـذين يستحبـون الحيـاة الـدنيـا عـلى الآخرة . . .)

(سورة ابراهيم ٣)

وفي قوله تعالى :

(بل تؤثرون الحياة الدنيا ، والآخرة خير وأبقى)

(سورة الأعلى ١٦ ـ ١٧)

ويسير الدين والعقل في ذلك كله جنبا إلى جنب ، لذلك رأى ابن المقفع أن « من أحسن ذوي العقول عقلا من أحسن تقدير أمر معاشه ومعاده ، تقديرا لا يفسد عليه واحد منهما الآخر . فان أعياه ذلك رفض الأدنى ، وآثر عليه الأعظم » . (ص ٢٥)

لكن الطريق من الدنيا إلى الآخرة ، أو ما بين المعاش والمعاد ، طريق قصير ، مهما طالت أيامه وتعددت لياليه ، فهو طرفة عين . والنفس الانسانية عند ابن المقفع في هذا الطريق لا بد أن تصحو وتنتبه :

« فانه لا مال لها إلا أيامها المعدودة التي ما ذهب منها لم يستخلف كما تستخلف النفقة ، وما جعل منها في الباطل لم يرجع إلى الحق » . (ص ١٠)

إن الطريق على قصره وسرعة السير فيه طريق صعب ، وعر المسلك ، كثير المشاق ، مثقل بالأعباء ، محفوف بالمخاطر .. وهو مع ذلك أيضا قد زين بالزخرف ، فزخرفته الزينة ، وعلاه الاغراء ، وماج فيه المتاع واللهو ، يقول تعالى :

(حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت ، وظن أهلها أنهم قادرون عليها ، أتاها أمرنا ليلا أو نهارا ، فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس . . .)

(سورة يونس ٢٤)

وقوله تعالى :

(اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة . . . . وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور)

(سورة الحديد ٢٠)

ثم قوله تعالى :

(وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب ، وإن الدار الآخرة لهي الحيوان ، لو كانوا يعلمون)

(سورة العنكبوت ٦٤)

هذه إذن هي الرؤية الاسلامية لحقيقة الحياة ، وطريق الانسان فيها في أبسط صورها ما بين طرفيها أو الدارين فيها .. وهي كذلك عند كاتبنا المفكر في رؤيته الدينية ، لا يسير إلا في هذا الطريق ، طريق الحياتين ، ولا يصل إلا الى هذه الحقيقة ، ولا ينظر إلا بهذه النظرة الاسلامية نفسها ، لا يتردد ولا يتلعثم ، لا يمل القول فيه ، ولا يرتد عن المضي به ، يقول :

للدنيا زخرف يغلب الجوارح مالم تغلبه الألباب ، والحكيم من لم يغض عليه طرفه ، ولم يشغل به قلبه ، اطلع من أدناه فيما وراءه ، وذكر في بدئه لواحق شره ، فأكل مره ، وشرب كدره ، ليحلولي له ويصفو في طول من إقامة العيش الذي يبقى ويدوم » .

(ص ١٩)

ويقول : « قد انتزعت الدنيا ممن قد استمكن منها واعتكفت له ، فأصبحت الأعمال

أعمالهم ، والدنيا دنيا غيرهم ، وأخذ متاعهم من لم يحمدهم ، وخرجوا إلى من لا يعذرهم ، فأصبحنا خلفا من بعدهم ، نتوقع مثل الذى نزل بهم . فنحن إذا تدبرنا أمورهم أحقاء أن ننظر ما نغبطهم به فنتبعه ، وما نخاف عليهم منه فنجتنبه » .

(ص ١٩)

وعلى ذلك فان الألباب اذا استطاعت أن تغلب زخرف الدنيا ، فلم تغض عليه الطرف ، حرصا على العيش الذى يبقى ويدوم ، من غير زخرف زائل ، لا يلبث أن ينتزع من يد من ظن أنه قد استمكن منه .. فان العاقل هو الذى لا يحزن على شىء منه ، يقول :

« وعلى العاقل أن لا يحزن على شىء فاته من الدنيا أو تولى ، وأن ينزل ما أصاب من ذلك ثم انقطع عنه منزلة ما لم يصب ، وينزل ما طلب من ذلك ثم لم يدركه منزلة ما لم يطلب » . (ص١٢)

وهو فى هذا يقتبس من الأسلوب القرآنى فى قوله تعالى :

« لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم »
(سورة آل عمران ١٥٣)

بل إنه لا يخفى ما فى وجهته نحو التزهيد فى الحياة الدنيا من أثر لأقوال الحسن البصرى ونظرائه ، ونغمات عمر بن العزيز الدينية فى أدبه ومواعظه .. ويتضح من ذلك كله أن العاقل لا يكون فى رأى ابن المقفع الا اذا أضاء عقله قبس وهاج من الدين ، يصلح به أمر دنياه أو معاشه ، ويتزود منه لآخرته أو معاده ، ويفصل فى كل ذلك فصلا بين الحلال والحرام ، يقول :

« وعلى العاقل ألا يكون راغبا الا فى احدى ثلاث خصال : تزود لمعاد ، أو مرمة لمعاش ، أو لذة فى غير محرم » . (ص١٣)

ويقول فى الأدب الكبير :

« وأصل الأمر فى المعيشة أن لا تنى عن طلب الحلال ، وأن تحسن التقدير لما تفيد وما تنفق » . (ص٤٣)

وهو حين يبدأ الأدب الكبير لا يبدؤه الا بمقدمة يثنى فيها على السابقين من الناس قبلنا :

« فكان صاحب الدين منهم أبلغ فى أمر الدين علما وعملا من صاحب الدين منا ، وكان صاحب الدنيا على مثل ذلك من البلاغة والفضل » . (ص٤٠)

وهو اذ ينظر فى كتب الأولين ليأخذ من حكمهم وينقل من أقوالهم انما يلفت نظره من ذلك كله ما ذكروه من تعظيم الله وترغيب فيما عنده ، ومن تصغير للدنيا وتزهيد فيها ، يقول :

« فمنتهى علم عالمنا فى هذا الزمان أن يأخذ من علمهم ، وغاية احسان محسننا أن يقتدى بسيرتهم .. ولم نجدهم غادروا شيئا يجد واصف بليغ فى صفة له مقالا لم يسبقوه اليه الا فى تعظيم لله عز وجل وترغيب فيما عنده ، ولا فى تصغير فى الدنيا وتزهيد فيها .. ولا فى وجوه الأدب وضروب الأخلاق » . (ص٤١)

ونقول ان الأمر الذى لا شك فيه أن الكاتب الأديب المفكر كان يرجع فى بعض ما يصدر عنه من حكمة وما يلتفت اليه من رؤية خلقية الى آداب الفرس وحكمائهم

وتراثهم في وجوه الأدب وضروب الأخلاق على نحو ما قال .. ومعروف أنه يجمع من ذلك ثقافة واسعة كما كان يضيف الى ذلك كله ثقافة يونانية وهندية وغيرها .. ولم يكن في ذلك نسيج وحده فقد كان كذلك سلفه عبد الحميد بن يحيى الكاتب ، وخلفه أبو عثمان عمرو ابن بحر الجاحظ . بل كان كذلك أيضا من بعدهم امام أهل السنة الفقيه المحدث المفسر ابن قتيبة على الرغم مما حمل عليه من بعض ألوان الثقافة . وكذلك كان عصرنا العباسي كله بكل ما انصهر فيه من ثقافات وامتزج فيه من حضارات بل اختلط فيه من الشعوب والأجناس تحمل اليه عقولها وتنقل تراثها ، وتخرج الثقافة الاسلامية في ذلك العصر بعد هذا بكل ما نبع من داخلها وكل ما أضيف اليها من خارجها لتستوعب ذلك كله ، فيقوم لها بذلك كيان فتى تحفظ به شخصيتها وتعلو به هامتها .. قوية الملامح بارزة الخصائص .. لا تنطوي تحت لواء غير أن يكون لواءها .. وكذلك كان كاتبنا ابن المقفع على الرغم من كل ما كان من تالد فارسيته .. وكل ما كان من قديم مجوسيته أو مانويته .. لكن هذا كله لم يكن ليحول بينه وبين أن تنسكب هذه الثقافات في وعاء الفكر الاسلامي بحيث تبدو الصورة كما رأينا عند كل نقطة على الطريق صورة دينية تتفق مع الوجهة الدينية الاسلامية في أقل ما يمكن أن يقال عنها ، وهي تلك الوجهة التي كانت تتوجه اليها البيئة ويسير نحوها المجتمع .. وهي نفسها البيئة التي كان يعيش فيها الكاتب ويتوجه بالحديث اليها .. يأخذ منها كما يعطيها .. ويستقي من قيمها ومبادئها بقدر ما يجود ليمنحها من فكره وخلاصة حكمته وفلسفته بما لا يتعارض فيما نقرأ له مع أصول الدين وفروع العقيدة فقد كان على الرغم من ماضيه انما يعيش حاضره .. ولذلك كنا دائما نراه على طول الطريق .. طريق الحياة الدنيا الى ما بعدها .. لا تخلو خطوة من خطواته .. أو لحظة من لحظاته من المعاني الاسلامية .. والمفاهيم الدينية .. تتبلور الواحدة بعد الأخرى في رؤيته أو نظرته الشاملة الى الوجود .. والطريق كما هو معروف على نحو ما شهدناه طريق وعر محفوف بالمخاطر ، فيه الخير والشر ، فيه الحق والباطل ، فيه الصلاح والفساد ، فيه الرشد والغي ، فيه الرأي والهوى ، فيه الأمر والنهي ، فيه الحسنة والسيئة ، فيه التوبة والذنب ، فيه الثواب والعقاب ، فيه البر والحياء والمعروف والمروءة والعفاف ، كما أن فيه الحرص والشره والرذيلة والعدوان .. وتقع النفس الانسانية ـ أياما معدودات من حياتها الدنيا ـ بين حومة ذلك الصراع أو بين شقي الرحى ـ لكن حقيقة الصراع .. ليست بين هذه القوى المتضاربة ، ولا بين هذه النوازع المتناقضة ، وانما الصراع الحقيقي هو في داخل النفس ذاتها ، أو هو بين النفس ونفسها ، حين تتجاذبها القوى ، وتتقاذفها النوازع .. فكيف يكون أمر النفس وهي على ما جاءت في قوله تعالى :

« ان النفس لأمارة بالسوء الا ما رحم ربي »

(سورة يوسف ٥٣)

وفي قوله تعالى :

« بل الانسان على نفسه بصيرة ، ولو ألقى معاذيره »

(سورة القيامه ١٤ ـ ١٥)

وفي قوله تعالى :

« ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأماني »

(سورة الحديد ١٤)

وليست النفس عند ابن المقفع شيئا يختلف عن

هذا ، بل هي النفس كما رأتها النظرة الاسلامية ، بل هي ألفاظ المعجم القرآني حين يقول :

« . . . فان من طباع النفس الأمارة بالسوء أن تدعي المعاذير فيما مضى ، والأماني فيما بقي . . » (ص١١)

واذا كان هذا شأن النفس ، فما السبيل الى انقاذها من الضلال ، أو من سوء نفسها . . لا شيء غير ما خلق الله فيها من قدرة على نفسها . . واقتدار على نوازعها . . ومن هنا كان جهاد النفس . . وكان جهاد النفس في الاسلام هو الجهاد الأكبر . . وليس القوي من غلب الناس ، وانما القوي من غلب نفسه . .

(٤)

يمضي ابن المقفع في هذا السبيل الى آفاق بعيدة ، يطيل التحليق فيها ، ويطول الحديث عنها ان مضينا نجول آفاقه ، ونتتبع أبعاد التفكير الدقيق في أدبه . . وقد نال الدين من فكره نصيبا أوفى حتى لتبدو رسالة الأدب الصغير وحدها لا تفارق العقل الا لتصحب الدين ، ولا تفارق الدين الا لتصحب العقل . . وليس هذا معنى سوى أن فكر الرجل لم يكن ليتأى عنهما لحظة . . في هذه الرسالة وحدها . . ومن هنا يتأكد لنا في كل خطوة نخطوها أن لا بد من اعادة قراءة ابن المقفع والانصراف اليه بعيدا عن سلسلة الآراء والأحكام التي تبدو أحيانا كأنها سلسلة من الرواية والاسناد دون ما رواية أو اسناد . . وانما هو ترديد وتكرار . . فكان لا بد أن يفرغ الناظر في الأمر الى النظر في الأمر وحده دون أن يلتفت يمنة أو يسرة ، فلا ينظر الا الى الطريق في استقامته وعلى امتداده لا يعجل الخطو دون حاجة الى العجلة . . ولا يكف عن السير والهدف لم يبلغه بعد . .

ونحن لم نصل بعد الى نهاية الطريق ، ولا وصلنا الى القطع بحكم من الأحكام . . وكان علينا أن نجهد السير وأن يستحثنا السعي من أجل الوصول الى الحقيقة في محاولة اقامة بناء فكري ربما تثبت أركانه في أرض تعاورتها العواصف وأريد فيها وجه البرية ، وتهاوى الفكر فيها تحت الحطام المتراكم من وراء السنين ، كما تداعى كيان الحقيقة وارتمشت صورتها خلف ضباب الدهر وظلام الزمن . . . . ولكم أخفت سحب الزمان من حقائق الفكر وطوته أو نثرته في الفضاء البعيد . . . من ذا الذي يستطيع بعد هذا أن يلحق ببساط الريح يجمع ما تناثر أو يقرب مما شرق وما غرب . . . . والأيام تجري سراعا تلتف منها عصور من حولها عصور . . . . حتى لتفصل بيننا وبين العصر القديم حلقات يشتد من حولها سياج عتيق . . . كيف ينفذ الخاطر وقد ضعفت حيلته عبر حلقات تشابكت أواصرها وتقلصت مسالكها وتجمدت مفاصلها ببرودة ليالي الدهر السحيقة . . . .

ترى هل يملك المرء أن يزعم قدرة على فك الطلاسم أو حل الرموز أو ضرب حاجز الزمن لرؤية عمق التاريخ بما قد كان يجري فيه . . . إن هي الا محاولة محدودة الحيلة مقيدة بسلاسل الخطو . . . . تسعى الى الفهم . . . . وقد تخطىء الفهم . . . . أو قد تصبو الى الافهام دون أن تحقق منه الكثير .

ولقد كنا اتفقنا على أن نمضي في الطريق . . . . ولا يصح أن أنقض ما اتفقنا عليه . . . مهما تكن شدة المصاعب أو هول المشاق . . . . ولقد كنت تقرأ معي لابن المقفع كلاما كثيرا في جهاد النفس . . . . ولكنك لاحظت ـ وأنت على حق فيما تلاحظه ـ أنه على كثرة ما قاله في هذا الموضوع لم يذكر لفظة الجهاد ، وإن أكثر من مترادفاتها . . . . ولا شك أنك تريد أن تأخذ عليه أمرا بعد أن أطلت الصبر وأجدت الانتظار . . . . غير أني

أقول لم لا نؤجل الحكم حتى نفرغ من القراءة وننظر الى الكلمات من جميع زواياها . . . والى الأفكار مجموعة كلها في اطار .

ذلك أنه ان لم يصرح بذكر الجهاد جهاد النفس فقد أكثر من ذكر معانيه . . . ومن القول بمحاسبة النفس . . . . وأطال السير في هذا الطريق متوجها فيه الوجهة التي تتفق مع روح الاسلام ، وتسلك سبيله . ثم انه ان لم يصرح بلفظ الجهاد فقد ذكر الاجتهاد . يقول في الأدب الصغير :

« أمور لا تصلح الا بقرائنها ، لا ينفع العقل بغير ورع . . . . ولا الاجتهاد بغير توفيق » . (ص ٢٨)

ويقول : « من حلول الأمور احتاج فيها الى ست : الرأي : والتوفيق ، والفرصة ، والأعوان ، والأدب ، والاجتهاد . وهن أزواج : فالرأي والأدب زوج ، لا يكمل الأدب الا بالرأي ، ولا يكمل الرأي بغير الأدب . والأعوان والفرصة زوج ، لا تنفع الأعوان الا عند الفرصة ، ولا تنفع الفرصة الا بحضور الأعوان . والتوفيق والاجتهاد زوج ، فالاجتهاد سبب التوفيق ، وبالتوفيق ينجح الاجتهاد » . (ص ٢٩) .

ثم يقول : « يسلم العاقل من عظام الذنوب والعيوب بالقناعة ومحاسبة النفس » . (ص ٢٩) .

لكنه يقف وقفة خاصة عند محاسبة النفس ، يرسم لها المنهج الذي تتبعه ، وهو منهج يقوم على فهم دقيق لأحوال الناس وسبيل معالجة هذه الأحوال بالتدرج المنطقي خطوة بعد خطوة ، حتى يستقيم أمرها في النهاية ، وهو إذ يذكر هذه الخطوات مجملة يعود عليها بالتفصيل ليشرح ما يتصل بكل واحدة منها ، مبينا الخطة العملية التي تحتاج الى مران وتدريب دقيق كما تحتاج الى دأب وأناة ، حتى تذعن النفس بعد هذه الرياضة الطويلة وتستجيب لحكم العقل وتنبذ سلطان الهوى . يقول :

« وعلى العاقل مخاصمة نفسه ، ومحاسبتها ، والقضاء عليها ، والاثابة لها ، والتنكيل بها » .

أما المحاسبة ، فيحاسبها بمالها ، فانه لا مال لها الا أيامها المعدودة التي ما ذهب منها لم يستخلف كما تستخلف النفقة ، وما جعل منها في الباطل لم يرجع الى الحق . فيتنبه لهذه المحاسبة عند الحول اذا حال ، والشهر اذا انقضى ، واليوم اذا ولى ، فينظر فيما أفنى من ذلك وما كسب لنفسه فيه ، وما اكتسب عليها في أمر الدين وأمر الدنيا ، فيجمع ذلك في كتاب فيه احصاء وجد ، وتذكير وتبكيت للنفس ، وتذليل لها ، حتى تعترف وتذعن .

وأما الخصومة ، فان من طباع النفس الأمارة بالسوء أن تدعي المعاذير فيما مضى ، والأماني فيما بقي ، فيرد عليها معاذيرها وعللها وشبهاتها .

وأما القضاء ، فإنه يحكم فيما أرادت من ذلك على السيئة بأنها فاضحة مردية موبقة ، وللحسنة بأنها زائنة منجية مربحة .

وأما الاثابة والتنكيل ، فانه يسر نفسه بتذكر تلك الحسنات ، ورجاء عواقبها وتأميل فضلها ، ويعاقب نفسه بالتذكر للسيئات ، والبشع بها ، والاقشعرار منها ، والحزن لها .

« فأفضل ذوي الألباب أشدهم لنفسه بهذا أخذا ، وأقلهم عنها فترة » . (ص ١٠ ـ ١١)

وواضح أن معالجة أحوال النفس وترويضها لتسلك سبيل الحق قد مرت عبر مراحل تنتظمها تلك السلسلة المتصلة الحلقات بحيث تؤدي كل حلقة الى تاليتها دون أن تختل أجزاء السلسلة أو تفقد عنصر التدرج والتنسيق اللازمين لها في تصاعد من الأدنى الى الأعلى . . . وتمثل المحاسبة المرحلة الأولى لتشمل عملية الاحصاء لكل ما كسب الانسان لنفسه وما اكتسب عليها ، وهو في هذا ـ يأخذ ـ من الآية الكريمة في قوله تعالى في ختام سورة البقرة :

« لا يكلف الله نفسا الا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » . (سورة البقرة ٢٨٦)

ومع الاحصاء يتم جمع كل الأعمال مما يتصل بأمور الدنيا وأمور الدين ، ليدون ذلك كله في كتاب ، ومع التدوين تتوالى الحسنات والسيئات الواحدة بعد الأخرى ، وتصحب ذلك كله حركة دائبة تراقب الانسان فيما قدمت يداه وما لفظ به لسانه . . . . ومع كل فعل وكل قول تتوهج شعلة وضاءة لتكشف ما سجلته الصفحات من خير ومن شر ليتقدم هاتف الضمير ، ولا تملك النفس سوى أن تنصت اليه في تذكيره وتبكيته وتذليله لها « حتى تعترف وتذعن » .

وليس هذا مما يجري فترة من الزمن ثم يتوقف وانما هي دورات من المحاسبة لا ينقطع عملها في التنبيه والترويض على مدى العمر « عند الحول اذا حال ، والشهر اذا انقضى ، واليوم اذا ولى » .

ويتبع ذلك مرحلة ثانية هي مرحلة الخصومة يقتضيها ادراك طبيعة النفس وما تأمر به من سوء وما تنجذب اليه من ذنب وما تشتهيه من شر ، ومع كل ذلك تمضي النفس لتتلمس المعاذير ، وتلوذ بالأماني ، وتختلق العلل والأسباب ، وتزعم الشبهات ، فتكون هذه المرحلة من أجل أن يقف الانسان فيها خصما لنفسه ليردعها « فيرد عليها معاذيرها وعللها وشبهاتها » .

وفي المرحلة الثالثة ، من مراحل الجهاد ، جهاد النفس . . . . . يتمثل دور القضاء ، لتقف النفس أمام منصة العدالة فتسمع حكم القضاء ، ويتم الاعلان عن السيئة « بأنها فاضحة مردية موبقة » ، وعن الحسنة « بأنها زائنة منجية مربحة » .

ثم تكون المرحلة الرابعة والأخيرة فيما يسميه ابن المقفع « الاثابة والتنكيل » ، وهي مرحلة الثواب والعقاب فيما يكون بين الانسان ونفسه ، فتبدو الاثابة في صورة « من يسر نفسه بتذكر تلك الحسنات ، رجاء عواقبها وتأميل فضلها » ، ويكون نقيض ذلك حين « يعاقب نفسه بالتذكر للسيئات ، والبشع بها ، والاقشعرار منها ، والحزن لها » . فهذه وسائل اثابة النفس أو عقابها ، وقد جعل الانسان هنا خصما وحكما في الوقت نفسه ، ويكون حساب الانسان لنفسه بيقظة الضمير وحركته قبل أن يتولى الله تعالى أمر الحساب . ونصل الى النتيجة المنطقية في نهاية هذه المراحل جميعها التي تشبه السلم الصوفي بأن يكون « أفضل ذوي الألباب ، هو « أشدهم لنفسه بهذا أخذا ، وأقلهم عنها فترة » .

ويتضح من ذلك كله مدى حرية الارادة عند الانسان فيما سبق أن عرضنا له ، فالنفس قادرة على أن تكبح جماح هواها اذا أرادت ، غير أن الأمر قد لايكون سهلا . . ومن هنا يكون الوعي بحقيقة الأوامر والنواهي ، فقد تهوى النفس ما تقرر النهي عنه ، وقد تكره النفس ما تأكد الأمر به ، ويلعب الشيطان دوره الكبير عند مفترق الطرق ، فيدفع النفس في طريق لا ينبغي أن تسير فيه هو

طريق الشر ، ويحول بينها وبين طريق ليس لها نجاة بدونه هو طريق الخير .. وهنا تكون القدرة ، وتكون الاستطاعة ويكون امتحان النفس فيما يمكن أن يئول اليه أمرها من فلاح أو فشل .

يقول ابن المقفع :

« كان يقال : ان الله تعالى قد يأمر بالشيء ويبتل بثقله ، وينهى عن الشيء ويبتل بثقله ، وينهى عن الشيء ويبتل بشهوته . فاذا كنت لا تعمل من الخير الا ما اشتهيت ، ولا تترك من الشر الا ما كرهت ، فقد اطلعت الشيطان على عورتك ، وامكنته من أزمتك ، فأوشك أن يقتحم عليك فيما تحب من الخير فيكرهه اليك ، وفيما تكرهه من الشر فيحببه اليك . ولكن ينبغي لك في حب ما تحب من الخير التحامل على ما يستثقل منه ، وينبغي لك في كراهة ما تكره من الشر التجنب لما يحب منه » . (ص١٩)

ويقول : « وعلى العاقل أن يعرف أن الرأي والهوى متعاديان ، وأن من شأن الناس تسويف الرأي واسعاف الهوى ، فيخالف ذلك ويلتمس أن لايزال هواه مسوفا ، ورأيه مسعفا . وعلى العاقل اذا اشتبه عليه أمران فلم يدر في أيهما الصواب أن ينظر أهواهما عنده فيحذره » . (ص١٤) .

ومع شدة وطأة الأهواء على النفس وقوة تيار الشهوات من حولها .. لايني ابن المقفع بكل ما يملك من طاقة فكرية عن القاء مزيد من الضوء أمام ملعب النفس وفي طريق مجراها .. يعينها به على نفسها .. ويقودها في مسالك المران الشديد ، ولا يلبث أن يعود عليها مرة بعد مرة بالتدريب والتهذيب ، وتتبلور من ذلك كله فكرة الكتاب ، لأن تدوين الأعمال ادعى الى أن تكون المراقبة والمراجعة دقيقة ، والى أن ترى النفس الصفحة السوداء وترى كذلك البيضاء من غير سوء .. وهنا تكمن اهمية المران العملي في متابعة ذلك كله واقتفاء آثاره في سبيل جهاد النفس .. يقول مرة أخرى :

« وعلى العاقل أن يحصي على نفسه مساويها في الدين وفي الرأي وفي الأخلاق وفي الآداب ، فيجمع ذلك كله في صدر أو في كتاب ، ثم يكثر عرضه على نفسه ، ويكلفها اصلاحه ، ويوظف ذلك عليها توظيفا ، من اصلاح الخلة أو الخلتين والخلال ، في اليوم أو الجمعة أو الشهر فكلما أصلح شيئا محاه ، وكلما نظر الى محو استبشر ، وكلما نظر الى ثابت اكتأب » . (ص١١ - ١٢)

وكأنما السبيل الى اصلاح النفس وتربيتها أشبه ما يكون بتقويم طفل صغير ، تقوم بتنبيهه ليتجنب الخطأ ، وتبعث الى حثه على عمل الصواب .. ويمضي ابن المقفع في منهجه هذا ليستخدم وسائل التحليل النفسي في علاج أمور النفس .. ويتبع في ذلك كله عدة سبل ، السبيل الاولى تهدف الى أن تزن النفس أعمالها ، فلا تترك شيئا دون وضعه في الميزان مع متابعة حركة كفتيه والمضي في عملية التقيم من ناحية والاصلاح من ناحية أخرى . والسبيل الثانية تسعى الى أن يؤلف لها من ذلك كله كتاب احصاء يتابع حركة التقويم وتطور الأمور ما بين الحسن والقبيح ، والسبيل الثالثة تتابع حركة الانفعال في داخل النفس ازاء التغيرات القائمة ، لترصد لها مشاعر الاستبشار عند زوال القبيح وأحاسيس الاكتئاب عند ثبات الحسن .

ولا ينسى ابن المقفع حقيقة ضعف النفس وانحسار قدرتها عن المضي في الطريق الى نهايتها ، فلا يتردد من

أن يقدم لها القوة والعون من الخارج ، فيقيم لها حرسا من ذوي الالباب يقفون عند السمع والبصر والفؤاد ، فاذا هو غفل عن نفسه أدرك أنهم لا يغفلون . يقول :

« وعلى العاقل أن يؤنس ذوي الألباب بنفسه ويجرئهم عليها ، حتى يصيروا حرسا على سمعه وبصره ورأيه ، فيستنيم الى ذلك ويريح له قلبه ، ويعلم أنهم لا يغفلون عنه اذا هو غفل عن نفسه » . (ص١٢ - ١٣)

هذا وليس من غرضنا ان نستقصي كل معاني جهاد النفس التي ادار ابن المقفع حولها فكره الاخلاقي وهو فكر ديني في وقت واحد معا .. لأن العقل عنده كما رأينا دائما لا ينأى عن الدين .. وفكرة الكتاب التي طالما وقف عندها وهو كتاب النفس التي تحصى فيه أعمالها .. هي الفكرة القرآنية التي تفيض بذكرها الآيات الكريمة من قوله تعالى :

« وكل شيء أحصيناه كتابا » (سورة النبأ ٢٩)

« اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا » (سورة الاسراء ١٤)

« فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا » (سورة الانشقاق ٧ - ٨)

« وأما من أوتي كتابه وراء ظهره فسوف يدعو ثبورا » (سورة الانشقاق ١٠ - ١١)

« فمن أوتي كتابه بيمينه فأولئك يقرؤ ون كتابهم ولا يظلمون فتيلا »(سورة الاسراء ٧١)

ولما كان كتاب النفس هذا على طريق الحياة الدنيا قد سجلت فيه الحسنات ودونت فيه السيئات ، فإن الحسنات يذهبن السيئات ، ويكون للتوبة عند ابن المقفع عملها الفعال في نسخ الذنوب .. التي تولدت في النفس من صنع الشيطان .. يقول :

« لاتؤدي التوبة أحدا الى النار ، ولا الاصرار على الذنوب أحدا الى الجنة » .(ص٢٥)

ومن هنا كان لذكر النفس للموت في رأيه أثر قوي في توجيه خطاها نحو خير الدنيا وحسن ثواب الأخرة .. ذلك أن ذكر الموت عنده لا يوقع النفس في اليأس كما يمكن أن يرى شيء من ذلك في شعر أبي العتاهية ، وكأن عناصر الزهد أو التزهيد عند ابن المقفع عناصر اسلامية خالصة ، فذكر النفس للموت بل كثرة ذكر ذلك لا يلقي بها في غياهب الكآبة واليأس والظلام .. وانما يفتح أمامها باب الأمن والأمان .. لأنها النفس المطمئنة .. الراضية المرضية .. يقول :

« وعلى العاقل أن يذكر الموت في كل يوم وليلة مرارا ، ذكرا يباشر القلوب ، ويقدع الطماح ، فان في كثرة ذكر الموت عصمة من الأشر ، وأمانا باذن الله من الهلع » .(ص١١)

وهو حين يتحدث عن صلاح ذي الصلاح من حب الله ، وحب حكمته ، والعمل بطاعته ، والرجاء لحسن ثوابه في المعاد اليه ، يقول :

« ليلحقه اجره من بعد الموت .. »(ص٢٠)

« أما النفس النادمة ، فهو يذكر منها مما تكون احداها نفس الجريء على الذنوب اذا حضره الموت » .(ص٢٨)

ليس الموت اذن نهاية الحياة ، وانما الحياة تبدأ بعده ، هو جسر يربط بين الدنيا والأخرة ، والحياة متصلة ، ان انقطعت الأولى بالموت ، فالأخرة دار بقاء .

تلك هي فلسفته في الحياة والموت ، وبذلك تكتمل في فكر ابن المقفع رؤية متكاملة تتفق تماما مع الرؤية الاسلامية ان لم تكن هي نفسها هذه الرؤية .

(٥)

غير انه يبقى بعد هذا شيء . . مما سبق ان لاحظناه معا من خلو الأدبين من التصريح باسم الدين الذي يتحدث عنه الكاتب فيهما ، او اسم الرسول صاحب هذا الدين . . او اسم القرآن الذي نزل به . . الى غير هذا مما اشرنا اليه . . ذلك أننا لا نرى علة لذلك سوى ان يكون تاريخ كتابة الأدبين انما يرجع الى الفترة التي سبقت اسلام ابن المقفع حينما كان لا يزال على مانويته او مجوسيته . . وقد كان في ذلك صادقا مع نفسه اذ لم ير حاجة لكي يذكر دينا لم يكن قد آمن به بعد . . غير ان ذلك كله شيء وتأثره بالثقافة الاسلامية وصدوره عن الفكرة الاسلامية شيء آخر ، وهو الذي عاش في المجتمع الاسلامي وكتب ليخاطب هذا المجتمع بلغة البيان الذي نبغ فيه وصوت البلاغة العربية الذي صدح به وتغنى بألحانه بأساليب لم تكد تشهدها لغة التأليف قبله وظل بها من بعد استاذ البلغاء وسيد امراء البيان . . فقد استمدت بلاغته من المعاني القرآنية كما استمد فكره الديني من الاسلام صورة كاملة للحياة والكون . . بحيث امكن رد الكثير من اتجاهاته الفكرية الدينية في الكثير من تفاصيلها الى مصادرها الاسلامية . . وليس هذا بغريب فقد كان الأخطل وهو نصراني شاعر بني امية وكان يعبر عن الفكر الاسلامي كما كان غيره من شعراء النصرانية ، لأن الثقافة الاسلامية هي الثقافة التي كانوا ينتمون اليها الانتماء الاكبر سواء أسلموا او لم يسلموا او كانوا من اصل عربي او كانوا غير ذلك ، ولقد اثبت هذا البحث حقيقة المصدر الاسلامي للتفكير الديني عند ابن المقفع .

واذا كان هذا شأن الدين عند ابن المقفع في أدبيه ، فان الأمر لم يكن ليقف عند هذا الحد . . وانما تطور التفكير الديني في أدبه تطورا بعيد المدى فيما يمكن ان يرد الى الفترة الاسلامية من حياته . . والاسلام يجب ما قبله وان كان لم يصلنا له مما قبله شيء ، يمكن ان يكون زندقة او شيء يتعارض في كثير او قليل مع الفكرة الاسلامية . . ويكفي ان نشير مجرد اشارة ـ مما يمكن ان يرد الى عهد اسلامه ـ الى ما ورد من كلامه فيما نشره بعد الأدبين مصنف رسائل البلغاء تحت عنوان « يتيمة ثانية لابن المقفع » . . فان فيه ما يوضح ان طريقا جديدا قد اخذ يشق مجراه في تفكيره ليتبلور فيه الجانب الديني مع وضوح الرؤية الاسلامية بكل التصريح وضوحا كاملا . . وذلك حين يتوجه بالخطاب الى امير المؤمنين . . وهو فيما يبدو الخليفة المنصور المؤسس الحقيقي للدولة العباسية يقول :

« فهيأنا بحمد الله قد أصبحنا نرجو لأنفسنا الصلاح بصلاح امامنا ، ولا نخاف عليه الفساد بفسادنا . فقد رأينا حظه من الله عز وجل في التثبت والعصمة . فلم يبرح الله يزيده خيرا ، ويزيد به رعيته مد ولاه ، فعندنا من هذا وثائق من عبر وبينات . ونحتسب من الله عز وجل أن لايزال امامنا يسارع في مرضاة ربه بالاستصلاح لرعيته ، والصبر على ما يستنكر منهم ، وقلة المؤاخذة لهم بذنوبهم ، حتى يقلب الله له بصلاحه قلوبهم ، ويفتح له أسماعهم ، وأبصارهم فيجمع ألفتهم ، ويقوم أودهم ، ويلزمهم مراشد أمورهم ، وتتم نعمة الله على امير المؤمنين ، بأن يصلح به وعلى يديه ، فيكونوا رعية خير راع ، ويكون راعي خير رعية ، ان شاء الله ، وبه الثقة .

والذي أصبحنا نحمد من أمير المؤمنين فكثير ، أنا ذاكر ما تيسر منه . . . . فاننا قلما نلقى من أهل العقل

والمعاينة متكبرا النعمة الله بأمير المؤمنين على المسلمين . . . . ومن أشد جهلا وأقطع عذرا ، ممن لم يعرف النعمة ، ولم يقبل العافية ، نعوذ بالله من الذين لايعقلون . . .

. . . فلعمري ان الشيطان من أهواء الناس وألسنتهم في الأمر لمصيب ، وان له لمستراحا حين يستوفي أمنيته ، ويصدق عليهم ظنه ، ويوحي اليهم بمكايده . فجعل الله كيده ضعيفا ، وحزبه مغلوبا ، وجعله وأياهم نصيبا لجهنم ، من أجزائها المقسومة لأبوابها ، وحطبها ووقودها وحصبها المعد لها . فمن كان سائلا عن حق أمير المؤمنين في معدنه ، فان أعظم حقوق الناس منزلة ، وأكرمها نسبة ، وأولادها بالفضل ، حق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نبي الرحمة ، وامام الهدى ، ووارث الكتاب والنبوة ، والمهيمن عليهما ، وخاتم النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، بعثه الله بشيرا ونذيرا ، وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا ، ثم هو باعثه يوم القيامة مقاما محمودا . شرع الله به دينه ، وأتم به نوره على عهده ، وعق به رؤوس الضلالة ، وجبارة الكفر ، وخوله الشفاعة ، وجعله في الرفيق الاعلى ، صلى الله عليه وسلم » . (ص ١١٠ -١١١) .

عند هذا يكون الفكر الديني عند ابن المقفع قد دخل في طور اسلامي جديد ،وكأن الأمر لم يكن ينتظر سوى أن يعلن الكاتب الحكيم المفكر اسلامه من أجل أن تتضح تفاصيل دين ـ على غير ما ظن الاستاذ أحمد أمين في أول هذا البحث ـ ذلك الدين الذي سارت خطاه من قبل كما اتضحت من بعد في مدارج الفكر الاسلامي لم تختلف عنه وان لم يصرح به . . وذلك كله في نطاق ما وصلنا وما عرفنا ، من كلامه . . لأننا لانملك أن نحكم على غير هذا . . واذا قيل ان ابن المقفع كان يجاري المجتمع الاسلامي ويتملق الخليفة العباسي الجديد ـ وقد رأى زوال دولة وقيام أخرى ـ فكيف يمكن القطع بذلك ونحن لا نعلم ما تخفي الصدور ، ولا من سرائر الناس من حولنا شيئا ، فكيف بالماضي ممن قطع الدهر بعدهم ما يزيد عن اثنى عشر قرنا ونصف قرن من الزمان ، نحاول بعدها أن نقيم بناء الفكر الديني عند الرجل على أساس جديد من كلماته . والجدير بالذكر أن أكثر ما كان اهتمامنا في ذلك على كتاب الأدب الصغير الذي لم يلق من الباحثين أية عناية تذكر من حيث ظن بعضهم أن غيره هو الجدير بذلك على نحو ما يقوله الدكتور طه حسين : « والأدب الكبير خليق بالعناية ، فهو كتاب منظم له مقدمة وبابان ، أحدهما في علاقة الانسان بالسلطان ، والثاني في علاقة الانسان بالانسان » .(٩)

اذا كان هذا شأن الأدب الكبير ، وكان لذلك جديرا بالعناية ، فان الأدب الصغير وان بدا غير منظم في توزع كلماته وتباعد نظراته عما أعددنا بنائه ، فان فيه على الرغم من ذلك كله نظرة شاملة للحياة ، وكان أهم ما يشتمل عليه يتمثل في علاقة الانسان المخلوق بالخالق الاعظم .

***

(٩) من حديث الشعر والنثر ـ ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات الدكتور طه حسين ـ المجلد الخامس ، بيروت (الطبعة الأولى ، ١٩٧٣) ، ص ٦٠٠

الموهبة والمستقبل

عبدالله محمود سليمان

أستاذ علم النفس المساعد بجامعة الكويت

اذا كنت سعيد الحظ واكتسبت خصائص الانسان السوي ، فلا بد أنك ستهتم بالمستقبل ، واذا ابتسمت لك الحياة وأصبحت تعيش في تحقيق مستمر لذاتك ، فستكتشف أن النظر الى الأمام ، الى ما يمكن أن يكون ، والى ما تريد أن يحدث هو إطار حياتك . فالاهتمام بالمستقبل والتفكير فيه هما من خصائص الانسان السوي ، وهي خصائص تشتق من الطبيعة الفريدة للانسان التي تميزه عن غيره من الكائنات الأخرى . ومن خصائص الانسان التي تهمنا عند تحليل العلاقة بين الانسان والمستقبل ، قدرة الانسان على استخدام الرموز (١) ، التي تمكنه من اختزال الخبرة واستعادة الخبرة ، وبذلك تمكنه من استحضار الماضي والاستفادة منه في التفكير في الحاضر وفي تصور المستقبل .

فالانسان هو الكائن الوحيد الذي يستطيع أن يتصور المستقبل ويفكر في تحقيق عالم أفضل ، وبذلك يكوّن له مُثُلاً يسعى الى تحقيقها . ويهتم الانسان بالمستقبل منذ سني حياته الأولى . واذا لاحظنا الأطفال في مرحلة ما قبل المدرسة ، لوجدنا أنهم يدرسون المستقبل حينما يقومون بلعب الأدوار المختلفة أثناء لعبهم التلقائي . فالأطفال في سن السنتين وسن الثلاث سنوات يجدون إشباعاً كبيراً في لعب دور الأم ودور الأباء وغيرهما من أدوار الراشدين (٢) . وهم اذ يلعبون هذه الأدوار إنما يتدربون على ما يمكن أن يقوموا به في المستقبل حين يمارسون هذه الأدوار في الواقع .

التغير والتفكير في المستقبل

لعل حياة الانسان وما فيها من انتظام واضطراب ، وتفاعل ، واشباع لحاجات الانسان أو عدم إشباع لها ،

(١) Shoben, E.P., Jr. Toward a concept of normal personality . American psychologist, 1957,12,183,189 .

(٢) Torrance, E.P. Sociodrama as a creative-solving approach to studying the future. Journal of Creative Behavior, 1975,9,182-195.

هو ما يدفع الانسان الى التفكير في المستقبل . فما يحدث لنا ، وما يحدث في العالم من حولنا يؤدي الى استثارة أفكارنا عن المستقبل ، ويؤدي بنا الى التفكير في تصور ما يمكن أن يترتب على أحداث اليوم من نتائج ، ويحفزنا الى بذل الجهود بهدف العمل على تحقيق نتائج معينة أو منع أخرى من الحدوث . وبقدر ما يكون المجتمع واعياً بما يحدث فيه وما يحدث حوله ، بقدر ما يسهل عليه محاولة التأثير في مجرى الأحداث . لذلك نجد أن الباحثين والمفكرين يهتمون برصد الظواهر الاجتماعية ومحاولة التنبؤ بما يمكن أن يترتب عليها من أحداث في المستقبل . ويهتم العاملون في ميادين الارشاد النفسي والتخطيط الاجتماعي وغيرهما ، بدراسة ما يحدث في مجتمعاتهم وفي العالم ، ثم توقع ما يمكن أن يترتب على ذلك من نتائج ، والتخطيط لمواجهة هذه النتائج . وعلى سبيل المثال ، كتب س. جلبرت رن عام ١٩٧٠ عن « العالم من حولنا والارشاد النفسي » يحلل بعض القضايا الاجتماعية التي كانت تشغل المجتمع الأمريكي في ذلك الوقت ، فتحدث عن (٣) :

١ - الحروب : يلاحظ « رن » أن عام ١٩٦٩ يتميز بتصعيد العنف في داخل أمريكا وخارجها . وعلى خلاف كل الحروب كانت حرب فيتنام تعمل على إثارة الاضطرابات ، وتصعيد العنف في الداخل والخارج . ففي الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية كان المجتمع الأمريكي متحداً وراء الهدف المشترك . وفي سنوات الكساد الاقتصادي في الثلاثينيات كان الأمريكيون يشعرون بمشاكل بعضهم بعضاً . أما حرب فيتنام ، فقد أدت الى تمزيق الأمة الأمريكية ، وإثارة الخلافات بين أفرادها وجماعاتها .

٢ - العنف في أمريكا : وهو العامل الثاني من عوامل صدمة الحاضر في المجتمع الأمريكي . واذا ما سأل الانسان عن أسباب العنف وانتشاره ، فسيجد أسباباً متعددة منها :

(أ) يجد العنف والقتل في حرب فيتنام تبريراً له فيما يحدث في داخل أمريكا .

(ب) إنهيار الاتصال بين القطاعات المتنازعة في المجتمع الأمريكي كالبيض وغير البيض ، والصغار والكبار ، والذين يمثلون السلطة والذين يخضعون لها . كل ذلك يجعل العنف ضرورياً لكي « يفهم » الطرف الآخر . وبما أن الكلمات أو الوعود ، أو حتى الرغبة في أن ينصت الآخر اليّ قبل أن يتحدث معي لم تؤدّ الى أن يفهم الآخر موقفي ، فربما كان الخيار الوحيد الذي يتبقى لي هو العنف .

(جـ) يؤدي الخوف الى العنف . فخوف الأغلبية ، وخوف الراشدين ، وخوف السلطة ، خوف كل أولئك مما يمكن أن تحدثه الثورة في المجتمع ونظمه ، يؤدي الى تشريع قوانين صارمة تعمل على إخضاع الناس للنظام ، مما يؤدي الى الشعور بعدم العدالة ، ويؤدي الى مزيد من العنف . وهكذا تسير الأمور في دائرة مفرغة .

٣ - **صراع الأجيال** : ولصراع الأجيال مغزى خاص .

---

(٣) Wrene, C.G. The world about us and counseling. in Van Hoose, W.H. & Pietrofesa, J. (Eds.) **Counseling in the twentieth century: Reflections and reformulations.** Boston : Houghton-Mifflin, 1970, Pp. 317-333.

علم النفس الارشادي أو الارشاد النفسي هو أحد فروع علم النفس التطبيقية الذي يهدف الى مساعدة الأفراد على النمو وتحقيق أقصى مستويات الفاعلية الانسانية الممكنة لكل منهم . وهو يساعد الأفراد على تحديد أهدافهم واتخاذ القرارات واختيار أسلوب حياة ملائم بما فيه من نوع التعليم أو المهنة أو الأنشطة الأخرى . ولكي يحقق ذلك يحاول مساعدة الفرد على أن يفهم ذاته ويفهم العالم من حوله . ويجد أفضل مكان له في هذا العالم وأفضل تعليم أو مهنة أو أسلوب حياة ممكن ، كما يساعده دائما على تنمية مهاراته المختلفة .

هناك قطاعات في المجتمع الأمريكي لم تثق في بعضها أبداً ، غير البيض لم يثقوا أبداً في البيض ، والفقراء لم يثقوا أبداً في الأغنياء ، وغير المتعلمين لم يثقوا أبداً في المتعلمين . لكن الشباب أظهروا دائماً احتراماً لذويهم من الكبار . فالشباب لم يوافقوا الكبار دائماً ، بل ثاروا عليهم أحياناً ، ولكنهم في النهاية كانوا يصغون اليهم . أما الآن ، فيا أقل إصغاء الشباب للكبار . وانما هم يقومون باخبارهم بالأمر الواقع . وما يحدث الآن هو أن الشباب لا يثقون في الكبار ، في أهداف الكبار وقيمهم وانجازاتهم . ويقتنع الشباب بأن الكبار لن يفهموهم حين يتحدثون اليهم . لذلك فهم (أي الشباب) يعبرون عما يريدون بالفعل ، إما انسحاباً ، كما في حالة الهبي ، أو بالاحتجاج ، كما نرى في حالة الشباب الذي ينظم المظاهرات ، أو بالعنف والسلوك البناء وهو ما يمثل الاتجاه الذي يقوم بالفعل والتصرف .

٤ ـ السعادة الوقتية : هنا يتساءل ، كما يبدو ، عن اهتمام بعض الشباب بما يسمى بالسعادة الوقتية ، ويعتقد أن هذا يرتبط بعدم ثقة الشباب بما يمكن أن يتعلموه من الماضي ، وعدم تأكدهم من المستقبل ، وشعورهم بأن أشياء كثيرة تحدث من حولهم دون أن يفهموها . ومن أجل ذلك فهم يقولون : « فلنعش اللحظة الراهنة بتمامها » ومما يدعم هذه الفلسفة توفر النقود للكثيرين ، ومرونة القوانين الأخلاقية الراهنة ، وتوفر عقاقير الهلوسة . ويفزع الكبار من هذه الحال ، ومع ذلك فلا يستطيع المجتمع أن يقيد حرية الشباب .

٥ ـ وسائل الإعلام : ويرتبط بانتشار العنف تأثير وسائل الإعلام التي تتسم بعدم المسئولية . ولا يحتاج القارىء الى التدليل على هذا ، فشاشة التليفزيون تزخر بمشاهد العنف والسلوك اللا أخلاقي واللا مسئول ، كما أن الصحف تنشر أخبار الجريمة في صفحاتها الأولى .

٦ ـ تأثير الثراء : ولوفرة النقود تأثير كبير . فالناس يركزون على الأشياء ويهتمون بها دون الاهتمام بالانسان . ويؤدي الرخاء الاقتصادي الى أن تعمل النساء ، كما يمكن أفراد الأسرة من أن يمضوا أوقاتاً كبيرة خارج المنزل مع جماعات أخرى من غير أفراد أسرهم ، مما يؤدي الى تغيير نمط حياة الأسرة . ومن تأثير الثراء أيضاً ، توفر العمل للعمال المهرة والمتخصصين دون غيرهم ، فالحاجة الى الذين يقومون بأعمال كالنظافة مثلاً ، أخذت تقل نظراً لتوفر الأدوات الكهربائية ، مما يعني تعطل عدد كبير من الذين لم تتح لهم ظروفهم التخصص واكتساب المهارات أو الذين ليست لديهم القدرات على تعلم المهارات .

ولعلك تتساءل : هذه مشكلات مجتمع غريب عنا في عاداته وتقاليده وقيمه . فلماذا نقلق نحن ؟ حين تنشأ في بلادنا حرب ، فانها محدودة ، ولغرض شريف ، والعنف لا يمثل مشكلة عندنا ، فبلادنا آمنة مطمئنة ، وليس لدينا صراع أجيال . فلقد ربينا أبناءنا على احترامنا واحترام تقاليدنا ، ونحن لا نسمح لهم بأسباب السعادة الوقتية ، بل الواقع أنه لا توجد عندنا سعادة وقتية ، فلقد عودنا أبناءنا على الصلاح والتقوى . أما وسائل الاعلام ، فمقص الرقيب كفيل بتهذيبها ، وأما الثراء فليس بمشكلة ، اذ هو ليس ظاهرة تنتشر بين عامة الناس .

التغير سمة العصر

شيء هام يجب أن ننتبه اليه ، هو أننا لا نعيش في عالم منغلق ، « فشبكة العلاقات الاجتماعية اليوم متشابكة تماما ، حتى أن نتائج الأحداث المعاصرة يكون لها صدى

في الحال حول العالم »[٤] فما يحدث في بلد تنقله الأقمار الصناعية في ثوان الى بلاد أخرى . كما أن انتشار وسائل الاتصال وسرعتها وقلة تكاليفها ، واقبال شباب اليوم على السفر والتنقل بين مختلف البلاد ، يعرضهم لثقافات وعادات وتقاليد وأساليب حياة مختلفة . وأكثر حقائق الثلث الأخير من القرن العشرين وضوحاً هي « التغير » . وهو جامح جارف يغمر الجبال ويطوي المحيطات ، ونخطيء الظن لو اعتقدنا أننا سنكون بمأمن عنه .

فاذا كانت حياة الانسان في الماضي قد سارت رتيبة بطيئة ، فان حياته في السنوات الأخيرة قد شهدت تغيراً هائلاً في شتى مجالات الحياة ، مما دعا الاقتصادي كينيث بولدنج الى أن يعتبر أن القرن العشرين يمثل نقطة تحول في تاريخ البشرية ، بحيث يمكن تقسيم حياة الانسان الى ما قبل القرن العشرين وما بعد القرن العشرين . ويوضح ألفن توفلر في كتابه « صدمة المستقبل » ذلك بتقسيم الخمسين ألف سنة الأخيرة من حياة الانسان الى دورات حياة طول كل منها ٦٢ سنة لتصل الى ٨٠٠ دورة حياة[٥] . ويوضح « توفلر » أن ٦٥٠ دورة حياة من هذه الدورات الثمانمائة دورة قد أمضاها الانسان في الكهوف . أما أكثر الانجازات الحضارية فقد حدثت في السنوات الأخيرة من حياة الانسان . ففي السبعين دورة الأخيرة فقط ، أمكن للانسان أن يتصل بفاعلية من دورة حياة الى دورة أخرى . ولم ير الناس أبداً كلمة مطبوعة الا في الست دورات الأخيرة ، كما أن قياس الزمن بأي قدر من الدقة لم يحدث الا في الأربع دورات الأخيرة . ولم يستطع أحد في أي مكان من العالم استخدام محرك الكهربائي الا في الدورتين الأخيرتين .

كذلك فان معظم الأدوات والمنتجات التي نستخدمها اليوم لم تنتج الا في آخر دورة من الدورات الثمانمائة ، أي في حياة الانسان المعاصر .

وتمثل الدورة الـ ٨٠٠ أي الـ ٦٢ سنة الأخيرة نقطة تحول هامة في كل الخبرات الانسانية السابقة . ويتضح هذا أكثر ما يمكن ، في مجال النمو الاقتصادي . لأنه في هذه الفترة من حياة الانسان فقدت الزراعة سيادتها باعتبارها أساس الحضارة الانسانية ، حتى أن العاملين في الزراعة في عدد كبير من البلاد أصبحوا يمثلون أقل من ١٥٪ من مجموع القوى العاملة . وفي الولايات المتحدة الأمريكية التي تطعم مزارعها ٢٠٠ مليون أمريكي ، بالاضافة الى ١٦٠ مليون إنسان في بلاد العالم المختلفة ، تهبط هذه النسبة الى ٦٪ وما زالت تتقلص . وفي هذه الدورة أيضاً قامت نسبة كبيرة من العمال الذين يرتدون الياقات الزرقاء ويعملون في المصانع أو في الأعمال اليدوية بخلع هذه الياقات . وقد كاد عدد هؤلاء العمال يفوق عدد العاملين في ما يسمى بمهن أصحاب الياقات البيضاء مثل تجارة الجملة والادارة والاتصال والبحث والتربية وغير ذلك من المهن . وهكذا نجد أن المجتمع في فترة واحدة وقصيرة من حياة الانسان تخلص من استعباد الزراعة كحرفة ثم تخلص من سيطرة العمل اليدوي ، وقد شهدت هذه الفترة مولد اقتصاد الخدمات . لقد ظلت الزراعة تسود الاقتصاد عشرة آلاف سنة ، وسادت الصناعة قرناً أو قرنين من الزمان . أما الآن ، فنحن نشهد مولد عصر جديد ، هو عصر الصناعة الكبرى Super-indurstrialism أو عصر ما بعد الصناعة .

(٤) Toffler, A. Future shock. New York: Bantam Books, 1970, p.150
(٥) Ibid. pp.31 — 15

التغير وعلم المستقبل

لقد أدى انتشار التغير في شتى مظاهر الحياة ، كما أدى ازدياد سرعته بشكل فائق ، الى التفكير في مستقبل الانسانية ، وأصبح السؤال الملح هو : كيف سيكون مصير الانسان في المستقبل ؟ ومن ثم أخذ الباحثون والمفكرون يفكرون في الصورة التي ستكون عليها الحياة على هذه الأرض في السنوات القادمة ، فبدأوا يلاحظون اتجاهات الأحداث ، ويحللونها ، ويخططون لها . ومن ثم نشأ علم المستقبل ، وشهدنا بداياته في بحوث العمليات وتحليل النظم ، والتخطيط على المدى الطويل ، ولقد بدأت هذه الجهود في مجالات الدفاع والأعمال والصناعة . وأخذت بعض المنظمات تتبنى اتجاهاً قوياً نحو المستقبل ، فأسست إدارات للتنبؤ والتخطيط ، كما أخذ المخططون يتعمقون النظر في المشكلات الاجتماعية والنفسية والسياسية (٦) .

لقد أدت تنبؤات العلماء بالمستقبل الى زيادة الاهتمام بدراسته والتخطيط له . كما أبرزت هذه التنبؤات الحاجة الى تنمية الموهبة والابتكار لكي يمكن للانسان ويستمر في التوافق مع العالم الذي يتغير بمعدل سريع (٧) ويستعرض « تورانس » عدة أمثلة للتنبؤات التي ترد في كتابات المستقبليين (٨) ففي تقرير لمكتب التربية بالولايات المتحدة (وزارة التربية) يتنبأ تيري نويل أن الأطفال الذين سيولدون في عام ١٩٧٥ سوف يعيشون في عالم (٩) :

- يتطلب باستمرار أن ينمي الأفراد فيه طاقاتهم الى أقصى مدى لهم .

- وأن يخلقوا باستمرار إمكانيات للعمل متعددة ومختلفة وجديدة ، ومن هذه الامكانيات ما لا يوجد اليوم .

- وأن يوجدوا فرصاً جديدة وتحديات للنمو الشخصي والاجتماعي من خلال أنشطة أوقات الفراغ . والمغزى المباشر لهذه التنبؤات هو أن الحاجة الى التفكير الابتكاري سوف تكون أكثر مما حدث في أي وقت مضى . اذ أن العالم يتجه الآن الى ما يسمى بمجتمع ما بعد الصناعة والذي نشاهده خاصة في البلاد المتقدمة . ويصف بعض المستقبليين هذا المجتمع ، فيرون أن المورد الأساسي في هذا المجتمع سوف يكون المعرفة ، وأن مركز القوى يتحول الى الجماعات ومراكز البحوث ، وسيكون الأفراد الأكثر أهمية هم العلماء والباحثين (١٠) .

وقد حدد مستقبلي آخر (١١) . تحول الاهتمام في المجالات الآتية :

- من التجانس الى التغاير .

---

(٦) Weber. R.E. Human potential and the year 2000 art I.**Journal of Creative Behavior,** 1973,7,2, 133..151 .

(٧) Torrance, E.P. Creativity and futurism in education : Retooling. Education, 1980, 100,298-311 .

(٨) **Ibid.**

(٩) Newell,T. Why career education? In Career education: **The state** of the scene. Washington,D.C.: Office of career education, United states office of education 1974. Torrance 1980 .

(١٠) Torrance,1980 .

(١١) عن المصدر السابق Maruyame,M. The post industrial logic. In A.A. spekke (Ed.) The next 25 years : Crisis and opportunity. Washington, D.C. World Future society, 1875.

Torrance,1980 .

- من التقنين الى عدم التقنين .
- من التنافس الى الاعتماد المتبادل .
- من التنظيم الهرمي الى التفاعل .
- من الاشباع المادي الى الاشباع الثقافي .
- من الفاعلية الى التذوق الجمالي والأخلاقي .

ومن التفكير الذي يقوم على التصنيف الى التفكير في السياق الاجتماعي .

وفي الوقت الذي يتنبأ فيه المستقبليون بهذه الاتجاهات ، وفي الوقت الذي يتعرفون فيه على هذه التحولات في الفكر والسلوك ، فانهم يلاحظون في حياتنا المعاصرة من مظاهر الانهيار والاضطراب الكثير . ولا يحتاج المرء أن يدلك على ذلك « فحتى بالنسبة لأولئك الذين لا يفكرون أساساً توجد أدلة عديدة على وجود إنهيار حقيقي وانهيار في مراحله الأولى . فالأنظمة التي تهتم بالاقتصاد والرفاهية والجريمة والسياسة تظهر عليها كلها علامات التوتر والانحراف . وقد أجريت توقعات وتنبؤات بالاضافة الى ما نجده يحدث الآن سواء في مراحله المبكرة أو ما هو حقيقة واضحة . ولنذكر الآن بعضاً من ذلك » (١٢) .

- يقترح ولِيس هيرمان نمطا مستقبلياً للأمة يتميز بـ « غياب الحكومة ، ودولة عسكرية تمثل قمعاً شاملاً للنضال ، والعدوان العابث يتبعه إعادة بناء المجتمع ، وتقييم تدريجي ، وقمع للعدوان مع عود الى توازن القوى السابق » .

- مع افتراض عدم الوصول الى تقدم في استخدام الطاقة النووية للأغراض السلمية في العشرة آلاف يوم القادمة ، فان هناك احتمالاً بضرورة التخلص من ٤٠٠٠٠ طن من فاقد المواد الاشعاعية في العام .

- تضاعف السكان كل أربعين سنة اذا لم يمكن التحكم في معدل الخصوبة .

- قوى عاملة تتميز بالنمط التالي « . . أقلية تعمل بجد في القمة ، وأغلبية زائدة عن العمالة في الوسط ، وأقلية مستبعدة في أسفل سلم العمل » .

هذه التغيرات تجعل العالم اليوم يواجه مجموعة من الظروف لم تواجهها أية ثقافة من قبل ، مما يجعل التفكير في المستقبل والتخطيط له قضية أساسية في عصرنا . هذه الظروف هي : (١٣) .

- التعامل مع اثراء الحياة دون إفساد الكرة الأرضية .

- التهديد بالابادة النووية .

- قابلية أجهزتنا المعقدة (الانساق ، والنظم) للتخريب .

- التعامل مع التطور بحيث يؤدي الى مجتمع متزن .

- انتاج كميات كبيرة من السموم بدون ضوابط محددة .

- التخلص من فاقد المواد الاشعاعية المتراكم منذ زمن طويل .

- تكاثر المعرفة .

- الكثافة السكانية الفائقة .

وهكذا نجد المستقبل محملاً بمشكلات كثيرة . ومن أجل ذلك يجب أن نفكر فيه ، ونتعرف على مشاكله ،

(١٢) Weber, R.E., 1973.
(١٣) Ibid.

ونحاول فهمها . ومن مبررات التفكير في المستقبل أيضاً ما يلي : (١٤) .

- بعض التغير غير مرغوب فيه .

- بعض التغير يحدث بسرعة هائلة لدرجة أننا لا نستطيع التعامل معه (خاصة التغير الذي يتضاعف بسرعة كبيرة) .

- بعض التغير المرغوب فيه بطيء الحدوث .

- تنقصنا في الوقت الحاضر القدرة على التخطيط على نطاق واسع لبدائل مستقبلية .

- بعض التغير يؤدي الى الاضطراب .

- تتميز بعض الأنظمة بالاستثارة الذاتية وتتم على التحكم والتنظيم .

- الأنظمة الموجودة تظهر عليها أمارات الانهيار والاجهاد .

- أصبح الأفراد والمجتمعات أكثر إعتماداً على بعضهم البعض .

- تتطلب حلول كثير من المشكلات بالتأكيد تعاوناً بشكل أكثر مما نستطيع تقديمه .

- قد تصبح قدرة الانسان على التكيف في نهاية الأمر بداية سقوطه (على سبيل المثال) : التكيف لصور عديدة من التكيف للتلوث والافساد .

- تفتقر في الوقت الحاضر الى الوسائل التي تمكن من خلق الثبات الدينامي .

- الأنظمة الحالية تبدو غير معدة لتقديم إجابات قابلة للتطبيق .

- فشلت التربية تماماً في أن تعدنا لكي نتعامل مع أنواع ومقادير التغير في مدى زمني لم نعرفه من قبل .

وهكذا نرى أن القضية الأساسية التي تواجه الانسان ، سواء فكر في مستقبل الحياة أم لم يفكر فيه ، يمكن أن تلخص في كلمة واحدة هي التغير . ويمكن أن يستجيب الانسان للتغير بأسلوبين . أما الأسلوب الأول فهو أن يغلق الانسان حواسه وادراكه عن التغير ، لا يستمع اليه ، ولا يهتم بالظروف الجديدة التي يأتي بها . غير أنه لا يلبث أن يجد نفسه في وسط ما أتى به التغير من ظروف تنازعه وتؤثر عليه . فلا يلبث أن يقف حيالها عاجزاً لا يعرف ماذا يفعل . وقد يهمل الانسان الاهتمام بالتغير ، غير أن الجديد الذي يأتي لا يلبث أن يصدمه ويؤثر فيه ، فلا يملك الانسان الا أن ينفعل بالظروف الجديدة ويحاول أن يستجيب لها ، ومن ثم يكون منفعلاً مستجيباً Reactive للتغير . لكن الانسان الفعال هو الذي يهتم بمستقبل الحياة ويفكر فيه ، ويتوقع ما يمكن أن يأتي به هذا المستقبل ويتنبأ به ومن ثم يسارع الى التخطيط لمواجهته والتأثير فيه محاولاً أن يتفادى ما يمكن ان يكون له من آثار ضارة ، وباذلاً الجهود لكي تحدث نتائج إيجابية تفيد الحياة والناس . ومن ثم فهناك حاجة شديدة الى مثل هذا الانسان الفعال Proactive الذي يستجيب مقدماً بايجابية في إحداث التغير المطلوب وهذا هو الأسلوب الثاني للاستجابة للتغير . وهكذا نجد أن جهود المستقبليين تفيد في : إبطاء سرعة أنواع مختلفة من التغير ، أو إسراع التغير المرغوب ، أو تجنب مستقبل غير مرغوب ، أو خلق

---

(١٤) Ibid.

مستقبل بديل أفضل ، أو زيادة التحكم في الظروف المستقبلية ، أو وضع علامات التحذير عندما تلوح عوامل التهديد في المستقبل (١٥) .

ومن الطبيعي أن نتصور أن التفكير في المستقبل والتحكم فيه يحتاج الى عقل غير عادي ، عقل يستطيع أن يتصور سير الأحداث في بدايتها الأولى ، ويتخيل ما يمكن أن يترتب على ما نفعل اليوم من نتائج . ماذا يمكن أن يحدث لو استمر الاسراف في استهلاك الطاقة ؟ ماذا يمكن أن يحدث لو استمر تكاثر السكان بهذا المعدل الكبير ؟ ماذا يمكن أن يحدث لو استمرت كراهيتنا لبعضنا البعض ؟ ماذا يحدث لو استمر التنافس المريض بين الأفراد حتى لكي ينجح الفرد يجد أنه لا بد أن يدس للآخر ويشي به ، بدلاً من أن يركز على تحسين مهارته وزيادة فاعليته ؟ ماذا يحدث لو استمرت الدول والمنظمات تعتمد على أهل الثقة بدلاً من أهل الخبرة ؟ وهل من سبيل الى جمع الثقة والخبرة في الفرد الواحد ؟

وكثيرة هي الأسئلة التي تثيرها مشكلات اليوم .

عالم متغير ـ الى أين ؟

هكذا نجد أن العالم يتغير بمعدل هائل . في فترة قصيرة من حياة الانسان حدث كل هذا التحول ، فماذا بعد ذلك ؟ أليس لهذا التغير من نهاية ؟ نخطيء لو تصورنا أن التيار سيقف في مكان ما ، فان ذلك سيعني نهاية البشرية . فماذا اذن نحن فاعلون ؟

لقد أصبح التغير حقيقة هذا العصر التي فرضت نفسها على ادراك الانسان . فلا تكاد تمر ساعات بل دقائق حتى تحمل وسائل الاتصال لنا خبراً عن شيء جديد . ولقد جعلت هذه التطورات الانسان يتساءل : ماذا بعد ؟ وماذا نحن فاعلون ؟ كما خلقت عنده مشاعر القلق والضيق من أنه قد لا يستطيع أن يلاحق هذه التغيرات الهائلة . . فلقد أصبح من المعتاد أن نسمع عن « تحدي التغير للانسان » . ومع ذلك لا يشعر كل فرد بخطورة هذا التغير الذي يحدث في شتى مجالات الحياة . فهناك الملايين من البشر الذين يسيرون في حياتهم كالنائمين والذين يشعرون وكأن شيئاً لم يتغير منذ الثلاثينيات ، أو كأن شيئاً لن يتغير . وهم يحاولون الانسحاب من التغير ، وكأنهم يستطيعون ايقافه بتجاهله . أو كأنهم في انسحابهم الى حياة هادئة منعزلة يكتسبون مناعة دبلوماسية ضد التغير . ويرى المرء أمثال هؤلاء البشر في كل مكان ، هم أفراد تقدم بهم العمر رغم صغر سنهم يستقبلون من حياتهم ، وان ظلوا يذهبون كل صباح الى أعمالهم ، ويحاولون تجنب الجديد بأي ثمن ، أفراد عجائز في الخامسة والثلاثين أو الخامسة والأربعين من عمرهم تثور أعصابهم من تظاهر الطلاب أو الجنس أو إنتشار الملابس القصيرة ، فيحاولون بكل جهد أن يقنعوا أنفسهم أن الشباب كان دائماً ثائراً ، وأن ما يحدث اليوم لا يعد مختلفاً عما حدث في الماضي . والمشكلة الأساسية هي أن الكثيرين منهم يشعرون بأن التغير يهددهم فيبذلون كل الجهد لتجاهله (١٦) .

غير أن من العلماء والمفكرين من يرى أن التغير هو حقيقة العصر التي يجب أن نوجه اليها كل اهتمام . ذلك أننا اذا لم ننتبه الى هذا التغير ، ونحاول أن نفعل شيئاً للتعامل معه ، فسيجرفنا التيار الى أرض غريبة قد لا نرضى عن وجودنا فيها فضلاً عن قدرتنا على الحياة

(١٥) ibid.
(١٦) ibid.

والبقاء فيها . ولنستمع الى كارل روجرز أحد علماء النفس البارزين ، وهو يوجه أنظارنا الى ما يحدث في عصرنا من تغير ، والى ما يمكن أن يترتب عليه من نتائج لو لم نتعامل معه بأسلوب خاص . يقول كارل روجرز :

« في الوقت الذي تتقدم فيه المعرفة سواء كانت بنائية أو تجريبية في وثبات وقفزات كبيرة الى عصر ذري هائل ، يبدو أن التكيف الابتكاري هو الاحتمال الوحيد الذي يمكن الانسان من أن يصبح متمشياً مع التغير المتعدد الجوانب في العالم الذي نعيش فيه ، وفي الوقت الذي تتقدم فيه الاكتشافات العلمية والاختراعات على أساس متوالية هندسية ، يصبح الأفراد السلبيون الذين يخضعون لثقافتهم عاجزين عن التعامل مع القضايا والمشكلات المتزايدة . وما لم يستطع الأفراد والجماعات والأمم أن يتخيلوا ، ويبنوا ، ويراجعوا بابتكار أساليب تعاملهم مع التغيرات المعقدة ذات التطور السريع ، وما لم يستطع الانسان أن يأتي بأساليب جديدة وأصيلة للتكيف مع بيئته بسرعة تماثل سرعة العلم في تغيير بيئته ، فان ثقافتنا ستضمحل . وسيكون الثمن الذي ندفعه لافتقارنا الى الابتكار ، ليس فقط سوء تكيف الفرد ، وتوترات الجماعة ، بل أيضاً الابادة الدولية »(١٧) .

ولنستمع الى رائد آخر من رواد التفكير الابتكاري هو إيبول تورانس يؤكد على أهمية الابتكار في مواجهة التغير :

« ان عصر الفضاء يأخذنا الى أماكن لم تعد فيها الأفكار القديمة والمريحة صالحة . لذلك سيتوقع الكثير من تلاميذ اليوم الذين لديهم استعداد للابتكار . فالأخطار التي تهدد بقاء الانسان تتحدانا وتدفعنا الى أن نفكر في أفضل ما يمكن أن يصير اليه الانسان والى أن نبحث عن طرق جديدة لمساعدة الأطفال على تحقيق إمكانياتهم الابتكارية . (ونحن لا نعرف ما يمكن أن يصير اليه الانسان) . ولكن ليس هناك ما يشير إلى أن التطور الانساني يدخل مرحلته الأخيرة . ولأن نمو تفكير الانسان ، ونمو تفكيره الابتكاري مستمر ، فان انسان الستينيات سيبدو للأجيال القادمة ساذجاً وأحمق ، مثلما يبدو لنا الآن إنسان الكهف »(١٨) .

الابتكار والموهبة هما الحل

من صميم نشاط الانسان أنه تعلم أن يفكر في المستقبل ، ولا يجب أن يدعو ذلك الى الدهشة ، فمن التجارب التي كان يقدم لها الطعام أحياناً ويمنع عنها أحياناً أخرى ، تعلمت أن تقتصد بعضاً من الطعام الذي يقدم لها ثم تحفظه في مكان آمن . لكن الانسان الذي نما ذكاؤه نمواً هائلاً ، تفوق فيه على أقرانه من أفراد المملكة الحيوانية ، تعلم ألا يقتصد مما يمتلك اليوم للغد فحسب ، بل تعلم أيضاً أن يفكر مقدماً في ما يمكن أن تصير اليه الحياة في الغد ، فأخذ يرصد ما يحدث في حياته من تغيرات ، ويدرس إتجاهات هذه التغيرات ، ويتصور الطريق التي يمكن أن تسلكها هذه التغيرات في المستقبل ، ثم أخذ يحاول الاحتياط لهذه التغيرات والتأثير فيها .

(١٧) Rogers, C.R. Towards a theory of creativity : In P.E. Vernon (Ed.) **Creativity**, Middlesex, England : Penguin Books,1970,pp 137-151 .

(١٨) Torrance, E.P. **Education and the creative potential.** Minneapolis, Minnesota: The University of Minnesota Press, 1963,P.3.

الموهبـة والابتكار

لكي يستطيع الانسان التفكير في المستقبل ، والتنبؤ بما يمكن أن يحدث فيه ، فانه يحتاج الى عقل غير عادي ، وأساليب في التفكير غير مألوفة يحتاج الى أن يكون مبتكراً وموهوباً .

لكن ما هي الموهبة ؟ وما هو الابتكار ؟

الموهبـــة

كانت الموهبة موضع الاهتمام عبر العصور . ويشهد تاريخ الانسان على ما انتجته مواهبه من فن وأدب وعلم . لكن العصر الحديث يتميز بالاهتمام بدراسة الموهبة وفهمها ومحاولة الوصول الى طرق لاكتشافها بشكل مبكر حتى يمكن رعايتها والاهتمام بها . لقد أدى اهتمام علماء النفس بالموهبة الى أن يشعروا بالقلق بالنسبة للمواهب التي تعيش دون أن يلاحظها أحد أو يهتم برعايتها . لنستمع الى القصة الطريفة التي رواها دونالد ماكنون في كتابه « في البحث عن الفاعلية الانسانية » :

« هناك قصة رواها في البداية مارك توين ، ولو كان والتر فاند دايك بهيجهام قد سمعها لكانت من أكثر ما يحب من القصص . كانت هذه القصة عن رجل يبحث عن أعظم جنرال عاش على ظهر الأرض . وعندما أخذ يسأل : أين يمكن أن يجد مثل هذا الجنرال ، أخبروه بأن الرجل الذي يبحث عنه مات وذهب الى السماء . وعند الأبواب اللؤلؤية أخبر الرجل القديس بطرس عن مطلبه ، وعندئذ أشار القديس بطرس الى روح قريبة منها . لكن الرجل قال محتجاً : « لكن هذا ليس بأعظم الجنرالات قاطبة . اني أعرف هذا الرجل حينما كان يعيش على الأرض ، فقد كان يعمل اسكافياً ، وأنا أعرف ذلك » أجاب القديس بطرس : « لكنه لو كان قد عمل جنرالاً لكان أعظم الجنرالات جميعاً » (١٩) .

ومغزى هذه القصة هي أن هناك من البشر من يعيش حياته دون أن يحقق ما هو قادر على تحقيقه . واذا عاش الانسان حياته دون أن يحقق ما يستطيع تحقيقه ، فان الخسارة لن تقتصر عليه وحده وانما ستكون خسارة لمجتمعه الذي يحتاج الى كل من فيه من مواهب . لذلك كان الاهتمام بالمواهب سمة العصر الحديث ، وسبيل المجتمعات للتقدم والرقي . وقد ترتب على ذلك أن أخذ العلماء يهتمون بدراسة المواهب لفهمها والكشف عنها ورعايتها .

ويعتبر لويس تيرمان الأب لحركة دراسة الطفل الموهوب ، وتعد دراسته لأطفال كلفورنيا الموهوبين والتي تتبع فيها نمو هؤلاء الأطفال أساساً هاماً لهذه الحركة (٢٠) . ولقد كان الاعتقاد السائد في العشرينيات من هذا القرن أن الموهبة هي نتاج لعوامل تكوينية ، ومن ثم كان يعتقد أنه يمكن الكشف عنها بواسطة اختبارات الذكاء (٢١) . وعلى أساس هذا الاعتقاد

---

(١٩) Mackinnon, D.W. **In Search of human effectiveness**, Great Neck, N.Y.: Creative Synergetic Associates, 1978, p.35.

(٢٠) Gowan, J.C. Creativity and gifted child movement. **Journal of Creative Behavior**, 1978, 12, 1, 1-13.

(٢١) Gallagher, J.J. Issues in education for the gifted. in A.H. Passow (Ed.) **The gifted and the talented : Their educa-tion and development: The seventy-eight Yearbook of the National Society for the study of education.** Chicago : The University of Chicago Press, 1979, 28-44.

قامت دراسات تيرمان والتي ظهرت في خمسة أجزاء من كتابه دراسة العبقرية [٢٢] لكن المغزى الخطير لهذا الاعتقاد هو أنه ما دامت الموهبة ولادية ، فان التغير الذي يطرأ عليها بتقدم العمر لن يكون كبيراً ، لان تدخل البيئة عن طريق تعريض الفرد لخبرات تعليمية ومؤثرات بيئية تهدف الى تنمية مواهبه لن يحدث تغييراً كبيراً في هذه المواهب . بل ان هذا الاعتقاد أدى الى نتائج أخطر تمثلت في الايمان بصحة الفروق التي توجد في المواهب بين الجماعات والشعوب ومن ثم أدى ذلك الى تدعيم حركات اجتماعية مثل حركة التعصب العنصري [٢٣] .

غير أن جهود الباحثين من أمثال جيلفورد . وجتسلز وجاكسون ، وتورانس ، الذين حاولوا التمييز بين الأذكياء والمبتكرين ، ساعدت على تغير هذا التصور الضيق للموهبة ، فلقد شجع جيلفورد في خطابه الرئاسي لرابطة علم النفس الأمريكية الباحثين على أن يتخلوا عن الافتراض بأن اختبارات الذكاء مثل تلك التي وضعها تيرمان يمكن أن تسهم في الكشف عن جميع الأطفال الموهوبين [٢٤] . كما ميز جتسلز وجاكسون بين الأطفال الأذكياء والأطفال الموهوبين ، وكشفت دراستهما عن أن الأطفال الذين يكونون مرتفعين في الابتكار ومنخفضين في الذكاء يمكنهم أن يحصّلوا مثل الأطفال الأذكياء جداً [٢٥] ، كما أن دراسات تورانس المتعددة للابتكار والتي اهتم في بعضها بخصائص الأطفال المبتكرين أدت الى تغيير التصور المحدود للموهبة [٢٦] . وقد كان للدراسات التي تناولت تأثير الثقافة والبيئة على الشخصية أثر في توجيه الاهتمام الى أبعاد أخرى غير الذكاء لفهم الموهبة ، والى النظر اليها باعتبارها ذات أبعاد متعددة وقد أدى هذا الى تهيئة الجو للبحث عن تعريف شامل للموهبة . . وقد ظهر مثل هذا التعريف في تقرير للكونجرس الأمريكي أعده سدني مارلاند الابن الذي كان مفوضاً للتربية . وقد ظهر هذا التعريف في كثير من التشريعات الفيدرالية ، التي تمت الموافقة عليها ، كما أنه يمثل أول اعتراف رسمي على المستوى الفيدرالي بمشكلات تربية الأطفال الموهوبين ، وفيما يلي نص هذا التعريف[٢٧] :

« الأطفال الموهوبون أصحاب القدرة هم أولئك الذين يتعرف عليهم المتخصصون ، والذين بسبب تميز قدراتهم يستطيعون الوصول الى أداء ممتاز . ويحتاج هؤلاء الأطفال الى برامج تربوية وخدمات خاصة غير

(٢٢) Terman, L.M. et al. **Genetic studies of genius, Vol.I, Mental and physical halts of a thousand gifted children.** Stanford, calif. : stanford University Press, 1925.

(٢٣) Gallagher, 1979.

(٢٤) Guilford, J.P. Creativity. **American Psychologist, 1950, 5, 444-454.**

(٢٥) Getzels, J & Jackson, p. **Creativity and intelligence.** New York: Wiley , 1962.

(٢٦) Torrance, E.P. **Guiding creative talent.** Englewood Cliffs,N.J.; Prentice Hall, 1962. Torrance, E.P. **Rewarding creative Behavior.** Englewood-Cliffs, N.J. : Prentice-Hall,1965.

(٢٧) Marland, S.P. Jr. Education of the gifted and talented. Vol.I. Report to the Congress of the United States by the U.S. Commissioner of Education. Washington, D.C.: U.S. Government priniting office, 1972, P.2

تلك التى تقدمها المدارس العامة فى العادة حتى يستطيع هؤلاء الأطفال تحقيق اسهاماتهم لذواتهم ولمجتمعاتهم .

والأطفال الذين يستطيعون الوصول الى أداء عال هم أولئك الذين يثبتون انجازاتهم أو تكون لديهم قدرات ممكنة فى أى من المجالات الآتية :

(أ) القدرة العقلية العامة .

(ب) استعداد أكاديمي خاص

(جـ) التفكير الابتكارى أو المنتج .

(د) القدرة على القيادة .

(هـ) الفنون البصرية وفنون الأداء .

(و) القدرة الحركية النفسية .

وقد لا يوجد اختلاف كبير على تصور وتحديد الفئات الثلاثة الأولى والفئة الخامسة ، لكن هناك من يصرف النظر عن الفئة السادسة . [٢٨] ومن الباحثين من يرى أننا فى اهتمامنا بتحديد أبعاد جديدة للموهبة أسرفنا فى تصور هذه الأبعاد باعتبارها منفصلة عن القدرة العقلية . فأبحاث جتسلز وجاكسون التى سبقت الاشارة اليها ، والتى تحدثت عن المرتفعين فى الابتكار المنخفضين فى الذكاء ، لم تقم فى الواقع بدراسة أفراد منخفضين فى الذكاء ، اذ كان هؤلاء الأفراد منخفضين فى الذكاء بالنسبة للمجموعات الأخيرة ، حيث كان متوسط نسبة ذكائهم هو ١٢٧ ، وهى درجة تؤهلهم للانضمام الى برامج الموهوبين أكاديميا فى معظم الولايات الأمريكية . [٢٩] وكذلك يرى بياجيه أن الذكاء أساس بالنسبة للمواهب المختلفة ، فالأطفال الموهوبون يكون لديهم العقل الذى يستطيع أن ينظم الخبرات ويربط بينها [٣٠] . وبالمثل يرى تيرمان أن المواهب الخاصة يجب أن يسندها قدر مرتفع من عامل سبيرمان العام الذى يتميز بالقدرة على تكوين كثير من المفاهيم المجردة ومعالجة هذه المفاهيم وادراك العلاقات بينها ، وبمعنى آخر القدرة على القيام بالتفكير المجرد [٣١] . ويؤكد تيرمان وجهة نظره بالملاحظات التى أجريت فى مدرسة فنون الأداء فى مدينة نيويورك والتى أثبتت أن معظم التلاميذ الموهوبين فى الموسيقى والدراما والرقص كان تقديرهم عاليا فى اختبارات الذكاء العام الأمريكية . لكن هناك من الباحثين من يرى أن الذكاء باعتباره احد المحكات التى يستند اليها فى تحديد الموهبة والابتكار يجب أن يكون فوق المتوسط ، وليس بالضرورة ذكاء غير عادى [٣٢] . فدرجات الذكاء التى تتعدى المستوى المتوسط لا تكون أساسا سليما لاتخاذ قرارات بالنسبة لمستقبل التلميذ [٣٣] وانما يجب أن تؤخذ محكات أخرى فى الاعتبار . ويمكن القول ان الذكاء

(٢٨) Interview with E. Paul Torrance, Educater and Psychologist, **U.S. News & Word Report**, December 51, 1980, 67-68.

(٢٩) Gallagher 1979.

(٣٠) Piaget, J. **The origin of intelligence in children** (translated by M. Cook.) New York : International University Press 1952.

(٣١) Terman, L.M. The discovery and encouragement of exceptional talent. **American Psychologist**, June 1954, 9, 221-230.

(٣٢) Renzulli, J.S. & Smith, L.H. Developing defensible programs for the gifted and talented. **Journal of Creative Behavior**, 1978,12,1,21.

(٣٣) Wallach, M.A. Tests tell us so little about talent. **American Scientist, 1976,64,57-63.**

المرتفع ليس الشرط الوحيد للموهبة ، فتحقيق الابتكار يتوقف على توفر الدافعية والمهارات بالاضافة الى القدرات (الاستعدادات) (٣٤) .

لقد أسهمت آراء الباحثين ودراساتهم فى النظر الى الموهبة باعتبارها ذات أبعاد متعددة وليست متطابقة مع الذكاء المرتفع . ولقد كان دونالد ماكنون (٣٥) من أوائل الذين عملوا على توضيح هذا التصور للموهبة . فلقد عمل قبل سدنى مارلاند بعقد من الزمان على توضيح الابعاد المتعددة للموهبة وهو يحدثنا أنه بالرغم من أن الباحث عن مصطلح Talent فى مجلة « المخلصات السيكولوجية » فى الثلاثينات كان يحال الى مصطلح « القدرة العقلية العامة » الا أن كلمة talent لم يكن ينظر اليها هذه النظرة الضيقة . فكثرة استخدام علماء النفس لهذا المصطلح فى السنوات الأخيرة ، يكشف عن اعتراف بأن هذا المفهوم يشير الى شيء أوسع وأعقد من مجرد القدرة والاستعداد مهما كانا متميزين . وكلمة ta-lent التى جاءت من الكلمة الاغريقية talanton تعنى فى الأصل وحدة وزن ونقود ، وكانت أمثل وحدة وزن تستخدم لأغراض مالية ومعاملات ، ومن ثم فهى شيء ذو قيمة . أما الاستخدام المجازى للكلمة باعتبارها مواهب طبيعية ومنحة من الله للانسان ، فقد جاء متأخرا نتيجة تحريف فى فهم ما ذكر عن المواهب . ومن ثم فان الاشارة فى انجيل متى كانت الى الاستخدام الحكيم للنقود لا الى التذكير بضرورة رعاية الفرد لاستعداداته وقدراته الأصلية . وكما أدى ارتباط كلمة talenton بالنقود الى مفهوم الموهبة باعتبارها قدرات واستعدادات عقلية ذات قيمة ، كذلك أدى معناها الأصلي باعتبارها وحدة وزن تستخدم للموازنة إلى اعتبارها قوى وجدانية ودافعية فى الفرد . وبهذا المعنى استخدمها تسوشر لتعني الميل والرغبة والشهرة والارادة . وفى القرن الرابع عشر ، كان الشخص الموهوب يعتبر قويا ومدفوعا بقوة للفعل . ومن ثم ، فان ماكنون يفيدنا بأن استخدام الموهبة عبر السنين كان يشير الى العوامل غير العقلية (الوجدانية والدافعية والانفعالية) كما يشير الى العوامل العقلية (الادراكية والمعرفية) فى الشخصية بالرغم من أن استخدام الكلمة لتشير الى الحالات الوجدانية والدافعية قد يظل منذ زمن طويل .

وبالرغم من أن اصطلاح الموهبة giftedness قد ارتبط فى أوائل القرن العشرين بالقدرة العقلية العالية ، الا أن دراسات جيلفورد وجتسلر وجاكسون وتورانس ، أوضحت أهمية الابتكار للموهبة ومن الباحثين ، من يشير الى الطفل الموهوب بمصطلح gifted,creative,talented، وكذلك صدرت دوريات تحمل هذا العنوان (٣٦) . وحتى الآن لا يوجد اتفاق على التمييز بين هذه الألفاظ ، لكن الباحثين لا يزالون يحاولون التمييز بين هذه المصطلحات . فمن التعريفات التى قدمت تعريف جوان (٣٧) الذى يقول

(٣٤) Torrance, E.P. The search for satori & creativity. Great Neck N.K. : Creative synergetic Associates, 1979.

(٣٥) Mackinnon, D.W., 1978.

(٣٦) على سبيل المثال دورية : Gifted/Creative/Talented/Children.

(٣٧) Gowan, J.C., 1978.

فيه : « الطفل الموهوب gifted هو الطفل الذى يكون لديه الامكانية كي يصبح مبتكرا لفظيا . أما الطفل المبتكر talented فهو الطفل الذى يكون لديه الامكانية لكي يصبح مبتكرا بطريقة غير لفظية » . ويتضح من هذا التعريف أن الباحث يطابق بين الموهبة والابتكار . فما هو اذن الابتكار ؟

الابتكار ـ ما هو ؟

توجد عدة مداخل وعدة نظريات فى تفسير الابتكار . فهناك النظريات الخاصة للابتكار التى تصدق فقط فى مجال معين من مجالاته . وهناك النظريات العامة التى تهتم بتفسير الأسس والعوامل التى توجد فى كل عملية ابتكارية بصرف النظر عن نوع الناتج الابتكارى (٣٨) . واذا كنا بصدد دراسة الصلة بين الابتكار والمستقبل ، فيصبح من الضرورى أن نهتم بالنظريات العامة فى فهم الابتكار . من هذه النظريات ، تلك التى توصل اليها علم النفس خاصة النظريات التى اهتمت بالابتكار كعملية process . وبهذا المدخل ، فانى سأتناول واحدة من النظريات السيكولوجية ، التى اهتمت بتحليل عملية الابتكار ، وهى نظرية ابول تورانس . يعرف تورانس الابتكار بأنه « العملية التى يصبح فيها الفرد حساسا للمشكلات وأوجه النقص والفجوات فى المعرفة والعناصر الناقصة وعدم الانسجام ، وهكذا . ويقوم بتحديد الصعوبة والبحث عن الحلول وعمل تخمينات ، أو تكوين فروض عن أوجه النقص ، ثم اختبار هذه الفروض واعادة اختبارها ، ثم تعديلها ، واعادة اختبارها اذا تطلب الأمر ، ثم توصيل نتائج هذا كله الى الآخرين » (٣٩) . وتستثار قدرات الانسان الابتكارية عندما يواجه مشكلة ، أو يصادف شيئا غامضا أو غير كامل أو غير منسجم . عندئذ يشعر الانسان بتوتر وعدم ارتياح ، ويحاول أن يتخلص من هذا التوتر بأن يجد حلا للمشكلة ، التى يواجهها أو يستكمل النقص الذى يصادفه . على أن الطرق وأساليب السلوك المتعارف عليها عادة ما تفشل بالنسبة لكثير من المشكلات ، لذلك يلجأ الانسان الى البحث عن حلول جديدة . لكن التوتر لايزول ، حتى يختبر الانسان هذه الحلول ، ويعدلها ، ويعيد اختبارها حتى يتأكد من فاعليتها ، ويوصل ما انتهى اليه من نتائج الى الناس (٤٠) .

ونستطيع أن نتبين مغزى هذا التصور لعملية الابتكار حين نفكر فى المستقبل . وفى ما يمكن أن يأتى به من أحداث بناء على مالدينا اليوم من مؤشرات . فتوقع حدوث ظواهر معينة فى المستقبل يحتاج الى عقل حساس يستطيع أن يتبين بدايات هذه الأحداث فى منابعها الصغيرة كذلك فان التخطيط للمستقبل والتأثير فى المستقبل يحتاج الى عقل مبتكر يستطيع أن يفكر فى طرق غير مألوفه وبدائل تنجح فى التعامل مع هذا القادم الغريب : المستقبل .

(٣٨) Arieti, S. Creativity. New York : Basic Books, 1976, P.14.
(٣٩) Torrance, E.P. Torrance tests of creative thinking: Norms technical manual. Lexinfton, Mass: Grinn and Company, 1974, P.8.
(٤٠) ibid.

لكن ما هى خصائص العقل المبتكر ؟ لقد كشف التحليل العلمى عن عدة خصائص أو مكونات للعقل المبتكر . وقد بنى تورانس مقاييسه للابتكار على أساس عدة أبعاد اعتبرها مكونات الابتكار ، وهى :

١ ـ الطلاقة fluency : وهى سهولة انتاج الأفكار . والشخص الطلق هو الذى يفيض بالافكار ، بالرغم من أنه قد لا يكون أكثر الأفراد حديثا ، كما أن بعض أفكاره قد لا تبدو جيدة [٤١] وهناك طلاقة لفظية ، تبدو عندما تطلب من الفرد أن يأتينا بمرادفات كلمة ما ، فيأتينا الفرد الطلق بعشرين مرادفا ، بينما لا يأتينا الفرد غير الطلق الا بمرادف أو اثنين أو ثلاثة على أكثر تقدير . كما أن هناك طلاقة عملية ، تتضح فى اختبار الدوائر أو الخطوط المتوازية من اختبارات تورانس ، ، حيث يقدم للفرد عدد كبير من الدوائر المتكررة أو الخطين المتوازيين المتكررين ، ويطلب منه أن يرسم أكبر عدد من الأشكال مستخدما الشكل المتكرر كأساس فى رسم كل شكل .

٢ ـ المرونة Flexibility . والفرد المرن هو الذى يكون قادرا على اتباع اساليب مختلفة لعلاج مشكلة ما ، وعلى أن يأتى بأنواع مختلفة من الأفكار . ويعرف تورانس الأفراد الذين يتميزون بالمرونة بأنهم أولئك و اللذين اذا فشلت خطة لهم أو طريقة ، فسرعان ، ما يأتون بطريقة مختلفة . وهو يستخدمون استراتيجيات مختلفة أو مداخل مختلفة فى حل المشكلات ، كما أنهم يدركون سريعا المداخل غير المنتجة دون أن يتركوا الهدف أبدا ، وانما هم ببساطة يبحثون عن أسلوب آخر لتحقيق الهدف » [٤٢] .

٣ ـ الاصالة origanility وتتميز الاستجابة الأصيلة بالجدة وبعدها عن المألوف . ويصف تورانس الأطفال الذين يأتون بأفكار أصيلة بأنهم « قادرون على أن يبتعدوا عن الواضح والمألوف وعن الطريق المطروق . وهم يرون علاقات ويفكرون فى أفكار وحلول مختلفة عن حلول وأفكار زملائهم فى المدرسة وعن الحلول والأفكار التى ترد فى الكتب المدرسية وكثير من أفكارهم ـ وليس كلها ـ يثبت فائدته . وبعض هذه الافكار يدعو الى الدهشة برغم صحته » [٤٣] . والأفكار الأصيلة هى الأفكار النادرة احصائيا .

٤ ـ التفاصيل elaboration : لا يتم عمل بنجاح الا اذا أمكن تحديد تفاصيله ، وكذلك لا يمكن تنفيذ فكرة ما الا اذا حددنا أبعادها وتفاصيلها . وهكذا يتطلب النجاح فى حل المشكلة ابتكاريا أن نحدد تفاصيل الحل ، ونحدد خطة لتنفيذه ، لكن درجة التفصيل والتنميق يمكن أن تكون كبيرة الى الدرجة التى تغرق بها التفاصيل الفرد المبتكر . ولقد كشفت الدراسات أن الشخص الذى يهتم بالتفاصيل عادة ما يضحى بابعاد الطلاقة والمرونة والأصالة . بل ان هناك أدلة على أن الاغراق فى بعد التفاصيل يقلل من فاعلية الفرد فى عمله . برغم ذلك فان القدرة على وضع التفاصيل ورسم الخطط وتنفيذها وتقديم الحلول هى قدرة هامة ، ويجب أن يتدرب الفرد عليها [٤٤] .

---

(٤١) ibid, p. 73.
(٤٢) ibid, p. 73.
(٤٣) ibid, p. 74.
(٤٤) Torrance, E.P., 1979.

« فهناك قصص كثيرة عن أفراد اخترعوا شيئا ، أو فكروا في فكرة عظيمة . ولكنهم لم يحددوا تفاصيل تنفيذ الاختراع أو تلك الفكرة العظيمة ، لكن شخصا آخر يخترع نفس الاختراع أو يفكر في نفس الفكرة العظيمة في وقت لاحق ويضع تفاصيلها ، ويحصل على المكافأة على انجازه . اذ ليس يكفي أن نخلق أو نخترع شيئا ، أو نصل الى كشف علمي ، أو نفكر في قصة عظيمة ، أو ننتج فكرة كبيرة لحل مشكلة مستقبلية ، اذ لكي يكون للفكرة أو الاختراع قيمة يجب أن نحدد تفاصيلها . (٤٥) والافراد الذين لديهم هذه القدرة هم « الذين يستطيعون أن يأخذوا فكرة أو عملا ويحددوا تفاصيله . وهم يستطيعون أن يأخذوا فكرة بسيطة ويزخرفوها لكي يجعلوها تبدو ساحرة أو جذابة . كما تكون رسومهم مفصلة تماما ، وهم يستطيعون أن يضعوا خططا أو مشروعات مفصلة ومتكاملة » (٤٦) .

على أن تورانس توصل بعد ذلك الى أبعاد اخرى للتفكير الابتكاري ناقشها في كتابه « البحث عن الساتوري والابتكار » (٤٧) ، منها الانفتاح ، والوعي بالمشاعر ، ووضع الأفكار في سياق ، والربط والتأليف ، واثراء الصور وتلوينها ، واستخدام الخيال والاستمتاع به ، والتعبير عن الحركة والصوت ، واستخدام منظور غير عادي ، وتوسيع الحدود ، واستخدام الفكاهة والنظر الى المستقبل .

الموهوبون في الولايات المتحدة : نظرة تاريخية

تكشف الدراسة التاريخية للموهوبين في الولايات المتحدة الأمريكية عن حقيقة هامة هي أنه لا سبيل لمجتمع ما كي يتقدم وينمو ، فضلا عن أن يستمر وجوده الا بالاهتمام بالموهوبين ورعايتهم . كذلك تكشف هذه النظرة التاريخية عن أن الذين يعملون في الدرس والبحث والاختراع يجب أن يتحلوا بصفات التواضع ، وأن يعتقدوا دائما أنهم اذا كانوا قد وصلوا الى كشوف جديدة وهامة ، فما زال هناك الكثير من الظواهر التي تحتاج الى الكشف والدراسة . ومن ثم يكون على العلماء أنفسهم كما يكون على الدولة نفسها أن يستمروا في نشاط دائم لا يهدأ لفهم الظواهر واكتشاف الجديد فيها . ولن يتحقق ذلك الا اذا كانت رعاية الموهوبين الذين يمكن أن يصلوا الى الكشف والاختراع موضع الاهتمام المستمر . هذه الدروس نتعلمها اذا ما استعرضنا تاريخ الاهتمام بالموهوبين في الولايات المتحدة الامريكية منذ فترة ما قبل اطلاق القمر الصناعي الروسي (٤٨) .

لقد مثل اختراع القنبلة الذرية انجازا علميا

(٤٥) Ibid, P.65.
(٤٦) Torrance, 1974, P. 74.
(٤٧) Torrance, 1979.
(٤٨) اعتمد في هذا القسم على الدراسة التالية :

Tannenbaum, A.J. Pre-Sputnik to Post-Watergate concern about the gifted. In A.H. Passow (E.D) **The gifted and the talented: Their education and development. The seventy-eight yearbook of the National Society for the Study of education.** Chicago : The University of Checago Press, 1979, 5—17.

وعسكريا كبيرا في الولايات المتحدة ، مما أدى بالقوات المسلحة الى أن تعتمد على اختراعات العلماء وابتكاراتهم . (٤٩) ولقد اعتمد الجيش الأمريكي على عدد كبير من العلماء أثناء الحرب العالمية الثانية . وقد لا يوجد طالب واحد من طلاب الجامعات في الولايات المتحدة الامريكية لم يسمع من أكثر من استاذ من اساتذته أنه كان مجندا في الحرب العالمية الثانية ليخدم جيش بلاده في ميدان تخصصه . كذلك تقوم القوات المسلحة الامريكية بتقديم الكثير من المخصصات المالية للانفاق على البحوث العلمية التي تجرى في مجالات مختلفة من المعرفة تهتم القوات المسلحة بنتائج دراستها .

ولقد أدى اختراع القنبلة الذرية الى اعتقاد الأمريكيين بأن بلادهم تحتل مركز الصدارة في ميادين العلم والتكنولوجيا ولذلك توقع الأمريكيون أن يكونوا دائما المتقدمين في شتى مجالات الحياة ، ويعترف الأمريكيون بفداحة الصدمة التي أصابتهم حينما نجحت روسيا في اطلاق القمر الصناعي سبوتنيك ، وذلك أثناء الحرب الباردة التي كانت تقوم بينهم وبين روسيا . ولم يكن اطلاق القمر الصناعي مجرد انجاز علمي تكنولوجي وعمل بطولي يعمل على خفض الروح المعنوية للأمريكيين ، وانما كانت له تطبيقاته العسكرية . وكما يقول أحد الباحثين الأمريكيين ، وفجأة أصبحت مكانة الأمة ووجودها في خطر ، لأن عقول العدو الكبيرة قد فاقت عقول علمائنا ، وقد استثمر الروس هذه الضربة بأن أخذوا يذيعون في كل أمة على الأرض نجاحهم أخيرا بأن يجعلوا أمريكا قوة من الدرجة الثانية ، (٥٠) .

وهكذا كان الاختيار واضحا أمام الامريكيين ، اما أن يسارعوا الى الاهتمام بالموهوبين من أفرادهم ، أو أن يتقهقروا الى زوايا التخلف . وبذلك كان اطلاق القمر الصناعي هو العامل الذي أثار أولي الأمر الى بذل أكبر الجهود في الاهتمام بالموهوبين ورعايتهم . لكن الحدث الروسي لم يكن هو العامل الوحيد الذي أثار الاهتمام بالموهوبين ، اذ لو لم تكن قد سبقته عوامل أخرى تساعد على هذا الاهتمام وتشجع عليه ، لما أخذت رعاية الموهوبين هذا الشكل الجدي الذي سيكون له أثر كبير فيما بعد . وتتضح هذه العوامل في النقد الذي وجه الى المجتمع ككل والى التربية بوجه خاص نتيجة عدم اهتمامهم بالموهوبين . ففي وقت مبكر من الخمسينات عبر الموهوبون عن استيائهم من عدم اهتمام الجمهور بالاطفال الموهوبين . وفي عام ١٩٥٠ انتقدت لجنة السياسات التربوية بشدة تجاهل المدارس للأطفال الممتازين عقليا مما يؤدي الى انكماش الطاقات البشرية في مجال العلوم والفنون والمهن . (٥١) وبعد عام كشفت لجنة أوهايو للأطفال والشباب عن أن ٢٪ فقط من المدارس في هذه الولاية توجد بها فصول خاصة بالموهوبين ، وأن ٩٪ فقط من هذه المدارس أفاد أنه يوجد به نوع ما من اثراء الفصول المدرسية العادية . وكذلك وجه الأكاديميون النقد للتعليم الابتدائي

---

(٤٩) Ibid.
(٥٠) Ibid.
(٥١) Educational Policies Commission. **Education for the gifted.** Washington, D.C. National Education Association, 1950.

من المصدر السابق

والتعليم الثانوى [٣٢] . ففى عام ١٩٥٣ نشر بستور اتهاما صارخا للتعليم العام للممارسته نوعا خاصا من الخداع لأطفال امريكا . [٣٣] وقد كان بستور مقتنعا بأن المدارس تقدم غذاء عقليا أو تشجيعا على التفكير ضعيف القيمة خاصة للموهوبين الذين يأخذون فى عدّ الأيام حتى يخلصهم التخرج من الملل الذى يخيم على حياتهم المدرسية . أما سبب ذلك فقد كان وضع السلطة فى أيدى التربويين الذين لا يعرفون شيئا .

كذلك كان قادة السياسة والاقتصاد يشعرون بالقلق بسبب انخفاض رصيد امريكا من القوى البشرية ذات المستوى المرتفع فى العلوم والتكنولوجيا ، ومن ثم فقد أخذوا يشجعون على الاهتمام بزيادة رصيد الأمة من المواهب البشرية . وعلى سبيل المثال أكد وولفل رئيس لجنة المصادر الانسانية والتدريب المتقدم أن الولايات المتحدة الامريكية فشلت فى أن تعد عددا كافيا من الرجال والنساء فى مجالات العلوم الطبيعية والصحة والتعليم والهندسة [٣٤] . فخريجو المدارس الثانوية الذين كانوا يلتحقون بالجامعات ليحصلوا على دبلوماتها كانوا يمثلون ستة من عشرة طلاب فى أعلى ٥٪ ونصف أعلى ٢٥٪ من المتخرجين . أما فى ميدان الدراسات العليا فقد حصل على درجة الدكتوراه ٣٪ فقط من الأفراد الذين لديهم القدرة للحصول على مثل هذه الدرجة .

وزاد الأمر سوءا توقع أن يزداد النقص فى هذه المجالات فى أواخر الخمسينيات الا اذا نجحت المدارس فى تشجيع التلاميذ الموهوبين على الاستمرار فى الدراسة فى المستويات العليا . وترجع هذه الظاهرة التى تدعو الى الانزعاج الى حرص المدارس على التعامل مع متوسطى القدرة . وليس مع الممتازين ، اذ كان المدرسون يهتمون للعمل مع التلاميذ المتوسطين أو مع الاقل من المتوسطين ، وكان من نتيجة ذلك أن أصبح التلاميذ ذوو القدرات العالية موضع التجاهل [٣٥] .

وقد كانت جهود العلماء من العوامل الهامة التى ساهمت فى اثارة الاهتمام بالموهوبين فى وقت مبكر من الخمسينيات . فقد ألقى جيلفورد خطابه الرئاسى فى مؤتمر رابطة علم النفس الأمريكية السنوى والذى عقد فى كلية ولاية بنسلفانيا فى ٥ سبتمبر ١٩٥٠ [٣٦] وكان موضوع هذا الخطاب : « الابتكار » . وقد بدأ جيلفورد خطابه بقوله : « انى أناقش موضوع الابتكار بتردد كبير ، لأنه يمثل مجالا خشى علماء النفس ـ سواء كانوا ملائكة أو غير ذلك ـ أن يدخلوه » وأشار جيلفورد الى تجاهل علماء النفس المروع للابتكار . وأنه لم يتحقق من مدى هذا التجاهل الا فى وقت متأخر . ولكي يحصل على تصور واقعى لمدى تجاهل علماء النفس للابتكار ،

(٣٢) Ohio Commission on Children and Youth. **The status of the gifted in Ohio.** Columbus. Ohio: department of Education. 1951.

(٣٣) من المصدر السابق

Bestor. A.E. **Educational wastelands.** Urbana, Illinois: University of Illinois Press, 1953.

(٣٤) من المصدر السابق

Wolfle, D. **American resources of specialized talent** New York : Harper & Row, 1954.

(٣٥) Tannenbaum, 1979.

(٣٦) Guilford, J.P. Creativity. **American Psychogist,** 1950,5,444-454.

قام جيلفورد بفحص مجلدات مجلة الملخصات السيكولوجية منذ نشأتها . وقد وجد انه من بين ١٢١٠٠٠ عنوان تقريبا في هذه المجلة صدرت في الثلاثة والعشرين عاما الماضية ، كان هناك ١٨٦ عنوانا لدراسات لها صلة بموضوع الابتكار . وبذلك تمثل الكتابات التي اهتمت بهذا الموضوع الحيوى أقل من ٠,٢٪ من الكتب والمقالات المذكورة في مجلة الملخصات السيكولوجية . وحتى ذلك الوقت كان الافتراض السائد أن الطفل الموهوب هو الطفل شديد الذكاء ، وأن اختبارات الذكاء التي طورها تيرمان تمكننا من أن تحدد الأطفال الموهوبين . غير أن الأفكار التي عرضها جيلفورد في خطابه وبحوثه في « بناء العقل » جعل الدارسين يتحققون من أن هناك استعدادات أخرى غير الذكاء العام يمكن أن تستخدم لاكتشاف الموهوبين من الاطفال ، ومن بين هذه الاستعدادات التفكير الافتراقي divergent thinking . وقد توصلت جهود جيلفورد وزملائه الى أنه يمكن قياس الابتكار ، كما استطاعوا وضع الاختبارات التي تكشف عنه . وقد طور جتزل وجاكسون هذه الأفكار حين قاما بدراسة العلاقة بين الذكاء والابتكار (٣٧) . كما قام تورانس بدراسة المشكلة في وقت لاحق (٣٨) . وقد برهنت هذه الدراسات على أنه يوجد مصدر آخر للموهبة غير الذكاء العام هو الابتكار . وقد كان ذلك موضع ترحيب كبير ، مثل ترحيبنا اليوم باكتشاف مصدر جديد للطاقة (٣٩) .

وبالرغم من تحذير المتخصصين ودراساتهم ، وبالرغم مما كان يتواتر من أخبار عن جهود روسيا في بناء رصيدها من المواهب ، الا أنه لم يكن هناك عمل جاد في المدارس الأمريكية حتى أطلقت روسيا القمر الصناعي سبوتنيك . في ذلك الوقت بدأ النقاش يزداد والبحوث العلمية تكثر ، مما أدى الى تغييرات جذرية في التعليم العام . فلقد اقتنع الامريكيون أن الروس قد سبقوهم في تكنولوجيا الفضاء لأنهم (أي الأمريكيين) لم تكن لديهم القوى العاملة التي تعمل على تقدم العلم . لذلك اهتم الأمريكيون بالتعليم السوفيتي الذى يؤدى الى انتاج العلماء وقارنوا بينه وبين التعليم الامريكي . وعلى سبيل المثال ورد في أحد التقارير أن التلميذ قبل أن يتخرج من المدرسة الثانوية في روسيا يكون عليه أن ينجز خمس سنوات من الدراسة في علوم الطبيعة والبيولوجيا واللغة الاجنبية ، وأربع سنوات في الكيمياء ، وسنة في الفلك ، وعشر سنوات في الرياضيات . وبالمقارنة بهذه المتطلبات تحقق المربون الامريكيون من أن تلاميذهم دون هذا المستوى العلمى بكثير . وأسوأ من هذا ، فإن عدد التلاميذ الامريكيين الذين حصلوا على درجات جامعية في العلوم ، وانتظموا في مهن ترتبط بالدفاع كانوا أقل من زملائهم الروس بكثير (٦٠) .

(٣٧) Getzels, J.W. & Jackson, P.W. **Creativity and Intelligence.** New York John Wiley, 1962.
(٣٨) Torrance, E.P. 1962.
(٣٩) Tannenbaum, 1979.
(٦٠) Soviet commitment to education. Report of the first U.S. Educational Mission to the UssR, Bulletin 1959, No. 16, office of education, U.S. Department of Health, Education, and Welfare.
Washington, D.C., U.S. Government Printing Office, 1959.
عن المصدر السابق

في ذلك الوقت كان على الامريكيين أن يسارعوا الى بناء الطاقة البشرية ذات المستوى العالي ، لو أن يخاطروا برؤية حالة من الطوارىء القومية تنقلب الى كارثة قومية » . في ذلك الوقت بدأ المختصون يعترفون بأنه يجب أن يحدث كثير من الاصلاحات . فالواقع أن الانتقادات كانت توجه الى التعليم الامريكي باستمرار ، ومن ثم كان رد الفعل لاطلاق سبوتنيك سريعا وقويا . ونتيجة لهذا المناخ سارع المربون الى الاهتمام بالموهوبين ، ومن ثم توفرت الاعتمادات المالية من الدولة والهيئات المالية من الافراد للمساعدة على اكتشاف الموهوبين والعمل على توفير الامتياز في القوى البشرية . وقد أعيد تخطيط المقررات الاكاديمية بحيث أصبحت أكثر عمقا وشمولا حتى يمكن اختبار القدرات العقلية للموهوبين ، كما أن بعض المقررات التي كانت تقدم على المستوى الجامعي أصبحت تقدم كبرامج لتنمية الموهبة على مستوى المدارس الثانوية والابتدائية . وبالرغم من أنه لا يمكن التأكد من عدد المدارس التي كانت تقدم برامج خاصة للموهوبين ، وبالرغم من أن بعض البرامج التي كانت تقدم لهم لم تستمر طويلا ، الا أن بعض البرامج التي بدأت كبرامج اثرائية للموهوبين فقط ، استمرت بعد ذلك وأدت الى تغيير المنهج الدراسي للتلاميذ جميعا . وكثير مما يدرس الآن في الرياضيات والعلوم هو في الواقع ميراث فترة ما بعد اطلاق سبوتنيك من البرامج التربوية التي صممت للموهوبين .

وبالاضافة الى وفرة الأنشطة والبرامج الخاصة التي بدأت في الخمسينيات وبداية الستينيات فقد كانت هناك طفرة في البحوث العلمية التي تهتم بخصائص الموهوبين وتربيتهم . ولقد ركزت البحوث في ذلك الوقت على موضوعات مثل مدى فاعلية بعض الخطط الادارية لمعاملة الموهوبين ، المكانة الاجتماعية للموهوبين في المدرسة وأثرها على دوافعهم للتعليم ، أسباب وعلاج التأخر الدراسي عند التلاميذ ذوي الموهبة العالية ، دوافع الانجاز وغيرها من العوامل غير العقلية في التعليم ذي المستوى العالي ، والعوامل النفسية والاجتماعية المرتبطة بعمليات التفكير الابتكاري . وقد غمرت الدوريات العلمية بالبحوث والمناداة بتوفير امكانيات خاصة للموهوبين مما زاد من الكتابات المتخصصة عن الموهوبين حتى أن أحد الكتاب زعم بأنه كان هناك من المقالات التي نشرت في الفترة ما بين ١٩٥٦ وحتى ١٩٥٩ أكثر مما كان في الثلاثين سنة الماضية (٦٦) .

في هذه الفترة اهتمت المدارس بتأكيد المعايير الأكاديمية العالية والتقدم الأكاديمي والتفكير في المستقبل المهني . وأصبح الطفل الموهوب لا يفكر اطلاقا في أن يترك المقررات الجادة ويدرس المقررات ذات المطالب المحدودة . فلم يكن ذلك هو الزمن الذي يتصرف فيه الشباب على هواه أو لا يعمل شيئا على الاطلاق . وانما نشأ الشباب في وقت تنشط فيه المواهب ، حيث يطلب من أكثر العقول أن يحققوا امكانياتهم ويخضعوا قدراتهم النامية في سبيل خدمة الأمة .

(٦٦) من المصدر السابق .

French, J.L. (Ed) **Educating the gifted.** New York : Henry Holt, 1959. Tannenbaum.

الستينيات وعصر جون كينيدى

بدأت الستينيات بانتخاب جون كينيدى رئيسا للولايات المتحدة الأمريكية . وقد صاحبت انتخاب كينيدى أحلام ووعود بتحقيق دولة مثالية حديثة . ولقد أكد كينيدى فى خطبه وتصريحاته أن العقول والاخلاص للدولة هى أهم رصيد للأمة . كما أعلن اصراره على أن يرسل انسانا ليهبط على القمر فى عام ١٩٧٠ ، وكان ذلك يعنى قبول تحدى روسيا للتفوق فى استكشاف الفضاء . وأعلن أنه سيجند لذلك أبرز العلماء لكى يعملوا على تحقيق ذلك . وكان هذا يعنى تشجيع أقدر التلاميذ على أن يدرسوا العلوم حيث يقدم لهم أفضل البرامج الخاصة ، اذ كان المتوقع أن يخرج من بين هؤلاء التلاميذ الموهوبين مجموعة من العلماء الذين يعملون على تحقيق تصميم الرئيس .

ومن الأمثلة التى تكشف عن اهتمام جون كينيدى بالموهوبين أنه جمع أفضل عقول أمريكا كى يعملوا مستشارين له . وكان بعض هؤلاء قد اكتسب شهرة كأساتذة فى الجامعات أو قادة فى مجالات الصناعة . وكان كل منهم يمثل تميزا عقليا وحماسا لمعالجة أكثر مشكلات الدولة صعوبة . وقد برهنت هذه السياسة على أنه أصبح أمام الاطفال الموهوبين نموذجا يتمثل فى هؤلاء المستشارين الذين كانوا بدورهم أطفالا موهوبين والذين اكتسبوا نتيجة لموهبتهم الشهرة والقوة المرتبطتين بالمراكز التى كانوا يشغلونها .

ومع ذلك فلا يجب أن نتسرع فنستنتج من ذلك أن العقل الموهوب قد وجد أخيرا مكانه اللائق به فى المجتمع . فالدراسات التى أجريت تكشف أنه كان من السهل فى ذلك الوقت أن يكتسب التلميذ مكانة بين زملائه اذا كان بطلا من أبطال الرياضة البدنية أكثر مما لو كان فى قائمة الشرف . ولكن سنوات حكم كينيدى كانت تقدم أملا فى الحصول على مدعمات اجتماعية واقتصادية لأولئك الذين يريدون تنمية قدراتهم العقلية الممتازة [٦٢] .

وقد كانت روح العصر فى حكم كينيدى ترجح من كفة العلوم . فقد كان هناك شعور بأن العالم يستطيع أن يخدم الأمة أفضل مما يستطيع الشاعر وقد كشفت خطط الأطفال الموهوبين فى الخمسينيات وأوائل الستينيات عن أن الطلاب شديدى الذكاء تخصصوا فى العلوم ، وكثير منهم كان يخطط للتخصص فى التكنولوجيا التى تخدم أهداف الدفاع [٦٣] .

ومع ذلك فان الاهتمام برعاية الموهوبين والجهود التى بذلت من أجلهم لم تخل من بعض المثالب . فلم يكن التهديد الروسي الذى تمثل فى اطلاق سبوتنيك ، ولم يكن الحماس الذى ساد فى عصر كينيدى ، كافيين للاستمرار فى رعاية الموهوبين فى المدارس . ويبدو أن عصر كينيدى لم ينجح فى ارساء دعائم الفلسفة التى تؤكد الاهتمام بالامتياز فى القوى البشرية والبحث عن هذا الامتياز وبذل الجهود من أجل تنميته . فقد اعتبر اثراء المنهج الدراسي بمثابة حلى يسارع المربون الى التخلى عنها حين تزداد تكاليفها . كذلك فان كثيرا من الطلاب الذين عمل المرشدون فى المدارس الثانوية على توجيههم الى التخصص فى مجالات العلوم غيروا تخصصاتهم حينما

(٦٢) Tannenbaum, 1979.
(٦٣) Ibid.

وصلوا الى الفرقة الثالثة فى دراستهم الجامعية ، كما أنه لم تبذل جهود كبيرة للاهتمام بالتلاميذ الموهوبين فى المجالات غير الأكاديمية كالفنون والميكانيكا وقيادة الجماعات . كما أن الجهود العلمية التى بذلت فى دراسة وقياس التفكير الافتراقى الابتاجى ظلت حبيسة معامل البحوث . وقد اتجه قليل من الجهود الى ابتكار وسائل لتنمية هذا النوع من الاداء العقلى وترجمته الى مناهج دراسية . وأخيرا فان البرامج القومية للبحث عن المواهب فشلت فى أن تصل الى الأقليات المحرومة اجتماعيا ، والتى كان أداؤها أقل من المستوى القومى ، اذ كان من الصعب الوصول الى هؤلاء الطلاب الموهوبين لأن بيئاتهم لم تكن تقدم لهم التشجيع الكافى الذى يمكن مواهبهم من الظهور . (٦٤)

عوامل مضادة

كان النضال لالغاء التمييز العنصرى من العوامل الهامة التى أثرت فى الاهتمام بالموهوبين ، فلقد قررت المحكمة العليا فى الولايات المتحدة الغاء التمييز العنصرى فى المدارس العامة فى عام ١٩٥٦ ، تحقيقا للديمقراطية ، ومن ثم برز الاهتمام بتحديث الدستور وخاصة قانون الحقوق المدنية ، لتحقيق هذا الهدف . وبطبيعة الحال تركز الاهتمام على التربية . لكن الدوافع الى هذا الاهتمام لم يكن فى هذه المرة اكتشاف المواهب وتنميتها ، بل كان تحقيق العدالة الاجتماعية ، والاهتمام بالمحرومين اجتماعيا . وقد أدت هذه الحركات الى تركيز الهجوم على اختبارات الذكاء باعتبارها الأساس الذى يحدد ما اذا كان الطفل موهوبا . كما وجه النقد أيضا الى جمع التلاميذ فى فصول الموهوبين على أساس هذه الاختبارات . فقد اعتبرت هذه الاختبارات من عوامل التمييز العنصرى ، لأن أفراد الأقليات لم يكونوا يحسنون الأداء على هذه الاختبارات لاعتمادها الكبير على اللغة وثقافة البيض . ومن ثم فان حصول أطفال البيض على درجات عالية فى هذه الاختبارات كان يعطى الانطباع بأنهم أكثر ذكاء من أقرانهم من الأقليات . (٦٥) وكان ذلك من العوامل التى ساهمت فى تقهقر الاهتمام بالموهوبين فى أواخر الستينيات ، لكن هذا الاهتمام يبرز من جديد ، وبشكل أقوى فى السبعينيات . ففى عام ١٩٧٠ . أضاف الكونجرس تعديلات لقانون التعليم الابتدائى والثانوى يتيح توفير امكانيات للموهوبين ، وقد كان ذلك تعبيرا عن اهتمام المشرعين بالموهوبين ، وفى عام ١٩٧٤ أسس مكتب الموهوبين فى وزارة التربية الأمريكية ، كما خصص ٢,٥٦ مليون دولار لابتكار برامج لرعاية الموهوبين . وأعيد تخصيص ميزانيات لهذا الغرض فى عام ١٩٧٧ . وفى حين أنه فى عام ١٩٧٣ كان ٤٪ فقط من الموهوبين يحصلون على نوع من الاهتمام فى مدارسهم الا انه يمكن القول بأن كل مدرسة وكل ولاية تظهر الآن اهتماما بالموهوبين . وبالرغم من أن تراث الستينيات وما اتسم به من تحول الاهتمام بعيدا عن الموهوبين كان ثقيلا ، الا أن الرغبة فى السعى الى

---

(٦٤) Ibid.
(٦٥) Ibid.

تحقيق الامتياز في تنمية المواهب عاد من جديد في السبعينات (٦٦) .

يتضح من الاستعراض السابق أنه يوجد عدة عوامل ساهمت في جعل الاهتمام باكتشاف المواهب وتنميتها جزءا أساسيا من عمل التربية :

١ ـ جهود العلماء في التنبيه الى أهمية المواهب واكتشافها وتنميتها ابتداء من دراسات تيرمان حتى جهود جيلفورد وتورانس وغيرهم ، وقيامهم بالدراسات والبحوث التي ألقت كثيرا من الضوء على طبيعة الموهبة وساعدت في الكشف عنها وابتكار برامج لتنميتها .

٢ ـ التنافس بين أمريكا وروسيا ونجاح روسيا في اطلاق القمر الصناعي مما أشعر الأمريكيين بتخلفهم علميا وتكنولوجيا .

ولقد أصبح نجاح روسيا في اطلاق القمر الصناعي عام ١٩٥٦ درسا من الصعب أن ينسى . فالمفكرون يأخذون على عاتقهم اليوم بأن يحملوا على زيادة وعي المجتمع الأمريكي بما يحدث فيه . وها هو واحد من العلماء المؤثرين الذين أسهموا في الدراسة العلمية للموهوبين وابتكار البرامج لتنميتهم يكتب في عام ١٩٧٩ (٦٧) .

« كانت الولايات المتحدة في الستينات تبدو في مقدمة العالم في ميدان الابتكار ، وكان علماؤنا يقومون بانجازات هامة . فقد هبطنا على القمر الصناعي ، وكان مخترعونا كثيري الانتاج . وأجريت تغييرات هامة في المناهج والكتب المدرسية . كما كان المناخ القومي للابتكار يتحسن . لكن يبدو الآن أن هذه الاتجاهات تنقلب رأسا على عقب . ففي عام ١٩٧٩ هبطت براءات الاختراع التي صدرت لمواطني الولايات المتحدة الى أدنى مستوى خلال خمسة عشر عاما . كما ارتفع العجز في ميزاننا التجاري الى ٢٨ مليون دولار في عام ١٩٧٨ ، ويتوقع أن يزداد هذا العجز في عام ١٩٧٩ ، كما يتوقع أن يستمر هبوط انتاجنا للبضائع ، وهذا يشير الى أن لدينا مشكلة قومية في انخفاض الانجاز تشبه مشكلة الانجاز المنخفض التي أثار اهتمام المعنيين بتربية الطلاب الموهوبين والممتازين لعدة سنوات » .

ولقد أوضح تورانس في دراسته كيف أن اليابان قد تفوقت على الولايات المتحدة وغيرها من الدول المتقدمة في مظاهر عديدة من الحياة ، حتى أصبحت تسمى « اليابان باعتبارها الدولة رقم ١ : دروس لأمريكا » وهو عنوان أحد الكتب التي صدرت عن اليابان وطبعته مطبعة جامعة هارفارد في عام ١٩٧٩ (٦٨) . وقد كتب تورانس دراسته هذه بعد أن عاد من زيارة علمية لليابان استغرقت ثلاثة شهور في بداية عام ١٩٧٩ ، وفي هذه الزيارة درس تورانس العوامل التي أدت باليابان الى التفوق في كثير من المجالات . وما يمكن أن نستخلصه من دراسته هو : إنهم في اليابان يدعمون الابتكار في شتى مظاهر الحياة الى أبعد حد ممكن ، كما أنهم يدعمون المثابرة على العمل وبذل الجهد .

---

(٦٦) Ibid.

(٦٧) Torrance, E.P. Lessons about giftedness and creativity from a nation of 115 million overachievers. Gifted Child Quarterly, 1980, 24 (1), 10-74.

ظهرت ترجمة لهذا المقال لعلم كاتب مع الدراسة في مجلة العلوم الاجتماعية ، ١٩٨٠ ، ٨ (٣) ، ١٦٣ - ١٧٤ .

(٦٨) Vogel, E.F. **Japan as No. 1 : Lessons for America. Cambridge: M.A: Harvard University Press, 1979.**

التربية والموهبة والمستقبل

الحقيقة التي لا يجب أن تغيب عن ذهن أي مجتمع هي أن معدل التغير أصبح سريعا في عدد من المجتمعات، وأن المجتمعات تتسابق في التقدم نحو التحكم في الحياة وما فيها، ونحو تنمية طاقاتها وخاصة البشرية. والمجتمعات التي يكون فيها معدل التغير بطيئا، لا تقف منعزلة عن هذا المناخ. بل انه حتى في المجتمعات المتقدمة يشاهد الشباب ما يحدث في هذه المجتمعات من تغيرات وما يوجد فيها من تنظيمات ويلعبون أدوارا ايجابية، ويتخذون مواقف بازاء هذه التغيرات. وثورات الشباب في امريكا على حرب فيتنام، وفي فرنسا وغيرها من البلاد المتقدمة ليست بعيدة عن الذهن، ولقد ثار الشباب حتى على أساتذتهم، وحرقوا ملفات بحوث أحد أساتذة جامعة كلومبيا، محاولين أن يبرزوا أن عبقرية الاستاذ كان يمكن أن تستغل بشكل أفضل من العمل في البحوث العلمية التي يقوم بها والتي لم توصلهم الى المجتمع الطيب الذي ينشدونه [٦٩]. والدرس الذي يمكن أن نتعلمه من ثورات الشباب ومن الحروب ومن تقدم بعض المجتمعات أو تأخر بعضها هو انه لا خيار أمام أي مجتمع بازاء التغير، اذ لابد لأي مجتمع من أن يعي ما يحدث فيه وفيما حوله من تغير، وأن يرصد هذا التغير، وما يمكن أن نستخلصه من كل ذلك هو:

ا - أن التغير هو حقيقة العصر. وأنه يحدث سواء أردنا أو لم نرد.

ب - من الأفضل أن نتدارس هذا التغير، ونتنبأ به، ونحاول الاستجابة له بشكل يحقق فاعلية الانسان والمجتمع وتكاملهما.

ج - أن نقطة البداية في الاستجابة للتغير هي التربية، بكل مؤسساتها سواء في ذلك المدرسة أو الأسرة أو غيرهما من مؤسسات المجتمع.

د - أن نقطة الانطلاق في التربية التي تستجيب للتغير هي أن يكون لدى المجتمع والأفراد صور قوية وايجابية للمستقبل، سواء كان مستقبلا للفرد أو مستقبلا للمجتمع، فالمستقبليون يخبروننا بأن المجتمعات التي كان لديها صورة ضعيفة عن المستقبل انقرضت، أما المجتمعات التي نمت وازدهرت فهي التي كان لها صور قوية وحية عن المستقبل. وفي التنبؤ بسلوك الفرد، تتضح أهمية تصوره للمستقبل اذ يبدو أن تصور المستقبل يحدد الى حد كبير الأشياء التي سيكون الفرد مدفوعا الى تعلمها وانجازها، وكيف سيحيا ويتكيف ويتعامل مع المجتمع الذي يتغير بدرجة كبيرة [٧٠].

وحين تبرز في مجتمع ما ظواهر سلبية، تشير أصابع الاتهام عادة الى التربية ولقد شاهدنا كيف تركز الهجوم على المدارس في أمريكا حين أشار اطلاق القمر الصناعي الروسي الى تخلف الولايات المتحدة في ميادين العلم والتكنولوجيا. والواقع أن التربية هي انعكاس لما يحدث في المجتمع، فاذا كان المجتمع يدعم الابتكار والاختراع فستهتم التربية بتنشئة التلاميذ لكي يكونوا مبتكرين ومخترعين، واذا كان المجتمع يدعم التقليد والعادة والعرف، فستعمل المدارس على تدعيم ذلك. لكن التربية لا تقوم بها المدارس فقط. فالمؤسسة الأولى للتربية هي الأسرة. وكل مؤسسات المجتمع وقطاعاته التي تتعامل مع أفراده في شتى مراحل حياتهم لها دور في تربية أفراده. وكل دراسة لدور التربية في المجتمع يجب أن تأخذ اسهام كل مؤسسات التربية في الاعتبار، غير أن الاهتمام كان دائما منصبا على دور المدرسة، فالمدرسة هي المؤسسة التي تديرها الدولة لتنشئة أفراد المجتمع. والسؤال الآن هو: ماذا فعلت المدرسة لتنمية المواهب؟

(٦٩) Tannenbaum, 1979.
(٧٠) Toffler, A. (Ed.) **Learning for tomorrow: The role of the future in education.** New York: Vantage Books, 1974.

دور التربية في تنمية الموهبة في الولايات المتحدة

كان من نتيجة اطلاق روسيا للقمر الصناعي ، وشعور امريكا بتخلفها في ميدان العلم والتكنولوجيا ، والنقد الذي وجه الى المدارس ، والبحث عن بدائل لأساليب التربية القائمة ، أن حدثت في الستينات ثورة في التربية ، أخذت ثمارها تظهر في السبعينات وقد اشتملت هذه الثورة على الجوانب الآتية (٧١):

١ ـ حدثت تغيرات أساسية في أهداف التربية . وتكشف دراسة أهداف تدريس المواد الاجتماعية عن أنه لم يكن ثمة اهتمام بتنمية أي نوع من مهارات التفكير . فطلاب الدراسات العليا والباحثون الذين كانوا يريدون دراسة أساليب حل المشكلات والتفكير الابتكاري لدى التلاميذ قلما كانوا يجدون مثل هذا السلوك لكن الاهتمام بالتفكير الابتكاري أخذ يزداد بعد ذلك . وعلى سبيل المثال قام تورانس بمراجعة ١٤٢ دراسة تجريبية صممت لتنمية التفكير الابتكاري في المدارس الابتدائية والثانوية وتكشف هذه الدراسات عن اهتمام المربين والباحثين بابتكار أساليب لتنمية التفكير الابتكاري . وقد كشفت مناقشة تورانس لهذه الدراسات عن أنه يمكن تدريس مهارات حل المشكلات الابتكاري ، وأنه حيث يتدرب التلاميذ على هذه الأساليب ويمارسونها فانهم يكتسبون هذه المهارات ، ويصبح في امكانهم انتاج حلول ابتكارية للمشكلات . ويشير تورانس الى دراسات أجريت في الستينات تكشف أن المدرسين لم يكونوا يدعمون أو يشجعون أساليب السلوك والظروف البيئية التي تؤدي الى تنمية السلوك الابتكاري . لكن دراسة أجريت بعد ١٥ سنة أي في عام ١٩٧٥ تكشف أن ٩٦٪ من ٤٠٨ مدرس في خمس مدن كبيرة كانوا يرون أن نشاط الفصول يجب أن يخصص لتدريس التفكير الابتكاري وحل المشكلات ، وأن ٨٧٪ منهم رأوا أن تدريس الابتكار وحل المشكلات يجب أن يتم من خلال المجالات المنهجية العادية (٧٢).

٢ ـ حدثت تغييرات هامة في أساليب التدريس وفي علاقة المعلم بالتلاميذ . فقد انتشرت في الستينات حركة تعديل السلوك Behavior Modification وخشي المهتمون بالتفكير الابتكاري أن تؤدي هذه الحركة الى أن تتبنى المدارس الأساليب التي تمكن المدرسين من التحكم في سلوك التلاميذ مما يتعارض مع الجهود التي تهدف الى تنمية السلوك الابتكاري . لكن الذي حدث هو أن المربين استخدموا الكثير من أساليب التحكم في السلوك والبيئة لصالح تنمية السلوك الابتكاري . وقد أنتج الكثير من الأفلام والشرائط والكتب ، وغيرها من وسائل الاتصال التي يمكن أن تستخدم في البرامج التي تهدف الى تدريب المدرسين على اتقان مهارات تنمية التفكير الابتكاري (٧٣).

٣ ـ تأثرت أساليب التدريس بانتاج مواد تستخدم في المنهج الدراسي في عدد من المجالات مثل القراءة ،

---

(٧١) Torrance, E.P. Creativity and futurism in education: Retooling., **Education**, 1980, **100**, 298-311.

(٧٢) Torrance, E.P. & Torrance, J. Pansy. **Is creativity teachable**, Bloomington, Indiana: Phi Delta Kappa, 1973.

راجع أيضا Torrance, E.P. Can we teach children to think creatively ? **Journal of Creative Behavior**, 1972, 6, 114-143.

راجع أيضا Torrance, E.P., 1980.

(٧٣)
راجع أيضا Torrance, E.P. Students of the future: Their abilities, achievements, and images of the future. **Creative Child and Adult Quarterly**, 1976, 1, 76-90.

والدراسات الاجتماعية ، العلوم ، الفنون ، الرياضة ، الموسيقا وغير ذلك . ومن أهم هذه المواد كتاب المعلم ، وكتاب التلميذ المرتبطان بمجال ما ، فقد كانت هذه الكتب تساعد كلا من المعلم والتلميذ ، على القيام بالأنشطة التي يمكن استخدامها قبل وخلال وبعد دروس القراءة لتيسير التفكير الابتكاري والمهارات التي يمكن توقعها في مراحل العمر المختلفة (٧٤).

٤ ـ انتجت مواد للتعليم في المنهج تساعد على تيسير التفكير الابتكاري وهناك أمثلة عديدة لهذه المواد التعليمية (٧٥).

٥ ـ تآزرت جهود الباحثين مع تنبؤات المستقبليين بالتغيرات المتوقعة في السلوك الانساني والمتصلة بقدرات الانسان على التعلم . وقد تنبأ المستقبليون بأن كثيرا من تعلم الانسان في المستقبل سيكون موجها ذاتيا self-directed learning وفي نفس الوقت أخذ الباحثون يبتكرون برامج للتعلم الموجهة ذاتيا وبرامج لحل المشكلات الابتكاري والمستقبلي . كذلك أخذوا يعملون على ابتكار وسائل تمكن من تعزيز القدرات والمهارات والدوافع اللازمة للتعليم الموجه ذاتيا ومساعدة التلاميذ على اكتسابها (٧٦).

٦ ـ من أهم العوامل التربوية التي أثرت في تنمية الموهبة ابتكار اختبارات سيكولوجية وأساليب ملاحظة تمكن من اكتشاف الموهوبين . وقد أشار تورانس في عام ١٩٥٩ الى أن اختيار أعلى ٢٠٪ من تلاميذ المدارس باعتبارهم موهوبين على أساس اختبار ذكاء يؤدي الى عدم اكتشاف ٧٠٪ من الموهوبين الذين يمكن اكتشافهم بواسطة اختبار في الابتكار . وقد بنى تورانس رأيه هذا بناء على دراسات في عدد من المدارس أجراها في عام ١٩٥٨ ، ١٩٥٩ وقد دلت الدراسات التي أجراها في السبعينات على أن استنتاجه ما زال قائما (٧٧). ومما هو جدير بالذكر أنه حتى عام ١٩٦٠ لم يكن هناك اختبارات منشورة تجاريا تستخدم في الكشف عن الموهبة (٧٨). أما الآن فتوجد عدة اختبارات يمكن شراؤها واستخدامها على نطاق واسع في الكشف عن الموهوبين (٧٩). كما أن بعض هذه الاختبارات أجيز استخدامه في عدة ولايات أمريكية للكشف عن الموهوبين وللاستخدام في عدد من برامج الموهوبين الخاصة .

٧ ـ تركز الاهتمام في الاعداد لمستقبل الحياة Career Education على استثارة القدرات الابتكارية للتلاميذ بهدف المزج بين التعلم المدرسي والخبرات المرتبطة بالعمل ، وفهم الذات . وقد اهتمت المناهج التي صممت للاعداد لمستقبل الحياة بالكشف عن التضمنات ، والوصول الى تغييرات والتنبؤ بالجاهات ، ونتائج القرارات . وتفصيل البدائل واثارة أسئلة مرتبطة بالقضايا ، واتخاذ القرارات والحصول على

---

(٧٤) ibid.
(٧٥) ibid.
(٧٦) ibid.
(٧٧) Torrance, 1980 & 1962.
(٧٨) Toerance, 1980.
(٧٩) راجع المصادر الآتية للاطلاع على اختبارات الابتكار المنشورة :

(1) Guilford, J.P. **Creativity tests for children : A manual of interpretation**. Orange, calif. : Sheridian psychological services, 1971.
(2) Khatena, J. and Torrance, E.P. **Norms-technical manual Thinking creatively with sounds and words.** Lexington Mass. : Personnel 1973.
(3) **Schaefer,** C.E. **Similes test manual.** Goshen, N.Y. Research psychologists Press, 1971.
(4) Torrance, 1974.

معلومات جديدة والتعرف على امكانيات الفرد وفهمها، وتغيير الفرد لخصائصه، وهكذا ونجد في كل هذه المهارات وأنواع السلوك هذه ابتكارا كما نجد فيها توجيها مستقبليا (٨٠).

والآن كيف أثرت كل هذه العوامل التربوية على قدرات وانجازات التلاميذ، وصورهم المستقبلية ؟

يشير تورانس في مقاله عام ١٩٧٦ (٨١) الى الصورة التي تتسم بالخلط والاضطراب عن التلاميذ وقدراتهم وتحصيلهم. فتقارير شركات نشر الاختبارات النفسية تشير الى أن التلاميذ أصبحوا أقل ذكاء وأنهم يعرفون أقل مما كانوا يعرفون في الماضي. في نفس الوقت تشير دراسات أخرى الى أن التلاميذ في الجامعة يحصلون على درجات أفضل مما كانوا يحصلون عليه في الماضي. ويشير تورانس الى عدد من الدراسات التي كشفت عن انخفاض في تحصيل التلاميذ المدرسي وقدراتهم، وقد وجه النقد الى الاختبارات التي انخفض أداء التلاميذ عليها فوصفت بأنها أصبحت غير حديثة ولا صلة لها بأهداف التربية اليوم، كذلك اتهمت الجامعات بأن متطلباتها أصبحت تتسم بالتساهل. وأخذ كل من الفريقين ينكر ما يوجه اليه من اتهامات ويبحث عن تفسير لنتائج الدراسات في أداء التلاميذ وبالنسبة لأداء التلاميذ في الجامعة فقد كشفت إحدى الدراسات عن سبب يبدو معقولا لارتفاع تحصيل التلاميذ. فالجامعات اليوم تسمح للتلاميذ باختيار مقرراتهم ومعنى هذا أنه أصبح بامكان التلميذ اليوم أن يختار مقرراته الجامعية التي يشعر بميل الى دراستها، ومن ثم تكون لديه دوافع لتعلمها والنجاح فيها.

وقد شعر تورانس بالحيرة بازاء هذه التقارير التي تشير الى انخفاض في قدرات التلاميذ، لأنه بدا له، كما يبدو لغيره، أن التلاميذ اليوم في كل المستويات التعليمية، يعرفون ويفكرون بشكل أفضل مما كانوا عليه منذ خمس أو عشر سنوات مضت. وقد توصل تورانس الى هذا الرأي خاصة وأنه يشرف على تصحيح اختبارات تورانس للتفكير الابتكاري، حيث يصحح في كل عام ما يقرب من ٢٥٠٠٠ الى ٣٠٠٠٠ اختبار من الولايات المتحدة وكندا، ومن ثم كان يلاحظ الازدياد في قدرات التفكير الابتكاري لدى التلاميذ. لكنه خشي أن الاختبارات التي ترد اليه من أنحاء امريكا وكندا المختلفة ربما أجريت على أطفال موهوبين حيث إنه من المعتاد أن تجري هذه الاختبارات على الموهوبين. لذلك اهتم تورانس بقياس قدرات التفكير الابتكاري لتلاميذ الفصل السادس الابتدائي في مدرسة كان قد أجريت اختبارات التفكير الابتكاري على كل تلاميذها في عام ١٩٦٧. وقد اختار تورانس هذه المدرسة لاعادة قياس قدرات التفكير الابتكاري للتلاميذ فيها عام ١٩٧٦ لأنها كانت مدرسة عادية في تمثيلها لغيرها من المدارس العادية، فتلاميذها يأتون من بيئة تتميز بتعدد المستويات الاقتصادية الاجتماعية، كما أنها تتميز بالاستقرار في الفترة بين عام ١٩٦٧ وعام ١٩٧٦. فقد استمر في هذه الفترة كثير من المدرسين، وبقي المرشد المدرسي، ورقي مساعد الناظر فصار ناظر المدرسة. وفي خلال هذه الفترة لم تقدم أية برامج مما يشجع التفكير الابتكاري، باستثناء بعض مواد المنهج التي أدمجت الابتكار مع محتوى المنهج التقليدي. وقد وجد تورانس أن أداء تلاميذ الفصل السادس الابتدائي على اختبارات تورانس للتفكير الابتكاري عام ١٩٧٦ كان أفضل من أداء أقرانهم على نفس الاختبارات عام ١٩٦٧. ومن دراسة الفروق بين أداء المجموعتين من التلاميذ نجد أن أكبر تحسن طرأ في حالة الأبعاد الكيفية للابتكار وهي الأصالة والتفاصيل. وقد وجد تورانس تأييدا لنتائجه في نتائج دراسة فلانجان المشهورة والتي أجريت على

(٨٠) Torrance, 1980.
(٨١) Torrance, 1976.

مستوى الولايات المتحدة والمعروفة باسم Project TALENT[٨٢]. فقد قارن فلانجان بين أداء تلاميذ الفرقة العاشرة في عام ١٩٦٠ وأداء أقرانهم في عام ١٩٧٥ على مجموعة من الاختبارات. وقد وجد فلانجان أن تلاميذ الفرقة العاشرة في عام ١٩٧٥ احتفظوا بمستوى أقرانهم في عام ١٩٦٠ في الفهم والقراءة والرياضيات، لكن أداءهم كان منخفضا عن أداء أقرانهم في الكلمات واللغة الانجليزية والحساب في الرياضيات. لكنهم تفوقوا على أقرانهم عام ١٩٦٠ في الابتكار والتفكير والاستدلال المجرد. ويفسر فلانجان هذه الزيادة بازدياد الاهتمام بأسلوب حل المشكلات في المنهج. ويعلق تورانس على هذه النتائج بأن الانخفاض في الأداء على اختبار المفردات كان نتيجة أن مفردات تلاميذ عام ١٩٧٥ أصبحت مختلفة عن مفردات أقرانهم عام ١٩٦٠، ويعتقد أن تلاميذ ١٩٦٠ سيكون أداؤهم منخفضا على اختبار مفردات وضع على أساس المفردات السائدة عام ١٩٧٥. كما أن انخفاض الأداء في حساب الرياضيات يرجع الى انتشار الحاسبات الآلية التي يستطيع التلميذ أن يحملها معه في جيبه، مما يجعله غير متحمس للتدريب على الحساب. ويلخص تورانس هذه النتائج فيقول أنه يتوقع أن تلاميذ الجامعة في المستقبل سيكون أداؤهم منخفضا على الاختبارات التي تقيس القدرات المدرسية والانجاز المدرسي، بينما سيكون مرتفعا على الاختبارات التي تقيس التفكير الابتكاري وحل المشكلات.

تنمية قدرات الانسان على التصور المستقبلي :

العقل الذي يستطيع تصور المستقبل هو العقل المبتكر. ومن المفيد أن نشير الى أن هناك من المفكرين من يعتقد أن لكل منا حظه من الابتكار، وأن قدرات الانسان الابتكارية قابلة للاستثارة والتنمية في أي مرحلة من مراحل حياته. فالابتكار أسلوب في التفكير والحياة يمكن تعلمه. والعقل المبتكر يتميز بأنه يتجه الى المستقبل. ولقد قام تورانس بقياس قدرات التفكير الابتكاري للتلاميذ في مرحلة الدراسة الثانوية، ثم طلب منهم بعد اثني عشر عاما ان يصفوا له انجازاتهم الابتكارية بأن يجيبوا على استبيان به عدد من المنجزات الابتكارية يضع التلميذ علامة على ما أنجزه منها. كما طلب أن يعبروا عن طموحاتهم عن المستقبل. ومن النتائج التي انتهى اليها تورانس[٨٣].

ـ التلاميذ الذين كشفت نتائج اختبارات الابتكار التي أجريت عليهم في المرحلة الثانوية عن أنهم مبتكرون يميلون الى أن يكونوا مبتكرين في مرحلة الرشد بعد تخرجهم من الجامعة.

ـ اختار التلاميذ الذين يتميزون بابتكار مرتفع مهنا غير عادية. وقد أثبتت الدراسات التتبعية عن أن المهن التي اختاروها تميل الى أن تتحقق في المستقبل.

ـ يميل تلاميذ المرحلة الثانوية فالمبتكرون الى أن يسيروا في مستقبل مهني يشتمل على انعطافات تتطلب تدريبا وخبرة ذات عناصر غير عادية، ولكنها مرتبطة ببعضها.

وهكذا نجد أن التلاميذ الذين يكون لهم استعداد للابتكار، يميلون الى تحقيق أفكارهم في المستقبل حين يخرجون الى الحياة العملية. كذلك نجد أن اختيار هؤلاء التلاميذ لمهن غير عادية تتحقق في المستقبل يكشف عن رؤية ابتكارية للمستقبل، لا يستطيعها الا عقل مبتكر.

واذا كان المستقبل يتطلب عقلا ابتكاريا. فان واجب

(٨٢) Flanagan, J.C. Change in school levels of achievement: Progect TALENT ten and fifteen years retests **Educational Researcher**, 1976, 5 (8), 9-12.

(٨٣) راجع المصدر السابق
Torrance, E.P. **The search for satori & creativity**. Great Neck, N.Y. : Creative syngertic Associates, 1979.

التربية أن تعمل على استثارة قدرات الموهوبين والمبتكرين بحيث تتجه هذه القدرات الى المستقبل . غير أن ذلك يتطلب بيئة من نوع خاص . ولنستمع الى تورانس يصف لنا هذه البيئة (٨٩) .

« لكي تتيح للأطفال في المنازل والمدارس أن يحصلوا على لمحات من اللانهاية ، وأن يحملوا تصورهم للمستقبل ممتدا وغنيا ودقيقا ، يجب أن يكون لدى البيئة درجة من الانفتاح . وكذلك يجب أن تعمل مواقف العمل ومنظمات الجامعة وادارات الحكومة وأماكن العبادة وغير ذلك من المؤسسات على خلق نهايات مفتوحة ، اذا أرادت هذه المؤسسات أن يحقق هؤلاء الأفراد امكانياتهم وأن يخلقوا مستقبلا أفضل . ففي المدارس يمكن لمواد المنهج وأساليب التدريس ذات النهايات المفتوحة أن تتيح للتلاميذ أن يستجيبوا بحسب ما تمكنهم قدراتهم وخبراتهم مهما كانت . ويعتبر بعض المدرسين وأساليب التدريس خطرة . لكن حينما يستجيب التلاميذ بحسب ما تمكنهم قدراتهم وخبراتهم ، فان ذلك يأخذ المدرسين أنفسهم الى عالم أرحب من قدراتهم وخبراتهم . والبرامج ذات النهايات المفتوحة لا يمكن أن تفحص مقدما ويرخص بتوفر الأمن فيها . اذ يجب أن يؤدي فيها شيء الى آخر ، حيث لا يمكن للمرء أن يتأكد الى أين توصل هذه النهايات المفتوحة » .

ويناقش تورانس عددا من الأساليب التربوية التي تهدف الى تنمية قدرات الانسان على تصور المستقبل والحصول على لمحات من اللانهاية . وهذه الأساليب هي :

١ ـ النهايات المفتوحة وعدم الاكتمال

من أبسط الطرق التي تساعد الأطفال على أن يحصلوا على لمحات من اللانهاية الكتب والقصص ذات النهايات المفتوحة التي تزخر باحتمالات لا حدود لها . ويقترح تورانس الأنشطة التالية التي تتميز بأنها فعالة في خلق نهايات مفتوحة في كل مجالات المنهج المدرسي .

- اللعب بالغامض وغير المحدد .
- تحرير الأطفال من العوامل والتوقعات التي تعمل على كف تفكيرهم .
- خلق الوعي بعدم اكتمال المعلومات التي تقدم .
- جعل التفكير الافتراقي شرعيا .
- استخدام الخيال للبحث عن حلول للمشكلات اليومية .
- تشجيع الافتراضات المتعددة .
- جعل الشيء يؤدي الى آخر .
- تشجيع تحويل المعلومات .

٢ ـ الربط بين المبادىء التي تبدو متباعدة

اذا تطلب الأمر ربط مبدأين أو أكثر غير مرتبطين ، فانه يحتمل أن تؤدي الوثبة العقلية التي ستحدث الى شيء أجمل . ومن التدريبات التي تعطي للأطفال « التركيب » و« تكوين قصة » ، حيث يعطى للطفل ثلاثة شخصيات أو حيوانات أو موضوعات ، ويطلب منه أن يكون قصة .

ومن الأساليب التي تستخدم لتشجيع الربط بين المبادىء غير المرتبطة والتي يمكن أن تطبق في كل مجال من المجالات تقريبا :

- البحث عن الحلول الأنيقة (الحلول البسيطة التي تأخذ في اعتبارها أكبر عدد من العوامل)
- استخدام المتشابهات للبحث عن الحلول .
- تجريب ومعالجة الموضوعات والأفكار .
- تشجيع الأطفال على استخدام المعرفة في مجال ما لحل مشكلات في مجال آخر .
- تطلب اعادة تنظيم المعلومات والموضوعات . . . الخ .

(٨٩) Ibid., p. 195.

ـ التأليف بين الموضوعات والأفكار غير المنظمة في تنظيمات ذات معنى .

٣ ـ انتاج المبادىء والربط بينها

يمكن زيادة ما نحصل عليه من لمحات مستقبلية بأن نجعل الأطفال ينتجون المبادىء التي سيقومون بالربط بينها في قصة أو دراما أو صورة أو أية وسيلة اتصال أو تعبير ابتكاري .

ومن الأنشطة التي تساعد على إنتاج المبادىء ثم الربط بينها :

ـ دراسة مشكلة أو معلومة أو موضوع من عدة نواح ثم الربط بين ما نصل اليه من أفكار .

ـ البحث عن كل الحقائق المرتبطة بشيء غامض ثم محاولة ايجاد حل له .

ـ عمل سلسلة من التنبؤات على أساس تراكم المعلومات .

ـ تعلم المهارات التي يتطلبها عمل معقد ثم الربط بينها للقيام بهذا العمل .

ـ إنتاج عدة متشابهات ثم الربط بين الأفكار التي نصل اليها من استخدام هذه التشابهات .

٤ ـ إنتاج الأفكار من خلال بناء معين

يمكن استخدام هذا الأسلوب لانتاج عدد لا نهائي من الأفكار في كل الأساليب السابقة . وعلى سبيل المثال يمكن استخدام هذا التكنيك في كتابة خماسية شعرية بأن نطلب من الفرد أن يتبع البناء الآتي :

السطر الأول : كلمة واحدة (العنوان) .

السطر الثاني : كلمتان يصفان العنوان .

السطر الثالث : ثلاث كلمات تصف الفعل المرتبط بالعنوان .

السطر الرابع : أربع كلمات تعبير عن شعور .

السطر الخامس : كلمة أخرى تعبر عن العنوان بحيث تصف جوهره .

٥ ـ خبرات التهيؤ

يمكن أن تكون خبرات التهيؤ مفيدة جدا في تحرير خيال الأطفال وربطهم باللانهاية . ويمكن أن تكون هذه الخبرة رحلة ميدانية أو تسجيل موسيقا أو سوسيودراما ، أو مقطوعة شعرية ، أو تعبير ابتكاري استجابة لمقطوعة شعرية ، أو أية خبرة تؤدي الى استثارة التفكير والشعور بشكل كبير .

وتساعد الأنشطة التالية على التهيؤ ، ويمكن تطبيقها في أية مادة دراسة أو منهج في أي مستوى من مستويات التعليم :

ـ اثارة التوقع .

ـ اثارة الاهتمام بمشكلة .

ـ استثارة حب الاستطلاع والرغبة في المعرفة .

ـ جعل هدف النشاط واضحا ذا دلالة .

ـ اعطاء أقل قدر من المؤشرات والاتجاهات .

٦ ـ تحديد الفجوات في المعرفة

لا يتفق الاتجاه اللانهائي مع الاكتمال . لكن الأطفال حينما يتعلمون القراءة، ويتقدمون في الدراسة ، يميلون الى أن يتقبلوا ما يقرأون على أنه مكتمل . ولكي يتغلب المعلمون على هذا الموقف ، ويساعدوا التلاميذ على أن يشعروا بالراحة مع اللانهائي يمكنهم أن يعرفوا التلاميذ عند مناقشة موضوع ما بأنه يبقى دائما عدد لا نهائي من الأسئلة المرتبطة بهذا الموضوع . ويستطيع المدرسون استخدام التمارين التي تنمي مهارات توجيه الأسئلة المرتبطة بالصور أو الموضوعات أو القصص أو لعب الأدوار أو غير ذلك . ويذكر لنا تورانس أن من أفضل القصص التي تخدم هذا الهدف قصة ولد صغير يريد أن يصادق أرنبا . ويتساءل هذا الولد في القصة عما تفعله الأرانب وكيف تعيش في الغابات ويقول تورانس إنه بمجرد أن يقرأ هذه القصة المثيرة للأطفال يصبح هو الأرنب الذي يتكلم من خلال دمية ، ويبدأ الأطفال في توجيه الأسئلة التي يريد الولد أن يعرفها ويريدون هم الاجابة عليها .

٧ ـ اللعب بالأشياء غير المحتملة

هذا نوع آخر من الخبرات التي تعطي الأطفال لمحات من اللانهائي . ويمكن أن يتخذ اللعب بالأشياء غير المحتملة عدة صور منها أن نوجه الى الأطفال السؤال : ماذا يمكن أن يحدث اذا . . . . . (ونضع حدثا أو شيئا غير محتمل الحدوث) وقد استخدم تورانس وميرز هذا الأسلوب في اختبارهما : هل تتخيل ؟ ومن أمثلة هذا الأسلوب :

ـ ماذا يمكن أن يحدث اذا أمطرت السماء دائما يوم السبت ؟

ـ ماذا يمكن أن يحدث اذا كان الغناء مخالفا للقانون ؟

ومن الأمثلة الأخرى أسلوب « افترض أن » الذي استخدمه تورانس في اختبارات تورانس للتفكير الابتكاري . ومثال ذلك :

ـ افترض أنك تستطيع أن تخلق نوع المناخ الذي تريده بأن ترقص بطريقة خاصة

ـ افترض أنك تقوم بزيارة قسم ما قبل التاريخ في المتحف ، ثم دبت الحياة في الحيوانات .

ويمكن استخدام هذه المواقف في تداعي الأفكار وفي التمثيل ، وبعد ذلك يصبح من السهل على الأطفال أن يؤلفوا قصصا شيقة وأغاني وأشعارا عن هذه المواقف الغير محتملة الحدوث .

الموهبة في البلاد العربية :ـ

لا يحتاج العالم العربي اليوم الى شيء أكثر من حاجته الى رعاية الموهبة وتنميتها وأرجو أن تلاحظ أني أقول « الموهبة » ولا أقول الموهوبين « فأنا مع الرأي القائل بأن لكل منا حظه من الموهبة ، ويحتاج الفرد الموهوب الى المناخ الذي تستثار فيه قدراته الكامنة ، والى الظروف البيئية التي تساعد على تنمية هذه القدرات ومن ثم يكون الهدف هو خلق مناخ تربوي وأساليب تعليم تتيح لكل فرد تنمية حظه من الموهبة .

ولاشك أن المجتمع العربي اهتم ببعض الموهوبين من أبنائه ، والا فقيم استمرار هذا المجتمع ؟ لكن السؤال هو : هل يعد هذا الاهتمام كافيا ؟ لنرجيء الاجابة على هذا السؤال ، ولنحاول الآن التعرف على طبيعة اهتمام المجتمع العربي بالموهوبين من أبنائه .

الاهتمام بالموهوبين في البلاد العربية :

كان كثير من الأفراد الموهوبين موضع الرعاية في البلاد العربية على مر العصور ، فقد كان حكام هذه البلاد يرعون الأدباء والشعراء والفنانين والعلماء والفلاسفة ، ويمنحون لهم التفرغ لأدابهم وفنونهم وعلومهم . ولعل من الحكام من أدرك أن الدولة لا تقوم الا على انجازات الموهوبين ، اذ نجد السلطان سليم الأول يجمع الموهوبين من الصناع المهرة وغيرهم من المنجزين من أبناء مصر ويرسلهم الى الأستانة . كما نجد محمد علي والي مصر يقلد الدولة العثمانية ، فيرسل الى الكتاتيب في أنحاء البلاد والي الأزهر الشريف ليجمع التلاميذ الموهوبين ، وكان يستند في الحكم على تفوقهم الى آراء مدرسيهم [٨٤] وقد أرسل محمد علي من هؤلاء التلاميذ البعثات الى البلاد الأوربية ليتلقوا العلم ويتخصصوا في مختلف المعارف والفنون ، وقد عادوا الى الوطن وأسهموا اسهاما كبيرا في نهضته .

وفي العصر الحديث نجد مظاهر عديدة لرعاية الموهوبين في البلاد العربية فمصر تقيم عيد العلم في كل عام حيث يقدم رئيس الدولة الجوائز لمن أنجزوا في مجالات الفن والأدب والعلم . وتمنح الدولة جوائز الدولة التقديرية والتشجيعية للعلماء الذين حققوا انجازات في هذه الميادين . وتقدم مؤسسة التقدم العلمي بالكويت جوائز لعلماء الكويت وعلماء العرب وفنانيهم وأدبائهم ، وكذلك تقدم المملكة العربية السعودية جوائز مماثلة . وما من شك في أن هذه المجهودات تستحق كل تقدير .

(٨٤) Ibid.

تنشئة الموهوبين ورعايتهم في البلاد العربية :

رعاية الموهوبين وهم في مرحلة التكوين والنمو ، لا تكاد تكون معروفة في العالم العربي الا في حالة بعض الأفراد الذين يسعدهم الحظ فتظهر موهبتهم في وقت مبكر وتسترعي انتباه بعض المسئولين . ولكن رعاية الموهوبين كفئة لم تلق الاهتمام في العالم العربي وباستثناء مدرسة المتفوقين في مصر ، فلا تكاد تعرف في العالم العربي برامج لرعاية الموهوبين ، أما نصيب الموهوبين من البحث العلمي فباستثناء دراسة محمد نسيم رأفت للطلاب المتفوقين (٨٦) ، وجهود بعض الباحثين (٨٧) ، فلا تكاد نجد اهتماما بدراسة الموهوبين . عمّ يكشف هذا القصور في رعاية الموهوبين في البلاد العربية ؟ هل يكشف عن عدم وعي بأهمية الموهبة لتنمية المجتمعات ؟ أم يكشف عن عدم اهتمام بتنمية المجتمعات العربية أصلا ؟ أم أن هذا القصور هو نتيجة لاحتجاج البعض بأنه مما يناقض الديمقراطية أن نهتم بفئة على حساب الفئات الأخرى ، ومن ثم فليس من العدل أن تخصص ميزانيات خاصة لتربية الموهوبين ورعايتهم ؟

لو كان هذا القصور في رعاية الموهبة هو نتيجة لعدم الوعي بأهميتها لتنمية المجتمع ، فما أشد الحاجة الى أن يقوم علماء التربية والاجتماع والنفس والاقتصاد وغيرهم من المهتمين بتوعية المسئولين بأهمية الموهبة للتنمية . ولو كان القصور في رعاية الموهبة يرجع الى عدم الاهتمام بتنمية المجتمعات أصلا ، فما أشد حاجتنا الى أن نوضح أن استمرار الحياة على الأرض ، واستمرار المجتمعات في البقاء هو رهن بالتنمية المستمرة وأن العقول التي تستطيع تحقيق التنمية هي العقول الموهوبة . أما العامل الثالث الذي يحتج به أحيانا لعدم الاهتمام بالموهبة فسنكتشف أنه سبب غير منطقي . اذ لو كانت رعاية الموهوب تعود بالخير عليه هو وحده ، لقلنا انه ليس من العدل أن تنفق عليه الأموال الطائلة وتقصر عليه الجهود الكبيرة . لكن العائد من تربية الموهوب ورعايته يفيد المجتمع بأكمله ويساعد على تحسين الوجود الانساني كله ، هذا فضلا عن أن تصوري للموهبة يقوم على التسليم بأن لدى كل منا نصيبه من الموهبة ، ومن ثم فان رعاية الموهوبين لن تقتصر على فئة دون فئة أو فرد دون آخر . اذ أن الموهبة التي ستسمح الظروف باكتشافها ستكون موضع الرعاية . وربما يتحقق في يوم ما الحلم بأن تعمل المجتمعات كلها على خلق الظروف التي تساعد على ابراز موهبة كل فرد من أفرادها .

قصور الموهبة والكشف عنها :

وربما كان القصور في رعاية الموهوبين يرجع الى صعوبة التعرف عليهم والكشف عنهم في سن مبكرة . ويرتبط هذا بافتقارنا الى فلسفة ترتبط بتصورنا للانسان ودراسته . فللانسان خصائص كالقدرات والاستعدادات وسمات الشخصية وغيرها ، يمكن الكشف عنها وتقديرها باستخدام أدوات علمية . ومن الواضح أننا في العالم العربي نفتقر الى الايمان بأهمية وجدوى أدوات تشخيص السلوك الانساني . فلست أعرف وزارة تربية واحدة في العالم العربي تجري على كل تلاميذها اختبار ذكاء في مرحلة ما من مراحل التعليم . ولا يخفى على التربويين العرب أن تشخيص قدرات التلاميذ وميولهم وسمات شخصياتهم وغير ذلك من الخصائص قد أصبح جزءا من العملية التربوية في كثير من البلاد وخاصة المتقدمة . ومن ثم فالحاجة شديدة الى أن يدرس المربون العرب دور التشخيص في العملية التربوية ، والفوائد التي تعود على تربية المواطنين من

(٨٦) رأفت ، محمد نسيم . رعاية الطلبة المتفوقين . في جامعة الدول العربية ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (ادارة التربية) . حلقة تربية الموهوبين والمتفوقين في البلاد العربية ، الكويت ١٧ - ٢٢ مارس ١٩٧٣ ، ص ٥٥ - ٦٩ .
(٨٦) رأفت ، محمد نسيم بحث الطلبة المتفوقين ، الجزء الأول . القاهرة : اللجنة الدائمة للبحوث بوزارة التربية والتعليم ، ١٩٦١ .
(٨٧) على سبيل المثال انظر
عبدالغفار ، عبدالسلام . التفوق العقلي والابتكار . القاهرة : دار النهضة العربية ، ١٩٧٧ .

استخدامه . وهذا يعني أن تتبنى الدول تطوير أدوات للتشخيص وتعميم استخدامها ووضع السياسات التي تضبط إجراءها . وتجب الاشارة هنا الى أن هناك جهودا لكثير من العلماء العرب الذين اهتموا بتطوير أدوات لقياس السلوك البشري . غير أن هذه الجهود الفردية غير كافية لأن كثيرا منها قام على ترجمة اختبارات أجنبية تقيس متغيرات على أساس تصورات قد لا توجد في مجتمعاتنا . كما أن الكثير من هذه الأدوات قد درس وجرب على عينات محددة لا تمثل كل قطاعات المجتمعات العربية التي يمكن أن تجرى عليها مستقبلا .

ولا يعتبر الباحثون الذين طوروا هذه الأدوات مسئولين عن هذا النوع الثاني من القصور . اذ أن المسئول عنه هو عدم توفير الاعتمادات المالية الكافية التي تمكن من العمل الجاد على تطوير أدوات تشخيص السلوك .

ولا يقتصر الأمر على الافتقار الى أدوات الكشف عن المواهب ، بل يرتبط به ، وربما يكون مسئولا عنه ، عدم وجود تصور صحيح لطبيعة الموهبة في بلادنا . ويتضح هذا من النظر الى الدراسات التي تناولت الموهبة اذ يكشف استعراض هذه الدراسات عن أنها في أغلبها قد اقتصرت على فئة واحدة من فئات الموهوبين هي فئة المتفوقين عقليا ، أو المتفوقين في التحصيل . لكن التفوق في التحصيل قد يفقد انتماءه الى التصور الحديث للموهبة ، اذا كان التحصيل المتوقع يعتمد على الحفظ ومعرفة المعلومات دون معالجتها ، واذا كانت أساليب التقويم تؤكد هذه المهارات . وبالتالي فان حظ الفئات الأخرى للموهبة من البحث ، كان قليلا أو معدوما . فالباحثون الذي اهتموا بدراسة الابتكار باعتباره أحد فئات الموهبة أو باعتباره ـ كما يرى البعض ـ أحد العوامل العامة في الموهبة ، يعدون على أصابع اليد الواحدة ، وحتى الآن لا يبدو أن هناك وعيا بأهمية الابتكار لمستقبل العالم العربي ، كذلك لم يهتم الباحثون بدراسة القيادة الابتكارية Creative Leadership التي نحن في أشد الحاجة اليها في مجتمعاتنا . وكلنا يعرف أن نوع القائد يعتبر من العوامل الحاسمة في عمل وانتاجية أية مؤسسة في مجتمعاتنا على وجه الخصوص .

الأرقام تتكلم :

على مستوى العالم العربي يوجد قدر من الوعي بأهمية الموهوبين فقد عقدت الجامعة العربية حلقتين لتربية الموهوبين والمعوقين في البلاد العربية ، عقدت أولاهما في القاهرة من ١٠ الى ١٥ مايو ١٩٦٩ ، وعقدت الثانية في الكويت من ١٧ الى ٢٢ مارس ١٩٧٣ ، ويلاحظ أن الموهوبين والمعوقين يوضعون في اطار واحد . وقد اشتمل تقرير الحلقة الثانية على متابعة توصيات الحلقة الأولى . وقد رد على الاستفتاء الذي أرسل لمتابعة هذه التوصيات تسع دول عربية هي : الأردن ، والكويت ، ومصر ، وسوريا ، والسعودية ، وقطر ، واليمن الديمقراطية الشعبية ، وليبيا ، والسودان . وتكشف هذه المتابعة عن أن نصيب المعوقين من الاهتمام كان أكبر . فعدد التوصيات التي خصصت للمجموعتين معا كان ٣٠ توصية ، وكان نصيب المعوقين فيها هو الأكبر ، وعدد التوصيات التي أفردت للمعوقين كان ٢٦ توصية ، أما عدد التوصيات التي خصصت للمتفوقين فقد كان ٧ توصيات [٨٨] .

ويلاحظ أنه من بين الدول التسع لم تقم سوى دولة واحدة بتنفيذ توصيات الحلقة الأولى الخاصة بالمتفوقين ، وهذه الدولة هي مصر ، وتجدر الاشارة هنا بأن كثيرا من التوصيات كان منفذا فعلا في جمهورية مصر العربية قبل انعقاد هذه الحلقة . والتوصيات التي نفذتها مصر هي :

١ ـ انشاء فصول أو مدارس ثانوية للمتفوقين .
٢ ـ ضرورة وضع مناهج اختيارية ذات مستوى رفيع .
٣ ـ عناية طرق تدريس المتفوقين بفردية كل تلميذ .
٤ ـ وضع شروط لاختيار التلميذ المتفوق حسب المستوى التحصيلي .
٥ ـ تجهيز فصول ومدارس المتفوقين بالأندية الصالحة والمعامل وغيرها .

---

(٨٨) جامعة الدول العربية . حلقة تربية الموهوبين والمعوقين في البلاد العربية ، الكويت ١٧ ـ ٢٢ مارس ، ١٩٧٣ ، ص ١٣٧ ـ ١٤١ .

٦ ـ ارتباط تعليم المتفوقين بالتطبيق العملي الى جانب الدراسة النظرية .

أما التوصية التي لم تنفذ في مصر أو في غيرها من البلاد فهي :

٧ ـ متابعة المتفوقين خلال دراستهم الجامعية وتوفير الرعاية الاجتماعية لهم .

من الواضح إذن أننا لا نستطيع أن نزعم أننا في البلاد العربية نهتم برعاية الموهبة رعاية تربوية منظمة تقوم على الكشف عن الموهوبين في وقت مبكر من حياتهم ثم رعاية مواهبهم وتنميتها حتى تحقق ذاتها وتعود بالخير على الموهوب وعلى المجتمع ، فما هو السبب ؟

رعاية الموهبة والتفكير المستقبلي :

للاجابة على هذا السؤال . أقدم فرضا لا أزعم أني متأكد من صحته ، وإنما هو احتمال على أية حال . فأنا أعتقد أن عدم اهتمامنا بالموهبة هو نتيجة عدم اهتمامنا بالتفكير المستقبلي . ويسجل الأنثروبولوجي ادوارد هول [٨٩] انطباعه بأن العرب لا يحبذون التفكير في المستقبل فيروي قصة أمريكي متخصص في الشئون الزراعية ذهب الى القاهرة ليعلم الفلاحين المصريين أساليب الزراعة الحديثة . وفي احدى جولاته طلب من مترجمه أن يسأل الفلاح الذي كان يزوره عن المحصول الذي يتوقع أن يجنيه من حقله هذا العام فاهتاج الفلاح واستشاط غضبا ، وحاول المترجم أن يلطف الموقف ، فقال للزائر الأمريكي أن الفلاح يقول بأنه لا يعرف . ولقد أحس الزائر الأمريكي من خلال استجابة الفلاح المصري بأنه قد حدث خطأ ما ، ولكنه لم يعرف طبيعة هذا الخطأ . . لكنه عرف فيما بعد بأن العرب يعتبرون أن كل من يحاول النظر في المستقبل مجنون الى حد ما . وحين سأل الأمريكي الفلاح المصري عن محصوله المستقبل غضب لأنه اعتقد أن الأمريكي يعتبره مجنونا . فالعرب يعتقدون أن الله وحده هو الذي يعرف المستقبل ، وأنه ليس من المقبول حتى مجرد التفكير في المستقبل ، ويحلل فؤاد زكريا [٩٠] هذه الظاهرة في مقالة « العقل العربي والتوجه المستقبلي » ويوضح العوامل الكامنة وراء الاتجاه الذي يقول بأن المستقبل ليس نتيجة منطقية للحاضر ، وليس تطورا طبيعيا له . ويعطي أمثلة عن غياب النظرة المستقبلية عند الأفراد أو الحكومات على حد سواء ، ويرد هذه الظاهرة الى عدد من الاتجاهات الدينية . والأسباب الحضارية والاجتماعية والسياسية .

واذا كانت هناك أسباب تكف تفكيرنا في المستقبل ، واذا كانت هناك عوامل تجعل تصورنا للمستقبل متشائما وقاتما ، فكيف نفكر في الاهتمام بالموهوبين صناع المستقبل .

خلاصة :

اهتمت هذه الدراسة بتوضيح العلاقة بين الموهبة والتفكير المستقبلي ومن النتائج التي يمكن أن تنتهي اليها :

١ ـ أن العالم يتغير بمعدل هائل .

٢ ـ أن استمرار بقاء النوع الانساني وقف على التفكير في هذا التغير وفي توقعه والتنبؤ به ومحاولة التحكم فيه لصالح الحياة والانسان أي في تبني الاتجاه المستقبلي .

٣ ـ أن التفكير المستقبلي يحتاج الى عقل من نوع خاص هو العقل الموهوب .

٤ ـ أننا في العالم العربي لا نهتم اهتماما منهجيا بالكشف عن الموهبة في مراحل العمر المبكرة ، كما لا توجد لدينا فلسفة أو تصورات دقيقة عن الموهبة ، ومن ثم نفتقر الى البرامج التربوية التي ترعى الموهبة وتربي العقل على الابتكار .

٥ ـ أنه يوجد لدينا عوامل تعطل النظر المستقبلية للحياة والانسان .

٦ ـ أن بقاءنا كأمة ، وتقدمنا ، رهن بتدعيم الموهبة والابتكار والتفكير المستقبلي .

---

(٨٩) Hall, E.T. **The silent language**. Garden city, N.Y. : Anchor Books, Doubleday, 1959.

(٩٠) زكريا ، فؤاد . العقل العربي والتوجه المستقبلي . بحث قرىء في ندوة الابداع الفكري الثاني في العالم العربي التي عقدت في الكويت من ٨ الى ١٢ مارس ١٩٨١ .

صدر حديثاً

المعنى والنظام في المجتمع المغربي

عادل مصطفى
معهد البحوث والدراسات الأفريقية ـ جامعة القاهرة

تميل كثير من الدراسات الانثروبولوجية الأمريكية الى الاهتمام بعرض أكبر قدر من البيانات والمعلومات الوصفية عن ثقافات المجتمعات المحلية التي تعالجها ، بل ان بعض ماينشر منها يعتبر البيانات والمعلومات الوصفية هدفا في ذاتها . ومثل تلك الدراسات تعتبر دراسات اثنوجرافية أكثر من كونها دراسات أنثروبولوجية ، تستخدم المعلومات المتراكمة أساسا كوسيلة للتحليل والتفسير .

والكتاب الذي نحن بصدد عرضه « المعنى والنظام في المجتمع المغربي » هو واحد من تلك الكتب الامريكية التي تجمع كما هائلا من المعلومات الاثنوجرافية حول ثقافة احدى المناطق بالمملكة المغربية . لكنه في الحقيقة وفي اكثر من موضع منه حاول أن يرقى من مجرد الوصف للوقائع المشاهدة الى مستوى من التجريد الذي يسمح بالتحليل العميق . ونرى أن ذلك التحليل قد قام على رموز ثقافية تعتمد في أغلبها على التاريخ من جهة وعلى المفهومات السيكولوجية ، كمفهوم محتوى الذات وعوامل النزوع والامكانات الوراثية على سبيل المثال ، من الجهة الأخرى . وهذا هو شأن الدراسات الأنثروبولوجية التي تتخذ من الثقافة موضوعا لاهتماماتها ، عكس الحال بالنسبة للدراسات الأنثروبولوجية الاجتماعية التي تهتم بالمجتمع ـ العلاقات الاجتماعية فيه والنظم والأنساق المتفاعلة فيما بينها والتي تكون بناءه الاجتماعي ـ والتي تحاول تفسير كل تلك الوحدات على المستوى الاجتماعي البحت .

ويضم الكتاب عددا من المقالات المنفصلة التي لايربط بينها رابط سوى اتخاذها مجتمع اقليم ومدينة « صفرو » ـ في احدى المناطق الشمالية الوسطى من

* Geertz, C.& Geertz, H. & Rosen, L., Meaning and Order in Moroccan Society, Cambridge U.p., U.S.A., 1979.

المملكة المغربية - ميدان بحث ومجال دراسة ، وسوى أنها حاولت جميعا - رغم انفصالها - أن تعطي صورة للحياة الاجتماعية في ذلك المجتمع ، من خلال التعبيرات الثقافية التي يتضمنها سلوك الناس - في شكل رموز ثقافية أو انساق للمعنى تعمل على حفظ وبقاء ، النظام ، القائمة عليه حياة ذلك المجتمع - ولكن من زوايا ومداخل مختلفة .

●●●

وقبل أن نعرض للمقالات التي يحتوي عليها الكتاب ، نود أن نشير الى الظروف التي أدت الى اخراجها الى حيز النشر بهذا الشكل .

فقد بدأ الاهتمام بدراسة المنطقة (اقليم ومدينة صفرو) في عام ١٩٦٥ ، حين أوفدت جامعة شيكاغو عددا من علمائها وباحثيها للاقامة فيها دوريا بغرض دراسة الأحوال المعيشية لسكانها . وقد استمر ايفاد المبعوثين الى المنطقة حتى عام ١٩٧١ ، فقضي كل واحد منهم فيها فترة زمنية معينة من السنوات الست التي حددتها الجامعة . ولم يصادف أن اجتمع الباحثون معا - ولو لمرة واحدة - ككل في الميدان ، كما لم تكن أمامهم ، خطة محددة أو مشتركة ، للعمل الميداني كفريق بحث ، ولكن تركت الفرصة أمامهم ليدرس كل منهم ثقافة المجتمع من وجهة نظر معينة ، تتناسب وتخصصه وخبراته . ولذلك فان التقارير التي جمعت في النهاية - والتي تعد موضوعات الكتاب الذي بين أيدينا جزءا منها - كانت تمثل صورة عامة عن تلك المنطقة من زوايا ومداخل متباينة . فمثلا قدم « توماس دينشار » تقريرا عن ثقافة المراهقين والشبان وعن النسق الدراسي ، واهتم « كليفورد جيرتز » بدراسة الدين والسوق والعلاقات المتبادلة بين الانسان والبيئة (الايكولوجيا) وقامت « هيلدرد جيرتز » بدراسة نسق القرابة والأسرة ودور المرأة في المجتمع الى جانب اهتمامها أيضا بدراسة الشعر الشفاهي ، وامتد اهتمام بعض الباحثين الى دراسة بعض القرى المنتشرة في الاقليم ، فقدم « لورانس روزين » تقريرا - الى جانب تقريره عن البناء الاجتماعي الحضري وعن القانون - عن تنظيم احدى قرى البربر المنتشرة هناك ، كذلك اهتم « بول رابينو » بدراسة الحياة الدينية والسياسية والاقتصادية لاحدى قرى الاقليم ، والى جانب كل ذلك قدم « بول هيمان » - وهو مصور محترف اكثر منه انثروبولوجيا - تقريرا مصورا يحتوي على مجموعة ضخمة من الصور الفوتوغرافية عن مجتمع صفرو .

وقد اتفق أخيرا ثلاثة من الباحثين المذكورين - ربما لأغراض التدريس - وكذلك المصور المحترف ، على نشر تقاريرهم في شكل كتاب ، هو الكتاب الذي بين أيدينا ، وذلك على الرغم من أنهم - على حد قولهم - لم يكونوا يوما يعتزمون ذلك . ووضعوا مقدمة له تعرض لما يحويه الكتاب ، لكنها لم تستطع أن تربط بين المقالات الثلاثة في كل واحد ، كما اعترفوا هم بذلك أيضا فضلا عن أن الكتاب - كما هو معتاد في الكتب المماثلة في الأغلب - لم ينته بخاتمة تؤكد وحدة أجزائه ، الى جانب ما يمكن أن تضيفه من قيمة علمية .

(١)

ومهما يكن من شيء ، فان المقال الأول « الشخصية الاجتماعية المميزة ونقاط الارتباط - مدخل الى التنظيم الاجتماعي » والذي كتبه « لورانس روزين » ، أستاذ الأنثروبولوجيا بجامعة برنستون ، يهتم بالأسس الايكولوجية والاجتماعية للمجتمع المحلي الحضري (مدينة صفرو) ، والريفي (اقليم صفرو) معا . ومن خلال تلك الأسس يستعرض الباحث الأنساق الادارية

والقانونية والسياسية ، باعتبارها فئة تنظيمية تؤدي وظائفها المختلفة في محيط الموضع الجغرافي للمجتمع . ويتساءل الباحث عن العوامل التي تؤدي الى ترابط الناس في اقليم ومدينة صفرو ، ويجيب على تساؤله من خلال تقديمه الصور الثقافية الجمعية التي يصنفها في فئتين رئيسيتين ، تضم الأولى بعض المفهومات الثقافية كالأصل والموطن الاقليمي والقرابة ، وهي العوامل التي تسهم في تحديد ورسم سمات الشخصية الاجتماعية المميزة ، وتضم الفئة الثانية بعض المفهومات الثقافية الأخرى كقوى الالزام (أو القهر أو القسر)والالتزام (أو الطاعة أو الخضوع) وعوامل الميل (أو النزوع) الى جانب علاقات التفاوض ، باعتبارها جميعا قوى أو عوامل أو امكانات متأصلة في الأفراد ، وتتحدد عن طريقها ـ ومن خلال أدائها لوظائفها المختلفة ـ العلاقات المتبادلة بين الأفراد ، فتتشعب وتتسع من ناحية ، أو تضيق وتنكمش من الناحية الأخرى .

ولم يكتف الباحث هنا بحصر وعرض الأطر التنظيمية ومفهوماتها الثقافية المحددة ، وانما اهتم بالتأكيد على العمليات الثقافية التي ينظم من خلالها أعضاء المجتمع أساليبهم الاجتماعية ليتمكنوا من نسج شبكات من العلاقات الاجتماعية المجمعة ، فعرض من خلال أسلوب « دراسة الحالة » لشبكة العلاقات الشخصية التي تنسجها أحد أفراد المجتمع حوله داخل منطقة البحث ، وامتدادها في مناطق أخرى .

وحين تناول الباحث مفهوم « الايكولوجيا » والبناء الاجتماعي ، لم يكتف بالوصف التقليدي [1] للظروف والعوامل البيئية والجغرافية في المنطقة ، وانما امتد اهتمامه ـ وهو هنا يؤكد المفهوم العلمي للايكولوجيا ـ الى دراسة العلاقات المتبادلة (أو التفاعل) بين الانسان والبيئة « فلا البيئة وحدها ، ولا الأساليب الثقافية بمفردها ، يمكن أن تفهم الواحدة منها بعيدا عن الأخرى ، كما أن كلا منها بمفردها لاتستطيع أن تعطي صورة صحيحة للشخصية المميزة للمنطقة ولسكانها في علاقاتها المتبادلة » ، ولذلك فهو حين عرض للنطاقات الجغرافية الثلاثة [2] التي تميز المنطقة ، ومن خلال عرضه لسماتها المناخية شديدة التمايز [3] حاول الباحث أن يربط كل تلك العوامل البيئية والطبيعية بالانشطة الاقتصادية المعيشية لسكان المنطقة المتغايرين حجما وكثافة وعرقا [4] وبأنماطهم السلوكية المتباينة ، وعناصر حياتهم الثقافية المختلفة ، بحيث قدم صورة رائعة لنوع المواءمة الحادث بين الانسان والبيئة ، والذي يضمن للمجتمع بقاءه واستمراره .

---

(١) المتأثر بالجغرافيين ، والذي لا يهتم بإبراز الدلالة الاجتماعية أو الثقافية لكل تلك العوامل والظروف .

(٢) الأول هو السهول الممتدة من قرب ساحل المحيط الأطلنطي الى حافة جبال أطلس الوسط حيث توجد مزارع الحبوب الكثيفة ، والثاني هو جبال أطلس ذاتها والتي تقل فيها الزراعة بشكل ملحوظ ، رغم وجود بعض الحدائق الكبيرة ، وتكثر فيها مراعي الأغنام والماعز ، أما النطاق الثالث فهو نطاق السفوح (أو الدير) الذي يتوسط النطاقين السابقين ، ويتميز بوفرة ينابيع المياه اللازمة للري وللمساكن معا ، وفيه تقع الواحة التي تضم مدينة صفرو .

(٣) تتفاوت نسبة الأمطار ودرجات الحرارة والضغط في المنطقة تفاوتا حادا خلال السنة الواحدة ومن سنة الى أخرى ليس فقط بين النطاقات الثلاثة ، وانما أيضا في النطاق الواحد من تلك النطاقات .

(٤) طبقا للتمايز العرقي بين أهل صفرو ينقسم السكان هنا الى مجموعتين هما العرب والبربر ، ولكل مجموعة منهما سماتها الثقافية والاجتماعية المميزة . وقد سبق ان عرضنا تفصيليا لهذا الموضوع في منطقة المغرب العربي والصحراء الكبرى . انظر : عادل على مصطفى : التحضر في موريتانيا ، دراسة في الانثروبولوجيا الحضرية لمدينة نواكشوط (رسالة دكتوراه غير منشورة) ، مكتبة كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية ، ١٩٨٠ .

وبنظرة مقارنة بين مجتمعين متقابلين ، المجتمع الريفي (الاقليم) والمجتمع الحضري (المدينة) عرض الباحث للتنظيمات المختلفة التي تؤلف البناء الاجتماعي من منظور سياسي بحت ، فقدم عرضا مستفيضا لنظام الحكم الرسمي وغير الرسمي ، ولطرق التقاضي المنظمة والتصالح الودي ، وللقانون والعرف ، وباختصار لكل مايؤدي الى حفظ النظام الداخلي ، أو ما من شأنه أن يمنع الصراع العنيف المدمر بين الأفراد .

ويخلص الباحث من كل ذلك الى أن الفرد في « صفرو » يكتسب سمات شخصية المميزة من خلال عوامل الأصل والموطن الاقليمي والقرابة ، وكلها عوامل متداخلة يصعب تمييزها بدقة ، وان كان في مصطلحات السكان المحلية ما يشير الى امكان تمييز الواحد منها عن الآخر ، كأن يشار الى أحدهم مثلا باسم المنطقة التي وفد منها - أو بمعنى أدق التي ولد فيها - أو باسم القبيلة التي ينتمي اليها ، أو العائلة التي انحدر منها . . . ويرى الباحث أن تلك العوامل تكسب الشخص السمات المميزة حتى بعد أن يهاجر من موطنه الأصلي أو ينفصل عن جماعته القرابية أو القبلية ، ويظل يحمل تلك السمات الى أن تذوب شيئا فشيئا في مجتمع المدينة الذي يتسم هو ذاته بسمات أخرى حضرية تطغى على الأصل والموطن الاقليمي والانتماء القرابي . وهنا يخرج الباحث بنتيجة مؤداها ان تداخل تلك العوامل معا (وان كان كل منها على حدة يؤدي الى التمايز الشخصي) يلعب دورا هاما في الحد من التوكيد على التمايزات بين الأفراد ، فضلا عما للمفهومات الثقافية المختلفة والدين والبناء الاجتماعي الكلي من تأثير على محو - أو على الأقل التقليل من - تلك التمايزات .

(٢)

أما المقال الثاني المعنون « السوق - اقتصاد البازار في صفرو » ، فقد كتبه « كليفورد جيرتز » ، أستاذ العلوم الاجتماعية بمعهد الدراسات العالية ببرنستون .

وتنصب الدراسة هنا على السوق من ثلاث زوايا مختلفة :

فمن ناحية ، باعتباره مكانا فيزيقيا تتم فيه عمليات البيع والشراء ، كما تتم فيه بعض عمليات التبادل أو المبادلة المعروفة « بالمقايضة » . وهو كمكان تفد اليه أعداد غفيرة من التجار والمشترين وكذا الحرفيين ، من أهل صفرو والمناطق المحيطة بها لممارسة العمليات التجارية المختلفة . وينقسم السوق في صفرو - وهي سمة مشتركة بين جل إن لم يكن كل المناطق في المملكة المغربية - الى ثلاثة قطاعات رئيسية ، أولها : المراكز التجارية الدائمة في المدينة القديمة(*) وخارجها بما تضمه من حوانيت تعرض سلعا وبضائع متنوعة ، وثانيها : هو السوق الدوري الذي يعقد أيام الخميس من كل أسبوع ، وتعرف أقسامه المختلفة بما يعرض فيها من سلع وما يقدم فيها من خدمات حرفية مختلفة ، وأخيرا : منطقة الاعمال التي تقع في محيط المدينة الحديثة ، وتكتسب الطابع الغربي ، وهي تضم بعض المحال التجارية والورش والمصانع الصغيرة التي تعرض أو تنتج سلعا مختلفة كالادوات الكهربية وقطع غيار

(*) تنقسم كل مدن المملكة المغربية عموما الى قسمين : احدهما يطلق عليه « المدينة القديمة » وهي المدينة الوطنية التي انشأها ويسكن فيها اهل القرب الوطنيون من العرب والبربر ، وتتميز مبانيها القديمة المتلاصقة وشوارعها الضيقة الملتوية وتفصل بين الأحياء فيها اسوار عالية ذات ابواب ضخمة . ولعل من اهم ما يميز تلك الأحياء هو وجود « الحمام العام » . والقسم الثاني هو ما يطلق عليه « المدينة الحديثة » وهي التي انشأها الفرنسيون ويسكنها الأجانب وبعض الموسرين من المغاربة ، وتتاثر بالطابع الأوروبي عموما .

السيارات والاثاثات الحديثة . . . فضلا عما تضمه من هيئات الخدمات كمكتب البريد والصرف . . .

وتهتم الدراسة من الناحية الثانية برسم صورة ثقافية للسوق تبرزه متمايزا عن بقية الاسواق الشرقية الاخرى (البازار) التي تنتشر في شمال افريقيا وفي الشرق الاوسط عموما . فهو يعتبر معرضا لفن الزخرفة والنقش العربي « الارابيسك » وربما لا يدانيه في هذا المجال سوى القليل جدا من أسواق شمال افريقيا وعلى الاخص في مصر حيث توجد على سبيل المثال منطقة خان الخليلي ، والمتخصصة في تجارة العاديات . كذلك يتميز السوق في صفرو عن بقية أسواق الشرق باعتباره ليس نسقا ثقافيا في ذاته بقدر ما هو جزء من نظام ثقافي اكبر ، أو باعتباره جزءا متكاملا ومتلاحما ومتفاعلا مع بعض النظم الفرعية من نظام اكبر هو « الاسلام » . وأخيرا . وربما تكون هذه هي السمة المميزة والاكثر وضوحا لسوق صفرو وأسواق المملكة ككل على الاقل حتى الآن . هو سيطرة المجتمع المحلي اليهودي على السوق وتأثيره القوى على وظيفته وعلى التجارة وتطورها فيه .

ومن الناحية الثالثة ، تهتم الدراسة بالسوق كمجال أو كوسط اجتماعي تلتقي فيه جماعات وفئات (أو أفراد) متغايرة ، يصنفها الباحث في مجموعتين رئيسيتين ، الاولى وتضم اليهود وأهل صفرو « الاصليين » ، وهم قلب السوق ومحور النشاط فيه ، اذ هم المسيطرون على كل أنواع الانشطة فيه (تجارة . حرف . سمسرة . مزايدات . سلفيات والثانية وتضم رجال القبائل من العرب والبربر وهم يمثلون . باعتبارهم أفرادا وليسوا جماعة أو فئة أو طبقة . حشدا ثانويا أو هامشيا ، بالنسبة لغيرهم من أفراد المجموعة الاولى .

ولا يكتفي الباحث بسرد صور السوق الفيزيقية والثقافية والاجتماعية سالفة الذكر ، وما قدمه من بيانات احصائية . وملاحق . مختلفة عنها ، ولكنه يحاول أن يربط السوق كنظام اقتصادي بنظام آخر ، ربما يبدو أنه على طرف نقيض من ذلك النظام الاقتصادي ، وهو النظام الديني ، وعلى الاخص « الاسلام » . . . ثم « اليهودية » ، وما يرتبط بهما من نظم فرعية أخرى . الا أنه حين تحدث عن المجتمع المحلي اليهودي ، لم يتحدث عنه باعتباره نظاما دينيا ، وانما باعتباره « جماعة عرقية » [٦] لها دورها المؤثر والفعال في السوق وفي عديد من جوانب النشاط التجاري في صفرو على وجه العموم .

ومن النظم التي قدمها الباحث باعتبارها نظما فرعية تندرج تحت الاسلام ، كنظام ديني اكبر ، فضلا عن تأثيره في سلوكيات الممارسين [٧] . ولها دورها الاساسي في مكونات النظام الاقتصادي . نظام (الحبوس) أو الوقف ، ونظام الزاوية (أو الاخوان أو الطريقة الصوفية) . فمن ناحية يرى الباحث أن النظام الاول (الحبوس) له تأثير على الملكية أو بمعنى أصح على حق الانتفاع والايجارات ، وكذا على المزايدات التي تتم على أملاك الحبس . ومن الناحية الاخرى ، فان نظام الزاوية يؤثر على نظام تقسيم العمل ، وعلى الاخص على الجانب الحرفي منه ، وعلى ترتيب الحرف على سلم

(٦) الجماعة العرقية هي جمع من الناس ، ينتمون الى جماعة اكبر او الى شعب اكبر ، ويشتركون في انماط سلوكية حضارية متميزة عن تلك التي يشاركهم فيها غيرهم من اعضاء الجماعات الأخرى ، وتقوم بينهم وبين هؤلاء الغير علاقات من نوع معين في اطار نسق اجتماعي عام يضمهم جميعا .

(٧) يرى الباحث ان بعض الصور الثقافية المؤثرة الى حد كبير في نظام السوق وفي العمليات التجارية عموما مأخوذة من الاسلام اصلا او على الاقل متأثرة به . ومن هذه الصور : الصدق ، والثقة ، والامانة ، والقدرية او الاتكالية .

متدرج [٨] الى جانب ما يستتبع ذلك النظام من عمليات تكافلية ـ في المجال الحرفي أيضا ـ تقوم بين جماعات المساعدة المتبادلة التي يطلق عليها (الحنطة) .

واذا كان الباحث قد استطاع ان يحلل بعض النظم الاسلامية الفرعية ويربطها بالنظام الاقتصادي ، ويوضح تأثيرها على السوق ، فانه بنفس المقدرة استطاع ان يقف على دور المجتمع المحلي اليهودي في التأثير الموجه والمطور لنظام السوق والتجارة عموما في المنطقة .

ومن خلال عرض تاريخي بارع ، قدم الباحث صورا لبعض النظم الرئيسية التي كانت تنظم التجارة بوجه عام في مجتمع صفرو مثل نظام « الفندق او النزل » الذي كان يعتبر مركزا تجاريا هاما في طريق القوافل يؤمه كثير من المشاركين في النشاط التجاري ، ونظام « القروض أو السلفيات التي كانت تعطى للتجار من قبل الممولين ـ وأغلبهم من اليهود ـ لتعود اليهم مع نسبة ربح متفق عليها سلفا في حالة نجاح التجارة أو ليتحملوا وحدهم (أي الممولون) الخسائر في حالة فشل العمليات التجارية التي تمت عن طريق التجار الذين كانوا يتمتعون بكامل الحرية في توظيف تلك القروض سواء كانت من النقود أو السلع ، وأخيرا نظام « الزطاطا » الذي يعني اقتصاديا « رسوم العبور » وكانت القوافل التجارية تدفعها لرؤساء القبائل او لحكام المناطق حين تعبر أقاليمهم نظير المرور والحماية والضيافة معا .

وعلى الرغم من ان تلك النظم قد اختفت تماما الآن في مجتمع صفرو ، فان الباحث استطاع ان يكشف عن استمرارية وظائفها ـ بعد ان تطورت بما يتلاءم وتطور المجتمع ـ فهي ما زالت تؤثر في نشاط السوق والتجارة ، فمثلا تحولت الفندقة إلى بيوت تجارية ثابتة تضم مئات المحال والورش في السوق الدائم ، وتحول نظام القروض الى عمليات واجراءات مالية اكثر تنظيما ـ كنظام الشركات ـ يتقاسم فيها الممول والتاجر الربح والخسارة معا . .

●●●

بعد . . فانه من الجدير بالذكر هنا هو أنه على الرغم من أن مدخل الباحث هو المدخل الاقتصادي ، فان التركيب البنائي للظواهر الثقافية ، أملى عليه ضرورة التعامل مع ظواهر أخرى غير اقتصادية ، فضلا عن أنه مكنه من أن يعطي صورة شاملة ومتكاملة عن المجتمع ، من خلال الدراسة الاقتصادية .

(٣)

والموضوع الثالث الذي يحتوي عليه الكتاب ، والذي يشير مؤلفوه اليه ـ في اصرار ـ باعتباره « مقالا » ، فهو مجموعة ضخمة من الصور الفوتغرافية التي التقطها « بول هيمان » عن « أهل صفرو والطلس الوسط » . وبول هيمان ليس واحدا من العاملين في الحقل السوسيولوجي أو الميدان الانثروبولوجي ، وانما هو ـ على نحو ما سبق أن أشرنا ـ مصور محترف ، رافق مؤلفي الكتاب في ميدان البحث لمدة أربعة أشهر خلال عام ١٩٦٩ ، وانكب على التقاط الصور بنفسه وبدون توجيه من أحد . وبحساسيته الفنية استطاع أن يقدم مجموعة مكونة من أربع وستين صورة تعتبر ـ على حد

(٨) تبدأ من الحائكين وبائعي الملابس وتجار الحرير والصوف (باعتبارها حرفا او مهنة عليا وتقليدية) وتنتهي ببائعي الفاكهة والخضر والباعة الجائلين عموما ، فضلا عن الحدادين (باعتبارها مهنا او حرفا دونية او مهينة) .

● يعني اللفظ حرفيا عند البربر : قطعة صغيرة من الثياب .

قول المؤلفين ـ مجالا مرئيا للحياة في صفرو دون حاجة الى تعليق مكتوب [٩] .

والواقع أن الغرض من الصور والرسوم والأشكال التي « يزين » بها الباحثون عادة مقالاتهم ، هو في المحل الأول محاولة لتوضيح شيء ما ، أو لتقديم دليل أو برهان على شيء ما فهي وسيلة إيضاح أو تدعيم لحقيقة قائمة أو لموقف معين . لكن المؤلفين هنا يقولون إن مجموعة هيمان المصورة « تريد أن تقول شيئا . . . أنها رؤية . . . ورمز . . . وتأويل . . . لصفرو ولحياة الناس فيها » . فهل هي بالفعل كذلك ؟

ان الصورة ـ وبخاصة الثابتة ـ لم تستطع حتى الآن ـ وبمفردها ـ أن تقول شيئا ، وان هي استطاعت ، فان ذلك لا يتعدى مجال العناصر المادية من ثقافة شعب ما أو مجتمع ما . فمثلا الصور التي بين أيدينا تقدم لنا شكل الملابس والمساكن وأدوات الحصل ونوعه ، والمساكن ممارسة بعض أوجه النشاط في المجتمع ، كالمدرسة والسوق والمرعى والمسجد . كما أنها توضح بعض السمات والملامح الفيزيقية الظاهرية لأهل صفرو ، لكنها لم تقل شيئا عن العلاقات المتبادلة بين الناس في كل تلك المجالات ، ولم تقدم لنا شيئا هاما عن النظم والانساق الاجتماعية التي يتألف منها بناء ذلك المجتمع . انها تبرز فقط « المظاهر الثقافية الخارجية » . أما ما وراء تلك المظاهر ، فما زالت عدسات المصور قاصرة عن ادراكه أو الوصول اليه لاستخلاصه وتوضيحه . ان السلوك البشري ، والثقافة الانسانية يمدانا بفئتين من المعلومات والحقائق ، احداهما معلومات وحقائق ذات دلالة مادية بحته ، وهذه يمكن التعبير عنها بالصورة أصدق تعبير ، بل ان الكلمة المكتوبة قد تقف أحيانا عاجزة عن الوصف الدقيق لها . لكن هل عناصر الثقافة المادية تعني في ذاتها ـ أو بمفردها ـ شيئا ، وبدون أن ترتبط بعناصرها الأخرى اللامادية؟ وثانيتهما هي معلومات وحقائق ذات دلالة كيفية أو نوعية أو لا مادية ، وأمامها تقف الصورة ـ حتى الآن ـ عاجزة عن التعبير عنها أو وصفها . ان مثل تلك الحقائق والمعلومات تحتاج الى باحث ماهر ، يلتقط صورا لها « بحواسه المدربة جميعا » ، والتي تعتبر حتى الآن الوسيلة الفعالة في البحوث الأنثروبولوجية ، ان أحكم استخدامها .

واذا كانت الصورة لا تستطيع أن تعبر الا عن الحقائق المادية الملموسة ، فانها من ناحية أخرى بعيدة عن أن تكون أداة تحليل وتفسير [١٠] فالاهتمام بتفسير سلوك الناس ، ومقارنته بما يقابله في نفس المنطقة أو بمثله في مناطق أخرى ، أو في ضوء المواقف الاجتماعية المختلفة ، يتطلب نوعا من الدراسة المركزة المتأنية ـ عبر فترة طويلة نسبيا ـ والقائمة على ما اصطلح على تسميته بالطريقة الأنثروبولوجية التي تتيح جمع البيانات والمعلومات ، عن طريق المقابلات الحرة أو المفتوحة والتي ترتبط ارتباطا شديدا بالملاحظة بالمشاركة ، كما تستخدم كل الوسائل والأساليب المتاحة ، ومن بينها الصور وأيضا البيانات الاحصائية . وتعتبر وسيلة جمع البيانات والمعلومات عن الحقائق والمواقف الاجتماعية المختلفة هي خطوة أولى (فقط) تأتي بعدها خطوات أخرى ، لترتقي بالمعلومات الوصفية الى مستوى أعلى من التجريد ، أي بتحويل تلك المعلومات الى رموز ذات دلالات ومعان ، تتيح الفرصة للتحليل الدقيق

(٩) كاجراء تنظيمي يحظر بالنشر وضع مؤلفو الكتاب في نهاية المجموعة المصورة قائمة قصيرة تصف كل صورة على حدة .

(١٠) بالمقابلة تلك التي تستخدم في الاختبارات الاسقاطية .

والتفسير الصحيح ، وهو ما لم تستطع مجموعة هيمان أو غيرها من الصور أن تقترب منه

وهكذا يتضح أن صور هيمان « العشوائية » لم تكن رؤية ورمزا وتأويلا لصفرو وحياة أهلها كما يقول عنها مؤلفو الكتاب ، ولكنها كان من الممكن أن تقول شيئا لو أنها كانت موزعة على المقالات التي يحتوي عليها الكتاب ، ولاستطاعت أن تسهم بطريقة فعالة « كوسيلة » للتوضيح والتوكيد لبعض ما جاء في تلك المقالات من حقائق ومعلومات وبيانات .

(٤)

أما المقال الأخير « معاني الروابط العائلية » الذي كتبته « هيلدرد جيرتز » رئيسة قسم الأنثروبولوجيا بجامعة برنستون ، فيدور حول الحياة العائلية المغربية ، وما يحكمها من قواعد ومعايير ثقافية تنظم أنماط السلوك والتصرفات داخلها ، وتحدد شكلها الخارجي ، وذلك عن طريق تحليل شبكات العلاقات الشخصية القائمة بين أعضاء احدى العائلات المغربية كبيرة الحجم ذات الأصل العربي الممتد والتي تتمتع ـ كوحدة كلية ـ بثراء واسع وملحوظ في منطقة صفرو . وقد قدمت الباحثة ـ من خلال تلك العائلة ، والوحدات الأصغر (الأسر) التي تتكون منها ، والتي تتمركز في أحد أحياء المدينة في بيوت متلاصقة ، وان كان لها امتدادها في كل المملكة المغربية ، وأيضا في خارجها [١١] ـ صورة حية للتفاعل العائلي اليومي في صفرو (كالعلاقات التي تجمع بين النساء في العائلة ، وعلاقات تجنب الذكور داخل السكن للاناث اللاتي يحتجبن دائما من الأغراب ، وعالم الأطفال المرتبط بعالم النساء . . .) ، والدور الذي يلعبه كل عضو من أعضاء العائلة ومكانة كل منهم بالنسبة للآخر . ولم تقف الباحثة عند حد رسم صورة وصفية لحياة العائلة ، بل حاولت أن تفسر في أكثر من موضع المواقف الاجتماعية المختلفة التي يشترك فيها أعضاء العائلة ، والأفعال وردود الافعال المختلفة بينهم أو طرق التعامل والسلوك والتصرفات فيما بينهم ، من خلال « مصطلحات القرابة » المحددة والوصفية ، مستعينة في ذلك ببعض الصور والمبادىء الثقافية التي تحكم مثل تلك العلاقات ، ومنها على سبيل المثال « الصداقة » التي تقوم على أساس التماثل بين الأعضاء المشتركين فيها ، و « المعاضدة » التي تقوم على العكس من ذلك تماما ، أي على أساس من التفاوت والتمايز [١٢] وتؤكد الباحثة أيضا على عامل « المصلحة المشتركة » أو « الهدف المشترك » بين وحدات العائلة الاصغر والتي (أو الذي) تتمثل في الكسب المادي أو الدخل الذي تقوم عليه حياة كل اسرة ، كما يتحدد عن طريقة « العائل » الذي يستطيع أن يحصل على الدخل لصلحة أعضاء الأسرة ككل ، ومن ثم يصبح المحور الأساسي الذي تدور حوله كل شئون تلك الأسرة ، فهو مصدر الفعل الاجتماعي ومركز العملية الاجتماعية فيها ، بالنسبة للمعتمدين عليه . لكن هذا العائل في نفس الوقت يعتبر « معولا » بالنسبة لغيره من كبار أو أثرياء العائلة الآخرين ، وتقوم بين الطرفين علاقة « معاضدة » ، يصبح فيها العائل « الجديد » مسيطرا ،

(١١) تؤكد الباحثة على ان الزيارات المستمرة بين اعضاء العائلة ، تؤدي الى تقصير واختزال المسافة الجغرافية التي تفصل بينهم

(١٢) المقصود بعلاقات المعاضدة هي تلك العلاقات التي تقوم بين طرفين غير متكافئين ـ كالعلاقة بين الوالدين وطفلهما ـ والتي تتلخص في انها علاقة سيطرة من ناحية ، وخضوع من الناحية الأخرى ، او هي علاقة رعاية او عناية من ناحية ، واعتماد من الناحية الأخرى . وتشير الى ان مثل تلك العلاقات تعبر عن العوامل الثقافية الهامة التي تعمل على تدعيم واستمرار الجماعة العائلية الكبرى كوحدة واحدة متميزة .

ويصير « المعول » معتمدا عليه . وتمتد سيطرة العائل الى أعضاء أسرة المعول حتى في غيابه الفيزيقي عنهم . وترى الباحثة أن ترحيب كل عائل بزيادة عدد المعتمدين عليه ، لا يعود فقط الى أن هؤلاء المعتمدين يعتبرون معاونين له في شئونه الخاصة ، أو الى ضمان استمرار فرص سلطانه عليهم ، ولكن أيضا ـ وأساسا ـ لأن مثل تلك العلاقات تعطي للعائلة ككل وحدتها ، باعتبارها تتألف من وحدات تعتمد بعضها على البعض الآخر ، رغم ما فيها من تمايزات داخلية ، ورغم التفاوت الحاد بين وحداتها [١٣] وتعتبر هذه هي أهم وظيفة لكل تلك العلاقات .

وقد اهتمت الباحثة بابراز التفاوت أيضا في الأسرة الواحدة ، من خلال عناصر فيزيقية كالسن والجنس ، فالنساء والاطفال ، وحتى البالغون من الأخوة والأخوات ـ ان لم يكن لبعضهم مصدر خارجي للدخل ـ يظلون خاضعين لسلطة « العائل » الذي يجمع في يد كل مصدر للثروة في الأسرة ، وفي اليد الأخرى كل السلطان على شئونها .

لكن ليست العناصر الفيزيقية وحدها هي سبب التفاوت بين أعضاء كل أسرة وأعضاء العائلة ككل ، فهناك عامل آخر ـ ربما أكثر أهمية في توكيد ذلك التفاوت ـ هو عامل « الفردية » . فالفردية ـ ليس في الأسر أو العائلة فحسب ، بل وفي المجتمع المغربي ككل ـ لها دور هام في إكساب الشخص مركزا اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا معينا . ويتوقف ذلك على جهود مثل ذلك الشخص الخاصة أو بمعاونة الآخرين . واذا كانت ثروته ـ عند مماته ـ تتوزع بين أكبر عدد من أقربائه ، فان مركزه الاجتماعي أو السياسي أو الاقتصادي لا يورث بل يظل لصيقا به حتى بعد الممات . لكن هذه الفردية وان كانت تؤدي الى التفاوت بين الاعضاء داخليا ، فانها تضفي على الأسرة أو العائلة من الخارج (أو ككل) سمة مميزة ترتبط بالمركز الذي حصل عليه أحد أعضائها .

وربما من أطرف الموضوعات التي تطرقت اليها الباحثة في مقالها المطول [١٤] هو موضوع « الأسماء والألقاب » التي تطلق أو تخلع على الشخص منذ ولادته وفي مواقف أخرى مختلفة . فالشخص في الأسرة المغربية يطلق عليه اسم « شخصي » عند ولادته ، يؤخذ عادة من بين أسماء الرسل والأولياء وأبطال الاسلام ، ويظل ينادى به داخل حدود الاسرة ، ولكن حين تتسع دائرة أو شبكة علاقاته ، تطلق عليه أسماء أخرى تضاف الى اسمه الشخصي لتميزه عن الآخرين الذين يشتركون معه في نفس الاسم . وهذه الاسماء الجديدة ترتبط بلقب العائلة التي ينتمي اليها أو بموطن اقامته أو بمهنته أو بسمة مميزة فيه . وهناك فئة أخرى في هذا المجال هي « الألقاب » وهي في أغلبها ألقاب تشريف ان لم تكن مرتبطة بمهنة أو بحرفة معينة ، كالشريف ، أو سيدي ، أو مولاي . . ولعل من أهم الوظائف التي تؤديها تلك الأسماء والالقاب ـ الى جانب دورها في تحديد شخص بعينه من بين أشخاص آخرين يشاركونه نفس الاسم الشخصي ـ هي أن بعضها قد يضفي على الشخص أو

(١٣) تهتم الباحثة باظهار ذلك التفاوت من خلال مظاهر مادية بحتة كشكل الملبس وأثاث المسكن .

(١٤) عرضت الباحثة لنظم العلاقات والنظم التي تندرج تحت أنساق القرابة والمصاهرة ، كالزواج والاجراءات التي تسبقه أو تتصل به كالخطبة والمهر (٢٥٪) ، والطلاق والارث والعلاقات بين الاقارب والاصهار المباشرين وغير المباشرين . وقد عرضنا لأهمها هنا .

يؤكد فيه سمة معينة ، وبعضها الآخر يحدد المكانة الاجتماعية التي يحتلها الشخص . وهي بذلك تؤدي دورا هاما في تحديد الطريقة التي يمكن أن يعامل بها هذا الشخص ، وما ينبغي أن يراعيه الآخرون في سلوكهم وتصرفاتهم ازاءه .

●●●

هذه باختصار ، أهم الموضوعات التي جاءت في الكتاب ، وكلها ـ رغم انفصالها وكما سبق أن أشرنا ـ تعطي صورة واضحة للحياة الاجتماعية في صفرو من مداخل وزوايا مختلفة . والكتاب وان كان قد أسرف في عرض حقائق وصفية عن المجتمع المغربي ـ الى جانب ما جاء في الملاحق العديدة [١٥] ـ فانه في نفس الوقت قد نجح في تحليل وتأويل بعض تلك الحقائق والبيانات ، تحليلا وتأويلا ثاقبا عميقا .

●●●

(١٥) يضم الكتاب ٥١٠ صفحة من الحجم الكبير ، فضلا عن ٦٤ صفحة اخرى مصورة .

من هندسة الحديد إلى هندسة المجتمع

لبيبه موسى

لعبت ثنائية المصادفة والأوضاع دورا ظاهرا فى حياة العالم الايطالي باريتو . فقد ولد لأب من جنسية . . وأم من جنسية ثانية . وولد فى دولة . . ثم دفن فى دولة ثانية وحصل على مؤهل علمى . . ثم نقل تخصصه نقلا تاما الى مجال ثان مختلف تماما .

وتزوج مرة أولى . . . ثم مرة ثانية .

وقضى معظم سنوات عمره يدافع عن مبدأ الحرية . . ثم شايع وأيد قرب وفاته مبدأ ثانيا مختلفا تماما .

وحتى الكتاب الذى نحن بصدد تقديمه تحت عنوان :

باريتو الآخر **The other pareto** كان كل هم كاتبه **placedo bucolo** أن يظهر الصورة الأولى الحقيقية لباريتو والتى تختلف تماما عن الصورة الثانية التى رسخت فى ذهن معاصريه الايطاليين ومن تبعهم وهى صورة غير محبوبة رسمتها اتجاهاته الأخيرة . قبل وفاته مباشرة ، عندما أيد الفاشية كنظام للحكم فى ايطاليا ، وامتدح زعيمها موسوليني ، فارتبطت ذكراه فى مخيلة الايطاليين بهذا النظام الدكتاتورى الكريه ، وزعيمه المستبد الذى قاد ايطاليا الى الأزمات والحرب والهزيمة .

وهكذا شاءت ثنائية الأوضاع والأقدار أن تشيع باريتو بعد وفاته بصورة ثانية أيضا غير الصورة الأولى التى عاش فى إطارها مدافعا عن الحرية .

وقد بذل الكاتب **Bucolo** جهدا كبيرا لاظهار الصورة الحقيقية لباريتو كعالم اجتماع واقتصاد وسياسى

• **Plqcido Bucolo , The Other Pareto , Scolar Press London, 1980**

بارع يمتاز بأسلوبه الذاتي المبتكر في البحث والتأصيل والكتابة ، ودفاعه عن الحرية معظم سني حياته .

وكان Bucolo موضوعيا ومحايدا في تقديم باريتو الحقيقي الى القارىء ، وذلك من خلال عرض مقالاته وموجز عن مؤلفاته ليستظهر القارىء بنفسه شخصية باريتو واتجاهاته وأفكاره الاجتماعية والاقتصادية والسياسية .

وقبل أن نستعرض مقالات باريتو ومؤلفاته ونلمس أفكاره واتجاهاته ، سنعرض لتاريخ حياته عرضا موجزا .

حياة باريتو Vilfredo pareto

ولد في باريس في ١٥ يوليو سنة ١٨٤٨ لأب ايطالي ولم فرنسية . وكان أبوه المهندس الايطالي رافائيل يعيش في فرنسا لاجئا سياسيا ثم عاد الى ايطاليا قبل سنة ١٨٥٤ حيث استمرت حياة باريتو في وطنه ايطاليا الذي يفخر به ويدافع عنه ويموت ويدفن فيه بعد حياة حافلة استمرت خمسة وسبعين عاما كان ختامها في أغسطس عام ١٩٢٣ .

وفي بادىء الأمر تخصص باريتو في علم الهندسة . وحصل على شهادة فيها من مدينة تورينو عام ١٨٦٩ . وعمل مهندسا في شركة روما للسكك الحديدية بفرعها الموجود في فلورنسا في المدة من ١٨٧٠ الى ١٨٧٣ حيث ترك عمله بتلك الشركة وانتقل الى شركة أخرى لصناعة الحديد . وعاش مع عمال المناجم والحديد ولمس فقرهم والظروف الصعبة التي يعيشون فيها . وكانت اهتماماته ودراساته في الاجتماع والاقتصاد والسياسية حافزا لربط مشاهداته العملية بدراساته وقراءاته . وبدأ التعبير عن ذاته بمحاضرة ألقاها في ٢٩ يونيو/١٨٧٢ في أكاديمية جورجوفيلي Georgofili بفلورنسا تناولت موضوع « التمثيل النسبي في البرلمان » . وكانت هذه المحاضرة نقطة تحول في حياته وبداية تحوله من تخصصه الأصل في هندسة الحديد الى السياسة والاقتصاد والاجتماع . وكرس باريتو نفسه للدفاع عن الحرية الفردية واتسعت آفاق اهتماماته بالحرية لتشمل الحرية السياسية والقانونية والاقتصادية .

كما اهتم بموضوع القوة والتأثير والاقناع في اتخاذ القرارات وتشكيل السياسات الاجتماعية الفعالة .

وكانت المحاضرة الأولى لباريتو في أكاديمية جورجوفيلي فاتحة محاضرات ودروس متتابعة في هذه الأكاديمية وغيرها فضلا عن مقالات متعددة شملت السياسة والاقتصاد والاجتماع لفتت نظر الكتاب والصحافة اليه ، وكانت سببا في أن يدعوه رئيس تحرير جريدة الاقتصاديين لان يشترك معه في تحرير الجريدة في عام ١٨٨٧ ، وكانت تلك نقطة تحول ثانية وكبيرة في حياة باريتو اذ هجر تخصصه الهندسي وكرس نفسه للدراسات الاقتصادية والاجتماعية وكتب مقالات أدخلته من أوسع الأبواب الى مجتمع الكتاب الاقتصاديين حيث تعرف بالمشاهير منهم .

وعندما تزوج من زوجته الأولى عام ١٨٨٩ اعتزل في فيلته في فيزول عام ١٨٩٠ واستغرق تماما في دراساته وصدرت له أبحاث ومقالات عديدة تناولت المشاكل الاقتصادية والسياسية والاجتماعية ، فضلا عن مؤلفات اقتصادية واجتماعية كان أولها في عام ١٨٩٦ تحت عنوان « دروس في الاقتصاد السياسي » . . وقد درس هذا المؤلف في جامعة لوزان ، وكان مؤلفا رائدا في الاقتصاد والاجتماع فضلا عن مؤلفه الهام في علم الاجتماع الجديد . وقد قادت هذه المؤلفات اسم باريتو

ليوضع مع كبار المفكرين فى علم الاجتماع خلال السنوات الاولى من القرن العشرين . فأصبح اسم باريتو يوضع الى جانب أسماء العلماء من أمثال تونيز **Tonnies**، ودركايم وماكس فيبر وزيمل وغيرهم . وكان تحليله للصفوة قد جذب الكثير من الانتباه وبصفة خاصة فى علم الاجتماع السياسي مثلما حدث بالنسبة لافكار موسكا وميشلز . بل لقد ذهب البعض الى مقارنة أفكار باريتو وتحاليله خاصة لموضوع الرواسب والمشتقات بدراسات فرويد . وقال عنه آخرون أنه كارل ماركس الفاشية بسبب كتاباته التى اعتبرها الفاشيون أساسا لنظامهم .

وفى عام ١٩٠٠ حدثت تغيرات هامة فى ايطاليا وكذلك فى حياة باريتو ، فقد ورث ثروة من عمه المتوفى فاشترى من ميراثه فيلا جديدة فى سيلجنى وانتقل للاقامة فيها عام ١٩٠١ وهو نفس العام الذى شهد انفصال زوجته الاولى عنه . وحزن باريتو اذ هربت زوجته مع خادم واضطربت حياته وسعى للحصول على الطلاق الذى سمح له بالزواج مرة ثانية من المرأة التى وقفت الى جانبه السنوات العديدة التى ظل خلالها مريضا بالقلب .

وقبل سنوات قليلة من وفاة باريتو كانت ايطاليا تعيش حالة من الفوضى يتنازعها فيها الشيوعيون والفاشيون والمخربون ، وضاع القانون والنظام فى زحمة الاضطرابات والاضرابات والمظاهرات وعمليات الاعتداء على الافراد والممتلكات .

ويبدو لباريتو أن ايطاليا تحتاج الى حكومة قوية حديدية تفرض احترام القانون والنظام والضبط فى المجتمع ، وتضع حدا لهذه الفوضى . وذلك ما دعاه لتأييد الفاشية عندما وصلت للحكم فى اكتوبر عام ١٩٢٢ آملا فى أن تكون المنقذة لايطاليا من الفوضى التى تعيش فيها ومن تفكك المجتمع الايطالى واضطراباته . فكتب مقالات يؤيد فيها نظام الحكم الفاشى . ويمتدح فيها زعيمها موسوليني . وكان هذا معجبا بكتابات باريتو وفكره ، ويعتبره ملهمه ومعلمه فعينه شيخا **Senator** فى البرلمان .

ومن هنا ارتبطت ذكرى باريتو بذكرى الفاشية البغيضة وزعيمها الدكتاتور موسوليني وظلت هذه الذكرى عالقة بصورة باريتو عندما توفى فى أغسطس عام ١٩٢٣ ، وغطت على صورته الأولى التى بدأ بها وعاش فى اطارها مدافعا عن الحرية .

ان مؤلف **Placido Bucolo** بعنوان باريتو الاخر **the other pareto** يحاول أن يقدم لنا الصورة الحقيقية لباريتو ، والصورة الموضوعية له كعالم اجتماع واقتصاد وكاتب سياسى يتميز بذاتيته الفكرية وأسلوبه الخاص فى البحث والتأصيل ، وسعة أفقه وأسلوبه اللاذع القوى فى الكتابة . ويلفت **Bucolo** نظر القراء الى أن باريتو يترك لدى قرائه انطباعات متفاوتة بل ومتعارضة أحيانا حسب وجهة نظر القارىء فيما يقرأ . فقد ينتهى الأمر بوصف باريتو بأنه مفكر عقلانى **rationalist** أو غير عقلانى **irrationalist** **Liberal** أوفاشى **fascist** مؤيد للجماعية أو الفردية **individualism** متخذا خط فكر الفيلسوف الالمانى هيجل **Hegel** أومنحازا لفكر الفيلسوف الفرنسي بسكال **Pascal** وسنحاول نحن من جانبنا أن نعرض لافكار باريتو فى شتى الموضوعات التى تناولها كتاب **Placedo Bucolo**

محتويات الكتاب

قسم **Bucolo** كتابه الى ثلاثة أجزاء . خصص الجزء الاول لمقالات باريتو ومؤلفاته التى تدور حول

الحرية الاقتصادية والسياسية . ويتضمن هذا الجزء سته عشر موضوعا .

أما الجزء الثاني فقد شمل واحدا وأربعين موضوعا تحت عنوان مشاعر وارستقراطيات **Sentiments and Aristocracies** ثم كان الجزء الثالث والأخير من الكتاب واشتمل على ثلاث فقط تحدث فيها الكاتب عن المعاصرين لباريتو والناقدين له . وحاول في النهاية استخلاص الوجه الحقيقي لباريتو كما قصد في البداية عند صياغة عنوان الكتاب ، **the other pareto** باريتو الآخر .

عرض موجز

وحتى يمكن التعرف على فكر وشخصية باريتو بغير ايجاز مخل أو تطويل ممل فاننا سنختار بعض الموضوعات التي تحدث عنها باريتو ، وسنكتشف من خلال هذا العرض مسار أفكاره وفلسفته ومنظوره الشخصي للأمور . وعلى ذلك فاننا نعرض فيما يلي للموضوعات المختاره من الكتاب .

الموضوع الأول

التمثيل النسبي **proportional representation**

تحدث باريتو عن التمثيل النسبي في البرلمان الايطالي وذلك في محاضرة ألقاها يوم ٢٩ يوليو سنة ١٨٧٢ بأكاديمية جورجوفيلي **Georgofili** بمدينة فلورنسا . وطالب باريتو في هذه المحاضرة بتعديل نظام الانتخاب للبرلمان الايطالي عن طريق السماح بتمثيل مختلف الأحزاب والاتجاهات السياسية حسب نسبة الأصوات التي حصل عليها كل حزب أو اتجاه . وبذلك يكون البرلمان ممثلا لجميع فئات واتجاهات الشعب ، ويضم بصفة خاصة صفوة المثقفين الذين يمكنهم عندئذ المشاركة في المناقشة وانارة الطريق أمام قرارات الحكومة . ويوضح باريتو أن صفوة المثقفين والاذكياء في ايطاليا هي أقلية صغيرة ، وانها لن تتحكم في اصدار القرار ولكنها ستسهم في ايضاح أفضل السبل لاصدار القرارات عن طريق مناقشاتها الواعية في البرلمان ، ومعاونتها للأغلبية البرلمانية في استجلاء معالم الطريق قبل التصويت على القرارات .

وكانت تلك المحاضرة بداية شهرة باريتو وبداية اهتمامه بعرض المشاكل بطريقة تأصيلية تقوم أساسا على معايير عقلية ويمكن القول بأن المهندس باريتو قد تحول بهذه المحاضرة من فنه الهندسي الاصلي الى السياسة والاجتماع .

وقد ذهب باريتو في هذه المحاضرة الى القول بأن كل مواطن ليس من حقه فقط أن يختار نوابه بل إن من حقه أيضا أن يختار برامج النواب . فالمواطنون لا يحتاجون الى حراس **Guardians** ولكن الى مندوبين ينوبون عنهم بوكالة محددة . فمن حق كل انسان التعبير عن آرائه ومعتقداته بحرية حتى ولو كانت هذه المعتقدات والآراء تمثل وجهة نظر أقلية وتبدو غير مقبولة ظاهريا .

وهكذا اتجه باريتو في خطابه الى دعم الأقلية التي ينظر اليها كصفوة ثقافية **cultural elite** والتي يعتبر نفسه منتسبا اليها . فقد استهل محاضرته بهذه العبارة التي يقول فيها :

« إن موضوع هذه المحاضرة يشجعني على الحديث اليكم لأن النظر الى مشاكل تمثيل الأقلية قد يكون حافزا لتسامحكم معي وأن تنصتوا بصبر وتعاطف الى واحد ممن ينتسب الى الاقلية بسبب معتقداته من ناحية ، وربما أيضا بسبب كونه الوحيد غير المعروف . بين أناس مشهورين شهرة واسعة » .

ثم يتابع باريتو عرض حججه فى تأييد التمثيل النسبي قائلا :

إنه حتى يمكن الحكم على مبدأ التمثيل النسبى فانه من الضرورى قبل كل شيء أن تتضح لنا رؤ ية واضحة عما نعتبره أفضل وسيلة للتمثيل النيابي عن المواطنين ، ثم نخلص عندئذ الى أفضل الطرق لتحقيق هذا الهدف .

ولا شك أن الأراء حول الحكومات وتمثيل المواطنين مثار خلاف بين الناس ، ومن الصعب تعدد تلك الأراء .

ويرى باريتو انه توجد ثلاث نقاط يجب النظر اليها عند اختيار افضل الاشكال لتمثيل المواطنين في البرلمان وهذه النقاط هي :

١ ـ دور الحكومة .

٢ ـ مصدر سلطانها .

٣ ـ حدود هذه السلطة .

١ ـ وفيها يتعلق بالنقطة الأولى فان البعض يريدون من الحكومة ان تكون نشطة وإيجابية بصفة اساسية ، فتقدم الخير للمواطنين وتقود شعبها في طريق الرخاء . وعلى العكس من ذلك فان آخرين يريدون من الحكومة ان تكون سلبية يتحدد دورها في كونها ضد الشر فقط . أي ان تقوم بدور الحارس ليس الا .

والذين يؤ يدون الغرض الأول يطالبون دائما بنصيب اوفر من الذكاء والجهد والمثابرة لدى الحكومة . وهو نصيب لا يهتم به المشايعون للغرض الثاني السلبي . ولهذا فان الفئة الأولى اكثر تأييدا من الفئة الثانية لفكرة التمثيل النسبي باعتباره الانسب لتكوين برلمان يتكون من اكثر العناصر المتعلمة والذكية في الامة كلها تضم صفوة ابناء المجتمع . وعندما يصل باريتو الى الصفوة المثقفة فانه يعترف بان الجماعة المثقفة او الشطر المثقف في الشعب الايطالي كان دائما اقلية صغيرة جدا tiny minority وانه من الضروري تمكين هذه الاقلية من ارسال بعض الممثلين عنها الى البرلمان حتى لا تقتصر العضوية فيه على رجال متواضعي الذكاء والكفاءات .

ويقصد باريتو في ذلك الى تطعيم البرلمان بعناصر مثقفة ومستنيرة وعلى مستوى عال من المقدرة وذلك عن طريق الاخذ بمبدأ التمثيل النسبي الذي يسمح بتمثيل الاحزاب الصغيرة والتي تضم اقلية مثقفة ثقافة جيدة .

ويرى باريتو انه توجد ثلاث طرق لحث الاخرين ودفعهم الى فعل شيء ما . وتتمثل تلك الطرق في : القوة ، الخداع ، الاقناع force, deception, Persuation وبالنسبة للطريقتين الأولى والثانية فانها ليسا من طرق الحضارة والمدنية ، بينما الطريقة الثالثة هي الوحيدة التي تتفق مع المدنية . ولهذا يحبذ باريتو الالتجاء لطريقة الاقناع في الحكم وليس الاقتصار على طريقي القوة والخداع اللذين سادتا في ايطاليا ويعتبر التمثيل النسبي في البرلمان احدى طرق الاقناع التي ينبغي التمسك بها لصلاحية الحكم في ايطاليا .

٢ ـ وبالنسبة للنقطة الثانية التي ذكرها باريتو والتي تتعلق بمصدر سلطة الحكومة فان البرلمان عندما يمثل كل أفكار ومعتقدات المواطنين بنسبهم الصحيحة أي بنسبة كل فكر الى مجموعة المواطنين المنتمين اليه فان قرارات البرلمان حينئذ الصادرة بأغلبية الأصوات سوف تكون متمشية مع تمثيل هذه الأفكار والمعتقدات . والفائدة المؤكدة التي تستفيدها الأقلية من تواجدها داخل البرلمان تبعا لتطبيق نظام التمثيل النسبي هي فائدة معنوية تتمثل في السماح لهم بأن يتحدثوا في البرلمان وأن تسمع كلماتهم وأن يثيروا الطريق أمام قرارات الجمعية التشريعية . ومفاد هذا أن الحكومة تصبح مستمدة

سلطانها من جموع الشعب بمختلف أفكاره ومعتقداته . ويصبح الشعب حقيقة مصدر السلطة .

٣ - وأخيرا فإنه بالنسبة لحدود سلطة الحكومة فيذهب البعض الى القول بانه لا توجد حدود لسلطات الجمعية النيابية بينما يذهب الآخرون الى ضرورة وجود حدود لارادة الأغلبية بل واستبدادها المحتمل الذى قد يعصف بالحرية الفردية ويحطم كل مبدأ للعدالة .

وبعد أن عرض باريتو لهذه الأفكار هاجم السياسيين الذين يريدون إبقاء الحال على ما هو عليه فى ايطاليا فى تلك الأيام وطالب بقوة بتعديل نظام الانتخاب وجعله بنظام التمثيل النسبي . فاذا كان هناك مثلا مائة ألف ناخب ينتمون لحزب واحد وخمسون ألف ناخب ينتمون لحزب آخر فان الحزب الأول سيكون له مائة نائب والآخر خمسون نائبا وبهذا يسمح بوجود المعارضة .

ونستخلص مما عرضه باريتو فى محاضرته أنه كان مدافعا قويا عن الصفوة المثقفة فى البلاد باعتبارها أقلية لا ينبغى إلغاء وجودها وتأثيرها فى اتخاذ القرارات بسبب اقتصار البرلمان على ممثلي أحزاب الأغلبية اللذين قد لا تتوافر فيهم الكفاءات الكافية .

بينما أن الأمر يختلف تماما فيما لو فتحت أبواب البرلمان لتمثيل الأقلية المثقفة والتى تضمها أحزاب صغيرة اذ ستساهم هذه الأقلية فى عملية إصدار القرارات المستنيرة بحكم قدرتها على الاقناع . وبهذا يدخل عنصر الاقناع **Persuation** كعنصر مؤثر في الحكم ولا يقتصر الامر على عنصرى القوة والخداع المستخدمين على نطاق واسع فى ساحة الحكم ان مشاركة أسلوب الاقناع كوسيلة فى إصدار القرارات سوف تيسر فى ظل نظام التمثيل النسبي الذى يكفل حل ممثلي الأقلية المثقفة الى داخل البرلمان حيث تستخدم علمها وذكاءها وقوة حجتها فى التأثير على أعضاء البرلمان قبل التصويت على القرارات بما قد يضمن تعديل مسار مشروعات القرارات فى الاتجاه الصحيح الذى تدافع عنه الصفوة المثقفة .

الموضوع الثاني

الاقتراع العام Universal Suffrage

ويرتبط هذا الموضوع بالموضوع السابق عليه مباشرة اذ يتحدث باريتو عن أسلوب الانتخاب فى ايطاليا ويطالب بإصلاحه وذلك فى خطاب مفتوح نشره فى جريدة الشعب **gazzeta del populo** ويتضمن هذا الخطاب الهجوم على الاقتراع المقيد الذى يقوم على قصر حق الانتخاب على المواطنين الذين يدفعون ضريبة مباشرة للحكومة كالملاك وأصحاب المشروعات .. فقد كانت الثروة هى معيار الحكم على المواطن بصلاحية مشاركته فى شئون البلاد عن طريق استخدام حقه فى الانتخاب واختيار النواب الذين يحكمون البلاد فهؤلاء الملاك وأصحاب المشروعات الذين يدفعون الضرائب المباشرة هم فى نظر مؤيدى الاقتراع المقيد أصلح من يشترك فى توجيه دفة الحكم اذ أن لهم مصالح حيوية يحافظون عليها ويهمهم الدفاع عنها ولذلك يكونون أكثر حرصا على استخدام حق الانتخاب واختيار أصلح النواب لدخول البرلمان .

ويعترض باريتو على ذلك ولا يقر بأن معيار الثروة هو أصلح المعايير لاشتراك المواطنين - فى الانتخاب بل يفضل عليه معيار التعليم ويحبذ اشتراط حصول الناخب على الشهادة - الابتدائية **elmentary** بحيث تتواجد هيئة ناخبين واعية لأهمية الصوت الانتخابي وقدرة وكفاءة النائب عنها . ولذلك يطالب باريتو بجعل نظام

التعليم الابتدائي إجباريا ولا يعتبر ذلك خرقا لحرية الاباء في تعليم أو عدم تعليم أبنائهم بل هو ينظر الى حق الأبناء أنفسهم في التعليم واعتبار ذلك حرية لهم لا يجوز مصادرتها عن طريق عدم فرض التعليم الالزامي على الأباء وهكذا يقف باريتو بقوة الى جانب التعليم باعتباره احدى الطرق الى نظام الحكم المستنير. كما أنه لا يعتبر شرط تحصيل العلم في المدارس الابتدائية شرطا ينفي وجوده مبدأ الاقتراع العام في الانتخاب الذي ينادي به.

وفيما يلي مقتطفات موجزة من خطاب باريتو الذي يقول فيه بأسلوبه الساخر:

سيدي العزيز:

نرجو أن تسمح لأحد المتواضعين من أتباع حزب الحرية **Freedom** أن يبدي بعض الملاحظات على أفكاره بشأن الاقتراع العام المنشور في هذه الجريدة

«... انني أرى أن الخطأ الذي وقع فيه الذين يريدون التطبيق المباشر لحق الاقتراع العام، وكذلك الذين يربطون نوعية الناخب بالثروة إنما ينبع من حقيقة كونهم يعتبرون الصوت الانتخابي حقا **Right** اكثر منه مجرد ممارسة لواجب **duty** ضروري لمصلحة المجتمع المتمدين وطبقا لرأى الفئة الأولى فان كل مواطن يجب أن يتمتع بحق الانتخاب لأنه يشارك في الدفاع عن الوطن. كما أنه يدفع نصيبه في النفقات العامة للدولة عن الضرائب غير المباشرة.

أما الفئة الثانية فانها تعرض حجتها القائلة بأن المواطنين الذين يشاركون في النفقات العامة هم فقط الذين يجب أن يتمتعوا بحق المشاركة في الحكم ومن ثم يقصرون حق الانتخاب على من يدفع ضرائب مباشرة للدولة.

ولن أذكر هؤلاء الذين يرون في الأغنياء طبقة عليا أسمى **Superior** يجب أن تكون لها شرعا حق السيطرة على الشئون العامة. وأنا أعتقد مثلما يقول مل **Mill** إن ممارسة حق الانتخاب يجب أن ينظر اليه على أنه وظيفة في الدولة. ومن أجل هذا فانه يبدو لي أن من يحمل حق الانتخاب يجب أن تتوافر فيه الثقافة والمعرفة الضرورية للقيام بمهامه بكفاءة بصرف النظر عن الثروة. ولهذا فانني استبعد الشخص الأمي من التصويت في الانتخابات. وأفضل أن يكون حق التصويت إذا أمكن لهؤلاء فقط الذين أتموا التعليم الابتدائي بنتائج طيبة. ويجب أن يكون من حق كل شخص أن يتعلم في المدارس الابتدائية. ومن هنا لن يكون الاقتراع العام مجرد كلمة خاوية بل حقيقة مفيدة. كما أن فرض التعليم الابتدائي على جميع الابناء لن يكون انتهاكا لحرية الاباء في تعليم أو عدم تعليم أبنائهم. فالأب الذي لا يعلم ابنه تعليما إبتدائيا على الأقل لا يمارس حقا أو حرية وانما يرتكب اثما في حق ابنه».

ونستخلص من خطاب باريتو ايمانه بحيوية التعليم وضرورته للانسان واعتباره ليس فقط وسيلة لتطوير المجتمع في مدارج الحضارة والمدنية وانما وسيلة لاصلاح الحكم عن طريق توفير هيئة ناخبين مثقفة. تكون قادرة على اختيار هيئة نواب صالحة لحكم البلاد. كما أن باريتو لم يعتبر شرط الحصول على الشهادة الابتدائية لكل ناخب انتهاكا لحرية الانتخاب للمواطنين وهي الحرية التي ظل مدافعا عنها معظم أيام حياته قبل أن ينحاز الى الفاشية في الفترة القليلة قبل وفاته.

الموضوع الثالث

الاشتراكية والحرية Socialism and Freedom

لقد تحدث باريتو عن الاشتراكية والحرية في مقال نشر في صحيفة **Il pensiero Italiano** الفكر الايطالي

فى ابريل عام ١٨٩١ وأبدى فى ذلك المقال لأول مرة اهتماما كبيرا - بالاشتراكية التى أصبحت بعد ذلك احدى الموضوعات الرئيسية فى كل كتاباته . ويوضح باريتو فى هذا المقال العلاقة بين الاشتراكية ومذاهب الحماية الاقتصادية والمذاهب الحرة الاخرى وأثر كل هذه المذاهب على مستوى حياة الناس ، وتتبع القصد الحقيقى من تطبيق كل مذهب وهل هو فى مصلحة عامة الشعب من الفقراء أم فى مصلحة صفوة الحكام والأغنياء . فيقول فى هذا الشأن إن الاشتراكية تهدف الى تدخل الدولة لأجراء تعديل فى توزيع الثروة ، على أن هذا الهدف نجده أيضا فى نظم أخرى مثل نظم الحماية **protectionism** اذ تفكر بنفس طريقة تفكير الاشتراكية بصفة عامة ، ولكن لا يطلق عليها لفظ اشتراكية . ويخلص باريتو الى جمع الاشتراكيين وأصحاب نظام الحماية **protectionists** تحت اسم أصحاب القيود **restrictionists** وهم يختلفون عن أولئك الذين يريدون أن يكون توزيع الثروة قائما فقط على المنافسة الحرة ويطلق عليهم الأحرار **Liberationists** أو أصحاب مذهب الحرية .

ويرى باريتو أن الاشتراكيين الحقيقيين يرغبون فى تدخل الدولة من أجل إعادة توزيع الثروة لمصلحة الفقراء بينما أن أصحاب مذهب الحماية يعملون لمصلحة الاغنياء حتى ولو لم يقصدوا ذلك وهذا عن طريق تأييدهم للحماية التجارية والتنظيم والاجتماعي ذى الطابع العسكرى **military type**

ويعدد باريتو طرق تدخل الدولة لتعديل توزيع الثروة ويقسمها الى ثلاثة أقسام يشمل أولها الحماية الجمركية والاحتكارات والمشروعات العامة والدين العام .

ويتجه ثانيها إلى فرض الضرائب غير المباشرة على نطاق واسع أما ثالثها فيركز على الحرب والاستعداد لها بالسلاح أو ما يسمى بالسلام المسلح .

أما الحماية الجمركية فانها تفيد الرأسماليين الذين وضعت الحماية الجمركية من أجل مشروعاتهم . بينما هى تضر بسائر المواطنين حيث يحرمون من ميزة المنافسة مع سلعة الرأسماليين وهى منافسة قد تشمل الجودة والأسعار . وينتهى الأمر بأن تقتصر الفائدة من وراء الحماية الجمركية على ما تحققه الصفوة المسيطرة رأسماليا من أرباح طائلة وهى ذات الصفوة التى تؤثر على الحكومات لاستصدار قرارات الحماية الجمركية بحجة المصلحة الوطنية ولكنهم هم المستفيدون منها فى النهاية .

ونفس الأمر نجده فى الاحتكارات **monopols** فهى تضر بالثروة الوطنية لدرجة كبيرة وتزيد من نسبة فقر الشعب اكثر مما تفعله الحماية الجمركية بينما هى تفيد الصفوة الرأسمالية التى تتمتع بهذه المشروعات بقرارات من السلطة الحكومية . وبقدر ما يستفيد الأغنياء من الحماية الجمركية والاحتكارات فانهم يستفيدون كذلك من الديون العامة إذ يحصلون على عائد لرأسمالهم أعلى مما كانوا سيحصلون عليه لو استخدموا هذا المال فى الصناعة أو التجارة حيث أنهم سيقرضون الحكومة بفوائد عاليه . وهكذا يزيد العبء على عامة الشعب من الفقراء نتيجة زيادة ديون الدولة ويزيد فى نفس الوقت من ثراء الطبقة الرأسمالية الغنية . وكان المفروض فى المشروعات العامة التى تنفذها الحكومة أن تحقق مصالح المواطنين غير أن هذا الهدف لا يتحقق لأن هذه المشروعات العامة تلبي رغبات ورفاهية الطبقات الحاكمة اذ أن نفوذ هذه الطبقات يطغى عند اقرار المشروعات والاشغال العامة بحيث تتجه الفائدة الحقيقية منها الى صفوة الحكام والأغنياء .

وبعد أن فند باريتو كل طريقة من الطرق السابقة فى تدخل الحكومات لاعادة توزيع الثروة وأوضح أن الهدف منها ليس لمصلحة عامة الشعب من الفقراء وانما مصلحة صفوة الرأسماليين والحكام انتقل باريتو الى مناقشة استخدام الحكومة لأسلوب الضرائب غير المباشرة كوسيلة من وسائل الحصول على موارد تعيد توزيعها لمصلحة الشعب . وقال إن هذه الضرائب غير المباشرة تضاعف أعباء الحياة على الطبقات الفقيرة التى تدفع الضريبة غير المباشرة عند شراء السلعة وهى مسألة لا يحس بها الأغنياء كما يحس بها عامة الشعب الفقراء وانتهى باريتو من الحديث عن أساليب التدخل الذى تقوم به الدولة فى شئون المجتمع الاقتصادية بالحديث عن موضوع الحرب والسلام السلح واصفا إياه بأنه أغلى أنواع الترف **most expensive Luxuries** التى تنعم بها الطبقات الحاكمة ضد مصلحة الشعب ويذكر أن البريطانيين ما زالوا يدفعون ديون الحروب التى جلبتها عليهم الطبقات العليا فى حربها مع الجمهورية الفرنسية ودفاعها عن ملوك أوربا وحكمهم المطلق . ويندد باريتو فى نفس الوقت بالحكومة الايطالية بسبب النفقات الباهظة التى تنفقها استعدادا للحرب والتى لا يستفيد منها الا أقلية صغيرة بينما تزداد معاناة الغالبية العظمى من الشعب فما يتحمله الأغنياء فى نفقات الحروب لا يتناسب مع ما تتحمله غالبية الشعب فى هذه النفقات . ولا يدفع الأغنياء بنسب ثرواتهم نظرا لان نفقات الحروب يتم تغطية معظمها بالضرائب غير المباشرة التى يتحمل عبئها سواد الشعب ولا يحس بها الأغنياء .

ويخلص باريتو من تحليله لحال المجتمع الايطالي الى القول بأن معظم الثورات الكبيرة فى ايطاليا ترجع الى احدى وسائل تدخل الدولة فى صورة الحماية الجمركية أو الاحتكارات كما هو الشأن فى احتكار صناعة الدخان والسكك الحديدية مثل تلك التى كان يعمل بها أو عن طريق أشغال الحكومة التى تطرحها من مناقصات أو مضاربات أخرى تحولها الدولة أو المجالس المحلية أو ما تجنيه تلك الطبقات من مكاسب نتيجة للحروب والاستعداد لها وما يستتبعه ذلك من نفقات حكومية وديون يستفيد من ورائها الرأسماليون . ولا يخفى باريتو نقده فى هذا العرض لطبقة الصفوة المستفيدة من سياسات الحكومة التى تزيدهم ثراء . وهو يقر بضرورة تدخل الحكومة فى الشئون الاقتصادية واعادة توزيع الثروة ولكن ليس كما هو موجود أمامه فى ظل البورجوازية التى يطلق عليها بورجوازية اشتراكية **bourgeois socialist** والتى تعمل لمصلحة الأغنياء ويطالب بحكومة اشتراكية حقيقية تعمل لمصلحة الفقراء وليس الأغنياء .

ويرفض باريتو أن تسود ايطاليا صورة من صور الاشتراكية المتطرفة **excessive** فهو يقيم معادلة متوازنة بين الاشتراكية والحرية .

وعندما يصل باريتو الى هذه النقطة فإنه ينتقل الى الحديث عن النظم الحرة **liberal** ويقسمها الى نظم بدائية **apriori** وتتمثل فى تلك النظم التى تريد العودة بالانسان الى حالته الطبيعية البدائية وتشمل مذاهب العدمية **nihilist forms** والفوضوية **anarchist form** مثل المجتمع الذى يتحدث عنه **Herzen** هرزن وهو مجتمع بدون حكومة ودين بدون إله .

أو مثلما يذهب **Bakunin** الذى كره الشيوعية لأنها تقضى على الحرية وتعطى الدولة ملكية الارض ووسائل الانتاج .

فاتجه الى أقصى النقيض وطالب بتحطيم الدولة وتحطيم أى تنظيم قائم فى المجتمع . وهذا الذى يذهب اليه العدميون **nihilists** لا يختلف عما يذهب اليه أما القسم الثاني من النظم الحرة الذى يتحدث عنه باريتو فهو النظم التجريبية الحرة **experimental liberal systems** التى يفصح عنها التاريخ والتجربة والتى تضمنها كتابات الاقتصاديين والسياسيين والفلاسفة الواقعيين من أمثال سبنسر **Spencer** وبكل **Buckle** ومولينارى **Molinari** ويحبذ باريتو هذا الاتجاه العملى القائم على التجربة وتلمس المشاكل الواقعية للمجتمع واختيار النظام الاقتصادى الملائم له والممكن تطبيقه . فالاعلان مثلا عن المبدأ المجرد الذى ينادى بالملكية الجماعية لوسائل الانتاج كما هو الشأن فى الاشتراكية الماركسية لن يفيد شيئا على الاطلاق اذا لم يضع فى الاعتبار المشاكل الخاصة بتنفيذ ذلك المبدأ من الناحية العملية .

ويعبر باريتو عن خشيته من اعطاء هذه المهمة ـ أى مهمة تحقيق الاشتراكية كما يراها ـ الى الحكومات المعاصرة التى لا يثق فى قدرتها على حل المشاكل وتقليل معاناة الشعب وينادى بضرورة دراسة كل خطوة تلزم لتقدم المجتمع الايطالي وأن يستخدم فى هذه الدراسة كل الوسائل التى تيسرها العلوم الاجتماعية من أجل معرفة حقائق الأمور فاذا لم تكن تلك الوسائل كافية فيجب الاعتماد على التجربة واستخدامها بعناية فى أصغر جزء من المجتمع الايطالي . فاذا ما نجحت تلك التجربة أمكن تعميمها . وهو أسلوب متبع فى سويسرا والولايات المتحدة . اذ أن كل كانتون **Canton** وكل ولاية تراقب ما يحدث فى باقى الكانتونات والولايات وتقلد أو تطبق كل شىء تتم تجربته بنجاح .

تلك كانت مقالة باريتو عن الاشتراكية والحرية عرض فيها لوسائل تدخل الدولة ولمذاهب الحرية الاقتصادية وانتهى الى وجوب دراسة واقع المجتمع الايطالي الذى يعيش فيه لمعرفة أصلح النظم لتطبيقها بحيث تجمع بين الاشتراكية المعتدلة والحرية التى يعشقها ويدافع عنها ، ويطالب بالاعتماد على التجربة أولا قبل تعميم أى نظام فاذا ما نجحت تجربة هذا النظام فى قطاع محدود . من المجتمع الايطالي أمكن تعميمه على سائر المجتمع . وتلك كانت طريقة باريتو فى التفكير التى تعتمد على المذهب التجريبي أو الأسلوب والطريقة التجريبية حيث لكل مجتمع ظروفه الخاصة والتى تتطلب استجابات مناسبة فى التطبيق لأى نظام اجتماعى أو اقتصادى . وقد دفعه حرصه على استيعاب المجتمع للنظام المقترح أن يطالب بتجربة هذا النظام فى قطاع صغير من المجتمع فاذا ما نجح أمكن تعميمه .

واذا كان باريتو فى تلك المقالة التى نشرها عام ١٨٩١ قد دافع عن الحرية وعن عامة الشعب بقدر ما دافع عن الاشتراكية المعتدلة وليس الاشتراكية المتطرفة ، فانه كان يعبر فى ذلك الوقت عما تنطوى عليه نفسه من ميل للحرية حيث كان على نحو ما ذكره رونالد فليتشر **Ronald Fletcher** بأن باريتو بدأ كتاباته متخذا جون ستيوارت ميل **J. stuart Mill** نموذجا له . كما يصر **Bucolo** على تأكيد هذا الوجه الحر لباريتو قبل أن يتحول من نهاية حياته الى اتخاذ جانب الفاشية ولعل **Bucolo** قد نجح فى تقديم هذا الوجه الآخر لباريتو من خلال عرض وتحليل محاضرات ومقالات باريتو منذ بدأ فى القاء أول محاضرة فى ٢٩ يونية ١٨٧٢ وبذل جهودا مضنية فى جمع هذه المحاضرات والمقالات وتتبع خطوط فكر باريتو وانتهى الى أن باريتو مخلص للحرية ومدافع عنها وظل **Bucolo** يكرر ذلك فى صفحات ١٩ و ٤٣ و ٧٤ ثم استشهد بقول **Zuccarini** فى

صفحة ٣٠٣ من أن هذا الاتجاه الحر ظل ملازما لباريتو الذى كان على يقين بأنه لن يتحقق تقدم فى المجتمع بدون حرية وان كان هذا الاتجاه يختفى أحيانا تحت السطح .

الموضوع الرابع

الدولة الاخلاقية Ethical state

ينتقد باريتو فى هذا المقال الادعاء القائل بأنه لا يمكن تحقيق الحرية فى ايطاليا بسبب تعارضها مع مصالحها الطبقة الحاكمة . فالطبقة السائدة **dominating class** فى المجتمع تعارض الحرية الاقتصادية لأنها تضر بمصالحها .

وكان باريتو فى تلك المقالة يرد على ما كتبه البرفسور **Coletti** كوليتى وينتقده قائلاً :

« أنه إذا سلمنا أن الدولة هى أداة تستخدمها الطبقة الاجتماعية الأقوى فأى فائدة يجنيها أصحاب مذهب الحرية من دعوتهم المتشبه الى الحرية وفى نفس الوقت يثيرون اليأس من امكان تحقيق هذه الحرية » .

لقد كان باريتو يدافع عن الحرية الاقتصادية ويتحدث عنها من منطلق الواقع والملموس فى الحياة الايطالية دون أن يحلق فى آفاق الخيال . وهذا مادفعه الى انتقاد البروفسور كوليتى عندما تحدث عن الدولة الحرة **Liberal state** واصفا اياها بأنها دولة أخلاقية **ethical state** مثل التى ينادى بها الاشتراكيون .

ويرد باريتو على ذلك بأن كوليتى والاشتراكيين إنما يستندون على حجج ميتافيزيقية بينما أن الحديث عن الدولة هو حديث عن واقع وعن منظمة يحكمها الناس فى ظل اسس مختلفة قد ترجع الى القول بوجود حق الهى فى الحكم او تستند الى حكم العادة المتوارثة او قد ترجع هذه الاسس الى اختيار الفئة الحاكمة من جانب الاغلبية بطريقة نيابية شرعية .

ويربط باريتو بذلك الدولة بالواقع العملى الملموس للمجتمع وحياة افراده حكاما ومحكومين كما يرفض الحجج الميتافيزيقية التى يستند اليها البرفسور كوليتى والاشتراكيون فى اصطلاح الدولة الاخلاقية . وبهذا يكون منهج باريتو فى البحث منسجما مع أسلوبه العلمى التجريبى فى معالجة مشاكل المجتمع .

الموضوع الخامس

الجامعة

مقال منشور فى اول مارس عام ١٨٩٥

يتحدث باريتو فى هذا المقال عن الاضطرابات والفوضى وعدم احترام القانون فى ايطاليا ويضرب مثالا لذلك بالجامعات الايطالية حيث تسود فيها الاضطرابات من جانب الطلاب مما يدفع السلطات لاغلاق الجامعات . ويقارن باريتو حال الجامعات الايطالية بالجامعات السويسرية التى يسود فيها النظام والانضباط واحترام القانون مع التمتع بالحرية . وان الطلاب والأساتذة يحترمون نظم الجامعة فاذا ارادوا تعديلها فان لهم الحرية الكاملة فى المطالبة بهذا التعديل وتستمع لهم السلطات وتستجيب لمطالبهم اذا كانت عادلة . ومن هنا يسود السلام والنظام واحترام القانون فى الجامعات السويسرية ويطالب باريتو بأن يسير المجتمع الايطالى على نهج المجتمع السويسرى من حيث احترام القانون وسيادة الحرية فالحرية لا تعنى عدم التقيد بالقوانين كما ان التقيد بالقانون لا يعنى اننا فقدنا الحرية اذ يجب ان تكون هناك ضوابط للحرية فى صالح المجتمع .

ان باريتو في هذا المقال ينعي حال المجتمع الايطالي ويغبط السويسريين على مجتمعهم الذي لا تعكره فوضى الاضطرابات ويضع باريتو يده على مصدر الداء في المجتمع الايطالي والمتمثل في الفوضى وعدم احترام القانون مع عدم توفر الحرية الكافية . وينادي باصلاح المجتمع الايطالي ليتبدل حاله الى افضل مما هو عليه .

الموضوع السادس

ما للاشتراكية وما عليها For and against Socialism

كان عام ١٨٩٦ عاما سيئا في ايطاليا اثر الهزيمة الساحقة للحملة الايطالية على اثيوبيا اذ تعرضت القوة الايطالية للابادة واضطر رئيس الحكومة Crispi لتقديم استقالته وساد البلاد جو عام من الاستبداد الحكومي ، وزاد تقييد الحريات الفردية وتعرض السياسيون والكتاب للاضطهاد والاعتقال وكان اغلبهم من الاشتراكيين والاحرار حيث تعاون الفريقان في مقاومة استبداد الحكومة وطغيانها مما اكسبها عطف الشعب وعطف باريتو الذي وجد فيهم المناضلين والمدافعين عن الحرية ضد الظلم وضد النزعة الحربية التي سادت ايطاليا وكانت مسئولة عن تخريب ميزانية الدولة وزيادة اعباء الفقراء .

وفي هذا الجو العام نشر باريتو مقالا في ٢٠ يونيو عام ١٨٩٦ تحت عنوان ما للاشتراكية وما عليها For and against socialism وقد قارن باريتو في تلك المقالة بين الاشتراكية المعارضة والبورجوازية الحاكمة في ايطاليا موضحا خطأ القاعدة الاقتصادية الاشتراكية على اساس ان الملكية الخاصة هي اساس التقدم الحضاري للشعوب . ولكن بالرغم من خطأ اساس الاشتراكية فان ما يذكر لها بالفضل انها التقت مع وجدان الشعب الايطالي في شكواه من ظلم وعيوب واخطاء البورجوازيين الذين يحكمون ايطاليا . اذا فشل هؤلاء البورجوازيين في تحقيق العدالة التي يأمل فيها الشعب وكانوا يرددون شعارات جوفاء لا تجد طريقها الى التنفيذ حيث تصطدم بمصالح فئات كثيرة مستفيدة من نظام الحكم السائد .

ويوجه باريتو في تلك المقالة نقده للطبقة البورجوازية كما يقدم لها نصيحة بان تعدل من اسلوبها في الحكم حتى تنتصر على الاشتراكيين وتغلق امامهم ابواب استهدار عطف الشعب وتأييده لمذهبهم .

ويضرب باريتو امثلة للبورجوازية الناجحة في سويسرا حيث يوجد بورجوازيون يستجيبون لرغبات الشعب ولهذا لا يوجد ميل شعبي نحو الاشتراكية والاشتراكيين بدليل ان الشعب السويسري يرفض في الاستفتاءات تلك القوانين التي تشوبها شبهة الاشتراكية . بينما يختلف الامر في اسبانيا حيث تجد الاشتراكية ويجد الاشتراكيون مرتعا خصبا بين صفوف الشعب بسبب ظلم البورجوازية الحاكمة .

ويوجه باريتو في هذه المقالة نقدا بناء للطبقة الحاكمة في ايطاليا اذ يظهر عيوبها موضحا الطريق السليم الذي ينبغي ان تسلكه ويفتح اعينها للمخاطر التي تتعرض لها بسبب زيادة التأييد الشعبي للاشتراكيين . كما ان باريتو لا يخفي تقديره للاشتراكيين الايطاليين الذين برزوا من بين جماهير الشعب الايطالي ليعارضوا ويقاوموا السياسة الخاطئة للحكومة ، ويطالبوا بتحقيق العدالة متحملين رد فعل الحكومة المتمثل في الاعتقال والاضطهاد .

خطر الاشتراكية

مقال منشور في جريدة الاقتصاديين في شهر مايو عام ١٩٠٠ .

مع بداية القرن العشرين ظهرت تطورات هامة في الحياة العامة للمجتمع الاوروبي والحياة الخاصة لباريتو ، وكان للملك اثره وانعكاساته الواضحة على فكر باريتو . ففي ايطاليا تم اغتيال الملك اليرتو الأول على يد احد الفوضويين الذين سمموا الحياة الايطالية في نظر باريتو . وفي انجلترا ماتت الملكة فيكتوريا في يناير ١٩٠١ . وقد صاحب هذه التطورات في القيادات العليا تطورات اخرى على مستوى الحكومات واتجاهاتها وظهور ثقل الطبقات العاملة في اوروبا . فقد حصلت هذه الطبقات العاملة working classes على مزيد من السلطة . فقد ولد حزب العمل في بريطانيا ، بينما تشكلت اول الحكومات الحرة بمساندة وتأييد الاشتراكيين في ثلاث دول هي بريطانيا وفرنسا وايطاليا .

والى جانب هذه التطورات العامة حدثت تغييرات خاصة في حياة باريتو اذ استمر ميراثه عن عمه في شراء فيلا خاصة في غابة سيلجني Celigny وعاش فيها حتى وفاته منتميا وجدانيا الى البورجوازيين ولكن مع رؤية صافية للتفاعلات الاشتراكية في المجتمع وفي تلك الواحة من واحات السلام والسكون في وسط غابات الصنوبر كان باريتو يتأمل الحياة بأعصاب باردة وان كان يشارك ويشايع الجو العام السائد حينذاك والذي يقوم على الثقة المتبادلة بين الاحرار والاشتراكيين . ومع ان باريتو كان ينظر الى الاشتراكيين من ناحية كونهم حلفاء للاحرار في الدفاع عن الحرية الا انه كان يتوجس خيفة منهم اذا ما وصلوا السلطة واستولوا عليها .

فقد حذر باريتو من ضياع الحرية في ظل الاشتراكية التي يقودها الاشتراكيون المتطرفون radical socialists اذ يفرق باريتو بين ثلاثة انواع من الاشتراكيين يذكر في مقدمتهم الاشتراكيين العلميين Scientific Socialists وهم قلة وليس لهم نفوذ سياسي ولكنهم يستحقون الاحترام لاخلاصهم في البحث عن الحقائق . ويلي هؤلاء الاشتراكيون الاورثوذكس Orthodox Socialists وهم يتمتعون بنفوذ على الساحة العملية ويعترفون فعلا بأهمية رأس المال مثلما يفعل الاقتصاديون كل ما هنالك انهم يريدون فقط ان يصبح رأس المال جماعيا وليس فرديا ثم يأتي في النهاية الاشتراكيون المتطرفون radical Socialist وهم الأكثر عددا والاقوى نفوذا والاشد خطرا على المجتمع .

ويمتدح باريتو الاشتراكيين المعتدلين . Orthodox Soc وينظر اليهم على انهم هم وحدهم الذين سيكونون في يوم ما المدافعين عن الحرية والمنقذين للمجتمع الايطالي ويعترف بفضلهم في الدفاع عن الحرية في ايطاليا ويقر بأنهم هم وحدهم الذين يطالبون باحترام القانون والدستور والذين يقاومون الحكومه التي تزور الانتخابات بأسلوب عصابات المافيا .

ومع ان باريتو يمتدح هؤلاء الاشتراكيين المعتدلين الا انه يبدي تخاوفه منهم اذا ما وصلوا الى السلطة اذ يخشى ان يضنوا على الناس بالحرية عندما ينقلون من فئة المضطهدين الى فئة الحكام .

ولم يفت باريتو في هذه المقالة ان يشن هجوما على الطبقة البورجوازية الحاكمة متهما اياها بالعجز والجبن والتقاعس في مواجهة خصومها الاشتراكيين الذين يزداد نفوذهم ويطلق باريتو لأول مرة على هذه الطبقة الحاكمة عبارة « البورجوازية الجبانة » Cowardly bourgeoisie ويحذر باريتو طبقة الحكام من ان ايطاليا في طريقها الى ثورة اقتصادية بسبب جهل وسطحية Superficialty واهمال الطبقة المالكة التي ستجردها الثورة من كل ما تملك .

ان باريتو في هذه المقالة يحذر البورجوازيين ويرفع لواء الخطر من الاشتراكية وسيادتها لنظم الحكم ، وهو يقصد بذلك الاشتراكيين المتطرفين وليس الاشتراكيين المعتدلين الذين يدافعون عن الحرية ويصونون المجتمع المتحضر وهكذا فان باريتو كما يقول عنه Bacolo مازال قلبه ينبض بنبض الحرية His heart still beat for freedom .

هل يمكن للبورجوازية ان تنهض ثانية ؟
Can the boutgeoisie rise again?

يتحسر باريتو في هذه المقالة على البورجوازية وما وصلت اليه من ضعف شديد امام الاشتراكيين الذين يكتسبون باستمرار مساحات جديدة في ساحة الرأي العام . وقد نشرت هذه المقالة في يناير ١٩٠٤ خلال فترة تميزت بالمرارة الشديدة والتشاؤم deep bitterness and pessimism الذي ترك اثره على فكر باريتو وكتاباته ودخل باريتو في مناظرات وحوار مع كتاب آخرين على صفحات الجرائد من بين هؤلاء الكتاب Prezzolini الذي كان لا يزال يأمل في معركة حاسمة قادرة على اعادة نهضة البورجوازية ومثاليات الحرية التي كانت تدافع عنها . بينما كان باريتو يرى ان الوقت قد فات وان البورجوازيين الذين كانوا من قبل تقدميين Progressivists ويعرضون افكارا جديدة عندما كانوا صفوة لم يعد لديهم جديد يقدمونه ، وانهم دخلوا في زمن الوهم وانهيارهم ، وان مكانهم سوف تحتله صفوة جديدة ناهضة من عامة الشعب ويستدل على ذلك من الفارق الكبير الذي يلاحظ في ايطاليا بين نشاط وحيوية الاشتراكيين وخمول وضعف وتراجع البورجوازيين امام خصومهم قائلا : بأن قلة من الاشتراكيين اقوياء وذوو عزيمة قد هزموا الاغلبية في البرلمان الايطالي .

وتعكس تلك المقالة فكر باريتو عن دورة الصفوة التي تبدو كحقيقة واضحة في كل المجتمعات والتي تتميز بحركة الافراد وحراكهم من الطبقة الدنيا الى الطبقة العليا الحاكمة حيث لا تدوم الارستقراطيات aristoc-racies do not Last وتزول حتما بعد فترة من الزمن . ويعتبر باريتو ان التاريخ مقبرة الارستقراطيات ويعطي امثلة لذلك من تاريخ مختلف المجتمعات البشرية كمجتمع اليونان والرومان والجرمان وغيرها كما يرى باريتو ان الاقليات لا تزول في عددها فقط ولكن في صفاتها ومميزاتها كذلك حيث تفقد تلك الاقليات قوتها Vigour ويصيبها الوهن بسبب ضعف نسبة الرواسب التي مكنتها من كسب السيطرة والسلطة وعندئذ تكون الفرصة سانحة ومواتية لصعود صفوة جديدة للحكم من بين الطبقات الادنى Lower يكون لها قوتها الخاصة ونصيبها من الرواسب او الصفات اللازمة التي تمكنها من الاحتفاظ بالسلطة والبقاء في الحكم الى ان تضعف ويحل غيرها محلها . فدورة الصفوة تكون في حالة تحول دائم كالنهر لا تبقى على حال ولا تصير اليوم على ماكانت عليه بالامس حيث يحدث من وقت لآخر تطور لنظم الحكم قد يكون هذا التطور بطيئا او قد يحدث على شكل اضطراب مفاجيء وعنيف كفيضان الانهار فتتولى مقاليد الامور صفوة حاكمة جديدة لتستقر الامور وتعود لمجراها الطبيعي والمعتاد وهكذا . .

الفاشية وتعديل النظم الدستورية
Fascism and constitutional re — orgnisation

كانت الفوضى تسود ايطاليا مما دعا ملكها الضعيف بأن يعهد الى موسوليني في اكتوبر عام ١٩٢٢ بتشكيل حكومة جديدة . وكان البعض ينظر الى الفاشية على انها

ملاذ ايطاليا ومخرجها من الاضطرابات والفوضى التي عمت البلاد .

وقبيل وصول الفاشستيين fascists الى الحكم في ايطاليا كان باريتو ناقما على الأوضاع السائدة ويقول : « انه من الصعب على شعب متمدن ان يعيش بدون قوانين وان النظام ضروري ولا غنى عنه للحياة المتمدنة المتحضرة » وكان يدعو الى قيام نظام حكم جديد في ايطاليا اما من الفاشستيين او خصومهم ، وتكون مهمة هذا النظام الجديد اعادة الاستقرار للبلاد .

وكانت تلك الافكار التي يعلنها باريتو في ذلك الوقت متمشية مع منهج الفاشية الذي يدعو الى فرض النظام وقمع اعمال الشغب والاضطرابات واعادة حكم القانون الى ايطاليا مثلما قال موسوليني Mussolini في يوليو ١٩٢٢ بأن حزبه هو حزب النظام وأنه هو الذي سيعيد النظام الذي هدمته الحكومة القائمة بضعفها وتهاونها وتركها البلاد للمشاغبين والمتظاهرين وأعداء النظام وهكذا كانت افكار الفاشية عن النظام ووجوب عودته لايطاليا وحمايته للقوة افكارا متماثلة مع افكار باريتو المعلنة قبل تولي الفاشية للحكم في ايطاليا وهذا ما دفع بعض الكتاب للقول بأن كتابات باريتو هي التي مهدت الطريق للفاشية . وذهب آخرون الى ان باريتو كان في ايطاليا بمثابة كارل ماركس الفاشية . وقد اكد موسوليني ذلك في عام ١٩٢٤ عندما ذكر ان باريتو كان اكبر مرشد له ومعلمه .

وقد ساهم باريتو في رسوخ هذا الاعتقاد لدى معارضيه عندما نشر مقالا في ٢٥ مارس عام ١٩٢٣ تحت عنوان : « الأمة » ذكر فيه ان الفاشية تحاول ان تجد حلا لمشاكل ايطاليا وان المستقبل القريب سوف يظهر عما اذا كانت ايطاليا قد دخلت عصرا جديدا أم أنها ستكرر الأخطاء القديمة التي قادت الى الفوضى . وامتدح باريتو زعيم الفاشية موسوليني ووصفه بأنه زعيم بارع ومقتدر في سياسته وان كان باريتو قد تحفظ بعض الشيء عندما قال ان الحكم على السياسة الداخلية للفاشية يعتبر امرا سابقا لأوانه وان كانت البداية طيبة وتنبيء بمستقبل سعيد لايطاليا .

غير ان باريتو لم يقف عند حد امتداح الفاشية وزعيمها وانما عبر عن خوفه من استمرار الاجراءات الاستثنائية المقيدة للحرية ولهذا طالب بأن تكون تلك الاجراءات مؤقتة ولا تستمر طويلا وان تعمل ايطاليا على حل مشاكلها الدستورية الخطرة .

وكان باريتو قد نشر تلك المقالة قبل وفاته بخمسة اشهر فقط وهذا شانت ضمن اسباب اتهامه بمشايعة الفاشية وتأييدها وهي النظام الذي قاد ايطاليا الى الحكم الدكتاتوري الاستبدادي الذي ادى في النهاية الى توريط ايطاليا في الحرب وهزيمتها واعدام زعيمها موسوليني .

كل ذلك الحق بذكرى باريتو سمعة لم تكن في صالحه وقد حاول المحبون لباريتو ان يجردوه من هذه السمعة السيئة فكانوا يؤكدون دائما ان باريتو كان محبا للحرية ومدافعا عنها وانه لو عاش بضع سنوات اخرى لكان قد غير رأيه في الفاشية وعارضها . ويستخلص Bucolo هذا الرأي ايضا من مقال آخر لباريتو كتبه قبل وفاته ولكنه نشر بعدها في ٢٥ سبتمبر ١٩٢٣ ويدور حول مستقبل تعديل النظام الدستوري في ايطاليا وقد اتضح من هذا المقال ان باريتو لا يؤيد استمرار الفاشية لدرجة تجعل Bucolo يذهب الى القول بأنه : « من الاهانة لباريتو ان يقال عنه انه كان فاشستيا fascist .

عالم الفكر - فصلية ملزمة ..

الحريـة :

كتب باريتو هذا المقال قبل وفاته بأيام قليلة معبرا عن تأييده لوضع قيود على الحرية في الظروف الاستثنائية بل لقد ذهب الى حد تبرير الدكتاتورية وتسويغها حيث كان يرى ان معنى الحرية قد أسيء استخدامه حسب وجهة نظر المتحدث عنها . واعتبر ان دكتاتورية البروليتاريا لا يتعين رفضها لمجرد انها دكتاتورية ولكن بسبب المساويء التي ترتبت عليها وعلى العكس من ذلك فان الوحدة الايطالية قد تحققت على يد دكتاتورية بورجوازية طيبة بالنظر الى آثارها الجيدة . كما ان النظام الفاشي ليس طيبا لمجرد انه دكتاتوري ولكن لأن نتائج الفاشية في ايطاليا حتى الآن كانت جيدة اذا ما قورنت بالظروف السائدة في ايطاليا قبل اكتوبر عام ١٩٢٢ خاصة في السنوات ١٩١٩، ١٩٢٠ التي تميزت بالارهاب الاحمر red tyranny الذي قاده الشيوعيون .

ومع ان باريتو قد انحاز الى الفاشية في تلك المقالة إلا انه لم يقطع بأنها ستحقق كل الخير لايطاليا في المستقبل وان كان قد رجح نتائجها الطيبة على ضوء ما شاهده فعلا في الفترة القصيرة التي عاشها في ظل الفاشية .

غير ان باريتو مات في أغسطس عام ١٩٢٣ قبل ان تظهر له مساويء الفاشية كحكم استبدادي دموي اوقع ايطاليا في الأزمات ثم الهزيمة . ولذلك ارتبطت ذكرى باريتو بذكرى الفاشية البغيضة وهذا ما حدا بالبرفسور Bucolo الى بذل جهود مضنية لكي يظهر الوجه الآخر لباريتو وهو الوجه المؤيد للحرية والدافع عنها .

ولعل Bucolo قد نجح في مهمته اذ أظهر لنا حقيقة هذا الوجه الآخر لباريتو من خلال عرض مقالاته العديدة التي استعرضنا اهمها فيما سبق .

***